



323



CORNELL UNIVERSITY LIBRARY



3 1924 063 267 607

DATE DUE

~~JAN 21 2004~~

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

OLIN

D

17

I13

1980

مِقْدَامٌ أَبْنُ خَيْلِدُونَ

لكتاب العبر وديوان المتدا والخبير في أيام العرب والعجم والبربر
ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأَكْبَر وهو تاريخ وحيد
عصره العلامة عبد الرحمن بن خلدون المغربي رحمه الله آمين



طبع على نفقة ملتزمه

عَبْدُ الرَّحْمَنِ مُحَمَّدٌ

ملتزم طبع المصحف الشريف بمصر

صاحب المطبعة البهية المصرية

بميدان الأزهر النير بمصر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يقول العبد الفقير الى رحمة ربه الغني بلطفه عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي وفقه الله تعالى

الحمد لله الذي له العزة والجبروت ويده الملك والملكوت وله الاسماء الحسني والنعوت العالم فلا يعزب عنه ما تظهره النجوى أو يخفيه السكوت القادر فلا يعجزه شيء في السموات والارض ولا يفوت أنشأنا من الارض نسما واستعمرنا فيها أجيالا وأما ويسر لنا منها أرزاقا وقسما تكتفينا الأرحام والبيوت ويكفلنا الرزق والقوت وتبلينا الأيام والوقوت وتعتورنا الآجال التي خط علينا كتابها الموقوت وله البقاء والثبوت وهو الحى الذى لا يموت والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي الأمي العربي المكنوب في التوراة والانجيل والمنعوت الذى تمخض لفصالة الكون قبل أن تتعاقب الآحاد والسبوت ويتباين زحل والهموت وشهد بصدقه الحمام والعنكبوت وعلى آله وأصحابه الذين لهم في محبة واتباعه الأثر البعيد والصيت والشمل الجميع في مظاهرته ولعدوم الشمل الشيت صلى الله عليه وعليهم ما اتصل بالاسلام جده المنحوت واتقطع بالكفر حبله المبتوت وسلم كثيرا . (أما بعد) فإن فن التاريخ من الفنون التي يتداولها الأمم والأجيال وتشهد اليه الركائب والرحال وتسمو الى معرفته السوق والأغفال وتتنافس فيه الملوك والأقوال ويتساوى في فهمه العلماء والجهال إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول تنمى فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال وتطرف بها الأندية اذاغصها الاحتفال وتؤدى اليها شأن الخليفة كيف تقلبت بها الأحوال واتسع للدول فيها النطاق والجمال ، وعمروا الارض حتى نادى بهم الارتحال ، وحان منهم الزوال ، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لتلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها وخليق ، وإن خول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدم

واتبعوها وأدوها إلينا كما سمعوها ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ولا
 رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها فالتحقيق قليل وطرف التنقيح في الغالب قليل والغلط
 والوم نسيب للاخبار وخليل والتقليد عريق في الآدميين وسليل والتطفل على الفنون عريض
 وطويل ومرعى الجهل بين الأثام وخيم وييل والحق لا يقام سلطانه والباطل يقذف بشهاب
 النظر شيطانه والناقل انما هو يئلي ويتقل والبصيرة تنقد الصحيح اذا تمقل والعلم يحلونها
 صفحات الصواب ويصقل (هذا) وقد دون الناس في الاخبار وأكثروا وجمعوا توارخ
 الأمم والدول في العالم وسطروا والذين ذهبوا بفضل الشهرة والأمانة المعتبرة واستفرغوا
 دواوين من قبلهم في مصنفهم المتأخرة م قليلون لا يكادون يعاوزون عدد الأثام ولا حركات
 العوامل مثل ابن اسحق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف بن عمر الاسدي
 والمسعودي وغيرهم من المشاهير المتميزين عن الجماهير وان كان في كتب للمسعودي والواقدي
 من المطنن والمغمز ما هو معروف عند الأثبات ومشهور بين الحفظة الثقات الا أن الكافة
 اختصتهم بقبول أخبارهم واقتضاء سننهم في التصنيف واتباع آثارهم والناقد البصير قطاس
 نفسه في تزييفهم فيما يتقلون أو اعتبارهم فللعمران طبائع في أحواله رجع إليها الاخبار وتحمل
 عليها الروايات والآثار * ثم ان أكثر التوارخ لهؤلاء عامة المناهج والمسالك لعموم
 الدولتين صدر الاسلام في الآفاق والممالك وتناولها البعيد من الغايات في التأخذ والتارك
 ومن هؤلاء من استوعب ما قبل الملة من الدول والأمم والأمر العم كالمسعودي ومن نما
 منحا وجاء من بعدم من عدل عن الاطلاق الى التقييد ووقف في العموم والاحاطة عن الشأو
 البعيد فقيده شوارد عصره واستوعب أخبار أقطه وقطره واقتصر على أحداث دولته ومصره
 كما فعل أبو حيان مؤرخ الاندلس والدولة الأموية بها وابن الرقيق مؤرخ أفريقية والدول
 التي كانت بالقيروان ثم لم يأت من بعد هؤلاء الا مقلد وبليد الطبع والعقل أو متبدل ينسج على
 ذلك المنوال ويحتذى منه بالمثل ويذهل عما أحاطه الأيام من الأحوال واستبدلت به من عوائد
 الأمم والأجيال فيجلبون الاخبار عن الدول وحكايات الوقائع في العصور الأول صوراً قد
 تجردت عن موادها وصفاحا انتضيت من أعمادها ومعارف تستنكر للجهل بطارفيها وتلاذها
 انما هي حوادث لم تعلم أصولها وأنواع لم تعتبر أجناسها ولا تحققت فصولها يكررون في
 موضوعاتهم الاخبار المتداولة بأعيانها اتباعاً لمن عني من المتقدمين بشأنها ويغفلون أمراً الأجيال
 الناشئة في ديوانها بما أعوز عليهم من ترجمانها فتستعجم مصنفهم عن بيانها ثم اذا تعرضوا
 لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقاً عافظين على نقلها وها أو صدقاً لا يتعرضون لبدائيتها ولا
 يذكرون السبب الذي رفع من رايها وأظهر من آيتها ولا علة الوقوف عند غايتها فيبقى الناظر
 متطلعا بعد الى افتقاد أحوال مبادئ الدول ومراتبها مفتشاً عن أسباب تراحمها أو تعاقبها باحثاً

عن القنع في تباينها أو تناسبها حسبما تذكر ذلك كله في مقدمة الكتاب ثم جاء آخرون بإفراط الاختصار وذهبوا الى الاكتفاء بأسماء الملوك والاختصار مقطوعة عن الأنساب والأخبار موضوعة عليها أعداد أيامهم بحروف الغبار كما فعله ابن رشيق في ميزان العمل ومن اقتنى هذا الأثر من العمل وليس يعتبر لهؤلاء مقال ولا يعد لهم ثبوت ولا انتقال لما أذهبوا من القوائد وأخلوا بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوائد (ولما طالعت) كتب القوم وسبرت غور الأئمة واليوم نهت عين القرعة من سنة الغفلة والنوم وسمت التصنيف من نفسى وأنا للفلس أحسن السوم فأنشأت في التاريخ كتابا رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا وفصلته في الأخبار والاعتبار بابابايا . وأبدت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسبابا وبنيت على أخبار الأئمة الذين عمروا المغرب في هذه الأعصار وملؤا أكناف النواحي منه والأمصار وما كان لهم من الدول الطوال أو القصار ومن سلف من الملوك والآنصار ومم العرب والبربر اذ هما الجيلان اللذان عرف بالمغرب مأواها وطال فيه على الأحقاب مشواها . حتى لا يكاد يتصور فيه ما عداها . ولا يعرف أهلها من أجيال الأدميين سواها فهذبت مناحيه تهذيبا وقربت لافهام العلماء والخاصة تقريبا ، وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا ، واخترت من بين الناحي مذهبا عجبا ، وطريقة مبتدعة وأسلوبا ، وشرحت فيه من أحوال العمران والتعمدن وما يعرض في الاجتماع الانساني من العوارض الذاتية ما عمتك بعلى الكوائن وأسبابها ، ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها ، حتى تنزع من التقليد يدك ، وتقف على أحوال من قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك (ورتبته) على مقدمة وثلاثة كتب

(المقدمة) في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع بفعالط المؤرخين

(الكتاب الأول) في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان

والكسب والعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والأسباب

(الكتاب الثاني) في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة الى هذا العهد وفيه

الاماع ببعض من عاصرهم من الأئمة المشاهير ودولهم مثل البيط والسريانيين والفرس وبنى

اسرائيل والقيبط ويونان والروم والترك والافرنجة

(الكتاب الثالث) في أخبار البربر ومن اليهم من زناتة وذكر أوليئهم وأجيالهم وما كان

لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول ثم كانت الرحلة الى المشرق لاجتلاء أنواره وقضاء

الفرس والسنة في مطافه ومزاره والوقوف على آثاره في دواوينه وأسفاره فأفدت ما قص

من أخبار ملوك العجم بتلك الديار ودول الترك فيما ملكوه من الاقطار وأتبع بها ما كتبه

في تلك الأسطار وأدرجتها في ذكر المعاصرين لتلك الأجيال من أم النواحي وملوك الأمصار

والضواحي سالكا سبيل الاختصار والتلخيص مفتتدا بالمرام السهل من العويص داخلا من

باب الأسباب على العموم الى الأخبار على الخصوص فاستوعب أخبار الخليفة استيعابا واذل من الحكم النافذة صعبا وأعطى لحوادث الدول عللا وأسبابا وأصبح للحكمة صوانا وللتاريخ جرابا (ولما كان) مشتملا على أخبار العرب والبربر من أهل المدن والوبر والاملاع عن عاصرم من الدول الكبرى وأفصح بالذكرى والعبر في مبتدأ الأحوال وما بعدها من الخبر (سميت) كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ولم أترك شيأ في أولية الأجيال والدول أو تعاصر الأمم الأول وأسباب التصرف والحول في القرون الحالية والملل وما يعرض في العمران من دولة وملة ومدينة وحله وعزة وذله وكثرة وقلة وعلم وصناعه وكسب وإضاعه وأحوال متقلبة مشاعه وبدو وحضر وواقع ومنتظر الا واستوعبت جملة وأوضحت براهينه وعلله بقاء هذا الكتاب فذا بما ضمنت من العلوم الغربية والحكم المحبوبة الغربية وأنا من بعدها موقن بالقصور بين أهل العصور معترف بالعجز عن المضاء في مثل هذا القضاء راغب من أهل اليد البيضاء والمعارف المتسعة القضاء النظر بعين الانتقاد لابعين الارضاء والتغمد لما يعمرون عليه بالاصلاح والاغضاء فالبضاعة بين أهل العلم مزجاء والاعتراف من اللوم منجاء والحسنى من الاخوان مرتجاء والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وهو حسبي ونعم الوكيل وبعد أن استوفيت علاجه وأتت مشكاته المستبصرين وأذكت سراجها وأوضحت بين العلوم طريقه ومنهاجه وأوسعت في قضاء المعارف نطقه وأدريت سياجه أنحت بهذه النسخة منه (١) خزانة مولانا السلطان الامام المجاهد

(١) قوله أنحت بهذه النسخة منه الخ وجد في نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قبل قوله أنحت وبعد قوله وأدريت سياجه ونصها التمس له الكف الذى يلحق بين الاستبصار فتونه . ويلحظ بتدراكه الشريعة معياره الصحيح وقانونه . ويميز رتبته في المعارف عما دونه فسرحت فكرى في قضاء الوجود . وأجبت نظري ليل التأم والمجود . بين التهايم والنجود . في العلماء الركن السجود . والخلفاء أهل الكرم والجود . حتى وقف الاختيار بساحة الكمال . وطافت الافكار بموقف الآمال . وظفرت أيدي المسامى والاعتمال بمنتهى المعارف مشرقة فيه غرر الجمال . وحدائق العلوم الوارفة الظلال . عن اليمن والشمال فأنحت مطى الافكار في عرصاتها . وجلوت محاسن الانظار على منصاتها . أو أنحت بديوانها مقاصير ايوانها . وأطلعت كوكبا وقادا في أفق خزانها وصوانها . ليكون آية للعقلاء يهتدون بمناره . ويعرفون فضل المدارك الانسانية في آثاره . وهي خزانة مولانا السلطان الامام المجاهد . الفاتح الماهد . الى آخر النعوت المذكورة هنا (ثم قال) الخليفة أمير المؤمنين المتركلى على رب العالمين أبو العباس أحمد بن مولانا الامير الطاهر المقدس أنى عبد الله محمد بن مولانا الخليفة المقدس أمير المؤمنين أنى يحيى أبى بكر ابن الخلفاء الراشدين من أئمة الموحدين . الذين جددوا الدين . ونهجوا السبل للمعتدين . ومحو آثار البغاة المفسدين . من المجسمة والمعتدين . سلالة أبى حمص الفاروق . والتبعة النامية على تلك المغارس الزاكية والمروق . والنور المتلألئ من نثار الأشعة والبروق فأوردته من مودعها السلى . بحيث مقر الهدى . ورياس المعارف خضرة الندى . الى آخر ما ذكره هنا الا أنه لم يقيد الامامة بالفارسية لكن النسخة

الفاتح للماهد التحلي منذ خلق التأم ولوث العائم بحلي القانت الزاهد المتوشح من زكاه المناقب
 والمحامد وكرم الشرائل والشواهد بأجل من القلائد في محور الولايد المتناول بالعزم القوى
 الساعد والجهد الموالى المساعد والجهد الطارف والتائد ذوائب ملكهم الراسى القواعد الكريم
 المعالى والمساعد جامع أشتات العلوم والفوائد وناظم شمل المعارف الشوارد ومظهر الآيات الربانية
 في فضل المدارك الانسانية بفكره الثاقب الناقد ورأيه الصحيح المعاهد النير المذاهب والعقائد
 نور الله الواضح المرشد ونعمته العذبة الموارد ولطفه الكامن بالمرصد للشدائد دور حتمه الكريمة
 العقائد التى وسعت صلاح الزمان الفاسد واستقامة المائد من الاحوال والعوائد وذهبت بالخطوب
 الاوبد وخلعت على الزمان رونق الشباب العائد ووجهته التى لا يسطلها انكار الجاحد ولا شبهات
 المعاند (أمير المؤمنين) أبو فارس عبد العزيز ابن مولانا السلطان الكبير المجاهد المقدس أمير
 المؤمنين أبى الحسن ابن السادة الاعلام من بني مرين الذين جددوا الدين ونهجو السبيل لهتدين
 وعموا آثار البغاة المفسدين أفاء الله على الأمة ظلاله وبلغه في نصر دعوة الاسلام آماله وبعثه
 الى خزانهم المرفقة لطلبة العلم بجامع القرويين من مدينة فاس حضرة ملكهم وكرسى سلطانهم
 حيث مقر الهدى ورياض المعارف خضلة الندى وفضاء الاسرار الربانية فسيح المدى والامامة
 الكريمة الفارسية (١) العزيزة ان شاء الله بنظرها الشريف وفضلها الغني عن التعريف
 تبسط له من العناية مهادا وتفسح له في جانب القبول آمادا فتوضح بها أدلة على رسوخه
 وأشهادا في سوقها تتفق بضائع الكتاب وعلى حضرتها تعكف ركائب العلوم والآداب
 ومن مدد بصائرنا المنيرة شائع القرائح والالباب والله يوزعنا شكر نعمتها ويوفر لناحظوظ
 المواهب من رحمته ويعيننا على حقوق خدمتها ويعملنا من السابقين في ميدانها المجلى في
 حومتها ويضئ على أهل اياتها وماأوي من الاسلام الى حرم عمالتها لبوس حمايتها وحرمتها وهو
 سبحانه السؤل أن يجعل أعمالنا خالصة في وجهتها بريئة من شوائب الغفلة وشبهتها وهو
 حسبنا ونعم الوكيل

﴿ المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض
 للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها ﴾

﴿ اعلم ﴾ أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية اذهو يوقنا على أحوال
 الماضين من الأمم في أخلاقهم والانبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء
 المذكورة مختصرة عن هذه النسخة المنقولة من خزانة الكتب الفاسية ولم يقل فيها ثم كانت الرحلة الى
 المرقا

(١) قوله الفارسية أى المنسوبة الى الأمير أبى فارس المتقدم ذكره اه

في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج الى ماخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن
نظر وثبت يقضيان بصاحبهما الى الحق وينكبان به عن الزلات والمغالط لأن الاخبار اذا
اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في
اجتماع الانساني ولاقيس العائب منها بالشاهد والحاضر بالناهب فربما لم يؤمن فيها من العثور
ومزلة التدمر والجبد عن جادة الصدق وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل والمغالط
في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غشا أو سمينا بغير ضوابطها على أصولها ولا قسوها
بأشباهها ولا سبورها بمعار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصرة
في الأخبار فصاروا عن الحق وتاهوا في بيداء الهمم والغلط سيما في إحصاء الأعداد من الأموال
والساكنين اذا تعرضت في الحكايات اذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر ولا بد من ردها الى
الأصول وعرضها على القواعد وهذا كما نقل السعدي وكثير من المؤرخين في جيوش بني اسرائيل
وأن موسى عليه السلام أحصاه في التيه بعد أن أجاز من يطبق حمل السلاح خاصة من ابن
سبعين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف أوزيريون ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام
اتباعها مثل هذا العدد من الجيوش لكل مملكة من الممالك حصه من الحامية تتبع
ها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها تشهد بذلك العوائد المعروفة والأحوال المألوفة ثم إن
مثل هذه الجيوش البالغة الى مثل هذا العدد بعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة
الأرض عنها وبعدها اذا اصطفت على مدى البصر مرتين أو ثلاثا أو أزيد فكيف يقتل
مدان الفريقان أو تكون غلبة أحد الصفيين وشئ من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر والحاضر
يشهد لذلك فلما قضى أشبه بالآتي من الماء بالماء (ولقد كان) ملك الفرس ودولتهم أعظم
من ملك بني اسرائيل بكثير يشهد لذلك ما كان من غلب بخت نصر لهم والتهامة بلادهم واسيلائه
علي أمرهم وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم وهو من بعض عمال مملكة فارس
سكان إنه كان مرزبان المقرب من تخومها وكانت محالكم بالعراقين وخراسان وما وراء النهر
والأبواب أوسع من ممالك بني اسرائيل بكثير ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا
العدد ولا قريبا منه وأعظم ما كانت جموعهم بالفارسية مائة وعشرون ألفا كلهم متبوع علي
ملكه سيف قال وكانوا في أتباعهم أكثر من مائتي ألف (وعن عائشة والزهرى) أن جموع
رستم التي زحف بها لسعد بالفارسية إنما كانوا ستين ألفا كلهم متبوع وأيضا فلو بلغ
مع اسرائيل مثل هذا العدد لانسع لطاق ملكهم وانفسح مدى دولتهم فإن المعاملات
والمعالك في الدول على نسبة الحامية والقبيل القاطنين بها في قلتها وكثرتها حسبا بين في فصل
ذلك من الكتاب الأول والقوم لم تقسح ممالكهم الى غير الأردن وفلسطين من الشام وبلاد
ثرب وخيبر من الحجاز على ما هو المعروف وأيضا فالدى بين موسى واسرائيل إنما هو أربعة

آباء على ما ذكره المحققون فإنه موسى بن عمران بن بصير بن قاهث بفتح الهاء وكسرها ابن
 لاوي بكسر الواو وفتحها ابن يعقوب وهو إسرائيل الله هكذا شبه في التوراة والدة بينهما على
 ما نقله السعدي قد دخل إسرائيل مصر مع ولده الأسباط وأولاده حين أتوا إلى يوسف سبعين
 نفسا وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى عليه السلام إلى التيه مائتين وعشرين سنة
 تتداولهم ملوك القط من الفراغة وبعد أن ينشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد
 وإن زعموا أن عدد تلك الجيوش إنما كان في زمن سليمان ومن بعده فبعد أيضا وليس بين
 سليمان وإسرائيل إلا أحد عشر أباً فإنه سليمان بن داود بن إيشا بن عوفيد ويقال ابن عوفد بن
 باعز ويقال يوعز بن سمون بن نحشون بن عميتود ويقال حمينا ذاب بن رم بن حصرون ويقال
 حصرون بن بارس ويقال يرس بن يهوذا بن يعقوب ولا ينشعب النسل في أحد عشر من الولد إلى
 مثل هذا العدد الذي زعموه اللهم إلى المئتين والآلاف وربما يكون وأما أن يتجاوز إلى ما بعده من
 عقود الأعداد فبعد واعتبر ذلك في الحاضر الشاهد والقريب المعروف نجد زعمهم باطلا وقلبه
 كاذبا (والذي ثبت في الأسرائيليات) أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفا خاصة وأن مقراته
 كانت ألفا وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه هذا هو الصحيح من أخبارهم ولا يلتفت إلى
 خرافات العامة منهم (وفي أيام سليمان عليه السلام وملكه) كان عنوان دولتهم واتساع ملكه
 هذا وقد تعد الكافة من أهل العصر إذا أفاضوا في الحديث عن عاكر الدول التي لهدم
 أو قريبا منه وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى أو أخذوا في إحصاء أموال
 الجبابرة وخزائن السلطان ونفقات الترفين وبضائع الأغنياء الموسرين أو غلوا في العدد وتجاوزوا
 حدود الموائد وطأوا عوا وسأوس الأغرار فإذا استكشفت أصحاب الدواوين عن عاكره
 واستنبطت أحوال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم واستجلبت عوائد المترفين في نفقاتهم لم
 تجد معشار ما يعدونه وما ذلك إلا نوع النفس بالغرابة وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على
 المنعقب والمنطق حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد ولا يطالبها في الخير بتوسط ولا عدالة
 ولا يرجعها إلى بحث وتفتيش فيرسل عنانه ويسم في مراتع الكذب لسانه ويتخذ آيات الله
 هزوا ويشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله وحسبك بها صفة خاسرة (ومن الأخبار
 الواهية للمؤرخين) ما ينقلونه كافة في أخبار القبايلة وملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا
 يغزون من قراهم باليمن إلى أفريقية والبربر من بلاد المغرب وأن إفريش بن قيس بن صبيح
 من أعظم ملوكهم الأول وكان له موسى عليه السلام أو قبله بقليل غزا أفريقية وأتخى في
 البربر وأنه الذي سماه بهذا الاسم حين سمع رطانهم وقال ما هذه البربرة فأخذ هذا الاسم
 عنه ودعوا به من حينئذ وأنه لما انصرف من المغرب حجز هناك قبائل من حمير فأقاموا
 بها واختلطوا بأهلها ومنهم صنهاجة وكنانة ومن هذا ذهب الطبري والجزباني والسعدي

وابن السكبي والبيهي الى أن ضئيلة وكثافة من حمير وتأباه لسابة البربر وهو الصحيح
 (وذكر السعدي أيضا) أن ذا الأذعار من ملوكهم قبل افريقس وكان على عهد سليمان عليه
 السلام غزا الغرب ودوخه وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده وأنه بلغ وادي الرمل
 من بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلحا لكثرة الرمل فرجع وكذلك يقولون في تبع الآخر وهو
 أسعد أبو كرب وكان على عهد بشاشف من ملوك الفرس الكيانية أنه ملك الموصل وأذربيجان
 ولقى الترك فيهمهم وأنحن ثم غزا ثانية وثالثة كذلك وأنه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بنيه بلاد
 فارس والى بلاد الصفد من بلاد أم الترك وراه النهر والى بلاد الروم فملك الأول البلاد الى
 سمرقند وقطع المفازة الى الصين فوجد أخاه الثاني الذي غزا الى سمرقند قد سبقه اليها فأنحن
 في بلاد الصين ورجعا جميعا بالغنائم وركبوا بلاد الصين قبائل من حمير فهم بها الى هذا العهد
 وبلغ الثالث الى قسطنطينية فدرسها ودوخ بلاد الروم ورجع (وهذه الأخبار) كلها بعيدة
 عن الصحة عريقة في الزمان والغلط وأشبه بأحداث القصص الموضوعة وذلك أن ملك النابغة
 إنما كان بحزيرة العرب وقرارهم وكرسيمهم بصنعاء اليمن وحزيرة العرب يحيط بها البحر من
 ثلاث جهاتها فبحر الهند من الجنوب وبحر فارس الهابط منه الى البصرة من الشرق وبحر
 السويس الهابط منه الى السويس من أعمال مصر من جهة الغرب كما تراه في مصور الجغرافيا
 فلا يجد السالكون من اليمن الى المغرب طريقا من غير السويس والمسلك هناك ما بين بحر
 السويس والبحر الشامي قدر مرحلتين فمادونهما وبعد أن يمر بهذا المسلك ملك عظيم في
 عساكر موقورة من غير أن تصير من أعماله هذا تمتع في العادة وقد كان تلك الأعمال
 العاقلة وكنعان بالشام والقيط بمصر ثم ملك العاقلة مصر وملك بنو إسرائيل الشام ولم يفلح
 قط أن التباينة طاربوا أحدا من هؤلاء الأمم ولا ملكوا شيئا من تلك الأعمال وأيضاً فالشقة
 من البحر الى المغرب بعيدة والأزودة والعلوفة للعساكر كثيرة فإذا سلخوا في غير أعمالهم
 احتاجوا الى انتهاب الزرع والنعيم وانتهاب البلاد فيما يبرون عليه ولا يكفي ذلك للازودة والعلوفة
 عادة وإن ثقلوا كفائتهم من ذلك من أعمالهم فلاتقي لهم الزواجل بنقله فلا بد وأن يبروا في
 طريقهم كلها بأعمال قد ملكوها ودوخوها لتكون الميرة منها وإن قلنا ان تلك العساكر تمر
 بهؤلاء الأمم من غير أن تهيجهم فتحصل لهم الميرة بالمشاة فذلك أبعد وأشد امتناعا فدل على
 أن هذه الأخبار واهية أو موضوعة (وأما) وادي الرمل الذي يعجز السالك فلم يسمع قط
 ذكره في المغرب على كثرة السالكين ومن يقص طريقه من الركاب والفرى في كل عصر وكل
 جهة وهو على ما ذكرناه من الغرابة تنوفر الدواعي على نقله وأما غزوم بلاد الشرق وأرض
 الترك وإن كانت طريقه أو سبغ من مسالك السويس إلا أن الشقة هنا أبعد وأهم فارس والروم
 معترضون فيها دون الترك ولم ينقل قط أن التباينة ملكوا بلاد فارس ولا بلاد الروم وإنما

كانوا يغاربون أهل فارس على حدود بلاد العراق وما بين البحرين والحيرة والجزيرة بين
دجلة والفرات وما بينهما في الأعمال وقد وقع ذلك بين ذي الأذنان منهم وكيكاؤس من ملوك
الكيانية وبين تبع الأصغر أبو كرب ويستأسف منهم أيضا ومع ملوك الطوائف بعد
الكيانية والساسانية من بعدهم بجائزة أرض فارس بالغزو إلى بلاد الترك والتبت وهو مختص
عادة من أجل الأمم المعترضة منهم والحاجة إلى الأزودة والطوائف مع بعد الشقة كما مر فلا أخبار
بذلك وأعيه مدخولة وهي لو كانت صحيحة النقل لكان ذلك قدما فيها فكيف وهي لم تنقل
من وجه صحيح وقول ابن اسحق في خير يثرب والأوس والخزرج أن تبع الآخر سار إلى
المشرق يحمل على العراق وبلاد فارس وأما بلاد الترك والتبت فلا يصح غزوهم إليها بوجه لما
تقرر فلا تنقن بما يليك من ذلك ونأمل الأخبار وأعرضنا على الفوائد الصحيحة يقع
لك تمحيصا بأحسن وجه والله المهادي إلى الصواب

(فصل) وأبعد من ذلك وأعرق في اليوم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة والفجر في
قوله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العباد) فيجعلون لفظة (ارم) اسما لمدينة
وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين وينقلون أنه كان لعاد بن عوس بن ارم ابنان هما شديد
وشداد ملكا من بعده وهلك شديد فخلص الملك لشداد ودانت له ملوكهم وسمع وصف
الجنة فقال لابن مئيل في مدينة ارم في صحارى عدن في مدة ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة
سنة وانها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف
الشجر والأنهار العذرة ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته حتى إذا كان منها على مسيرة
يوم ولبلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم ذكر ذلك الطبري والثعلبي
والزعزعي وغيرهم من المفسرين وينقلون عن عبد الله بن قلابة من الصحابة أنه خرج في
طلب ابل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه وبلغ خبره إلى معاوية فأحضره وقص عليه
فبحث عن كعب الأخبار وسأله عن ذلك فقال هي ارم ذات العباد وسيدخلها رجل من المسلمين
في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب ابل له ثم التفت
فأبصر ابن قلابة فقال هذا والله ذلك الرجل وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء
من بقاع الأرض وصحارى عدن التي زعموا أنها بقيت فيها هي في وسط اليمن وما زال عمرانه
متعاقبا والأدلاء تقص طرفة من كل وجه ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد
من الأخباريين ولا من الأمم ولو قالوا انها درست فيها درس من الآثار لكان أشبه إلا أن
ظاهر كلامهم أنها موجودة وبعضهم يقول انها دمشق بناء على أن قوم عاد ملكوها وقد
ينتهي الهديان ببعضهم إلى أنها غالية وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر مزاعم كلها أشبه
بالخرافات والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الأعراب في لفظة ذات العباد أنها

حقة إرم وحملوا العباد على الأساطين فتعين أن يكون بناء ودرج لهم ذلك قراءة ابن الزبير
 د إرم على الاضافة من غير تنوين ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالانفاصيص
 وضوعة التي هي أقرب الى الكذب المنقولة في عداد المضحكات والا فالعباد هي عماد الأخية
 الخيام وان أريد بها الأساطين فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم
 الشهر من قوتهم لأنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها وان أضيف كما في قراءة ابن
 زبير فعلى اضافة القصيدة الى القبيلة كما تقول قريش كنانة والياس مضر وربيعة نزار وأى
 ضرورة الى هذا الحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التي يتزعم
 كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة (ومن الحكايات) المدخولة للمؤرخين ما يتقوله كافة
 سبب ذكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خلفه مولاه وأنه
 كلفه بكانهما من معاقرته إياها الخمر أذن لها في عقد النكاح دون الخلوة حرصا على اجتماعها
 عليه وان العباسة تحملت عليه في الناس الخلوة به لما شقها من حبه حتى واقعها زعموا
 حالة سكر فحملت وولدت بذلك لرشيد فاستغضب وعصيات ذلك من منصب العباسة في
 بيتها وأبوها وجلالها وانها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف
 الدين وعظماء الملة من بعده والعباسة بنت محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد
 تاجدار بن علي أبي الخلفاء بن عبد الله رحمان القرآن بن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم
 بنت خليفة أخت خليفة مخوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وأمامة
 ثلة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها قرية عهد بيداة العروية وسداجة الدين
 البعيدة عن عوائد الترف ومرائع التواخش فأبى يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها أو
 أن توجد الطهارة والذكاء اذا فقد من بيتها أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس
 نرفها العربي بمولى من موالى العجم بملكة جديده من الفرس أو بولاء جددها من عمومة
 لرسول وأشرف قريش وغاية أن جذبت دولتهم بضبعه وضيع أبيه واستخلصتهم ورقتهم
 الى منازل الأشراف وكيف يسوغ من الرشيد أن يصير الى موالى الأعاجم على بعد همته
 وعظم آباءه ولو نظر التأمل في ذلك نظر النصف وقس العباسة بآلة ملك من عظماء ملوك
 زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولم
 في تكذبه وأبى قدر العباسة والرشيد من الناس وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم
 على الدولة واحتجاجهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فقلوبه
 على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد
 سببهم وعمرؤا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولاءهم وسائقهم واحتاروها عن سوام
 من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وفم يقال انه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن

لخلفه خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة
بالبناك ودفعوه عنها بالراح لئلا يكون أبهم يحيى من كفالة هرون ولى عهد وخليفة حتى شب
في حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعو به يابث فتوجه الأيثار من السلطان
اليهم وعظمت الدالة منهم وانبط الجاه عندهم وانصرفت نخوم الوجوه وخضعت لهم الرقاب
وقصرت عليهم الآمال وتخطت اليهم من أقصى النخوم هدايا اللوك وتخف الأمراء وسيرت
الى خزائهم في سبيل الزلف والاستالة أموال الجباية وأفاضوا في رجال الشيعة وعطاء القرابة
الغضا، وضيقوا الخن وكسبوا من يونات الأشراف النعم وفكوا العاني ومدحوا بماله مدح
به حليفهم وأسبوا لعقائهم الجوايز والصلوات واستوتوا على القرى والضياع من الضواحي
والأمصار في سائر الممالك حتى آسفوا البطانة وأخذوا الخاجة وأغصوا أهل الولاية فكشف
لهم وجوه المنافسة والحسد ودهت الى مبادم التوثير من الدولة عقارب السعاية حتى لقد كان
بنو فحطلة أحوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقروا في نفوسهم من الحسد
تواظفوا بهم ولا ورعهم أو اضر القرابة وفازن ذلك عند غنومهم نواهي القيرة والاستنكاف
من الحجر والنافذة وكامن الحقوق التي بعثها منهم صفائر الدالة وانتهى بها الاصرار على شأنهم
الى كبار الخالفة كفضيلهم في يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخى
محمد المهدي للقلب بالنفس الزكية الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذي استنزل الفضل بن
يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخله وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره الطبري
ودفعه الرشيد الى جعفر وجعل اعتقاله بداره والى نظره خمسة مئة ثم حملته الدالة على تحلية
سبيله والاستبدال يحيى عقاله حرماً لدماء أهل البيت برعته ودالة على السلطان في حكمه *
وسأله الرشيد عنه لما وثق به اليه فظن وقال أخلقته فأبدي له وجه الاستحسان وأسرها في
نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى تل غرشيهم وألقيت عليهم سجاوهم وخسفت
الأرض بهم وبدارهم وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين أيامهم ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير
الدولة وسيرهم وجد ذلك محققاً لا مزيد إلا سباب (وانظر) الى ما نقله ابن عبد ربه في
مفاوضة الرشيد عم حده داود بن علي في شأن نكبتهم وما ذكره في باب الشعراء من كتاب
العقد في عاورة الأسمعي للرشيد وللفضل بن يحيى في سمره تنقهم أنه إنما قتلهم القيرة
والنافذة في الاستبدال من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تخيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه
للمغنيين من الشعر احتيالا على إسماعه للخليفة وتحريك حفاظه لم وهو قوله

ليت عندا أنجزتنا ما نعد وشفت أنفسنا عما نجد

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يسند

وإن الرشيد لما سمعها قال إي والله أني عاجز حتى بعثوا بأمثال هذه كامن غيرته وسلطوا

لهم بأمر الرضا عليه السلام من غلبة الرضا وسوء الحال (وأما) ما عووه به الحكاية من
 ما قرره الرشيد الخمر واقترا ن سكره يسكر النعمان فاش لله ما علمنا عليه من سوء وأن هذا
 من حال الرشيد وقيامه بما يجب لتصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من تعجبه
 مداء والأولياء ومعاوراته للفضيل بن عياض وابن السكيت والعمري ومكاتبته سفيان الثوري
 ككاته من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقاف
 سلوا في شهود الصبح لا يؤلفها (حكي) الطبري وغيره أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة
 فلة وكان يفرغها عما ولقد زجر ابن أبي مريم مصحكا في سمره حين تعرض له
 أن ذلك في الصلاة لما سمعه يقرأ ومالي لأعبد الذي فطرنى وقل والله ما أدري لم لما تلك
 رشيد أن ضحكتم ثم التفت إليه مغضبا وقال يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضا ليالك يا لك والخرآن
 لدين ولك ما شئت بعده وأيضاً فقد كان من العز والسذاجة بمكان تقرب عبده من سلفه
 تحلين لذلك ولم يكن يده وبين حده أبي جعفر بعيد زمن أنما خلفه غلاما وقد كان أبو
 مصر بمكان من العز والدين قبل الخلافة وبعدها وهو القائل لما لك حين أشار عليه بتأليف
 وطأ يا أبا عبد الله أنه لم يبق على وجه الأرض أعلم مني ومالك وإلى قد شغلني الخلافة فضع
 أنت للناس كتابا يدفعون به كجانب فيه رخص ابن عباس وشذائد ابن عمر ووطئة للناس
 رسلته قال مالك فواته لقد علمني التمهيد يومئذ ولقد أدركته منه المهدى أبو الرشيد هذا
 هو توزع عن كسوة الحديد لبعاله من وث المال ودخل عليه يوما وهو غليظ يباشر
 جليلين في ارتقاء الخلفان من ثياب عياله فاستنكف للمهدى من ذلك وقال يا أمير المؤمنين
 عن كسوة العيال غلاما هذا من عطائي فقال له لك ذلك ولم يصد عنه ولا سمح بالاتفاق من
 بوال السرايين فبكيف يليق بالرشيد على قرب العبد من هذا الخليفة وأبوتة وما روي عليه
 من أمثال هذه السر في أهل بيته والنخلق بها أن يعاقب الخمر أو يجرع بها وقد كانت حلة
 لاشراف من العرب الجاهلية في احتساب الخمر معلومة ولم يكن الكرم شجرة بها
 خدمة عند الكثير منهم والرشيد وآباؤه كانوا على شجج من احتساب الدمومات في دنهم
 دياره والنخلق بالخدم وأوصاف السكيا وزعت العرب (وانظر) ما نقله الطبري والدمودي
 أن فصة جبريل بن جندبشوع الطيب منين أحضره السمك في مائدة فخمة معه ثم أمر صاحب
 المائدة بحمله إلى منزله ووطن الرشيد وأرتاب به ودرس خدمه حتى عييه بدونه فأتته ابن
 جندبشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك في ثلاثة أقداح خلط بعدلها باللحم لتعالج بالتوابل
 والبشون والبوارد والخلوى وحسب على الثانية ماء متلجا وعلى الثالثة خمر اصرفا * وقد في الأولي
 والثاني هذا طعام أمير المؤمنين أن خلط السمك بغيره أو لم يخلطه وتفن في الثالث هذا طعام
 ابن جندبشوع ودفعها إلى صاحب المائدة حتى إذا انقبة الرشيد وأحضره للتوبيخ أحضر الثلاثة

الاقدم فوجد صاحب الخمر قد اختلط واملع وتفتت ووجد الآخرين قد فسدا وتغيرت
 راحتهما فكانت له في ذلك معذرة وتبين من ذلك أن حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت
 معروفة عند بطائنه وأهل مائده ولقد ثبت عنه أنه عهد بحبس أبي نواس لما بلغه من اتهمهما
 في المعاقرة حتى تاب وأقبل وأما كان الرشيد يشرب نبيذ السمر على مذهب أهل العراق وقتاومه
 فيها معروفة وأما الخمر الصرفة فلا سبيل إلى إهمالها بها ولا تقليد الأخبار الواهية فيها فلم يكن
 الرجل بحيث يواقع صرما من أكبر الكناثر عند أهل الملة ولقد كان أولئك القوم كلهم بمنحاة
 من ارتكاب السرف والزرف في ملابسهم وزيهم وسائر متاولاتهم لما كانوا عليه من خشونة
 البدانة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد فما ذلك بما نخرج عن الإباحة إلى الحظر وعن
 الحلية إلى الحرمة ولقد اتفق المؤرخون الطبري والسعودي وغيرهم على أن جميع من سلف
 من خلفاء بني أمية وبني العباس إنما كانوا ركبوا بالخلية الخفيفة من الفضة في المناطق
 والسبوف والنجم والسروج وأن أول خليفة أحدث الركوب بخلية الذهب هو المعتز بن التوكل
 تلمن الخلفاء بعد الرشيد وهكذا كان حكمهم أيضا في ملابسهم فما ظنك بشمارهم وتبين ذلك
 بأنهم من هذا إذا فهمت طبيعة الدولة في أولها من البدانة والفضاضة كما نخرج في مسائل
 الكتاب الأول إن شاء الله والله الهادي إلى الصواب ويناسب هذا أوقرب منه ما يقولونه
 كافة عن يحيى بن أكرم قاضي المأمون وصاحبه وأنه كان يعاقب المأمون الخمر وأنه سكر ليلة
 مع شربه فدفن في الرغمان حتى أفنق ويشدون على لسانه

يا سيدي وأمير الناس كلهم قد جاز في حكمه من كان يسفني

أني غفلت عن السابق فصرني كما تراني سلب العقل والدين

وحال ابن أكرم والمأمون في ذلك من حال الرشيد وشراهم إنما كان النبيذ ولم يكن عطورا
 عندهم وأما السكر فليس من شأنهم وصحابة للمأمون إنما كانت خلة في الدين ولقد ثبت أنه
 كان ينام معه في البيت ونقل من فضائل المأمون وحسن عشرته أنه اتقه ذات ليلة عطشان
 فقام يتحسس ويلتمس الاناء غافا أن يوقف يحيى بن أكرم وثبت أنها كانا يصليان الصبح
 جميعا فأين هذا من المعاقرة وأيضا فإن يحيى بن أكرم كان من عليّة أهل الحديث وقد أثنى
 عليه الامام أحمد بن حنبل واسماعيل القاضي وخرج عنه الترمذي كتابه الجامع وذكر المزي
 الحافظ أن البخاري روى عنه في غير الجامع فالتدح فيه قدح في جميعهم وكذلك ما ينزهه
 الحبان بليل إلى الغمان بهتنا على الله وفرة على العلماء ويستندون في ذلك إلى أخبار القصاص
 الواهية التي لعلها من افتراء أعدائه فإنه كان مسودا في كاله وظلته للسلطان وكان مقامه من
 العلم والدين منزها عن مثل ذلك ولقد ذكر لابن حنبل ما يرميه به الناس فقال سبحانه الله سبحانه
 الله ومن يقول هذا وأنكر ذلك أنكر أشديدا وأثنى عليه اسمعيل القاضي فليل له ما كان

فقال فيه فقال معاذ الله أن تزول عدالة مثله بتكذب باغ وحاسد وقار أيضا يعني بن أكنم
أبرأ إلى الله من أن يكون فيه شيء مما كان يرمى به من أمر العلمان ولقد كنت ألق على سرائره
فأجده شديد الخوف من الله لكنه كانت فيه دعاية وحسن خلق فرمى بمارمى به وذكره ابن
حبان في الثقات وقال لا يشتغل بما عكبي عنه لأن أكثرها لا يصح عنه (ومن أمثال هذه
الحكايات) ما نقله ابن عبد ربه صاحب العقد من حديث الزبير في سبب اصهار المؤمنين إلى
الحسن بن سهل في منته بوران وأنه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد في زبيل مدلى
من بعض السطوح بمعلق ومعدل مغارة القتل من الحرير فالتصده وتناول المعلق فاهترت وذهب
اصعدا إلى مجلس شأنه كذا ووصف من زينة فرشته وتنضيد أبنيته وجمال رؤيته ما يستوقف
الطرف ويغاث النفس وأن امرأة وزت له من خلل الستور في ذلك المجلس رائعة الجمال فتاة
لحسن خيته ودعته إلى المائدة فلم يزل يعاقرها الخمر حتى الصباح ورجع إلى أصحابه بمكانهم من
تظاهرة وقد شغفته بها بعثه على الاصهار إلى أبيها وأين هذا كله من حال المؤمنين المعروفة في
دينه وعلمه وإخفائه سجن الخلفاء الراشدين من آياته وأخذه بسير الخلفاء الأربعة أركان
الامة ومناظرته العلماء وحفظه لحدود الله تعالى في صلواته وأحكامه فكيف نصح عنه أحوال
الفساق (١) المستهتر في التطواف بالليل وطروق المنازل وغشيان السمر حبيب عشاق
الأعراب وأين ذلك من منصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها وما كان يدار أيها من الصون
والعفاف وأمثال هذه الحكايات كثيرة وفي كتب المؤرخين معروفة وإنما بحث على وضعها
والحديث بها الانهماك في اللذات المحرمة وهناك قناع المخدرات ويتعالمون بالناسي بالقوم فيها
بأنونه من طاعة لدايمهم فذلك تراهم كثيرا ما يلجئون بأشياء هذه الأخبار ويتقرون عنها عند
نصفهم لا وراق السواوين ولو اتسوا بهم في غير هذا من أحوالهم وصفات الكمال اللاحقة
بهم للشهورة عنهم لكان خيرا لهم لو كانوا يعلمون ولقد عدلت يوما بعض الأمراء من أبناء
الملوك في كلفه بتعلم الغناء وونوعه بالآلات وتار وقلت له لابس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك
فقال لي أفلا ترى إلى إبراهيم بن المهدي كيف كان إمام هذه الصناعة ورئيس الغناء في زمانه
فقلت له يا سبحان الله وهلا تأسيت بأبيه أو أخيه أو ما رأيت كيف تعد ذلك إبراهيم عن
مناصبهم فقصم عن عدلى وأعرض والله يهدي من يشاء (ومن الأخبار الواهية) ما يذهب
إليه الكثير من المؤرخين والاثبات في القبيدين خلفاء الشيعة بالقيروان والفاخرة من نصهم
عن أهل البيت صلوات الله عليهم والظعن في نسبهم إلى اسمعيل الإمام ابن جعفر الصادق
يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تراغا إليهم بالقدح
فيمن تاصبهم وتفتنا في الثبات بعدوم حسبا نذكر بعض هذه الأحاديث في أخبارهم ويعملون

(١) المستهتر بالنسبة بالفتح الملوح به لا يبالى بما فعل به وشتم له والذي كثرت آباطه اه قاموس

عن النخطين لشواهد الواقعات وأدلة الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواه
والرد عليهم فانهم متفقون في حديثهم عن مبدأ دولة الشيعة أن أبا عبد الله الخنسي لما دعه
بكتامة لأرضي من آل محمد واشتهر خبره وعلم تنوعه على عبيد الله الندي واجه أبي القاسم
خشياً على أنفسهما فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا مصر وأثما خرجا من الاسكندرية
في زى التجار ونمى خبرهما الى عيسى النوشري عامل مصر والاسكندرية فخرج في طلبهما
الحياة حتى اذا أدركا خفي حالهما على تابعيها بما لبوا به من الشارة والرى فأفلتوا الى المغرب
وأن المعتضد أو عز الى الأغلبية أمراء أفريقية بالقبروان وبقي مدرار أمراء سجلماسة بأخذ
الآفاق عليهما وإذكاه العيون في طلبهما ففتر البيع صاحب سجلماسة من آل مدرار على خفي
مكائهما ببلده واعتقلهما مرشاة للخليفة هذا قيل أن تظهر الشيعة على الأغلبية بالقبروان ثم كان
بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بالمغرب وأفريقية ثم باليمن ثم بالاسكندرية ثم بمصر
والشام والحجاز وقسموا بني العباس في تلك الاسلام شق الأئمة وكادوا يلجون عليهم
مواطنهم وزابلون من أمرهم ولقد أظهر دعوتهم ببغداد وعراقها الأمير الساساني من موالي
الدين المظليين على خلفاء بني العباس في مغاضبة جرت بينه وبين أمراء العموم وخطب لهم على
منابرهما حول كاملا وما زال بنو العباس ينصرون بمكائهم ودولتهم وملوك بني أمة وراء البحر
ينادون بالويل والحرب منهم وكيف يقع هذا كله لمعنى في اللبس يكذب في الحال الأمر
واختبر حال الترمذي اذ كان دعياً في انسابه كيف ثلاث دعوتة وخرقت أبناعه وظهر
سريعا على منتهى ومكرهم فامت عاقبتهم وذاقوا وبال أمرهم ولو كان أمر العبيدين كذلك
لعرف ولو بعد ميلة

ومبدا نكن عند امرئ من خليفة وان خلفا تخفى على الناس تعلم
فقد أصابت دولتهم بخبر امن مائتين وسبعين سنة ومثلوا مقدم ابراهيم عليه السلام ومضاده
وموتوا على الرسول صلى الله عليه وسلم وموقف الحبيب ومبدا ثلاثون ثم افترض
أمرهم وشيبتهم في ذلك كله على أنه ما كانوا غاية من الطاعة لهم والحب فيهم واعتقادهم بنسب
الامام السعدي بن جعفر الصادق ولقد خرجوا مرارا بعد ذهاب الدولة ودروس أثرها داعين
الى بغيرهم هاتئين بأئسساء حبيبان من أئمتهم يزعمون استحقاقهم للخلافة ويذهبون الى
تعزيتهم بالوصية من سلف قبلهم من الأئمة ولو اربابوا في نسبهم لما ركبوا أشتاق الاستظهار في
الاستصار لهم فصارب البدعة لا يلبس في أمره ولا يشبه في بدعته ولا يكذب نفسه فيما يفتعله
(والعجب) من القاضي أبي بكر الباقلاني شيخ الفقهاء من التكلمين يخرج الى هذه المقالة
المرجوحة ويرى هذا الرأي الضعيف من كان لان لما كانت عليه من الاتحاد في الدين والتعمق
في الترابية فليس ذلك بدافع في صدر دعوتهم وليس البات منتسبهم بالذي يغني عنهم من الله

أفي كفره فقد قل تعالى لنوح عليه السلام في شأن ابنه إنه ليس من أهلك إنه محل غير
 الخ فلا تسألني ما ليس لك به علم وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة يعظها يا فاطمة اعلمي قلن
 شي عنك من الله شيأ ومعنى عرف امرؤ قضية أو استيقن أمراً وجب عليه أن يصدق به والله
 من الحق وعو يهدي السبيل والقوم كانوا في مجال لطنون الدول بهم وتحت رقبة من
 بغاة لتوفر شيعةهم وانتشارهم في القاحية بدعوتهم وتكرر خروجهم مرة بعد أخرى فلاذت
 دلائهم بالاختفاء ولم يكذبوا يعرفون كما قيل

فلو تسأل الأيام ما سمى مادرت * وأين مكاني ما عرفني مكانا

حتى لقد حي محمد بن اسمعيل الإمام جد عبيد الله المهدي بالكنية ستمته بذلك شيعةهم لما
 اتوا عليه من إخوانه منذراً من المتغلبين عليهم فتوصل شيعة بني العباس بذلك عند ظهورهم
 في الظعن في نسبهم وأزدلنوا بهذا الرأي الفاضل للمستضعفين من خلفائهم وأعجب به أولياؤهم
 وسراة دولتهم المتولون لجروهم مع الأعداء يدفعون به عن أنفسهم وسلطانهم معرة العجز
 في المقاومة والدفاع شت غلبهم على الشام ومصر والحجاز من البربر الكنايين شيعة
 السعديين وأهل دعوتهم حتى لقد أسجل القضاة ببغداد بغيرهم عن هذا النسب وشهد بذلك عندهم
 من أعلام الناس جماعة منهم الشريف الرضي وأخوه المرتضى وابن الطحاوي ومن العلماء
 أم محمد الأسفرائيني والفدوري والصعري وابن الأكفاني والبيروني وأبو عبد الله بن
 حسن فقيه الشيعة وغيرهم من أعلام الأئمة ببغداد في يوم مشهود وذلك سنة ستين وأربع مائة
 في يوم القادر وكانت شهادتهم في ذلك على السماع لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد وغلبها
 نسب بني العباس الطاعسون في هذا النسب فقلقه الأجاريون كما سمعوه ورووه حسداً وعوه
 واتي من ورائه وفي كتاب التتبع في شأن عبيد الله إلى ابن الأخطب بالتبعية وإن وابن
 من أن يجلسه أصدق شاهد وأوضح دليل على صحة نسبهم فالتفتض أقصد بنسب أهل البيت
 من كل أحد والدولة والسلطان سوقي للعالم تجلب اليه بضائع العلوم والصنائع وتلتبس فيه ضوأل
 الحكم وتعدى إليه دكانات الروايات والأخبار وما توفق فيها توفق عند الكفاية فإن تزهت الدولة
 عن التعسف واليلق والأفئ والفسفة وسلكت النهج الأئمة ولم تجر (١) عن قصد السبيل
 فوق في سوقها الأبريز الخالص والنجين النقي وإن ذهبت مع الافتراض والحقود وما جئت
 بدمرة البقي والباطل نقى المهرج والزائف والناقد البصير قسطاس نظره وميزان بحته
 ومتمسه (ومثل هذا) وأبعد منه كثير ما يتقاضي به الطاعنون في نسب إدريس بن إدريس
 ابن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين الإمام بعد

١٧١ قوله ولم تحر بغير الجيم معارض جبر أي لم تقل له

أبيه بالمغرب الأقصى ويعرضون تعريض الحد بالنظن في الحل الخلف عن ادريس الأكبر
لراشد مولاهم فحبهم الله وأبعدهم ما أحبهم أما يعلمون أن ادريس الأكبر كان أصبارة في البر
وأند منذ دخل المغرب إلى أن توفاه الله عز وجل عريق في البدو وأن حال البداية في مثل ذلك
غير خافية إذا ما كان لهم ينأى فيها الريب وأحوال حرمهم أجمعين يترأى من جيرانهم ومسجد
من جيرانهم اتلاصق الجدران وتطامن البيات وعدم الفواصل بين المساكن وقد كان راشد توة
خدمة الحرم أجمع من بعد مولاهم بمشهد من أوليائهم وشيعتهم ومراقبة من كافيتهم وقد اتفق برابر
المغرب الأقصى عامة على بيعه ادريس الأصغر من بعد أبيه توة طاعتهم عن رضا وإصفاق وباعوه
على الموت الأصغر وخاضوا دونه بخار المنايا في حروبه وغزواته ولو حدثوا أنفسهم بمثل هذه الريب
أو قرعت أسباعهم ولو من عدو كاشع أو منافق مراتب الخلف عن ذلك ولو بعضهم كلا والله إذ
صدرت هذه الكلمات من بنى العباس أوتاهم ومن بنى الأغلب محالهم كانوا بأفريقية وولاهم وذلك
أنه لما فر ادريس الأكبر إلى المغرب من وقعت بخر أو عز الهادي إلى الأغلبية أن يتعد والله بالمراد
ويذكروا عليه العيون فلم يظفروا به وخلص إلى المغرب فتم أمره وظهرت دعوته وظهر الرشيد
بعد ذلك على ما كان من واضح مولاهم وعاملهم على الإسكندرية من دسيسة الشيعة العلوية وأدعاه
في نجاة ادريس إلى المغرب فقتله ودس الشجاع من موالي أبيه التحيل على قتل ادريس فأخذ
اللاحق به والبراءة من بنى العباس مواليه فاشتمل عليه ادريس وخطبه بنفسه وناول الشجاع في بعض
خلفائه ساء السهم له به ووقع خبر مهلكه من بنى العباس أحسن المواقع لما رجوه من قطع أسباب
الدعوة العلوية بالمغرب واقتلاع جرتومتها ولما نادى إليهم خبرا الحل الخلف لادريس فلم يكن له
الأكلا ولا إذا بالدعوة قد عادت والشيعة بالمغرب قد ظهرت ودولتهم بادريس بن ادريس قد تجددت
فكان ذلك عليهم أنكى من وقع السهام وكان الفشل والهزم قد نزل بدولة الغرب عن أن يسمو
إلى القاصية فلم يكن منتهى قدرة الرشيد على ادريس الأكبر بتكاته من قاصية المغرب واشتمال البر
عليه التحيل في إهلاكه بالسموم فعند ذلك فرعوا إلى أوليائهم من الأغلبية بأفريقية في سدد
تلك الفرجة من ناحيتهم وحسم الداء المتوقع بالدولة من قبلهم واقتلاع تلك العروق قبل أن
تشيع منهم يخاطبهم بذلك المأمون ومن بعده من خلفائهم فكان الأغلبية عن برابرة المغرب
الأقصى أعجز ومثليا من الزبون على ملوكهم أحوج لما طرق الخلافة من ارتقاء ممالك العجم على
سندنها وامتطائهم صهوة التغلب عليها وتصريفهم أحكامها طوعا وأغراضهم في رجالها وجانيها وأهل
خطتها وسائر تقضيها وإبرامها كما قال شاعرهم

خليفة في قفص * بين وضيع وينا

يقول تافلا له * كما تقول البيضا

نحشى هؤلاء الأمراء الأغلبية بواذر السعيات وتلوا بالهذير فظورا باحتقار المغرب وأهلها

وظورا بالأرهاب بشأن ادريس الخارج به ومن قم مقامه من أعقاب غاشبونهم يتجاوزوه
 حدود التجوم من عمله وينفذون سكرته في تحفهم وعداياه ومرافق جناباتهم تعريضا باستفحاله وتبويلا
 باشتداد شوكرته وتعظيما لدفعوا اليه من مخالفته ومراسه وتهديدا بقلب الدعوة ان ألجوا اليه
 وطلورا يطعنون في نسب ادريس يمثل ذلك الطعن الكاذب تخفيضا لشأنه لا يبالون بصدقه من
 كذبه لبعده السافة وأفن عقول من خلف من صبية بني العباس ومخاليتهم العجم في الشبوت من
 كل قائل والسمع لكل تاعق ولم يزل هذا دأبهم حتى انقضى أمر الأتالة فقرعت هذه الكلمة
 السماع أسمع الفوعة وحسر عليها بعض الطاعين أذنه واعتدها ذريعة الى النيل من خلفهم عند
 النافذة ومنهم فبحم الله والعدول عن مقاصد الشريعة فلا تعارض فيها بين مقتضوع والمقتضون
 وادريس ولد علي فراش أبيه والولد للقراش على أن تنزيه أهل البيت عن مثل هذا من عقائده
 أهل الأمان بالله سبحانه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا لقراش ادريس ظاهر من النجس
 ومنزه عن الرجس بحكم القرآن ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء بأعنه وويل السكفر من بابه وانما
 طنبت في هذا الرد سدا لأبواب الرب ودفعوا في صدر الحاسد لما سمعته أذناني من قائله المعتدى عليهم
 به القادح في نسبهم بقريته وينقله عن عمه عن بعض مؤرخي المغرب ممن اعترف عن أهل البيت وارتاب
 في الأمان بسلفهم والأفان منزه عن ذلك معصوم منه ونقي العيب حيث يستحيل العيب عيب
 الكني جادلت عنهم في الحياة الدنيا وأرجو أن يعادلوها عني يوم القيامة (ولتعلم) أن أكثر
 الطاعنين في نسبهم اتهم الحسنة لأعقاب ادريس هذا من منتم الى أهل البيت أو دخل فيهم فإن
 ادعى هذا النسب الكريم دعوى شرف عريض على الأئمة والأجيال من أهل الأفاق فتعرض
 البهجة فيه ولما كان نسب بني ادريس هؤلاء بمواظبتهم من فاس وسائر ديار المغرب قد بلغ من الشهرة
 والوضوح مبلغا لا يكاد يلحق ولا يطمع أحد في دركه اذ هو نقل الأئمة والجيل من الخلف عن
 الأئمة والجيل من السلف وبيت جدم ادريس غنط فاس ومؤسسيها بين بيوتهم ومسجده لصق
 علمهم ودروهم وسبقه منتضى برأس المأذنة العظمى من فرار بلدم وغير ذلك من آثاره التي
 حاورت أخبارها حدود التواتر مرات وكادت تلحق بالعيان فإذا نظر غيرهم من أهل هذا النسب
 الى ما آتاهم الله من أمثالها وما عتد شرفهم النبوي من جلال الملك الذي كان لسلفهم بالمغرب
 واستيقن أنه بمنزل عن ذلك وأنه لا يبلغ مد أحدهم ولا تصيفه وأن غاية أمر المتيمين الى البيت
 الكريم ممن لم يحصل له أمثال هذه الشواهد أن يسلم لهم حالهم لأن الناس مصدقون في أنسابهم
 ويون ما بين العلم والظن واليقين والتسلم فإذا علم ذلك من نفسه غص برقة وود كثير منهم
 ليردوهم عن شرفهم ذلك سوقا ووضعاء حسدا من عند أنفسهم فيرجعون الى العناد وارتكاب
 التاجاج والبهت يمثل هذا الطعن الفائق والقول المكذوب تعللا بالمساواة في الظنة والشبهة
 في تطرق الاحتمال وهبهات لهم ذلك فليس في المغرب فيما نعلم من أهل هذا البيت الكريم من يبلغ

في صراحة تبهه ووضوحه مبالغ أعقاب ادريس هذا من آل الحسن وكبر لؤم لهذا العيد بنو عمران
 بناس من ولد يحيى الخوطين بن محمد بن يحيى العموم بن القاسم بن ادريس بن ادريس ومقتضا أهل
 البيت هناك والساكنون بيت جده ادريس ولهم البادة على أهل المغرب كافة حسبان ذكرهم عند
 ذكر الادارسة ان شاء الله تعالى (ويلحق) بهذه النقابات الفاسدة والمذاهب الفائلة ما يغفلوا ضعفه
 الرأي من غشاه المغرب من الفدح في الامام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته الى الشعوذة
 والنميس فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق واتبع على أهل البغي قبله وتكذيبهم لجميع مدعياته في
 ذلك حتى فيما يزعم الموحسون أتباعه من انسابه في أهل البيت وانما حمل الفقهاء على تكذيبه
 ما كان في غيبيهم من حسده على شأنه فانهم لما رأوا من أنفسهم مناهضة في العلم والفتا وفي
 الدين بزعمهم ثم امتاز عنهم بأنه منبوع الرأي مسبوع القول موطأ العقب تنموا ذلك عليه
 وغضوا منه بالتدح في مذاهبه والتكذيب لمدعياته وأبضا فكانوا يؤنسونه من ملوثة متونة
 أعدائه تجلوه وكرامة لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من السذاجة والنعاج البليهة فكان
 الحيلة العلم بدولتهم مكن من الوخاذه والاضراب الشورى كفى في يده وعلى يده في قومه فأصبحوا
 بذلك شيعه لهم وحربا لعدوه ونقموا على المهدي ما جاء به من خلافهم والتربيت عليهم والناسية
 لهم تشيعا بالمتونة ونقصا لدولتهم ومكان الرجل غير مكانهم وحاله على غير معتداتهم وما ظنك
 برجل ثم على أهل الدولة ماظم من أحوالهم وخلف اجتهد فقهاء فدادي في قومه ودعا الى
 جهادهم بنفسه فاقبلت الدولة من أصولها وجعن عالها سافلها أعظم ما كانت قوة وأشد شوكة
 وأعز أنصارا وحامية وتساقتت في ذلك من أتباعه نفوس لا خصيا الا خالفها قد باعوه على
 الموت ووقوفه بأنفسهم من الملكة وتقربوا الى الله تعالى باتلاف مبعثهم في إظهار تلك الدعوة
 والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكرم ودالت بالمدينين من الدول وهو بخالة من التقصف
 والحصر والصبر على الشكارة والقتل من الدنيا حتى قبضه الله وليس على شيء من الحظ والمتاع في دنياه
 حتى الولد الذي رجحا تخرج اليه النفوس وتخلد عن تمزيه قلبه شعري ما الذي فسد بذلك ان لم يكن
 وجه الله وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم أمره
 وانضحت دعوته سنة الله التي قد خلقت في عباده (وأما) انكارهم نسب في أهل البيت فلا تعضده حجة
 لهم مع أنه إن ثبت أنه ادعاه وانسب اليه فلا دليل يقوم على بطلانه لأن الناس مصدقون في أنسابهم وان
 قالوا ان الرياسة لا تكون على قوم في غير أهل جلدتهم كما هو الصحيح حسبان في الفصل الأول من هذا
 الكتاب والرجل قدر رأس سائر المصاكمة ودانوا باتباعه والاثبات اليه والى عصابته من هرغة حتى
 تم أمر الله في دعوته فاعلم أن هذا النسب الفاطمي لم يكن أمر المهدي يتوقف عليه ولا تبعه الناس
 بسببه وانما كان اتباعهم له بعصبية الهرغبة والسمودية ومكانه منها ورشح شجرته فيها وكان
 ذلك النسب الفاطمي خفيا قد درس عند الناس وبقي عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم فيكون

النسب الأول كأنه انسلخ منه وليس حيلة هؤلاء وظهور فيها فلا يضره الانتساب الأول في عصبته
 اذ هو يعيول عند أهل العصابة ومثل هذا واقع كثير اذ كان النسب الأول حنيا (وانظر) قصة عرجة
 وجري في رياسة بجيلة وكيف كان عرجة من الأزد وليس حيلة حتى تنازع مع جري رياستهم
 عند عمر رضي الله عنه كما هو مذکور تفهيمه وجه الحق والله الهادي للصواب (وقد) كدنا أن
 نخرج عن غرض الكتاب بالانساب في هذه المغالط فقد زلت أقدام كثير من الأسمات والمؤرخين
 الحفاة في مثل هذه الأحاديث والآراء وعلقت بأفكارهم ونفلباعهم الكاف من ضعف النظر والفتنة
 عن القياس وتلقوا هام أيضا كذلك من غير بحث ولا روية واندرجت في محفوطاتهم حتى صار في التاريخ
 وأهيا غلطًا وناظره من تكو عدم من مناحي العامة فلا يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة
 وطبائع الملوحدات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنسب
 والمذاهب وسائر الأحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ومثالة ما بينه وبين الغائب من التوفيق أو بون
 ما بينهما من الخلاف وتعليل التفرق منها والاختلاف والقيام على أصول الدول والمملوك ومبادئ ظهورها
 وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حدث
 واقصا على أصول كل خير وحينئذ يعرض خبر المثلث على ما عنده من القواعد والأصول فإن وافقها
 جرى على مقتضاها كان صحيحا وإلا رينه واستغنى عنه وما استكبر القدماء عن التاريخ إلا ذلك حتى
 انتحل الطبري والبخاري وابن اسحق من قبلها وأمثالهم من علماء الأئمة وقدماء الكثير من هذا
 السرفه حتى صار اعتداله محبوقا استخف العوام ومن لا رسوخ في المعارف مطالعته وحملوا الحوض
 به والتفتل عليه فاختلط المرعى بالهمم والباب بالشر والصادق بالكاذب وإلى الله عاقبة الأمور
 (ومن الغلط) الحق في التاريخ الخالدهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأحوال بتبدل الأعصار و مرور
 الأيام وهو داء دوي شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يفتطن له إلا الآحاد من أهل
 الحليقة (وذلك) أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم وتعليمهم لا تدوم على وثيرة واحدة ومنهاج
 مستقر إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال وكما يكون ذلك في الأشخاص
 والأوقات والأمصا فكذا يقع في الأفق والأقطار والأزمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عباده
 وقد كانت في العالم أم الفرس الأولى والسرانيون والبيط والتباينة وبنو اسرايل والقبط وكانوا
 على أحوال خاصة بهم في دولهم وممالكهم وسياستهم ومناعمهم ولقائهم واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم
 مع أبناء جنسهم وأحوال اعتبارهم في العالم تشهد بها آثارهم ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب
 فتبدلت تلك الأحوال وانقلبت بها العوائد إلى ما يحاسبها أو يشاهاها وإلى ما يباينها أو يباعدها ثم
 جاء الاسلام بدولة مضر فاضلقت تلك الأحوال أجمع انقلابا أخرى وصارت إلى ما أكثره متعارف
 لهذا المهد يأخذه الخلف عن السلف ثم درست دولة العرب وأيامهم وذهبت الأسلاف الذين شيدوا
 عزهم ومهدوا مملكتهم وصار الأمر في أيدي سواهم من العجم مثل الترك بالشرق والبربر بالمغرب والفرنجية

بالشمال فذهبت بذهابهم أم وانقلب أحوال وعوا الدنسى شأنها وأغفل أمرها (والسبب) الشائع في
تبدل الأحوال والعوا أن عوائد كل جيل تابعة لعوا السلاطنة كما يقال في الأمثال الحكيمية الناس على
دين الملك وأهل الملك والسلطان إذا استولوا على الدولة والأمر فلا بد أن يضربوا إلى عوا الدن من قبلهم
ويأخذوا الكثير منها ولا يغفلوا عوا الدجيليم مع ذلك فيقع في عوا الدن دولة بعض المخالفة لعوا الدجيل
الأول فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومن جت من عوا الدن وعوا الدن مخالفت أيضا بعض الشيء
وكانت الأولى أشد مخالفة لهم لا يزال التدرج في المخالفة حتى ينتهي إلى المباشرة بالجملة فمادت الأمم والأحوال
تتعاقب في الملك والسلطان لا يزال المخالفة في العوا الد والأحوال واقعة والقياس والمحاكاة للإنسان
طبيعة معروفة ومن الغلط غير مأمونة تخرجه مع الدهول والخلة عن قصده وتخرج به عن مراده فربما
يسمع السامع كثير من أخبار الماضين ولا يتخطن لما وقع من تغير الأحوال وأحوالها فيجري بها لا ونوهة
على ما عرف وقيسها بما شهد وقد يكون الفرق بينها كثير افتتح في بيوة من الغلط (فمن هذا الباب)
ما ينقله المؤرخون من أحوال الحجاج وأن أباه كان من المعلمين مع أن التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع
المعاشية البعيدة من اعزاز أهل العصبية والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجضم (١) فيتشوف الكثير
من المستضعفين أهل الحرف والصنائع المعاشية التي نيل الرتب التي ليسوا لها بأهل ويعدونهم من المكنت
لهم فتذهب بهم وساوس النظام وربما تقطع حبلهم من أيديهم فسقطوا في بيوة الهلكة والتلف
ولا يعمون استحالتها في حقهم وأنهم أهل حرف وصنائع المعاش وأن التعليم صدر الاسلام والدولتين
لم يكن كذلك ولم يكن العلم بالجملة صناعة أمّا كان نقلا لما سمع من الشارع وتعليلها جيل من الدين
على جهة البلاغ فكان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملّة الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه
صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخيري لا على وجه التعليم الصناعي اذ هو كتابهم المنزل على الرسول
منهم وبه هدايتهم والاسلام دينهم فالتوا عليه وقتلوا واختصوا به من بين الأمم وشرفوا فيحرصون
على تبليغ ذلك وتفسيره للامة لا تصدم عنه لائمة الكبر ولا يزعمهم غايل الأثرة ويشهد لذلك بعث
النبي صلى الله عليه وسلم كبار أصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الاسلام وما جاء به من شرائع
الدين بعث في ذلك من أصحابه العشرة فمن بعدهم فما استقر الاسلام وشجعت عروق الملّة حتى تناو لها
الأمم البعيدة من أيدي أهلها واستحالت بمرور الأيام أحوالها وكثرت استنباط الأحكام الشرعية من
النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها فاحتاج ذلك لقانون يخففه من الخطا وصار العلم ملكة يحتاج الى
التعلم فأصبح من جملة الصنائع والحرف كما يأتي ذكره في فصل العلم والتعليم واشتغل أهل العصبية
بالقيام بالملك والسلطان فدفع للعلم من قام به من سوام وأصبح حرفة للمعاش وشمخت أنوف
الترفين وأهل السلطان عن التصدي للتعليم واخص استحالته بالمستضعفين وصار منتحلة معتبرا عند
أهل العصبية والملك والحجاج بن يوسف كان أبوه من سادات ثقيف وأشرافهم ومكانهم من عصبية

(١) قوله الجضم هو الأصل اه قاموس

العرب ومناهضة قريش في الشرف ما علمت ولم يكن تعليمه للقرآن على ما هو الأمر عليه لهذا العهد من أنه حرفة للمعاش وإنما كان على ما وصفناه من الأمر الأول في الإسلام (ومن هذا الباب) أيضا ما يتوهمه المتصفحون لكتب التاريخ إذا سمعوا أحوال التضاد وما كانوا عليه من الرياسة في الحروب بقود العساكر فتراعى بهم وسالوس المهمل إلى مثل تلك الرتب يحسبون أن الشأن في خطة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل ويظنون بأن أي عامر صاحب هشام المستبد عليه وابن عباد من سوك الطوائف باستبيلية إذا سمعوا أن آباءهم كانوا قضاة أنهم مثل القضاء لهذا العهد ولا يفتنون لما وقع في رتبة القضاء من مخالفة العوائد كما نبينه في فصل القضاء من الكتاب الأول وابن أي عامر وابن عباد كانوا من قبائل العرب القاطنين بالدولة الأموية بالأندلس وأهل عصبيتها وكان مكاتبهم فيها معلوما ولم يكن ينظم لما نافوه من الرياسة وذلك بخطة القضاء كأي لهذا العهد بل إنما كان القضاء في الأمر عديم لأهل (١) العصبية من قبل الدولة ومواليها كأي أوزارة لعبدنا بالغرب والظر خروجهم لعاكر في الطوائف وتقليد عظم الأمور التي لا تقبل الأمن نهالفي فيها بالعصبية فيلطف لاسمع ذلك ويحمل الأحوال على غير ما هي وأكثر ما يقع في هذا الغلط اعتناء البصائر من أهل الأندلس لهذا العهد لتفقدان العصبية في مواضعهم منذ أعصار بعيدة لفناء العرب ودولتهم بها وخروجهم عن ملكة أهل العصبية من البربر فبقيت أساليب العربية عضوطة والدرية إلى العز من العصبية والتناصر معمودة بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبدوا القهر ورغموا للمذلة يحسبون أن أساليبهم مع اللطافة الدولة هي التي يكون لهم بها التغلب والتحكم فتجد أهل الحرف والصنائع منهم متصددين لذلك ساعين في قبيلة فأما من باشر أحوال القبائل والعصبية ودولهم بالعدوة الغربية وكيف يكون التغلب بين الأمم والمشائر قلما يفتشون في ذلك ويخطئون في اعتباره (ومن هذا الباب) أيضا ما يسلكه المؤرخون عند ذكر الدول ونسب ملوكها فيذكرون اسمهم ونسبه وأباهم وأمه ونسبه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره كل ذلك تقليد لمؤرخي الدولتين من غير تفطن لقاصدهم والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضمنون نوارخهم لأهل الدولة وأبنائها متشوقون إلى سير أسلافهم ومعرفة أحوالهم ليقنعوا بأنهم وينسجوا على منوالهم حتى في اصطلاح الرجال من خلف دولتهم وتقليد الخطط والراتب

(١) العصبية بتعنين التعصب وهو أن يذب الرجل عن حريم صاحبه ويشعر عن ساق الجد في نصره منسوبة إلى العصبية بحركة وهم أقارب الرجل من قبل أبيه لأنهم هم القابضون عن حريم من هو متهم وهي بهذا المعنى ممدوحة وأما العصبية المذمومة في حديث الجامع الصغير ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية فهي تعصب رجال قبيلة على رجال قبيلة أخرى لغبر ديانة كما كان يقع من قيام سعد على حرام نسبة إلى العصبية بمعنى قوم الرجل الذين ينصبون له ولو من غير أقاربه فبالا كان أو مظلوما وفي الفتاوى الخيرية من موافق قبول الشهادة بالعصبية وهي أن يفتش الرجل الرجل لأنه من بني فلان أو من قبيلة كذا والوجه في ذلك ظاهر وهو أن كتاب المحرم في الحديث ليس منا من دعا إلى عصبية وهو موجب للنسق ولا شهادة لمركبه قاله الأستاذ أبو الوفاء اهـ

لأبناء سنانهم وذويهم والقضاة أيضا كانوا من أهل عصبية الدولة وفي عداد الوزراء كذا كراه لك
 فيحتاجون إلى ذكر ذلك كله وأما حين تباينت الدول وتباعد ما بين العصور ووقف الغرض على
 معرفة الملوك بأنفسهم خاصة ونسب الدول بعضهم بعض في قوتها وغلبتها ومن كان يناهضها من
 الأمم أو يعصر عنها فما الفائدة للمصنف في هذا العهد في ذكر الأبناء والنساء ونسب الخاتم واللقب
 والقاضي والوزير والحاجب من دولة قديمة لا يعرف فيها أصولهم ولا أنسابهم ولا مقاماتهم إنما حملهم
 على ذلك التقليد والعفة عن مقاصد المؤلفين الأقدمين والذهول عن تحري الأغراض من التاريخ
 اللهم إلا ذكر الوزراء الذين عظمت آثارهم وعفت على الملوك أخبارهم كالحجاج وبنو المهلب والبرامكة
 وبنو سهل بن لوحي وكافور الأخشيدي وابن أبي عامر وأمثالهم فغير تكثير الأسماء بأبائهم والاشارة إلى
 أحوالهم لا نظامهم في عداد الملوك (ولندكر) هنا فائدة نخدم كلامنا في هذا الفصل بها وهي أن
 التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل (فأما) ذكر الأحوال العامة للأقاي والأكابر
 والأعيان فهو أسلم للمؤرخ تنبئ عليه أكثر مقاصده وتبين به أخباره وقد كان الناس يزدرونه
 بالتأليف كما فعله السعدي في كتاب مروج الذهب شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهدده في
 عصر الثلاثين والثلاثمائة غربا وشرقا فلو ذكر نخلهم وعوائلهم وصف البلدان والجبال والبحار والممالك
 والدول وافرقت شعوب العرب والعجم فصار إماما للمؤرخين يرجعون إليه وأصله يمولون في تحقيق
 الكثير من أخبارهم عليه ثم جاء البكري من بعده فعمل مثل ذلك في المسالك والممالك خاصة دود
 غير هامن الأحوال لأن الأمم والأجيال لعهدده لم يقع فيها كثير انتقال ولا عظم تغير وأما هذا العهد
 وهو آخر المائة الثامنة فقد اختلفت أحوال المغرب الذي نحن شاعده وتبدلت بالجملة واعتاض من
 أجيال البربر أهله على القدم من طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كبر وهو غلبهم
 وانزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان ملكهم هذا إلى منازل العمران شره
 وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجبل
 وطوى كثيرا من عمارات العمران وعماها وجاء للدول على حين هربها وبلغ الغاية من مداها
 فقلص من خلالها وقل من جدها وأوهن من سلطانها وتداغت إلى التلاشي والأضمحلال أحوالها
 وانتقص عمران الأرض بانتفاص البشر فخربت الأمصار وانصاع ودرست السبل والمعالم وقلت
 البيادر والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأني بالشرقي قد تنزل به مثل منازل المغرب
 لكن على تدينه ومقدار عمرانه وكأنا نادى لسان الكون في العالم بالتحول والانتقاض فبادر بالإجابة
 والله وارث الأرض ومن عليها وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العاة
 بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة متأنفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة
 والآفاق وأجيالها والعوائل والنحل التي تبدلت لأهلها ويقفون مسلك الأمم ودونهم ليكون أصلا
 يقتدي به من يأتي من المؤرخين من بعده (وأنا ذا كر) في كتابي هذا ما أمكنتني منه في هذا القطر

المغربي اما صريحا او مندرجا في اخباره وتلويحا لا اختصاص قصدي في التأليف بالمغرب و احوال آجياله
 و أممه و ذكر بحال كده و دوله دون ما سواه من الاقطار لعدم اطلاعني على احوال المشرق و أممه و أن
 الاخبار المتناقضة لا توفي كنهها أریده منه و المسعودی انما استوفى ذلك بعد رحلته و تقلبه في البلاد كما
 ذكر في كتابه مع أنه لما ذكر المغرب قصر في استيفاء احواله و فوق كل ذي علم و مراد العلم كله الى
 الله و البشر عاجز قصير و الاعتراف مشعين واجب و من كان الله في عون تيسرت عليه المذاهب و انجحت
 له المساعي و المطالب (و نحن) آخذون بعون الله في ما من أغراض التأليف و الله المسدد و العین و عليه
 التمسك ان (وقد) بقى علينا أن نقدم مقدمة في كيفية وضع الحروف التي ليست من لغات العرب اذا
 عرضت في كتابنا هذا (العلم) أن الحروف في النطق كما يأتي شرحه بعد هي كيفيات الأصوات الخارجة
 من الحجر تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللبابة و أطراف اللسان مع الحنك و الحلق و الأنف و الراس
 أو بقرع الشفتين أيضا فتتغير كيفيات الأصوات بتغير ذلك القرع و تنجيء الحروف متمايزة في السمع
 و تتركب منها السكيات الدالة على ما في الضمائر و ليست الأمم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف فقد
 يكون لامة من الحروف ما ليس لامة أخرى و الحروف التي نطق بها العرب هي ثمانية و عشرون حرفا
 كما عرفت و نجد للعبرانيين حروفا ليست في لغتنا و في لغتنا أيضا حروف ليست في لغتهم و كذلك الافرنج
 و الترك و البربر و غير هؤلاء من العجم ثم ان أهل الكتاب من العرب اصطلاحوا في الدلالة على حروفهم
 المسموعة بأوضاع حروف مكتوبة متميزة بأشخاصها كوضع ألف و باء و جيم و راء و ضاء الى آخر الثمانية
 و العشرين و اذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقى مهمل عن الدلالة الكتابية مغفلا عن
 البيان و ربما رسم بعض الكتاب بشكل الحرف الذي يليه من لغتنا قبله أو بعده و ليس ذلك بكاف في الدلالة
 بل هو تمييز للحرف من أصله و لما كان كتابنا مشتملا على أخبار البربر و بعض العجم و كانت تعرض
 لنا في أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابنا و لا اصطلاح أو ضاعتنا اضطررنا الى بيانه
 ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما قلناه لانه عندنا غير واف بالدلالة عليه فاصطلحت في كتابي
 هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه ليتوسط القاري بالنطق
 به بين مخرجي ذينك الحرفين فتحصل تأديته و انما اقتبست ذلك من رسم أهل المصحف حروف
 الأسماء كالصراط في قراءة خلف فان النطق يصاحبه فيها معجم متوسط بين الصاد و الزاي فوضعوا
 الصاد و رسموا في داخلها شكل الزاي و ذلك عندنا على المتوسط بين الحرفين فكذلك رسمت
 أنا كل حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا كالسكاف المتوسط عند البربر بين السكاف الصريح
 عندنا و الجيم أو القاف مثل اسم بلسكين فأضعبها كالف أو أقطبها بنقطة الجيم واحدة من أسفل أو بنقطة
 القاف واحدة من فوق أو نثنين فيدل ذلك على أنه متوسط بين السكاف و الجيم أو القاف و هذا الحرف
 أكثر ما يجيء في لغة البربر و ما جاء من غيره فعلى هذا القياس أضع الحرف المتوسط بين حرفين من
 لغتنا بالحرفين معا ليعلم القاري أنه متوسط فينطق به كذلك فنكون قد دللنا عليه و لو وضعناه برسم

الحرف الواحد عن جانبه لكنا قد صرنا من غرضه الى غرض الحرف الذي من لغتنا وغيرنا لغة
النوم فاعلم ذلك والله الموفق للصواب بمته وفضله

الكتاب الأول في طبيعة العمران في الخلق وما يعرض فيها من البدو والحضر والتقلب والكسب
والعاش والعلوم والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب

(اعلم) أنه لما كانت حقيقة النار يخبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض
لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات واصناف التغلبات للبشر بعضهم على
بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والذل ومراتبها وما يتخلله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب
والعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال * ولما كان الكذب
متطرا فلا يخبر بطبيعته وله اسباب تقتضي فهمها التفتحات لا آراء المذاهب فان النفس اذا كانت على حال
الاعتدال في قبول الخبر اعلنته حقه من التمهيط والنظر حتى يتبين صدقه من كذبه واذ انما هاتين
لرأى أو نحوه قبلت ما وافقته من الاخبار لا ولوهة وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها
عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب وتلقه * ومن الاسباب التي تقتضي للكذب في الاخبار أيضا
الثقة بالناقلين وتمحيص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح (ومنها) الذهول عن المقاصد فكثير من
الناقلين لا يعرف القصد عما ين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب (ومنها) نوم
الصدق وهو كثير وانما يعني في الأ* كثر من جهة الثقة بالناقلين (ومنها) الجبل بتطبيق الاحوال على
انواقهم لا جن ما يدخلها من التليس والتصنع فيقلب الخبر كما آها وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه
(ومنها) تقرب الناس في الأ* كثر لا تصحاب التجارة والراتب بالثناء والمدح وتمحيص الاحوال وإشاعة
الذكر بذلك فيستغيث الاخبار بها على غير حقيقة فالنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطلعون الى الدنيا
واسبابها من جاه أو ثروة وليسوا في الأ* كثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في اهلها * ومن الاسباب
القتضية له أيضا هي سابقة على جميع ما تقدم الجبل بطبائع الاحوال في العمران فان كل حادث من
الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيها يعرض له من احواله فاذا كان السامع عارفا
بطبائع الحوادث والاحوال في الوجود ومقتضياتها اعانه ذلك في تمحيص الخبر على تميز الصدق من الكذب
وهذا ابلغ في التمهيط من كل وجه يعرض وكثيرا ما يعرض للسامعين قبول الاخبار المستعجلة ويتقاعونها
وتؤثر عنهم كاقطع السعدي عن الاسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الاسكندرية وكيف اتخذ
تابوت الخشب وفي باطنه صندوق الزجاج ونص فيه الى قعر البحر حتى كتب صور تلك الدواب الشيطانية
التي رآها وعمل تماثيلها من اجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان ففرت تلك الدواب حين خرجت وعانتها
وتحمله بناؤه في حكاية طوي يات من احاديث خرافة مستعجلة من قبل اتخاذ التابوت الزجاج ومدة البحر
وأما وجه بحر مه ومن قيل أن الملوكة لا تحمل أثرا - باعلى مثل هذا الغرر ومن اعتمد منهم فقد عرض نفسه

بهلكة وانتفاض العثمة واجتماع الناس الى غيره وفي ذلك اتلاف ولا ينظرون به رجوعهم من غروره
 بل ان طرفة عين ومن قبل أن الجن لا يعرف لها صور ولا غايب تختص بها انتهى قدرة على الشكل
 وما يذكر من كثرة الرؤوس لنا قاعا المراد به البشاعة والتهويل لأنه حقيقة (وهذه) كلها قاذرة في
 تلك الحكاية والقادح الخيل لها من طريق الوجود أي من هذا كله وهو أن النفس في الماء ولو كان
 في الصندوق يضيق عليه الهواء للنفس الطبيعي وتسخن روحه بسرعة تغلبه فينقذ صاحبه الهواء
 البارد للعدل مزاج الرقة والروح القلبي وبهنا مكانه وهذا هو السبب في حاله أهل الحمامات اذا
 انطبقت عليهم عن الهواء البارد والمتدلين في الآبار والمطامر العسيفة الميوى اذا سخن هواؤها
 بالعبوة وغدت اخلها الرياح فتخلط بها فنشغل في هياكل حينه وهذا السبب يكون موت الحوت اذا
 برق البحر فن الهواء لا يكفي في تعديل رفته اذ هو حار بافراد والماء الذي بعده بارد والهواء الذي خرج
 به حار فيستولى الحار على روح الحيوان وبهنا دفعه ومنه هلاكه للصوفيين وأمثال ذلك (ومن
 الاخبار) السحابة ما نقله السعدي أيضا في مثال الرزور الذي يروى أنه تجتمع اليه الرزور في يوم معلوم
 من السنة حاملة للزيتون ومنه يتخذون زيتهم وانظر ما بعد ذلك عن الحري الطبيعي في اخذ الزيت
 (ومنها) ما نقله البكري في بناء المدينة السماذ ذات الابواب تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على
 عشرة آلاف باب والمدن انما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتي وهذه خرجت عن أن يحاط بها فلا
 يكون فيها حصن ولا معتصم وكما نقله السعدي أيضا في حديث مدينة النحاس وانها مدينة كل بناءها
 حاس يصحر استجابة لظفر بها موسى بن نصير في غزوه الى الغرب وانها معلقة بالابواب وأن الساعد
 بها من أسوارها اذا أشرف على الحائط صفق ورعى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث مستحيل
 لأنه من خرافات القصاص وصحر استجابة قد قضى الركب والادلاء ولم يقض هذه المدينة على خبر
 بان هذه الاحوال التي ذكرها عنها كلها مستحيل عادة منافع للامور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها
 وان المعادن غاية الوجود منها أن يصرف في الآنية (١) والحرقى وأما تشييد مدينة منها فكما تراء من
 الاستحالة والبعده وأمثال ذلك كثير وتمجيحه انما هو بمعرفة طبائع العمران وهو أحسن الوجوه
 وأوثقها في تحصيل الاخبار وتميز صدقها من كذبها وهو سابق على التمهيز بتعديل الروايات ولا يرجع
 الى تعديل الروايات حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو محتج وأما اذا كان مستحلا فلا فائدة للنظر
 في التعديل والتجريح ولتعدد أهل النثر من المنطاعين في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله أن يقول
 لنا لا يقبله العقل وإنما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الاخبار الشرعية لأن معظمها تكاليف
 انشائية أو جب الشارع العمل بها حتى حصل الثمن بصدقها وسبيل صحة الثمن الثقة بالرواية بعدالة
 والضيقة (وأما الاخبار) عن الواقعات فلا بد في صدقها ونحتها من اعتبار المطابقة فذلك وجب أن
 ينظر في إمكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدما عليه اذ فائدة الانشاء مقبلة منه فقط

وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة وإذا كان ذلك فالتعاون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار
بالامكان والاستحالة أن تنظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران وتميز ما يلحقه من الأحوال لذاته
وعقضى طبيعه وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا
في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه وحينئذ إذا
سمعتنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نعلم بقبوله مما حكم به بريقه وكان ذلك لنا معيارا
صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والقبول فيما يشكونه وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول
من تأليفنا وكان هذا علم مستقل بنفسه فلما ذكر موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الانساني وذو
مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى وهذا شأن كل علم من العلوم
وضميا كان أو عقليا (واعلم) أن الكلام في هذا الغرض مستحدث السنة فربما تفرقة عن بر الفائدة أعظم
عليه البحث وأدى إلى الغوص وليس من علم الخطاب الذي هو أحد العلوم التطبيقية فإن موضوع الخطاب إنما
هو الأقوال المتعلقة النافعة في استئالة الجمهور إلى رأي أو حدم عنه ولا هو أنضام علم السياسة المدنية إذ
السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب يقتضيه الأخلاق والحكمة في حسن الجمهور على منهاج يكون
فيه حفظ النوع وبقاؤه فقد خالف موضوعه موضع هذين الفنين اللذين ربما تشبهانه وكأنه علم مستقطب
النشأة والعمر لم أقف على الكلام في منعه لأن أحد من الخلق ما أدري لغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم
أولعلمهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلى نافعة علوم كثيرة والحكام في أمم النوع الانساني
متعدون ولم يصل إليهم العلوم أكثر مما وصل فأين علوم الفرس التي أمر عمر رضي الله عنه بمحوها
عند الفتح وأين علوم السكندانيين والسريانيين وأهل بابل وما ظهر عليهم من آثارها وتائجها وأين
علوم الفسط ومن قبلهم وأما وصل إليها علوم أمة واحدة وهي يونان خاصة لكلف المؤمنين بأخبارها من
لغتهم واقتدار على ذلك بكثرة الترجمين وبذلك الأموال فيها ولم تقف على شيء من علوم غير هو إذا كانت
كل حقيقة متعلقة طبيعية يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها وجب أن يكون
باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه لكن الحكماء أعلم أنما لاحظوا في ذلك
العناية بالثمرات وهذا إنما يخرجه في الأخبار فقط كما رأيت وإن كانت مسائله في ذاتها
وفي اختصاصها شريفة لكن ثمرته تصحيح الأخبار وهي ضعيفة فلماذا هجره والله أعلم وما
أوتيتم من العلم الا قليلا (وهذا الفن) الذي لاحظنا النظر فيه نخدمه مسائل تجري بالعرض لأهل العلوم
في براهين علومهم وهي من جنس مسائله بالموضوع والطلب مثل ما يذكره الحكماء والعلماء في اثبات
النسب من أن البشر متعاونون في وجودهم فيحتاجون فيه إلى الحاكم والوزير ومثل ما يذكر في أصول
الفقه في باب اثبات اللغات أن الناس يحتاجون للعبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وتبيان العبارات
أخف ومثل ما يذكره الفقهاء في تحليل الأحكام الشرعية بالمقاصد في أن الزنا غلط للانساب مفسد للنوع
وإن القتل أيضا مفسد للنوع وأن الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع وغير ذلك من سائر

انما اخذ الشرعية في الاحكام قائما على كلياتها على المحافظة على العمران فكان لها النظر فيما يعرض له وهو ظاهر
 من كلامنا هذا في هذه المسئلة * وكذلك ايضا يقع اليه القليل من مسائله في كانت متفرقة حكماء
 الخليفة لكتبهم فيستوفوه (فمن كلام) ثوبان بهر ام بن بهر ام في حكاية اليوم التي قبلها السجودى أي الملك
 الملك لا يتم عزه الا بالشرعية والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا تقوم شرعية الا بالملك
 ولا عز للملك الا بالرجال ولا تقوم الامار جال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل
 والعدل لم يتم الا بالتصوب بين الخليفة ونسبه الرب وحمل له قبا وهو الملك (ومن كلام ثوبان) في هذا
 مني بعنه الملك بالجند والجند بالملك والملك بالخراج والخراج بالعمارة والعمارة بالعدل والعدل
 بالمال والمال بالعمارة واستقامة الوزر امور رأس السكل بافتاداشك حال وعينه بنفسه واقتداره على تأديتها
 من على كبريا ولا تملكه (وفي الكتاب) المصوب لا يخلو في السياسة المتداول بين الناس جزء صالح منه
 الا أنه غير مستوفى ولا معطى خضمن البراهين ومحتاج بغيره وقد اشار في ذلك الكتاب الى هذه
 الكلمات التي قلنا ناطقها ثوبان واثوبان واثوبان وان وجهها في الدائرة القرينة التي أعظم القول فيها وهو قوله
 العالم بستان سياحة الدولة وهو لسلطان تحياه السنة السياسية يسوسه الملك الملك نظام بعضه الجند
 الجند أعوان يكفلهم المال رزق تجميعه الرعية الرعية عبيد كنفهم العدل العدل مألوف وبه قوام
 العالم العالم بستان ثم ترجع الى أول الكلام في هذه كان حكاية سياسية ارتبط بعضها ببعض وارتدت
 استازها على مدورها وانصرفت في دائرة لا يعين طر فيها حرج عتور عتياو عظم من فوقها وأست اذا
 أمثلت كلامنا في فصل الأصول والملك وأعطيت خضمن التصنع والنفذ عثرت في أمثاله على التفسير هذه
 الكلمات وتفصيل احكامها مستوفى فينا بأوعب بيان وأوضح دليل وبرهان أنزلنا الله عليه من غير تعليم
 وسلطان ولا فائدة مويدان وكذلك نجد في كلام ابن القفيع وما يستلزم في مسائله من ذكر السياسات
 الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كما بهر هاهنا على ما في الذكر على منحنى الخطابة في أسلوب
 القياس وبلاغة الكلام وكذلك هو المقاضى أبو بكر الطرطوشي في كتاب سر ارج الملوك وبه على أبواب
 تحرب من أبواب كتابنا هذا ومثاله لكنه يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل
 ولا أوضح الأدلة كما في باب المسئلة ثم يستكثر من الأحاديث والآثار وينقل كلمات متفرقة لحكام
 الشر من مثل بزرجمهر والو بدان وحكام الهند والمأثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من أكابر الخليفة
 ولا يكشف عن التحقيق قناعا ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجابا عما هو نقل ورغيب شيه بالمواعظ
 وكأنه حوم على الغرض ولا يصادف ولا يحقق قصده ولا استوفى مسائله ونحن ألهنا الله الى ذلك الهاما
 وأعترنا على علم جعلنا بين بكره وجهينة خيرة فان كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع
 النظره وأنعمه فتوفيق من الله وهذا ان فتنى شي في احصائه واشتبهت بغيره مسائله فلما نظر المحقق
 اصلاحه ولي الفضل لا في نهجته السبيل وأوضعت له الطريق والله يهدي بنوره من يشاء (ونحن)
 الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والسكيب والعلوم

والصنائع بوجوده برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة وتدفع بها الأوهام وترفع الشكوك
 (و يقول) نسا كان الإنسان متميزاً عن سائر الحيوانات بخلافه اختصاصها بالعلوم والصنائع التي هي
 نتيجة الفكر الذي يتميز به عن الحيوانات وشرف بوصفه على المخلوقات ومنها الحاجة إلى الحكم الوازع
 والسلطان القاهر إذ لا يمكن وجوده دون ذلك فمن بين الحيوانات كلها إلا ما يقال عن النحل والجراد
 وهذه وإن كان لها مثل ذلك فيطريق الهامى لا يفكر وروية ومنها السبي في العاش والاعتقال في تحصيله من
 وجوده واكتساب أسبابه مما جعل الله فيه من الافتقار إلى الغذاء في حياته وبقائه وهداه إلى التماسه وطلبه
 قل تعالى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ومنها العمران وهو النساكن والتنازل في مصر أو حلة للناس
 بالعصر واقتضاء الحاجات لها في طلبها من التعاون على العاش كاستنبه ومن هذا العمران
 ما يكون بدوياً وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلال المنتجة في القفار
 وأطراف الرمال ومنه ما يكون حضرياً وهو الذي بالأمتصار والقرى والمدن والمدائر للاعتصام
 بها والتحصن بحذراتها وفي كل هذه الأحوال أمور تعرض من حيث الاجتماع عروضا ذات الله فلا جرم
 انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة فصول (الأول) في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه
 من الأرض (والثاني) في العمران البدوي وذكر القبائل والأسماء الوحشية (والثالث) في الدول
 والحلافة والملك وذكر المراتب السلطانية (والرابع) في العمران الحضري والبلدان والأمتصار
 (والخامس) في الصنائع والعاش والكسب وجوهره (والسادس) في العلوم واكتسابها وتعلمها وقد
 قدمت العمران البدوي لأنه سابق على جميعها كما بين لك بعد ذلك كذا التقديم للملك على البلدان والأمتصار
 وأما تقديم العاش فلأن العاش ضروري طبيعي وتعلم العلم كافي أو حاجي والطبيعي أقدم من الكمال
 وجعلت الصنائع مع الكسب لأنها منه ببعض الوجوه ومن حيث العمران كما بين لك بعد ذلك الموافق
 للتصواب والمعين عليه

الفصل الأول من الكتاب الأول في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات

(الأولى) في أن الاجتماع الإنساني ضروري وبعبارة الحكماء عن هذا بقوله لم الإنسان مدنى بالطبع أي
 لا بد له من الاجتماع الذي هو شذوية في اصطلاحهم وهو معنى العمران وبأنه أن الله سبحانه خلق الإنسان
 وركبه على صورة لا يصح حياتها بقاءها إلا بالغذاء وهداه إلى التماسه فيطردونه عاركة فيه من القدرة
 على تحصيله إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موقية له بمادة حياته
 منه ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الخنطة مثلاً فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن
 والعجن والغليخ وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات
 متعددة من حداد ونجار وفخوري هب أنه يأكله حيا من غير علاج فهو أيضاً يحتاج في تحصيله حيا إلى
 أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس التي يخرج الحب من غلاف السنب

و يحتاج كل واحد من هذه الى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير ويستحيل أن توفي بذلك كله أو بعضه قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم ليحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لاكثر منهم بأضعاف وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا في الدفاع عن نفسه الى الاستعانة بأبناء جنسه لأن الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بها جعل حفظها كثير من الحيوانات العجم من القدرة أو كمل من حفظ الانسان قدرة الفرس مثلا عظم بكثير من قدرة الانسان وكذلك قدرة الحمار والثور و قدرة الأسد والذئب من قدرته وما كان العدو ان طبع في الحيوان جعل لكل واحد منها عضو مختص بمدافعته ما يصل اليه من غايه غيره جعل للانسان عوضا من ذلك كله الفكر واليد والقلب مهيأة لتصانيع بخدمة الفكر والصنائع تحصل له آلات التي تنوبه عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع مثل الرماح التي تنوب عن القرون والظفر واليوق والساقبة عن الخالب الجارح والبرص الثابتة عن البشرات الجلدية الى غير ذلك مما ذكره جالينوس في كتاب منافع الاعضاء فلو احدم من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات مع جسمه المترسلة فهو عاجز عن مدافعته و حده بالجملة ولا تفي قدرته أيضا باستعمال الآلات المعدة للدفاع فكثرها وكثرة الصنائع والمواعين المعدة لها فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته لما ركب الله تعالى عليه من الحاجة الى الغذاء في حياته لا يحصل له أيضا دفاع عن نفسه لفقدها السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مدي حياته يستلزم نوع البشر وإذا كان التعاون حصل له القوة للغذاء والسلاح للدفاع وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه فاذن هذا الاحتياج ضروري للنوع الانساني والام يكمل وجودهم ما أراده الله من اعتبار العالم بهم واستخلافة ايامهم وعذا هو معنى العمر ان الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم وفي هذا الكلام نوع اثبات للموضوع في فقه الذي هو موضوع له وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفن ما تقرر في الصناعة المتعلقة أنه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع في ذلك العلم فليس أيضا من المنوعات عند فيكون اثباته من التبرعات والله لا وفق بفضل ثم ان هذا الاحتياج اذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمر ان العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدو والقلم وليست آلة السلاح التي جعلت دافعة لعدو ان الحيوانات العجم عنهم كما في دفع العدو ان عنهم لانهم موجودون جميعهم فلا بد من شيء آخر يدفع عدو ان بعضهم عن بعض ولا يكون من غير ذلك فصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد الى غيره بعدوا ان وهذا هو معنى الملك وقد تبين لك بهذا أنه خاصة للانسان بطبيعته ولا بد لهم منها فوجد في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كافي العقل والجوارح لما استقر في فهمهم الحكيم والاشياء والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنهم في خلقه وجماله الا أن ذلك موجود لغير الانسان بمقتضى الفطرة والهداية لا يقتضي الفكرة والسياسة أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون

اثبات النبوة بالدليل العقلى وأنها خاصة بطبيعة الانسان فيقرررون هذا البرهان الى غاية ما أنه لا بد للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون بعد ذلك وذلك الحكم يكون بصرع مفر وض من عند الله يأتي به واحد من البشر وأنه لا بد أن يكون متميزاً عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليضع الله لهم له والقبول منه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزييف وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه اذا وجود حياة البشر قد تم من دون ذلك بما يفرضه الحكم لنفسه أو بالعصية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته فأهل الكتاب والمتبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى الجنس الذين ليس لهم كتاب فانهم أكثر أهل العالم ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلاً عن الحياة وكذلك على لهم لهذا العهد في الاقاليم المتحرقة في الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضي دون وازع لهم البتة فانه يتمتع بهذه ايتين لك غلطهم في وجوب النبوات وأنه ليس بعقلى واقامد كذا الشرع كما هو مذهب النصف من الأمة والله ولي التوفيق والهداية

﴿ المقدمة الثانية ﴾

(في قسط انمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه من الاشجار والانهار والاقاليم)
(اعلم) أنه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أن شكل الأرض كروي وأنها مغطاة بغير الماء كأنها غنية طافية عليه فأنحسر الماء عن بعض جوانبها لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمارها بالنوع البشرى التي له الخلافة على سائر حياوتها فحدثت من ذلك أن الماء تحت الأرض وليس بصحيح وإنما تحت القطيعى قلب الأرض ووسط كرتها الذي هو مركزها والسكل بطلبه بما فيه من الثقل وما عند ذلك من جوانبها أما الماء المحيط بها فهو فوق الأرض وإن قيل في شيء منها أنه تحت الأرض فبالإضافة الى جهة أخرى منه وأما الذي انحسر عنه الماء من الأرض فهو النصف من سطح كرتها في شكل دائرة أحاط العنصر المائى بها من جميع جهاتها غير يسمى البحر المحيط ويسمى أيضاً الملاية بتفخيم اللام اثنائية ويسمى أوقيانوس أسماء أعجمية ويقال له البحر الأعظم والأسود ثم إن هذا المنكشف من الأرض لعمران فيه انقمار والحلاء أكثر من عمرانه والخالى من جهة الجنوب منه أكثر من جهة الشمال وإنما العمور منه قطعة أميل الى الجانب الشمالى على شكل مسطح كروي ينتهى من جهة الجنوب الى خط الاستواء ومن جهة الشمال الى خط كروي ووراء الجبال الفاصلة بينه وبين الماء العنصرى التى بينهما سد يأجوج ومأجوج وهذه الجبال مائلة الى جهة المشرق وينتهى من المشرق والغرب الى عنصر الماء أيضاً فتقطع من الدائرة المحيطة وهذا المنكشف من الأرض فاقوا هو مقدار النصف من الكرة أو أقل والعمور منه مقدار ربعه وهو المنقسم بالاقاليم السبعة وخمسة عشر الى قسمين من المغرب الى المشرق وهو طول الأرض وأكبر خط في كرتها كأن منطقة ذلك البروج ودائرة معدل النهار أكبر خط في الفلك ومنطقة البروج منقصة بثلاثمائة وستين درجة والمسافة الأرض خمسة وعشرون فرسخاً والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع في ثلاثة أميال لأن الميل أربعة آلاف ذراع والذراع أربعة وعشرون أصبعاً والأصبع ست حبات شعير

سفوفة ملصقة ببعض ظهير البطن وبين دائرة معدل النهار التي تقسم الفلك بنصفين وتسامت
 خط الاستواء من الأرض وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة لكن العمار في الجهة الشمالية من
 خط الاستواء أربع وستون درجة والباقي منها خلا لا عمارة فيه لشدة البرد والجود كما كانت الجهة
 الجنوبية خلا كلها لشدة الحر كاتين ذلك كله ان شاء الله تعالى ثم ان الخبرين عن هذا المعمور وحدوده
 ما فيه من الامصار والمدن والجان والبحار والانهار والقفار والرمال مثل بطليموس في كتاب
 الجغرافيا وصاحب كتاب زيار من بعده قسموا هذا المعمور بسبعة أقسام يسمونها الأقاليم السبعة بحدود
 ثمانية بين المشرق والمغرب مساوية في العرض مختلفة في الطول فالأقاليم الأول أطول مما بعده وكذا الثاني الى
 آخرها فيكون السابع أقصر لها اقتضاء وضع الدائرة الناشئة من انحرار الماء عن كرة الأرض وكل واحد
 من هذه الأقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء من المغرب الى المشرق على التوالي وفي كل جزء الخبر عن
 دوائه وأحواله عمراته (وذكروا) أن هذا البحر المحيط يخرج منه من في جهة المغرب في الأقاليم الرابع
 بحر الرومي المعروف يدعى خليج مضائق في عرض اثني عشر ميلا أو نحوها ما بين طنجة وطريف
 يسمى الزقاق ثم يذهب مشرقا وينفتح الى عرض ستمائة ميل ونهايته في آخر الجزء الرابع من الأقاليم
 الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخا من مبدئه عليه جنالك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب
 سواحل المغرب وأهلها طنجة عند الخليج ثم أفريقيا ثم برقة الى الاسكندرية ومن جهة الشمال سواحل
 فلسطينية عند الخليج ثم البنادقة ثم ومتمم الأفريقية ثم الاندلس الى طريف عند الزقاق قبله طنجة
 يسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عميرة كبار مثل أثريطش وقمرس وصقلية
 مبروق وسردانية ودانية (قالوا) ويخرج منه في جهة الشمال بحر ان آخر ان من خليجين أحدهما مسامت
 فلسطينية يدعى هذا البحر مضائق في عرض مائة السهم ويمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ثم
 تنفتح في عرض أربعة أميال وعمر في جريه مائة ميل وسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة
 أرضها ستة أميال فيمد بحر نبطش وهو يخرج من هنالك في مذهبه الى ناحية المشرق فيمر بأرض
 صقلية وينتهي الى بلاد الحزرية على ألف وثلاثمائة ميل من فوهته وعليه من الجانبين أمم من الروم والترك
 ورجان والروس والبحر الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على
 سمت الشمال فإذا انتهى الى سمت الجبل انحرف في سمت المغرب الى بلاد البنادقة وينتهي الى بلاد انكلية
 على ألف ومائة ميل من مبدئه وعلى خافتيه من البنادقة والروم وغيرهم وسمى خليج البنادقة (قالوا)
 وينساح من هذا البحر المحيط أيضا من المشرق على ثلاث عشرة درجة في الشمال من خط الاستواء بحر
 عظيم متبع يمر الى الجنوب قليلا حتى ينتهي الى الأقاليم الأول ثم يعرف مغربا الى أن ينتهي في الجزء الخامس
 منه الى بلاد الحبشة والزيح والى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ وخمسمائة فرسخ من مبدئه
 ويسمى البحر الصيني والهندي والحبشي وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد بربر التي ذكرها امرؤ

القيس في شعر دوليد وامن البربر الذين هم قبائل المغرب ثم يلي مقدشو ثم بلد سقالة وارض اواق وواق وامن
أخر ليس بعده الا القفار والخللاء وعنه من جبة الشمال الصين من عند مبدئه ثم الهند ثم الهند ثم سواحل
اليمن من الاحقاف وزيد وغير هاتم بلاد الرشح عند نهايتها وبعدهم الحبشة (قنوا) ويخرج من هذا البحر
الحبشي بحر ان آخر ان (أحدتها) يخرج من نهايته عند باب المدب فيدأ امتضا يقامهم بحر مستبحر الى ناحية
الشمال ومفر باقليل الى أن ينتهي الى مدينة القلزم في الجزء الخامس من الاقليم الثاني على ألف واربع مائة ميل
من مبدئه ويسمى بحر القلزم وحر السويس وينتهي بين فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل و عليه
من جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وجدة ثم مدين وأيلة وقلزم ان عند نهايته ومن جهة الغرب
سواحل الصعيد وعذاب وسواكن وزيلع ثم بلاد الحبشة عند مبدئه و آخره عند القلزم يسمت البحر
الرومي عند العريش وينتهي نحو ست مراحل وماز الى المولد في الاسلام وقلزم ومون خرق ما بينهما ماولة
ينهم ذلك (والبحر الثاني) من هذا البحر الحبشي ويسمى الخليج الا حضر يخرج ما بين بلاد الهند
والاحقاف من اليمن ويمر الى ناحية الشمال بحر باقليل الى أن ينتهي الى الألف ثمان سواحل البصرة في الجزء
السادس من الاقليم الثاني على اربع مائة فرسخ وأربعين فرسخا من مبدئه ويسمى بحر فارس وعليه من
جهة الشرق سواحل الهند ومكران وكerman وفارس والابلة عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل
البحرين واليمامة و عمان والشحر والاحقاف عند مبدئه وفيما بين بحر فارس والقلزم جزيرة العرب كأنها
دخلت من البر في البحر غيط بها البحر الحبشي من الجنوب و بحر القلزم من الغرب و بحر فارس من الشرق
وتنفض الى العراق فيما بين الشام والبصرة على ألف وخمسة مائة ميل بينهما و هنالك الكوفة والقادسية
وبغداد و ابوان كسري والخيصة ووراء ذلك أم الاعاجم من ترك والحزر وغيره في جزيرة العرب بلاد
الحجاز في جهة الغرب منها و بلاد اليمامة والبحرين و عمان في جهة الشرق منها و بلاد اليمن في جهة الجنوب
منها و سواحل على البحر الحبشي (قنوا) وفي هذا المعمور بحر آخر منقطع من سائر البحار في ناحية الشمال
بأرض الديلم يسمى بحر جرجان وطبرستان طول ألف ميل في عرض ست مائة ميل في غربيه أذربيجان
والديلم في شرقيه أرض الترك وخوارزم وفي جنوبه طبرستان وفي شماله أرض الحزر واللات (هذه)
جملة البحار المشهورة التي ذكرها أهل الجغرافيا قنوا وفي هذا الجزء المعمور أنهار كثيرة أعظمها أربعة
أنهار وهي النيل والفرات ودجلة ونهر بلخ المسمى جيحون (قأما النيل) فيبدا من جبل عظيم وراء خط
الاستواء يست عشرة درجات على سمت الجزء الرابع من الاقليم الاول ويسمى جبل القمر ولا يعلم في
الارض جبل أعلى منه يخرج منه عيون كثيرة فيسب بعضها في بحيرة هناك وبعضها في أخرى ثم يخرج
أنهار من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل ويخرج
من هذه البحيرة نهران يذهب أحدهما الى ناحية الشمال على سمت ويمر بلاد النوبة ثم بلاد مصر فلذا
جاوزها تشعب في شعب متتالية يسمى كل واحد منها خليجا ونصب كلها في البحر الرومي عند
الاسكندرية ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقه والواحات من غربيه ويذهب الآخر منعظا

الى المغرب ثم يمر على سبته الى أن يصب في البحر المحيط وهو نهر السودان وأهمهم كلهم على خطية (وأما الفرات) فببؤه من بلاد أرمينية في الجزء السادس من الأقليم الخامس ويمر جنوباً في أرض الروم وملطية الى منبج ثم يمر بصفين ثم باثقة ثم بالكوفة الى أن ينتهي الى البطحاء التي بين البصرة واسط ومن هناك يصب في البحر الحشى وتجلب اليه في طريقه أنهار كثيرة ويخرج منه أنهار أخرى تصب في دجلة (وأما دجلة) فببؤها من بلاد خلائط من أرمينية أيضاً ويمر على سمت الجنوب بالموصل وأذربيجان وبعدها الى واسط فتفرق الى خلجان كلها تصب في بحيرة البصرة وتفضى الى بحر فارس وهو في الشرق على عين الفرات وينصب اليه أنهار كثيرة عظيمة من كل جانب وفيما بين الفرات ودجلة من أوله جزيرة تسمى قبالة الشام من عدوى الفرات وقبالة أذربيجان من عدوى دجلة (وأما نهر جبحون) فببؤه من بلخ في الجزء الثامن من الأقليم الثالث من عيون هناك كثيرة وتجلب اليه أنهار عظام وينتهي من الجنوب الى الشمال فيمر ببلاد خراسان ثم يخرج منها الى بلاد خوارزم في الجزء الثامن من الأقليم الخامس فيصب في بحيرة الجرجانية التي أسفل مدينتها وهي مدينة شهر في مشهورها يصب نهر مرغانة والشاش الآتي من بلاد الترك وعلى غربي نهر جبحون بلاد خراسان وخوارزم وعلى شرقيه بلاد بخاري وخرمذو ومن ههناك الى ماوراء بلاد الترك وقرقانة والخرجانية وأما الأنهار التي ذكرتها من الجبال والبحار والأودية واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لنا به الطول لأن عنايتنا في الأكثر انما هي بالمغرب الذي هو وطن البربر وبالأوطان التي للعرب من المشرق والله الموفق

تكملة لهذه المقبعة الثانية في أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً

من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك

ونحن نرى بالمشاهدة والأخبار المتواترة أن الأول والثاني من الأقليم العمور أقل عمراناً من الباقيين وجم من عمرانهم في تخالط الحلاء والقفار والرمال والبحر الهندي الذي في الشرق منها وأما هذين الأقليمين وأناسيهما ليستهم السكرة البالغة وأمصاره ومدنه كذلك الثالث والرابع وما بعدهما بخلاف ذلك فالقفار فيها قليلة والرمال كذلك أو معدومة وأما أناسيهما بخلاف ذلك من السكرة وأمصارها ومدنها تجاوز الحد عدداً والعمران فيها مندرج ما بين الثالث والسادس والجنوب خلاء كله وقد ذكر كثير من الحكماء أن ذلك لأفراط الحر وقلة ميل الشمس فيها عن سمت الرءوس فلهذا وضع ذلك يرهاه ويتبين منه سبب كثرة العمارات فيما بين الثالث والرابع من جانب الشمال الى الخامس والسابع (فنقول) ان قطبي الفلك الجنوبي والشمالى اذا كانا على الأفق فهناك دائرة عظيمة تقسم الفلك نصفين هي أعظم الدوائر المارة من الشرق الى المغرب وتسمى دائرة معدل النهار وقد بين في موضعه من الهيئة أن الفلك الأعلى متحرك من الشرق الى المغرب حركة يومية يحرك بها سائر الأفلاك التي في جوفه فتمر او هذه الحركات محسوسة وكذلك تبين أن السكاك في أفلاكها حركات مخالفة لهذه الحركات وهي من المغرب الى المشرق ويختلف مؤداها

باختلاف حركة الكواكب في السرعة والبطء وممرات هذه الكواكب في أفلاكها توافرها كلها دائرة
 عظيمة من الفلك الأفقي تقسمه نصفين وهي دائرة فلك البروج مقسمة بأثنى عشر برجاً وهي على مائتين
 في موضعه مفاطعة دائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين من البروج هما أول الحمل وأول الميزان فتقسمها
 دائرة معدل النهار بنصفين نصف مائل عن معدل النهار إلى الشمال وهو من أول الحمل إلى آخر السنبلة
 ونصف مائل عنه إلى الجنوب وهو من أول الميزان إلى آخر الحوت وإذا وقع القطبان على الأفق في جميع
 نواحي الأرض كان على سطح الأرض خط واحد سميت دائرة معدل النهار يمر من المغرب إلى الشرق
 ويسمى خط الاستواء ووقع هذا الخط بآثاره على ما ذكره من قبل من الأقليم الأول من الأقليم السبعة
 والعمران كله في الجهة الشمالية عنه والقطب الشمالي يرفع عن الأفق هذا المعمور بالتدريج إلى أن
 ينتهي ارتفاعه إلى أربع وستين درجة وهناك ينقطع العمران وهو آخر الأقليم السابع * وإذا
 ارتفع على الأفق تسعين درجة وهي التي بين القطب ودائرة معدل النهار صار القطب على سمت الرأس ومن
 وصارت دائرة معدل النهار على الأفق وبقيت ستة من البروج فوق الأفق وهي الشمالية وستة تحت
 الأفق وهي الجنوبية والعمارة فيما بين الأربعة والستين إلى التسعين محتثة لأن الحر والبرد حينئذ
 لا يحصلان متزججين لبعدها زمان بينهما فلا يحصل التكوين فإذا الشمس تسامت الرأس ومن على خط
 الاستواء في رأس الحمل والبروجان ثم تحيل عن السامطة الرأس السرطان ورأس الجدي ويكون
 نهاية ميلها عن دائرة معدل النهار أربعاً وعشرين درجة ثم إذا ارتفع القطب الشمالي عن الأفق مالت
 دائرة معدل النهار عن سمت الرأس بمقدار ارتفاعه وانخفض القطب الجنوبي كذلك بمقدار مقدار
 في الثلاثة وهو المسمى عند أهل المواقيت عرض البلد وإذا مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرأس
 علت عليها البروج الشمالية مندرجة في مقدار علوها إلى رأس السرطان وانخفضت البروج الجنوبية
 من الأفق كذلك إلى رأس الجدي لا تخربها إلى الجانبين في أفق الاستواء كقلنا فلا يزال الأفق الشمالي
 يرتفع حتى يصير أبعد الشمالية وهو رأس السرطان في سمت الرأس وذلك حيث يكون عرض البلد أربعاً
 وعشرين في الحجاز وما يليه وهذا هو الميل الذي إذا مال رأس السرطان عن معدل النهار في أفق الاستواء
 ارتفع بار تمام القطب الشمالي حتى صار مسامتاً فإذا ارتفع القطب أكثر من أربع وعشرين نزلت الشمس
 عن السامطة ولا تزال في انخفاض إلى أن يكون ارتفاع القطب أربعاً وستين ويكون انخفاض الشمس
 عن السامطة كذلك وانخفاض القطب الجنوبي عن الأفق مثلها فينقطع التكوين لأفراط البرد والجهد
 وطول زمانه غير متزجج بالحر ثم إن الشمس عند السامطة وما يقاربها تبعث الأشعة على الأرض على زوايا
 قائمة وفيها دون السامطة على زوايا منفرجة وحادة وإذا كانت زوايا الأشعة قائمة عظم الضوء وانتشر
 بخلافه في المنفرجة والحادة فلذلك يكون الحر عند السامطة وما يقرب منها أكثر منه فيما بعد لأن الضوء
 سبب الحر والتسخين * ثم إن السامطة في خط الاستواء تكون مرتين في السنة عند نقطتي الحمل
 والميزان وإذا مالت فغير بعيد ولا يكاد الحر يعتدل في آخر ميلها عند رأس السرطان والجدي إلا وقد
 صعدت إلى السامطة فتبقى الأشعة القائمة الزوايا تلح على ذلك الأفق ويطول مكثها أو يدوم فيشتعل الهواء

حرارة ويغمرط في شدتها وكذا ما دامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد خط الاستواء الى عرض أربعة وعشرين فإن الأشعة ملحة على الأفق في ذلك بقرب من الحاميا في خط الاستواء وافراط الحر يفعل في الهواء تجفيفا ويساعد على التكوين لأنه اذا أفرط الحرجفت المياه والرطوبات وفسد التكوين في المعدن والحيوان والنبات اذا التكوين لا يكون الا بالرطوبة ثم اذا مال رأس السرطان عن سمت الرأس في عرض خمسة وعشرين فما بعده نزلت الشمس عن المسامدة فيصير الحر الى الاعتدال أو يميل عنه ميلا قليلا فيكون التكوين ويزايد على التدريج الى أن يغمرط البرد في شدته لقلة الضوء وكون الأشعة منفرجة الزوايا فينقص التكوين وفسد الأبن فساد التكوين من جهة شدة الحر أعظم منه من جهة شدة البرد لأن الحر أسرع تأثيرا في التجفيف من تأثير البرد في الجمد فذلك كان العمران في الأقليم الأول والثاني قليلا وفي الثالث والرابع والخامس متوسطا لاعتدال الحر بنقصان الضوء وفي السادس والسابع كثير النقصان الحر وإن كيفية البرد لا تؤثر عند أولها في فساد التكوين كما يفعل الحر إذ لا يجفف فيها الاعتدال افراط بما يعرض لها حينئذ من اليبس كما بعد السابع فلهذا كان العمران في الربع الشمالي أكثر وأوفر والله أعلم * ومن هنا أخذ الحكماء خلاص خط الاستواء وما وراءه وأورد عليهم أنهم معذور بالمشاهدة والأخبار المتواترة فكيف يتم البرهان على ذلك والظاهر أنهم لم يريدوا امتناع العمران فيه بالسكينة إنما اداهم البرهان أن فساد التكوين فيه قوى بافراط الحر والعمران فيه اما ممتنع أو يمكن أقوى وهو كذلك فإن خط الاستواء والذي وراءه وإن كان فيه عمران كان أقل فهو قليل جدا * وقد ذكرنا من رشح أن خط الاستواء معتدل وأن ما وراءه في الجنوب بمثابة ما وراءه في الشمال فيعمر منه ما عمر من هذا والذي قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين وإنما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب من جهة أن العنصر المائي غمر وجه الأرض هنالك الى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلا للتكوين ولما امتنع المعتدل لغلبة الماء تبعه ما سواه لأن العمران معتدريج يوجب أخذ في التدرج من جهة الوجود لامن جهة الامتناع وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فيرده النقل المتواتر والله أعلم * ولترسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب زجبار ثم تأخذ في تفصيل الكلام عليها الح

﴿ تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا ﴾

اعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال الى الجنوب يسمون كل قسم منها اقليما فانقسم المعمور من الأرض كله على هذه السبعة الأقاليم كل واحد منها آخذ من الغرب الى الشرق على طوله * فالأول منها ما من الغرب الى الشرق مع خط الاستواء بحده من جهة الجنوب وليس وراءه هنالك الا القفار والرمال وبعض عمارة ان صحت فهي كالأعمدة ويليها من جهة شماليه الأقليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة الشمال وليس وراء السابع الا الحلاء والقفار الى أن ينتهي الى البحر المحيط كالحال فيما وراء الأقليم الأول في جهة

الجنوب الا ان الحلام في جهة الشمال اقل بكثير من الحلاء الذي في جهة الجنوب ثم ان ازمة الليل والنهار تتفاوت في هذه الاقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها في تفاوت قوس النهار والليل لذلك وينتهي طول الليل والنهار في آخر الاقليم الاول وذلك عند حلول الشمس برأس الجدى ليل وبرأس السرطان للنهار كل واحد منهما الى ثلاث عشرة ساعة وكذلك في آخر الاقليم الثاني تمايلي الشمال فينتهي طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان وهو مقلها الصبي الى ثلاث عشر ساعة ونصف ساعة ومثله أطول الليل عند منقلبها السنوي برأس الجدى ويبقى للاقص من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين الساعة الزمانية لمجموع الليل والنهار وهو دورة الفلك الكاملة وكذلك في آخر الاقليم الثالث تمايلي الشمال ايضا ينتهي الى أربع عشرة ساعة وفي آخر الرابع الى أربع عشرة ساعة ونصف ساعة وفي آخر الخامس الى خمس عشرة ساعة وفي آخر السادس الى خمس عشرة ساعة ونصف وفي آخر السابع الى ست عشرة ساعة وهناك يتقطع العمران فيكون تفاوت هذه الاقاليم في الاطوال من ليلها ونهارها بنصف ساعة لكل اقليم بزيادة من أوله في ناحية الجنوب الى آخره في ناحية الشمال موزعة على أجزاء هذا البعد * وأما عرض البلدان في هذه الاقاليم فهو عبارة عن بعد ما بين سمت رأس البلد ودائرة معدل النهار الذي هو سمت رأس خط الاستواء ويمثله سواء ينخفض القطب الجنوبي عن أفق ذلك البلد ويرفع القطب الشمالي عنه وهو ثلاثة أبعاد متساوية تسمى عرض البلد كما مر ذلك قبل * والتكلمون على هذه الجغرافيا قسموا اكل واحد من هذه الاقاليم السبعة في طولها من المغرب الى المشرق بعشرة أجزاء متساوية ويذكرون ما اشتمل عليه كل جزء منها من البلدان والامصار والجزال والانهار والساقيات بينها في المسالك ونحن الآن نوجز القول في ذلك ونذكر مشاهير البلدان والانهار والبحار في كل جزء منها ونحاذي بذلك ما وقع في كتاب نزهة المشتاق الذي ألفه العلوي الادريسي الخوي لمالك صقلية من الاقترنج وهو جزائر بن زجار عندما كان تازلا عليه بصقلية بعد خروجه صقلية من إمارة مالقوتو كان تأليفه الكتاب في منتصف المائة السادسة وجمع له كتب جملة للسعودي وابن خرداذبه والحوقل والقدرى وابن اسحاق النجم وبطليموس وغيرهم وتبدأ منها بالاقليم الاول الى آخرها والله سبحانه وتعالى يعصمنا عنه وفضله **الاقليم الاول** وفيه من جهة غربه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس بأخذ أطوال البلاد وليست في بسيط الاقليم وانما هي في البحر المحيط جزر متكترة أكبرها وأشهرها ثلاثة ويقال انها معمورة وقد بلغنا أن سفائن من الاقترنج حثرت بها في أواسط هذه المائة فالتلوم فغنموا منهم وسبوا وادعوا بعض أسرارهم بسواحل المغرب الاقصى وصاروا الى خدمة السلطان فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال جزائرها أنهم يخشون الأرض للزرعة بالقرون وأن الحديد مفقود بأرضهم وعيشهم من الشعر وما شئتهم المعز وقتلهم بالبحارة يرمونها الى خلف وعبادتهم السجود للشمس اذا طلعت ولا يعرفون ديننا ولم تبلغهم دعوة ولا يوقف على مكان هذه الجزائر الا بالعثور لا بالقصد اليها لان سفر السفن في البحر أعما هو بالرياح ومعرفة جهات

بابها والى أين يوصل إذا مرت على الاستقامة من البلاد التي في بحر ذلك الملب وإذا اختلف الملب وعلم حيث
 وصل على الاستقامة حذى به القلع مما إذا يحمل السفينة بها على قواطين في ذلك محصلة عند النواتية
 والملاحين الذين هم رؤساء السفن في البحر والبلاد التي في حقائق البحر الرومي وفي عدوته مكتوبة كلها
 في صحيفة على شكل ما هي عليه في الوجود وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها وأبواب الرياح وممراتها على
 اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة ويصونها الكباش وعليها يعتمدون في أسفارهم وهذا كله
 يقوم في البحر المحيط فذلك لا تلجج فيه السفن لاشبهان غابت عن مرأى السواحل فقل أن تمتدى إلى
 الرجوع اليها ما ينعقد في جو هذا البحر وعلى سطح مائه من الأشجار المانعة للسفن في مسيرها وهي
 بعدها لا تدركها أضواء الشمس المعكبة من سطح الأرض فيحط بها فذلك عبر الاعتناء اليها وصعب
 الوقوف على خبرها وأما الجزء الأول من هذا الاقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبدئه عند جبل القمر كما
 كرتاه ويسمى نيل السودان ويذهب إلى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أوليك وعلى هذا النيل
 مدينة سلاو وتكرور وغانة وكلها لهذا العهد في ملكة ملك مالي من أم السودان وإلى بلادهم تسافر تجار
 القرب الأقصى والقرب منها من شمالها بالادلتونة وسائر ضوايف الملثمين ومفاوز يحولون فيها وفي
 جنوب هذا النيل قوم من السودان يقال فهم لهم وهم كفار ويكنون في وجوههم وأصداعهم وأهل غانة
 والتكرور وغير ذلك عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجارة فيحلبونهم إلى المغرب وكلهم غلمة قبيحهم وليس
 وراءهم في الجنوب عمران يعتبر الأتاسي أقرب إلى الحيوان العجم من الناطق يكون الفياقي
 والكبوف ويأكلون العشب والحبوب غير مياة وورعيا كل بعضهم بعضا وليسوا في عداد البشر
 رفوا كه بلاد السودان كلها من قصورهماء المغرب مثل نوات وتكدرار بن ووركلان فكان في
 ثلاثة أقاليم ملك ودولة القوم من العلويين يعرفون بيني صالح وقال صاحب كتابه جاز انه صالح بن عبد الله
 بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت
 ثلاثة لسلطان مالي وفي شرق هذا البلد في الجزء الثالث من هذا الاقليم بلد كوكو على نهر ينبع من بعض
 الجبال هناك ويمر مغربا فيقوس في مال الجزء الثاني وكان ملك كوكو قديما بنفسه ثم استولى عليه سلطان
 مالي وأصبحت في مملكته وخربت لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هناك تذكرها عند ذكر دولة مالي في
 عليها من تاريخ البربر وفي جنوب بلد كوكو بلاد كاتم من أم السودان وبهم نغارة على ضفة النيل من
 شماليه وفي شرق بلاد نغارة وكاتم بلاد نغارة وتاجرة المتصلة بأرض النوبة في الجزء الرابع من هذا الاقليم
 وفيه يمر نيل مصر ذاهبا من مبدئه عند خط الاستواء إلى البحر الرومي في الشمال ويخرج هذا النيل من
 جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بسبع عشرة درجة واختلفوا في ضبط هذه اللفظة فضبها بعضهم
 بفتح القاف والميم نسبة إلى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوئه وفي كتاب المشترك لياقوت بضم القاف
 ومكون الميم نسبة إلى قوم من أهل الهند وكذا ضبط ابن سعيد فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع
 كل خمسة منها في بحيرة وبينهما ستة أميال ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها

في بطيحة واحدة في أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال وينقسم ماؤها بقسمين فيمر
 الغربي منه الى بلاد السودان مغربا حتى يصب في البحر المحيط ويخرج الشرق منه اعبا الى الشمال على بلاد
 الحبشة والنوبة وفيما بينهما وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاث من جداوله في البحر الرومي عنه
 الاسكندرية ورشيد ودمياط ويصب واحد في بحيرة ملحقة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الاقليم
 الاول وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات الى أسوان وحاضرة بلاد النوبة بمدينتي
 دنقلة وهي في غربي هذا النيل وبعدها علوة وبلاق وبعدها جبل الجنادل على ستة مراحل من بلاق في
 الشمال وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينقذ فيه النيل ويصب في ميوى بعيد جدا
 مهولا فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر الى بلاد
 أسوان قاعدة الصعيد وكذا الوسق من مراكب الصعيد الى فوق الجنادل وبين الجنادل وأسوان اثنتا عشرة
 مرحلة والواحات في غربها عدوة النيل وهي الآن خراب وبها آثار العمارة القديمة وفي وسط هذا
 الاقليم في الجزء الخامس منه بلاد الحبشة على وادي يأتي من وراء خط الاستواء ذاهبا الى أرض النوبة فيصب
 هناك في النيل الهابط الى مصر وقدوم فيه كثير من الناس وزعموا أنه من نيل القمر وبطليموس ذكره
 في كتاب الجغرافيا وذكر أنه ليس من هذا النيل والى وسط هذا الاقليم في الجزء الخامس ينتهي بحر
 الهند الذي يدخل من ناحية الصين ويعمر عامة هذا الاقليم الى هذا الجزء الخامس فلا يبقى فيه عمران
 الا ما كان في الجزائر التي في داخله وهي متعددة يقال تنتهي الى ألف جزيرة أو فيما على سواحل الجنوب
 وهي آخر المعمور في الجنوب أو فيما على سواحلهم من جهة الشمال وليس منها في هذا الاقليم الاول الا طرف
 من بلاد الصين في جهة الشرق وفي بلاد اليمن وفي الجزء السادس من هذا الاقليم فيما بين البحرين الهايطين
 من هذا البحر الهندي الى جهة الشمال وهما بحر قلزم وبحر فارس وفيما بينهما جزيرة العرب وتشتمل على بلاد
 اليمن وبلاد الشعر في شرقها على ساحل هذا البحر الهندي وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما اليهما كما
 تذكره في الاقليم الثاني وما بعده فأما الذي على ساحل هذا البحر من غربيه فبلد العرب من أطراف بلاد
 الحبشة ومجالات البجة (١) في شمال الحبشة ما بين جبل العلاقي في أعلى الصعيد وبين بحر القلزم الهايط
 من البحر الهندي وتحت بلاد العرب من جهة الشمال في هذا الجزء مخرج باب الهند يضيق البحر الهايط
 هناك بمزاحمة جبل الهند المائل في وسط البحر الهندي ممتد مع ساحل اليمن من الجنوب الى الشمال في
 طول اثني عشر ميلا يضيق البحر بسبب ذلك الى أن يصير في عرض ثلاثة أميال أو نحوها ويسمى باب
 الهند وعليه تمر مراكب اليمن الى ساحل السويس قرب ما من مصر وتحت باب الهند جزيرة سواكن
 ودهلك وبقاها من غربيه مجالات البجة من أمم السودان كما ذكرناه ومن شرقيه في هذا الجزء تهائم
 اليمن ومنها على ساحلها بدعي بن يعقوب وفي جهة الجنوب من بلد العرب على ساحل هذا البحر من غربيه
 قرى بربر يتلو بعضها بعضا ويتعطف مع جنوبه الى آخر الجزء السادس ويلها هناك من جهة شرقها

(١) قوله البجة بضم الباء وفتح الجيم ويقال أيضا البجة وأما زالع فهي زبلع اهـ

بلاد الترح ثم بلاد سفالة على ساحله الجنوبي في الجزء السابع من هذا الاقليم وفي شرق بلاد سفالة من ساحله الجنوبي بلاد الواق واق متصله الى آخر الجزء العاشر من هذا الاقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط وأما جزائر هذا البحر فكثيرة من أعظمها جزيرة سمر نديب مدورة الشكل وبها الجبل المشهور يقال ليس في الأرض أعلى منه وهي قبالة سفالة ثم جزيرة القمر وهي جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة أرض سفالة وتذهب الى الشرق منحرفة بكثير الى الشمال الى أن تقرب من سواحل أعالي الصين ويخف بها في هذا البحر من جنوبيها جزائر الواق واق ومن شرقها جزائر السيلان الى جزائر أخرى في هذا البحر كثيرة العدد وفيها أنواع الطيب والأفوية وفيها ينال معادن الذهب والزمرد وعامة أهلها على دين المجوسية وفيهم ملوك متعددون وبهذه الجزائر من أحوال العمران عجائب ذكرها أهل الجغرافيا وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر في الجزء السادس من هذا الاقليم بلاد اليمن كلها من جهة بحر القارم بلز يبدو المبحم ونهامة اليمن وبعدها بلد معدة مقر الإمامة الزيدية وهي بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر الشرق وفيها بعد ذلك مدينة عدن وفي شمالها صنعاء وبعدها الى الشرق أرض الأحقاف وطفار وبعدها أرض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس وهذه القطعة من الجزء السادس هي التي انكشف عنها البحر من أجزاء هذا الاقليم الوسطى وينكشف بعدها قليل من الجزء التاسع وكثير منه من العاشر فيه أعالي بلاد الصين ومن مدينه الشهيرة خانكوك وقبالتها من جهة الشرق جزائر السيلان وقد تقدم ذكرها وهذا آخر الكلام في الاقليم الأول والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بتمه وفضله

الاقليم الثاني وهو متصل بالأول ولعمري جهة الشمال وقبالة المغرب منه في البحر المحيط جزيرتان من جزائر الحالات التي مر ذكرها وفي الجزء الأول والثاني منه في الجانب الأعلى منها أرض قنورية وبعدها في جهة الشرق أعلى أرض غانة ثم بحالات زغاوة من السودان وفي الجانب الأسفل منها صحراء تيسر متصلة من الغرب الى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان وفيها بحالات اللثمين من صنهجة وم شعوب كثيرة ما بين كرولة ولتونة ومسرانة ولطقة ووريكة وعلى سمت هذه المفاوز شرقاً أرض فزان ثم بحالات أركار من قبائل البربر ذاهبة الى أعالي الجزء الثالث على سمتها في الشرق وبعدها من هذا الجزء بلاد كوار من أم السودان ثم قطعة من أرض الباجويين وفي أسفل هذا الجزء الثالث وهي جهة الشمال منه بقية أرض ودان وعلى سمتها شرقاً أرض سنترية وتسمى الواحات الداخلة وفي الجزء الرابع من أعلاه بقية أرض الباجويين ثم يعترض في وسط هذا الجزء بلاد الصعيد خفافى النيل الذي اذهب من مبدئه في الاقليم الأول الى مصبه في البحر فيمر في هذا الجزء بين الجبلين الحاجزين وهما جبل الوحات من غربيه وجبل القطم من شرقيه وعليه من أعلاه بلاد أسناوارمنت ويتصل كذلك خفافيه الى أسبوط وقوص ثم الى صول ويفترق النيل هنالك على شعبين يقتضي الايمن منهما في هذا الجزء عند اللاهون والأيسر عند دلاص وفيما بينهما أعالي ديار مصر وفي الشرق من جبل القطم صحارى عذاب ذاهبة في الجزء الخامس الى أن تنتهي الى بحر السويس وهو بحر القارم الهايط من البحر الهندي في الجنوب الى

جهة الشمال وفي حدوده الشرقية من هذا الجزء أرض الحجاز من جبل يللم إلى بلاد يثرب وفي وسط
 الحجاز مكة شرفها الله وفي ساحلها مدينة جدة تشاهد عذاب في العدو الغربية من هذا البحر وفي
 الجزء السادس من غربيه بلاد نجد أعلاها في الجنوب وتباله وجرش إلى عكاظ من الشمال وتحت نجد من
 هذا الجزء بقية أرض الحجاز وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وخيبر وتحت أرض اليمامة وعلى سمت
 نجران في الشرق أرض سبأ وما رب ثم أرض الشحر وينتهي إلى بحر فارس وهو البحر الثاني الهابط من
 البحر الهندي إلى الشمال كأمرو وينذهب في هذا الجزء إلى الغرب فيرب ما بين شرقه وجوفه قطعة
 مثلثة عليها من أعلاه مدينة قلهات وعلى ساحل الشحر ثم تحتها على ساحل بلاد محمان ثم بلاد البحر من وحر
 منها في آخر الجزء وفي الجزء السابع في الأعلى من غربيه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة الأخرى في
 السادس ويغمر بحر الهند جانبه الأعلى كله وعليه هنالك بلاد السند إلى بلاد مكران ويقابلها بلاد الطويران
 وهي من السند أيضا فيتصل السند كله في الجانب الغربي من هذا الجزء وتحويل القافز بينه وبين أرض الهند
 وغرفه نهره الآتي من ناحية بلاد الهند ويصب في البحر الهندي في الجنوب وأول بلاد الهند على ساحل
 البحر الهندي وفي سمتها شرقا بلاد بلهر أو تحتها المثلثان بلاد الصنم الأعظم عندهم ثم إلى أسفل من السند ثم إلى
 أعلى بلاد سجستان وفي الجزء الثامن من غربيه بقية بلاد بلهر من الهند وعلى سمتها شرقا بلاد الهند هار ثم
 بلاد مليبار وفي الجانب الأعلى على ساحل البحر الهندي وتحتها في الجانب الأسفل أرض كابل وبعدها
 شرقا إلى البحر المحيط بلاد الفوج ما بين تشجير الداخلة وتشجير الخارجة عند آخر الأقليم وفي الجزء
 التاسع ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الأقصى ويتصل فيه إلى الجانب الشرقي فيتصل من أعلاه إلى
 العاشر وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون ثم تتصل بلاد الصين في الجزء
 العاشر كله إلى البحر المحيط والله ورسوله أعلم وبه سبحانه التوفيق وهو ولي الفضل والكرم
 (الأقليم الثالث) هو متصل بالثاني من جهة الشمال في الجزء الأول منه وعلى نحو الثلث من أعلاه
 جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط إلى الشرق عند آخره ويسكن هذا الجبل من البربر
 أم لا يحصهم إلا خالفهم حسب ما يأتي ذكره وفي القطعة التي بين هذا الجبل والأقليم الثاني وعلى البحر المحيط
 منها رباط ماسة ويتصل به شرقا بلاد سوس ونول وعلى سمتها شرقا بلاد درعة ثم بلاد سجماسة ثم قطعة من
 صحراء تيسر المقارة التي ذكرناها في الأقليم الثاني وهذا الجبل مظل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء وهو
 قليل الثياب والمسالك في هذه الناحية الغربية إلى أن بسامت وادي ملوية فتكثر ثيابه ومسالكه إلى أن ينتهي
 وفي هذه الناحية منه أم الصامدة ثم هنناته ثم ينملك ثم كدميو ثم مشكورة ثم آخر الصامدة فيه ثم قبائل
 صنبا كروم صنهاجة وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زناتة ويتصل به هنالك من جوفه جبل أوراس وهو
 جبل كثامته وبعد ذلك أم أخرى من البرابرة تذكر في أما كنهم ثم إن جبل درن هذا من جهة غربيه مظل
 على بلاد المغرب الأقصى وهي في جوفه في الناحية الجنوبية منها بلاد مراكنش وانمات وتادلا وعلى البحر
 المحيط منها رباط أسفي ومدينة سالوفي الجوف عن بلاد مراكنش بلاد فاس ومكناسة وتازاو قصر كرامة

هذه هي التي تسمى المغرب الأقصى في عرف أهلها وعلى ساحل البحر المحيط منها بلدان أصيلا والعرايش
في سمت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان وفي سواحلها على البحر الرومي بلدهنين
وهران والجزائر لأن هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج تلنجة في الناحية الغربية
من الأقليم الرابع ويذهب مشرقا فينتهي إلى بلاد الشام فإذا خرج من الخليج المتخاليق غير بعيد انفسح
نوبا وشمالا فدخل في الأقليم الثالث والخامس فلهذا كان على ساحله من هذا الأقليم الثالث الكثير
من بلاده ثم اتصل ببلاد الجزر ثم من شرقها بلاد بخاية في ساحل البحر ثم قسطنطينة في الشرق منها وفي آخر
الجزء الأول وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوب هذه البلاد ومرتعا إلى جنوب المغرب الأوسط بلاد
شعر ثم بلاد المسيلة ثم الزاب وقاعدتها يسكرة تحت جبل أوراس اتصل بدران كما مر وذلك عند آخر هذا
الجزء من جهة الشرق والجزء الثاني من هذا الأقليم على هيئة الجزء الأول ثم جبل درن على نحو الثلث من
جنوبه ذاهبا فيه من غرب إلى شرق فيقسمه بقطعتين ويغمر البحر الرومي مسافة من شماله فالقطعة
لجنوبية عن جبل درن غربها كله مفاوز وفي الشرق منها بلاد غدامس وفي منها شرقا أرض ودان التي
فيها في الأقليم الثاني كاسر والقطعة الجنوبية عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومي في المغرب منها
جبل أوراس ونيسة والأول ويس على ساحل البحر بلونة ثم في سمت هذه البلاد شرقا بلاد أفريقية فعلى
ساحل البحر مدينة تونس ثم سوسة ثم المهدية وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد تنوزر
برقصة ونزارة وفيها بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسيطة وعلى سمت هذه
البلاد كليا شرقا بطر ايس على البحر الرومي وبازائها في الجنوب جبل دمر ونقرة من قبائل هواة
متصلة بجبل درن وفي مقابلة غدامس التي مر ذكرها في آخر القطعة الجنوبية وآخر هذا الجزء في
الشرق سويقة ابن منكورة على البحر وفي جنوبها عجالات العرب في أرض ودان وفي الجزء الثالث من
هذا الأقليم يمر أيضا في جبل درن لأنته منعطف عند آخره إلى الشمال ويذهب على سمتة إلى أن يدخل في
البحر الرومي ويسمى هناك طرف أوان والبحر الرومي من شماله فمر طائفة منه إلى أن يضائق ما بينه
وبين جبل درن فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب متبقية أرض ودان وعجالات العرب فيها ثم
زويلة ابن خطاب ثم مران وقفار إلى آخر الجزء في الشرق وفيها بين الجبل والبحر في الغرب منه بلد سرت
على البحر ثم خلاه وقفار تجول فيها العرب ثم لجداية ثم برقة عند منعطف الجبل ثم طلعت على البحر هناك
ثم في شرق المنعطف من الجبل عجالات هيب ورواحة إلى آخر الجزء وفي الجزء الرابع من هذا الأقليم
وفي الأعلى من غربيه محاري بريق وأسفل منها بلاد هيب ورواحة ثم يدخل البحر الرومي في هذا
الجزء فيغمر طائفة منه إلى الجنوب حتى زاحم طرفه الأعلى ويبقى منه وبين آخر الجزء وقفار تجول فيها
العرب وعلى سمتها شرقا بلاد الفيوم وهي على مصب أحد الشعبين من النيل الذي يمر على اللاهون من بلاد
الصعيد في الجزء الرابع من الأقليم الثاني ويصب في بحيرة فيوم وعلى سمتة شرقا أرض مصر ومدينتها
الشهيرة على الشعب الثاني الذي يمر ببلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني ويفترق هذا الشعب

اقترافاً ثانية من تحت مصر على شعبين آخرين من شطونوف ورفقي ويتقسم الايمن منهما من قمر مط
 بشعبين آخرين ويصب جميعها في البحر الرومي فعلى مصب الغربي من هذا الشعب بلاد الاسكندرية وعلى
 مصب الوسط بلد رشيد وعلى مصب الشرقي بلد مياط وبين مصر والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية
 أسافل الديار المصرية كلها عشوة عمرانا وخليجا وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم بلاد الشام
 وأكثرها على ما أنصف وذلك لأن بحر الفلزم ينتهي من الجنوب وفي الغرب منه عند السويس لأنه في
 عمره مبتدى من البحر الهندي الى الشمال ينعطف أخذا الى جهة الغرب فتكون قطعة من انعطافه في
 هذا الجزء طولاً فينتهي في الطرف الغربي منه الى السويس وعلى هذه القطعة بعد السويس فإن تم جبل
 الطور ثم أبلقمد بن ثم الحوراء في آخرها ومن هنالك ينعطف بساحله الى الجنوب في أرض الحجاز كما مر
 في الاقليم الثاني في الجزء الخامس منه وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر الرومي غمرت
 كثير من غريبه عليها القرى والعريش وقارب طر فيها بلاد القلزم فيضايق ما بينهما من هنالك وفي شبه الباب
 مقصيا الى أرض الشام وفي غربي هذا الباب نفس التيه أرض جرداء لا تبت كانت بحال بني اسرائيل
 بعد خروجهم من مصر وقبل دخولهم الى الشام أربعين سنة كاقصه القرآن وفي هذه القطعة من البحر
 الرومي في هذا الجزء طائفة من جزيرة قبرص وبقيتها في الاقليم الرابع كأنه كرهه وعلى ساحل هذه القطعة
 عند الطرف المتضايق لبحر السويس بلاد العريش وهو آخر الديار المصرية وعسقلان وبينهما طرف هذا
 البحر ثم تنحط هذه القطعة في انعطافها من هنالك الى الاقليم الرابع عند دار ابلس وغزة وهنالك ينتهي
 البحر الرومي في جهة الشرق وعلى هذه القطعة أكثر سواحل الشام في شرقه عسقلان وناحرا في يسير
 عنها الى الشمال بلاد قيسارية ثم كذلك بلاد عكا ثم صور ثم صيدا ثم غزة ثم ينعطف البحر الى الشمال في الاقليم
 الرابع ويقابل هذه البلاد الساحلية من هذه القطعة في هذا الجزء جبل عظيم يخرج من ساحل أبله من بحر
 القلزم وينتهي في ناحية الشمال منحرفا الى الشرق الى أن يخاوز هذا الجزء ويسمى جبل اللسكام وكناه
 حاجز بين أرض مصر والشام في طرفه عند أبله العقبة التي يمر عليها الحاجز من مصر الى مكة ثم بعدها في
 ناحية الشمال مدفن الخليل عليه الصلاة والسلام عند جبل السراة متصل من عند جبل اللسكام المذكور من
 شمال العقبة ذاهبا على سبيل الشرق ثم ينعطف قليلا وفي شرقه هنالك بلد الحجر وديار ثمود وتيماء ودومة
 الجندل وهي أسافل الحجاز وفوقها جبل رضوى وحصون خيبر في جهة الجنوب عنها وفيها بين جبل السراة
 وبحر القلزم صحراء تبوك وفي شمال جبل السراة مدينة القدس عند جبل اللسكام ثم الأردن ثم طبرية وفي
 شرقها بلاد النجور الى أذرعات وفي سمتها شرقاً دومة الجندل آخر هذا الجزء وهي آخر الحجاز وعند
 منعطف جبل اللسكام الى الشمال من آخر هذا الجزء مدينة دمشق مقابلة صيدا ويبروت من القطعة
 البحرية وتو جبل اللسكام يعترض بينها وبينها على سمت دمشق في الشرق مدينة بعلبك ثم مدينة حمص في الجهة
 الشمالية آخر الجزء عند منقطع جبل اللسكام وفي الشرق عن بعلبك وحمص بلاد تدمر ومجالات البادية الى
 آخر الجزء وفي الجزء السادس من أعلاه مجالات الأعراب تحت بلاد نجد واليمامة ما بين جبل العرج

التيان الى البحرين وعجرج على بحر فارس وفي أسافل هذا الجزء تحت الجبال بلاد الحيرة والقادسية
 ما بين الفرات * وفيها بعد هاتر قادمة الى البحر وفي هذا الجزء ينتهي بحر فارس عند عبادان والآيلة (١)
 من أسافل الجزء من شماله ويصب فيه عند عبادان نهر دجلة بعد أن ينقسم بجداول كثيرة وتخلط به
 بداول أخرى من الفرات ثم تجتمع كلها عند عبادان وتصب في بحر فارس وهذه القطعة من البحر مقسمة
 بأعلاه متساوية في آخره في شرفيه وضيقه عند منتهاه مضائقه للحد الشمالي منه وعلى حدودها الغربية مقسمة
 أسافل البحر من وعجرج والأحساء وفي غربها أخطب والسيان وبقية أرض الإمامة وعلى حدودها الشرقية
 وتحت فارس من أعلاها وهو من عند آخر الجزء من الشرق على طرف قدامت من هذا البحر مشرقا
 وراما الى الجنوب في هذا الجزء جبال القفص من كرمان وتحت هرمز على الساحل بلد سيراف ونجيم
 من ساحل هذا البحر * وفي شرفيه الى آخر الجزء وتحت هرمز من بلاد فارس مثل سابور ودارا بنجرد ونا
 اصطخر والشاهجان وشيراز وهي فاعدها كلها وتحت بلاد فارس الى الشمال عند طرف البحر بلاد
 خوزستان ومنها الأهواز وتستر وسدي وسابور والسوس ورام هرمز وغيرها وأرجان وهي حد
 بين فارس وخوزستان وفي شرق بلاد خوزستان جبال الأكراد متصلة الى نواحي أصهبان وبها
 ساكنهم ومجالاتهم وراها في أرض فارس وتسمى الروم وفي الجزء السابع في الأعلى من من الغرب
 الى جبال القفص ويليها من الجنوب والشمال بلاد كرمان ومكران ومن مدينتها الرودان والشيرجان
 حيرفت وبزدشير والهرج وتحت أرض كرمان الى الشمال بقية بلاد فارس الى حدود أصهبان ومدينة
 أصهبان في طرف هذا الجزء ما بين غربيه وشماله ثم في الشرق عن بلاد كرمان وبلاد فارس أرض سجستان
 كوهستان في الجنوب وأرض كوهستان في الشمال عنها ويتوسط بين كرمان وفارس وبين سجستان
 كوهستان في وسط هذا الجزء الفاوز العظمى القليلة لذلك تصعب بها ومن مدن سجستان بست
 الطافي وأما كهنستان فهي من بلاد خراسان ومن مشاهير بلادها سرخس وقوهستان آخر الجزء
 وفي الجزء الثامن من غربيه وجنوبه مجالات الخليج من أم الترك متصلة بأرض سجستان من غربها وبأرض
 تابل الهند من جنوبها وفي الشمال عن هذه المجالات جبال الغور وبلادها وقاعدتها غزنة فريضة الهند
 وفي آخر الغور من الشمال بلاد استراباد ثم في الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد هراة أو سطخراسان
 وبها اسفراين وقاشان وبوشنج ومرو والروذ والطالقان والجوزجان وتنتهي خراسان هنالك الى
 نهر جيحون * وعلى هذا النهر من بلاد خراسان من غربيه مدينة بلخ وفي شرفيه مدينة ترمذ
 ومدينة بلخ كانت كرسى مملكة الترك وهذا النهر نهر جيحون يخرج من بلاد وجر في حدود
 بدخشان كما يلي الهند ويخرج من جنوب هذا الجزء وعند آخره من الشرق فينحطف عن قرب مغربا
 الى وسط الجزء ويسمي هنالك نهر خر تاب ثم ينحطف الى الشمال حتى يمر بنهر اسان ويذهب على سبيله

(١) قوله الآية يضم الهزة والباء وتشديد اللام اهـ

الى أن يصب في بحيرة خوارزم في الاقليم الخامس كانه ذكره ويحده عند انعطافه في وسط الجزء من الجنوب الى الشمال خمسة أنهار عظيمة من بلاد الختل واثوخش من شرقيه وأنهار أخرى من جبال الهم من شرقيه أيضاً وجوفي الجبل حتى يتسع ويعظم بما لا كفاء له ومن هذه الأنهار خمسة المعدة له نهر وخشاب يخرج من بلاد التبت وهي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء فيمر مغرباً بالخراف الى الشمال الى أن يخرج الى الجزء التاسع قريباً من شمال هذا الجزء يعترضه في طريقه جبل عظيم يمر من وسط الجنوب في هذا الجزء ويذهب متصفاً بالخراف الى الشمال الى أن يخرج الى الجزء التاسع قريباً من شمال هذا الجزء فيحوز بلاد التبت الى القطعة الشرقية الجنوبية من هذا الجزء ويحول بين الترك وبين بلاد الختل وليس فيه الامساك واحد في وسط الشرق من هذا الجزء جعل فيه الفضل بن يحيى سداً وبني فيه باباً كسدياً جوج وما جوج فلذا خرج نهر وخشاب من بلاد التبت واعترضه هذا الجبل فيمر تحته في مدى بعد الى أن يمر في بلاد الوخش ويصب في نهر جيحون عند حدود بلخ ثم يمر بها بطا الى الترمذ في الشمال الى بلاد الجوزجان وفي الشرق عن بلاد الغور فيما بينها وبين نهر جيحون بلاد النسان من خراسان وفي الحدود الشرقية هنالك من النهر بلاد الختل وأكثرها جبال وبلاد الوخش ويحدها من جهة الشمال جبال الهم يخرج من طرف خراسان غربي نهر جيحون وتذهب مشرقاً الى أن تصل طرفياً بالجبل العظيم الذي خلفه بلاد التبت ويمر تحته نهر وخشاب كما قلناه فيتصل به عند باب الفضل بن يحيى ويمر نهر جيحون بين هذه الجبال وأنهار أخرى تصب فيه منها نهر بلاد الوخش يصب فيه من الشرق تحت الترمذ الى جهة الشمال ونهر بلخ يخرج من جبال الهم من مبدئه عند الجوزجان ويصب فيه من غربيه وعلى هذا النهر من غربيه بلاد آمد من خراسان وفي شرق النهر من هنالك أرض الصغد وأسر وسنة من بلاد الترك وفي شرقها أرض فرغانة أيضاً الى آخر الجزء شرقاً وكل بلاد الترك تحوزها جبال الهم الى شمالها وفي الجزء التاسع من غربيه أرض التبت الى وسط الجزء وفي جنوبها بلاد الهند وفي شرقها بلاد الصين الى آخر الجزء وفي أسفل هذا الجزء شمالاً عن بلاد التبت بلاد الخزلجية من بلاد الترك الى آخر الجزء شرقاً وشمالاً ويتصل بهامن غربها أرض فرغانة أيضاً الى آخر الجزء شرقاً ومن شرقها أرض التغرغر من الترك الى آخر الجزء شرقاً وشمالاً وفي الجزء العاشر في الجنوب منه جميعاً بقية الصين وأساقفه وفي الشمال بقية بلاد التغرغر ثم شرقاً عنهم بلاد خرخير من الترك أيضاً الى آخر الجزء شرقاً وفي الشمال من أرض خرخير بلاد كتمان من الترك وقياتها في البحر المحيط جزيرة الياقوت في وسط جبل مستدير لا متخذ منه الهاولامستك والصعود الى أعلاه من خارجه صعب في الغاية وفي الجزيرة حيات قتالة وحصى من الياقوت كثيرة فيحتال أهل تلك الناحية في استخراجها بما يلهمهم الله اليه وأهل هذه البلاد في هذا الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خراسان والجبال كلها محلات للترك أم لا تحصى وم طوا عن رحالة أهل ابل وشاء وبقر وخيل للتناج والركوب والاعمال كل وطوائفهم كثيرة لا يحصى منهم الاخلاقهم وفيهم مسلمون بمائلي

بلاد النهر نهر جيحون ونغزون الكفار منهم الذين بالحوسية فيبعون رقيقهم لمن يلهم ويخرجون
الى بلاد خراسان والهند والعراق

الاقليم الرابع ✦ يتصل بالثالث من جهة الشمال ✦ والجزء الأول منه في غريه قطعة من
البحر المحيط مستطيلة من أوله جنوبا الى آخره شمالا وعليها في الجنوب مدينة طنجة ومن هذه
القطعة تحت طنجة من البحر المحيط الى البحر الرومي في خليج متتابع بمقدار اثني عشر ميلا ما بين
طريف والجزيرة الخضراء شمالا وقصر الحجاز وسبتة جنوبا ويذهب مشرقا الى أن ينتهي الى وسط
الجزء الخامس من هذا الاقليم وينسحب في ذهابه بتدرج الى أن يغمر الأربعة أجزاء وأكثر
الخامس ويغمر عن جانبه طرف من الاقليم الثالث والخامس كما سنذكره ويسمى هذا البحر البحر
الساقي أيضا وفيه جزائر كثيرة أعظمها في جهة الغرب بابسة ثم مبرقة ثم مزقة ثم سر دانية ثم صقلية
وهي أسنمها ثم بلونس ثم أفر يمش ثم قبرص كأن ذكرها كلها في أجزاءها التي وقعت فيها ويخرج من
هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه وفي الجزء الثالث من الاقليم الخامس خليج البنادقة يذهب
الى ناحية الشمال ثم يعطف عند وسط الجزء من جوفه ويعبر مغربا الى أن ينتهي في الجزء الثاني من
الخامس ويخرج منه أيضا في آخر الجزء الرابع شرقا من الاقليم الخامس خليج القسطنطينية يمر في الشمال
منه بقا في عرض رمية السهم الى آخر الاقليم ثم يفيض الى الجزء الرابع من الاقليم السادس ويعطف
الى بحر ينحس ذاهبا الى الشرق في الجزء الخامس كله ونصف السادس من الاقليم السادس كأن ذكر
ذلك في أماكنه وعندما يخرج هذا البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة وينسحب الى الاقليم
الثالث يبقى في الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين وبعددها
مدينة سبتة على البحر الرومي ثم قطنون ثم باريس ثم يغمر هذا البحر بقية هذا الجزء شرقا ويخرج الى
الثالث وأكثر انهاره في هذا الجزء في شماله وشمالي الخليج منه وهي كلها بلاد الأندلس الغربية منها ما بين
البحر المحيط والبحر الرومي أولها طريف عند مجمع البحرين وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي
الجزيرة الخضراء ثم مالقة ثم المنكب ثم المريقة تحت هذه من بلاد البحر المحيط غربا وعلى مقربة منه شريش
ثم لبلبة وقيانها في جزيرة قادس وفي الشرق من شريش ولبلة أشبيلية ثم استجة وقرطبة ومدبلية ثم غرناطة
وجيان وأبدية ثم وادي اش وبسطة وتحت هذه شذمريّة وشلب على البحر المحيط غربا وفي الشرق عنهما
بظليوس وماردة ويايرة ثم غافق ويزجاله ثم قلعة رياح وتحت هذه أشبونة على البحر المحيط غربا وعلى
نهر بلجة وفي الشرق عنها شترين وموزية على النهر انذ كور ثم قنطرة السيف ويسامت أشبونة من
جهة الشرق جبل الشارات بيدأ من المغرب هنالك ويذهب مشرقا مع آخر الجزء من شماله فينتهي الى
مدينة سالم فيها بعد النصف منه وتحت هذا الجبل طليبة في الشرق من فورة ثم ظليطة ثم وادي الحجارة
ثم مدينة سالم وعند أول هذا الجبل فيها بينه وبين أشبونة بلد قمرية هذه غربي الأندلس ✦ وأما شرق
الأندلس فعلى ساحل البحر الرومي منها بعد المريّة قرطاجنة ثم لفته ثم دانية ثم بلنسية الى طرف غرناطة آخر

الجزء في الشرق وتحتها شمالاً ليورقة وشقورة تاحمان بسطه وقلعة رياح من غرب الأندلس ثم مرية شرقاً ثم شاطبة تحت بلنسية شمالاً ثم شقر ثم طرطوشة ثم طركونة آخر الجزء ثم تحت هذه شمالاً أرض منجالة وريدة متاخمان لشقورة وطليلة من الغرب ثم فراغة شرقاً تحت طرطوشة وشمالاً عنها ثم في الشرق عن مدينة سالم قلعة أيوب ثم سرقطة ثم لاردة آخر الجزء شرقاً وشمالاً والجزء الثاني من هذا الاقليم يمر الماء جميعه الاقطعة من غريبه في الشمال فيها بنية جبل البرنات ومعناه جبل اثنايا والسالك يخرج اليه من آخر الجزء الأول من الاقليم الخامس يبدأ من الطرف المتعدي من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوباً وشرقاً ويمر في الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج في هذا الاقليم الرابع منحرفاً عن الجزء الأول منه الى هذا الجزء الثاني فيقع فيه قطعة منه تفضي ثاياتها الى البحر المتصل وتسمى أرض غشكونية وفيه مدينة حريدة وقرقشونة وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برسانة ثم أريونة وفي هذا البحر الذي يمر الجزء جزائر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرها ففي غريبه جزيرة سردانية وفي شرقه جزيرة صقلية متسعة الاقطار يقال ان دورها سبع مائة ميل وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سرقوسة وطرطوش وطارقة وغازر ومسيني وهذه الجزيرة تقابل أرض أفريقية وفيها بينهما جزيرة أعدوش والقطعة الجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور أيضاً بالبحر الاثلاث قطع من ناحية الشمال الغربية منها أرض قلورية والوسطى من أرض بكريده والشرقية من بلاد البنادقة والجزء الرابع من هذا الاقليم مغمور أيضاً بالبحر كما مر وجزائره كثيرة وأكثرها غير مسكون كافي الثالث والمغمور منها جزيرة بلونس في الناحية الغربية الشمالية وجزيرة أقرطش مستطيلة من وسط الجزء الى ما بين الجنوب والشرق منه والجزء الخامس من هذا الاقليم يمر البحر منه مثثة كبيرة بين الجنوب والغرب ينتهي الضلع الغربي منها الى آخر الجزء في الشمال وينتهي الضلع الجنوبي منها الى نحو النشرين من الجزء ويبقى في الجانب الشرق من الجزء قطعة نحو الثلث يمر الشمال منها الى الغرب منعطفاً مع البحر كالفناء وفي النصف الجنوبي منها أسافل الشام ويمر في وسطها جبل اللكام الى أن ينتهي الى آخر الشام في الشمال فينعطف من هنالك ذاهباً الى القطر الشرق الشمال ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة ومن هنالك يخرج الى الاقليم الخامس ويمر من عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة الى جهة الشرق ويقوم من عند منعطفه من جهة الغرب جبال متصلة بعضها ببعض الى أن ينتهي الى طرف خارج من البحر الرومي متأخراً الى آخر الجزء من الشمال وبين هذه الجبال ثايات تسمى الدروب وهي التي تفضي الى بلاد الأرمين وفي هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا أن فيها أسافل الشام أن جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب الى الشمال فعلى ساحل البحر منه بلاد أنطوطوس في أول الجزء من الجنوب متاخمة لغزة وطرطوس على ساحله من الاقليم الثالث وفي شمال أنطوطوس جبلة ثم اللاذقية ثم الكندرونة ثم سلوقية وبعدها شمالاً بلاد الروم وأما جبل اللكام المعترض بين البحر وآخر الجزء يخفاه فيصاقيه من بلاد الشام من أعلى الجزء

جنوباً من غربيه حسن الخواني وهو للحبيشة الاسماعيلية ويعرفون هذا العهد بالفداو يتو بسمى الحصن
مسيات وهو قبالة أنظر طوس وقبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلسية في الشمال عن حصن وفي الشمال عن
مسيات بين الجبل والبحر بلد أنطاكية ويقابلها في شرق الجبل المعرة وفي شرقها المراغة وفي شمال أنطاكية
القصبة ثم أذن ثم طرسوس آخر الشام وعازيها من غرب الجبل قنسرين ثم عين زربة وقبالة قنسرين في
شرق الجبل حلب ويقابل عين زربة منبج آخر الشام وأما الدروب فمن بينهما ما بينهما وبين البحر الرومي
بلاد الروم التي هي هذا العهد لا تكان وسلطانها ابن عثمان وفي ساحل البحر منها بلد أنطاكية والعلايا وأما
بلاد الأرمين التي بين جبل الدروب وجبل السلسلة فقها بلد مرعش وملطية والمرة إلى آخر الجزء
الشمالى ويخرج من الجزء الخامس في بلاد الأرمين نهر جيحان ونهر سيجان في شرقه فيمر بها
جيحان جنوباً حتى يتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم بالقصبة ثم بتعطف هابطاً إلى الشمال ومغرباً
حتى يصب في البحر الرومي جنوب سلوقية وتمر نهر سيجان موازاً بالنهر جيحان فيحاذى المعرة ومرعش
ويتجاوز جبال الدروب إلى أرض الشام ثم يمر بعين زربة ويجوز عن نهر جيحان ثم بتعطف إلى
الشمال مغرباً فيدخل نهر جيحان عند القصبة ومن غربها وأما بلاد الجزيرة التي تحيط بها بتعطف جبل
الشكك إلى جبل السلسلة في جنوبها بلد الرافضة والرقعة ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين ثم سيلاط
وأما تحت جبال السلسلة وآخر الجزء من شماله وهو أيضاً آخر الجزء من شرقه ويمر في وسط
عنده القسعة نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الأقليم الخامس ويتران في بلاد الأرمين جنوباً إلى
أن يتجاوزا جبل السلسلة فيمر نهر الفرات من غربي سيلاط وسروج ويتعرف إلى الشرق فيمر بقرب
الرافضة والرقعة ويخرج إلى الجزء السادس وتمر دجلة في شرق آمد وتنعطف قريباً إلى الشرق فيخرج
قريباً إلى الجزء السادس وفي الجزء السادس من هذا الأقليم من غربيه بلاد الجزيرة وفي الشرق منها
بلاد العراق متصلة بها تنتهي في الشرق إلى قرب آخر الجزء ويعترض من آخر العراق هنالك جبل أصهبان
هابطاً من جنوب الجزء منحرفاً إلى الغرب فإذا انتهى إلى وسط الجزء من آخره في الشمال يذهب مغرباً
إلى أن يخرج من الجزء السادس ويتصل على سمنه بجبل السلسلة في الجزء الخامس فيقطع هذا الجزء
سادس يقطع من غربية وشرقية في الغربية من جنوبها يخرج الفرات من الخامس وفي شمالها يخرج
دجلة منه أما الفرات فأول ما يخرج إلى السادس يمر بقرقيسياً ويخرج من هنالك جدول إلى الشمال ينساب
في أرض الجزيرة ويفوس في نواحيها ويمر من قرقيسياً بعيداً ثم بتعطف إلى الجنوب فيمر بقرب
الحناور إلى غرب الرحبة ويخرج منه جدول من هنالك غرباً جنوباً ويبقى حنين في غربيه ثم بتعطف
شرقاً وينقسم بشعوب فيمر بعضها بالكوفة وبعضها بقصر ابن هيرة وبالجامعين ويخرج جميعاً في
جنوب الجزء إلى الأقليم الثالث فيفوس هنالك في شرق الحيرة والقادسية ويخرج الفرات من الرحبة
مشرقاً على سمنه إلى حيث من شمالها يمر إلى الزاب والأبار من جنوبها ثم يصب في دجلة عند بغداد وأما نهر
دجلة فإذا دخل من الجزء الخامس إلى هذا الجزء يمر مشرقاً على سمنه وعازيها لجبل السلسلة المتصل بجبل

العراق على ستمه فيمر بحزيرة ابن عمر على شمالها ثم بالموصل كذلك وتكرت وينتهي الى الحديثة فينعطف جنوبا وبقى الحديثة في شرقه والزاب الكبير والصغير كذلك ويمر على ستمه جنوبا وفي غرب الفادسية الى أن ينتهي الى بغداد ويختلط بالفرات ثم يدر جنوبا على غرب جرجان الى أن يخرج من الجبل الى الاقليم الثالث فتنتشر هناك شعوبه وحدلوله ثم يجتمع ويصب هناك في نهر فارس عند عباده وفيها بين نهر المجله والفرات قبل مجعها ببغداد هي بلاد الجزيرة ويختلط بنهر دجلة بعد مفارقه ببغداد نهر آخر يأتي من الجهة الشرقية الشمالية منه وينتهي الى بلاد النهر وان قبالة بغداد شرقا ثم ينعطف جنوبا ويختلط بدجلة قبل خروجه الى الاقليم الثالث ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والاعاجيبه جلولا وفي شرقها عند الجبل بلخوان وصيمرة وأما القطعة الغربية من الجزء فبعتة ضبا جبل يدعى من جبل الاعاجيبه مشرقا الى آخر الجبل يسمى جبل شير زور وتسمى بقطعتين وفي الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلخوان في العرب والشمال عن أصهبان وتسمى هذه القطعة بلاد الهلوس وفي وسطها بلدناوند وفي شمالها بلد شير زور غربا عند ملتقى الجبلين والديور شرقا عند آخر الجزء وفي القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد أرمينية فبعتها المرافق الذي يقابلها من جبل العراق يسمى باريابو هو مساكن للاكراد والزاب الكبير والصغير الذي على دجلة من ورائه وفي آخر هذه القطعة من جهة الشرق بلاد أذربيجان ومنها تبريز والبيلقان وفي الرواية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطعة من بحر نبطش وهو بحر الخزر وفي الجزء السابع من هذا الاقليم من غربه وجنوبه معظم بلاد الهلوس وفيها همدان وقزوين وبقيتها في الاقليم الثالث وفيها هناك أصهبان ويحيط بها من الجنوب جبل يخرج من غربها ويقر بالاقليم الثالث ثم ينعطف من الجزء السادس الى الاقليم الرابع ويصل بجبل العراق في شرقه الذي مر ذكره هناك وأنه يحيط ببلاد الهلوس في القطعة الشرقية ويسيطر هذا الجبل المحيط بأصهبان من الاقليم الثالث الى جهة الشمال ويخرج الى هذا الجزء السابع فيحيط ببلاد الهلوس من شرقها وتحت هناك فاشان ثم ينعطف في قرب النصف من طريقه مغربا بعض الشيء ثم يرجع مستديرا فيذهب مشرقا ومنحرفا الى الشمال حتى يخرج الى الاقليم الخامس ويشتمل على منعطفه واستدارته على الذي في شرقه ويبدأ من منعطفه جبل آخر يمر غربا الى آخر الجزء ومن جنوبه من هناك قزوين ومن جانبه الشمالي وجانب جبل الري المتصل معه ذهبا الى الشرق والشمال الى وسط الجزء ثم الى الاقليم الخامس بلاد طبرستان فيها بين هذه الجبال وبين قطعة من بحر طبرستان ويدخل من الاقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النصف من غربه الى شرقه ويعترض عند جبل الري وعند انعطافه الى الغرب جبل متصل يمر على ستمه مشرقا وبأعراف قليل الى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربه ويبقى بين جبل الري وهذا الجبل من عند بعدئها بلاد جرجان فيما بين الجبلين ومنها بسطام ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء وفيها بقية الفارزة التي بين فارس وخراسان وهي في شرق فاشان وفي آخرها عند هذا الجبل بلاد ستراباذ وحقاني هذا الجبل من شرقه الى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان في جنوب الجبل وشرق الفارزة بلد

يسابور ثم مرو والشاهجان آخر الجز، وفي شماله وشرق جزجان بهدمير جان وخازرون وعلوس آخر
جزء شرقا وكل هذه تحت الجبل وفي الشمال عنها بلاد ساو محيط بها عند زاوية الجز أين الشمال أو الشرق
مناور معطلة وفي الجزء الثامن من هذا الاقليم وفي غربيه نهر جيحون ذاهبا من الجنوب الى الشمال
في عمدة القريته موآمل وبلاد خراسان والظاهرية والجرجانية من بلاد خوارزم ومحيط بالزاوية
الغربية الجنوبية منه جبل استراياذ العرش في الجزء التاسع قبله ونهر جرج في هذا الجزء من غربيه ومحيط
بهذه الزاوية وفيها بقية بلاد هرات ونهر الجبل في الاقليم الثالث بين هرات والجزر جان حتى متصل
بجبل التيم كاد كرهه هناك وفي شرق نهر جيحون من هذا الجزء وفي الجنوب منه بلاد بخاري ثم
بلاد الصغد وقاعدتها سمرقند ثم بلاد أسروسنة ومنها خجندة آخر الجزء شرقا وفي الشمال عن سمرقند
وأسروسنة أرض يلاق ثم في الشمال عن يلاق أرض الشاش (١) الى آخر الجزء شرقا يأخذ قطعة
من الجزء التاسع في جنوب تلك القطعة بقية أرض فرغانة ونهر جرج من تلك القطعة التي في الجزء التاسع
نهر الشاش يمر معترضا في الجزء الثامن الى أن ينصب في نهر جيحون عند نهر جرج من هذا الجزء الثامن
في شماله الى الاقليم الخامس ويختلط معه في أرض يلاق نهر ياق من الجزء التاسع من الاقليم الثالث من
نجوم بلاد التبت ويختلط معه قبل نهر جرج من الجزء التاسع نهر فرغانة وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون
يبدأ من الاقليم الخامس وينطف شرقا ومنحرفا الى الجنوب حتى يخرج الى الجزء التاسع محيطا بأرض
الشاش ثم ينطف في الجزء التاسع فيحيط بالشاش وفرغانة هناك الى جنوبه فيدخل في الاقليم الثالث
ويبقى نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط الجزء بلاد طراب وبيندوبين أرض بخاري وخوارزم
مناور معطلة وفي زاوية هذا الجزء من الشمال والشرق أرض خجندة وفيها بلاد السحاب وطراز وفي
الجزء التاسع من هذا الاقليم في غربيه بعد أرض فرغانة والشاش أرض الخرجانية في الجنوب وأرض
الحليجية في الشمال وفي شرق الجزء كله أرض الكيمائية ويتصل في الجزء العاشر كله الى جبل قوقيا آخر
الجزء شرقا على قطعة من البحر المحيط هناك وهو جبل ياجوج وماجوج وهذه الأسماء كلها من شعوب
الترك انتهى

الاقليم الخامس الجزء الأول منه أكثره مغمور بالماء الا قليلا من جنوبه وشرقه لأن البحر
المحيط بهذه الجهة الغربية دخل في الاقليم الخامس والسادس والسابع عن الدائرة المحيطة بالاقليم فاما
التكشف من جنوبه فقطعة على شكل مثلث متصلة من هناك بالاندلس وعليها بضيها ويحيط بها البحر
من جيتين كأنهما ضلعان محيطان بزاوية المثلث ففيها من بقية غرب الاندلس سعيور على البحر عند أول
الجزء من الجنوب والغرب وسمنكة شرقا عنها وفي جوفها سمورة وفي الشرق عن سمنكة أيلة آخر
الجنوب وأرض قسالية شرقا عنها وفيها مدينة شقونية وفي شمالها أرض ليون وبرغشت ثم وراءها في
الشمال أرض حقيقية الى زاوية القطعة وفيها على البحر المحيط في آخر الضلع الغربي بلاد شياقو ومعناه

(١) في المشترك اقليم يلاق متصل بالاقليم الشاش لا تفصل بينهما وهو بكر الهمة وسكون الياء بعدها

يعقوب وفيها من شرق بلاد الاندلس مدينة شطلية عند آخر الجز في الجنوب وشرقاً عن قسنطينة وفي
شمالها وشرقها وشقة وينبؤة على منها شرقاً وشمالاً وفي غرب ينبؤة قسطنطينة ثم ناجزة فيها بينها وبين
برغشت ويعترض وسط هذه القطعة جبل عظيم عازلاً للبحر وللضلع الشمالي الشرق منه وعلى قرب ويتصل
بهو بطرف البحر عند ينبؤة في جهة الشرق التي ذكرنا من قبل أن يتصل في الجنوب بالبحر الرومي في
الأقليم الرابع ويصير حجر أعلى بلاد الاندلس من جهة الشرق وتنايه أبوابها تنقضي إلى بلاد غشكونية
من أم الفرنج منها من الأقليم الرابع برشلونته وأربونة على ساحل البحر الرومي وخريدة وفرقشونة
وراءهما في الشمال ومنها في الأقليم الخامس طلوشة شمالاً عن خريدة وأما التي تكشف في هذا الجزء من جهة
الشرق فقطعة على شكل مثلث مستطيل زاوية الحادة ورواء البريات شرقاً وفيها على البحر أعيط على رأس
القطعة التي يتصل بها جبل البريات بذيونته وفي آخر هذه القطعة في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء
أرض ينطو من الفرنج إلى آخر الجزء وفي الجزء الثاني في الناحية الغربية منه أرض غشكونية وفي شمالها
أرض ينطو وبرغشت وقد ذكرناهما في شرق بلاد غشكونية في شمالها قطعة أرض من البحر الرومي
دخلت في هذا الجزء كأنضرس مائلة إلى الشرق قليلاً وصارت بلاد غشكونية في غربها دخلت في جون من
البحر وعلى رأس هذه القطعة شمالاً بلاد جنوة وعلى سواها في الشمال جبل نبت جون وفي شمالها على سواها أرض
برغونة وفي الشرق عن طرف جنوة الحار ج من البحر الرومي طرف آخر خارج منه يقي بينهما جون
داخل من البر في البحر في غربيه يمش وفي شرقيه مدينة رومة العظمى كرسى ملك الأفرنجية ومسكن
البابا بركهم الأعظم وفيها من المائى الضخمة والمياكل المهيولة والكنائس العادية ما هو معروف
الأخبار ومن عجائبها النهر الجاري في وسطها من الشرق إلى الغرب مقروشي قاعه يلاط النحاس وفيها
كنيسة بطرس وبولس من الخواريين وهما مدفونان بها وفي الشمال عن بلاد رومة بلاد أفرنجية إلى
آخر الجزء وعلى هذا الطرف من البحر الذي في جنوبه رومة بلاد نابل في الجانب الشرق منه متصلة
ببلد قلورية من بلاد الفرنج وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء من الجزء الثالث مغرباً
وعازلاً للشمال من هذا الجزء وامتد إلى نحو الثلث منه وعلى كثير من بلاد البنادقة دخل في هذا الجزء
من جنوبه فيها ينمو بين البحر المحيط ومن شماله بلاد انكلية في الأقليم السادس وفي الجزء الثالث
من هذا الأقليم في غربيه بلاد قلورية بين خليج البنادقة والبحر الرومي يحيط بها من شرقيه يوصل
من برها في الأقليم الرابع في البحر الرومي في جون بين طرفين خارجين البحر على سمت الشمال إلى هذا
الجزء وفي شرق بلاد قلورية بلاد انكبيده في جون بين خليج البنادقة والبحر الرومي ويدخل طرف
من هذا الجزء في الجنوب في الأقليم الرابع وفي البحر الرومي ويحيط به من شرقيه خليج البنادقة من البحر
الرومي ذاهباً إلى سمت الشمال ثم يعطف إلى الغرب عازلاً آخر الجزء الشمالي ويخرج على سمت من الأقليم
الرابع جبل عظيم يوازيه ويذهب معه في الشمال ثم يغرب معه في الأقليم السادس إلى أن ينتهي قبالة خليج
في شماله في بلاد انكلية من أم المائين كاندكو وعلى هذا الخليج وبينه وبين هذا الجبل ما ذاهبين

الى الشمال بلاد البادية فاذا ذهب الى المغرب بينها بالبحر واياهم بلاد الاناتيين عند طرف الخليج وفي
الجزء الرابع من هذا الاقليم قطعة من البحر الرومي خرجت اليه من الاقليم الرابع مضرسه كلها بقطع
من البحر وخرج منها الى الشمال وبين كل ضرسين منها طرف من البحر في الجنوب بينها وفي آخر الجزء
شرفا قطع من البحر وخرج منها الى الشمال خليج القسطنطينية يخرج من هذا الطرف الجنوبي
ويذهب على سمت الشمال الى أن يدخل في الاقليم السادس ويتعطف من هناك عن قرب مشرقا الى
بحر نيطنش في الجزء الخامس وبعض الرابع قبله والسادس بعده من الاقليم السادس كما تذكر وبلد
القسطنطينية في شرق هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسى
القيصرية وبها من آثار البناء والضيافة ما كثر عنه الا حارث والقطعة التي ما بين البحر الرومي
وخليج القسطنطينية من هذا الجزء وفيها بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين ومنها ابتداء ملكهم وفي
شرق هذا الخليج الى آخر الجزء قطعة من أرض باطوس وأظهر هذا العيد عجالات للتركمان وبها ملك
ابن عثمان وقاعدته بها برصة وكانت من قبليهم ناروم وعلبهم عليها الا تم الى أن صارت للتركمان وفي الجزء
الخامس من هذا الاقليم من غربيه وجنوبه أرض باطوس وفي الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد عمورية
وفي شرق عمورية نهر قباقيب الذي عند الفرات يخرج من جبل هناك ويذهب في الجنوب حتى يخالط
الفرات قبل وصوله من هذا الجزء الى بحر في الاقليم الرابع وهناك في غربيه آخر الجزء في مبدأ نهر
سيحان ثم نهر جيحان غربيه الناهيين على سمت موقد مرز كرها وفي شرقه هناك مبدأ نهر الدجلة الذي اذهب
على سمت وفي موازاته حتى يخالط عند بغداد وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء
الجبل الذي يبدأ منه نهر دجلة بلد ميفارقين ونهر قباقيب الذي ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين
احدها غربية جنوبية وفيها أرض باطوس كما قلنا وأسافلها الى آخر الجزء شمالا ووراء الجبل الذي
يبدأ منه نهر قباقيب أرض عمورية كما قلناه والقطعة الثانية شرقية شمالية على التث في الجنوب
منها مبدأ الدجلة والفرات وفي الشمال بلاد السيلقان متصلة بأرض عمورية من وراء جبل قباقيب
وهي غريضة وفي آخرها عند مبدأ الفرات بلد خرشنة وفي الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر
نيطنش الذي يده خليج القسطنطينية * وفي الجزء السادس من هذا الاقليم في جنوبه وغربه بلاد
أرمينية متصلة الى أن يتجاوز وسط الجزء الى جانب الشرق وفيها بلاد أردن في الجنوب والغرب وفي
شمالها قنيس وديبل وفي شرق أردن مدينة خلاط ثم بردعة وفي جنوبها بالبحر الى الشرق مدينة
أرمينية ومن هناك يخرج بلاد أرمينية الى الاقليم الرابع وفيها هناك بلاد المراغة في شرق جبل الان كراه
المسمى يارمي وقد مر ذكره في الجزء السادس منه ويتأخر بلاد أرمينية في هذا الجزء وفي الاقليم
الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد أذربيجان وآخرها في هذا الجزء شرقا بلاد أرمينية على قطعة من
بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من الجزء الرابع ويسمى بحر طبرستان وعليه من شماله في
هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر وهي التركمان ويبدأ من عند آخر هذه القطعة البحرية في الشمال جبال

يتصل بعضها ببعض على سمت الغرب إلى الجزء الخامس فتصرفه منعطفة وعيطة ببلد عيا فارقين ويخرج
إلى الأقليم الرابع عند آمد ويتصل بجبل السلسلة في أسفل الشام ومن هنالك يتصل بجبل السلكاء
كما مر وبين هذه الجبال الشمالية في هذا الجزء ثانيا كالأبواب تفضي من الجانبين في جنوبها
بلاد الأبواب متصلة في الشرق إلى بحر طبرستان وعليه من هذه البلاد مدينة باب الأبواب
وتتصل بلاد الأبواب في الغرب من ناحية جنوبها بلد أرمينية وينتهي في الشرق وبين بلاد أذربيجان
الجنوبية بلاد الزاب متصلة إلى بحر طبرستان وفي شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء في غربها
مملكة السرير في الزاوية الغربية الشمالية منها وفي زاوية الجزء كله قطعة أيضا من بحر نبطش الذي
يمتد خليج القسطنطينية وقد مر ذكره ويحيط بهذه القطعة من نبطش بلاد السرير وعليها منها
بلد أطر ابريدة وتتصل بلاد السرير بين جبل الأبواب والجهة الشمالية من الجزء إلى أن ينتهي شرقا
إلى جبل حاجز بينها وبين أرض الخزر وعند آخرها مدينة صول ووراء هذا الجبل الحاجز قطعة
من أرض الخزر تنتهي إلى زاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء من بحر طبرستان وآخر الجزء
شمالا * والجزء السابع من هذا الأقليم غربيه كله مضمون بحر طبرستان ويخرج من جنوبه في
الأقليم الرابع القطعة التي ذكرنا هنالك أن عليها بلاد طبرستان وجبال الدير إلى قزوین وفي
غرب تلك القطعة متصلة بها القطعة التي في الجزء السادس من الأقليم الرابع ويتصل بها من
شمالها القطعة التي في الجزء السادس من شرقه أيضا وينكشف من هذا الجزء قطعة عند
زاوية الشمالية الغربية يصب فيها نهر أتر في هذا البحر ويبقى من هذا الجزء في ناحية الشرق
قطعة منكشنة من البحر هي محاللات للغز من أم الترك يحيط بها جبل من جهة الجنوب داخل
في الجزء الثامن وينحدر في الغرب إلى مادون وسطه فينحطف إلى الشمال إلى أن يلاق بحر
طبرستان فيحذف به ذاهبا معه إلى بقيته في الأقليم السادس ثم ينحطف مع طرفه ويفارقه ويسمى
هنالك جبل سياه ويذهب مغربا إلى الجزء السادس من الأقليم السادس ثم يرجع جنوبا إلى الجزء
السادس من الأقليم الخامس وهذا الطرف منه هو الذي اعترض في هذا الجزء بين أرض السرير
وأرض الخزر واقصت أرض الخزر في الجزء السادس والسابع حفاقي هذا الجبل السمي جبل
سياه كما سيأتي * والجزء الثامن من هذا الأقليم الخامس كله محاللات للغز من أم الترك وفي الجهة
الجنوبية الغربية منه بحيرة خوارزم التي يصب فيها نهر جيحون دورها ثلثمائة ميل ويصب فيها
أنهار كثيرة من أرض هذه المحاللات وفي الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة عرعون دورها أربعائة
ميل وماؤها حلو وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل مرغار ومعناه جبل الثلج لأنه لا يذوب
فيه وهو متصل بآخر الجزء وفي الجنوب عن بحيرة عرعون جبل من الحجر الصلد لا يثبت شيئا يسمى
عرعون وبه سميت البحيرة وينجلب منه ومن جبل مرغار شمالا البحيرة أنهار لا تنحصر عدتها فتصب
فيها من الجانبين * وفي الجزء التاسع من هذا الأقليم بلاد أركس من أم الترك في غرب بلاد الغز وشرق

بلاد السكياكية ويحيط به من جهة الشرق آخر الجزء جبل قوقيا المحيط بأجوج ومأجوج يعترض هنالك من الجنوب الى الشمال حتى يعطف أول دخوله من الجزء العاشر وقد كان دخل اليه من آخر الجزء العاشر من الاقليم الرابع قبله احتف هنالك بالبحر المحيط الى آخر الجزء في الشمال ثم انعطف مغربا في الجزء العاشر من الاقليم الرابع الى مادون نصفه وأحاط من أوله الى هنا بلاد السكياكية ثم خرج الى الجزء العاشر من الاقليم الخامس فذهب فيه مغربا الى آخره وبقيت في جنوبية من هذا الجزء قطعة مستطيلة الى الغرب قبل آخر بلاد السكياكية ثم خرج الى الجزء التاسع في شرقيه وفي الأعلى منه وانعطف قريبا الى الشمال وذهب على سته الى الجزء التاسع من الاقليم السادس وفيه الد هنالك كما نذكره وبقيت منه القطعة التي أحاط بها جبل قوقيا عند الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلة الى الجنوب وهي من بلاد مأجوج ومأجوج وفي الجزء العاشر من هذا الاقليم أرض بأجوج متصلة فيه كاه الاقطعة من البحر المحيط تحرت طرفا في شرقيه من جنوبه الى شماله والاقطعة التي يفصلها الى جهة الجنوب والغرب جبل قوقيا حين مر فيه وماسوى ذلك فأرض بأجوج ومأجوج والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ الاقليم السادس ﴾ فالجزء الأول منه تهر البحر أكثر من نصفه واستدار شرقا مع الناحية الشمالية ثم ذهب مع الناحية الشرقية الى الجنوب وانتهى قريبا من الناحية الجنوبية فانكشفت قطعة من هذه الأرض في هذا الجزء داخل بين طرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالجون فيه وينفسح طولاً وعرضا وهي كلها أرض بريطانيا وفيها بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بلاد صاقس متصلة ببلاد بنطو التي مر ذكرها في الجزء الأول والثاني من الاقليم الخامس * والجزء الثاني من هذا الاقليم دخل البحر المحيط من غربه وشماله من غربه قطعة مستطيلة أكبر من نصفه الشمالي من شرق أرض بريطانيا في الجزء الأول واتصلت بها القطعة الاخرى في الشمال من غربه الى شرقه وانضجت في النصف الغربي منه بعض الشيء وفيه هنالك قطعة من جزيرة انكلطرا وهي جزيرة عظيمة متسعة مشتملة على مدن وبها ملك ضخم وبقيتها في الاقليم السابع وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف الغربي من هذا الجزء بلاد ارمندية وبلاد افلاش متصليين بها ثم بلاد افرسية جنوبا وغربا من هذا الجزء وبلاد برغونية شرقا عنها وكلها لا ثم الا فرنجية وبلاد المانيين في النصف الشرقي من الجزء فجنوبه بلاد انكلية ثم بلاد برغونية شمالا ثم أرض لهويكة وشطونية وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقية أرض أفريرة وكلها لا ثم المانيين * وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في الناحية الغربية بلاد مرانية في الجنوب وبلاد شطونية في الشمال وفي الناحية الشرقية بلاد انكوية في الجنوب وبلاد بلونية في الشمال يعترض بينهما جبل بلواط داخل من الجزء الرابع ويمر مغربا بانحراف الى الشمال الى أن يقف في بلاد شطونية آخر النصف الغربي * وفي الجزء الرابع من ناحية الجنوب أرض جثولية وتحتها في الشمال بلاد الروسية ويفصل بينهما جبل بلواط

من أول الجزء غربا إلى أن يقف في النصف الشرق وفي شرق أرض جنوبية بلاد جرمانية وفي الزاوية الجنوبية الشرقية أرض القسطنطينية ومدينتها عند آخر الخليج الخارج من البحر الرومي وعند مدفعه في بحر نيطنش فيقع قطب من بحر نيطنش في أعالي الناحية الشرقية من هذا الجزء وعندها الخليج وينتهي في الزاوية بلاد ميسيا وفي الجزء الخامس من الأقليم السادس ثم في الناحية الجنوبية عند بحر نيطنش يصب من الخليج في آخر الجزء الرابع ويخرج على ستم مشرقا فيمر في هذا الجزء كله وفي بعض السادس على طول ألف وثلاثمائة ميل من مبدئه في عرض ستائة ميل ويبقى وراء هذا البحر في الناحية الجنوبية من هذا الجزء في غربها إلى شرقها بر مستطيل في غربها هرقية على ساحل بحر نيطنش متصلة بأرض البيلقان من الأقليم الخامس وفي شرقه بلاد اللاتية وقاعدتها سوتلي على بحر نيطنش وفي شمال بحر نيطنش في هذا الجزء غربا أرض ترخان وشرق بلاد الروسية وكلها على ساحل هذا البحر وبلاد الروسية محيط بلاد ترخان من شرقها في هذا الجزء من شمالها في الجزء الخامس من الأقليم السابع ومن غربها في الجزء الرابع من هذا الأقليم * وفي الجزء السادس في غربه بقية بحر نيطنش ويتخرف قليلا إلى الشمال ويبقى بينه هنالك وبين آخر الجزء شمال بلاد قزاقية وفي جنوبه ومنفصلا إلى الشمال بما انحرف هو كذلك بقية بلاد اللاتية التي كانت آخر جنوبه في الجزء الخامس وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل أرض الخزر وفي شرقها أرض برطاس وفي الزاوية الشرقية الشمالية أرض بلغار وفي الزاوية الشرقية الجنوبية أرض بلخوجوزها هناك قطعة من جبل سياه كوه المنعطف مع بحر الخزر في الجزء السابع بعده ويذهب بعد مفارقه مغربا فيجوز في هذه القطعة ويدخل إلى الجزء السادس من الأقليم الخامس فينصل هنالك بجبل الأبواب وعليه من هنالك ناحية بلاد الخزر * وفي الجزء السابع من هذا الأقليم في الناحية الجنوبية ما جازة جبل سياه بعد مفارقه بحر طبرستان وهو قطعة من أرض الخزر إلى آخر الجزء غربا وفي شرقها القطعة من بحر طبرستان التي تجوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها ووراء جبل سياه في الناحية الغربية الشمالية أرض برطاس وفي الناحية الشرقية من الجزء أرض سحر وبغناك وهم أمم الترك * وفي الجزء الثامن والناحية الجنوبية منه كلها أرض الجوج من الترك في الناحية الشمالية غربا والأرض المنقنة وشرق الأرض التي يقال إن يأجوج ومأجوج خربوها قبل بناء السد وفي هذه الأرض المنقنة مبدأ نهر النيل من أعظم أنهار العالم ويمر في بلاد الترك ومصبه في بحر طبرستان في الأقليم الخامس في الجزء السابع منه وهو كثير الانعطاف يخرج من جبل في الأرض المنقنة من ثلاثة ينابيع تجتمع في نهر واحد ويمر على سمت الغرب إلى آخر السابع من هذا الأقليم فينعطف شمالا إلى الجزء السابع من الأقليم السابع فيمر في طرقه بين الجنوب والغرب فيخرج في الجزء السادس من السابع ويذهب مغربا غير بعيد ثم ينعطف ثانية إلى الجنوب ويرجع إلى الجزء السادس من الأقليم السادس ويخرج منه جدول يذهب مغربا ويصب في بحر نيطنش في ذلك الجزء ويمر هو في قطعة بين الشمال والشرق في بلاد بلغار فيخرج في الجزء

السابع من الأقليم السادس ثم يعطف الثالثة الى الجنوب وينفذ في جبل سياه وعرفى بلاد الخزر ويخرج الى الأقليم الخامس في الجزء السابع منه فيصب هنالك في بحر طبرستان في القطعة التي انكشفت من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية وفي الجزء التاسع من هذا الأقليم في الجانب الغربي منه بلاد خضشاخ من الترك وهم قفجاق وبلاد التركس منهم أيضا وفي الشرق منه بلاد يأجوج يفصل بينهما جبل قوقيا المحيط وقد مر ذكره يبدأ من البحر المحيط في شرق الأقليم الرابع وينذهب معه الى آخر الأقليم في الشمال ويفارقه مغربا وبأعراف الى الشمال حتى يدخل في الجزء التاسع من الأقليم الخامس فيرجع الى سمته الأولى حتى يدخل في هذا الجزء التاسع من الأقليم من جنوبه الى شماله بأعراف الى المغرب وفي وسطه هناك السد الذي بناه الاسكندر ثم يخرج على سمته الى الأقليم السابع وفي الجزء التاسع منه فيمر فيه الى الجنوب الى أن يلقى البحر المحيط في شماله ثم ينقلب معه من هنالك مغربا الى الأقليم السابع الى الجزء الخامس منه فيصل هنالك بقطعة من البحر المحيط في غربيه وفي وسط هذا الجزء التاسع هو السد الذي بناه الاسكندر كما قلناه والصحيح من خبره في القرآن وقد ذكره عبد الله بن خرداذبه في كتابه في الجغرافيا أن الواثق رأى في منامه كأن السد انفتح فأتته فرأى بعث سلاطمة الترحمان فوقه عليه وجاء بخبره ووصفه في حكاية طويلة ليست من مقاصد كتابنا * وفي الجزء العاشر من هذا الأقليم بلاد مأجوج متصلة فيه الى آخره على قطعة من هنالك من البحر المحيط أحاطت به من شرقه وشماله مستطيلة في الشمال وعريضة بعض الشيء في الشرق

﴿ الأقليم السابع ﴾ والبحر المحيط قد غمر علمته من جهة الشمال الى وسط الجزء الخامس حيث يتصل بجبل قوقيا المحيط يأجوج ومأجوج فالجزء الأول والثاني مغموران بالماء الاما انكشفت من جزيرة انكلطرا التي معظمها في الثاني وفي الأول منها طرف انعطف بأعراف الى الشمال وبقية ما مع قطعة من البحر مستديرة عليه في الجزء الثاني من الأقليم السادس وهي مذكورة هناك والمجاورها الى البر في هذه القطعة سعة اثني عشر ميلا ووراء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة رسلانده مستطيلة من الغرب الى الشرق والجزء الثالث من هذا الأقليم مغمورا أكثره بالبحر الاقطعة مستديرة في جنوبه وتقع في شرقها وفيها هنالك متصل أرض فلونية التي مر ذكرها في الثالث من الأقليم السادس وأنها في شماله وفي القطعة من البحر التي تغمر هذا الجزء ثم في الجانب الغربي منها مستديرة فسيحة وتصل بالبر من باب في جنوبها يفضي الى بلاد فلونية وفي شمالها جزيرة بوقاعة مستطيلة مع الشمال من المغرب الى المشرق والجزء الرابع من هذا الأقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط من الغرب الى المشرق وجنوبه منكشف وفي غربه أرض قبارك من الترك وفي شرقها بلاد طست ثم أرض رسلانده الى آخر الجزء شرقا وهي دائمة الثلوج وعمرانها قليل ويتصل ببلاد الروسية في الأقليم السادس وفي الجزء الرابع والخامس منه * وفي الجزء الخامس من هذا الأقليم في الناحية الغربية منه بلاد الروسية وينتهي في الشمال الى قطعة من البحر المحيط التي يتصل بها جبل قوقيا كما

ذكرناه من قبل وفي الناحية الشرقية منه متصل أرض القماينة التي على قطعة بحر يبطش من الجزء السادس من الاقليم السادس وينتهي الي بحيرة ظري من هذا الجزء وهي غلبة تجلب اليها كثيرا من الجبال عن الجنوب والشمال وفي شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض التاربية من التركمان الى آخره وفي الجزء السادس من الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القماينة وفي وسط الناحية بحيرة عشور غلبة تجلب اليها الانهار من الجبال في النواحي الشرقية وهي جامدة دائما لشدة البرد الا قليلا في زمن الصيف وفي شرق بلاد القماينة بلاد الروسية التي كان مبدؤها في الاقليم السادس في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء الخامس منه وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بقية أرض بلغار التي كان مبدؤها في الاقليم السادس وفي الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه وفي وسط هذه القطعة من أرض بلغار ومنعطف نهر اثل القطعة الاولى الى الجنوب كما مر وفي آخر هذا الجزء السادس من شماله جبل قوقا متصلا من غربه الى شرقه وفي الجزء السابع من هذا الاقليم في غربه بقية أرض يختاك من أم الترك وكان مبدؤها من الناحية الشمالية الشرقية من الجزء السادس قبله وفي الناحية الجنوبية الغربية من هذا الجزء ويخرج الى الاقليم السادس من فوقه وفي الناحية الشرقية بقية أرض سحر بم بقية الأرض المتتلة الى آخر الجزء شرقا وفي آخر الجزء من جهة الشمال جبل قوقا المحيط متصلا من غربه الى شرقه وفي الجزء الثامن من هذا الاقليم في الجنوبية الغربية متصل الأرض المتتلة وفي شرقها الأرض المنخفضة وهي من العجائب خرق عظيم في الأرض بعيد الهوى فسيح الاقطار تمتع الوصول الى قعره يستدل على عمرانه بالسكان في النهار والنيران في الليل تضيء وتحنى ودر بارؤى فيها نهر يشقها من الجنوب الى الشمال وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب الناحية للسد وفي آخر الشمال منه جبل قوقا متصلا من الشرق الى الغرب وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ وهم قضبي يحوزها جبل قوقا حين ينعطف من شماله عند البحر المحيط ويذهب في وسطه الى الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج في الجزء التاسع من الاقليم السادس ويمر معترضا فيه وفي وسطه هذا السد يأجوج وماجوج وقد ذكرناه في الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض يأجوج ودرء جبل قوقا على البحر قليلة العرض مستطيلة أحاطت به من شرقه وشماله والجزء العاشر غمر البحر جميعه هذا آخر الكلام على الجغرافيا وأقاليمها السبعة وفي خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات للعالمين

المقدمة الثالثة

(في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ثوان البشر والكثير من أحوالهم)

(قد بينا) أن العمور من هذا المنكشف من الأرض أعما هو وسطه لا قربا الى الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما الى الوسط فيكون معتدلا فالاقليم الرابع أعذل العمران والندى حفا فيه من الثالث والخامس أقرب

الى الاعتدال والذي يليه من الثاني والسادس بعيدان من الاعتدال والاولو السابع أبعد بكثير فلهذا كانت العلوم والصنائع والنبات والملايس والأقوات والقواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة للتوسط مخصصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدت أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا حتى النبوات فاعلموا وجد في الأكثر فيها ولم تفت على خبر بعة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكل النوع في حلفهم وأخلاقهم قل تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس وذلك لتعلم القبول لما يأتيهم به الأنبياء من عند الله وأهل هذه الأقاليم أكلوا حودا واعتدالهم فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وأقواتهم وصنائعهم يتخذون البيوت المتجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين وينهبون في ذلك إلى الغاية وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والتقصير ويتصرفون في معاملاتهم بالتقديرات العريضة ويعبدون عن الانحراف في عامة أحوالهم وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقين والمند والسند والصين وكذلك الأندلس ومن قرب منها من الفرنجة والجلالفة والروم واليونانيين ومن كان مع هؤلاء أو قريبا منه في هذه الأقاليم المعتدلة ولهذا كان انحراف والشام أعدت هذه كلها لانتها وسط من جميع الجهات وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم فبناؤهم بالطين والتصب وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر يغطونها عليهم أو الجلود وأكثرهم عرايا من اللباس وقواكه بلادهم وأديانهم غريبة تتكون مائلة إلى الانحراف ومعاملاتهم بغير الحجرين الشرعيين من نحاس أو حديد أو جلود يتقدهم منها للمعاملات وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم حتى ينقل عن الكثير من السودان أهل الأقاليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العشب وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا وكذا السقالب والسبب في ذلك أنهم لم يعمدوا عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويعبدون عن الإنسانية بمقدار ذلك وكذلك أحوالهم في الديانة أيضا فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال وهو في الأقل النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية قبل الإسلام وما بعده لهذا العهد ومثل أهل مالي وكوكو والتكرور المجاورين لأرض المغرب الدائنين بالإسلام لهذا العهد يقال أنهم دائبون في المائة السابعة ومثل من دان بالنصرانية من أم السقالب والفرنجة والتركمين الشماليين ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا فالدائن محبول عندهم العلم مفقود بينهم وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الأناس قريبة من أحوال البهائم ويخلق ما لا تعلمون ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن وحضر موت والأحفاف وبلاد الحجاز واليمامة ومالها من جزيرة العرب في الأقاليم الأول والثاني فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث كما ذكرنا فكان لوطوبتها أثر في رطوبة هوائها فنقص ذلك من اليمن والانحراف

الذي يقتضيه الحر وحرار فيها بعض الاعتدال بسبب وطوبة البحر وقد توم بعض النسابين بمن
لاعلم لديه بنبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت
عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه ويثقلون في ذلك حكاية من
خرافات القصاص ودعانوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد وإنما دعا عليه
بأن يكون ولده عبيد أو لداخوته لا غير وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد
وآثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات وذلك أن هذا اللون شغل أهل الأقاليم الأول والثاني
من مزاج هوائهم للحرارة التضاعفة بالجنوب فإن الشمس تسامت زموسهم مرتين في كل سنة
قريبة أحدهما من الأخرى فتطول السامنة عامة الفصول فكثير الضوء لأجلها ويلح التقيظ الشديد
عليهم ونسود جلودهم لأفراط الحر ونظير هذين الأقليمين فيما يقابلهما من الشمال الأقليم السابع
والسادس شغل سكانهما أيضا البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال إذ الشمس لا تزال
بأفقهم في دائرة مرأى العين أو ما قرب منها ولا ترتفع إلى المسامنة ولا ما قرب منها فيضعف الحر فيها
ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض ألوان أهلها وتنتهي إلى الزعורה وينبع ذلك ما يقتضيه مزاج
البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور وتوسطت بينهما الأقاليم الثلاثة
الخامس والرابع والثالث فكان لها في الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط حفظ والفر والرابع أبلغها
في الاعتدال غاية نهايته في المتوسط كما قدمناه فكان لأهلها من الاعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه
مزاج أهويتهم وتبعه عن جانيه الثالث والخامس وان لم يبلغا غاية المتوسط لميل هذا قليلا إلى الجنوب
الحر وهذا قليلا إلى الشمال البارد إلا أنهما لم يمتدبا إلى الانحراف وكانت الأقاليم الأربعة منحرفة
وأهلها كذلك في خلقهم وخلقهم فالأول والثاني للحر والسواد والسابع والسادس للبرد والبياض
ويسمى سكان الجنوب من الأقليمين الأول والثاني باسم الحبشة والزرنج والسودان أسماء مترادفة
على الأمم المتغيرة بالسواد وإن كان اسم الحبشة مختصا منهم بمن تجاه مكة واليمن والزرنج بمن تجاه
بحر الهند وليست هذه الأسماء لهم من أجل اتساعهم إلى آدمي أسود لاحام ولا غيره وقد نجد
من السودان أهل الجنوب من يسكن الرابع المعتدل أو السابع المنحرف إلى البياض فتبيض ألوان أعقابهم
على التدرج مع الأيام وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الرابع بالجنوب فتسود ألوان أعقابهم
وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء قال ابن سينا في أرجوزته في الطب

بالزرنج حر غير الأجساد * حتى كسا جلودها سوادا

والصقيل أكتسب البياضا * حتى غدت جلودها بياضا

وأما أهل الشمال فلم يسموا باعتبار ألوانهم لأن البياض كان لو تالاهل تلك اللغة الواضحة للأسماء
فلم يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره في التسمية لموافقته واعتياده ووجدنا سكانه من الترك
والصفالية والطرغر والخرز واللان والكثير من الأفرنجية ويأجوج ومأجوج أسماء متفرقة

وأجبالا متعددة معين بأسماء متنوعة وأما أهل الأقاليم الثلاثة المتوسطة أهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الأحوال الطبيعية للاعتدال لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرياسات والملكات فكانت فيهم النبوات والملكات والدول والشرائع والعلوم والبلدان والأقمار والمباني والقراصة والصنائع القائمة وسائر الأحوال المعتدلة وأهل هذه الأقاليم التي وقفت على أخبارهم مثل العرب والروم والفرس وبنو إسرائيل واليونان وأهل الهند والهند والصين وما رأى النسابيون اختلاف هذه الأمم بسمائها وشعارها حسبوا ذلك لأجل الأنساب فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودا من ولد سام وارتابوا في ألوانهم فتكفروا نقل تلك الحكاية الواهية وجعلوا أهل الشمال أوا أكثرهم من ولد يافث وأكثر الأمم المعتدلة وأهل الوسط المستحلين للعلوم والصنائع والشرائع والسياسة والملكات من ولد سام وهذا الزعم وإن صادف الحق في انساب هؤلاء فليس ذلك بقياس مطرد إنما هو أخبار عن الواقع لأن تسمية أهل الجنوب بالسودان والحشاش من أجل انسابهم إلى حم الأوسود وما دام إلى هذا الغلط الاعتقاد أن التمييز بين الأمم إنما يقع بالانساب فقط وليس كذلك فإن التمييز للجيل أو الأئمة يكون بالنسب في بعضهم كالعرب وبنو إسرائيل والفرس ويكون بالجهة والسعة كاللذخ والحشة والنفالية والسودان ويكون بالعوائد والشعار والنسب كالعرب ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم وحواصدهم وسمياتهم فتمم القول في أهل جبهة معينة من جنوب أو شمال بأنهم من ولد فلان المعروف بشاربهم من نخلة أولون أو حنة وجدت لذلك الأب إنما هو من الأغايط التي أوقع فيها الغفلة عن طبائع الأكوان والجهات وأن هذه كلها تبدلت في الأعقاب ولا يجب استمرارها منة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا والله ورسوله أعلم بعباده وأحكم وهو المولى المنعم اثر موف الرحيم

في المقدمة الرابعة في أثر الهواء في أخلاق البشر

(قد رأينا) من خلق السودان على العموم الخفة والتطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحق في كل قطر والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتنشيطه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه وتقرر أن الحرارة مفسدة للهواء والبخار غليظة لثقلها في كينته ولهذا يجد التنشيط من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه وذلك بما يدخل بخار الروح في القلب من الحرارة العريضة التي تبعثها سورة الحرق في الروح من مزاجه فيتنشيط الروح ونحيي طبيعة الفرح وكذلك نجد التنعيم بالانعامات إذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح وربنا نبعت الكثير منهم بالغناء اثناسي عن السرور ولما كان السودان ساكنين في الأقاليم الحارة واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الأقاليم الرابع أشد حرا فتكون أكثر تنشيطا فتكون أسرع فرحا

وسرور أو أكثر انبساطاً على العيش على أثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلاً أهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بحر وأشعة كانت حستهم من نواحي الحرارة في الفرج والخفة موجودة أكثر من بلاد النول والجبال الباردة وقد نجد سيرا من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الأقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها لا سيما عريقة في الجنوب عن الأرباب والنول واعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر فإنها في مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريباً منها كيف غلب الفرج عليهم والخفة والغلة عن العواقب حتى إنهم لا يدخرون أفوات سنهم ولا شبرهم وعامة ما كلهم من أسواقهم * ولما كانت فلس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في النول الباردة كيف نرى أهلها مطرقين أطراق الحر والبريد وكيف أفرطوا في فطر العواقب حتى إن الرجل منهم لا يدخر قوت سنتين من جوب الخطة ويباكر الأسواق لتراه قوته ليوم مدققة أن يرزأ شيئاً من مدخره وتتبع ذلك في الأقاليم والبلدان تجد في الأخلاق أثر من كفيات الهواء والله الخلاق العليم وقد تعرض للبحث عن السبب في خفة السودان وخشيم وكثرة الطرب فيهم وحاول تعليلها فبرأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحق الكندي أن ذلك لتضعف أدمعتهم وما نشأ عنه من ضعف عتوقهم وهذا كلام لا يحسن له ولا يبرهان فيه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

﴿ المقدمة الخامسة ﴾

في اختلاف أحوال العمران في الحصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم

(اعلم) أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجبها الحصب ولا كل سكانها في رغد من العيش بل فيها ما يوجب له خلة خصب العيش من الجوب والأدم والخطة والقوا كملزك الماتبات واعتدال الطبيعة وفور العمران وفيها الأرض الحرة التي لا تبت زرعاً ولا عشباً بالجملة فسكانها في شظف من العيش مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن ومثل المثلثين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف أرمال فيما بين البربر والسودان فإن هؤلاء يفتقدون الجوب والأدم جملة وإنما أغذيتهم وأقواتهم الألبان واللحوم ومثل العرب أيضاً الجائلين في القفار فائهم وان كانوا يأخذون الجوب والأدم من النول الآن ذلك في الأحيين وتحت رقبة من حاميتها وعلى الأقاليم لفتة وجدم فلا يتوصلون منه إلى سد الحاجة أو دونها فضلاً عن الرغد والحصب وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على الألبان وتعوضهم من الخطة أحسن معاض وتجدهم مع ذلك هؤلاء المفاقرين للجوب والأدم من أهل القفار أحسن حالاً في جسومهم وأخلاقهم من أهل النول المنغمسين في العيش فأولائهم أصح وأبدانهم أنقى وأشكلم أتم وأحسن وأخلاقهم أبعدهم عن الإغراق وأذهابهم أثقب في المعارف والأدراكات هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم فكثير ما بين العرب والبربر فيما وصفناه وبين المثلثين وأهل

لتلول يعرف ذلك من خبره والسبب في ذلك والله أعلم أن كثرة الأغذية ورطوباتها تولد في الجسم
 ضلالت رديئة ينشأ عنها بعد أقطارها في غير نسبة وكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة وتبع ذلك انكساف
 لأنوان وفسح الأشكال من كثرة اللحم كما قلناه وتغطي الرطوبات على الأنفهان والأفكار بما يصعد
 في الدماغ من أغبرتها الرديئة فتجىء البلاد والقفلة والأخراف عن الاعتدال بالجملة واعتبر ذلك في
 حيوان القفر ومواطن الجذب من الغزال والنعام والمهاو والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع أمثالها من
 حيوان التلول والأرياف والرائع الحسية كيف تجد بينها ما يبيد في صفاء أديمها وحسن رونقها
 وأشكالها وتناسب أعضائها وحيدة مداركها فالغزال أخو القفر والزرافة أخو البعير والحمار
 والبقر أخو الحمار والبقر والبون بينها ما رأيت وما ذاك إلا جلي أن الحسب في التلول فعل في
 أبدان هذه من الفضلات الرديئة والأخلاط الفاسدة ما ظهر عليها أثره والجوع لحيوان القفر
 حسن في خلقها وأشكالها ما شاء واعتبر ذلك في آدميين أيضا فانا نجد أهل الأقاليم الخصب
 العيش الكثرة الزرع والضرع والأدم والنواكح يتصب أهلها غالبا بالبلادة في أذهانهم
 والحشونة في أجسامهم وهذا شأن البربر المنغمسين في الأدم والخطة مع المتشقين في عيشهم
 القتصرين على الشعير أو الترة مثل المصامدة منهم وأهل غمارة والسوس فتجد هؤلاء أحسن
 حالا في عقولهم وجسومهم وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسون في الأدم والبر مع أهل الأندلس
 المفقود بأرضهم السمن جملة وغالب عيشهم الترة فتجد لأهل الأندلس من ذكاء العقول وخفة
 الأجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم وكذا أهل الضواحي من المغرب بالجملة مع أهل الحضر
 والأمصاف فإن أهل الأمصاف وإن كانوا أكثرين مثلبهم من الأدم وغصبيين في العيش إلا أن استعمالهم
 أياها بعد العلاج بالطبخ والتطفيف بما يخلطون معها فيذهب لذلك غلظها ويرق قوامها وعلمة ما كلهم
 لحوم الضأن والدجاج ولا يقبلون السمن من بين الأدم لتضاوته فقل الرطوبات لذلك في أغذيتهم
 ونحيف ما تؤديه إلى أجسامهم من الفضلات الرديئة فذلك تجد جسوم أهل الأمصاف ألتف من جسوم
 البادية الخشنين في العيش وكذلك تجد النعودين بالجوع من أهل البادية لأفضلات في جسومهم غليظة
 واللاطفة * وأعلم أن أثر هذا الحسب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال الدين والعبادة فتجد
 المتشقين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن دينا وأقبالا
 على العبادة من أهل الترف والحسب بل نجد أهل الدين قليلين في المدن والأمصاف لما يعمها من القساوة
 والغلة المتصلة بالآكثار من اللحم والدم وباب البر وينحصر وجود العبادة الزهاد لذلك بالمتشقين
 في غذائهم من أهل البوادي وكذلك نجد حال أهل المدينة الواحدة في ذلك مختلفا باختلاف حالها في
 الترف والحسب وكذلك نجد هؤلاء المنحصرين في العيش المنغمسين في طيباتهم من أهل البادية وأهل
 الحواضر والأمصاف إذ انزات بهم الستون وأخذتهم المتجاعات يسرع اليهم الهلاك أكثر من غيرهم مثل
 بربرة المغرب وأهل مدينة قاس ومصر فيما يبلغنا لا مثل العرب أهل القفر والصحراء ولا مثل أهل

بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر ولا مثل أهل أفريقيا لهذا العبد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت
وأهل الهند الذين غالب عيشهم الذرة والزيت فإن هؤلاء وإن أخذتهم السنون والمجاعات فلا تنال
منهم ما تنال من أولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندر السبب في ذلك والله أعلم أن المنغمسين
في الحسب المتعودين للأدم والسمن خصوصاً ككسب من ذلك أمعاؤه وضويرة فوق رطوبتها الأصلية
المرجية حتى تجاوز حدها فإذا خولف بها العادة بقلة الأقوات وفقدان الأدم واستعمال الخشن غير
المأنوف من الغذاء أسرع إلى نلعي اليبس والآنكماش وهو عضو ضعيف في الغاية فيفسد ع اليه المرض
ومهلك صاحبه دفعة لا منه من المقاتل فلهالك كون في المجاعات إنما قلهم الشبع المعتاد السابق للجوع
الحادث اللاحق * وأما المتعودون للعبة وترك الأدم والسمن فلا تزال رطوبتهم الأصلية واقفة
عند حدها من غير زيادة وهي قابلة لجميع الأغذية الطبيعية فلا يقع في معام بتبدل الأغذية ييس ولا
انحراف فيسلمون في الغالب من الهلاك الذي يعرض للغيرم بالغصب وكثرة الأدم في المآكل وأصل
هذا كله أن تعلم أن الأغذية واثلاؤها أو تركها إنما هو بالعادة فمن عود نفسه غذاء ولا ممة تناولها
كان له مألوفاً وصار الخروج عنه والتبدل به داء مألوفاً يخرج عن غرض الغذاء بالجملة كالسوم واليتوع (١)
وما أفرط في الانحراف فأما ما وجد فيه الضدى والملاءمة فيفسد غذاء مألوفاً بالعادة فإذا أخذ الإنسان
نفسه باستعمال اللبن والبقول عوضاً عن الخنطة حتى صار له ديدناً فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى به
عن الخنطة والحبوب من غير شك وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام كما
يقول عن أهل الرياضات فإننا نسمع عنهم في ذلك أخباراً غريبة يكاد يتكرها من لا يعرفها والسبب في
ذلك العادة فإن النفس إذا ألقت شيئاً صار من جبلتها وطبيعتها لأنها كثيرة التلون فإذا حصل لها العباد
الجوع بالتدريج والرياضة فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها وما يتوهمه الأطباء من أن الجوع مهلك
فليس على ما يتوهمونه إلا إذا حملت النفس عليه دفعة وقطع عنها الغذاء بالسكية فانه حينئذ ينجم
العمى ويناله المرض الذي يخشى معه الهلاك وأما إذا كان ذلك القدر تدريجاً ورياضة باقلاً الغذاء
شيئاً فشيئاً كما يفعل المتصوفة فهو بمنزلة عن الهلاك وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه
الرياضة فانه إذا رجع به إلى الغذاء الأول دفعة خيف عليه الهلاك وانما يرجع به كما بدأ في الرياضة
بالتدريج ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوماً وصلاً وأكثر * وحضر أشياءنا بمجلس
السفطان أبي الحسن وقد رفع إليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورتدة حبستا أنفسهما عن
الأكل جملة منذ سنين وشاع أمرهما ووقع اخبارهما فصح شأنهما وانقل على ذلك حظهما إلى أن
ماتتا ورأينا كثيراً من أحماتنا أيضاً من يقصر على حليب شاة من المعز يلتزم ثديها في بعض النهار أو عدد

(١) قال في التاموس . اليتوع كسيور أو تنور كل نبات له لبن دار مسهل محرق مقطع والمشهور منه
سبعة . الشبرم واللاية والدرعيتا والمهود والمازوردون والفلجشت والعشر وكل البقول إذا استعملت في
غير وجهها أهلكك الله

الافطار ويكون ذلك غذاءه واستدام على ذلك خمس عشرة سنة وغيرهم كثير ولا يستنكر ذلك *
واعلم أن الجوع أصلح للبدن من اكتثار الأغذية بكل وجه لمن قدر عليه أو على الأقل من أكله أثار
في الأجسام والعقول في صفاتها وصلاحها كما قلناه واعتبر ذلك بأثار الأغذية التي تحصل عنها في الجسم
فقد رأينا المتغذين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجثث تنشأ أجسامهم كذلك وهذا ما عده في
أهل البادية مع أهل الحاضرة وكذا المتغذون باللبان اللبن ولحومها أيضا مع ما يؤثر في أخلاقهم من
الصبر والاحتفال والقدرة على حمل الأثقال الموجود ذلك للابل وتنشأ أعمارهم أيضا على نسبة أعمار
الابل في الصحة والعلف فلا يطرقتا الوهن والالضعف ولا ينالها من مضار الأغذية ما ينال غيرهم
فيشربون اليتوعات لاستطلاق بطونهم غير معجوبة كالحنظل قبل طبعه والدرباس والغريبون ولا ينال
أعمارهم منها ضرر وهي لو تناولها أهل الحضرة الرقيقة أعمارهم يمانشأت عليه من لطيف الأغذية
لكان الهلاك أسرع اليهم من طرفة العين لما فيها من السمية ومن تأثير الأغذية في الأبدان ما ذكره
أهل الفلاحة وشاعده أهل التجربة أن السجج اذ تغذيت بالحبوب المطبوخة في بحر الابل واتخذ
يضمها ثم حضنت عليه جاء الدجاج منها أعظم ما يكون وقد يستغنون عن تغذيتها وطبع الحبوب بطرح
ذلك العرمع البيض المحض فيجىء دجاجها في غاية العظم وأمثال ذلك كثير فاذا رأينا هذه الآثار من
الأغذية في الأبدان فلا شك أن للجوع أيضا آثارا في الأبدان لأن الضدين على نسبة واحدة في
التأثير وعدمه فيكون تأثير الجوع في بقاء الأبدان من الزيادات الفاسدة والعلوبات المختلطة
المثابة بالجسم والعقل كما كان الغذاء مؤثرا في وجود ذلك الجسم والله محيط بعلمه

§ النعمة السادسة في أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو بالرياسة ويتقدمه

الكلام في الوحي والرؤيا

(اعلم) أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصا فضليهم بخطابه وفطرم على معرفته وجعلهم وسائل
بينه وبين عباده يعرفونهم بمصالحهم ويحرضونهم على هدايتهم ويأخذون بحجزاتهم عن النار ويدلونهم
على طريق النجاة وكان فيما يلقى عليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق وأخبار الكائنات
الغيبية عن البشر التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياهم قال
صلى الله عليه وسلم الأولي لا أعلم إلا ما علمني الله وأعلم أن خبرهم في ذلك من خاصيته وضرورته
الصدق لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة وعلامة هذا الصنف من البشر أن توجد لهم في حال
الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط كأنها غشي أو إغماء في رأي العين وليست متعافى شيء
وانغماس في الحقيقة استغراق في لقاء الملك الروحاني بأدراكهم المناسب لهم خارج عن مدارك البشر
بالكلية ثم ينزل إلى المدارك البشرية إما بسمع دوي من الكلام فيضهم أو يتمثل له صورة شخص
يخاطبه بما جاء به من عند الله ثم تجلى عنه تلك الحال وقد وعى ما ألقى إليه قال صلى الله عليه وسلم

وقد سئل عن الوحي أحيانا يأتي مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفهم عني وقد وعيت ما قل وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول ويذكره أثناء ذلك من الشدة والغلظ ما لا يعبر عنه في الحديث كان مما يعالج من التنزيل شدة وقالت عائشة كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفهم عنه وإن جنته ليقتصد عرقا وقال تعالى إن استلقى عليك قوله ثقيلًا ولا أجل هذه الحالة في تنزل الوحي كان لشركون يرمون الأنبياء بالجنون ويقولون له ربي أو تابع من الجن وإنما ليس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الأحوال ومن يضل الله فإله من هاد * ومن علاماتهم أيضا أنه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والركاء ومحابة الذنومات والرجس أجمع وهذا هو معنى العصمة وكأنه مفلور على التزهد عن الذنومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجنته وفي الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها في إزاره فأنكشف فقط منسبا عليه حتى استر بآزاره ودعى إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب فأصابه غشي النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئا من شأنهم بل نزهه الله عن ذلك كله حتى إنه ينجته بتزهد عن الطعومات المستكرهه فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يقرب البصل والثوم ف قيل له في ذلك فقال إني أناجي من لا تتاجون (واظن) لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها بحال الوحي أول ما لحقها وأرادت اختباره فقالت أجعلني بينك وبين ثوبك فلما فعل ذلك ذهب عنه فقالت إنه ملك وليس بشيطان ومعناه أنه لا يقرب النساء وكذلك سألته عن أحب الثياب إليه أن يأتيه فيها فقال البياض والخضرة فقالت إنه الملك يعني أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملك والسواد من ألوان الشر والياطين وأمثال ذلك * ومن علاماتهم أيضا دعاؤه إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف وقد استدلّت خديجة على صدقه صلى الله عليه وسلم بذلك وكذلك أبو بكر ومن احتاج في أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه وفي الصحيح أن هرقل حين جاءه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم يدعو به إلى الإسلام أحضر من وجد يلبسه من قريش وفيهم أبو سفيان ليسأله عن حاله فكان فيما سأل أن قل لهم بأمركم فقال أبو سفيان بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف إلى آخر ما سأل فأجابته فقال إن يكن ما تقول حقا فهو نبي وسيملك ما تحت قدمي هاتين والعفاف الذي (١) أشار إليه هرقل هو العصمة فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة دليلا على صحة نبوته ولم يحتج إلى معجزة فدل على أن ذلك من علامات النبوة (ومن علاماتهم) أيضا أن يكونوا ذوي حسب في قومهم وفي الصحيح ما عت الله نبييا إلا في منعة من أقومه وفي رواية أخرى في ثروة من قومه استدركه الحاكم على الصحيحين وفي مساءة هرقل لأبي سفيان كما هو في الصحيح قال كيف هو ميمك فقال أبو سفيان هو فينا ذو حسب فقال هرقل والرسول تبعث في أحباب قومها ومعناه أن تكون له عصبية وشوكة تمنعه عن أذي الكفار حتى يبلغ رسالة ربه ويتم مراد الله من إكمال دينه ومولته (ومن علاماتهم) أيضا وقوع

الحوارق لهم شاهدة بصدقهم وهي أفعالهم بعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة وليست من جنس مقدور العباد وانما تقع في غير محل قدرتهم وللتناس في كيفية وقوعها ودلائلها على تصديق الأنبياء خلاف فالتكلمون بناء على القول بالفاعل المختار فثبوتها بأنها واقعة بقدره الله لا بفعل النبي وإن كانت أفعال العباد عند المعترلة صادرة عنهم إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم وليس للنبي فيها عند سائر المتكلمين إلا التحدي بها بأذن الله وهو أن يستدل بها النبي صلى الله عليه وسلم قبل وقوعها على صدقه في مدعاه فإذا وقعت نزلت منزلة القول الصريح من الله بأنه صادق وتكون دلائلها حينئذ على الصدق قطعية فله المعجزة الدالة بمجموع الحارق والتحدي ولذلك كان التحدي جزءاً منها (وعبارة المتكلمين) صفة نفسها وهو واحد لأنه معنى الداعي عندهم والتحدي هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر إذ لا حاجة فيهما إلى التصديق فلا وجود للتحدي إلا إن وجد اتفاقاً وإن وقع التحدي في الكرامة عندهم بعجزها أو كانت لها دلالة فاعلم على الولاية وهي غير النبوة ومن هنا منع الاستدلال بأسحق وغيره ووقوع الحوارق كرامة فزارا من الالتباس بالنبوة عند التحدي بالولاية وقد أريناك المغايرة بينهما وأنه يتحدى بغير ما يتحدى به النبي فلا ليس على أن الفعل عن الاستدلال في ذلك ليس صريحاً وربما حمل على إنكار أن تقع حوارق الأنبياء لهم بناء على اختصاص كل من الفريقين بحوارق وأما المعجزة فلانما يقع من وقوع الكرامة عندهم أن الحوارق ليست من أفعال العباد وأفعالهم معتادة فلا فرق وأما وقوعها على يد الكاذب فلا فهو محال أما عند الأشعرية فلا لأن صفة نفس المعجزة التصديق والهداية فتوقفت بخلاف ذلك فطلب الدليل شبهة والهداية ضلالة والتصديق كذب واستحالت الحقائق وانقلبت صفات النفس وما يلزم من فرض وقوعه الخيال لا يكون ممكناً وأما عند المعترلة فلا لأن وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة فيصح فلا يقع من الله وأما الحكماء فالخارق عندهم من فعل النبي ولو كان في غير محل القدرة بناء على مذهبهم في الإيجاب الداعي ووقوع الحوادث بعضها عن بعض متوقف على الأسباب والشروط الحادثة مستندة أخيراً إلى الواجب الفاعل بالذات لا بالاختيار وأن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية منها صدور هذا الحوارق بقدرته وطاعة العناصر له في التكوين والنبي عندهم يحول على التصريف في الأكوام مما توجه إليها واستجمع لها بما جعل الله من ذلك والخارق عندهم يقع للنبي كان للتحدي أو لم يكن وهو شاهد بصدقهم من حيث دلالته على تصرف النبي في الأكوام أن النبي هو من خواص النفس النبوية لا بأنه ينزل منزلة القول الصريح بالتصديق فذلك لا تكون دلائلها عندهم قطعية كما هي عند المتكلمين ولا يكون التحدي جزءاً من المعجزة ولم يصح فارقها لها عن السحر والكرامة وفارقها عندهم عن السحر أن النبي يحول على أفعال الخير مصروف عن أفعال الشر فلا يلزم الشر بخوارقه والباحر على الضد فأفعاله كلها مشروفي مقاصد الشر وفارقها عن الكرامة أن حوارق النبي مخصوصة كالصعود إلى السماء والنفوذ في الأجسام الكثيفة وإحياء الموتى وتكليم اللاتكلم والطيران في الهواء وخوارق الوحي دون ذلك كتكثير القليل والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله

مما هو قاصر عن تصريف الأنبياء وبأني التي بجميع خوارفه ولا يقدر هو على مثل خوارق الأنبياء وقد قرر ذلك المنصوفة فيما كشوه في طريقهم ولقنوه عن أخبره وإذا قرر ذلك فالعلم أن أعظم المعجزات وأشرها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن الخوارق في الغالب تقع مقابلة للوحي الذي يلقاه النبي وبأني بالمعجزة شاهدة بصدقه والقرآن هو نفسه الوحي المدعى وهو الخارق المعجز فتشاهده في عينه ولا يقتصر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي فهو أوضح دلالة لانحاده الدليل والمدلول فيه وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحى إلى قاتل أارجو أن أكون أكثر ناهيا يوم القيامة بشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحي كان المصدق لها أكثر توضوحها فكثير المصدق والمؤمن وهو النابع والامة

ولندكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شأن العرافين وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول

اعلم أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والاحكام وربط الأسباب بالنتائج واتصال الأكوان بالأكوان واستتالة بعض الوجودات إلى بعض لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غايته وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجفاني وأولا علم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعدا من الأرض إلى الماء ثم إلى الهواء ثم إلى النار متصلا بعضها ببعض وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعدا وهابطا ويستحيل بعض الأوقات والصاعد منها ألتطف مما قبله إلى أن ينتهي إلى علم الأقالق وهو ألتطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط وبها يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها وما بعد ذلك من وجود الدورات التي لها هذه الآثار فيها ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتداء من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الخشاش وما لا يدركه وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الخنزير والصفى ولم يجد لها القوة للتمس فقط ومعنى الاتصال في هذه المكنونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق الذي بعده واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدرج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية ترتفع اليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والادراك ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده وهذا غلبة شهودنا ثم انما نجد في العوالم على اختلافها آثارا متنوعة في عالم الحس آثار من حركات الأقالق والعناصر وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والادراك تشهد كلها بأن لها مؤثرا مباينا للأجسام فيور وحياتي ويتصل بالمكنونات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها

وذلك هو النفس المدركة والحركة ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوياً الادراك والحركة وتصل
بها أيضاً ويكون ذاتها ادراكاً كغيرها أو تعقلاً عضواً وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك أن يكون للنفس
استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وثنا من الأوقات في
لحظة من اللحظات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحية بالحقائق والفعل كما تذكره بعد ويكون لها اتصال بالأفلاك
التي بعدها شأن الموجودات المراتبية كما قدمناه فلها في الاتصال جنباً العلوي السفلي هي متصلة بالبدن
من أسفل منها ومكتسبة به المدارك الحسية التي تستمد بها الحصول على التعقل بالفعل ومتصلة من جهة
الأعلى منها بأفلاك الملائكة ومكتسبة به المدارك العلمية والغيبية فإن عالم الحوادث موجود في تعقلاتهم
من غير زمان وهذا على ما قدمناه من الترتيب المحكم في الوجود باتصال ذواته وقواه بعضها ببعض
ثم ان هذه النفس الانسانية غالبة عن العيان وآثارها ظاهرة في البدن فكأنه وجميع أجزائه مجتمع
ومفرقة آلات للنفس وثقواها بالفاعلية فالبطش باليد والشئ بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلية
بالبدن متداخلاً وأما المدركة وان كانت قوى الادراك مرتبة ومرتبقة الى القوة العليا منها ومن
التفكير التي يعبر عنها بالناطقة فتقوى الحس الظاهر ذباً لأنه من السمع والبصر وسائر ما يرتقي الى الباطن
وأوله الحس المشترك وهو قوة تدرك المحسوسات مبصرة وسموعة وملوسة وغيره في حالة واحدة
وبذلك تارقت قوة الحس الظاهر لان المحسوسات لا تزدحم عليها في الوقت الواحد ثم يؤدى به الحس
المشترك الى الخيال وهي قوة تمثل الشئ المحسوس في النفس كما هو غير داع عن المواد الخارجية فقط وآلة
هاتين القوتين في تصرفيهما البطن الأول من الدماغ مقدمه للأولى ومؤخره الثانية ثم يرتقي الخيال الى
الواحدة والحافظة قالوا أهمية الادراك المعاني المتعلقة بالشخصيات كمداد زيد وصداقة عمر ورحمة الأب
واقتراس الذئب والحافظة لا يداع المدركات كلها متخيلة وغير متخيلة وهي لها كالجزء التي تحفظها لوقت
الحاجة اليها وآلة هاتين القوتين في تصرفيهما البطن المؤخر من الدماغ أوله الأولى ومؤخره الثانية ثم يرتقي الخيال الى
ترتقي جميعها الى قوة التفكير وآلة البطن الأوسط من الدماغ وهي القوة التي تقع بها حركة الروبوت والتوجه
نحو التعقل فتحرك النفس بها دائماً لما ركب فيها من النزوع للتخلص من درك القوة والاستعداد الذي
للشريعة وتخرج الى الفعل في تعلقها بمتخيلة بالملأ الأعلى الروحاني ونصير في أول مراتب الروحانيات في
إدراكها بغير الآلات الجسمية فهي متحركة دائماً ومتوجهة نحو ذلك وقد تنسلخ بالكلية من البشرية
وروحانياتها الى الملكية من الأفلاك الأعلى من غير اكتساب بل بما جعل الله فيها من الجيلة والفضيلة الأولى في
ذلك النفوس البشرية على ثلاثة أصناف منصف عاجز بالطبع عن الوصول الى الادراك الروحاني فيقطع
بالحركة الى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعاني من الحافظة والواحدة على قوانين
محسوسة وترتيب خاص يستفيدون بالعلوم التصويرية والتصديقية التي للتفكير في البدن وكلها خيالي
منحصر نطاقه إذ هو من جهة مبدئه ينتهي إلى الأولويات ولا يتجاوزها وان قد فسد ما بعدها وهذا هو
في الأغلب نطاق الادراك البشري الجسماني واليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم وصنف

متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والادراك الذي لا يقتصر إلى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعداد لذلك فيسمع نطاق ادراكه عن الأوليات التي هي نطاق الادراك الأول البشري ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية وهي وجدان كلها لا تطلق لها من مبدئها ولا من منتهائها وهذه مدارك العباد الأولياء أهل العلوم الدينية والمعارف الربانية وهي الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة في البرزخ وصنف مفسطور على الانسلاخ من البشرية جملة جهات تباينها وروحانيتها إلى الملائكة من الاتفاق الأعلى ليصير في لحظة من اللحظات ملكا بالفعل ويحصل له مشيود الملائكة الأعلى في أقصم وسامع الكلام النفساني والحطاب الإلهي في تلك اللحظة وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللحظة وهي حالة الوحي فطرة فطرهم الله عليها وجيلة صورهم فيها وزهيم عن مواقع البدن وعواقبه ماداموا ملايين لها بالبشرية بماركب في غرائزهم من القصد والاستقامة التي يحاذون بها تلك الوجبة وركز في طبائعهم رغبة في العبادة تكشف بتلك الوجبة وتسيخ نحوها فهم يتوجهون إلى ذلك الاتفاق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا ابتلاك الفطرة التي فطرها عليها لأبأ كساب ولا صناعة فذا توجهاوا وانسلخوا عن بشريتهم وتلقوا في ذلك الملائكة الأعلى ما يلقونه وعاجوا به على المدارك البشرية منزلا في قواها لحكمة التبليغ للعبادة فتارة يسمع دويها كأنه رمز من الكلام يأخذه المعنى الذي أتى إليه فلا يتقضى الدوي إلا وقد وعاه وفهمه ونارة تمثل له الملك الذي يلقى إليه رجلا فيكلمه ويعي ما يقوله والتلقى من الملك والرجوع إلى المدارك البشرية وفهمه ما أتى عليه كله كأنه في لحظة واحدة بل أقرب من لمح البصر لأنه ليس في زمان بل كلبا تقع جميعا فيظهر كأنها سريعة ولذلك سميت وحيا لأن الوحي في اللغة الأسراع (واعلم) أن الأولى وهي حالة الدوي هي رتبة الأنبياء غير المرسلين على ما حققوه والثانية وهي حالة تمثل الملك رجلا يخاطب هي رتبة الأنبياء المرسلين ولذلك كانت أكل من الأولى وهذا معنى الحديث الذي فسره النبي صلى الله عليه وسلم الوحي لما سأله الحرث بن هشام وقال كيف يأتيك الوحي فقال أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول وإنما كانت الأولى أشد لأنها مبدأ الخروج في ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل فيعبر بعض العبر ولذلك لما عاج فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع وصعب ماسواه وعند ما يتكرر الوحي ويكثر التلقى يسهل ذلك الاتصال فعند ما يعرج إلى المدارك البشرية يأتي على جميعها وخصوصا الأولى وضع منها وهو إدراك البصر وفي العبارة عن الوعي في الأولى بصيغة الماضي وفي الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهي أن الكلام جاء بمعنى التمثيل لخالق الوحي مثل الحالة الأولى بالدوي الذي هو في المعارف غير كلام وأخبر أن الفهم والوعي يتبعه غيب انقضائه فتاسب عند تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعي بالماضي المطابق للانقضاء والاحتطاع ومثل الملك في الحالة الثانية برجل يخاطب ويشكلم والكلام يساوقه الوعي فتاسب العبارة بالمضارع للمقتضى للتجدد واعلم

أن في حالة الوحي كلها صعوبة على الجملة وشدة قد أشار إليها القرآن قال تعالى إن اسئلك عنك قولاً
تقيلاً وقالت عائشة كان مما يعاني من التزليل شدة وقالت كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد
فيفصم عنه وإن جيبته ليقتصد عرقاً ولذلك كان يحدث عنه في تلك الحالة من الغيبة والغبط ما هو
معروف وسبب ذلك أن الوحي كإقراره مفارقة البشرية إلى المدارك الملية وتلقي كلام النفس
فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها من أقفا إلى ذلك الأفق الآخر وهذا هو
معنى اللفظ الذي عبر به في مبدأ الوحي في قوله فطلى حتى بلغ من الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت
ما أنا بقارئ وكذا ثانية وثالثة كما في الحديث وقد يفضى الاعتقاد بالندرج فيه شيئاً إلى بعض
السهولة بالقياس إلى ما قبله ولذلك كان ينزل نجوم القرآن وسوره وآيه حين كان بمكة أقصر منها
وهو بالمدينة وانظر إلى ما مثل في نزول سورة برامة في غزوة تبوك وأنها نزلت كلها أو أكثرها
عليه وهو يسير على ناقته بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصار المفصل في وقت وينزل
الباق في حين آخر وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهي ما هي في الطول بعد أن كانت الآية
تنزل بمكة مثل آيات الرحمن والندريات والمدثر والضحي والفلق وأمثالها واعتبر من ذلك علامة تميز
بها بين السك والندى من السور والآيات والله يرشد للصواب هذا يحصل أمر النبوة (وأما الكهانة)
فهي أيضاً من خواص النفس الانسانية وذلك أنه قد تقدم لنا في جميع ما مر أن للنفس الانسانية
استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها وأنه يحصل من ذلك لغة للبشر في صنف
الأنبياء عاقلوا وعليه من ذلك وتقرر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشيء من المدارك
ولامن التصورات ولامن الأفعال البدنية كلاماً أو حركة ولا يأمر من الأمور إنما هو انسلاخ من
البشرية إلى الملكية بالقطرة في لحظة أقرب من لمح البصر وإذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد
موجوداً في الطبيعة البشرية فيعطي التقسيم العقلي أن هنا صنف آخر من البشر ناقصاً عن رتبة الصنف
الأول قصار الضد عن هذه الكمال لأن عدم الاستعانة في ذلك الإدراك ضد الاستعانة فيه وشتان
ما بينهما فإذا أعطى تقسيم الوجود أن هنا صنف آخر من البشر مغطورا على أن تتحرك قوته العقلية
حركتها الفكرية بالارادة عند ما يعثها النزوع لذلك وهي ناقصة عنه بالجيلة فيكون لها بالجيلة عند
ما يعوقها المعجز عن ذلك تشبه بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات
وسجع الكلام وما شئ من طير أو حيوان فيستدبر ذلك الاحساس أو التخيل مستعانة به في ذلك
الانسلاخ الذي يقصده ويكون كالشيع له وهذه القوة التي فيهم مبدأ لذلك الإدراك هي الكهانة
ولكون هذه النفوس مغطورة على التقصم والقصور عن الكمال كان إدراكها في الجزئيات أكثر
من الكليات ولذلك تكون الخيلة فيهم في غاية القوة لأنها آلة الجزئيات فتتدفقها نفوذاتاً في نوم
أو يقظة وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها الخيلة وتكون لها كالمراة تنظر فيها دائماً ولا يقوى
الكاهن على السكالي في أدراك العقولات لأن وحيه من وحي الشيطان وأرفع أحوال هذا الصنف

أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة لثقل به عن الخواص ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص فيه جس في قلبه عن تلك الحركة والذي يشبهها من ذلك الأجنبي ما يقذفه على لسانه فربما صدق ووافق الحق وربما كذب لأنه يتم بقصه بأمر أجنبي عن ذاته المدركة ومباين لها غير ملائم فيعرض له الصدق والكذب جميعا ولا يكون موثوقا به وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصا على الخلط بالأدراك بزعمه وتعميها على السائلين وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لأنهم أرفع سائر أصنافهم وقد قال صلى الله عليه وسلم في مثله هذا من سجع الكهان يفعل السجع فتصاحبهم بتقتضي الإضافة وقد قال لابن صبار حين سأله كاشفا عن حاله بالاختيار كيف يأتيك هذا الأمر قل يأتيني صادق وكاذب فقال خلط عليك الأمر يعني أن النبوة حاصتها الصدق فلا يعتمرها الكذب بحال لأنها اتصال من ذات النبي بالأمم الأعلى من غير مشيع والاستعانة بأجنبي والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه إلى الاستعانة بالتصورات الأجنبية كانت داخلية في أدراكه والتبست بالأدراك الذي توجه إليه فصار غتلطابها وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع أن تكون نبوة وإنما قلنا أن أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لأن معنى السجع أخف من سائر الغييات من المراتبات والسموعات وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والأدراك والبعد فيه عن العجز بعض الشيء (وقد زعم) بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجس الشياطين بالشبه بين يدي البعثة وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كواقع في القرآن والكهان إنما يعرفون أخبار السماء من الشياطين فيطلت الكهانة من يومئذ ولا يقوم من ذلك دليل لأن علوم الكهان كان يكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضا كما قررناه وأيضاً فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا عما سوى ذلك وأيضاً فالما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط ولعنبا عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه وهذا هو الظاهر لأن هذه المدارك كلها تخمد في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرّج عند وجود الشمس لأن النبوة هي النور الأعظم الذي يخفى معه كل نور ويذهب وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدي النبوة ثم تنقطع وهكذا مع كل نبوة وقعت لأن وجود النبوة لا يبدله من وضع فلسفي يقتضيه وفي تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي دل عليها ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضي وجود طبيعة من ذلك النوع الذي يقتضيه ناقصة وهو معنى الكاهن على ما قررناه قبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضي وجود الكاهن إما واحدا أو متعددا فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبي بكماله وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شيء بعد وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلسفي يقتضي بعض أثره وهو غير مسلم فلعل الوضع إنما يقتضي ذلك الأثر بحيث الحاسة ونقص بعض أجزائها فلا يقتضي شيئا لأنه يقتضي ذلك الأثر ناقصا كما قلناه ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فأنهم عارفون بصدق النبي ودلالته معجزته لأن لهم بعض الوجدان من أمر

النبوّة كالكل إنسان من أمر النوم ومعقولة تلك النسبة موجودة للكاهن بأشدّ مما للنائم ولا يصدم
عن ذلك ويوقعهم في التكذيب لاقوة الظلمع في أنها نبوة لهم فيقعون في العناد كما وقع لأمية بن أبي الصلت
قانه كان يطمع أن يتنبأ وكذا وقع لابن سياد ومسلمة وغيرهم فإذا غلب الإيمان وانضطعت تلك الأماني
آمنوا أحسن إيمان كما وقع لطليحة الأسدي وسواد بن قارب وكان لحافى الفتوحات الإسلامية من
الآثار الشاهدة بحسن الإيمان (وأما الرؤيا) حقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لحمة
من صور الواقعات فإنها عند ما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل كاهو
شأن الدورات الروحانية كلها وتصير روحانية بأن تجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية وقد
يقع لها ذلك لحمة بسبب النوم كأنه كرفقفس بها علم ما تنكشف اليه من الأمور المستقبلية وتعود به إلى
مدار كيان كان ذلك الاقتباس ضعيفا وغير جلي بالحاكاة والمثال في الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل
هذه الحاكاة إلى التعبير وقد يكون الاقتباس قويا يستغني فيه عن الحاكاة فلا يحتاج إلى تعبير مخلوصه
من أمثال والخيال والسبب في وقوع هذه الامحة للنفس أنها ذات روحانية بالقوة متكاملة بالبدن
ومداركه حتى تصير ذاتها متعلقا بعضها وبكل وجودها بالفعل فتكون حينئذ ذاتا روحانية مدركة بغير
شيء من الآلات البدنية إلا أن نوعها في الروحانيات دون نوع الملائكة أهل الاتفاق على الذين لم
يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن ولا غيره فهذا الاستعداد حاصل لها مادامت في البدن
ومنه خاص كالنبي الأولياء ومنه علم للبشر على العموم وهو أمر الرؤيا * وأما الذي للانبيا فهو
استعداد بالانصلاح من البشرية إلى الملكية المحضة التي هي أعلى الروحانيات ويخرج هذا الاستعداد
فيهم متكررا في حالات الوحي وهو عندما تخرج على المدارك البدنية ويقع فيها ما يقع من الإدراك
شبهها بحال النوم شبهها بينا وإن كان حال النوم أدون منه بكثير فلاجل هذا الشبه عبر الشارع عن
الرؤيا بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة وفي رواية ثلاثة وأربعين وفي رواية سبعين وليس
العدد في جميعها مقصودا بالذات وإنما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب بدليل ذكر السبعين في
بعض طرقه وهو للتكثير عند العرب وما ذهب إليه بعضهم في رواية ستة وأربعين من أن الوحي كان في
مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر وهي نصف سنة ومدة النبوة كلها عكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة فنصف السنة
منها جزء من ستة وأربعين فكلام بعيد من التحقيق لأنه إنما وقع ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ومن أين لنا
أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء مع أن ذلك إنما يعطى نسبة من الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطى نسبة
حقيقتها من حقيقة النبوة وإذا تبين لك هذا اتخذ كراهة أو لا علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول
الشامل للبشر إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطري لهم صلوات الله عليهم أذهو الاستعداد
البعيد وإن كان عاما في البشر ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل ومن أعظم تلك الموانع
الحواس الظاهرة ففطر الله البشر على ارتضاع حجاب الحواس بالنوم الذي هو حيل لهم فتعرض النفس عند
ارتفاعه إلى معرفة ما تنكشف اليه في عالم الحق فتدرك في بعض الأحيان منه لحمة يكون فيها الظفر بالمطلوب

ولذلك جعلها الشارع من البشريات فقال لم يبق من النبوة إلا البشريات قالوا وما البشريات يا رسول الله
قال الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو يرى له وأما سبب ارتضاع حجاب الحواس بالنوم فعلى ما أصفه
لك وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيواني الجسماني وهو بخار لطيف
مركزه بالتجويف الأيسر من القلب على ما في كتب الفسرخ الجالينوس وغيره ويتبع مع الدم في
الشريانات والعروق فيعضني الحس والحركة وسائر الأفعال البدنية ويرتفع لطيفه إلى الدماغ فيعدل
من يرده ويتم أفعال القوى التي في بطونه فالنفس الناطقة إنما تترك وتعدل بهذا الروح البخاري وهي
متعلقة بما اقتضته حكمة التكوين في أن اللطيف لا يؤثر في الكشف واللفظ هذا الروح الحيواني
من بين المواد البدنية صار محلاً لأنار الذات المبينة لمق جسمانيته وهي النفس الناطقة وصارت آثارها
حاصلة في البدن بواسطة وقد كنا قد علمنا أن إدراكها على نوعين إدراك بالظاهر وهو بالحواس الحس
وإدراك بالباطن وهو بالقوى الدماغية وأن هذا الإدراك كله صار فها عن إدراكها ما فوقها من
ذواتها الروحانية التي هي مستعدة له بالفطرة ولما كانت الحواس الظاهرة حسانية كانت معرضة للنوم
والفشل بما يدركها من التعب والكلال ونفسي الروح بكثرة التصرف فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجرد
الإدراك على الصورة الكاملة وإنما يكون ذلك بالغنى الروح الحيواني من الحواس الظاهرة كلها
ورجوعه إلى الحس الباطن ويعين على ذلك ما يغشي البدن من البرد بالليل فتطلب الحرارة الغريزية أعماق
البدن وتذهب من ظاهره إلى باطنه فتكون مشبعة مركبها وهو الروح الحيواني إلى الباطن ولذلك
كان النوم للبشر في الغالب إنما هو بالليل فإذا انخس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع إلى القوى
الباطنة وحفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ورجعت إلى الصورة التي في الحافظة تمثل منها
بالتركيب والتحليل صور خيالية وأكثر ما تكون معتادة لأنها منتزعة من الإدراكات المتعاهدة
فربما تم بترها الحس المشترك الذي هو جامع الحواس الظاهرة فيدركها على أنحاء الحواس الحس
الظاهرة وربما انفتحت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية مع منازعة القوى الباطنية فتدرك بإدراكها
الروحاني لأنها مفطورة عليه وتقتبس من صور الأشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ ثم يأخذ
الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقبة أو المحاكاة في القوالب المعبودة وألها كانه من هذه هي
المتخيلة للتعبير وتصرفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه
هي أضغاث أحلام (وفي الصحيح) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ورؤيا
من الملك ورؤيا من الشيطان وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه فالجلى من الله والمحاكاة الداعية إلى
التعبير من الملك وأضغاث الأحلام من الشيطان لأنها كلها باطل والشيطان ينفوخ الباطل هذه حقيقة
الرؤيا وما يسببها ويشيعها من النوم وهي خواص للنفس الإنسانية موجودة في البشر على العموم لا يخلو
عنها أحد منهم بل كل واحد من الإنسان رأى في نومه ما صدر له في يقظته مراراً غير واحدة وحصل له على
القطع أن النفس مدركة للغيب في النوم ولا بدوا إذا جاز ذلك في عالم النوم فلا يتنع في غيره من الأحوال

لأن الذات المدركة واحدة وخواصها عامة في كل حال والله الهادي إلى الحق بمنه وفضله
 (فصل) ووقوع ما يقع للبشر من ذلك غالباً إنما هو من غير قصد ولا قدرة عليه وإنما تكون النفس
 متشوقة لذلك الشيء فيقع لها تلك المصلحة في النوم لأنها تقصد إلى ذلك فتراه وقد وقع في كتاب الغاية
 وغيره من كتب أهل الرياض ذكر أسماء تذكر عند النوم فتكون عنها أثر ويا فيها يتشوف إليه ويحسبونها
 الخاتومية وذكر منها مملكة في كتاب الغاية حالها مع ما حالومة الطباع التام وهو أن يقال عند النوم
 بعد فراغ السروحة التوجه هذه الكائنات العجيبة وهي ما غس بعد أن يسود غداًس نوفاً غداًس
 ويذكر حاجته فإنه يرى الكشف عما يسأل عنه في النوم (وحي) أن رجلاً فعل ذلك بعد رياضة
 ليال في ما كله وذكره فتمثل له شخص يقول له أنا طباعك أنام فأله وأخبره عما كان يتشوف إليه وقد
 وقع في أنابهذه الاسماء مرأى عجيبة واطلعت بها على أمور كنت أتشوف إليها من أحوالي وليس
 ذلك بدليل على أن التصددل رؤيا غداًسها وإنما هذه الحالومات تحدث استعداداً في النفس لوقوع الرؤيا
 فإذا قوي الاستعداد كان أقرب إلى حصول ما يستعدله والشخص أن يفعل من الاستعداد ما أحب
 ولا يكون دليلاً على إيقاع استعداده فالقدرة على الاستعداد غير القدرة على الشيء فاعلم ذلك
 وتدبره فيما تجد من أمثاله والله الحكيم الخبير

(فصل) ثم إننا نبحث في النوع الإنساني أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز
 بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم
 ولا غيرها إنما يجد مداركهم في ذلك يختص بفطرهم التي فطروا عليها وذلك مثل العرافين والناظرين
 في الأجسام الشفافة كالمرآيا وطاس الماء والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها وأهل
 الزجر في الطير والسباع وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى وهذه كلها موجودة في
 عالم الإنسان لا يبع أحد أجدها ولا إنكارها وكذلك المجانين يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب
 فيخبرون بها وكذلك التائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب وكذلك أهل الرياضات من
 المتصوفة لهم مدارك في الغيب على سبيل الكرامة معروفة * ونحن الآن نتكلم على هذه الأدراكات
 كلها ونبتدي منها بالكهانة ثم نأتي عليها واحدة واحدة إلى آخرها ونقدم على ذلك مقدمة في أن
 النفس الإنسانية كيف تستعدل ادراك الغيب في جميع الأصناف التي ذكرناها وذلك أنها ذات روحانية
 موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات كما ذكرناه قبل وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن
 وأحواله وهذا أمر مدرك لكل أحد وكل ما بالقوة فله مادة وصورة وصورة هذه النفس التي بها يتم
 وجودها هو عين الإدراك والتعقل فهي توجد أولاً بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية
 والجزئية ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها يورود مدركاتها المحسوسة
 عليها وما تنتزع من تلك الأدراكات من المعاني الكلية فتعقل الصور مرة بعد أخرى حتى يحصل لها
 الإدراك والتعقل بالفعل فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهيولى والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد

ولذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يقدر على الإدراك الذي له من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرها وذلك لأن صورتها التي هي عين ذاتها وهي الإدراك والتعقل لم يتم بعد بل لم يتم لها انتزاع الكليات ثم اذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك ادراك بالآلات الجسم تؤديه اليها المدارك البدنية وادراك بذاتها من غير واسطة وهي معجوبة عنه بالانفاس في البدن والحواس وبشواغلها لأن الحواس أبدا جاذبة لها الى الظاهر بما فطرت عليه أولا من الادراك الجسماني وربما تنغمس من الظاهر الى الباطن فيرفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التي هي للانسان على الاطلاق مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق أو بالرياضة مثل أهل الكشف من الصوفية فتنتفض حيث تدالي القادرات التي فوقها من انزالها على الما بين أفتقها وأفتقهم من الاتصال في الوجود كما قررناه قبل وتلك القادرات وحانية وهي ادراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها كما مر في تجلي فيها شيء من تلك الصور وتفتبس منها علوما ويرى ما دفعت تلك الصور المدركة الى الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة ثم يرجع الحس بما أدركت إما مجردا أو في قوالبه فتخبر به هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الإدراك القبي ولترجع الى ما وعدنا به من بيان أصنافه (فأما) الناظرون في الأجسام الشفافة من المرايا وطمس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان لأنهم أضمت رتبة فيه في أصل خلقهم لأن الكهان لا يحتاج في رفع حجاب الحس الى كثير معاناة وهؤلاء يعانونه بالتحصير المدرك الحسية كلية في نوع واحد منها وأشرفها البصر فيمكنك على المرئي البسيط حتى يبدو له مدركة التي تخبر به عنه وربما يظن أن مشاهدة هؤلاء ما يرونه هو في سطح المرآة وليس كذلك بل لا يرون ينظرون في سطح المرآة الى أن يغيب عن البصر ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب كأنه غمام يمثل فيه صور هي مداركهم فيشيرون اليهم بالمقصود ما يتوجهون الى معرفته من نقي أو إثبات فيخبرون بذلك على نحو ما أدركوه وأما المرآة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه في تلك الحال وإنما ينشأ لهم بها هذا النوع الآخر من الإدراك وهو نفساني ليس من ادراك البصر بل يتشكل به المدركة النفساني للحس كما هو معروف ومثل ذلك ما تعرض للناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وللناظرين في الماء والطمس وأمثال ذلك وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد ثم يخبر كما أدرك ويرغمون أنهم يرون الصور منمنخة في الهواء تحكي لهم أحوال ما يتوجهون الى ادراكه بالمثال والاشارة وغية هؤلاء عن الحس أخف من الأولين والعالم أبو الغرائب وأما الزجرفيو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سوح طائر أو حيوان والفكر فيه بعد مغيبه وهي قوة في النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجرفيه من مرئي أو مسموع وتكون قوته الخيلة كما قدمناه قوية فيبحثها في البحث مستعيناً بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك الى ادراك ما كانت فعله القوة المتخيلة في النوم وعند ركود الحواس تنوسط بين الحسوس المرئي في يقظته وتجميعه مع ما عقلت فيكون عنها الرؤيا وأما المجانين فنفسهم الناطقة ضعيفة

التعلق بالبدن لفساد أمر جتهم غالباً وضعف الروح الحيوانى فيها فتكون نفسه غير مستغرقة فى الحواس ولا منغمسة بتأثيرها شعاعياً فى ذنوبها من ألم التقص ومرض جورعاً زاحماً على التعلق بدرو حانية أخرى شيطانية تنشبت به وتضعف هذه عن ثباتها فيكون عنه التخطئ فإذا أصابه ذلك التخطئ إما لفساد مزاجه من فساد فى ذاتها أو لضعف من النفوس الشيطانية فى تعلقه غاب عن حبه جملة فأدرك لحة من عالم نفسه وانطبع فيها بعض الصور وصرفها الخيال وربما نطق على لسانه فى تلك الحال من غير إرادة النطق وأدراك هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق بالباطل لأنه لا يحصل لهم الاتصال وإن فقدوا الحس الأبعد الاستعانة بالتصورات الأجنبية كما قررناه ومن ذلك يحى الكذب فى هذه المدارك وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الإدراك وليس لهم ذلك الاتصال فيسلطون الفكر على الأمر الذى يتوجهون إليه ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما توهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة (هذا تحصيل هذه الأمور) وقد تكلم عليها السعدي فى مروج الذهب فأصاف تحقيقاً وإصابة ويقهر من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ فى المعارف فيقتل ما سمع من أهله ومن غير أهله وهذه الإدراكات التى ذكرناها موجودة كلها فى نوع البشر فقد كان العرب يقربون إلى السكبان فى تعرف الحوادث ويتنافرون اليهم فى الخصومات ليعرفهم بالحق فيها من أدر الغيبهم وفى كتب أهل الأدب كثير من ذلك واشتهر منهم فى الجاهلية شق من أنمار بن زرار وسطيح بن مازن بن عسك وكان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه إلا الجمجمة ومن مشهور الحكايات عنها أن أول رؤيا ربيعة بن مضر وما أخبره من ملك الحيشة ليمن وملك مضر من بعده وظهور النبوة الحممية فى قريش ورؤيا الوليدان التى أولها سطيح لما بعث إليه بها كسرى عبد المسيح فأخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة وكذلك العرافون كان فى العرب منهم كثير وذكرهم فى أشعارهم قال

فقلت لعراف اليمامة داؤنى * فانك إن داؤيتنى لطيب

وقال الآخر جعلت لعراف اليمامة حكمه * وعراف نجدان هما شيباني

فتالا شفاك الله والله مالنا * بما حملت منك الضلوع يدان

وعراف اليمامة هو رباح بن عجلة وعراف نجدان يلقب الأسدي (ومن هذه المدارك الغيبية) ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتباسه بالنوم من الكلام على الشيء الذى يتشوف إليه بما يعطيه غيب ذلك الأمر كما يريد ولا يتبع ذلك إلا فى مبادئ النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار فى الكلام فيتكلم كأنه يحول على النطق وغايته أن يسمعه ويفهمه وكذلك يصدر عن القتولين عند مفارقة رؤسهم وأوساط أبدانهم كلام يثل ذلك ولقد بلغنا عن بعض الجبابرة الظالمين أنهم قتلوا من سجونهم أشخاصاً ليتعرفوا من كلامهم عند القتل عواقب أمورهم فى أنفسهم فأعلمهم بما يستبشع وذكر مسلمة فى كتاب الغاية له فى مثل ذلك أن آدمياً إذا جعل فى دن مملوء

بدهن السمسم ومكث فيه أربعين يوماً يغذى بالثين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه إلا العروق
 وشؤون رأسه فيخرج من ذلك الدهن خمسين يحف عليه الهواء يحجب عن كل شيء يستل عنه من عواقب
 الأمور الخاصة والعامة وهذا فعل من متأكير أفعال السحرة لسكن فيهم منه عجائب العالم الإنساني ومن
 الناس من يحاول حصول هذا المدرث الغيبي بالرياضة فيحاولون بالمجاهدة موانعها بامانة جميع
 القوى البدنية ثم يحرقون آثارها التي تلوث بها النفس ثم تغذيتها بالله ذكر لزيادة قوة في نشتها وحصل ذلك
 بجمع الفكر وكثرة الجوع ومن العلوم على القطع أنه إذا نزل الموت بالبدن ذهب الحس وحجابه
 واطلمت النفس على ذاتها وعلمها فيحاولون ذلك بالأكساب ليقتع لهم قبل الموت ما يقع لهم بعده وتطلع
 النفس على الغيبات ومن هؤلاء أهل الرياضة السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على الغيبات
 والتصرفات في العوالم وأكثر هؤلاء في الأقاليم النحرية جنوباً وشمالاً خصوصاً بلاد الهند ويسمون
 هناك الحوكية وهم كتب في كيفية هذه الرياضة كثرة والأخبار عنهم في ذلك غريبة وأما المتصوفة
 فرياضتهم دينية وعربية عن هذه المقاصد المنمومة وأما يقصدون جمع المهمة والأقبال على الله بالكلمة
 ليحصل لهم أدواق أهل العرفان والتوحيد ويزيدون في رياضتهم إلى الجمع والجوع التغذية بالله كرفها
 ثم وجههم في هذه الرياضة لأنه إذا نشأت النفس على الله ذكر كانت أقرب إلى العرفان بالله وإذا عريت
 عن الله ذكر كانت شيطانية وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف هؤلاء المتصوفة إنما هو
 بالعرض ولا يكون مقصوداً من أول الأمر لأنه إذا قصد ذلك كانت الوجهية فيه لغير الله وإنما هي
 لقصد التصرف والاطلاع على الغيب وأخسر بها صفة قائمها في الحقيقة شريك قل بعضهم من آثار العرفان
 للعرفان فتدقق بالتأني فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لشيء سواء وإذا حصل أثناء ذلك ما يحصل
 بالعرض وغير مقصود لهم وكثير منهم يقر منه إذا عرض له ولا يحفل به وإنما يريد الله ذاته لا غيره
 وحصول ذلك لهم معروف وينسبون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الحواطر فإساسة وكشفها وما
 يقع لهم من التصرف كرامة وليس شيء من ذلك بنكير في حقهم وقد ذهب إلى إنكاره الأستاذ أبو
 اسحق الاسفرايني وأبو محمد بن أبي زيد المالكي في آخرين فراراً من التباس المعجزة بغيرها والمعول
 عليه عندنا كلهم حصول التفرقة بالتجدي فهو كاف وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم قال إن فيكم عديتين وإن منهم عمر وقد وقع للصحابه من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل
 قول عمر رضي الله عنه ياسارية الجبل وهو سارية بن زعيم كان قائداً على بعض جيوش المسلمين بالعراق
 أيام الفتوحات وتورده مع المشركين في معترك وهم بالانهزام وكان يقرب بجبل يحير اليه فرفع لعمر
 ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه ياسارية الجبل ومعه سارية وهو يتكلمه ورأى شخصه
 هنالك والقصة معروفة ووقع مثله أيضاً في بكر في وصيته عائشة بنت عمر رضي الله عنها في شأن ما عملها
 من أوسق التمر من حديثه ثم نهىها على جذاذه لتحوزة عن الورثة فقال في سياق كلامه وأما ما أخواتك
 وأختاك فقالت أتعلمين أسماء فمن الأخرى فقال إن ذا بطن يفت خارجة أراها جارية فسكانت جارية موقع

في الموطأ في باب ما لا يجوز من النحل ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء
الآن أهل التصوف يقولون انه يقل في زمن النبوة إذ لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبي حتى إنهم يقولون
إن المريد إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله مادام فيها حتى يفارقها والله يرزقنا الهداية ويرشدنا
إلى الحق

(فصل) ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بها ليل معنوهون أشبه بالمجانين من العقلاء
ومع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين وعلم ذلك من أحوالهم من فهم عنهم من
أهل الدوق مع أنهم غير مكلفين ويقع لهم من الأخبار عن الغيبات عجائب لأنهم لا يتقيدون بشيء
فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب ويرغبون في الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون
من سقوط التكليف عنهم والولاية لا تحصل إلا بالعبادة وهو غلط فإن فضل الله يؤتيه من يشاء ولا
يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها وإذا كانت النفس الإنسانية ثابتة الوجود فأنه تعالى
يخصها بما شاء من مواهب وهؤلاء القوم لم تعد نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين وإنما
فقد لهم العقل الذي يتأثر به التكليف وهي صفة خاصة للنفس وهي علوم ضرورية للإنسان
يشتد بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامته منزله وكأنه إذا ميز أحوال معاشه واستقامة
منزله لم يبق له عذر في قبول التكليف لإصلاح معاد وليس من فقد هذه الصفة يفاقد لنفسه
ولا ذاهل عن حقيقته فيكون موجود الحقيقة معدوم العقل التكويني الذي هو معرفة الله تعالى
ولا استحالة في ذلك ولا يتوقف اصطفاء الله بعبادته لمعرفة على شيء من التكليف وإذا صح ذلك
فأعلم أنه ربما يتبس حال هؤلاء المجانين الذين نفسهم نفوسهم الناطقة ويلتفتون باللهائم ولذا في
تمييزهم علامات منها أن هؤلاء الهالكون يمدحهم وجهة ما لا يغفلون عنها أصلا من ذكر وعبادة لكن
على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم التكليف والمجانين لا يمدحهم وجهة أصلا ومنها أنهم يخلقون
على البلبه من أول نشأتهم والمجانين يمرض لهم الجنون بعد مدة من العمر لعوارض بدنية طبيعية فإذا
عرض لهم ذلك وفقدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالحقيقة ومنها كثرة تصرفهم في الناس بالخير والشر
لأنهم لا يشقون على أذن لعدم التكليف في حقهم والمجانين لا تصرف لهم وهذا قليل انتهى
بنا الكلام إليه والله المرشد للصواب

(فصل) وقد يزعم بعض الناس أن هنا مدارك للغيب من دون غيبة عن الحس فمنهم المنجمون
القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها في الفلك وآثارها في العناصر وما يحصل من الامتزاج
بين طباعها بالتناظر وتأدي من ذلك المزاج إلى الهواء وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب في شيء
أعماهي ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثير النجومية وحصول المزاج من الهواء مع مزيج حدسي
يقف به الناظر على تفصيله في الشخصيات في العالم كما قاله بطليموس ونحن نبين بطلان ذلك في محله إن
شاء الله وهو لو ثبت فغايبته حدس وتخمين وليس بما ذكرناه في شيء ومن هؤلاء قوم من العامة

استبطوا الاستخراج الغيب وتعرف الكائنات صناعة نحوها خط الرمل نسبة الى المادة التي يضعون فيها عملهم وعصون هذه الصناعة أنهم صيروا من النقط أشكالا ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية واستوائها فيها فكانت ستة عشر شكلا لأنها ان كانت أزواجا كلها أو أفرادا كلها فشكلا وان كان الفرد فيهما في مرتبة واحدة فقط فأربعة أشكال وان كان الفرد في مرتبتين فستة أشكال وان كان في ثلاث مراتب فأربعة أشكال جاءت ستة عشر شكلا ميزوها كلها بأصنافها وأنواعها الى سبعة ونحو من شأن الكواكب وجعلوا الهامة عشر يتطابقية بزعمهم وكانها البروج الاثنا عشر التي للفلك والافلاك الأربعة وجعلوا لكل شكل منها بيتا وحظوظا ودلالة على صنف من موجودات عالم العناصر يختص به واستبطوا من ذلك ففاحاذوا به فن النجامة ونوع قضائه الا أن أحكام النجامة مستندة الى أوضاع طبيعية كزعم بطليموس وهذه انما مستندة الى أوضاع تمكينية وأهواء انشائية ولا دليل يقوم على شيء منها وزعمون أن أصل ذلك من النيات القديمة في العالم وربما نسبوها الى دانيال أو الى ادریس صلوات الله عليهم شأن الصنائع كلها وربما يدعون مشروعيها ويحتجون بقوله صلى الله عليه وسلم كان نبى يخط فمن وافق خطه فذاك وليس في الحديث دليل على مشروعية خط الرمل كما يزعمه بعض من لا يحصل لديه لأن معنى الحديث كان نبى يخط يأتيه الوحي عند ذلك الخط ولا استحالة في أن يكون ذلك عادة لبعض الأنبياء فمن وافق خطه ذلك النبي فيوذا الذي هو صحيح من بين الخطباء عند من الوحي لذلك النبي الذي كانت عادته أن يأتيه الوحي عند الخط وأما إذا أخذ ذلك من الخط مجردا من غير موافقة وحي فلا وهذا معنى الحديث والله أعلم فإذا أرادوا استخراج مغيب بزعمهم عمدوا الى قيرطاس أو رمل أو دقيق فوضعوا النقط سطورا على عدد المراتب الأربعة ثم كرروا ذلك أربع مرات فتجىء ستة عشر سطرا ثم يطر حون النقط أزواجا ويضعون ما بقى من كل سطر زواجا كان أو فردا في مرتبته على الترتيب فتجىء أربعة أشكال يضعونها في سطر متالية ثم يولدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قبلها من الشكل الذي بازائه وما يجتمع منهما من زوج أو فرد فتسكون ثمانية أشكال موضوعة في سطر ثم يولدون من كل شكلين شكلا تحتها باعتبار ما يجتمع في كل مرتبة من مراتب الشكلين أيضا من زوج أو فرد فتسكون أربعة أخرى تحتها ثم يولدون من الأربعة شكلين كذلك تحتها ثم من الشكلين شكلا كذلك تحتها ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الأول شكلا يكون آخر الستة عشر ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من العود والنحو بالذات والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك تحكما غريبا وكثرت هذه الصناعة في العمران ووضعت فيها التأليف واشتهر فيها الاعلام من المتقدمين والمتأخرين وهي كآيت تحكيم وهوى والتحقيق الذي ينبغي أن يكون نصب فكره أن الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل الى تعرفها الا بالخواص من البشر المنظورين على الرجوع عن عالم الحس الى عالم الروح ولذلك يسمى المنجمون هذا الصنف كلهم بالزهرين نسبة

الى ما تقتضيه دلالة الزهرة برعمهم في أصل مواليدهم على ادراك الغيب فالخط وغيره من هذه ان كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصية وقصد بهذه الامور التي ينظر فيها من القسط أو العظام أو غيرها اشغال الحس لترجع النفس الى عالم الروحانيات لحظة ما فهم من باب الطرق بالحصى والنظر في قلوب الحيوانات والمراد الشفقة كاذكر ناه وان لم يكن كذلك وانما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وانما يقصد بذلك فيهدر من القول والعمل والله يهدي من يشاء والعلامة لهذه الفطرة التي فطر عليها أهل هذا الادراك الغيبي أنهم عند توجههم الى تعرف الكائنات يعتبر بهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالنفاذ والتمسك بمبادئ الغيبة عن الحس ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجودها فيهم فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من ادراك الغيب في شيء وانما هو ساع في تنفيق كذبه

(فصل) ومنهم طوائف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الاول الذي هو من مدارك النفس الروحانية ولا من الحدس المبني على تأثيرات النجوم كزعمه بطليموس ولا من الفطن والتخمين الذي يحاول عليه العرافون وانما هي مغالط يجعلونها كاتصايد لاهل العقول المستضعفة ولست اذكر من ذلك الا ما ذكره المصنفون وولع به الخواص فمن تلك القوانين الحساب الذي يسمونه حساب النجم وهو المذكور في آخر كتاب السياسة المنسوب لارسطو يعرف به الغالب من الغنوب في المتحاربين من الملوك وهو أن تحسب الحروف التي في اسم أحدهما بحساب الجمل المصطلح عليه في حروف أبجد من الواحد الى الألف آحادا وعشرات ومئين وألوف فاذا حسبت الاسم وتحصل للسمعة عدد فاحسب اسم الآخر كذلك ثم اشرح كل واحد منهما تسعة تسعة واحفظ بقية هذا وبقية هذا ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين فان كان العددين مختلفين في الكمية وكانا معاز وجين أو فردين معا فصاحب الأقل منهما هو الغالب وان كان أحدهما زوجا والآخر فردا فصاحب الألف أكثر هو الغالب وان كانا متساويين في الكمية وهما معاز وجين فالمطلوب هو الغالب وان كانا معاز فردين فالطالب هو الغالب ويقال هنالك بيتان في هذا العمل اشتهرا بين الناس وهما

أرى الزوج والافراد يسمو أقلها * وأكثرها عند التخالف غالب

ويقلب المطلوب اذا الزوج يستوى * وعند استواء الفرد يغلب طالب

ثم وضعوا المعرفة ما بقى من الحروف بعد طرحها بقية قانونا معروفا عندهم في طرح تسعة وذلك أنهم جمعوا الحروف الدالة على الواحد في المراتب الأربع وهي الدالة على الواحد وى الدالة على العشرة وهي واحد في مرتبة العشرات وقى الدالة على ثلاثة لانها واحد في مرتبة المئين وش الدالة على الألف لانها واحد في مرتبة الآلاف وليس بعد الألف عدد يدل عليه بالحروف لان الشين هي آخر حروف أبجد ثم رتبوا هذه الأحرف الأربعة على نسق المراتب فكان منها كلمة رباعية وهي ايتش ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على اثنين في المراتب الثلاث وأسقطوا مرتبة الآلاف

وكثير من الخواص يولعون بالعادة الغيب منها بعملها المعروف المغموز فيعرضون بذلك على حل رمزه
وكشف غامضه وصورتها التي يقع العمل عندهم فيها دائرة عظيمة في داخلها دوائر متوازية للأفلاك
والعناصر والكونيات والروحانيات وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم وكل دائرة مقسومة
بأقسام فلسفيا أما البروج وأما العناصر أو غيرها أو خطوط كل قسم مارة إلى المركز ويسمونها الأوتار
وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة فمنها برشوم (١) الزمام التي هي أشكال الأعداد عند أهل
الدواوين والحساب بالغرب لهذا العهد ومنها برشوم الخبار المتعارفة في داخل الزايرة وبين السواثر
أسماء العلوم ومواضع الأركان وعلى ظاهر الدوائر جدول متكرر البيوت والمقاطعة خطولا وعرضا
يشتمل على خمسة وخمسين بيتا في العرض ومائة وأحد وثلاثين في الطول جوانب منه معمورة البيوت
تارة بالعدد وأخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت ولا تعلم نسبة تلك الأعداد في أوضاعها ولا
النسبة التي عينت البيوت العارضة من الخالية وحقا في الزايرة آيات من عروض الطويل على مروي
اللام المنصوبة تتضمن صورة العمل في استخراج المطلوب من تلك الزايرة إلا أنها من قبيل
الانماز في عدم التوضوح والجلال وفي بعض جوانب الزايرة بيت من الشعر منسوب لبعض
أكابر أهل الحدائق بالغرب وهو مالك بن وهيب من علماء أشيلية كان في الدولة التبتونية
ونص البيت

سؤال عظيم الخلق حزت فحسن اذن * غرائب شك ضبطه الجدم مثلا

وهو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في هذه الزايرة وغيرها فإذا
أرادوا استخراج الجواب عما يسئل عنه من المسائل كتبوا ذلك السؤال وقضوه حروفهم أخذوا
الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك ودرجها وعمدوا إلى الزاوية ثم إلى الوتر المكتشف فيها بالبرج
الطالع من أوله مارة إلى المركز ثم إلى محيط الدائرة قبالة الطالع فيأخذون جميع الحروف المكتوبة
عليه من أوله إلى آخره والأعداد المرسومة بينهما ويضعونها حروفها أعقاب الجمل وقد ينقلون آحادها
إلى العشرات وعشراتها إلى المئين وبالعكس فيهما كما يقتضيه قانون العمل عندهم ويضعونها مع حروف
السؤال ويضيفون إلى ذلك جميع ما على الوتر المكتشف بالبرج الثالث من الطالع من الحروف والأعداد
من أوله إلى المركز فقط لا يتجاوزونه إلى المحيط ويضعون بالأعداد ما فعلوه بالأول ويضيفونها إلى
الحروف الأخرى ثم يقطعون حروف البيت الذي هو أصل العمل وقانونه عندهم وهو بيت مالك
ابن وهيب المتقدم ويضعونها ناحية ثم يضربون عدد درج الطالع في أس البرج وأنه عندهم هو بعد
البرج عن آخر المراتب عكس ما عليه الأس عند أهل صناعة الحساب فإنه عندهم البعد عن أول المراتب
ثم يضربونه في عدد آخر يسمى به الأس الأكبر والدور الأصلي ويدخلون بما تجمع لهم من ذلك
في بيوت الجدول على قوانين معروفة وأعمال مذكورة وأدوار معدودة ويستخرجون منها حروفا

(١) قوله برشوم أي موضوعة برشوم بضم الراء جمع برشم بالثين المعجمة اهـ

ويستقنون أخرى ويقابلون بتمامهم في حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون إلى حروف السؤال
ومما مهمهم ينطرحون تلك الحروف بأعداد معلومة يسمونها الأديار ويخرجون في كل دور الحرف
التي ينتهي عنده الدور يعاودون ذلك بعده الأديار المعينة عندهم لذلك فيخرج آخرها حروف
متقطعة وتؤلف على التوالي قصير كلمات منظومة في بيت واحد على وزن البيت الذي يقابل به العمل
ورويوه وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم حسبا نذكر ذلك كله في فصل العلوم عند كيفية العمل
بهذه الزايرة * وقد رأينا كثيرا من الخواص يتهافون على استخراج الغيب منها بتلك
الاعمال ومحسبون أن ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال في توافق الخطاب دليل على مطابقة
الواقع وليس ذلك بصحيح لأنه قد مر لك أن الغيب لا يدرك بأمر صناعي البتة وإنما
المطابقة التي فيها بين الجواب والسؤال من حيث الأفهام والتوافق في الخطاب حتى
يكون الجواب مستقيا أو موافقا للسؤال ووقوع ذلك بهذه الصناعة في تكسير الحروف
المختصة من السؤال والأوتار والدخول في الجدول بالأعداد الملتصقة من ضرب الأعداد المفروضة
واستخراج الحروف من الجدول بذلك وطرح أخرى ومعاودة ذلك في الأديار المعدودة ومتابعة
ذلك كله بحروف البيت على التوالي غير مستنكر وفيوقع الاطلاع من بعض الأذكاء على تناسب بين
هذه الأشياء فيقع له معرفة المجهول فالتناسب بين الأشياء هو سبب الحصول على المجهول من العلوم
الحاصل للنفس وطريق لحصوله سببا من أهل الرياضة فاتها تنميد العقل قوة على الفياس وزيادة في الفكر
وقد مر تعليل ذلك غير مرة ومن أجل هذا المعنى يتسبون هذه الزايرة في الغالب لأهل الرياضة
فهي منسوبة للسبق ولقد وقفت على أخرى منسوبة لسهل بن عبد الله ولعمري إنها من الأعمال الغريبة
والعناية العجيبة والجواب الذي يخرج منها فالسر في خروجه منظوم ما يظهر لي إنما هو المقابلة بحروف
ذلك البيت ولهذا يكون النظم على وزنه ورويه ويدل عليه أننا وجدنا أعمالا أخرى لهم في مثل ذلك
أسقطوا فيها المقابلة بالبيت فلم يخرج الجواب منظوما كما تراه عند الكلام على ذلك في موضعه وكثير من
الناس تطبق مداركهم عن التصديق بهذا العمل ونقوده إلى المطلوب فينكرون صحتها وعيب أنها من
التخيلات والاهتمامات وأن صاحب العمل بها ثبت حروف البيت الذي ينظمه كما يريد بين أثناء حروف
السؤال والأوتار ويفعل تلك الصناعات على غير نسبة ولا قانون ثم يعي بالبيت ويؤمن أن العمل جاء على
طريقة منضبطة وهذا الحسبان توه فاسد حمل عليه القصور عن فهم التناسب بين الموجودات والمعدومات
والتفاوت بين المدارك والعقول وليسكن من شأن كل مدرك انكار ما ليس في طوره ادراكه وكفينا
في رد ذلك مشاهدة العمل بهذه الصناعة والحدس القطعي فاتها جاءت بعمل مطرد وقانون صحيح
لامرته فيه عندهم يباشر ذلك بمن له ذكاء وحدس وإذا كان كثير من المعايير في العدد الذي هو أوضح
الواضحات يعسر على الفهم إدراكه لبعده النسبة فيه وظاهرها فأنك بمثل هذا مع خفاء النسبة فيه وغرابتها
فلندكر مشكلة من المعايير يتضح لك بها شيء مما ذكرنا مثاله لوقيل لك خذ عددا من الأرقام واجعل

بازاء كل درهم ثلاثة من الفلوس ثم اجمع الفلوس التي أخذت واشتر بها طائرا ثم اشتري بالدرهم كلها طيوراً بسعر ذلك الطائر فكم الطيور المشترا بالدرهم فتقوله هي تسعة لأنك تعلم أن فلوس الدرهم أربعة وعشرون وأن الثلاثة ثمنها وأن عدة أثمان الواحد ثمانية فإذا جمعت الثمن من الدرهم إلى الثمن الآخر فكان كل ثمن طائر فهي ثمانية طيور عدة أثمان الواحد وتزيد على الثمانية طائراً آخر وهو المشتري بالفلوس لتأخذوا ولا وعلى سعره اشتريت بالدرهم فتكون تسعة فأنت ترى كيف خرج لك الجواب بغير بسم التناسب الذي بين أعداد المسئلة والوزن ما يليك هذه وأمثلة لها إنما جعله من قبيل الغيب الذي لا يمكن معرفته وظاهر أن التناسب بين الأمور هو الذي يخرج مجبولها من معلومها وهذا إنما هو في الواقع الحاصلة في الوجود أو العلم وأما الكائنات المستقبلية إذا لم تعلم أسباب وقوعها ولا ثبت لها خبر صادق عنها فهو غيب لا يمكن معرفته وإذ تبين لك ذلك فلا تحال الواقعة في الزاوية كلها إنما هي استخراج الجواب من ألفاظ السؤال لأنها كما رأيت استنباط حروف على ترتيب من تلك الحروف يعني على ترتيب آخر وسر ذلك إنما هو من تناسب بينهما يطلع عليه بعض دون بعض فمن عرف ذلك التناسب يسر عليه استخراج ذلك الجواب بذلك القوانين والجواب يدل في مقام آخر من حيث موضوع ألفاظه وتراكيبه على وقوع أحد طرفي السؤال من نفي أو إثبات وليس هذا من المقام الأول بل إنما يرجع لطائفة الكلام للمفاتيح الخارج ولا سبيل إلى معرفة ذلك من هذا الأعمال بل البشر محجوبون عنه وقد استأثر الله بعلومه والله يعلم وأنتم لا تعلمون

﴿ الفصل الثاني ﴾

(في العمران البدوي والائتم الوحدانية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه أصول وعقيدات)

﴿ فصل في أن أجيال البدو والحضر طبيعية ﴾

﴿ اعلم ﴾ أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف محلهم من المعاش فإن اجتماعهم إنما هو لتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وتشييد قبل الحاجة والكمالي فممنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من يتحلل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والماعز والتحلل والبدو لتتاجها واستخراج فضلاتها وهؤلاء القاصون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد إلى البدو لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزراع والقدن والساكن للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هؤلاء بالبدو وأمر ضروري لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعايشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفء إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك ثم إذا انتعت أحوال هؤلاء المتحللين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزاد على الضرورة واستكثروا من الأقوات والملابس

والتأنيق فيها وتوسع البيوت واختطاط المدن والأصهار للتحضر ثم تزيد أحوال الرفقة والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغيا في التأنيق في علاج القوت واستجادة المطامع وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالجة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنجيدها والانتباه في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غاياتها فيتخذون القصور والنازل ويجرون فيها المياه ويعلمون في صرحها ويألفون في تنجيدها ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملابس أو فراش أو آنية أو ما غفول هؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون أهل الأصهار والبدان ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم أسمى وأرفه من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على نسبة وجددم فقد تبين أن أحوال البدو والحضر طبيعية لا بد منهما كما قلناه

٢ فصل في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي

قد قدمنا في الفصل قبله أن أهل البدو هم المتحنون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام وأنهم مفتضرون على الضروري من الأقوات والملابس والسكن وسائر الأحوال والعوائد ومفترضون عما فوق ذلك من حاجي أو كالي يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة إنما هو قصد الاستظلال والسكن لا ما وراءه وقديما وون إلى الغيران والكهوف وأما أقواتهم فيتناولون بها يسيرا بعلاج أو بغير علاج البتة إلا ما مسسته النار فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الظعن وهؤلاء سكان المدائن والقرى والجبال ومعامدة البربر والأعاجم ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ضمن في الأغلب لازدياد المسارح والمياه لحيوانهم فالتقلب في الأرض أصلح بهم ويسمون شايقة ومعناه القائمون على الشاء والبر ولا يعدون في الفقر لفقدان المسارح الطيبة وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركان والصفالبة وأما من كان معاشهم في الأيل فيهم أكثر ظعنوا وبعد في الفقر شيئا لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغنى بها الأيل في قوام حياتها عن مراعى الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فرار من أذى البرد إلى دفء هوائه ومطلب المأوى في التلال إذا ليل أصعب الحيوان فصلا ومخاضا وأحوجها في ذلك إلى الدفاء فاضطروا إلى ابعاد النجعة وربعا ذاتهم الحامية عن التلول أيضا فأوغتوا في القفار نفرة عن المضعة منهم فكانوا لذلك أشد الناس توحشا ويمزجون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المفدور عليه والمفترس من الحيوان العجم وهؤلاء هم العرب وفي معاشهم ظعن البربر وزانة بالغرب والترك كرادو التركان والترك بالشرق إلا أن العرب أبعد نجعة وأشد بدو ولا أنهم غشون بالقيام على الأيل فقط وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشاء والبقر معا فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعي لا بد منه في العمران والله سبحانه وتعالى أعلم

٣ ﴿ فصل في أن البدو أقدم من الحضرة وسابق عليه وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها ﴾

قد ذكرنا أن البدو المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه وأن الحضرة العنتون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه لأن الضروري أصل والكمالي فرع ناشيء عنه فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لأن أول مطالب الإنسان الضروري ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلا غشوة البداوة قبل رقة الحضارة ولهذا نجد التمدن غاية لبدوى يجرى إليها وينتهي إليه إلى مقترحه منها ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده طبع إلى الدعة وأمكن نفسه إلى قياد المدينة وهكذا شأن القبائل النبدية كليم والحضرى لا يتشوف إلى أحوال البادية إلا للضرورة تدعو إليها أول التقصير عن أحوال أهل مدينته ومحايشه هنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه أنا إذا فقتنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصرو في قراء وأتهم أسروا فسكنوا المصرو وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضرة وذلك يدل على أن أحوال الحضرة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها فنفهم ثم أن كل واحد من البدو والحضر متفاوت الأحوال من جنسه فرب حى أعظم من حى و قبيلة أعظم من قبيلة ومصر أوسع من مصر ومدينة أكثر عمرانا من مدينة فقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها بما أن وجود المدن والأمصار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة العاشية والله أعلم

٤ ﴿ فصل في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة ﴾

وسببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متبينة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه وبقدر ما سبق إليها من أحد الخلقين تبعه عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه فصاحب الخير إذا سبق إلى نفسه عوائد الخير وحصلت لها ملكته تبعه عن الشر وصعب عليه طريقه وكذا صاحب الشر إذا سبق إليه أيضا عوائده وأهل الحضرة لكثرة ما يعانون من فتون الملاذ وعوائد الترف والأقبال على الدنيا والمعكوف على شهواتهم منها قد تلونت أنفسهم بكثير من منمومات الخلق والشر وبعدت عنهم طرق الخير ومساكنه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم فتجد الكثير منهم يتقذرون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبارهم وأهل عمارهم لا يصدم عنه وأزع الحشمة لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالقواحش فولا وعملوا وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه في المقدار الضروري لافى الترف

ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها فعوا لندم في معاملاتهم على نسبها وما يحصل
فيهم من مذاهب السوء ومنعومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضر أقل بكثير فيهم أقرب إلى الفطرة
الأولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد الذمومة وقبحها فيسهل علاجهم
عن علاج الحضر وهو ظاهر وقد نوضح فيما بعد أن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد
ونهاية الشر والبعد عن الخير فقد بين أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر والله يحب المتقين
أولا يعترض على ذلك بما ورد في صحيح البخاري من قول الحجاج لعمه بن الأوكوع وقد بلغه أنه
خرج إلى سكنى البادية فقال له ارتدت على عقبيك تعربت فقال لا ولكن رسول الله صلى الله عليه
وسلم أذن لي في البدو فاعلم أن الهجرة افتضت أول الإسلام على أهل مكة ليكونوا مع النبي صلى الله
عليه وسلم حيث حل من مواطن ينصرونه ويظاهرونه على أمره وعرضونه يوم تكون واجبة على
الاعراب أهل البادية لأن أهل مكة منهم من عصية النبي صلى الله عليه وسلم في المظاهرة والحراسة
مالا يمس غيرهم من بادية الأعراب وقد كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب وهو سكنى البادية
حيث لا يحب الهجرة وقال صلى الله عليه وسلم في حديث سعد بن أبي وقاص عند مرضه بمكة أنهم أمضوا
لأهالي هجرتهم ولا تردم على أعقابهم ومعناه أن يوقفهم بالزومة المدينة وعدم التحول عنها فلا يرجعوا
عن هجرتهم التي ابتدأوها وهو من باب الرجوع على العقب في السعي إلى وجه من الوجوه وقيل إن
ذلك كان خاصا بما قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية إلى الهجرة لقلة المسلمين وأما بعد الفتح وحين
كثر المسلمون واعتزوا وتكفل الله لبيته بالعصمة من الناس فإن الهجرة ساقطة حينئذ لقوله صلى
الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وقبل سقط انشاؤها عمن يسلم بعد الفتح وقبل سقط وجوبها عمن
أسلم وهاجر قبل الفتح والكل يجمعون على أنها بعد الوفاة ساقطة لأن الصحابة اقتصروا من يومئذ في
الأفاق وانتشروا ولم يبق الأفضل السكنى بالمدينة وهو هجرة فتقول الحجاج لعمه حين سكن البادية
ارتدت على عقبيك تعربت نعمي عليه في ترك السكنى بالمدينة بالإشارة إلى الدعاء المأثور الذي قدمناه
وهو قوله ولا تردم على أعقابهم وقوله تعربت إشارة إلى أنه صار من الأعراب الذين لا يهاجرون
وأجاب سلمة بانكار ما أئزمه من الأمرين وأن النبي صلى الله عليه وسلم أذن له في البدو ويكون ذلك
خاصا به كشهادة خزيمه وعناق أبي بردة أو يكون الحجاج إنما نعى عليه ترك السكنى بالمدينة فقط لعلمه
بسقوط الهجرة بعد الوفاة وأجاب سلمة بأن اغتنامه لأذن النبي صلى الله عليه وسلم أولى وأفضل مما آثره
به واختصه الأئمة في علمه وفيه وعلى كل تقدير فليس دليلا على مذمة البدو الذي عبر عنه بالتعرب لأن
مشرعية الهجرة إنما كانت كما علمت لمظاهرة النبي صلى الله عليه وسلم وحراسته لا لمذمة البدو فليس
في النعي على ترك هذا الواجب بالتعرب دليل على مذمة التعرب والله سبحانه أعلم وبه التوفيق

○ فصل في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر

والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف

ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم واستنابوا إلى الأسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم فلا تهيجمهم هجمة ولا ينغرهم صيدهم غارون آمنون قد ألقوا السلاح وتوالت على ذلك منهم الأجيال وتزولوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مشوام حتى صار ذلك خلقا بتزل منزلة الطبيعة وأهل البدو لتفردم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وانتبذهم عن الأسوار والأبواب فلم يعمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سوام ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ويتجافون عن المبعوج الأغرار في المجالس وعلى الرجال وفوق الأفتاب ويتوجسون للنبات والحيات ويفردون في القفر والبيداء مدلين بآسهم واثقين بأنفسهم قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم دواع أو استقروا صارخ وأهل الحضرة سها خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يعلكون معهم شيئا من أمر أنفسهم وذلك مشاهد بالبيان حتى في معركة النواحي والجهات وموارد المياه ومشارع السبل وسبب ذلك مباشر حناه وأصله أن الإنسان ابن عوائده ومأثوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فلهذا ألقه في الأحوال حتى صار خلقا وملسكة وعادة تزل منزلة الطبيعة والحيلة واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيرا صحيحا والله يخلق ما يشاء

٦ ﴿ فصل في أن معاناة أهل الحضرة للأحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالتمتع منهم ﴾

وذلك أنه ليس كل أحد مالك أمر نفسه أو الرؤساء والأمراء المالكون لأمر الناس قليل بالنسبة إلى غيرهم فمن الغالب أن يكون الإنسان في ملكة غيره ولا بد فإن كانت الملكة رفيقة وعذلة لا يعانى منها حكم ولا تمتع وحد كان من تحت يدها مدلين بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن واثقين بعدم اتوازع حتى صار لهم الأدلال جبلة لا يعرفون سواها وأما إذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والاختافة فكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب النعة عنهم لا يكون من التكاسل في النفوس المضطربة كانبته وقد نهى عمر سعد رضي الله عنهما عن مثلها لما أخذ زهرة بن حوية سلب الجالنوس وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفا من الذهب وكان اتبع الجالنوس يوم القادسية قتلته وأخذ سلبه فأنزعه منه سعد وقال له هلا انتظرت في اتباعه أدنى وكتب إلى عمر يستأذنه فكتب إليه عمر تعمد إلى مثل زهرة وقد صلى بإصلى به وبقى عليك ما بقي من حربك وتكسر فوقه وتصدق قلبه وأمضى له عمر سلبه وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب فذهبت للبأس بالكلية لأن وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك وأما إذا كانت الأحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا أثرت في ذلك بعض الشيء لم يراه على الخفاة والاشهاد فلا يكون مدلا بآسه ولهذا نجد الشواحيين من العرب أهل البدو أشد بأسا ممن تأخذ الأحكام ونجد أيضا الذين يعاونون الأحكام وملكتهم من لدن مرام في التأديب والتعليم والعلوم والصنائع والديانات ينقص ذلك من بأسهم

كثيراً ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادة بوجه من الوجود وهذا شأن طلبة العلم المتعلمين للفرادة
والأخذ عن المشايخ والأئمة المراسين للتعليم والتأديب في مجالس الوقار والمحبة فيهم هذه الأحوال
وذهابها بالمتعة والبأس ولا تستنكر ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم بأحكام الدين والشرعة ولم
ينقص ذلك من بأسهم بل كانوا أشد الناس بأساً لأن الشارع صلوات الله عليه إنما أخذ المسلمون عنه دينهم
كان وأزعمهم فيه من أنفسهم مماثل على عليهم من الترهيب والترهيب ولم يكن تعليم صناعى ولا تأديب
تعليمى إنما هي أحكام الدين وآداب المتلقاة تعالياً أخذون أنفسهم بما راسخ فيهم من عقائد الأعيان
والتصديق فلم يزل سورة بأسهم مستحكة كما كانت ولم تخدشها أنظار التأديب والحكم قال عمر رضي
الله عنه من لم يؤدبه الشرع لأدبه الله حرص على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه وبقينا بأن الشارع
أعلم بمصالح العباد ومناقص الدين في الناس وأخذوا بالأحكام الوازعة ثم صار الشرع علماً وصناعة
يؤخذ بالتعليم والتأديب ورجع الناس إلى الخسارة وخلق الانقياد إلى الأحكام نصبت بذلك سورة
البأس فيهم فقد تبين أن الأحكام السلطانية والتعليم والآداب ولهذا قال محمد بن أبي زبدي كتابه في أحكام
الشرعية فقير مفسدة لأن الوازع فيها ذاتي ولهذا كانت هذه الأحكام السلطانية والتعليمية مما تؤثر في
أهل الحواضر في ضعف نفوسهم وخضد الشوك منهم بمعاناتهم في وليدهم وكيولهم والبدو بمنزل عن
هذه المنزلة لعدم عن أحكام السلطان والتعليم والآداب ولهذا قال محمد بن أبي زبدي كتابه في أحكام
العلمين والمعلمين أنه لا ينبغي للمؤدب أن يضرب أحد من الصبيان في التعليم فوق ثلاثة أسواط مثله
عن شرح القاضي واحتج له بعضهم بما وقع في حديث بدء الوحي من شأن القطر أنه كان ثلاث مرات وهو
ضعيف ولا يصح شأن القطر أن يكون دليلاً على ذلك لبعده عن التعليم المتعارف والله الحكيم الخبير

٧ ﴿ فصل في أن سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل أهل العصبية ﴾

﴿ اعلم ﴾ أن الله سبحانه ركب في طبائع البشر الخير والشر كما قال تعالى وهديناه السبلين وقال
فألهبها فجورها وتقواها وشر أقرب الخلال إليه إذا أهمل في مرعى عوائده ولم يهتد به الاقتداء
بالدين وعلى ذلك الجمل الفقير إلا من وفقه الله ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على
بعض فمن امتدت عينه إلى منافع أخيه امتدت يده إلى أخذه إلا أن يصده وازع كما قال

والظلم من شيم النفوس فإن تجد * ذا غفلة فلعله لا يظلم

فأما المدن والأقاصر فعدوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة بما قبضوا على أيدي من
تحتهم من الكفاية أن يعتد بعضهم على بعض أو يعدو عليه فهم مكبوحون (١) بحكمة الفهم والسلطان
عن الظلم إلا إذا كان من الحاكم بنفسه وأما العدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه سياج
الأسوار عند الغفلة أو الفرقة ليلاً أو العجز عن المقاومة نهائياً أو يدفعه ذيادة الحامية من أعوان الدولة
عند الاستعداد والمقاومة وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبارهم بما وقر في

(١) قوله بحكمة بفتح الحاء والكاف

نفوس الكافة لهم من الوفاق والتجلة وأما حالهم فأنما يندود عنها من خارج حامية الحى من اتحادهم
وفياهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وذايادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد
لأنهم بذلك تشدد شوكتهم وغشى جانبهم إذ نعمة كل أحد على نفسه وعصبية أم وما جعل الله
في قلوب عباده من الشفقة (١) والنعرة على ذوى أرحامهم وقربائهم موجودة في الطباع البشرية
ومها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رغبة العدو لهم واعتبر ذلك فيما حكاه القرآن عن إخوة
يوسف عليه السلام حين قالوا لا يبه لئن أكله الذئب ونحن عصبية إنا إذا خاسرون والمعنى أنه
لا يتوهم العدو أن على أحدهم وجود العصبية له وأما المنفردون في أنسابهم قتل أن تصيب أحدا منهم
نعرة على صاحبه فإذا أظلم الجو بالشر يوم الحرب تسلك كل واحد منهم بغى النجاة لنفسه خيفة
واستحياسا من التخاذل فلا يقدررون من أجل ذلك على سكنى القعر لما أنهم حيث طعموا لمن يلتمهم
من الأثم سوام وإذا تبين ذلك في السكنى الذى تحتاج للمدافعة والحماية فمثله يتبين لك في كل أمر
يحمل الناس عليه من نبوة وإقامة ملك أو دعوة إذ بلوغ الغرض من ذلك كله إنما يتم بالقتال عليه
فإن طابع البشر من الاستعصاء ولا بد في القتال من العصبية كاذكرناه آنفا فأنه إماما فتدنى به
فما نوره عليك بعد والله الموفق للصواب

٨ ﴿ فصل في أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو مافي معناه ﴾

وذلك أن صلة الرحم طبيعي في البشر إلا في الأقل ومن صلها النعمة على ذوى القربى وأهل
الأرحام أن يتألم ضم أو تضيقهم هلكة فإن التريب بعد في نفسه غشاضة من ظلم قريبه أو العداء
عليه ويودلو يحول بينه وبين ما يناله من المعاطب والمبالك زعة طبيعية في البشر مذ كانوا فإذا كان النسب
التواصل بين المتناصرين قريبا جدا بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت
ذلك بجردها ووضعها وإذا بعد النسب بعض الشيء فرماتنوسى بعضها ويقى منها شهرة فتحمى
على النصر فتدوى نسبة بالأمر المشهور منه فزارأمن الغشاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو متسوب
اليه بوجه ومن هذا الباب الولاء والخلف إذ نعمة كل أحد على أهل ولأئمه وحلفه للألفة التي تلحق
النفس من اعتصام جارها أو قريبتها أو نسبها بوجه من وجوه النسب وذلك لأجل اللصمة الحاصلة من
الولاء مثل لمة النسب أو قريبتها ومن هذا نفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم تعلموا من أنسابكم ما تصلون
به أرحامكم بمعنى أن النسب إنما قائمته هذا الالتحام الذى يوجب صلة الأرحام حتى تقع الناصرة والنعرة
وما فوق ذلك مستغنى عنه إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له ونفعه إنما هو في هذه الوصلة والالتحام فإذا
كان ظاهر أو افتحاح النفس على طبيعتها من النعمة كما قلناه وإذا كان بما يستفاد من الخبر البعيد ضعف
فيه الوم وذهبت قائمته وصار الشغل به بما ناول من أعمان النهو المنهى عنه ومن هذا الاعتبار معنى قولهم
النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر بمعنى أن النسب إذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت

(١) قوله النعمة والنعارة انضم فيهما والمبر الصراخ والصياح في حرب أو شر كما في القاموس

فائدة الوهم فيه عن النفس وانتفت النعمة التي تحمل عليها العصبية فلا منفعة فيه حينئذ والله سبحانه وتعالى أعلم

٩ ﴿ فصل في أن الصريح من النسب إنما يوجد لتو حشين في القصر من العرب ومن في معانهم ﴾

وذلك لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة وهي لما كان معاشهم من القيام على الأبل وتاجها ورعايتها والأبل تدعوهم إلى التوحش في القفر لرعيها من شجره وتاجها في رماله كما تقدم والقفر مكان الشظف والنسب فصار لهم الفاقة وعادة ورية فيه أجبالهم حتى تمكنت خلفا وجيلة فلا يزرع اليهم أحد من الأمم أن يساعدهم في حلقهم ولا يأنس بهم أحد من الأجيال بل لو وجد واحد منهم السبيل إلى الفرار من حاله وأمكنه ذلك لما تركه فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفسادها ولا تزال بينهم عقوطة صريعة واعتبر ذلك في مضر من فريش وكنانة وتقيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع وبعدوا من أرياف الشام والعراق ومعادن الأدم والحبوب كيف كانت أنسابهم صريعة محفوفة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيهم شوب * وأما العرب الذين كانوا بالثلول وفي معادن الحصب المراعي والعيش من حمير وكهالان مثل لحم وجذام وغسان وطية وقضاعة وأباد فاختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم في كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما تعرف وإنما جاء ذلك من قبل العجم وغالطتهم وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم وإنما هذا للعرب فقط * قال عمر رضي الله تعالى عنه تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا هذا إلى ما لحق هؤلاء العرب أهل الأرياف من الأزد حكام مع الناس على البلد الطيب والمراعي الحصبية فكثرت الاختلاط وتداخلت الأنساب وقد كان وقع في صدر الإسلام الانتهاء إلى المواطن فيقال جند قنسر بن جند دمشق جند العواصم وانتقل ذلك إلى الأندلس ولم يكن لأطراح العرب أمر النسب وإنما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة مزائدة على النسب يتميزون بها عند أمرائهم ثم وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم وغيرهم وقدت الأنساب بالجملة وقدت فمرتها من العصبية فاطرحت ثم تلاشت القبائل ودفنت فدفنت العصبية بدورها وبقي ذلك في البدو كما كان والله وارث الأرض ومن عليها

﴿ فصل في اختلاط الأنساب كيف يقع ﴾

١٠

﴿ اعلم ﴾ أنهم من البين أن بعضا من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر بقرابة اليهم أو حلف أو لواء أو لفرار من قومه بجنابة أصابها فيدعى بنسب هؤلاء ويعدهم في ثمرائه من النعمة والتقود وحمل الديات وسائر الأحوال وإذا وجد ثمرات النسب فكانه وجدلانه لا معنى لكونه من هؤلاء ومن هؤلاء الأجراء أن أحكامهم وأحوالهم عليه وكأنه التحم بهم ثم انه قد يتناسى النسب الأول بطول الزمان ويذهب أهل العزبه فيخفى على الأكثر وما زالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب ويطعن

قوم بآخري في الجاهلية والاسلام والعرب والعجم * وانظر خلاف الناس في نسب آل المنذر وغيرهم
يتبين لك شيء من ذلك ومنه شأن بحيلة في عرجة بن هرثمة لما ولده عمر عليهم فسأوه الاغفاء منه وقتلوا
هو فينا لزيق أي دخيل ولصيق وطلبوا أن يولي عليهم جريرا فسأله عمر عن ذلك فقال عرجة صدقوا
بأمر المؤمنين أنا رجل من الأزد أصبت دما في قومي ولحققت بهم وانظر منه كيف اختلط عرجة بحيلة
ولبس جلدهم ودعى بنسبهم حتى ترشح للرياسة عليهم ولا علم بعضهم بوشاحه ولو غفلوا عن ذلك وامتد
الزمن لتوسى بالجملة وعدمهم بكل وجه ومذهب فافهم واعتبر سر الله في خليقته ومثل هذا كثير
لهذا العهد ولما قبله من العبود والله الموفق للصواب بتنه ونضله وكرمه

(١١) فصل في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية

﴿ اعلم ﴾ أن كل حي أو بعض من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففهم أيضا عصبية
أخرى لا نساب خاصة هي أشد التحاماً من النسب العام لهم مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو أخوة بني
أب واحد لا مثل بني العم الأقربين أو الأبعدين فهو لاء أقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم من
العصائب في النسب العام والنعرة تنفع من أهل المخصوص ومن أهل النسب العام لأنها في النسب الخاص
أشد لقرب اللحمة والرياسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل ولما كانت الرياسة
إنما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب بها ويتم
الرياسة لأهلها فإذا وجب ذلك تعين أن الرياسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص أهل الغلب
عليهم إذ لو خرجت عنهم وصارت في العصائب الأخرى انما لزم عن عصبيتهم في الغلب لما تمت لهم الرياسة
فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم إلى فرع ولا تنتقل إلا إلى الأقوي من فروعهم فلا بد من
سر الغلب لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج المتكون والمزاج في المتكون لا يصلح إذا تكافأت
العناصر فلا بد من غلبة أحدها والأخرى المتكون في هذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية ومنه تعين
استمرار الرياسة في النصاب المخصوص بها كما قررناه

١٢ فصل في أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم

وذلك أن الرياسة لا تكون إلا بالغلب والغلب إنما يكون بالعصبية كما قدمناه فلا بد في
الرياسة على القوم أن تكون من عصبية غالبية لعصبيتهم واحدة واحدة لأن كل عصبية
منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لم أفروا بالأذغان والأنايع والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون
له عصبية فيهم بالنسب إنما هو ملصق لزيق وغاية التعصب له بالولاء والحلف وذلك لا يوجب له غلباً
عليهم البتة وإذا فرضنا أنه قد التحم بهم واختلط وتوسى عبده الأول من الالتصاق ولبس جلدهم
ودعى بنفسهم فكيف له الرياسة قبل هذا الالتحام أولاً أحد من سلفه والرياسة على القوم إنما تكون

(١١) هذا الفصل ساقط من النسخ القياسية وموجود في النسخة التونسية وإتيانه أولى ليطابق كلامه أول

متناقلة في منبت واحد تعين له الغلب بالعصبية فلا أولية التي كانت لهذا المتصق قد عرف فيها التناقل من غير شك ومنه ذلك الاتصاق من الرياسة حيث لا فكيف تنوقلت عنه وهو على حال الاتصاق والرياسة لا بد وأن تكون موروثية عن مستحقها لما قلناه من الغلب بالعصبية وقد يتشوف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب أنى أنساب يلجئون بها لأشخاص فضيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم أو ذكر كيف اتفق فيتعنون إلى ذلك النسب ويتورطون بالدعوى في شعوبه ولا يعلمون ما يوقعون فيه أنفسهم من التدح في رياستهم والطمع في شرفهم وهذا كثير في الناس لهذا العهد فمن ذلك ما يدعيه زائدة جملة أنهم من العرب ومنه ادعاء أولاد رباب المعروفين بالحجازيين من بني عامر أحد شعوب زغبة أنهم من بني سليم ثم من الشريد منهم حتى جدم بني عامر نجاراً يصنع الخرجان (١) واختلط بهم والتحم بنسبهم حتى رأس عليهم ويسمونه الحجازي * ومن ذلك ادعاء بني عبد القوي ابن العباس بن توحين أنهم من ولد العباس بن عبد المطلب زغبة في هذا النسب الشريف وغلط باسم العباس بن عطية أنى عبد القوي ولم يعلم دخول أحد من العباسيين إلى المغرب لأنه كان منذ أول دولتهم على دعوة العلويين أعدائهم من الأدارسة والعبيديين فكيف يسقط العباس إلى أحد من شيعة العلويين وكذلك ما يدعيه أبناء زيان ملوك تلمسان من بني عبد الواحد أنهم من ولد القاسم بن إدريس ذهباً إلى ما شتهر في نسبهم أنهم من ولد القاسم فيقولون بلسانهم الزناني أنت القاسم أي بنو القاسم ثم يدعون أن القاسم هذا هو القاسم ابن إدريس أو القاسم بن محمد بن إدريس ولو كان ذلك صحيحاً فغاية القاسم هذا أنه فر من مكان سلطانه مستجيراً بهم فكيف تنمله الرياسة عليهم في باديتهم وإنما هو غلط من قبل اسم القاسم فإنه كثير الوجود في الأدارسة فتوجهوا أن قاسمهم من ذلك النسب وغير محتاجين لذلك فإن منالهم للملك والعزة إنما كان بعصبيتهم ولم يكن بادعاء علوية ولا عباسية ولا شيء من الأنساب وإنما يحمل على هذا المذهبون إلى الملوك بخلافهم ومذاهبهم ويشتهر حتى يبعد عن الرد * ولقد بلغني عن يعمر أسن بن زيان مؤيد سلطانه أنه لما قيل له ذلك أنكره وقال بلغته الزنانية ما معناه أما الدنيا والملك فللناه بسيرة فتألهذا النسب وأما نفعه في الآخرة فمردود إلى الله وأعرض عن التقرب إليه بذلك * ومن هذا الباب ما يدعيه بنو سعد شيوخ بني يزيد من زغبة أنهم من ولد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبنو سلامة شيوخ بني بدلتن من توحين أنهم من سليم وبنو واودة شيوخ رياح أنهم من أعقاب البراءة وكذا بنو ميني أمراء طي بالشرق يدعون فيها بلغنا أنهم من أعقابهم وأمثال ذلك كثير ورياستهم في قومهم مانعة من ادعاء هذه الأنساب كما ذكرناه بل تعين أن يكونوا من صريح ذلك النسب وأقوى عصباته فاعتبره واجتنب المغالطية ولا تجعل من هذا الباب الحلق مهدى الموحدين بنسب العلوية فإن المهدي لم يكن من منبت الرياسة في هرمة قومه وإنما أس عليهم بعد اشتباهه بالعلم والدين ودخول قبائل الصامدة في دعوته وكان مع ذلك من أهل المنابت المتوسطة قههم والله غام الغيب والشهادة

(١) قوله الخرجان بكسر الخاء جمع خرج يفتحين تنش الموقى اهـ

١٣٣ فصل في أن الشرف والتشريف بالأصالة والحقيقة لأهل العصبية ويكون الغيرة بها مجازاً والشبه

وذلك أن الشرف والحسب أعلاه بالحلال ومعنى البيت أن يعد الرجل في آباءه أشرفاً من كونه يكون له بولانهم إياه والانتساب إليهم بحقيقة أهل جدهم ما وقر في نفوسهم من نخلة سلفه وشر فيه بخلافهم والناس في شأنهم وتناسلهم معادن قدر على الله عليه وسلم أناس معادن خيار في الجاهلية خيار في الإسلام إذا فقهوا معنى الحسب يرجع إلى الانتساب وقد بينا أن ثمره الانتساب وفائدتها أعلاه العصبية للنعرة والتناصر حيث تكون العصبية مهوية وغشبية والموت فيها زكي محمى تكون فائدة النسب أوضح وثمرتها أقوى وتعديد الأشراف من الآباء في فائدتها فيكون الحسب والشرف أصيلاً في أهل العصبية لوجود ثمره النسب ونشأته البيوت في هذا الشرف يتفاوت العصبية لا تسرها ولا يكون للنفرد من أهل الأوصاف بيت الأباخجاز وإن توهموه فخره من الدعاوي وإذا اعتبرت الحسب في أهل الأوصاف وجدت معناه أن الرجل منهم يعد سلفاً في حلال الخير وغالباً أهله مع الزكون إلى العافية ما استطاع وهذا مغاير لسر العصبية التي هي ثمره النسب وتعديد الآباء لكنه يطلق عليه حسب وبيت بأخبار لملاقة ما فيه من تعديد الآباء المتعاقبين على طريقة واحدة من الخير ومساكنه وليس حسبا بالحقيقة وعلى الإطلاق وإن ثبت أنه حقيقة فيها بالوضع الغوى فيكون من المشكك الذي هو في بعض مواضعه أولى وقد يكون لذيت شرف أولى بالعصبية والحلال ثم يدخلون منه لذهابها بالحضارة كما تقدم ويختلفون بالآثار ويبقى في نفوسهم وسواس ذلك الحسب يعدون به أنفسهم من أشراف البيوت أهل العصاب وليسوا منها في شيء لذهاب العصبية جملة وكثير من أهل الأوصاف الناشئين في بيوت العرب أو العجم لأول عهدهم موسوسون بذلك وأكثر ما رشح الوسواس في ذلك لبني إسرائيل فإنه كان لهم بيت من أعظم بيوت العالم بالثبوت أولاً لما تعدد في سلفهم من الأنبياء والرسل من آدم إبراهيم عليه السلام إلى موسى صاحب ملتهم وشريعهم ثم بالعصبية ثانياً وما آتاه الله بها من الملك الذي وعدم به ثم انسلخوا من ذلك أجمع وضربت عليهم الذلة والمسكنة وكتب عليهم الجلاء في الأرض وانفردوا بالاستعباد للكفر آلا فمن السنين وما زال هذا الوسواس مصاحباً لهم فتجدد يقولون هذا هارونى هذا من نسل يوشع هذا من عقب كaleb هذا من سبط يهوذا مع ذهاب العصبية ورسوخ النسل فيهم منذ أحقاب متطاولة وكثير من أهل الأوصاف وغيرهم المنقطعين في أنسابهم عن العصبية يذهب إلى هذا الهذيان وقد غلط أبو الوليد بن رشد في هذا لما ذكر الحسب في كتاب الخطابة من تلخيص كتاب العلم الأول والحسب هو أن يكون من قوم قدم نزلهم بالمدينة ولم تعرض لما ذكرناه وليت شعري ما الذي ينفعه قدم نزلهم بالمدينة إن لم تكن له عصابة يرهب بها جانبه وتعمل غيرهم على القبول منه فكانه أطلق الحسب على تعديد الآباء فقط مع أن الخطابة أعلاه استمالتهن تؤثر استالتهن وأهل الحل والعقد وأما من لا قدرة له البتة فلا يلتفت إليه ولا يقدر على استمالته أحد ولا يستمال هو وأهل الأوصاف من الحضرة بهذه المثابة إلا أن ابن رشد ربي في جيل وبلد لم تارسوا العصبية

ولاً آتسوا أحوالها فبقى في أمر البيت والحسب على الأمر المشهور من تعديد الآباء على الإطلاق ولم
يراجع فيه حقيقة العصبية وسرها في الخليقة والله بكل شيء عليم اهـ

١٤ ﴿ فصل في أن البيت والشرف للموالى وأهل الاصطناع إنما هو

بمواليتهم بأنسابهم ﴾

وذلك أنا قدمنا أن الشرف بالاصالة والحقيقة إنما هو لأهل العصبية فإذا اصطنع أهل العصبية
قوماً من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالى والتحموا به كما قلناه ضرب معهم أولئك الموالى
والمصطنعون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جللتها كأنها عصبيتهم وحصل لهم من الانتظام في العصبية
مساخمة في نسبها كما قل صلى الله تعالى عليه وسلم مولى القوم منهم وسواء كان مولى رقيق أو مولى اصطناع
وخلف وليس نسب ولادته بنافع له في تلك العصبية إذ هي مباينة لتلك النسب وعصبية ذلك النسب
مفقودة قد هاب سرها عند التحامه بهذا النسب الآخر وقد دانه أهل عصبيتها فصير من هؤلاء ويندرج
فيهم فإذا تعددت له الآباء في هذه العصبية كان له بينهم شرف وبيت على نسبه في ولايتهم واصطناعهم
لا يتجاوز إلى شرفهم بل يكون أدون منهم على كل حال وهذا شأن الموالى في القول والخدمة كلهم
فإنها إنما يشرفون بالرسوخ في ولاء الدولة وخدمتها وتعدد الآباء في ولايتها ألا ترى إلى موالى
الأتراك في دولة بني العباس وإلى بني برمك من قبلهم وبني نوبخت كيف أذكروا البيت والشرف
وبنوا الخلد والاصالة بالرسوخ في ولاء الدولة فكان جعفر بن يحيى بن خالد من أعظم الناس بيتاً
وشرفاً بالانساب إلى ولاء الرشيد وقومه لا بالانساب في الفرس وكذا موالى كل دولة وحاشا أنما
يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ في ولايتها والاصالة في اصطناعها ويضمحل نسبه إلا أقدم من
غير نسبها ويبقى ملغى لا عبرة به في أماله ومجده وإنما المعتبر نسبة ولادته واصطناعه إذ فيه سر العصبية
التي بها البيت والشرف فكان شرفه مشتقاً من شرف مواليه وبنائه من بنائهم فلم ينفعه نسب ولادته
وإنما بقي مجده نسب الولاء في الدولة ولحمة الاصطناع فيها والترية وقد يكون نسب الأول في حجة عصبية
ودولته فإذا ذهبت وصار ولاؤه واصطناعه في أخرى لم تنفعه الأولى لذهاب عصبيتها وانقطع بالثانية
توجدوها وهذا حال بني برمك إذ المتقول أنهم كانوا أهل بيت في الفرس من سدة بيوت النار عند دم
ولما صاروا إلى ولاء بني العباس لم يكن بالأول اعتبار وإنما كان شرفهم من حيث ولايتهم في الدولة
واصطناعهم وما سوى هذا قوم توسوس به النفوس الجائعة والاختيعة لهو الوجود شاهد بما قلناه وإن
أكرمكم عند الله أتقاكم والله ورسوله أعلم

١٥ ﴿ فصل في أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء ﴾

﴿ اعلم ﴾ أن العلم العنصري بما فيه كائن فاسد لا من ذواته ولا من أحواله فللكونات من المعدن
والنبات وجميع الحيوانات الإنسان وغيره كائنة فاسدة بالمعانة وكذلك ما يعرض لها من الأحوال
وخصوصاً الإنسانية فالعلوم تنشأ ثم تدرس وكذا الصنائع وأمثالها والحسب من الموارض التي

تعرض لآدميين فهو كائن فاسد لا محالة وليس يوجد لاحد من أهل الخليفة شرف متصل في آباءه من
لادن آدم اليه إلا ما كان من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم كرامة بهو حياطة على السرفيه وأول كل شرف
خارجية (١) كاقيل وهي الخروج إلى الرياسة والشرف عن القصة والابتذال وعدم الحسب ومعناه أن
كل شرف وحسب قدمه سابق عليه شأن كل محدث ثم أن نهايته في أربعة آباء وذلك أن بائي المجد عالم
بمعاناه في بنائه وعافى على الخلال التي هي أسباب كونه وبقائه وابنه من بعده مباشرة لا يه قد سمع منه ذلك
وأخذه عنه إلا أنه مقصر في ذلك تفصيل السامع بالشيء عن المعين له ثم إذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء
والقليد خاصة فقصر عن الثاني تفصيل المقلد عن المجتهد ثم إذا جاء الرابع قصر عن طريقهم جملة وأضاع
الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها وتوهم أن ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف وإنما هو أمر وجب
لهم منذ أول النشأة بمجرد انتسابهم وليس بعصاة ولا بخلال ما يرى من التجلة بين الناس ولا يعلم كيف كان
حدوثها ولا سببها ويتوهم أنه النسب فقط فربما ينقصه عن أهل عصبته ويرى الفضل له عليهم وتوقفا
رئي فيه من استتباعهم وجهلا بما أوجب ذلك الاستتباع من الخلال التي منها التواضع لهم والاختصاص
قلوبهم فيحترق بذلك فينغصون عليه ويحذرونه ويديلون منه سواء من أهل ذلك البيت ومن
فروعه في غير ذلك العقب للاذعان لعصبيتهم كما قلناه بعد التوق بما رضونه من خلاله فتتم فروع
هذا وتذوي فروع الأول وينهدم بناء بيته هذا في الملوك وهكذا في بيوت القبائل والأمراء وأهل
العصبة أجمع ثم في بيوت أهل الأمصار إذا انحطت بيوت نشأت بيوت أخرى من ذلك النسب إن
يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز واشترائط الأربعة في الأحساب إنما هو في
الغالب والأقل يدثر البيت من دون الأربعة ويتلشى وينهدم وقد يتصل أمرها إلى الخامس
والسادس إلا أنه في انحطاط وذهاب واعتبار الأربعة من قبل الأجيال الأربعة بأن ومباشرة ومقلد
وعادم وهو أقل ما يمكن وقد اعتبرت الأربعة في نهاية الحسب في باب المدح والثناء قال صلى الله
عليه وسلم إنما الكرم بن الكرم بن الكرم بن يوسف بن يعقوب بن اسحق بن
ابراهيم إشارة إلى أنه بلغ الغاية من المجد وفي التوراة ما معناه أنا الله ربك طائق غيور مطالب
بذنوب الآباء للبنيين على التوالف وعلى الروايع وهذا يدل على أن الأربعة الأعقاب غاية في الأنساب
والحسب ومن كتاب الأغاني في أخبار عزيز الغواني أن كسرى قال للتميم هل في العرب قبيلة
تشرف على قبيلة قال نعم قال بأي شيء قال من كان له ثلاثة آباء متواليه رؤساء ثم اتصل ذلك بكمال
الرابع فالبيت من قبيلته وطلب ذلك فلم يجده إلا في آل حذيفة بن بدر الفزاري وميمت قيس وآل
ذي الجدين بيت شيبان وآل الأشعث بن قيس من كندة وآل حاجب بن زرارة وآل قيس بن
عاصم المشرقي من بني تميم فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائهم وأصلهم الحكام والعدول فقام

(١) قوله خارجية أي حالة خارجية كذا بهامش له

حذيفة بن بدر ثم الأشعث بن قيس لقراثة من النعمان ثم بسطام بن قيس بن شيبان ثم حاجب بن زرارة ثم قيس بن عاصم وخطبوا وتروا فقال كسرى كلهم سيد يصلح لموضعهم وكانت هذه البيوت هي المذكورة في العرب بعد بني هاشم ومعهم بيت بني الدبيان من بني الحوث بن كعب بيت اليماني وهذا كله يدل على أن الأربعة الآباء نهاية في الحسب والله أعلم

١٦ فصل في أن الأئمة الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها

اعلم أنه لما كانت البداوة سببا في الشجاعة كما قلناه في المقدمة الثالثة لأجرام كان هذا الجيل الوحشي أشد شجاعة من الجيل الآخر فهم أقدر على التغلب والشراع مافي أيدي سواهم من الأئمة بل الجيل الواحد يختلف أحواله في ذلك باختلاف الأعصار فكلمنا زوا الأرباب ونشكوا النعم والفواغوا ثم الحصب في المعاش والنعم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من قوتهم وبدوتهم واعتبر ذلك في الحيوانات العجم بدواجن الطيأ والبقر الوحشية والحمر إذا زال نوحشها بمخالطة آدميين وأحصب عيشها كيف يختلف حلقا في الانتباه والشدّة حتى في مشيتها وحسن أدبها وكذلك آدمي المتوحش إذا أنسى وألف وسببه أن تكون السجاي والطباع إنما هو عن التأولات والعوائد وإذا كان الغلب للأئمة إنما يكون بالاقدام والبسالة فمن كان من هذه الأحياء أترقى في البداوة وأكثر قوحشا كان أقرب إلى التغلب على سواه إذا تقاربا في العدد وتكافأ في القوة والعصية وانظر في ذلك شأن مضر مع من قبلهم من حمير وكيهان السابقين إلى تلك النعم ومع ربيعة المتوطينين أرباب العراق ونعمه مابق مضر في بدوتهم ونعمهم الآخرون إلى حصب العيش وغضارة النعم كيف أرهقت البداوة حدم في التغلب فقلبوه على مافي أيديهم وانزعوه منهم وهذا حال بني علي وبني عامر ابن صعصعة وبني سليم بن منصور من بعدهم لما تأخروا في باديتهم عن سائر قبائل مضر واليمن ولم يلتصقوا بشي من دنياهم كيف أمسكت حال البداوة عليهم قوة عصبيتهم ولم تخلفها مذهب الترف حتى صاروا أغلب على الأمر منهم وكذا كل حي من العرب بل نعيم وعيشا خصبا دون الحي الآخر فإن الحي المتبدى يكون أغلب له وأقدر عليه إذا تكافأ في القوة والعدد سنة الله في خلقه

١٧ فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك

وذلك لأننا قد علمنا أن العصبية بها تكون الحماية والدافعة والمطالبة وكل أمر يجمع عليه وقد علمنا أن آدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض فلا بد أن يكون مغلبا عليهم بتلك العصبية والا لم تتم قدرته على ذلك وهذا التغلب هو الملك وهو أمر زائد على الرياسة لأن الرياسة إنما هي سودد وصاحبها مشبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها فإذا بلغ رتبة السودة والاتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي

يكون بها متبوعا بالغلب الملكي غاية العصبية كما رأيت ثم إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها أغلبها واستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها وتصبح كأنها عصبية واحدة كبرى والأوقع الافتراق المفضي إلى الاختلاف والتنازع ولو لا دفع الله الناس بعضهم بعضا لفسدت الأرض ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قوميا طلبت بطبيعتها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها فإن كافتها أو ماتها كانوا أقنالا وأنظارا لكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها شأن القبائل والأمم المتفرقة في العالم وإن غلبتها واستتبعها التحصنت بها أيضا وزادت قوتها في التغلب إلى قوتها وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد وهكذا دائما حتى تكفي بقوتها قوة الدولة فإن أدركت الدولة في هربها أو يمكن لها مانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها وصار الملك أجمع لها وإن انتهت إلى قوتها ولم يبق ذلك هرم الدولة وإنما قد رن حاجتها إلى الاستظهار بأهل العصبيات انتظمها الدولة في أوليائها فتظهرها على ما يعين من مقاصدها وذلك مملكت آخر دون الملك المستبد وهو كواقع للترك في دولة بني العباس ولصنهاجة وزنا ثم مع كرامه ولبنى حمدان مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية فقد ظهر أن الملك شو غاية العصبية وأنها إذا بلغت إلى غايتها حصل لقبيلة الملك أمابا الاستبداد أو المظاهرة على حسب ما دسه الوقت للمقارن لذلك وإنه قبا من بنوع الغاية عوائق كائنه وقفت في مقابلها إلى أن يقضي الله بأمره

١٨ فصل في أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في التعميم

وسبب ذلك أن القبيل إذا غلبت بعصبيتها بعض التغلب استولت على النعمة بمقدار مشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم وضربت معهم في ذلك بسهم وحصة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها فإن كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القبيل لولايتها والتفوع بما يسوغون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها ولم تقسم آملهم إلى شيء من منازع الملك ولا أسبابه إنعامهم النعم والكسب وخصب العيش والسكون في ظل الدولة إلى البعة والراحة والأخذ بذهاب الملك في الباني والملابس والاستسكان من ذلك والتأنيق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعوا له من توابيع ذلك فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة وينعمون فيما آتاهم الله من البسطة وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترف عن خدمة أنفسهم وولاية حاجتهم ويتكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية حتى يصير ذلك خلفا لهم وسجية فتتقص عصبيتهم وبسالتهم في الأجيال بعدم تعاقبها إلى أن تنقرض العصبية قباذون بالافراض وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون اشراقهم على الفناء فضا عن الملك فإن عوارض الترف والفرق في التعميم كاسر من سورة العصبية التي بها التغلب وإذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية

فضلا عن المطالبة والتهمتهم إلا أنهم سواهم فقد تبين أن الترف من عوائق الملك والله يؤتي ملكه من يشاء

١٩ فصل في أن من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والالتقياد إلى سواهم

وسبب ذلك أن المذلة والالتقياد كاسران لسورة العصية وشذنها فإن انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فأرغموا للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة ومن عجز عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة واعتبر ذلك في بني إسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام إلى ملك الشام وأخبرهم بأن الله قد كتب لهم ملكها كيف عجزوا عن ذلك وقالوا إن فيها قوما جبارين وأنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها أي يخرجهم الله تعالى منها بضرب من قدرته غير عصيبتنا وتكون من معجزاتك يا موسى ولما عزم عليهم لجؤا وأر تكبوا العصيان وقولوا له اذهب أنت وربك فقاتلا وما ذلك إلّا لما آتسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الآية وما يؤثر في تفسيرها وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد وما رجموا من المذلة لقطع أحقادها حتى ذهب العصية منهم جملة مع أنهم لم يؤمنوا حق الإيعان بما أخبرهم به موسى من أن الشام لهم وأن العاقبة الذين كانوا بارغاء فريستهم يحكم من الله قدره لهم فأقصر واعين ذلك وعجزوا وتعولوا على ما علموا من أنفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خلق المذلة وطعنوا فيها أخبرهم به نبيهم من ذلك وما أمرهم به فعاقبهم الله بالنبيه وهو أنهم تاهوا في قمر من الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنة لم يأتوا فيها العمران ولا زلوا مصرا ولا خالطوا بشرا كما قصه القرآن لغلظة العاقبة بالشام والقيط بمصر عليهم لعجزهم عن مقاومتهم كازعموه ويظهر من مساق الآية ومفهومها أن حكمة ذلك النية مفسودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الدل والقهر والقوة وتخلقوا به وأفسدوا من عصيتهم حتى نشأ في ذلك النية جيل آخر عن ولا يعرف الأحكام والقهر ولا يسأم بالمذلة فتشأت لهم بذلك عصية أخرى افتدروا بها على المطالبة والتغلب ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما يأتى فيها فناء جيل ونشأ جيل آخر سبحانه الحكيم العليم وفي هذا أوضح دليل على شأن العصية وأنها هي التي تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة وأن من قد عجز عن جميع ذلك كله ويلحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيل شأن الغارم والضرائب فإن القبيل الغارمين ما أعطوا البدين ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه لأن في الغارم والضرائب ضحا ومذلة لا تحتملها النفوس إلا إذا استهوتته عن القتل والتلف وأن عصيتهم حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية ومن كانت عصيته لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة والمطالبة وقد حصل له الاتقياد لذلك والمذلة عاقبة كما قدمنا ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في شأن الحرة تمار أي سكة الحرات في بعض دور الأنصار ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الدل فهو دليل صريح على أن الغرم موجب للمذلة وهذا إلى ما يصحب ذل الغارم من خلق السكر والحديعة بسبب سكة التمر فإذا رأيت القبيل بالمغارم في ربة من الدل فلا تطمعن لها بل لك آخر الدهر ومن هنا ينبغي لك غلط من زعم أن نزاة بالغرب كانوا شايوة يؤدون المغارم لمن كان على

عهد من الملوك وهو غلط فاحش كذا أيت إذ لو وقع ذلك لنا استتب لهم ملك ولاعتهم دولة والنظر فيما قاله شهر براز ملك الباب لعبد الرحمن بن ربيعة لما أظن عليه وسأل شهر براز أمانه على أن يكون له قتال أنا اليوم منكم يدي في أيديكم وصعري معكم فرحبا بكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم النصر لكم والقيام بآجوبون ولا تذلونا بالجزية فتوهوننا لعدوكم فاعتبر هذا فيما قلناه فإنه كاف

٣٠ فصل في أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس

لما كان الملك طبيعيا للانسان ثافيه من طبيعة الاجتماع كاقلامه وكان الانسان أقرب الى الخلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة لأن الشرائع اجلاء من قبل القوى الحيوانية التي فيه وأمان حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله أقرب والملك والسياسة إنما كان له من حيث هو انسان لأنما خاصة للانسان لا للحيوان فاذن خلال الخير فيه هي التي تناسب السياسة وذلك اذا الخير هو المناسب للسياسة وقد ذكرنا أن المجد له أصل ينشئ عليه ويتحقق به حقيقة وهو العصية والعشير وفرع يتم وجوده ويكمله وهو الخلال واذا كان الملك غاية للعصية فهو غاية للشر وعبا ومتممها وهي الخلال لأن وجوده دون متمماته كوجود شخص مقطوع الاعضاء أو ظهور عريانا بين الناس واذا كان وجود العصية فقط من غير اتصال الخلال الحميدة تنضافي أهل البيوت والأحساب فما ظنك بأهل الملك الذي هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب وأيضا فالسياسة والملك هي كفالة المخلوق وخلافته في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم وأحكام الله في خلقه وعبادته إنما هي بالخير ومرعاة المصالح كما تشهده الشرائع وأحكام البشر انما هي من الجهل والشیطان بخلاف قدرة الله سبحانه وقدره فانه فاعل للخير والشر معا ومقدرهما اذا فاعل سواه فمن حصلت له العصية الكفيلة بالقدرة وأونستمته خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله في خلقه فقد تهيأ للخلافة في العباد وكفالة المخلوق ووجدت فيه الصلاحية لذلك وهذا البرهان أو ثبوت من الأول وأصح مبنى فقد تبين أن خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصية فاذا نظرنا في أهل العصية ومن حصل لهم القلب على كثير من النواحي والامم فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلات والاحتمال من غير القادر والقرى للضيوف وحمى الكل وكسب المعدم والصبر على المكروه والوفاء بالعهد وبذل الأموال في صون الاعراض وتعظيم الشريعة واجلال العلماء الخاملين لها والوقوف عند ما يحدونه لهم من فعل أو ترك وحسن الظن بهم واعتقاد أهل الدين والتبرك بهم ورغبة الدعاء منهم والحياء من الأكابر والشايخ وتوقيرهم واجلالهم والانقياد الى الحق مع الداعي اليه وانصاف الضعفين من أنفسهم والتبذل في أحوالهم والانقياد للحق والتواضع للمسكين واستماع شكوى المستغيثين والتدين بالشرائع والعبادات والقيام عليها وعلى أسبابها والتجافي عن الغدر والكر والحديعة ونقض العهد وأمثال ذلك علمنا أن هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها أن يكونوا ساسة لمن نحت أيديهم أو على العموم وأنه خير ساق الله تعالى

اليهم مناسب لعصبيتهم وغلبهم وليس ذلك سدى فيهم ولا وجدعتا منهم والملك أنسب المراتب والخيرات
لعصبيتهم فعلمنا بذلك أن الله تأذن لهم بالملك وساقه اليهم وبالعكس من ذلك إذا تأذن الله بأقرض
الملك من أمة حملهم على ارتكاب اللذومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية
منهم جملة ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل بسواهم ليكون نعياع عليهم في
سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك وجعل في أيديهم من الخير وإذا أردنا أن نملك قرية أمرنا متر فيها
ففسقوا فيها خلق عليها القول فدمرناها تدميرا واستقر ذلك وتبعه في الأمم السابقة تجد كثيرا ما قلناه
ورحمناه والله خلق ما يشاء ويختار (واعلم) أن من خلال الكمال التي يتنافس فيها القبائل أو العصبية
وتكون شاهدة لهم بالملك إكرام العلماء والصالحين والأشراف وأهل الأوصاف وأصحاب الأوصاف والتجار
والغرباء وإزالة الناس منازلهم وذلك أن إكرام القبائل وأهل العصبية والعشائر لمن يناهضهم في
الشرف ويحاذيهم حبلى العصبية والعصبية ويشار إليهم في اتساع الجاه أمر طبيعي يحمل عليه إلا أكثر
الرغبة في الجاه أو الخفاة من قوم الكرم أو القياس مثليا منه وأما مثال هؤلاء من ليس لهم عصبية تنق
ولاجاه يرتجى فيندفع الشك في شأن كرامتهم ويتمحض القصد فيهم أنه للمجد وانتحال الكمال في
الحلال والأقبال على السياسة بالكلية لأن إكرام أئتماله وأمثاله ضروري في السياسة الخاصة بين قبيله
ونظرائه وإكرام الظاهر من أهل الفضائل والخصوصيات كان في السياسة العامة فالصالحون للدين
والعلماء للجاه اليهم في إقامة مراسم الشريعة والتجارة للترغيب حتى تعم المنفعة بما في أيديهم والغرباء من
مكازم الأتلاق وإزالة الناس منازلهم من الانصاف وهو من العدل فيعلم بوجود ذلك من أهل عصبية
اتماؤهم للسياسة العامة وهي الملك وأن الله قد تأذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها ولهذا كان أول
ما يذهب من القبيل أهل الملك إذا تأذن الله تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم إكرام هذا الصنف من
الخلق فلذا رأيتهم قد ذهب من أمة من الأمم فاعلم أن الفضائل قد أخذت في التهاوي عنهم وارتقب زوال
الملك عنهم وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له والله تعالى أعلم

٢١ فصل في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع

وذلك لأنهم أقدر على التغلب والاستيلاء كما قلناه واستعباد الطوائف لتدنيتهم على محاربة الأمم سواهم
ولأنهم يتزولون من الأهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجم وهؤلاء مثل العرب وزناتة ومن في
معنهم من الأكراد والتركمان وأهل الشام من صنهاجة وأيضاً هؤلاء لثوب حشون ليس لهم وطن يرتافعون
منه ولا يديجحون اليه فنبهة الأقطار والمواطن اليهم على السواء فلذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم
وما جاورهم من البلاد ولا يقفون عند حدود أقطارهم بل يظفرون إلى الأقاليم البعيدة ويتغلبون على
الأمم النائية وانظر ما يحكي في ذلك عن عمر رضي الله عنه لما بويع وقام يعرض الناس على العراق فقال إن
الحجاز ليس لكم بدار الأعلى النجدة ولا يقوي عليه أهله إلا بذلك أين القراء المهاجرون عن موعد

التفسير وفي الأرض التي وعدهم الله في الكتاب أن يورثوها فقال ليظهره على الدين كله ولو كره
 المشركون واعتبر ذلك أيضاً حال العرب السالفة من قبل مثل التبابعة وحمير كيف كانوا يخطلون من
 اليمن إلى المغرب مرة وإلى العراق وأهند أخرى ولم يكن ذلك لغير العرب من الأمم وكذلك الملثمين
 من المغرب لما نزحوا إلى الملك ظفروا من الأقليم الأول وعمالاتهم منه في جوار السودان إلى الأقليم
 الرابع والخامس في ممالك الأندلس من غير واسطه وهذا شأن هذه الأمم الوحشية فذلك تكون دولتهم
 أوسع نطاقاً وأبعد من مراكزها نهاية والله بقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا شريك له

٢٢ فصل في أن الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا يد من
 عوده إلى شعب آخر منها مادامت لهم العصبية ﴿

والسبب في ذلك أن الملك إذا حصل لهم بعد سورة الغلب والاذعان لهم من سائر الأمم
 سوام فيتبعين منهم المبشرون فلا أمر الحاملون لسيرير الملك ولا يكون ذلك لجيهرهم سوام
 عليه من السكرة التي يضيق عنها نطاق المراحة والغيرة التي تجدد أنوف كثير من
 المشاغلين بالرتبة فإذا تعين أولئك القائمون بالدولة انغمسوا في النعيم وغرقوا في بحر الترف والحسب
 واستعبدوا إخوانهم من ذلك الجيل وأنفقوا في وجوه الدولة ومذاهيها بقي الدين بعدوا عن الأمر
 وكبحوا عن المشاركة في حال من عز الدولة التي شاركوها بنسبهم وعبادة من الهرم لعدم الترف
 وأسبابه فإذا استولت على الأولين الأيام وأباد غصراءهم الهرم فطيطحت الدولة وأكل الدهر عليهم
 وشرب بما أرفه النعيم من حدهم واشتشت غريزة الترف من مائهم وبلغوا غايته من طيبة التمدن
 الانساني والغلب السياسي (شعر)

كدود القز ينسج ثم يقنى * بمركز نسجه في الانعكاس

كانت حينئذ عصبية الآخرين موفورة وسورة غلبهم من السكاس عفوغة وشارتهم في الغلب معلومة
 فتسمو آمالهم إلى الملك الذي كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من جنس عصبيتهم وترفع المنازعة لما
 عرف من غلبهم فيستولون على الأمر ويصير اليهم وكذلك يتفق فيهم مع من بق أيضاً متعبداً عنه من عشائر
 أمهم فلا يزال الملك ملجأ في الأمة إلى أن تنكسر سورة العصبية منها أو يقنى سائر عشائر هاسنة الله في
 الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للتقين واعتبر هذا بما وقع في العرب لما انقرض ملك عاد قام بعدهم
 بعدهم إخوانهم من ثمود ومن بعدهم إخوانهم العالفقة ومن بعدهم إخوانهم من حمير ومن بعدهم إخوانهم
 التبابعة من حمير أيضاً ومن بعدهم الأذواء كذلك ثم جاءت الدولة لخصر وكذا الفرس لما انقرض
 أمر السكينة ملك من بعدهم الساسانية حتى تأذن الله بانقرضهم أجمع بالاسلام وكذا اليونانيون
 انقرض أمرهم وانتقل إلى إخوانهم من الروم وكذا البربر بالمغرب لما انقرض أمر مفرأوة وكنانة
 الملوك الأول منهم رجع إلى صنهاجة ثم الملثمين من بعدهم ثم المصامدة ثم من بق من شعوب زفانة

وهكذا سبى الله في عباده وخلقه وأصل هذا كله إنما يكون بالعصية وهي متفاوتة في الأجيال والملك يحلقة الترف ويذهب كاسنذكره بعد فإذا افترضت دولة فأنما يتناول الأمر منهم من له عصية مشاركة لعصيتهم التي عرف لها التسليم والاشقياء أو أنس منها الغلب لجميع العصيات وذلك إنما يوجد في الذنب القريب منهم لأن تفاوت العصية بحسب ما قرب من ذلك النسب التي هي فيه أو بعد حتى إذا وقع في العالم تبدل كثير من تحويل ملة أو ذهاب عمران أو ما شاء الله من قدرته فينتد يخرج عن ذلك الجيل إلى الجيل الذي يأذن الله بقيامه بذلك التبدل كما وقع لمصر حين غلبوا على الأمم والدول وأخذوا الأمر من أيدي أهل العالم بعد أن كانوا مكبوحين عنه أحقاباً

٢٣ فصل في أن المغلوب مولع أبداً بالاعتداء بالغالب في شعاره وزيه ونخلته وسائر أحواله وعوائده

والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال بما وفر عندها من تعظيمه أو لما تعالط به من أن انقادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب فإذا غلظت بذلك واتصل لها حصل اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاعتداء أو لما تراه والله أعلم من أن غلب الغالب طالعيس بعصية ولا قوة بأس وأما هو غا انتحلته من العوائد والمذاهب تعالط أيضاً بذلك عن الغلب وهذا راجع للأول ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها وفي سائر أحواله وانظر ذلك في الآباء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً وذلك الاعتقاد الكمال فيهم وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زى الحامية وجند السلطان في الآكثر لأنهم الغالبون لهم حتى أنه إذا كانت أمة تجاوز أخرى ولها الغلب عليها فيسرى اليهم من هذا التشبه والاعتداء حفظ كبير كما هو في الآندلس لهذا العهد مع أم الجلالة فانك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم الثياب في الجدران والنصائح والبيوت حتى لقد يشعشع من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء والأمر لله وتأمل في هذا سر قولهم العامة على دين الملك فانه من بابه أن الملك غالب من تحت يده والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الآباء بآبائهم والتعليم بتعليمهم والله العليم الحكيم وبه سبحانه وتعالى التوفيق

٢٤ فصل في أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء

والسبب في ذلك والله أعلم ما يحصل في النفوس من النكاسل إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لخواها وعالة عليهم فيقصر الأمل ويضعف التناسل والاعتبار إنما هو عن جدة الأمل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية فإذا ذهب الأمل بالنكاسل وذهب ما يدعو اليه من الأحوال وكانت العصية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعدتهم وعجزوا عن المدافعة

عن أنفسهم بما خضع الغلب من شوكتهم فاصبحوا مغلبين لكل متغلب طعمعة لكل آكل وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الانسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له هو الرئيس إذا غلب على رياسته وكبح عن غاية عزه تكامل حتى عن شيع بطنه وري كبدته وهذا موجود في أخلاق الاناسى ولقد يقال مثله في الحيوانات المقترنة وأنها لا تساق إذا كانت في ملكة الأدميين فلا يزال هذا القبيل المتعولك عليه أمره في تناقض واضمحلال إلى أن يأخذم القناء والبقاء لله وحده واعتبر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قدماء العالم كثرة ولما فتيت حاميتهم في أيام العرب بق منهم كثير وأكثروا الكثير يقال أن سعدا أحصى من وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفا منهم سبعة وثلاثون ألفا ببيت ولما حصلوا في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم إلا قليلا ودثروا كأن لم يكونوا ولا تحسبن أن ذلك لظلم منهم أو عدوان شملهم فملكه الاسلام في العدل ما علمت وإنما هي طبيعة في الانسان إذا غلب على أمره وصار آلة لغيره ولهذا إغاثت عن الرق في الغالب أم السودان لنقص الانسانية فيهم وقر بهم من عرض الحيوانات العجم كإفلاتهم أو من رجو بانتظامه في رتبة الرق حصول رتبة أو إفادة ما أو عز كما يقع لما لك الترتيب بالشرق والعروج من الجلالة والافرنجة بالاندلس فإن العادة جارية باستخلاص الدولة لهم فلا يأتون من الرق لما يملونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة ووافق سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٢٥ فصل في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط

وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فهم أهل التهاب وعيث يتبهون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون إلى مستعصم بالقصر ولا يذهبون إلى المزارعة والحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم فشكل معقل أو مستعصم عليهم فهم تاركوه إلى ما يسيل عنه ولا يعرضون له والقبائل المعتنعة عليهم بأوغار الجبال بمنجاة من عينهم وقسادهم لأنهم لا يتسمنون اليهم المضارب ولا يكون الصعاب ولا يحاولون الخطر وأما البسائط متى اقتدروا عليها فقد ان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم وطعمعة لا كلهم يرددون عليهم الغارة والنهب والزحف لسهولة عليهم إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي وانحراف السياسة إلى أن يتقرض عمرانهم والله قادر على خلقه وهو الواحد القهار لا رب غيره

٢٦ فصل في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب

والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلفا وجلة وكان عندم ملذوذ لما فيه من الخروج عن رتبة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة متنافية للعمران ومنافضة له فغاية الأحوال العادية كلها عندم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للكون الذي به العمران ومناف له فالخبر مثلا إنما حاجتهم إليه لتعصيه أنافي للقدر فيقلونه من الباني وغير يونها عليه

ويعتدو نه ذلك والحشب أيضا انما حاجتهم اليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الاوتاد منه ليوثهم فيخربون
 السقف عليه فذلك قصارت طبيعة وجود منافية للبناء الذي هو أمل العمران هذا في حاطم على العموم
 وأيضا فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس وأن رزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في أخذ أموال
 الناس حديثون اليه بل كلما مدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهوه فاذنم اقتدارهم على ذلك
 بالتغلب والملك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخرب العمران وأيضا فلاتهم يلفون على أهل
 الأعمان من الصنائع والحرف أعمالهم لا يرون لها قيمة ولا قسطا من الأجر والثمن والأعمال كما
 سذكروه هي أصل المكاسب وحقيقتها وإذا فسدت الأعمال وسارت بها ناضفت الأموال في المكاسب
 وانقضت الأيدي عن العمل وايدع الساكن وفسد العمران وأيضا فأنهم ليست لهم غناية بالأحكام
 وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعضهم عن بعض إنما هم مياخذونه من أموال الناس فيها أو مغرما
 فإذا نوسلوا إلى ذلك وصلوا عليه أغرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم وقهر
 بعضهم عن أغراض المفاسد ورتقوا قروض العقوبات في الأموال حرسا على تحصيل الفائدة والحماية
 والاستكثار منها كما هو شأنهم وذلك ليس بغنى في دفع المفاسد وزجر التعرض لها بل يكون ذلك زائدا
 فيها لاستسهال الغرم في جانب حصول الغرض فتشقى الرعايا في ملكتهم كأنها فوضى دون حكم والفوضى
 مهلكة للبشر مفدة للعمران عاذكرناه من أن وجود الملك خاصة طبيعة للانسان لا يستقيم وجودهم
 واجتماعهم إلا بها وتقدم ذلك أول الفصل وأيضا فأنهم متنافسون في الرياسة وقل أن يسم أحد منهم إلا من
 لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا في الأقل وعلى كره من أجل الحياء فيتعدد الحكماء منهم والأمراء
 وتختلف الأيدي على الرعية في الحماية والأحكام فيفسد العمران وينتقض قول الاعراب الوافد على
 عبد الملك لما سأله عن الحاجاج وأراد الشاء عليه عنده بحسن السياسة والعمران فقال تركته يظلم وحده
 والنظر إلى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليفة كيف تفوض عمرانه وأقر ساكنه
 وبذلك الأرض فيه غير الأرض فاليمين قرارهم خراب الأقبالا من الأمصار وعراق العرب كذلك
 قد خرب عمرانه الذي كان تفرس أجمع والشام لهذا العهد كذلك وأفريقية والغرب لما جاز إليها بنو
 هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت
 بساطة خرابها كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانا تشهد بذلك آثار العمران
 فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدائن والثيرت الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين

٢٧ فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة
 أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجلالة

والسبب في ذلك أنهم خلقوا لتوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للفظلة والاثفة
 وبعداها في الرياسة فقلما تجتمع أهواؤهم فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم

من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسيل اشيادهم واجتماعهم وذلك بما يشعلمهم من الدين
 المذهب للغلظة والافتقار عن التحاسد والتنافس فاذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يعينهم على القيام
 بأمر الله وينتدب عنهم مذمومات الاخلاق ويأخذهم بمحموداتها ويؤلف كلتهم لاظهار الحق تم
 اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك وجمع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من
 عوج الملكات ورايهم من ذمهم الاخلاق الا ما كان من خلق النوحش التحريب المعانة المتبهي القبول
 الحريته على الفطرة الاولى بعده عما ينطبع في النفوس من قبح العوائد وسوء الملكات فان
 كل مولود يولد على الفطرة كالأورد في الحديث وقد تقدم

٢٨ فصل في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك

والسبب في ذلك أنهم أكثر بدوارة من سائر الأمم وأبعد مجالا في القفر وأغنى عن حاجات التول
 وجوبها لا اعتيادهم الشغل وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعب اشياد بعضهم لبعض لا يفهم
 ذلك وللنوحش ورئيسهم محتاج اليهم غالبا للعصبة التي بها المدافعة فكان مضطرا الى إحسان ملكتهم
 وترك مراعاتهم لئلا يحتل عليه شأن عصبيته فيكون فيها هلاكا كدو حلاكم وسياسة الملك والسلطان
 تقتضي أن يكون الناس وازعا للقهر والام لا تستقيم سياسته وأيضا فان من طبيعتهم كاقدمناه أخذ
 مافي أيدي الناس خاصة والتجاني محاسن ذلك من الأحكام بينهم ودفع بعضهم عن بعض فاذا ملكوا
 أمم من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخدام أيديهم وتركوا مساوي ذلك من الأحكام بينهم
 وربما جعلوا العقوبات على المفسدين الأموال حرصا على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد فلا يكون
 ذلك وازعا وربما يكون باعثا بحسب الأغراض الباعثة على الفساد واستهانة ما يعطى من ماله في جانب
 غرضه فتنمو الفساد بذلك ويقع تخريب العمران فبقى تلك الأمة كأنها قوضى مستظيلة أيدي بعضها
 على بعض فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعا شأن القوضى كاقدمناه فعدت طباع العرب لذلك كله
 عن سياسة الملك وانما يصيرون اليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصيغة دينية تنحو ذلك منهم وتجعل
 الازاع لهم من أنفسهم وتعملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كذا كرهناه واعتبر ذلك بدولتهم في الملة
 لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها اثر اعية لمصالح العمران فظاهر او باطنا وتابع فيها الخلقاء
 عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم كان رسمه اذا رأى المسلمين مجتمعين للصلاة يقول أكل عمر كيدي
 يعلم السكاب الآداب ثم منهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال بنذوا الدين فبدوا السياسة
 ورجعوا الى قفرهم وجعلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة يعدم عن الاتياد واعطاء النصفه فتوحشوا
 كما كانوا وغيث لهم من اسم الملك الا أنهم من جنس الخلقاء ومن جيلهم ولما ذهب أمر الخلافة وانحى
 رحها انقطع الأمر جملة من أيديهم وغلب عليهم العجم دونهم وأقاموا بادية في فنارم لا يعرفون الملك
 ولا سياسته بل قد يجمل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم وما كان في القديم لا حتم

الأمم في الخليقة ما كان لأجلهم من الملك ودون عاد ونود والعاقبة وخير والنيابة شاهدة بذلك ثم دولة مضر في الإسلام بنو أمية وبني العباس لكن بعد عهدهم بالسياسة علموا الدين فرجعوا إلى أصلهم من البداوة وقد يحصل لهم في بعض الأحيان غلب على الدول المستضعفة كافي المغرب لهذا العهد فلا يكون مآله وغايته الا تخريب ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه والله يؤتي مملوكه من يشاء

٢٩ ﴿ فصل في أن البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار ﴾

قد تقدم لنا أن عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والأمصار لأن الأمور الضرورية في عمران ليس كلها موجودة لأهل البدو وإنما توجد لديهم في مواطنهم أمور الفلح وموادها معدومة ومعظمها الصنائع فلا توجد لديهم بالسكنية من نجار وخياط وحداد وأمثال ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفلح وغيره وكذا الدنانير والدرهم مفقودة لديهم وإنما بأيديهم أعواضها من مغل الزراعة وأعيان الحيوان أو فضلاته ألباناً وألباناً وأشعاراً وأوعاناً مما يحتاج إليه أهل الأمصار فيعوضونهم عنه بالدنانير والدرهم لأن حاجتهم إلى الأمصار في الضرورى وحاجة أهل الأمصار إليهم في الحاجى والسكنى فيهم محتاجون إلى الأمصار بطبيعة وجودهم فإدما وافى البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استقلال على الأمصار فيهم محتاجون إلى أهلها ويتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعوا إلى ذلك وظالمون به وإن كان في المصير ملك كان خضوعهم وطاعتهم لغلب الملك وإن لم يكن في المصير ملك فلا بد فيه من رئاسة وتويع استبداد من بعض أهلها على الباقين والانتقام عمراناً وذلك الرئيس يعملهم على طاعته والسعى في مصالحه إما طوعاً بإبدل المال لهم ثم يبدى لهم ما يحتاجون إليه من الضروريات في مصره فيستقيم عمرانهم وأما كرهاً إن تمت قدرته على ذلك ولو بالتخريب بينهم حتى يحصل له جانب منهم يغالب به الباقين فيضطر إلى طاعته بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم وربما لا يسعهم مفارقة تلك النواحي إلى جهات أخرى لأن كل الجهات معمورة بالبدو الذين غلبوا عليها ومنعوا من غيرهم فلا يجد هؤلاء ملجأ إلا طاعة المصير فيهم بالضرورة مغلوبون لأهل الأمصار والله قاهر فوق عباده وهو الواحد الأحد القهار

﴿ الفصل الثالث من الكتاب الأول في الدول العامة والملك والخلافة والراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه قواعد ومتمات ﴾

١ ﴿ فصل في أن الملك والدولة والعامة إنما يحصل بالقبيل والعصبة ﴾

وذلك أنما قررنا في الفصل الأول أن المغالبة والمباينة إنما تكون بالعصبة لما فيها من النعمة والتزام واستانة كل واحد منهم دون صاحبه ثم أن الملك منصب شريف مذكور يستعمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالباً وقل أن يسفه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه فتقع المنازعة وتفضى إلى الحرب والقتال والمغالبة وشي منها لا يقع إلا بالعصبة كذا ذكرناه آنفاً

وهذا الأمر يعيد عن أفهام الجمهور بالجملة ومتناسون لعملاهم نسوا عهد قديد الدولة منذ أولها وطال
أمد مديهم في الحضارة وتعافهم فيها جيلا بعد جيل فلا يعرفون ما فعل الله أول الدولة أنما يدركون أصحاب
الدولة وقد استحسنت صفتهم ووقع التسليم لهم والاستغناء عن العصبية في تمديد أمرهم ولا يعرفون
كيف كان الأمر من أوله ومآلتي أولهم من المناصب دونة وخصوصا أهل الأندلس في نسيان هذه العصبية
وأثرها لطول الأمد واستغنائهم في الغالب عن قوة العصبية بما تلاشى وطنهم وخلامن العصابات
والله قادر على ما يشاء وهو بكل شيء عليم وهو حسبنا ونعم الوكيل

٢ ﴿ فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت فقد نستغنى عن العصبية ﴾

والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الانقياد لها إلا بقوة قوية من الغلب
للغلبة وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه فإذا استقرت الرئاسة في أهل النصاب المخصوص بالملك
في الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسبت النفوس شأن الأولية
واستحكمت لأهل ذلك النصاب صيغة الرئاسة ورسخ في العقائد دين الأشياد لهم والتسليم وقاتل الناس
معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الأيمانية فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبر عصابة بل كان طاعتها كتاب
الله لا يبدل ولا يعمر خلافة ولا أمر ما يوضع الكلام في الإمامة آخر الكلام على العقائد الأيمانية كأنه من
جملة عقودها ويكون استظهاره حينئذ على سلطانهم ودولهم المخصوصة أما بالموالي والصطفين الذين
نشؤا في ظل العصبية وغيرها وأما بالعصابات الخارجية عن نسبها الداخلي في ولايتها ومثل هذا وقع
لبنى العباس فإن عصبية العرب كانت قد بدت لعهد دولة المنصور وابنه الواثق واستظهاره بعد ذلك إنما
كان بالموالي من العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم ثم تغلب العجم والأولياء على النواحي
وتقلص ظل الدولة فلم تسكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف إليها الديلم وملكوها وصار
الخلائق في حكمهم ثم انقض أمرهم وملك السلجوقية من بعدهم فصاروا في حكمهم ثم انقض
أمرهم وزحف آخر التار فقتلوا الخليفة وعوارس الدولة وكذا صنهاجة بالقرية قد بدت
عصبيتهم منذ المائة الخامسة أو ما قبلها واستمرت لهم الدولة متقلصة الظل بالهدية وبجاية والقلعة
وسائر تغور أفريقية وورما تترى بتلك الثغور من نازعهم الملك واعتصم فيها والسلطان والملك مع ذلك
مسلم لهم حتى تأذن الله بانقراض الدولة وجاء الوحدون بقوة قوية من العصبية في انضمامهم فمحو آثارهم
وكذا دولة بني أمية بالأندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها
واقتسموا أخطاها وتنافسوا بينهم وتوزعوا أملاك الدولة واتزى كل واحد منهم على ما كان في ولايته
وشتمت بأفقه وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شاراته وأمنوا ممن
ينقض ذلك عليهم أو يغيره لأن الأندلس ليس يدار عصابات ولا قبائل كما سئد كره واستمرهم
ذلك كما قل ابن شرف

نما يزهدني في أرض أندلس * أسماء معتصم فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها * كالحرب على انتفاضة صورة الأسد

فاستظهروا على أمرهم بالنوالى والمسطعين والطرء على الأندلس من أهل العدو من قبائل البربر
وزناته وغيرهم اقتداء بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم حين ضعفت عصبية العرب واستبد ابن
أبي عامر على الدولة فكان لهدول عزيمة استبد كل واحد منها بجانب من الأندلس وحظ كبير
من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها ولم يزالوا في سلطانهم ذلك حتى جاز اليهم البحر المراتلون أهل
العصبية القوية من شونة فاستبدوا بهم وأزادهم عن مراكرهم وعوا آثامهم ولم يقدروا على مدافعهم
لفقدان العصبية لديهم فهذه العصبية يكون تمديد الدولة وحماتها من أولها وغد خلق الطرطوشى أن حمية
الدول بالطلاق الجند أهل العطاء المفروض مع الأهل ذكرك ذلك في كتابه الذى سماه سراج الملوك
وكلامه لا يتناول تأسيس الدول العامة في أولها وأما ذلك الدولة عند حربها وخلق جدتها ورجوعها
إلى الاستظهار بالنوالى والصانع ثم إلى استخدام من ورأهم بالأجر على المدافعة فانه إنما أدرك دول
الطوائف وذلك عند اختلاف دولة بنى أمية وانقراض عصبيتها من العرب واستبداد كل أمير بقطره
وكان في إيالة المستعين بن هود ودايته المظفر أهل سرقسطة ولم يكن نفع لهم من أمر العصبية شيء
لاستيلاء انترى على العرب منذئذ من السنين وهلاكهم ونزول الأسطافا مستبدا بالملك عن عشائره
قد استحكمت له صيغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية في ذلك لا ينال فيه ويستعين على أمره
بالأجراء من المرتقة فأطلق الطرطوشى القول في ذلك ولم يفتن لسكينة إلا منذ أول الدولة وأنه
لا يتم إلا أهل العصبية فتفتن أنت له وافهم سر الله فيه والله يؤتى ملكه من يشاء

٣ فصل في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكى دولة تستغنى عن العصبية

وذلك أنه إذا كان لعصبية غلب كثير على الأمم والأجبال وفي نفوس القائمين بأمره من أهل القاصية
اذعان لهم وانقياد فاذا زرع اليهم هذا الخارج وانتدع عن مقر ملكهم ومنبت عزه اشتملوا عليه وقموا
بأمره وظاهره على شأنه وعنوانهم بدولته ويرجون استقراره في نصابه وتناولوا الأمر من بدأعيانه
وجزائه لهم على مظاهر تبا سطفا منهم لرب الملك وخططهم من وزارته وقيادة أو ولاية تفر ولا يطمعون
في مشاركتة في شيء من سلطانه تسلياً لعصبية وانشياد الملك استحكم له وقتهم من صيغة الغلب في العالم وعقيدة
إيحائية استقرت في الأذهان لهم فلورامو عامه أو دونه لازلت الأرض زلزله لها وهذا كالموقع للإدارة
بالمغرب الأقصى والعبيديين بأفريقية ومصر لما انتبذ الطالبيون من الشرق إلى القاصية وابتعدوا عن
مقر الخلافة وسوا إلى ظلمها من أيدي بني العباس بعد أن استحكمت الصيغة لبني أمية
أولاً ثم لبني هاشم من بعدهم فخرجوا بالقاصية من المغرب ودعوا لأنفسهم وقام بأمرهم البرابرة مرة بعد

أخرى فأورقة ومغيلة للأداسة وكنانة ومنها جهة وهوارة العبيدين فشيروا دولتهم وهدوا بعصائهم
أمرهم واقتطعوا من ممالك العباسيين الغرب كله ثم أفرشوا ولم يزل ظل الدولة يتقلص وظل العبيدين
يمتد إلى أن ملكوا مصر والشام والحجاز وقاسموهم في الممالك الإسلامية شق الأبله وهؤلاء البرابرة
القائمون بالدولة مع ذلك كلهم مسلمون للعبيدين أمرهم مدعونون للملكهم وإنما كانوا يتنافسون
في الرتبة عندهم خاصة تسليها لما حصل من صبغة الملك لبي هاشم ولما استحكم من الغلب ثقر يش ومضر
على سائر الأمم فم يزال الملك في أعقابهم إلى أن انقرضت دولة العرب بأمرها والله يحكم لامعقب حكمه

٤ ﴿ فصل في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إمام من نبوة أو دعوة حق ﴾

وذلك لأن الملك إنما يحصل بالغلب والغلب إنما يكون بالعصبة واتفاق الآهواء على
المطالبة وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه قال تعالى لو أنفقت
ما في الأرض جميعا ما ألقت بين قلوبهم وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا
حصل التنافس وقسا الخلاف وإذا انصرف إلى الحق ورغبت الدنيا والباطل وأقبلت على الله أعدت
وجهم أفذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاقد واتسع نطاق الكلمة لذلك فعضمت
الدولة كما نبين لك بعد إن شاء الله سبحانه وتعالى وبه التوفيق لأرب سواه

٥ ﴿ فصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها ﴾

والسبب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتقر بالوجهة
إلى الحق فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطوب متساو عندهم
وهم مستمينون عليه وأهل الدولة التي مطالبوها وإن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل وتخاذلهم
لثقة الموت حاصل فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم بل يغلبون عليهم ويعاجلهم القناء بما فيههم من
الترف والذل كما قدمناه وهذا كما وقع للعرب صدر الإسلام في الفتوحات فكانت جيوش المسلمين
بالقادية والبرموك بضعاو ثلاثين ألفا في كل معسكر وجموع فارس مائة وعشرين ألفا بالقادية
وجموع هرقل على ما قاله الواقدي أربع مائة ألف فلم يقف للعرب أحد من الجانبين وهزموا وغلبوا
على ما بأيديهم واعتبر ذلك أيضا في دولة ثنوية ودولة الموحدية فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن
يقاومهم في العدد والعصبة أو يشق عليهم إلا أن الاجتماع الديني خاضع قوة عصبيتهم بالاستبصار
والاستئانة كقلناه فلم يقف لهم شيء واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفست كيف يقتض الأمر
ويصير الغلب على نية العصبية وحدها دون زيادة الدين فتغلب الدولة من كان تحت يدها من العصاب
المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد
بداوة واعتبر هذا في الموحدية مع زانة لما كانت زانة أبدى من الصاعدة وأشد توحشا وكان

للمصاعدة الدعوة الدينية باتباع المهدي فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها فقلبوا على زناثة
أولا واستبعوهم وان كانوا من حيث العصبية والبدانة أشد منهم فلما خلووا عن تلك العصبية الدينية
انتفضت عليهم زناثة من كل جانب وغلبهم على الأمر واتبعوه منهم والله غالب على أمره

٦ فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لأنهم

وهذا لما قدمناه من أن كل أمر نحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية وفي الحديث الصحيح كالم
ما بعث الله نبيا إلا في منعة من قومه وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بحرق العوائد فلذلك
يغيرهم أن لا تحرق له العادة في الغلب بغير عصبية وقد وقع هذا لابن قتي شيخ الصوفية وصاحب
كتاب خلع النملين في التصوف ثار بالأندلس داعيا إلى الحق وسمي أصحابه بالمرايطين فيبذل دعوة
المهدي فاستتب له الأمر قليلا لشغل المتونة بمادهم من أمر الموحدين ولم تكن هناك عصابات ولا قبائل
يدفعونه عن شأنه فلم يلبث حين استولى الموحدون على المغرب أن أذن لهم ودخل في دعوتهم ونايهم
من معقله بحسن أركش وأمكنهم من ثغره وكان أول داعية لهم بالأندلس وكانت نورته تسمى نورة
المرايطين ومن هذا الباب أحوال الثوار القائلين بتغيير الشكر من العامة والفقهاء فإن كثير من
المتحليين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأئمة داعين إلى تغيير
الشكر والنهي عنه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الثواب عليهم من الله فيكثر أتباعهم وانتشرون بهم من
العوام والذمهم ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهلك وأكثرهم يهلكون في تلك السبل مأذورين غير
مأجورين لأن الله سبحانه وتعالى لم يكتب ذلك عليهم وإنما أمره حيث تكون القدرة عليه قال صلى
الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وأحوال
الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها إلا الطغاة القوية التي من ورأها عصبية
القبائل والعشائر كما قدمناه وهكذا كان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله بالعشائر
والعصابات وهم المؤيدون من الله بالكون كله أو شاء لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة والله
حكيم عليم فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان فيه تحقاف صغرى الانفراد عن العصبية فطاح
في دعوة الهلاك وأما إن كان من التلبسين بذلك في طلب الرئاسة فأجدر أن تعوقه العوائق وتقطع به
المبالك لأنه أمر الله لا يتم الإبراء واعاته والأخلاص له والنصيحة للمسلمين ولا يشك في ذلك
مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة وأول ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل
الأمين وأبطأ المؤمنون بخراسان عن مقدم العراق ثم عبد الله بن موسى الرضا من آل الحسين
فكشف بنو العباس عن وجه التنكير عليه وتداعوا للقيام وخلق طاعة المؤمن والاستبداد منه
وبويع إبراهيم بن المهدي فوق المخرج ببغداد وانطلقت أيدي الزعرة بها من الشطار والحرية على
أهل العافية والصون وقطعوا السبل وامتلأت أيديهم من نهاب الناس وباعوا عارانية في الأسواق

واستعدى أهلها الحكام فلم يعدوم فتوافر أهل الدين والصالح على منع الفساق وكف عاديهم وقام
 بغداد وجل يعرف بخالد الديريوس ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجابته خلق
 وقاتل أهل الزعارة قتلهم وأطلق يده فيهم بالضرب والتكيل ثم قام من بعده رجل آخر من سواد
 أهل بغداد يعرف بسهل ابن سلامة الأنصاري وبكفي أبي حاتم وعلق مصحف في عنقه ودعا الناس إلى الأمر
 بالمعروف والنهي عن المنكر وأعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فاتبعه كافة الناس من
 بين شريف ووضيع من بني هاشم فمن دونهم وزل قصر ظاهر وأخذ الديريوس وطاقف بغداد ومع كل
 من أخاف النار ومنع الخفارة لأولئك الشطار وقال له خالد الديريوس أنا لأعيب على السلطان فقال له
 سهل لكفي أقتل كل من خالف الكتاب والسنة كائنا من كان وذلك سنة إحدى ومائتين وجره له
 إبراهيم بن الهادي العساكر فقلبه وأسرته وأغل أمره سر يعا وذهب ونجا بنفسه ثم اقتدى بهذا العمل
 بعد كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم بأقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون إليه في إقامته من العصبية
 ولا يشعرون بعمق أمرهم ومآل أحوالهم والذي يحتاج إليه في أمر هؤلاء المالدوا وإن كانوا من أهل
 الجنون وأما التنكيل بالقتل أو الضرب إن أحدثوا هرجاء ما أذاعة السخرية منهم وعدم من جملة
 الصفاعين وقد ينسب بعضهم إلى الفاطمي المنتظر أما بأنه هو أو بأنه داعيه وليس مع ذلك على علم من
 أمر الفاطمي ولا ما هو وأكثر المنتحلين لئلا هذا تجدهم موسوسين أو عيانيين أو ملبسين بظلمون يمثل
 هذه الدعوة بآلة امتلات بها جوارحهم وعجزوا عن التوصل إليها شيء من أسبابها العادية فيحسبون
 أن هذا من الأسباب الباطنية إلى ما يؤمنونه من ذلك ولا يحسبون ما يلزم فيمن المهلكة فيسرع
 إليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة وسوء عاقبة مكرهم وقد كان لأول هذه المائة خرج بالسوم رجل
 من المتصوفة يدعى التوبذري محمد إلى مسجد ماسة بساحل البحر هنالك وزعم أنه الفاطمي المنتظر
 تلبس على العامة هنالك بما ملا قلوبهم من الحدائق بانتظاره هنالك وإن من ذلك المسجد يكون أصل
 دعوته فتهاقت عليه طوائف من عامة البربر تهافت الفراش ثم خشي رؤساؤهم انبعاث نطاق الفتنة
 فدنس إليه كبير الصامدة يومئذ عمر السكسوي من قتله في فراشه وكذلك خرج في غمارة أيضا أول
 هذه المائة رجل يعرف بالعباس وادعى مثل هذه الدعوة وذاتبع تميقة الأرذلون من سفهاء تلك القبائل
 وغمارهم وزحف إلى بادس من أمصارهم ودخلها عتوة ثم قتل لأربعين يوما من ظهور دعوته ومضى
 في المهالكين الأولين وأمثال ذلك كثير والغلط فيمن الغفلة عن اعتبار العصبية في مثلها وأما أن كان
 التلبس فأخرى أن لا يتم له أمر وأن يسوء بآثمه وذلك جزاء الظالمين واقتسبحانه وتعالى أعظم وبه
 التوفيق لأرب غيره ولا معبود سواه

٧ ﴿ فصل في أن كل دولة لها حصة من المالك والأوطان لا تزيد عليها ﴾

والسبب في ذلك أن عصاة الدولة وقومها القائمين بها المهددين لها لا بد من توزيعهم حصصا على المالك

والتغور التي تصير اليهم ويستولون عليها تخايبها من العدو وإمضاء أحكام الدولة فيها من جباية وورع وغير ذلك فإذا توزعت العصابات كلهم على التغور والمالك فلا بد من نقاد عديم وقد بلغت الممالك حينئذ إلى حد يكون تغر الدولة وتحمالوطها ونطاقا لمركز ملكها فإن تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة على ما يبدها في دون حامية وكان موضعها لا تنهار الفرصة من العدو المجاور ويعود وبالذات على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة وما كانت العصابة موقورة ولم تنفذ عددها في توزيع الحصص على التغور والنواحي بقي في الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية حتى ينفسح نطاقها إلى غايته والعملة الطبيعية في ذلك هي قوة العصبية من سائر القوى الطبيعية وكل قوة تصدر عنها فعل من الأفعال فتشأنها ذلك في فعلها والدولة في مركزها أشد مما يكون في الطرف والنطاق وإذا انتهت إلى النطاق الذي هو الغاية عجزت وأقصرت عما وراءه شأن الأشعة والأشوار إذا انبعثت من المراكز والدوائر المنسجمة على سطح بناء من التفرع عليه ثم إذا أدركها الهرم والضعف فلما تأخذ في الانقاص من جهة الأطراف ولا يزال المركز عفوئاً إلى أن ينادي الله بانقراض الأمر جملة حينئذ يكون انقراض المركز وإذا غلب على الدولة من مركزها فلا ينبغي بقاء الأطراف والنطاق بل تنسحب نواحيها فإن المركز كالقلب الذي تنبعث منه الروح فإذا غلب القلب وملك انهمز جميع الأطراف وانظر هذا في الدولة الفارسية كان مركزها المدائن فلما غلب المسلمون على المدائن انقراض أمر فارس أجمع ولم يرفع زبد جرد ما بقي يده من أطراف ممالكه وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشام لما كان مركزها القسطنطينية وغلبهم المسلمون بالشام تجوزوا إلى مركزهم بالقسطنطينية وميضهم انزعاج الشام من أيديهم فم يزل ملكهم متصلاً بها إلى أن تأذن الله بانقراضه وانظر أيضاً شأن العرب أول الإسلام لما كانت عصاباتهم موقورة كيف غلبوا على ما جاورهم من الشام والعراق ومصر لا يسرع وقت ثم تجاوزوا ذلك إلى ما وراءهم من السند والحشة وأفريقية والغرب ثم إلى الأندلس فلما تفرقوا حصصاً على الممالك والتغور ونزلوا حامية ونفذ عددهم في تلك التوزيعات أقصروا عن الفتوحات بعدوا انتهى أمر الإسلام ولم يتجاوز تلك الحدود ومنها تراجمت الدولة حتى تأذن الله بانقراضها وكذا كان حال الدول من بعد ذلك كل دولة على نسبة القائمين بها في القوة والكثرة وعند نقاد عددهم بالتوزيع ينقطع لهم الفتح والاستيلاء سنة الله في خلقه

٨ فصل في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدتها على نسبة القائمين بها في القوة والكثرة

والسبب في ذلك أن الملك إنما يكون بالعصبية وأهل العصبية هم الحامية الذين يتولون بممالك الدولة وأقطارها وينقسمون عليها إما كان من الدولة العامة قبيلها وأهل عصابتها أكثر كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطاناً وكان ملكها أوسع لذلك واعتبر ذلك بالدولة الإسلامية لما ألفت الله كلمة العرب على الإسلام وكان عدد المسلمين في غزوة تبوك آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مائة ألف وعشرة آلاف من مشرك وقحطان ما بين فارس وراجل إلى من أسلم منهم بعد ذلك إلى الوفاة فماتوا جميعاً والطلب ما في

أيدي الأمم من الملك لم يكن دونه حمى ولا وزير فاستبجى حمى فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين في العالم لعيدهم والترك بالشرق والأفرنجية والبربر بالمغرب والقوط بالاندلس وخطوا من الحجاز إلى السوس الأقصى ومن اليمن إلى الترك بأقصى الشمال واستولوا على الأقاليم السبعة ثم انظر بعد ذلك دولة صنهارة والقوسدين مع العبيديين فليهنما كان قبل كتابة الفاتحين بدولة العبيديين أكثر من صنهارة ومن المصامدة كانت دولتهم أعظم ففكوا أفريقيا والمغرب والشام ومصر والحجاز ثم انظر بعد ذلك دولة تامة لما كان عددهم أقل من المصامدة قصر ملكهم عن ملك الموحدين لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ أول أمرهم ثم اعتبر بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد تامة بنو مرين وبني عبد الواد لما كان عدد بني مرين لأول ملكهم أكثر من بني عبد الواد كانت دولتهم أقوى منها وأوسع نطاقاً وكان لهم عليهم الغلب مرة بعد أخرى يقال إن عدد بني مرين لأول ملكهم كان ثلاثاً لآلاف وأن بني عبد الواد كانوا ألفاً إلا أن الدولة بالرقة وكثرة التابع كثرت من أعدادهم وعلى هذه النسبة في أعداد المخليين لأول الملك يكون إنساع الدولة وقوتها وأما طول أمدها أيضاً فلي تلك النسبة لأن عمر الحوادث من قوة مزاجه ومزاج الدول إنما هو بالعصبية فإذا كانت العصبية قوية كان المزاج تابعاً لها وكان أمدها طويلاً والعصبية إنما هي بكثرة العدد ووفوره كقلناه والسبب الصحيح في ذلك أن النقص إنما يبدو في الدول من الأطراف فإذا كانت ممالكها كثيرة كانت أطرافاً بعيدة عن مركزها وكثيرة وكل نقص يقع فلا بد له من زمن فتكثر أزمان النقص لكثرة ذلك واختصاص كل واحد منها بنقص وزمان فيكون أمدها طويلاً وانظر ذلك في دولة العرب الإسلامية كيف كان أمدها أطول الدول لابنو العباس أهل المركز ولا بنو أمية المستبدون بالاندلس ولم ينقص أمر جميعهم إلا بعد الأربعين من الهجرة ودولة العبيديين كان أمدها قريباً من مائتين وعشرين سنة ودولة صنهارة دونهم من لدن تقليد مع الدولة أمر أفريقية لبلكين ابن زيري في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة إلى حين استيلاء الموحدين على القلعة وبجاية سنة سبع وخمسين وخمسة مائة ودولة الموحدين لهذا العهد تناهز مائتين وسبعين سنة وهكذا نسب الدول في أعمارها على نسبة الفاتحين بهاسنة الله التي قد خلقت في عباده

٩ فصل في أن الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة

والسبب في ذلك اختلاف الآراء والأهواء وأن وراء كل رأي منها وهوى عصبية تتابع دونها فيكثر الالتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت وإن كانت ذات عصبية لأن كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة وانظر ما وقع من ذلك بأفريقية والمغرب منذ أول الإسلام ولهذا العهد فإن ساكن هذه الأوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات فزيفن فيهم الغلب الأول الذي كان لابن أبي صريح عليهم وعلى الأفرنجية شيئاً وعاودوا بعد ذلك الثورة والردة مرة أخرى وعظم الاختلاف

من المسلمين فيهم ولما استقر الدين عندهم عادوا الى الثورة والخروج والاختدابدين الخوارج مرات عديدة قال ابن أبي زيد ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة ولم تستقر كلمة الاسلام فيهم الا لعهد ولاية موسى بن نصير شابعده وهذا معنى ما ينقل عن عمر أن أفريقية مفرقة لقلوب أهلها إشارة الى ما فيها من كثرة العصابات والقبائل الحاملة لهم على عدم الاذعان والاعتقاد ولم يكن العراق لذلك العهد بذلك الصفة ولا الشام إنما كانت حامية من فارس والروم والكافة دهماء أهل مدن وأمصار فلما غلبهم المسلمون على الأمر وانزعوه من أيديهم لم يبق فيها مانع ولا مشاق والبربر في أغلبهم بالمغرب أكثر من أن تحصى وكلهم بادية وأهل عصابات وعشائر وكما علمت قبيلة عادت الأخرى مكانها والى دينها من الخلاف والردة فطال أمر العرب في عهد الدولة بوطن أفريقية والمغرب وكذلك كان الأمر بالشام لعهد بني إسرائيل كان فيه من قبائل فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط والروم ويونان والعمالة واكريكش والنيط من جانب الجزيرة والوحش ما لا يحصى كثيرة وتنوعا في العصبية فضعف على بني إسرائيل عبيد دولتهم ورسوخ أمرهم واضطرب عليهم الملك مرة بعد أخرى وسرى ذلك الخلاف اليهم فاختلجوا على سلطانهم وخرجوا عليه ولم يكن لهم ملك موطن سائر أيامهم الى أن غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر أمرهم عند الخلام والله غلب على أمره ويعكس هذا أيضا لوطان الحالية من العصبية يسهل عهد الدولة فيها ويكون سلطانها وازعالة الهرج والانتفاض ولا يحتاج الدولة فيها الى كثير من العصبية كما هو الشأن في مصر والشام لهذا العبد اذهن خلوا من القبائل والعصبية كان فيمكن الشام معدناهم كما قلناه فملك مصر في غاية السعة والرسوخ لقلعة الخوارج وأهل العصابات إنما هو سلطان ورعية ودولتها قائمة بملوك الترك وعصائهم يغلبون على الأمر واحدا بعدوا واحدا وينقل الأمر فيهم من منبت الى منبت والخلافة مبهمة للعباسي من أعقاب الخلفاء بغداد وكذا شأن الأندلس لهذا العهد فإن عصبية ابن الأحمر سلطانها لم تكن لا وله دولتهم بقوة ولا كانت كرات إنما يكون أهل بيت من بيوت العرب أهل الدولة الأموية بقوا من ذلك القلة وذلك أن أهل الأندلس لما انقضت الدولة العربية منه وملكهم البربر من النوبة والوحدون ستموا ملكهم وثقلت وطأتهم عليهم فأشربت القلوب بغضام وأمكن الموحدون والسادة في آخر الدولة كثير من الحصول للطاغية في سبيل الاستظهار به على شأنتهم من تملك الحضرة مراكن فاجتمع من كان بقي بها من أهل العصبية القديمة معادن من بيوت العرب تجافى بهم المنبت عن الحضرة والأمصاير بعض الشيء ورسوخا في العصبية مثل ابن هود وابن الأحمر وابن مردنيش وأمثالهم فقام ابن هود بالأمر ودعا بدعوة الخلافة العباسية بالمشرق وحمل الناس على الخروج على الواحد بن فبذوا اليهم العهد وأخرجوا واستقل ابن هود بالأمر بالأندلس ثم سبأ ابن الأحمر للأمر وخالف ابن هود في دعوته فدعا هؤلاء لابن أبي حفص صاحب أفريقية من الموحدون وقام بالأمر وتناوله بعصابة قليلة من قراجه كانوا يسمون الرؤساء ولم يحتج لأكثر منهم لقلة العصابات بالأندلس وأنها سلطان ورعية ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية

عن بحير إلى البحر من أعباس زمانة فصاروا معه عصابة على الشاغرة والرباط ثم سأل صاحب المغرب من ملوك زمانة أمل في الاستيلاء على الاندلس فصار أولئك الأعبياس عصابة ابن الأحمر على الامتناع منه إلى أن تأمل أمره ووسع وألفته النفوس وعجز الناس عن مطالبته وورثه أعتابه لهذا العهد فلا تظن أنه بغير عصابة فليس كذلك وقد كان مبدؤه بعصابة لأنها قليلة وعلى قدر الحاجة فإن قطر الاندلس لقلة العصابات والقبائل فيه يفي عن كثرة العصابة في التغلب عليهم والله غني عن العالمين

١٠ فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد

وذلك أن الملك كقدمته إتمامه بالعصبة والعصبة متألفة من عصابات كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الأخرى كلها فتغلبها وتستولى عليها حتى تصيرها جميعا في ضمنها وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول وسره أن العصابة العامة للقبيل هي مثل المزاج للمتكون والمزاج إنما يكون عن العناصر وقد تبين في موضعه أن العناصر إذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلا بل لابد أن تكون واحدة منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعها وتؤلّفها وتصيرها عصابة واحدة شاملة لجميع العصابات وهي موجودة في ضمنها وتلك العصابة الكبرى إنما تكون لقوم أهل بيت ورياسة فيهم ولا بد أن يكون واحد منهم رئيسا لهم غالباً عليهم فيتبعون رئيساً للعصبات كلها والغلب منته لجميعها وإذا تمين له ذلك من الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والألفة فيألف حيث شئت من المسامحة والمشاركة في استبقاعهم والتحكم فيهم ويحيى خلق النالة الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لفساد الكل باختلاف الحكم لو كان فيما آلهة إلا الله لقد دنا فتجدد حيث أنوف العصابات ويفلج شكائهم عن أن يسمو إلى مشاركتهم في التحكم وتفرع عصبيتهم عن ذلك ويتفرد به ما استطاع حتى لا يترك لأحد منهم في الأمر لاناقة ولا جمالا فينفرد بذلك المجد بكنيته ويدفعهم عن مسامحته وقديمت ذلك للأول من ملوك الدولة وقد لا يتم إلا للثاني والثالث على قدر مماثلة العصابات وقونها لأنه أمر لابد منه في الدول سنة الله التي قد خلت في عباده والله تعالى أعلم

١١ فصل في أن من طبيعة الملك الترف

وذلك أن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها كثر رياسها ونعمتها فتكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته وزينته ويذهبون إلى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها وينزعون مع ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية ويتفاخرون في ذلك ويتفاخرون فيه غيرهم من الأمم في أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفاره وبناعى خلفهم في ذلك سلفهم إلى آخر الدولة وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترغبهم فيه إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة أن تبلغها بحسب قوتها وعوائدها من قبلها سنة الله في خلقه والله تعالى أعلم

١٢ فصل في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون

وذلك أن الأمة لا يحصل الملك إلا بالخطابة والخطابة غايتها الغلب والملك وإذا حصلت الغاية انقضى السعي إليها (قال الشاعر)

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها * فلما انقضى مايتنا سكن الدهر
فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه وآثروا الراحة والسكون والدعة
ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من الباني والمساكن والملابس فينبون القصور ويحرون المياه ويغرسون
الرياض ويستمتعون بأحوال الدنيا ويؤثرون الراحة على المتاعب ويتأنفون في أحوال الملابس
والمطاعم والآنية والفرش ما استطاعوا ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم من أجيالهم ولا يزال
ذلك يتزايد فيهم إلى أن يتأذن الله بأمره وهو خير الحاكمين والله تعالى أعلم

١٣ فصل في أنه إذا استحسنت طبيعة الملك من الأفراد بالمجد

وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم

وبانه من وجوه * الأول أنها تقتضي الأفراد بالمجد كإقلاء ومهما كان المجد مشتركاً بين العصابة
وكان سعيهم له واحداً كانت همهم في التغلب على الغير والذب عن الحوزة أسوة في طموحها وقوة
شكائها ومرامهم إلى العز جميع وهم يستطيون الموت في بناء عهدهم ويؤثرون الهلكة على فسادهم وإذا
انفرد الواحد منهم بالمجد فرغ عصبيتهم وكبح من أعينهم واستأثروا بالموال دونهم فكاسفوا عن الغزو
وفشل رعيهم وزعموا المذلة والاستعداد تمرى الجيل الثاني منهم على ذلك يحسبون ماينالهم من العطاء
أجراً من السلطان لهم على الحماية والعونة لا يجري في عقولهم سوا ذلك أن يستأجر أحد نفسه على
الثوت فيصير ذلك وهنا في الدولة وخضداً من الشوكو وتقبل به على مناحي الضعف والهرم لفساد العصبية
بذهاب البأس من أهلها * الوجه الثاني أن طبيعة الملك تقتضي الترف كإقضاءه فتكثر عوائده وتزيد
نفقاتهم على أعطياتهم ولا يفي دخلهم بخرجهم فالفقير منهم يهلك والترف يستغرق عطاءه بترفه ثم يزداد
ذلك في أجيالهم المتأخرة إلى أن ينصر العطاء كله عن الترف وعوائده وتمس الحاجة وتطالبهم
ملوكهم بحصر نفقاتهم في الغزو والحروب فلا يجدون وليجة عنها فيوقعون بهم العقوبات ويتزعجون
مافي أيدي الكثير منهم يستأثرون به عليهم أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم فيضعفونهم لذلك
عن إقامة أحوالهم ويضعف صاحب الدولة بضعفهم وأيضاً إذا كثرت الترف في الدولة وصار عطاؤهم
مقصراً عن حاجاتهم ونفقاتهم احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان إلى الزيادة في أعطياتهم حتى
يدخلهم ويزيح عليهم والجباية مقدارها معلوم ولا يزيد ولا تنقص والنزاد بما يستحدث من
المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة معدوداً فإذا وزعت الجباية على الأعطيات وقد حدثت فيها الزيادة
لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم نقص عدد الحماية حيث شذها كان قبل زيادة الأعطيات

ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الاعطيات لذلك فينقص عدد الحامية وثالثا ورايبا إلى أن يعود
العسكر إلى أقل الأعداد فتضعف الحماية لذلك وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يخاورها من الدول
أو من هو تحت يديها من القبائل والعصابات وبأذن الله فيها بالفناء الذي كتبه على خليفته وإضافة الترف
مفسد للخلق بما يحصل في النفس من أنوار الشر والسفسقة وعوائدها كما يأتي في فصل الحضارة فذهب
منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلا عليه وتصفون بما يناقضها من خلال الشر فيكون علامة
على الادبار والافتراض بما جعل الله من ذلك في خليفته وتأخذ الدولة بمبادئ العطب وتضعض أحوالها
وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها * الوجه الثالث أن طبيعة الملك تقتضي الدعة كما
ذكرناه وإذا اتفقوا الدعة والراحة ما لنا خلقنا صار لهم ذلك طبيعة وجيلة شأن العواائد كما أورأبلا فيها
فترى أجيالهم الحادثة في غفارة العيش ومهاد الترف والدعة ويتقلب خلق التوحش وينسون عوائد
البداءة التي كانت بها تلك من شدة القباس وتعود الافتراض ركوب البيداء وهداية الفقر فلا يفرق بينهم وبين
السوقة من الحضرة إلا في الثقافة والشارفة فتضعض حمايتهم ويذهب بأسهم وتنقض شوكتهم ويعود
وبالذات على الدولة بما تنبئ به من ثياب الهرم ثم لا يزالون يتلونون بموائد الترف والحضارة والكون
والدعة ورقة الحاشية في جميع أحوالهم وينغمسون فيها وهم في ذلك يعدون عن البداءة والخشونة
ويسلمون عنها شيئا فشيئا وينسون خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عبالا على
حامية أخرى إن كانت لهم واعتبر ذلك في الدول التي أخبارها في الصحف لديك تجد ما قلته من ذلك
صحيحا من غير ريبه وربما يحدث في الدولة إذا طرأ بها هذا الهرم بالترف والراحة أن يتخير صاحب الدولة
أنصارا وشيعة من غير جلدتهم ممن تعود الخشونة فيخدم جندا يكون أصبر على الحرب وأقدر على
معاناة الشدائد من الجوع والتظف ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذي عساه أن يطرأها حتى
يأذن الله فيها بأمره وهذا كما وقع في دولة الترك بالشرق فانه غالب جندها المواني من الترك فتخير
ملوكهم من أولئك الماليك الجلوبين اليهم فرسانا وجندا فيكونون أجرا على الحرب وأصبر على
الشغل من أبناء الماليك الذين كانوا قبلهم وريوا في ماء النعيم والسلطان وظله وكذلك في دولة
الموحدين بافريقية فإن صاحبها كثير ما يتخذ أجناده من زناته والعرب ويستكثر منهم ويترك أهل الدولة
للمعودين للترف فتستجد الدولة بذلك عمرا آخر سالما من الهرم والفتور الأرض ومن عليها

١٤ فصل في أن الدولة لها أعمال طبيعية كما للأشخاص

إعلم أن العمر الطبيعي للأشخاص على مازعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة وهي سنة القمر
الكبرى عند المنجمين ويختلف العمر في كل جيل بحسب القرائن فيزيد عن هذا وينقص منه فتكون
أعمار بعض أهل القرائن مائة ثمانية وبعضهم خمسين أو ثمانين أو سبعين على ما تقتضيه أدلة القرائن عند
الناظرين فيها وأعمار هذه الملة ما بين الستين إلى السبعين كما في الحديث ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي

هو مائة وعشرون إلا في الصور النادرة وعلى الأوصاف الغريبة من الفلك كما وقع في شأن نوح عليه السلام
وقليل من قوم عاد وحمور وأما أعمار الدول أيضا وإن كانت تختلف بحسب القرائن إلا أن الدولة في
الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين الذي
هو انتهاء النمو والنشوء إلى غاية قال تعالى حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ولهذا قلنا أن عمر الشخص
الواحد هو عمر الجيل ويؤيد ما ذكرناه في حكمة الله الذي وقع في بني إسرائيل وأن المقصود بالأربعين
فيه فناء الجيل الأحياء ونشأة جيل آخر لم يعمدوا ذلك ولا عرفوه فدل على اعتبار الأربعين في عمر
الجيل الذي هو عمر الشخص الواحد وإعاقنا أن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال لأن الجيل
الأول لميز لو على خلق البداوة وخشوشتها وتوحشها من تنظيف العيش واليسالة والاقتصاد والاشتراك
في المجد فلا تزال بذلك سورة العصبية مضبوطة فيهم فقدم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون
والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترف من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والحسب
ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به وكسل الباقيين عن العمل فيه ومن عز الاستقامة إلى ذل
الاستكانة فتكسر سورة العصبية بعض الشيء وتؤنس منهم الهانة والخضوع ويبقى لهم الكثير من
ذلك بما أدركوا الجيل الأول وباشروا أحوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد ورامتهم في
المدافعة والحماية فلا يسلمهم ترك ذلك بالكلية وإن ذهب منه ما ذهب ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال
التي كانت للجيل الأول أو على ظن من وجودها فيهم وأما الجيل الثالث فينسبون عهد البداوة والخشونة
كما لم تسكن وينقدون خلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر وبلغ فيهم الترف غاية بما يتكوه
من النعم وغضار العيش فيصرون عيالا على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم
وتسقط العصبية بالجملة وينسبون الحماية والمدافعة والمطالبية ويلبسون على الناس في الشارة والريز وركوب
الجيل وحسن الثقافة يعمون بها وهم في الأكثر أحيان من الذسوان على ظهورها فإذا جاء الطالب لهم لم
يقاوموا مدافعتهم فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر بالمواثي
ويصططع من يغنى عن الدولة بعض الغناء حتى يتأذن الله بانقضاضها فتذهب الدولة بما حملت فهذه كما تراه
ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتحلقها ولهذا كان انقراض الحسب في الجيل الرابع كإم في أن الجيل
والحسب إنما هو في أربعة آباء وقد أتيناك فيه بربها ن طبعي كاف ظاهري مبني على ما مهدناه قبل من المقدمات
فتأمل فلن تعدو وجه الحق إن كنت من أهل الانصاف وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة
على ما مر ولا تعدو الدول في الغالب هذا العمر تقريبا قبله أو بعده إلا أن عرض لها عرض آخر من فقدان
المطالب فيكون الهرم حاصلا مستوليا والطالب لم يحضرها ولو قد جاء الطالب لما وجد مدافعا فإذا جاء
أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزايد إلى السن
الوقوف ثم إلى سن الرجوع ولهذا يجري على ألسنة الناس في الشهور أن عمر الدولة مائة سنة وهذا معناه
فاعتبروه واتخذتمه قانونا يصحح لك عدد الآباء في عمود النسب الذي تريده من قبل معرفة السنين الماضية

إذا كنت قد استربت في عددهم وكانت السنون الماضية منذ أولهم عصاة لديك فعد لكل مائة من السنين ثلاثة من الآباء فإن نقدت على هذا القياس مع نفود عددهم فهو صحيح وإن نفقت عنه يحسن فقد غلط عددهم بزيادة واحد في عمود النسب وإن زادت بثلاثة فقد سقط واحد وكذلك تأخذ عدد السنين من عددهم إذا كان عسلا لديك فتأمله تجدده في الغالب صحيحا والله يغفر الذل والنهار

١٥ ﴿ فصل في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة ﴾

إعلم أن هذه الأحوال طبيعية للدولة فإن الغلب الذي يكون به الملك إما هو بالعصبة وما يتبعها من شدة البأس وتعود الأقراس ولا يكون ذلك غالبا إلا مع البداوة فطور الدولة من أولها بدو ثم إذا حصل الملك تبعه الرفه واتساع الأحوال والحضارة إما هي تفتن في الترف وأحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والبنائ والفرش والآنية وسائر عوائد المنزل وأحواله فلكل واحد منها صنائع في استجادة والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضا وتتكثر باختلاف ما تترع إليه النفوس من الشهوات والملاذو التمتع بأحوال الترف وما تلون به من العوائد فيصير طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك وأهل الدول يبدأ يشدون في طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم فأحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب يأخذون ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبنائهم ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة فقد حكى أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحبونه رفقا وعشروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عيניהم ملحا وأمثال ذلك فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في منتهى حاجات منازلهم واختاروا منهم الميرة في أمثال ذلك والقومة عليه أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفتن فيه مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفتن في أحواله فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادة الطعام والشارب والملابس والبنائ والآنية وسائر الناعون والخرنق وكذلك أحوالهم في أيام البهاة والولائم وليالي الأعراس فأتوا من ذلك وراء الغاية والنظر ما نقله السعدي والطبري وغيرهما في أعراس المأمون ببور أن بنت الحسن بن سهل وما بذل أبوها لحاشية المأمون حين وافاه في خطبتها إلى داره فلم الصلح وركب إليها في السفين وما أنفق في أملاكها وما نحلها المأمون وأنفق في عرسها تنفق من ذلك على العجب فنه أن الحسن بن سهل ثري يوم الأملاك في الصنيع الذي حضره حاشية المأمون فنثر على الطبقة الأولى منهم بنادق المسك ملثونة على الرقاع بالضياع والعقار مسوغة لمن حصلت في يده يقع السكل واحد منهم ما أداه إليه الاتفاق والبخت وفرق على الطبقة الثانية بدر الدين في كل بكرة عشرة آلاف وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدين كذلك بعد أن أنفق في مقامة المأمون بداره أصناف ذلك ومنه أن المأمون أعطاها في مهرها ليلقز فألقا ألف حصاة من الياقوت وأوقد

شموع الغبير في كل واحدة مائة من وهو رطل وثلاثان (١) وبسط الحافرشا كان الحبير منها منسوجا بالذهب مكللا بالبر والياقوت وقال المأمون حين رآه قتل الله أبانواس كانه أبصر هذا حيث يقول في صفة الخمر

كان صغرى وكبرى من فواقهما * حصياء در على أرض من الذهب

وأعد بدار الطبع من الخطب الليلة الوليمة تمل مائة أو أربعين بغلام مدة عام كامل ثلاث مرات في كل يوم وفي الخطب لليلتين أو قدوا الخمر يدبصبون عليه الزيت وأوعز إلى النواتية باحضار السفن لأجزة الخواسب من الناس بدجلة من بغداد إلى قصور تلك مدينة المأمون لحضور توليمة فكانت الحرافات (٢) المعدلة لك ثلاثين ألفا أجازوا الناس فيها آخريات تهاجم وكثير من هذا وأمثاله وكذلك عرس المأمون ابن ذي النون بطيقت نقله ابن بسام في كتاب الذخيرة وابن حبان بعد أن كانوا كلهم في الطور الأول من اليدوة عاجزين عن ذلك جملة لفقدان أسبابه والقائمين على صنائعهم وفساد جنهم يذكر أن الحجاج أوفى في اختتان بعض ولده فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس وقال أخبرني بأعظم صنيع شهدته فقال له نعم أيها الأمير شهدت بعض مرازية كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعا أحضر فيه مصاف الذهب على أختوة الفضة أرباعا على كل واحد وحملة أربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس فإذا طعموا اتبعوا أربعهم المائدة بصحائفها وصائفها فقال الحجاج يا غلام انحر الخمر وأطعم الناس وعلم أنه لا يستقل بهذه الآية وكذلك كان * ومن هذا الباب أعطية بني أمية وجوائزهم فأنما كان أكثرها الأبل أخذها بمذهب العرب وبدأونهم ثم كانت الجوائز في دولة بني العباس والعبيدين من بعدهم ما غلت من أحمال المال ونحوت الشباب واعداد الخيل بمراكبها وهكذا كان شأن كتامة مع الأغلبية بأفريقية وكذا بني طنج بمصر وشأن ثنونة مع ملوك الطوائف بالأندلس والموحدين كذلك وشأن زناطة مع الموحدين وهلم جرا انتقل الحضارة من الدول السالفة إلى الدول الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب وبني أمية وبني العباس وانتقلت حضارة بني أمية بالأندلس إلى ملوك المغرب من الموحدين وزناطة لهذا العهد وانتقلت حضارة بني العباس إلى الديلم ثم إلى الترك ثم إلى الترك المماليك بعصر والتتر بالعراقين وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة إذ أمور الحضارة من توابيع الترف والترف من توابيع الثروة والنعمة والثروة والنعمة من توابيع الملك ومقدار ما يستولى عليه أهل الدولة فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله فاعتبره وتفهمه وتأمله تجده صحيحا في العمران والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين

١٦ فصل في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها

والسبب في ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثرت النسل والولد والعنومية فكثرت العصاة

(١) قوله وثلاثان الذي في كتب اللغة أن المزدحل وقيل رطلان ولم يوجد في النسخة التونسية الثلاثان اهـ

(٢) الحرافات بالفتح جمع حرافة سفينة فيها مرامي ترمى بها العدو اهـ مختار

الحباية وضبط الدخل والخرج وإحصاء النفقات والتصدق فيها وتشييد المباني الخافضة والصنائع العظيمة والآلات مزارع النسعة والمياكل المرتفعة واجازة الوفود من أشراف الأئمة ووجوه القبائل وبيت المعروف في أهله هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بالمال والجاه واعتراض جنوده وإدراج أوزانهم وإنصافهم في أعطياتهم لكل هلال حتى يظهر أثر ذلك عليهم في ملائمتهم وشكهم وشاراتهم يوم الزينة قياسهم بالدول السائلة ويرهب الدول المخاربة وهذا الطور آخر أطوار الاستبداد من أصحاب الدولة لأنهم في هذه الأطوار كليا يستولون بأرائهم بانون لعزم موضعون الطريق لمن يهدم الطور الرابع طور الفتور والسائتة ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بئى أولوه سدائا نظاره من الملوك وأقتاله مقلدا لماضين من سلفه فيتبع آثارهم جذو النعل بالنعل ويقتفى طرقهم بأحسن مناهج الاقتداء ويرى أن في الخروج عن تقليد فساد أمره وانهم أبصر عابنوا من بعده الطور الخامس طور الأسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة في هذا الطور مطلقا جامع أولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بضائته وفي مجالسه واصطياع أخصان السوء وخضراء الدمن وتقليد عظمايات الآمور التي لا يستقلون بعملها ولا يعرفون ما يأتون ويدرون منها مستغدا لكبار الأولياء من قومه وصنائع سلفه حتى يضطغوا عليه ويتخاذلوا عن نصرته مضيعا من جنده بما أنفق من أعطياتهم في شبهاته وحجب عنهم وجهه مباشرة وتفقدته فيكون غر بالما كان سلفه يؤسسون وهاهنا كما كانوا يبنون وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم ويستولى عليها المرض المزمن الذي لا تسكاد تخلص منه ولا يكون لها معبره إلى أن تنقرض كما نبينه في الأحوال التي نسردها والله خير الوارئين

١٨ فصل في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها

والسبب في ذلك أن الآثار إنما تحدث عن القوة التي بها كانت أولا وعلى قدرها يكون الأثر فمن ذلك مباني الدولة وهياكلها العظيمة فانما تكون على نسبة قوة الدولة في أصلها لا نهالاتهم إلا بكثرة الفعلة واجتماع الأيدي على العمل والتعاون فيه فإذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب كثيرة الممالك والرعايا كان الفعلة كثيرين جدا وحشروا من آفاق الدولة وأقتنارها فتم العمل على أعظم هياكله ألا ترى إلى مصانع قوم عاد وثمود وما قبله القرآن عنهما وانظر بالمجاهدة أيوان كسرى وما اقتدر فيه الفرس حتى إنه عزم الرشيد على هدمه وتخريبه فتكاه وعنه وشرع فيه ثم أدركه العجز وقصة إستشارته ليحيى بن خالد في شأنه معروفة فانظر كيف تقتدر دولة على بناء لا تستطيع أخرى على هدمه مع بون ما بين الهدم والبناء في السهولة تعرف من ذلك بون ما بين الدولتين وانظر إلى بلاط الوليد بدمشق وجامع بني أمية بقرطبة والقنطرة التي على واديها وكذلك بناء الخنايا لجلب الماء إلى قرطاجنة في القناة الرابكة عليها وآثار شمرشان بالمغرب والأهرام بعصر وكثير من هذه الآثار الماثلة للبيان تعلم منه اختلاف الدول في القوة والضعف واعلم أن تلك الآثار لا تقدمين إنما كانت بالهندام واجتماع الفعلة وكثرة الأيدي عليها

فبذلك شئت تلك الهياكل والصانع ولا تتوهم ما تتوهمه العامة أن ذلك لعظم أجسام الأقدمين عن
أجسامنا في أطرافها وأقطارها فليس بين البشر في ذلك كبير بون كأتعدين الهياكل والآثار ولقد
ولع القصاص بذلك وتعالوا فيه وسطر واعن عاد وثمود والعاقلة في ذلك أخبارا عريقة في الكذب
من أغربها ما يحكون عن عوج (١) بن عناق رجل من العاقلة الذين قاتلهم بنو إسرائيل في الشام
زعموا أنه كان لطوته شاطئ السمك من البحر ويشوبه إلى الشمس ويزيدون إلى جهلهم بأحوال البشر
الجهل بأحوال الكواكب لما اعتقدوا أن للشمس حرارة وانها شديدة فياقرب منها ولا يعلمون أن
الحر هو الضوء وأن الضوء فياقرب من الأرض أكثر لا انعكاس الأشعة من سطح الأرض بمقابلة
الأمواج فتتضعف الحرارة هنالجل ذلك وإذا تجاوزت مضارح الأشعة المنعكسة فلا حر هنالك
بل يكون فيه البرد حيث يجارى السحاب وأن الشمس في نفسها لا حرارة ولا باردة وإنما هو جسم بسيط
مضيء لا مزاج له وكذلك عوج بن عناق هو فيما ذكره من العاقلة أو من الكنعانيين الذين كانوا
فريسة بني إسرائيل عند فتحهم الشام وأطوال بني إسرائيل وجسماتهم لذلك العبدقية من هياكلنا
يشهد لذلك أبواب بيت القدس قاتها وإن خربت وجددت لم تزل المحافظة على أشكالها ومقادير أبوابها
وكيف يكون التفاوت بين عوج وبين أهل عصره بهذا المقدار وإنما ثار غلطهم في هذا أنهم استعظموا
آثار الأمم ولم يفهموا حال الدول في الاحتجاج والتعاون وما يحصل بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة
فصرفوه إلى قوة الأجسام وشدها بعظم هياكلها وليس الأمر كذلك وقد زعم السعودي ونقله عن
الفلاسفة من عمال المستندلة إلا التحكم وهو أن الطبيعة التي هي جيلة للأجسام بناها الله الخلق كانت في تمام
الكرة ونهاية القوة والكمال وكانت الأعمار أطول والأجسام أقوى لسكان تلك الطبيعة فإن طرو
الوثة إنما هو بانحلال القوى الطبيعية فإذا كانت قوية كانت الأعمار تزيد فكان العالم في
أولية نشأته تام الأعمار كامل الأجسام ثم يزل يتناقص لتقصان المادة إلى أن يبلغ إلى هذه الحال التي
هو عليها ثم لا يزال يتناقص إلى وقت الانحلال وانقراض العالم وهذا رأي لا وجه له إلا التحكم كما مراد وليس
له علة طبيعية ولا سبب برهاني ونحن نشاهد ما كن الأولين وأبوابهم وطرقهم فيها أحدثوه من
البناء والهياكل والديار والمساكن كديار ثمود المنحوتة في الصخر بيوتنا صغار أو أبوابها
ضيقة وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى أنها ديار جهنم عن استعمال مياههم وطرح ما يجني به وأهرق
وقال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم وكذلك
أرض عاد ومصر والشام وسائر بقاع الأرض شرقا وغربا والحق ما قررناه ومن آثار الدول أيضا حالها
في الأعراس والولائم كإذ كنا في وليمة بوران وصنيع الحجاج وابن ذى النون وقد مر ذلك كله
ومن آثارها أيضا عظام الدول وإنها تكون على نسبتها ويظهر ذلك فيها ونواشرفت على الهرم فإن

(١) قوله ابن عناق الذي في القاموس في باب الجهم عوج بن عوق بالواو والمشهور علي السنة الناس عناق
بالتون ٨١

المهتم التي لا أهل الدولة تكون على نسبة قوة ملكهم وغلهم للناس والمهم لانزال مصاحبة لهم إلى
 انقراض الدولة واعتبر ذلك بجوائز ابن ذي يزن لو قد فرش كيف أعطاهم من أرطال الذهب والفضة
 والاعبد والوصائف عشرين أو من كرش العنبر واحدة وأضعف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب
 وإنما ملكه يومئذ قرارة اليمن خاصة تحت استبداد فارس وإغاصه على ذلك همه نفسه بما كان لقومه
 الشباغة من الملك في الأرض والغلب على الأمم في العراقيين والهند والغرب وكان الصنهاجيون بأفريقية
 أيضا إذا أجازوا الوغد من أمراء زناتة الوافدين عليهم فأثما يعطونهم المال أحمالا والكساء تحوتا
 معلومة والحلان جنائب عديدة وفي تاريخ ابن الرقيق من ذلك أخبار كثيرة وكذلك كان عطاء
 البرامكة وجوائزهم ونفقاتهم وكانوا إذا كسبوا مبعدا فاعطاهم الولاية والنعمة آخر الدهر لا العطاء الذي
 يستنفده يوم أو بعض يوم وأخبارهم في ذلك كثيرة مسطورة وهي كلها على نسبة الدول جارية عند جواهر
 الفسلي السكاكية تدجيش العبيديين ما لم يخل إلى فتح مصر استعبد من القيروان بألف حمل من المال
 ولا انتهى اليوم دولة إلى مثل هذا وكذلك وجد بخط أحمد بن محمد بن عبد الحميد عمل ما يحمل إلى بيت المال
 ينفذ أيام المأمون من جميع النواحي قلتم من جراب الدولة (غلات السواد) سبع وعشرون ألف ألف
 درهم مرتين وثمناثة ألف درهم ومن الخلل النجارية مائتا حلة ومن طين الختم مائتان وأربعون رطلا
 ﴿كنكر﴾ أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وستائة ألف درهم ﴿كورد حلة﴾ عشرون ألف ألف
 درهم وثمانية دراهم ﴿حلوان﴾ أربعة آلاف ألف درهم مرتين وثمناثة ألف درهم ﴿الاهواز﴾ خمسة
 وعشرون ألف درهم مرة ومن السكر ثلاثون ألف رطل ﴿فارس﴾ سبعة وعشرون ألف
 ألف درهم ومن ماء الورد ثلاثون ألف رورة ومن الزيت الأسود عشرون ألف رطل ﴿كرمان﴾
 أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومائتا ألف درهم ومن انتاع الباني خمسمائة ثوب ومن التبر عشرون
 ألف رطل ﴿مكران﴾ أربعة آلاف درهم مرة (السند وما يليه) أحد عشر ألف ألف درهم مرتين
 وخمسمائة ألف درهم ومن العود الهندي مائة وخمسون رطلا ﴿سجستان﴾ أربعة آلاف ألف درهم
 مرتين ومن الثياب المعينة ثلثمائة ثوب ومن القانيد عشرون رطلا ﴿خراسان﴾ ثمانية وعشرون ألف
 ألف درهم مرتين ومن نقر الفضة الفانقرة ومن البراذن أربعة آلاف ومن الرقيق ألف رأس ومن
 التاج عشرون ألف ثوب ومن الأهليلج ثلاثون ألف رطل ﴿جرجان﴾ اثنا عشر ألف ألف درهم
 مرتين ومن الأبريسم ألف شقة ﴿قومس﴾ ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة ألف من نقر الفضة
 ﴿طبرستان والرويان ونهاوند﴾ ستة آلاف ألف درهم مرتين وثلاثمائة ألف ومن الفرش الطبري
 ستمائة قطعة ومن الأكرسية مائتان ومن الثياب خمسمائة ثوب ومن المناديل ثلثمائة ومن الجمامات ثلثمائة
 ﴿الري﴾ اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين ومن العسل عشرون ألف رطل ﴿ممدان﴾ أحد
 عشر ألف ألف درهم مرتين وثلثمائة ألف ومن رب الزمانين ألف رطل ومن العسل اثنا عشر ألف
 رطل (ما بين البصرة والكوفة) عشرة آلاف ألف درهم مرتين وسبعائة ألف درهم (ما بين

والدينار (١) أربعة آلاف ألف درهم مرتين (شهرزور) ستة آلاف ألف درهم مرتين وسبعائة ألف درهم (الموصل ومالها) أربعة وعشرون ألف ألف درهم مرتين ومن العسل الأبيض عشرون ألف ألف رطل (أذربيجان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين (الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات) أربعة وثلاثون ألف ألف درهم مرتين ومن الرقيق ألف رأس ومن العسل اثنا عشر ألف رقب (٢) ومن البراة عشرة ومن الأوكسية عشرون ألف أرمينية ألف ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن القسط المحفور عشرون ومن الزرق خمسمائة وثلاثون رطلا ومن السائح السور مائة عشرة آلاف رطل ومن الصوبغ عشرة آلاف رطل ومن البغال مائتان ومن البيرة ثلاثون ألف فسرقي ألف أربعمائة ألف دينار ومن الزيت ألف حمل ألف دمشق ألف أربعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار ألف الأردن ألف سبعة وتسعون ألف دينار ألف فلسطين ألف ثلثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثلثمائة ألف رطل ألف مصر ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار ألف بركة ألف ألف درهم مرتين ألف أفريقية ألف ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن البسطمئة وعشرون ألف اليمن ألف ثلثمائة ألف دينار وسبعون ألف دينار سوي التتاع ألف الحجاز ألف ثلثمائة ألف دينار انتهى وأما الأندلس فالتى ذكره الثقات من مؤرخيها أن عبد الله بن الناصر خلف في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون حملها بالقناطر خمسمائة ألف قنطار * ورأيت في بعض تواريخ الرشيد أن الحمل إلى بيت المال في أيامه سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندئذ ولا في عصرك شيء من أمثاله فتضيق حوصلتك عند ملتقط الممكنات فكثير من الخواص إذا سمعوا أمثال هذه الأخبار عن الدول السالفة بادروا بالإنكار وليس ذلك من الصواب فإن أحوال الوجود والعمران متفاوتة ومن أدرك منهار تبة سفلى أو وسطى فلا يحصر المداير كلها فيها ونحن إذا اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بني العباس وبني أمية والعباسيين وناسبننا الصحيح من ذلك والذي لا شك فيه بالذي نشاهد من هذه الدول التي هي أقل بالنسبة اليها وجدنا فيها بونا وهو لما بينهما من التفاوت في أصل قوتها وعمران ممالكها فلا تارة كلها جارية على نسبة الأصل في القوة كما قدمناه ولا يسعنا إنكار ذلك عنها إذ كثير من هذه الأحوال في غاية الشبهة والوضوح بل فيها ما يلحق بالاستفيض والتواتر وفيها المعايير والمشاهد من آثار البناء وغيره فغذا من الأحوال المنقولة مراتب الدول في قوتها أو ضعفها وضخامتها أو صغرها واعتبر ذلك بما نقصه عليك من هذه الحكاية المستطرفة وذلك أنه دور دينار بعهده السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل ومن مشيخة

(١) قوله والدينار الظاهر أنها الدينور وفي الترجمة التركية مائتان وريان اهـ

(٢) قوله ومن البراة الخ في التركية ومن السكر عشرة مئاديق اهـ

طبيعة يعرف بابن بطوطة (١) كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى الشرق وتقلب في بلاد العراق
واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه واتصل بملكها لذلك
العبد وهو فيروز جوه وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بذهب المالكية في عمله ثم انقلب
إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عتاش وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بما لا يرض
وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتى من أحواله بما يستغربه السامعون مثل أن ملك
الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرس لهم رزق سنة
أشهر تدفع لهم من عطائه وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يرزقه الناس كافة في
محراة البلد ويطوفون به وينصب أمامه في ذلك الحقل من جنيفات على الظهر ترمى بها شكاير الترام
والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيواته وأمثال هذه الحكايات فتناجي الناس بتكذيبه * ولقيت
أيامئذ وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن وأريته إنكار أخبار
ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه فقال لي الوزير فارس إنك إن تسنكر مثل هذا من
أحوال الدول بما أنك لم تره فتكون كإبن الوزير الناشئ في السجن وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه
ومكث في السجن سنين يرى فيها ابنه في ذلك الحبس فلما أدرك وعقل سأل عن اللحم الذي كان تغذى به
فقال له أبوه هذا لحم الغنم فقال وما الغنم قبضها له أبوه بشيلتها وتوتمها فيقول يا أبت تراها مثل الفأر فينكر
عليه ويقول أين الغنم من الفأر وكذا في لحم الأبل والبقر إنهم يعاين في عيده من الحيوانات إلا الفأر
فيحبسها كلها أبناء جنس الفأر وهذا كثير ما يعتري الناس في الأخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة
عند قصد الغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الإنسان إلى أصوله وليكن مهيباً على نفسه
ويزاين طبيعة الممكن والمتع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل في نطاق الامكان قبله وما خرج
عنه رفضه وليس مرادنا الامكان العقلي انطلق فإن نطاقه أوسع شيء فلا يفرض حداً بين الوقعات
وإنما مرادنا الامكان بحسب المادة التي للشيء فإنا إذا أنظرنا أصل الشيء وجنسه وصفه ومقدار عظمته
وقوته أجرينا الحكم من نسبة ذلك على حواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه وقدر بزردي
علما وأنت أرحم الراحمين والله سبحانه وتعالى أعلم

١٩ فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصيته بالموالى والمصطنعين

(أعلم) أن صاحب الدولة إما يتم أمره كالقائد بقومه فهم عصابته وظهر أظه على شأنه وبهم يفرع
الخوارج على دولته ومنهم من يقدأ أعمال مملكته ووزارة دولته وجباية أمواله لا أنهم أعوانه على القلب
وشركاؤه في الأمر ومساعدوه في سائر معاته هذا مادام الظهور الأول للدولة كالقائد فإذا جاء الظهور
الثاني وظهر الاستبداد عنهم والانفراد بالجدود أقعهم عنه بالراح صاروا في حقيقة الأمر من بعض أعدائه

(١) كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانشأها سنة ٧٥٤ وهي عجبية وتختصرها نحو ٧ كرايس اه

واحتاج في مدافعهم عن الأمر وحدهم عن المشاركة إلى أولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهرهم عليهم ويتولاهم دونهم فيكونون أقرب إليه من سائرهم وأخص به قربا واصطناعا وأولى إشارا وجها لما أنهم يستميتون دونه في مدافعة قومه عن الأمر الذي كان لهم والرتبة التي ألقوها في مشاركتهم فيستخلصهم صاحب الدولة حينئذ ويخصهم بمزيد التكرمة والإيثار ويضم لهم مثل مالك كثير من قومه ويقدم جليل الأعمال والولايات من الوزارة والقيادة والحياة وما يختص به لنفسه وتكون خالصة له دون قومه من ألقاب الملكة لأنهم حينئذ أولياؤه الأقربون ونصحاؤه المخلصون وذلك حينئذ مؤذن باهتمام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها الفساد العصبية التي كان بناء القلب عليها ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان فيضطغنون عليه ويربصون به الدوائر ويعود وبال ذلك على الدولة ولا يطمع في رثتها من هذا الداء لأن ماضى يتأكد في الاعتقاد إلى أن بذهب وصحبا واعتبر ذلك في دولة بني أمية كيف كانوا إماما يستظهرون في حروبهم وولاية أعمالهم رجال العرب مثل عمرو بن سعد بن أبي وقص وعبيد الله بن زياد بن أبي سفيان والحجاج بن يوسف والمهلب بن أبي صفرة وخالد بن عبد الله القسري وابن هبيرة وموسى بن نصير وبلائ بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ونسر ابن سيار وأمثالهم من رجالات العرب وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيهم أيضا رجالات العرب فلما صارت الدولة للانفراد بالجهد وكبح العرب عن التناول للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبني سبل بن نوخت وبني طاهر ثم بني بويه وموالي الترك مثل بغاوصيف وأتاش وبالكناك وابن خلون وأمثالهم وغير هؤلاء من موالي العجم فنكون الدولة لغير من مبيدها واقع لغير من اجتلبه سنة الله في عباده والله تعالى أعلم

٣٠ فصل في أحوال الموالي والمصطنعين في الدول

إعلم أن المصطنعين في الدول يتفاوتون في الالتحام بصاحب الدولة بتفاوت قديمهم وحديثهم في الالتحام بصاحبها والسبب في ذلك أن المقصود في العصبية من المدافعة والغلبة إتمامهم بالنسب لأجل التناصر في ذوي الأرحام والقربى والتخاذل في الأجانب والعداء كما قدمنا من الولاية والمخالطة ياتر أو بالخلف تنزل منزلة ذلك لأن أمر النسب وإن كان طبيعيا قائما هو وهمي والمعنى الذي كان به الالتحام إنما هو العشرة والمدافعة وطول المارسة والسجية بالمرى والرضاع وسائر أحوال الموت والحياة وإذا حصل الالتحام بذلك جاءت القربة والتناصر وهذا ما شاهد بين الناس واعتبر مثله في الاصطناع فإنه يحدث بين الصنع ومن اصطنعه نسبة خاصة من الوصلة تنزل هذه منزلة وتؤكد كد المحبة وإن لم يكن نسب فشرارة النسب موجودة فإذا كانت هذه الولاية بين القبيل وبين أوليائهم قبل حصول الملك لهم كانت عروقتهم أوثق وعقائدها أصح ونسبها أصرح لوجوب أحدهما أن يملك أسوة في حاله فلا يتمر النسب عن الولاية إلا اعتدال أقل منهم فيتلون منهم منزلة ذوي قرابتهم وأهل أرحامهم وإذا اصطنعوا هم

بعد الملك كانت مرتبة الملك مميزة للسيد عن المولى ولأهل القرابة عن أهل الولاية والاصطناع لما
نفسه أحوال الرئاسة الملك من غير الرتب وتفاوتها فتميز حالاتهم وينزلون منزلة الأتباع ويكون
الاتهام بينهم أضعف والتأثير لذلك أبعد وذلك أنقص من الاصطناع قبل الملك * الوجه الثاني أن
الاصطناع قبل الملك يعد هذه عن أهل الدولة بطول الزمان ونحفي شأن تلك اللحمة ويظن بها في
الأكثر النسب فيقوى حال العصبية وأما بعد الملك فيقرب العهد ويستوي في معرفته إلا أكثر
فتبين اللحمة وتميز عن النسب فتضعف العصبية بالنسبة إلى الولاية التي كانت قبل الدولة واعتبر
ذلك في الدول والرياسات فكل من كان اصطناعه قبل حصول الرئاسة والملك لمصطنعه تجده
أشد التحاماً به وأقرب قرابة إليه وينزل منه منزلة أبنائه وإخوانه وذوي رحمته من كان اصطناعه
بعد حصول الملك والرئاسة لمصطنعه لا يكون له من القرابة واللحمة الأولين وهذا ما شاهد بالعيان
حتى إن الدولة في آخر عمرها ترجع إلى استمالة الأتباع واصطناعهم ولا يبنى لهم عهد كما بناء المصطنعون
قبل الدولة لتقرب العهد حينئذ بأوليهم مشاركة الدولة على الانقراض فيكونون منحطين في مباوئ
الضعة وإنما يحمل صاحب الدولة على اصطناعهم والعدول إليهم عن أوليائهم الأقدمين وصنائعها
الأوليين ما يعترهم في أنفسهم من العزة على صاحب الدولة وفلة الخضوع له ونظرة ما ينظره به
قبيله وأهل نسله ثماً كد اللحمة منذ العصور المتطاولة بالمرى والاتصال بأبائهم وسلف قومهم والنظام
مع كبار أهل بيته فيحصل لهم بذلك دالة عليه واعزاز فينا فروع بسببها صاحب الدولة ويعدل عنهم
إلى استمالة سواهم ويكون عهد استخلاصهم واصطناعهم قريباً فلا يبلغون رتب الخدم ويتقنون على
حالهم من الخارجية وهكذا شأن الدول في أواخرها وأكثر ما يطلق اسم الصائغ والأولياء على
الأوليين وأما هؤلاء المحدثون فخدم وأعوان والله ولي وهو على كل شيء وكيل

٢١ فصل فيما يمرض في الدول من حجب السلطان والاستبداد عليه

إذا استقر الملك في نصائب معين ومنبت واحد من القبيل القائمين بالدولة وانغردوا به ودفعوا
سائر القبيل عنه وتداوله بنوع واحد بعد واحد بنحسب الترشيع فربما حدث التغلب على انتسب من
وزرائهم وحاشيتهم وسببه في الأكثر ولاية من صغير أو مضعف من أهل البيت يترشح للولاية
بعد أبيه أو يترشح ذويه وخوله ويؤنس منه العجز عن القيام بالملك فيقوم به كافلهم من وزراء أبيه
وحاشيته ومواليه أو قبيله ويؤري بحفظ أمره عليه حتى يؤنس منه الاستبداد ويحعل ذلك ذريعة للملك
فيحجب الصبي عن الناس ويعوده الملكات التي يدعوها إليها ترف أحواله ويسيمه في براعها متى أمكنه
وينسبه النظر في الأمور السلطانية حتى يستبد عليه وهو بما عوده يعتقد أن حظ السلطان من الملك
إنما هو جلوس السرير وإعطاء الصققة وخطاب التهويل والعقود مع النساء خلف الحجاب وأن الحل
والربط والأمر والنهي ومباشرة الأحوال الملوكية وتفقد هام من النظر في الجيش والملك والشعور إنما

هو الوزير ويسمى في ذلك إلى أن تستحكم له صفة الرئاسة والاستبداد وينحول الملك إليه ويؤثر به
عشيرة تدعى أبناء من بعده كما وقع لخير بنوهم والترنوكافور الأخشيدي وغيرهم بالشرق والفسور بن
أبي عامر بالأندلس وقد يفتضح ذلك المحجور المقلب لشأنه فيحاول على الخروج من رتبة الحجر
والاستبداد ويرجع الملك إلى ضلله ويضرب على أيدي الثغلبين عليه إما بقتل أو برفع عن الرتبة فقط
الأن ذلك في النادر الأقل لأن الدولة إذا أخذت في تغلب الوزراء والأولياء استمر لها ذلك وقل
أن يخرج عنه لأن ذلك إنما يوجد في الأقل كثر عن أحوال الترف ونشأة أبناء الملك منغمسين في
نعيمة قد نسوا عهد الرجولة وألفوا أخلاق البدايات والأغيار ورهبوا عليهم فلا يزعجون إلى رئاسة ولا
يعرفون استبداد من تغلب إنما عهيم في القنوع بالآبهة والتغلب في اللذات وأنواع الترف وهذا التغلب
يكون للموالي والمخدومين عند استبداد عشير الملك على قومهم والفراد عبيد وتهم وهو عارض للدولة
ضروري كخدماء وهران مرصان لا يبرء للدولة منهما إلا في الأقل النادر والله يؤتي ملكه من
يشاء وهو على كل شيء قدير

٢٢ فصل في أن الثغلبين على السلطان لا يشاركونه في لقب الخاص بالملك

وذلك أن الملك والسلطان حصل لأوليه منذ أول الدولة بعصبة قومه وعصيته التي استبغتهم
حتى استحكمت له ولقومه صفة الملك والقب وهي لم تزل باقية وبها انحفظ رسم الدولة بقاؤها وهذا
التغلب وإن كان صاحب عصبة من قبيل الملك أو الموالى والصانع فعصيته مندرجة في عصبة أهل
الملك وتابعة لها وليس له صفة في الملك وهو لا يحاول في استبداده انتزاع الملك ظاهرا وإنما يحاول
انتزاع غرائبه من الأمور التي والحل والعقد والإبرام والنقض يوم فيها أهل الدولة أنه متصرف عن
سلطانه متنفذ في ذلك من وراء الحجاب لا حكمه فهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته وألقابه جده
ويبعد نفسه عن التهمة بذلك وإن حصل له الاستبداد لأنه مستتر في استبداده ذلك بالحجاب الذي
ضربه أو ولوه على نفيهم عن القبيل منذ أول الدولة ومغالط عنه بالتأية ولو تعرض لشيء من ذلك
لنفسه (١) عليه أهل العصبة وقبيل الملك وحاولوا الاستئثار به دونه لأنه لم تستحكم له ذلك صفة
تعملهم على التسليم له ولا تضاد قبيلك لأول وهلة وقد وقع مثل هذا لعبد الرحمن بن الناصر بن المنصور
ابن أبي عامر حين سأل إلى مشاركة هشام وأهل بيته في لقب الخلافة ولم يقع بموافق بدأ به وأخوه من
الاستبداد بالحل والعقد والمراسم المتابعة فطلب من هشام خليفته أن يعهد له بالخلافة فنفس ذلك
عليه بنو مروان وسائر قریش وبايعوا لابن عم الخليفة هشام محمد بن عبد الجبار بن الناصر وخرجوا
عليهم وكان في ذلك خراب دولة العامريين وهلاك المؤيد خليفته واستبدل منه سواء من أعيان
الدولة إلى آخرها واختلت مراسم ملكهم والله خير الوارثين

(١) قوله لنفسه بفتح اللام والشون وكسر الفاء يقال نفس عليه الشيء كقبح لم يره أهله كافي القاموس

الملك منصب طبيعي للإنسان لا ثبات له بيننا أن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم إلا باحتياجهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضروراتهم وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات ومد كل واحد منهم يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض ويمنعه الآخر عنها بمقتضى الغضب والآفة ومقتضى القوة البشرية في ذلك فيقع التنازع المفضي إلى المقاتلة وهي تؤدي إلى المهرج وسفك الدماء وازدهاب النفوس المفضي ذلك إلى انقطاع النوع وهو مما خصه الباري سبحانه بالمحافظة فاستحال بقاؤهم فوضي دون حاكم يزع بعضهم عن بعض واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع وهو الحاكم عليهم وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم ولا بد في ذلك من العصبية لما قدمناه من أن المطالبات كلها والمدافعات لا تتم إلا بالعصبية وهذا الملك كمن تراه منصب شريف تتوجه نحوه المطالبات ويحتاج إلى المدافعات ولا يتم شيء من ذلك إلا بالعصبية كأمير والعصبية متفاوتة وكل عصبية فليها حكم وتقلب على من يليها من قومها وعشيرها وليس الملك لكل عصبية وإنما الملك على الحقيقة من يستعبد الرعية ويعي الأموال ويعت البعوث ويعمى الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة وهذا معنى الملك وحقيقته في المشهور فمن قصرت به عصبية عن بعضها مثل حماية الثغور أو جباية الأموال أو يعت البعوث فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته كما وقع لكثير من ملوك البربر في دولة الأغالية بالقيروان وملوك العجم صدر الدولة العباسية ومن قصرت به عصبية أضعاف الاستعلاء على جميع العصبية والضرب على سائر الأيدي وكان فوقه حكم غيره فهو أيضا ملك ناقص لم تتم حقيقته وهؤلاء مثل أمراء النواحي ورؤساء الجهات الذين يجمعهم دولة واحدة وكثيرا ما يوجد هذا في الدولة المتسعة النطاق أعني توجد ملوك على قوسهم في النواحي القاصية يدينون بطاعة الدولة التي جمعهم مثل ضيافة مع العبيدين وزنات مع الأمويين نارة والعبيدين نارة أخرى ومثل ملوك العجم في دولة بني العباس ومثل أمراء البربر وملوكهم مع الفرنجة قبل الإسلام ومثل ملوك الطوائف من الفرس مع الاسكندر وقومه اليونانيين وكثير من هؤلاء فاعتبره بحجده والله القاهر فوق عباده

اعلم أن مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله أو ملاحه وجهه أو عظم جثثانه أو اتساع أوجوده خطه أو تقوى ذهنه وإنما مصلحتهم فيه من حيث إضافته إليهم فإن الملك والسلطان من الأمور الإضافية وهي نسبة بين متبنيين حقيقة السلطان أنه المالك للرعية القائم في أمورهم عليهم فالسلطان من له رعية والرعية من لها سلطان والصفة التي لها من حيث إضافته لهم هي التي تسمى الملكة وهي كونه يملكهم فإذا كانت هذه الملكة وتوايعها من الجودة فكان حصل المقصود

من السلطان على أتم الوجوه فأنهم إن كانت جميلة صالحة كان ذلك مصلحة لهم وإن كانت سيئة متعفة كان ذلك ضررا عليهم وأهلا كلهم ويعود حسن الملكة إلى الرفق فإن الملك إذا كان قاهرا باطشا بالعقوبات متعبا عن عورات الناس وتعدد ذنوبهم شلهم الخوف والتزل ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة فتخلقوا بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم وورعاً خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النبات وورعاً أجمعوا على قتله لذلك ففسد الدولة ونحرب السياج واندام أمره عليهم وقهره ففسدت العصبية ناقضوا أولاً وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية وإذا كان رفيقا بهم متجاوزا عن سيئاتهم استنابوا إليه ولاذوا به وأشرى بواجبه واستأنوا دونه في عمارة أعدائه فلستقام الأمر من كل جانب وأما تواضع حسن الملكة فهي النعمة عليهم والمدافعة عنهم فللمدافعة بها تم حقيقة الملك وأما النعمة عليهم والاحسان لهم فمن جملة الرفق بهم والنظر لهم في معاشهم وهي أصل كبير في التحبب إلى الرعية وأعلم أنه قلما تكون ملكة الرفق فيمن يكون يقظا شديدا الذكاء من الناس وأكثر ما يوجد الرفق في الغفل والمتغفل وأقل ما يكون في اليقظ أنه يكلف الرعية فوق طاقتهم لنفوذ نظره فيما وراء مداركهم وإطلاعه على عواقب الأمور في مبادئها بأمنيته فهل يكون لذلك قال صلى الله عليه وسلم سيرا على سير أضعفكم ومن هذا الباب اشتراط الشارع في الحاكم قلة الأفراس في الذكاء ومأخذه من قصة زياد بن أبي سفيان لما عزلته عمر عن العراق وقال لم عزلتني يا أمير المؤمنين ألعجز أم الخيانة فقال عمر لم أعزلك نواحدة منهما ولكني كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس فأخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مفرد الذكاء والكيس مثل زياد بن أبي سفيان وعمر و ابن العاص لما يتبع ذلك من التعسف وسوء الملكة وحمل الوجود على ما ليس في طبعه كما يأتي في آخر هذا الكتاب والله خير المالكين وتقرر من هذا أن الكيس والذكاء عيب في صاحب الباسة لأنه أفرط في الفكر كما أن البلادة أفرط في الجود والطرفان مذمومان من كل صفة إنسانية والمحمود هو التوسط كما في الكرم مع التذبر والبخل وكافي الشجاعة مع الهوج والجنون وغير ذلك من الصفات الإنسانية ولهذا يوصف الشديد الكيس بصفات الشيطان فيقال شيطان ومتشيطان وأمثال ذلك والله يخلق ما يشاء وهو العليم القدير

٢٥ فصل في معنى الخلافة والامامة

لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية كانت أحكام صاحبه في الغالب جائزة عن الحق بحجة بمن تحت يده من الخلق في أحوال دنياهم لحله إياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من أغراضه وشهواته ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم فتعسر طاعته لذلك وتجيء العصبية المفضية إلى المخرج والقتل فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة عليها السكافة وينقادون إلى أحكامها كما كان ذلك

للقوم وغيرهم من الأمم وإذا دخلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ولا يتم أسبيلها ولا تستأنس الله في الدين خلوا من قبل فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يشررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنا وفي الآخرة وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فأنها كلها عبس وباطل إذ غلبها الموت والفناء والله يقول أحببتم أنا خلقناكم عبثا فأنتم تصودهم إنما هو دينهم المنقضى إلى السعادة في آخرتهم صراط الله الذي له مافي السموات ومافي الأرض فجاءت الترائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الانساني فأجرتهم على منهاج الدين ليكون الكل مو طاب نظر الشارع فما كان منه يقتضي القبر والنقلب وإهمال القوة والفضيلة في مرعاها فغور وعدوان ومذموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السياسية وما كان منه يقتضي السياسة وأحكامها فمذموم أيضا لأنه نظر بغير نور الله ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور لأن الشارع أعلم بمصالح الكفاة فيها هو مفيد عنهم من أمور آخرتهم وأعمال البشر كلها ثمة عليهم في معادهم من ملك أو غيره قال صلى الله عليه وسلم إنما هي أعمالكم ترد عليكم وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فوجب مقتضى الشرائع حمل الكفاة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم وكان هذا الحكم لا أهل الشريعة وقالوا نبأه ومن قدم فيه مقامهم وهم الخلفاء فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة وأن الملك الطبيعي هو حمل الكفاة على مقتضى الغرض والنبوة والسياسة هو حمل الكفاة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار والخلافة هي حمل الكفاة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الآخروية والدنيوية الراجعة إليها إذا أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا يدقاهم ذلك واعتبره فيما نوره عليك من بعد والله الحكيم العظيم

٢٦ فصل في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب وشروطه

وإذا قد بينا حقيقة هذا المنصب وأنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وإمامة وإمامهم به خليفة وإماما فاما تسميته إماما فتشبه بإمام الصلاة في اتباعه والافتدائه به ولهذا يقال الإمامة الكبرى وأما تسميته خليفة فليكونه خلف النبي في أمته فيقال خليفة باطلاق وخليفة رسول الله واختلف في تسميته خليفة الله فأجازه بعضهم اقتباسا من الخلافة العامة التي للآدميين في قوله تعالى إني جاعل في الأرض خليفة وقوله جعلكم خلائف الأرض ومنع الجمهور منه لأن معنى الآية ليس عليه وقد نهى أبو بكر عنه لما دعى به وقال لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأن الاستخلاف إنما هو في حق الغائب وأما الحاضر فلا ثم إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي

الله عنه وتسليم النظر اليه في أمورهم وكذا في كل عصر من بعد ذلك ولم تترك الناس قوضي في عصر من
الأعصار واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام وقد ذهب بعض الناس إلى أن مدرك وجوبه
العقل وأن الإجماع الذي وقع إنما هو قضاء بحكم العقل فيه قالوا وإنما وجب العقل لضرورة الاجتماع للبشر
واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين ومن ضرورة الاجتماع التنازع لضرورة الاجتماع لا غرض فإما يمكن
الحاكم الوازع أفضى ذلك إلى المخرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد
الشرع الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظه الحكماء في وجوب النبوات في البشر وقد نبهنا على
فساده وأن إحدى مقدماته أن الوازع إنما يكون بشرع من الله تسليماً له الكفاية تسليماً إيماناً واعتقاداً وهو
غير مسلم لأن الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوك ولو لم يكن شرع كافياً أم الخبوس وغيره
عن ليس له كتاب أو لم يبلغه الدعوة أو نقول يمكن في رفع التنازع معرفة كل واحد بنحره الشرع عليه حكم
العقل فادعاهم أن ارتفاع التنازع إنما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الإمام هناك صحيح بل كما يكون
بنصب الإمام يكون بوجود الزعماء أهل الشوك أو بامتناع الناس عن التنازع والتظلم فلا ينقض دليلهم
العقل المبني على هذه المقدمة قبل على أن مدرك وجوبه إنما هو بالشرع وهو الإجماع الذي قد صدق
شذبه بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النص رأساً لا بالعقل ولا بالشرع منهم الأصم من المعزلة وبعض
الخوارج وغيرهم والواجب عند هؤلاء إنما هو إفتاء أحكام الشرع فإذا توافقت الأمة على العدل
وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج إلى إمام ولا يجب نصبه وهذا صحيح وجوبه بالإجماع والذي حملهم على
هذا المذهب إنما هو الفرار عن الملك ومذهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالديناميات أو
الشرعية بمنزلة يمد ذلك والتمني على أهله ومرغبة في رفضه واعلم أن الشرع لم يمد الملك لذاته ولا حظ
القيام به وإنما ذم الفاسد الناشئ عنه من القهر والظلم والتمتع بالذات ولا شك أن في هذه مفسدات عظيمة
وهي من توابعه كما أتى على العدل والصفحة وإقامة مراسم الدين والذب عنه وأوجب بازائها الثواب وهي
كلها من توابع الملك فإذا إنما وقع الذم للملك على صفة وحال دون حال أخرى ولم ينم لذاته ولا طلب تركه
كأذى الشهوة والغضب من المكلفين وليس مراده تركهما بالكيفية لدعاية الضرورة إنما المراد
تصريفها على مقتضى الحق وقد كان داود وسليمان سلوات الله وسلامه عليهما الملك الذي لم يكن لغيرهما
وهما من أنبياء الله تعالى وأكرم الخلق عنده ثم يقول لهم إن هذا الفرار عن الملك بعدم وجوب هذا
النصب لا يغنيكم شيئاً لأنكم موافقون على وجوب إقامة أحكام الشريعة وذلك لا يحصل إلا بالعصية
والشوك والعصية مقتضية بطبعها الملك فيحصل الملك وإن لم ينصب إمام وهو عين ما قررتم عنه وإذا
قرر أن هذا النص واجب بالإجماع فهو من فروض الكفاية وراجع إلى اختيار أهل العقد والحل
فيتين عليهم نصبه ويجب على الخلق جميعاً طاعته لقوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر
منكم وأما شروط هذا النص فهي أربعة العلم والعدالة والكفاية وسلامة الخوارج والأعضاء بما
يؤثر في الرأي والعمل واختلف في شرط خامس وهو النسب انفرش فأما شرط العلم فظاهر لأنه إنما

يكون متفذاً لا يحكم الله تعالى إذا كان علانها ومالم يعلمها لا يصح تقديمه لها ولا يكتفى من العلم إلا أن يكون مجتهداً لأن التقليد نقص والامامة تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال وأما العدالة فلا أنه منصب ديني ينظر في سائر المناصب التي هي شرط فيها فكان ولي أباشتر أخها فيه ولا خلاف في انتماء العدالة فيه بنسب الجوارح من ارتكاب المخطورات وأمثالها وفي انتفاؤها بالبيع الاعتقادية خلاف وأما الكفاية فهو أن يكون جريئاً على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيرابها كغيا لا يحمل الناس عليها عاراً فالعصبية وأحوال الدهاء قوي على معاناة السياسة ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين وجهاد العدو وإقامة الأحكام وتدير المصالح وأما سلامة الخواص والأعضاء من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصمم والخرس وما يؤثر فقده من الأعضاء في العمل كفقده البدين والرجلين والاثنتين فتشترط السلامة منها كلها التأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل إليه وإن كان إعايشين في النظر فقط كفقده إحدى هذه الأعضاء بشرط السلامة منه شرط كمال ويلحق بفقدان الأعضاء المتع من التصرف وهو ضربان ضرب يلحق بهذه في اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرف جملة بالأسر وشبهه وضرب لا يلحق بهذه وهو الحجر باستيلاء بعض أعوانه عليه من غير عصيان ولا مشاققة فينتقل النظر في حال هذا المستولي فإن جرى على حكم الدين والعدل وحيد السياسة جاز أقراره وإلا استنصر المسلمون من يقبض يده عن ذلك ويدفع عنته حتى ينفذ فعل الخليفة وأما النسب الفرشي فلا جماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك واحتجت قریش على الانتصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عباد وقاتوا من أمير ومنكم أمير بقوله صلى الله عليه وسلم الأئمة من قریش وبأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصانا بأن نحسن إلى عسكم وتجاوز عن مسيئكم ولو كانت الامارة فيكم لم تكن الوصية بكم فجاءوا الانتصار ورجعوا عن قولهم من أمير ومنكم أمير وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة سعد لذلك وثبت أيضاً في الصحيح لا يزال هذا الأمر في هذا الحلى من قریش وأمثال هذه الأدلة كثيرة إلا أنه ناضعف أمر قریش وتلاشت عصبيتهم بتألمهم من الترف والنعيم وبما تفقتهم الدولة في سائر أقطار الأرض عجزوا بذلك عن حمل الخلافة وتغلبت عليهم الأعاجم وصار الحل والعقد لهم فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا إلى نفي اشتراط القرشية وعولوا على ظواهر في ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذو زينة وهذا لا تقوم به حجة في ذلك فإنه خرج غرض التمثيل والقرض للمبالغة في إيجاب السمع والطاعة ومثل قول عمر لو كان سالم مولى خديجة حياً لوليت أه أو ما دخلتني فيه الفطنة وهو أيضاً لا يفيد ذلك لما علمت أن مذهب الصحابي ليس بحجة وأيضاً فمولى القوم منهم وعصبية الولاء حاصلة لسالم في قریش وهي الفائدة في اشتراط النسب ولما استعظم عمر أمر الخلافة ورأى شروطها كأنها مفقودة في ظنه عدل إلى سالم لتوفر شروط الخلافة عنده فيه حتى من النسب المفيد للعصبية كما قد كروا يبقوا لإصرار النسب فرآه غير محتاج إليه إذ الفائدة في النسب إنما هي العصبية وهي حاصلة من الولاء فكان ذلك حرصاً من عمر رضي

الله عنه على النظر للمسلمين وتقليد أمرهم لمن لا تلحقه فيه لائمة ولا عليه فيه عهدة ومن القائلين بنى
 اشتراط القرشية القاضي أبو بكر الباقلائي لما أدرك عليه عصبية قریش من الثلاثي والاضمحلال
 واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فأسقط شرط القرشية وإن كان موافقا لرأي الخوارج لما رأى
 عليه حال الخلفاء بعده وبقى الجمهور على القول باشتراطها وصحة الامامة للقرشي ولو كان عاجزا عن القيام
 بأمور المسلمين ورد عليهم سقوط شرط الكفاية التي يقوي بها على أمره لأنه إذا ذهبت الشوكة بذهاب
 العصبية فقد ذهبت الكفاية وإذا وقع الاختلال بشرط الكفاية تطرق ذلك أيضا إلى العلم والدين
 وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الإجماع ولتكم الآن في حكمة اشتراط النسب ليتحقق
 به الصواب في هذه المذاهب فنقول أن الأحكام الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد وحكم تشمل عليها
 وتشرع لأجلها ونحن إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه لم يقتصر
 فيه على التبرك بوصلة النبي صلى الله عليه وسلم كما هو في المشهور وإن كانت تلك الوصفة موجودة والتبرك
 بها حاصل لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت فلا بد إذن من المصلحة في اشتراط النسب
 وهي المقصودة من مشروعيها وإذا سبرنا وقسمنا ثم نجد هذا الاعتبار العصبية التي تكون بها الحماية
 والمظالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن إليه الملة وأهلها وينتظم
 حبل الألفة فيها وذلك أن قریشا كانوا عصبية مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم وكان لهم على سائر مضر
 العزة بالكثرة والعصبية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لعلمهم فلو جعل
 الأمر في سواهم لتوقع إفراق الكلمة بمخالفتهم وعدم إقبالهم ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردم
 عن الخلاف ولا يحملهم على الكثرة فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة والشارع مخذوم من ذلك حريص على
 اتفاقهم ورفع النزاع والشتات بينهم لتحصل الوحدة والعصبية وتحسن الحماية بخلاف ما إذا كان الأمر في
 قریش لأنهم قادرون على سوق الناس بعض الغلب إلى ما يرايد منهم فلا يخشى من أحد خلاف عليهم ولا فرقة
 لأنهم كفايون حينئذ يدفعها ومنع الناس منها فاشترط نسبها للقرشي في هذا المنصب وهم أهل العصبية القوية
 ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة وإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع فأذن
 لهم سائر العرب واتحادت الأمم سواهم إلى أحكام الملة ووطئت جنودهم قاصبة البلاد كما وقع في أيام الفتوحات
 واستمر بعدها في الدولتين إلى أن اضمحل أمر الخلافة وتلاشت عصبية العرب ويعلم ما كان لقریش من
 الكثرة والتغلب على بطون مضر من مارس أخبار العرب وسيرهم وتفطن لذلك في أحوالهم وقد ذكر
 ذلك ابن اسحاق في كتاب السير وغيره فإذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع النزاع بما كان لهم
 من العصبية والغلب علمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بحيل ولا عصر ولا أمة علمنا أن ذلك إنما هو من
 الكفاية فرددناه إليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية فاشترطنا في
 القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية غالبية على من معها لعصرها ليستبوعوا من سواهم
 وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ولا يعلم ذلك في الأقطار والآفاق كما كان في القرشية إذ الدعوة الإسلامية

التي كانت لهم كانت عامة وعصية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الأمم وإنا نخشى لهذا العبد كل فطر
 من تكون له فيه العصية الغالبة وإذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا لا تمسح حانه إنا جعل الخليفة غالباً
 عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا مخاطب
 بالأمر إلا من له قدرة عليه ألا ترى ما ذكره الامام ابن الخطيب (١) في شأن النساء وأنهن في كثير
 من الأحكام الشرعية جعلن تبعاً للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع وإنا دخلن عنده بالقياس وذلك
 لما لم يكن لهن من الأمر شيء وكان الرجال قوامين عليهن اللهم إلا في العبادات التي كل أحد فيها قائم على
 نفسه فخطبهن فيها بالوضع لا بالقياس ثم أن الوجود شاهد بذلك بأنه لا يقوم بأمرأة أو جيل إلا من
 غلب عليهم وقل أن يكون الأمر الشرعي مخالفاً للأمر الوجودي والله تعالى أعلم

٢٧ ﴿ فصل في مذهب الشيعة في حكم الإمامة ﴾

(اعلم) أن الشيعة لغة هم أصحاب الأتباع ويطلق في عرف الفقهاء والمنكلمين من الخلف والسلف
 على أتباع علي وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعاً متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي
 تنوِّض إلى نظر الأمة وتعين القائم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز زلزالها
 ولا نقوضها إلى الإمامة بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوماً من الكبار والصغار وأن علياً رضي
 الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها
 جهابذة السنة ولا نقاة الشيعة بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة
 وتنقسم هذه النصوص عندنا إلى حلي وخفي فالجلي مثل قوله من كنت مولاه فعلي مولاه قالوا ولم تطرد
 هذه أو لا بد إلا في علي ولهذا قيل له عمر أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة ومنها قوله أفضاكم علي ولا معنى
 للإمامة إلا القضاء بأحكام الله وهو المراد بأولي الأمر الواجبة طاعتهم بقوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول
 وأولي الأمر منكم والمراد الحكم والقضاء ولهذا كان حكماً في قضية الإمامة يوم السقيفة دون غيره ومنها
 قوله من يبايعني على روحه وهو وصي وولي هذا الأمر من بعدى فلم يبايعه إلا علي ومن الحق عندنا
 بعث النبي صلى الله عليه وسلم علياً لقراءة سورة براءة في الموسم حين أزلت فانه بعث بها أولاً بأبكر ثم
 أوحى إليه ليبلغه رجل منك أو من قومك فبعث علياً ليكون القاري بالبلغ قالوا وهذا يدل على تقديم
 علي وإضافته يعرف أنه قدم أحد علي علي وأما أبو بكر وعمر فقدم عليهما في غزاتين أسامة بن زيد مرة
 وعمر بن العاص أخرى وكلها هذه أدلة شاهدة بتعيين علي بالخلافة دون غيره فمنها ما هو غير معروف
 ومنها ما هو بعيد عن تأويلهم ثم منهم من يرى أن هذه النصوص تدل على تعيين علي وتخصيصه وكذلك
 تنقل منه أن من بعده وهؤلاء الامامية ويترؤن من الشيخين حيث لم يقدموا علياً ويايعوه بمقتضى
 هذه النصوص ويعصون في أمامتهما ولا يلتفت إلى نقل القدر فيهما من غلاتهم فهو مردود عندنا

(١) قوله الامام ابن الخطيب هو الفخر الرازي قاله نصر الله

وعندهم ومنهم من يقول أن هذه الأدلة إنما اقتضت تعيين علي بالوصف لا بالشخص والناس مقصرون
حيث لم يضعوا الوصف موضعه وهؤلاء هم الزيدية ولا يبرؤون من الشيخين ولا يغمصون في إمامتهما
مع قولهم بأن علياً أفضل منهما لكنهم يجوزون إمامة الفصول مع وجود الأفضل ثم اختلفت بقول
هؤلاء الشيعة في مسائل الخلافة بعد علي فمنهم من ساقياقي ولد فاطمة بالنسب عليهم واحداً بعد واحد على
ما يذكر بعده هؤلاء يسمون الإمامية نسبة إلى عقالتهم باسقاط معرفة الإمام وتعيينه في الإيمان وهي
أصل عندهم ومنهم من ساقياقي ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيوع ويشترط أن يكون الإمام منهم
عالمًا زاهداً جواداً شجاعاً يخرج داعياً إلى إمامته وهؤلاء هم الزيدية نسبة إلى صاحب للذهب وهو
زيد بن علي بن الحسين السبط وقد كان يناظر أخاه محمداً التياقري على اشتراط الخروج في الإمام فيلزمه
البقرآن لا يكون أبو هارون العابدين إماماً لأنه لم يخرج ولا تعرض للخروج وكان مع ذلك يسعى عليه
مذاهب المعتزلة وأخذوا بها عن أصل بن عطاء ولما ناظر الإمامية زيداً في إمامة الشيخين ورأوه يقول
بإمامتهما ولا يبرأ منهما وفضوه ولم يجعلوه من الأئمة وبذلك سوا رافضة ومنهم من ساقياقي بعد علي
وابنيه السبطين على اختلافهم في ذلك إلى أنهما محمد بن الحنفية ثم الولد وهم الكيسانية نسبة إلى
كيسان مولاه وبين هذه الطوائف اختلافات كثيرة تركناها إختصاراً ومنهم طوائف يسمون
الغلاة تجاوزوا أحد العقل والإيمان في القول بالوحي هؤلاء الأئمة أمالي أنهم بشر انصفوا بصفات
الالوهية أو أن الاله حل في ذات البشرية وهو قول بالخلول يوافق مذهب النصاري في عيسى صلوات
الله عليه ولقد حرق علي رضي الله عنه بالنار من ذهب فيه إلى ذلك منهم وسخط محمد بن الحنفية المختار بن
أبي عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه فمسخ بلعنته والبراءة منه وكذلك فعل جعفر الصادق رضي الله تعالى
عنه بمن بلغه مثل هذا عنه ومنهم من يقول إن كمال الإمام لا يكون لغيرة فإذا مات انتقلت روحه إلى إمام
آخر ليكون فيه ذلك السكك وهو قول بالتناسخ ومن هؤلاء الغلاة من يقف عند واحد من الأئمة
لا يتجاوزوه إلى غيره بحسب من يعين لذلك عندهم وهؤلاء هم الواقفية فيعظمهم يقول هو حي لم تمت إلا أنه
غائب عن أعين الناس ويستشهدون لذلك بقصة الخضر قيل مثل ذلك في علي رضي الله عنه وأنه في
السحاب والرعد صوته والبرق في سوطه وقالوا مثله في محمد بن الحنفية وأنه في جبل رضوي من
أرض الحجاز وقال شاعرهم

ألا إن الأئمة من قريش * ولادة الحق أربعة سواء

علي والثلاثة من بنه * هم الأسياط ليس بهم خفاء

فسيط سبط إسمان وير * وسيط غيبة كربلاء

وسيط لا يذوق الموت حتى * يقود الجيش يقدمه اللواء

تغيب لا يرى فيهم زمانا * يرضوى عنده غسل وماء

وقال مثله غلاة الإمامية وخصوصاً الاثني عشرية منهم يزعمون أن الثاني عشر من أئمتهم وهو محمد

ابن الحسن العسكري وبلقبونه الهدى دخل في سرداب بدارم بالحلة ونقيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلاً يشيرون بذلك إلى الحديث الواقع في كتاب الترمذي في المهدي ومما إلى الآن ينتظرونه ويسمون المنتظر لذلك ويقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا فيقفون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشبك النجوم ثم يتفنون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية ومما على ذلك لهذا العهد بعض هؤلاء الواقفية يقول إن الامام الذي قاتل يرجع إلى حياته الدنيا ويشهد بذلك ما وقع في القرآن الكريم من قصة أهل الكهف والذي مر على قرية وقتل بنو إسرائيل حين ضرب بعظام البقرة التي أمروا بذبحها ومثل ذلك من الخوارق التي وقعت على طريق المعجزة ولا يصح الاستشهاد بها في غير مواضعها وكان من هؤلاء السيد الحميري ومن شعره في ذلك

إذا ما المرء شاب له قَدَالٌ * وعالله النواشط بالحطاب ^{دع}
فقد ذهبت بشاعته وأودي * فقم يا صاح نباك على الشاب
إلى يوم تؤب الناس فيه * إلى دنيا نحو قبل الحساب
فليس بعائد ما فات منه * إلى أحد إلى يوم الآيات ^{الهدى}
أدين بأن ذلك دين حق * وما أنا في النور بندي أرتاب
كذلك الله أخير عن أناس * حيوا من بعد درس في التراب

وقد كفنا مؤمنه هؤلاء الغلاة أئمة الشيعة قائمهم لا يقولون بها ويطلبون احتجاجاتهم عليها وأما الكشيانية فحاقوا الإمامة من بعد محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم وهؤلاء الهاشمية ثم افرقوا فذهب منهم من ساقها بعده إلى أخيه علي ثم إلى ابنه الحسن بن علي وآخرون يزعمون أن أباهاشم لما مات بارض السراة منصرفا من الشام أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم المعروف بالامام وأوصى إبراهيم إلى أخيه عبد الله بن الحارثية الملقب بالسفاح وأوصى هو إلى أخيه عبد الله أبي جعفر الملقب بالنصور وانتقلت في ولده بالنص والعبد واحد بعد واحد إلى آخرهم وهذا مذهب الهاشمية القاطنين بدولتين العباس وكان منهم أبو مسلم وسليمان بن كثير وأبو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية وربما يعضدون ذلك بأن حقهم في هذا الأمر يصل إليهم من العباس لأنه كان حيا وقت الوفاة وهو أولي بالوراثة بعصبة العمومة وأما الزيدية فحاقوا الإمامة على مذهبهم فيها وإنما باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص فقالوا بإمامة علي ثم ابنه الحسن ثم أخيه الحسين ثم ابنه علي بن العباس ثم ابنه زيد بن علي وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعيا إلى الإمامة فقتل وصلب بالكناسة وقال الزيدية بإمامة ابنه يحيى من بعده فمضى إلى خراسان وقتل بالجوزجان بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله بن حسن ابن الحسن البسط ويقال له النفس الزكية فخرج بالحجاز وتلقب بالمهدي وجاءته عساكر النصور فقتل وعبد إلى أخيه إبراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي فوجه إليهم النصور عساكره فهزم

وقتل إبراهيم وعيسى وكان جعفر الصادق أخيراً بذلك كله وهي معدودة في كراماته وذهب آخرون
 منهم إلى أن الإمام بعد محمد بن عبد الله النفس الزكية هو محمد بن القاسم بن علي بن عمرو وعمره هو أخو زيد
 ابن علي شرح محمد بن القاسم بالطائفتين قبض عليه وسبق إلى المنعصم فحبسه ومات في حبسه وقال آخرون
 من الزيدية أن الإمام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضر مع إبراهيم بن عبد الله في قتاله مع
 المنصور وثقلوا الإمامة في عقبه واليه انتسب دعي الزنج كما نذكره في أخبارهم وقال آخرون من الزيدية
 أن الإمام بعد محمد بن عبد الله أخوه إدريس الذي فر إلى المغرب ومات هناك وقام بامرء ابنه إدريس
 واختط مدينة فاس وكان من بعده عقبه ملوك بالمغرب إلى أن انقرضوا كما نذكره في أخبارهم وبقي
 أمر الزيدية بعد ذلك غير منظم وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان هو الحسن بن زيد بن محمد بن
 اسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط وأخوه محمد بن زيد ثم قام بهذه الدعوة في الديلم
 الناصر الأتروش منهم وأسلموا على يده وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمرو وعمره هو أخو زيد
 ابن علي فكانت لديه بطبرستان دولة وتوصل الديلم من نسبهم إلى الملك والاستيلاء على الخلفاء ببغداد
 كما نذكر في أخبارهم وأما الإمامية فساقوا الإمامة من علي الرضا إلى ابنه الحسن بالتوصية ثم إلى أخيه الحسين
 ثم إلى ابنه علي بن زين العابدين ثم إلى ابنه محمد الباقر ثم إلى ابنه جعفر الصادق ومن هنا افرقتين فرقة
 ساقوها إلى ولده اسمعيل ويعرفونه بينهم بالإمام وهم الإسماعيلية وفرقة ساقوها إلى ابنه موسى الكاظم
 وهم الاثناعشرية ثوقوفهم عند الثاني عشر من الأئمة ثوقولهم بعقبته إلى آخر الزمان كما مر فاما الإسماعيلية
 فقالوا بإمامة اسمعيل الإمام بالنسب من أبيه جعفر وفاتمة النسب عليه عندهم وإن كان قد مات قبل أبيه فإمامه
 بقاء الإمامة في عقبه كعصاهرون مع موسى صلوات الله عليهما قالوا ثم انتقلت الإمامة من اسمعيل إلى ابنه
 محمد المكتوم وهو أول الأئمة الستورين لأن الإمام عندهم قد لا يكون له شوكة فيسترو تكون دعائه
 ظاهر بن إقامة الحجج على الخلق وإذا كانت له شوكة ظهر وأظهر دعوته قالوا أو بعد محمد المكتوم ابنه جعفر
 الصادق بعده ابنه محمد الحبيب وهو آخر الستورين وبعده ابنه عبد الله المهدي الذي أظهر دعوته أبو عبد الله
 الشيعي في كنامة وتابيع الناس على دعوته ثم أخرجه من معتقله بسجلماسة وملك القيروان والمغرب وملك
 بنوه من بعده مصر كما هو معروف في أخبارهم ويسمى هؤلاء الإسماعيلية نسبة إلى القول بإمامة اسمعيل
 ويسمون أيضاً بالباطنية نسبة إلى قولهم بالإمام الباطن أي السنور ويسمون أيضاً للحدة لما في ضمن
 مقالاتهم من الاتحاد ولهم مقالات فديعة ومقالات جديدة دعا إليها الحسن بن محمد الصباح في آخر المائة
 الخامسة وملك حصونا بالشام والعراق ولم تزل دعوته فيها إلى أن توزعها الفلأك بين ملوك الترك
 بمصر وملوك اثتر بالعراق فانقرضت ومقالة هذا الصباح في دعوته مذكورة في كتاب الملل والنحل
 لشهرستان وأما الاثناعشرية فرماخصوا باسم الإمامية عند التأخرين منهم فقالوا بإمامة موسى الكاظم
 ابن جعفر الصادق لوفاء أخيه الأئمة كبر اسمعيل الإمام في حياة أبيهما جعفر فنص على امامة موسى هذا
 ثم ابنه علي الرضا الذي عهد إليه بالأمن ومات قبله فلم يتم له أمر ثم ابنه محمد التقي ثم ابنه علي الهادي ثم ابنه

محمد الحسني العسكري ثم ابنه محمد المهدي المنتظر الذي قدمنا قبل وفي كل واحدة من هذه المقالات
للمشعة اختلاف كثير إلا أن هذه أشهر مذاهبهم ومن أراد استيعابها ومطالعها فعليه بكتاب الملل
والنحل لابن حزم والشهرستاني وغيرهما فيها بيان ذلك والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء
إلى صراط مستقيم وهو العلي الكبير

٤٨ ﴿ فصل في انقلاب الخلافة إلى الملك ﴾

اعلم أن الملك غاية طبيعية للعصية ليس وقوعه عنها باختيار إنما هو ضرورة الوجود وترتيبه كما
قلناه من قبل وأن الشرائع والديانات وكل أمر يحصل عليه الجمهور فلا بد فيه من العصية إذ المطالبة
لأنهم إلا بها كما قدمناه فالعصية ضرورة للمصلحة بوجودها يتم أمر الله منها وفي الصحيح ما ثبت الله نبياً
إلا في منعة من قومه ثم وجدنا الشارع قد ذم العصية ونادى إلى إخراجها وتركها فقال إن الله أذهب
عنكم عيب الجاهلية (١) ونفخها بالآباء أتدبئو آدم وادم من تراب وقال تعالى إن أكرمكم عند الله
أتقاكم ووجدناه أيضاً قد ذم الملك وأهله ونفى على أهله أحوالهم من الاستمتاع بالخلاوة والأسراف
في غير التصد والتسكب عن صراط الله وانما حض على الأئمة في الدين وحذر من الخلاف والفرقة
واعلم أن الدنيا كلها وأحوالها عند الشارع مطية للأخرة ومن فقد المطية فقد أفسد سوله وليس مراده
فيما ينهي عنه أو يذمه من أعمال البشر أو يتدب إلى تركها هله بالسكينة أو اقتلاعها من أصلها وتعطيل القوى
التي يشأ عليها بالسكينة إنما قصده تصريفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة حتى تصبح المتعبد كلها
حقاً وتتحد أو جهة كما قلنا صلى الله عليه وسلم من كانت هجرة ته إلى الله ورسوله فحجته إلى الله ورسوله
ومن كانت هجرة ته إلى الدنيا يسبها أو امر أو تروجها فيجرت ته إلى ماهاجر اليه فلم يذم الغضب وهو يقصد
زعه من الإنسان فإنه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق وبطل الجهاد واعلاء كلمة الله
وانما يذم الغضب للشيطان وللأغراض الدنيوية فإذا كان الغضب لذلك كان الغضب في الله وفيه كان
ممدوحاً وهو من شبه الله صلى الله عليه وسلم وكذا ذم الشهوات أيضاً ليس المراد بطلانها بالسكينة فإن
من بطلت شهوته كان قصداً في حقه وإما المراد تصريفها فيما يبيح له باشتاله على المصالح ليكون الإنسان
عبداً متصرفاً بطوع الأمر الإلهية وكذا العصية حيث ذمها الشارع وقال لن تنفعكم أرحامكم
ولأولادكم فأما مراده حيث تكون العصية على الباطل وأحواله كما كانت في الجاهلية وأن يكون
لا حذر فيها أو حق على أحد لأن ذلك عبث من أفعال العقلاء وغير نافع في الآخرة التي هي دار
القرار فلما إذا كانت العصية في الخلق وإقامة أمر الله فأمر مطلوب ولو بطل لبطلت الشرائع إذا لم
قوامها إلا بالعصية كما قلناه من قبل وكذا الملك لما دفعه الشارع لم يذمه منه الغلب بالحق وقهر السكينة
على الدين ومراعاة المصالح وإنما ذمها فيه من التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الأغراض

(١) عية بضم العين وكسرهما وكسر الموحدة مشددة وتشديد الياء الكبير والفخر والنخوة اهـ

والشبهات كقوله كان الملك غاصبا في غلبه للناس أنه الله وخليفه على عبادة الله وجهاد عدوه
ثم يكن ذلك مذموما وقد قال سليمان صلوات الله عليه رب هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي
لما عزم من نفسه أنه يعزل عن الباطل في النبوة والملك وما لقي معاوية عمر بن الخطاب رضي الله عنهما
عند قدومه إلى الشام في أبيه الملك وزيه من العديد والعدة استنكر ذلك وقال أكرهية يا معاوية
فقال يا أمير المؤمنين أني نرى نجاه العدو وبنا إلى مباحاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة فصكت ولم يخطئه
لما اجتمع عليه بقصد من مقاصد الحق والدين فلو كان النصد في الملك من أصله يفتنه هذا الجواب
في تلك الكسروية وانتهاها بل كان عرض على خروجه عنها بالجملة وإنما أراد عمر بالكسروية ما كان
عليه أهل فارس في ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغى وسلبوا سلبوا الغلبة عن الله وأجابه معاوية
بأن القصد بذلك ليس كسروية فارس وباطلهم وإنما قصد به ما وجه الله فسكت وهكذا كان شأن الصحابة
في رفض الملك وأحوالهم ونيانهم والله حذرنا من التماسها بالباطل فلما استحضر رسول الله صلى الله
عليه وسلم استخلف أبا بكر على الصلاة إذ هي أهم أمور الدين وأرضاء الناس للخلافة وعمل الكفاية
على أحكام الشريعة ولم يخرج الملك ذكرنا أنه مظنة الباطل ونحوه يومئذ لأهل الكفر وأعداء الدين
فقام بذلك أبو بكر ما شاء الله من عاقبة صاحبه وقال أهل الردة حتى اجتمع العرب على الإسلام ثم عيّد
إلى عمر فقتل أثره وقال الأمم قتلهم وأذن للعرب في ارتداد ما بأيديهم من الدنيا والملك فغلبهم عليه
وانزعجوا منهم ثم صارت إلى عثمان بن عفان ثم إلى علي رضي الله عنهما والكل متبرؤن من الملك متكبون
عن طرقهم أكد ذلك الله بهم ما كانوا عليه من غشاة الإسلام وبدواة العرب فقد كانوا أبعاد الأمم عن
أحوال الدنيا وترغبوا إلى ما لا من حيث دينهم الذي يدعوهم إلى الرشد في النعيم ولا من حيث بدواتهم ومواظبتهم
وما كانوا عليه من خشونة العيش وشغلته التي ألفوه فممكن أمة من الأمم أسغب عيشا من مضربها
كانوا بالحجاز في أرض غير ذات زرع ولا صرع وكانوا ممنوعين من الأرياف وجبوا بالبعدها واختصاصها
بمن ولها من ربيعة واليمن فلم يكونوا يتناولون إلى خصبها ولقد كانوا كثير ما يأتون العقارب
والخنافس ويفخرون بأكل الطير وهو وبر الأبل يعبونه بالحجارة في الدم ويطيغونه وقربا من هذا
كانت حال قريش في مطاعهم وما كنهم حتى إذا اجتمعت عصبة العرب على الدين بما أكرمهم الله
من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم زحفوا إلى أم فارس والروم وطلبوا ما كتب الله من الأرض بوعد
مصدق فابتزوا ملكهم واستباحوا ديارهم فزحرت غمار الرفاهية بهم حتى كان الفارس الواحد يقسم له
في بعض الغزوات ثلاثون ألفا من الذهب أو نحوها فاستولوا من ذلك على ما لا يأخذها خسرهم ومع ذلك على
خشونة عيشهم فكان عمر رقع ثوبه بالجلود كان على يقول يا صفراء ويا بيضاء غري غري وكان أبو موسى
يتجافى عن أكل السمك لأنه لم يجد هذا للعرب لقلتها يومئذ وكانت المناخل مفعودة عند جملة وإنما
كانوا يأتون الحنطة بنخلها ومكاسهم مع هذا أنهم ما كانت لأحد من أهل العالم قال الشعبي في
أيام عثمان افتتحت الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف

در هو قسمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف إبلا وخيلا كثيرة وبلغ الثمن
 الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألف فرس وألف أمة وكانت غلة
 طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك وكان على مربي عبد الرحمن بن
 عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الربيع من متروكه بعد وفاته أربعة وعشرين
 ألفا وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالقوس غير ما خلف من الأموال والضياع
 بمائة ألف دينار وبني الزبير داره بالبصرة وكذلك بني بمصر والكوفة والاسكندرية وكذلك بني
 طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبنائها بالحبش والآجر والناج وبني سعد بن أبي وقص
 داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات وبني المقداد داره بالمدينة وجعلها
 بمصصة الظاهر والباطن وخلف يعلى بن ميثم خمسين ألف دينار وعقار وغير ذلك ما قيمته ثلثمائة ألف
 درهم كلام المحدثين فكانت مكاسب النجوم كآرامه ولم يكن ذلك من غير ما علمهم في دينهم اذ هي أموال حلال
 لا تمنعها غنائم وفيه ولم يكن تصرفهم فيها باسراف وإنما كانوا على قصد في أحوالهم كقلناه فيكون ذلك باقداح
 فيهم وإن كان الاستكثار من الدنيا من مافانما يرجع إلى ما أثرنا إليه من الاسراف والخروج به عن
 التقصير إذا كان حالهم قسدا ونفقانهم في سبل الحق ومذاهبه كان ذلك الاستكثار عونا لهم على طرق الحق
 واكتساب الدار الآخرة فلما تدرجت البدو والعضاضة إلى مهابتها وحذات طبيعة الملك التي هي مقتضى
 العصبية كقلناه وحصل التغلب والقهر كان حكم ذلك الملك عندهم حكما ذلك الرغبه والاستكثار من الأموال
 فلم يصرفوا ذلك التغلب في باطل ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب الحق ولما وقعت الفتنة بين علي
 ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في معارضة لهم لفرض دينوي
 أو لا يشار باطل أو لا يستعاض حقد كما قد ينوهم متوهم وينزع اليه ملحد وإنما اختلف اجتهدهم
 في الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق ففتلوا عليه وإن كان المصيب عليا فلم يكن
 معاوية قائما فيها بقصد الباطل إنما قصد الحق وأخطأ والكل كانوا في مقاصدهم على حق ثم اقتضت طبيعة
 الملك الاسراف بالجهد واستثثار الواحد به ولم يكن معاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو أمر
 طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من
 أتباعهم فاعتصموا به عليه واستأثروا دونه ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الاسراف بالامر
 لوقع في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتآلفها أهم عليهم من أمر ليس وراءه كبير غنا فلهذا وقد كان عمر بن
 عبد العزيز رضي الله عنه يقول إذا رأى القاسم بن محمد بن أبي بكر لو كان لي من الأمر شيء ملوئته الخلافة
 ولو أراد أن يعبد الله لفضل ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه فلا يقدر أن يحول
 الأمر عنهم لئلا تقع الفرقة وهذا كله إنما حمل عليه مناوغة الملك التي هي مقتضى العصبية فلذلك إذا حصل
 وفرضا أن الواحد انفرديه وصرفه في مذاهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك تكبير عليه ولقد انفرد
 سليمان وأبو داود صلوات الله عليهما بملك بني اسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك فيهم من الانفراد به

وكانوا ما علمت من النبوة والحق وكذلك عمده معاوية فإني يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية يرضون أسلم الامراتي من سوام فلو قد عهد الى غيره اختلفوا عليه مع أن ظنهم كان بهما لا حولاً ولا برتاباً أحدي ذلك ولا يظن معاوية غيره فلم يكن لعهد اليه وهو يعتدما كان عليه من الفسق جاثماً لله معاوية من ذلك وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وان كانوا ملوكاً فلم يكن منذهبهم في انلك مذهب أهل البطالة والنهي انما كانوا متحررين لمقاصد الحق جدهم الا في ضرورة تحصلهم على بعض ما مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والافتداء وما علم السلف من أحوالهم فقد احتج مالك في الموطن بعمل عبد الملك وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين وعدا لهم معرفة ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك وكانوا من الدين بالمسكان الذي كانوا عليه وتوسطهم عمر ابن عبد العزيز فخرج الى طريقة الخلفاء الأربعة والصحابية جيدة وانهم لم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري النصف فيها واعتداد الحق في مذاهبها فكان ذلك عماداً للناس الى أن فعوا عليهم أفعالهم وأدوا بالدعوة العباسية منهم وولي رجالها الأمر فكانوا من العدالة بمكان وصرفوا الملك في وجود الحق ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكل منهم الداع والظالم ثم أفضى الأمر الى بنينهم فاعطوا الملك والترف حقه وانعموا في الدنيا وباطلها وبدوا الدين وراءهم ظميراً فتأذن الله بحربهم وانزع الأمر من أيدي العرب جملة وأمكن سواهم منه والله لا يظلم مثقال ذرة ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم في تحري الحق من الباطل علم محقة ما قلنا وقد حكى المسعودي مثلاً في أحوال بني أمية عن أبي جعفر النضرور وقد حضر عموته وذكر واهب أمية فقال أما عبد الملك فكان جباراً لا يبالي بما صنع وأما سليمان فكان همه بطنه وفرجه وأما عمر فكان أعور بين عميان وكان رجل القوم هشام قال ولم يزل بنو أمية ضابطين بالميدان من السلطان يحوطونهم ويصونون ما وهب الله لهم متعمق تسبهم معالي الأمور ورفضهم دنياها حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم الترفين فكانت همهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله جهلاً باستدراجهم وأما مسكرهم مع إصرارهم صيانة الخلافة واستغنائهم بحق الرياسة وضعفهم عن السياسة فسلبهم الله العز واليهم التلذذ ونفي عنهم التعمق استحضروا عبد الله (١) ابن مروان فقص عليه خبره مع ملك التوبة فنادى له أوحه فإني أياك السباح قال أقت ملياً ثم أتاني ملكهم ففعد على الأرض وقد بسطت لي فرش ذات قيمة فقلت له ما منعك من التعود علي ثياباً فقال إني ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ أرفعه الله ثم قال لي لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم فقلت اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا قال فلم تظن أن الزرع بدوايكم والفساد عمرم عليكم قلت فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا فاجابهم قال فلم تلبسون اللباس والذهب والخمر وهو عمرم عليكم في كتابكم قلت ذهبنا

(١) قوله عبد الله كذا في النسخة التونسية وبعض النسخة وفي بعضها عبد الملك وأما نصيباً فانه نصر

الملك وانتصر فاقوم من العبيد دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكبر وما فأنطق يدكت يده في الأرض
ويقول عبدنا وأتباعنا وأما هم دخلوا في ديننا فمرفع رأسه إلى وقت ليس كذا كرت بل أتم قوم استحلتم
ما حرم الله عليكم وأتيتهم ما عنه نهىهم وظلمهم فيها لم يكنتم فسلبك الله العز واليكم اللذيل بذنوبكم ولقد قسمة
لم تبلغ غيتها فبكم وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأتم يندى فينا نبي معكم وإنما الخليفة ثلاث فتر واما المحت
إليه وار تحل عن أرضي فتعجب النصور وأطرق فقتلين لك كيف انقلب الخلافة إلى الملك وأن الأمر
كان في أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين وكانوا يؤثروا على أمور دينهم وإن أفضت
إلى هلاكهم وحدثهم دون الكفاة فبذا عيانا ما حصر في الدار جاهد الحسن والحسين وعبد الله بن عمرو
ابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومع من مثل السيوف بين المسلمين خافة الفرقة وحفظا
للألفة التي بها حفظ الكلمة ولو أدى إلى هلاكهم وهذا على أشار عليه المغير فلا ولولا به باستبقا الزبير
ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجمع الناس على بيعه وتنطق الكلمة وله بعد ذلك ما شاء من أمره وكان
ذلك من سياسة الملك فأبى فرار من الفتن التي ينافية الاسلام وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال لقد
أشرت عليك بالأمر فما أشرت ثم عدت إلى نظري فقلت أنه ليس من الحق والتصحيح وأن الحق فيما
رأيت أنت فقال على لا والله بل أعظم أنك تصحني بالأمر وعششني اليوم وليسكن منعي عما أشرت به زائد
الحق وهكذا كانت أحوالهم في إصلاح دينهم بفساد دينهم ونعم

ترفع ديننا بتمزيق ديننا * فلا ديننا بقي ولا ما رقع

فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك وبغت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجرى على منهاج
الحق ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان ديناً ثم انقلب عصبية وسيقا وهكذا كان الأمر لعهد معاوية
ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت معاني
الخلافة وبقي إلا اسمها وصار الأمر ملكا محتا وجرت طبيعة التغلب إلى غيتها واستعملت في أغراضها
من القهر والتغلب في الشهوات والملاذ وهكذا كان الأمر لولد عبد الملك ولحق جاء بعد الرشيد من بني
العباس واسم الخلافة باقية فيهم لقاء عصبية العرب والخلافة والملك في الطور بن ملتبس بعضهم بعض
ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم وبقي الأمر ملكا محتا
كما كان الشأن في ملوك العمم بالشرق يدينون بطاعة الخليفة تبركا والملك يجمع ألقابه ومناحه لهم
وليس للخليفة منه شيء وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل منهاجة مع العبيدين ومغراوة وبني
يفرن أيضا مع خلفاء بني أمية بالأندلس والعبيدين بالقيروان فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون
الملك أو لا ثم التبت معانيها واحتللت ثم انفرد الملك حيث افرقت عصبية من عصبية الخلافة والله
مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار

اعلم أن البيعة هي العهد على الطاعة كأن البيعة يعاهد أميره على أن يعسب له النظر في أمر نفسه وأمر المسلمين لا يزارعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه من الأمر على التمشيط والتسكرة وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيذا للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمي بيعة مقدر ببيع وصارت البيعة مصاحفة بالأيدي هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وعند الشجرة وحينئذ ورد هذا اللفظ ومنه بيعة الخلفاء ومنه أيمان البيعة كأن الخلفاء يستخفون على العهد ويستوجبون الأيمان كلياته فكذلك يسمى هذا الاستيعاب أيمان البيعة وكان الأكراد فيها أكثر وأغلب ولهذا لما أئق مالك رضي الله عنه بسقوط عين الأكراد أنكرها والولاية عليه ورأوا عاقبة في أيمان البيعة ووقع ما وقع من عنة الإمام رضي الله عنه وأما البيعة المشهورة بهذا العهد فهي تحية الملوك الكسروية من تقبيل الأرض أو اليد أو الرحمن أو الذيل أطلق عليها اسم البيعة التي هي العهد على الطاعة مجازا لما كان هذا الخضوع في التحية والزام الآداب من لوازم الطاعة وبواعثها وغلب فيه حتى صارت حقيقة عرفية واستغنى بها عن مصاحفة أيدي الناس التي هي الحقيقة في الأصل لما في المصاحفة لكل أحد من النازل والابتداء المنافقين للرئاسة وصون المنصب الملوكي لإقيا الأئق ممن يقصد التواضع من الملوك فيما أخذ به نفسه مع من أوصروا مشاهير أهل الدين من رعيته فافهم معنى البيعة في العرف فانه أكيد على الإنسان معرفته لما يترتب من حق سلطانه وإمامته ولا تكون أفعاله عبثا ومجانا واعتبر ذلك من أفعالك مع الملوك والله القوي العزيز

اعلم أن أقدمنا الكلام في الإمامة ومشر وعينها لما فهم من السلطة وأن حقيقتها النظر في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم ولهم والأمين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته وتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته ويقوم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاهم ويشون ينظر لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل وقد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازده والعقادة إذ وقع بعد أبي بكر رضي الله عنه لعمر بن الخطاب وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم بطاعة عمر رضي الله عنه وعنه وكذلك عهد عمر في الشوري إلى الستة بقية العشرة وجعل لهم أن يختاروا المسلمين ففوض بعضهم إلى بعض حتى أفضى ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف فاجتهدوا بآخر المسلمين فوجدوا متفقين على عثمان وعلي فآثر عثمان بالبيعة على ذلك موافقة إياه على لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعين دون اجتهاده فانقدأمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته والملا من الصحابة حاضر والملاولى والثانية ولم ينكره أحد منهم قتل على أنهم متفقون على صحة هذا العهد عارفون بمشر وعينه والإجماع حجة كاعرف ولايتهم الإمام في هذا الأمر وإن عهد إلى أبيه أو ابنه لا نهامون على النظر لهم في حياته فأولى أن لا يحتمل فيها تبعه بعد مماته خلافاً لقل باتمامه في الولد وأولاده ولمن خصص

قوله البيعة بفتح الموحدة أما بكسرها على وزن شعبة يسكون الياء فيها فهي مبدع النصارى اهـ

التهمة بالوعدون والوعد فانه يمد عن الظنة في ذلك كله لاسيما اذا كانت هناك داعية تدعو اليهم ايثار
 مصلحة أو توقع مفسدة فتنتفي الظنة عند ذلك شرأسا كما وقع في عهد معاوية لا يتهزبون وان كان فعل معاوية
 مع وفلق الناس له حجة في الباب والذي دعاه معاوية لا يثار به بالعيدون من سواه انما هو مراعاة
 المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهو أنهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حيث قدم من بني أمية اذ بنو أمية يومئذ
 لا يرضون سواه وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم فما ثمة بذلك دون غيره ممن يظن أنه
 أولى بها وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصا على الاتفاق واجتماع الأهل انتهى شأنه أعم عند الشارع
 وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وحبسه مائة من سوى ذلك وحضور أكابر الصحابة لتلك
 وسكونهم عنه دليل على انتهاء الريب فيه فليسوا ممن يأخذون في الحق هو أدلة وليس معاوية ممن تأخذ العزة
 في قبول الحق فانهم كلهم أجل من ذلك وعدالتهم مائة منه وقرار عبد الله بن عمر من ذلك انما هو محوون
 على تورعهم من الدخول في شيء من الأمور مباحا كان وعذورا كما هو معروف عنه ولم يبق في مخالفة
 لهذا العهد الذي اتفق الجمهور الا ابن الزبير وندور الخالف معروف ثم أنه وقع مثل ذلك من بعد معاوية
 من الخلفاء الذين كانوا يتحررون الحق ويمسكون به مثل عبد الملك وسليمان بن أبي أمية والسفاح والمنصور
 والمهدي والرشيد من بني العباس وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ولا
 يعاب عليهم ايثار أبنائهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك شأنهم غير شأن
 أولئك الخلفاء فانهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك وكانوا أراغ دينيا فعند كل أحدوا زرع من
 نفسه فعيدوا إلى من رضى الدين فقط وآثاره على غيره ووكلا كل من يسمو إلى ذلك إلى وازعه
 وأما من بعد من لدن معاوية وكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك والوازع الذي قد ضعف
 واحتيج إلى الوازع السلطاني والعصبي فلو عهد إلى غير من رضى العصبية ردت ذلك العهد وانتفض
 أمره سريرا وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف سأل رجل عليا رضي الله عنه مابال المسلمين
 اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر فقال لأن أبا بكر وعمر كانوا عليين على مني وأنا اليوم وال
 على مثلك يشير إلى وازع الدين أفلا ترى إلى اللأمون للمعبد إلى علي بن موسى بن جعفر الصادق وسماه
 الرضا كيف أنكرت العباسية ذلك ونقضوا بيعته وبايعوا له ابراهيم بن المهدي وظهر من المخرج
 والخلاف وانقطاع السبل وتعدد التوار والخوارج ما كاد أن يسطم الأمر حتى يادر اللأمون من
 خراسان إلى بغداد ودارهم معا هذه فلا بد من اعتبار ذلك في العهد فالعصور تختلف باختلاف ما يحدث
 فيها من الأمور والقبائل والعصبيات وتختلف باختلاف مصالحها ولكل واحد منها حكم يخصه لظلمان
 الله بعباده وأما أن يكون القصد بالعهد حفظ التراث على الأبناء فليس من المقاصد الدينية اذ هو أمر من
 الله يخص به من يشاء من عباده ينبغي أن تحسن فيه النية ما أمكن خوفا من العيب بالمناصب الدينية والملك
 شديوته من يشاء وعرض هنا أمور تدعو للضرورة إلى بيان الحق فيها فلا ولعنها ما حدث في
 يزيد من الفسق أيام خلافة قبايك أن تظن بمعاوية رضي الله عنه أنه علم ذلك من يزيد فانه عدل من ذلك

وأفضل بل كان يعذله أيام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه وهو أقل من ذلك وكانت مذاهبهم فيه مختلفة
ولما حدث في يزيد ما حدث من الفسق اختلف الصحابة حينئذ في شأنه فمنهم من رأى الخروج عليه
ونقض بيعته من أجل ذلك كما فعل الحسين وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ومن اتبعهما في ذلك
ومنهم من أباه لما فيه من انارة الفتنة وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء به لأن شوكة يزيد يومئذ هي عصاية
بنى أمية وجمهور أهل الحل والعقد من قريش وتستطيع عصية مضر أجمع وهي أعظم من كل شوكة
ولا نفاق متاومتهم فأقصر واعن يزيد بسبب ذلك وأقلعوا على الدعاء بهدايته والراحته وهذا كان
شأن جمهور المسلمين والسكك يتهدون ولا ينكر على أحد من الفريقين فقام عدم في البر ونحو الحق
معروفة وقتنا الله لاقتداء بهم والأمر الثاني هو شأن العهد من النبي صلى الله عليه وسلم وما تدعيه
الشيعة من وصيته لعلي رضي الله عنه وهو أمر لم يصح ولا نقله أحد من أئمة القل والذين وقع في الصحيح
من طلب الدواة والقرطاس لكتب الوصية وأن عمر منع من ذلك فدليل واضح على أنه لم يقع وكذا
قول عمر رضي الله عنه حين طعن وسئل في العهد فقال أن أعبد فقد عبد من هو خير مني يعني أبا بكر وأن
أرث فقد ترك من هو خير مني يعني النبي صلى الله عليه وسلم لم يعهد وكذلك قول علي العباس رضي الله عنهما
حين دعاه للدخول إلى النبي صلى الله عليه وسلم بسأله عن شأنهما في العهد فأبى علي من ذلك وقال أنه
إن منعنا منها فلا نطمع فيها آخر الدهر وهذا دليل على أن عليا علم أنه لم يوص ولا عهد إلى أحد وشبهة
الامامية في ذلك إنما هي كون الامامة من أركان الدين كما يزعمون وليس كذلك وإنما هي من المصالح
العامّة المنقوضة إلى نظر الخلق ولو كانت من أركان الدين لكان شأنها شأن الصلاة ولكن يختلف
فيها كما يختلف أبا بكر في الصلاة ولكن يشتهر كما اشتهر أمر الصلاة واحتجاج الصحابة على خلافة
أبي بكر بقياسها على الصلاة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا فلا نرضاه لدينا دليل
على أن الوصية لم تقع وبدن ذلك أيضا على أن أمر الامامة والعهد بهما لم يكن بهما كما هو اليوم وشأن العصية
المراعة في الاجتماع والافتراق في مجاري العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار لأن أمر الدين والاسلام
كان كله يخوارق العادة من تأليف الثلوب عليه واستماتة الناس دون ذلك من أجل الأحوال التي
كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لتصرهم وتردد خبر السماء بينهم وتجدد خطاب الله في كل حادثة
تتلى عليهم فلم يحتج إلى مراعاة العصية لما تخشع الناس من صبغة الانقياد والاذعان وما يستفرضهم من تنابع
المعجزات الخارقة والأحوال الالهية الواقعة والملائكة المترددة التي وجعوا منهم ودهشوا من تعابها
فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصية وسائر هذه الأنواع مندرجاً في ذلك القبول كما وقع فلما
انحسر ذلك المدد بذهاب تلك المعجزات ثم بقاء القرون الذين شاهدوها فاستحال تلك الصيغة قليلا
قليلا وذهبت الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان فاعتبر أمر العصية ومجاري العواطف فيما ينشأ عنها
من المصالح والمفاسد وأصبح الملك والخلافة والعهد بهما من المعاتاة كيدة كما زعموا ولم يكن
ذلك من قبل فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي صلى الله عليه وسلم غير مهمة فليعهد فيها ثم تدرجت

الأهمية زمان الخلافة بعض الشيء، بما دعت الضرورة إليه في الحماية والجهاد بشأن الردة والقنوجات
فكانوا بالخير في الفتن والفرك كما ذكرنا عن عمر رضي الله عنه ثم صارت اليوم من أهم الأمور للامثلة
على الخبايا والقيام بالمصالح فاعتبرت فيها العصية التي هي سر الوازع عن الفرقة والتخاذل ومنشأ الاجتماع
والتوافق السكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها * والأمر الثالث شأن الحروب الواقعة في الإسلام بين
الصحابه والتابعين فاعلم أن اختلافهم إنما يقع في الأمور الدينية وينشأ عن الاجتهاد في الأدلة الصحيحة
والمدارك العتيرة والمجتهدون اذا اختلفوا فنقلنا أن الحق في المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين
ومن لم يصادفه فهو غلط * فان جيته لا تتمين باجماع فيبقى السك على احتمال الاصابة ولا يتعين الخطأ
منها والتأثم مدفوع عن السك اجماعا وان قلنا أن السك حق وأن كل مجتهد مصيب فأحرى بنى الخطأ
والتأثم وغاية الخلاف الذي بين الصحابة والتابعين أنه خلاف اجتهادي في مسائل دينية عقلية وهذا
حكمه والذي وقع من ذلك في الإسلام إنما هو واقعة على مع معاوية ومعه الزبير وعائشة وطلحة وواقعة
الحسين مع يزيد وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك فأما واقعة على فإن الناس كانوا عند مقتل عثمان مفترقين
في الأمر فمصارفهم يشيدوا ببيعة على والذين يشيدوا فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس ويتفقوا
على امام كعبد وسعيد وابن عمرو وأسامة بن زيد والغيرة بن شعبة وعبد الله بن سلام وقدامة بن مظعون
وأبي سعيد الخدري وكعب بن عجرة وكعب بن مالك والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت ومسلمة بن غنم
وخالد بن عبيد وأمثالهم من أكابر الصحابة والذين كانوا في الأمر مصارعوا عن بيعته أيضا إلى السلب
بدم عثمان وتركوا الأمر فوضي حتى يكون شوري بين المسلمين من يؤثروا وظنوا بعل هوادة في
الكوت عن نصر عثمان من قاتليه لا في الملائكة عليه غاش الله من ذلك ولقد كان معاوية اذا صرح
بعلامته انما يوجهها عليه في سكونه فقط ثم اختلفوا بعد ذلك فرأى على أن بيعته قد انعقدت وأرست من
تأخر عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي صلى الله عليه وسلم وموطن الصحابة وأرجأ الأمر
في الطائفة بدم عثمان إلى اجتماع الناس واتفاق الكلمة فيمكن حينئذ من ذلك ورأى الآخرون أن
بيعه لم تنعقد لا فراق الصحابة أهل الحل والعقد بالاتفاق ولم يحضر إلا قليل ولا تكون البيعة إلا بائفاق
أهل الحل والعقد ولا تلزم بعقد من تولاهما من غيرهم أو من القليل منهم وأن المسلمين حينئذ فوضي
فيطالبون أولا بدم عثمان ثم يجتمعون على امام وذهب إلى هذا معاوية وعمر بن العاص وأم المؤمنين
عائشة والزبير وابنه عبد الله وطلحة وابنه محمد وسعد وسعيدو النعمان بن بشير ومعاوية ابن خديج ومن
كان على رأيهم من الصحابة الذين خلفوا عن بيعة على بالمدينة كما ذكرنا الآن أهل العصر الثاني من بدم
اتفقوا على انعقاد بيعة على ولزومها للمسلمين أجمعين ونصوب رأيهم فيها ذهب اليه وتعين الخطأ من
جهة معاوية ومن كان على رأيهم وخصوصا طلحة والزبير لا تنقضهما على على بعد البيعة فيما نقل مع دفع
التأثم عن كل من الفريقين كالشأن في المجتهدين وصار ذلك اجماعا من أهل العصر الثاني على أحد قول
أهل العصر الأول كما هو معروف ولقد سئل على رضي الله عنه عن قتل الجمل وصفين فقال والذي

١٥٠

١٥٠

نفسه بيده لا يموت أحد من هؤلاء وقلبه نقي لا دخل الجنة يشتر إلى الفريقين ثقله الطيرى وغيره فلا
يقع عندك ريب في عدالة أحدهم ولا قدح في شيء من ذلك فهم من علمت وأقوالهم وأفعالهم إنما هي عن
الاستعداد وعدالتهم مقر وخبرها عند أهل السنة لا قولوا للفتنة فيس قاتل علياً يلتفت إليه أحد من
أهل الحق ولا عرج عليه وإذا نظرت بعين الانصاف عذرت الناس أجمعين في شأن الاختلاف في عثمان
واختلاف الصحابة من بعد وعلمت أنها كانت فتنة ابتلى الله بها الأمة بينا المسلمون قد أذهب الله
عدوهم وملكهم أرخصهم وديارهم ونزلوا الأمصار على حدودهم بالبصرة والكوفة والشام ومصر وكان
أكثر العرب الذين نزلوا هذا الأمصار جفاة لم يشكروا من حجة النبي صلى الله عليه وسلم ولا هذبهم
سيرته وآدابه ولا راضوا بخلفه مع ما كان فيهم في الجاهلية من الجفاء والعصية والتأخر والبعد عن
سكينة الإيمان وإذابهم عند استحقاق الدولة قد أصبحوا في ملكك الباجرين والآنصار من قريش
وكنانة وقحيف وهذيل وأهل الحجاز وبشر السابقين الأولين إلى الإيمان فاستنكفوا من ذلك
وغضوبه لما روي لا أنفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر
ابن وائل وعبد القيس بن ربيعة وقبائل كندة والأزد من اليمن وغيرهم وقيس من مضر فصاروا إلى
الغضب من قريش والأشفة عليهم والتعريض في طاعتهم والتعليل في ذلك بالنظم منهم والاستعداد عليهم
والظعن فيهم بالعجز عن السوية والعدول في القسم عن التسوية وفشت المقالة بذلك واتهمت إلى المدينة
وم من علمت فأعظموه وأبلغوه عثمان فبعث إلى الأمصار من يكشف له الخبر بعث ابن عمر ومحمد
ابن مسلمة وأسامة بن زيد وأمثالهم فلم يشكروا على الأمر شيئاً ولا رأوا عليهم طعنوا وأو ذلك كما عظموه
فلم يقطع الظعن من أهل الأمصار وما زالت الشتمات تنمو ورمى الوليد بن عتبة وهو على الكوفة
بشرب الخمر وشهد عليه جماعة منهم وحده عثمان وعزله ثم جاء إلى المدينة من أهل الأمصار يسألون
عزل العمال وشكوا إلى عائشة وعلى والزبير وطلحة وعزل لهم عثمان بعض العمال فلم تقطع بذلك
أنسنتهم بل وفد سعيد بن العاصي وهو على الكوفة فصار جع اعترضوه بالطريق وردوه معزولاً ثم
انقل الخلف بين عثمان ومن معه من الصحابة بالمدينة ونقموا عليه امتناعه عن العزل فأبى إلا أن
يكون على جراحة ثم قتلوا النكير إلى غير ذلك من أفعاله هو متمسك بالاجتهاد وم أيضاً كذلك ثم تجمع
قوم من الغوغاء وجاءوا إلى المدينة يظهر من طلب النصفة من عثمان وهم يضررون خلاف ذلك من قتله
وفهم من البصرة والكوفة ومصر وقام معهم في ذلك على وعائشة والزبير وطلحة وغيرهم يحاولون
تسكين الأمور ورجوع عثمان إلى رأيهم وعزل لهم عامل مصر فانصرفوا قليلاً ثم رجعوا وقد
لبسوا بكتاب مدلس يزعمون أنهم لقوه في يد حامله إلى عامل مصر بأن يقتلهم وحلف عثمان على ذلك
فقالوا امكنا من مروان فإنه كاتبك خلف مروان فقال عثمان ليس في الحكم أكثر من هذا فحاصروه
بداره ثم يتوه على حين غفلة من الناس وقتلوه وانفتح باب الفتنة فلعل من هؤلاء عذروها وقع
وكلمهم كانوا متهمين بأمر الدين ولا يضيعون شيئاً من تعلقاته ثم نظروا بعد هذا الواقع واجتهدوا والله

مطلع على أحوالهم وعلمهم ونحن لا نطق بهم إلا خبر الماشهدت به أحوالهم ومقالات الصادق فيهم وأما
الحسين فإنه لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصره بعثت شيعة أهل البيت بالكوفة للحسين
أن يأتيهم فيقوموا بأمره فرأى الحسين أن الخروج على يزيد معين من أجل فسقه لاسيما من له القدرة
على ذلك وظنها من نفسه بأهليته وشوكت فأما الأهلية فكانت كاظن وزيادة وأما الشوكة فغلط
برحمه الله فيها لأن عصبية مضر كانت في قريش وعصبية قريش في عبد مناف وعصبية عبد مناف
إنما كانت في أمية تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس ولا يكرونه وإنما نسي ذلك أول الإسلام لما
شغل الناس من الدهول بالخوارق وأمر الوحي وتردد الملائكة لتصرة المسلمين فأغفلوا أمور عواندهم
ودبت عصبية الجاهلية ومنارها ونسبت ولم يبق إلا العصبية الطبيعية في الحماة والدفاع ينتفع بها في
أقلام الدين وجهاد المشركين الذين فيها عزم والعادة معزولة حتى إذا انقطع أمر النبوة والخوارق
النبوية تراجع الحكم بعض الشيء والعوائد فعاتت العصبية كما كانت ولما كانت وأصبحت مضر أطوع
لبني أمية من سواهم بما كان لهم من ذلك قيل (فقد) بين لك غلط الحسين لأنه في أمر ديني
لا يضرمه الغلط فيه وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه وكان ظنه القدرة على ذلك
ولقد عدله ابن عباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية أخوه وغيره في مسيرهم إلى الكوفة وعفوا
غلطه في ذلك ولم يرجع عما هو بسببه لما أراد الله وما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز ومع
يزيد بالشام والعراق ومن التابعين لهم فرأوا أن الخروج على يزيد وإن كان فاسقا لا يجوز لما يشأ عنه
من المخرج والسماء فاقصر واعين ذلك ولم يتابعوا الحسين ولا أنكروا عليه ولا آمنوه لا تعبهده وهو
أسوة المجتهدين ولا يذهب بك الغلط أن تقول بتأثير هؤلاء بمخالفة الحسين وقعودهم عن نصرته فانهم
أكثر الصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه وكان الحسين يستشهد بهم وهو يقاتل بكر بلاه
على فضله وحقه ويقول سلوا جابر بن عبد الله وأبا سعيد الخدري وأنس بن مالك وسهل بن سعد ويزيد
ابن أرقم وأمثالهم ولم ينكر عليهم قعودهم عن نصرته ولا تعرض لذلك لعدم أنه عن اجتهاد منهم كما كان فعله
عن اجتهاد منه وكذلك لا يذهب بك الغلط أن تقول بتصويب قتله لما كان عن اجتهاد وإن كان هو على
اجتهاد ويكون ذلك كما يجد الشافعي والمالكي الحنفى على ضرب النيبذ واعلم أن الأمر ليس كذلك وقتاله
لم يكن عن اجتهاد هو لا وإن كان خلافة عن اجتهادهم وإنما انفرد بقتاله يزيد وأصحابه ولا تقولون إن يزيد
وإن كان فاسقا ولم يحز هؤلاء الخروج عليه فأفعاله عندكم صحيحة واعلم أنه إنما ينفذ من أعمال الفاسق ما كان
مشروعا وقتال البغاة عندكم من شرعه أن يكون مع الإمام العادل وهو مفقود في مسئلتنا فلا يجوز قتال
الحسين مع يزيد ولا يزيد بل هي من فعلاته المؤكدة لنفسه والحسين فيها شيد مثاب وهو على حق
واجتهاد والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضا واجتهاد وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي
المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سماه بالعواصم والقواصم ما معناه أن الحسين قتل بضرع جده وهو
غلط حملته عليه بخلة عن اشتراط الإمام العادل ومن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في

قتال أهل الآراء وأما ابن الزبير فإنه رأى في قيامه مارآه الحسين ووطن كاطن وغلطه في أمر الشوكة أعظم لأن بني أسد لا يقاتلون بني أمية في جاهلية ولا إسلام والقول بتعيين الخطأ في جهة مخالفة كما كان في جهة معاوية مع علي لا سبيل لأن الإجماع هناك قضى لنا به ولم نجد ههنا وأما زيد فبعض خطأ فقه وعبد الملك صاحب ابن الزبير أعظم الناس عدالة وناهيك بعدالة احتجاج مالك بفعله وعدول ابن عباس وابن عمر إلى بيعته عن ابن الزبير ومعه بالحجاز مع أن الكثير من الصحابة كانوا يرون أن بيعه ابن الزبير لم يتعقد لأنهم يحضرونها أهل العقد والحل كبيعة مروان وابن الزبير على خلاف ذلك والكل عتهدون بمحلولون على الحق في الظاهر وإن لم يتعين في جهة منها والقتل الذي نزل به بعد تقرير ما قررناه يحى على قواعد الفقه وقوانينه مع أنه شهيد مثاب باعتبار قصده وتحريه الحق هذا هو الذي ينبغي أن تحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين فيهم خيار الأمة وإذا جعلناهم عرضة للتدحقرن الذي يختص بالعدالة والنبي صلى الله عليه وسلم يقول خير الناس قرني ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاثاً ثم يقشع الكذب بفعل الخيرة وهي العدالة المختصة بالقرن الأول والذي يليه فأيك أن تعود نفسك أو لسانك التعرض لأحد منهم ولا تنوش قلبك بالرب في شيء مما وقع منهم والتمس لهم مذهب الحق وطريقه ما استطعت فيهم أو لى الناس بذلك وما اختلفوا إلا عن يدة وما قاتلوا أو قتلوا إلا في سبيل جهاد أو إظهار حق واعتقد مع ذلك أن إختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأمة ليقتردى كل واحد عن يختار منهم ويحمله أمامه وهدايه ودليله فانهم بذلك وبين حكمة الله في خلقه وأكوانه واعلم أنه على كل شيء تقدير وإليه المرجع والمصير والله تعالى أعلم

بسم الله

فصل في الخطط الدينية الخلافة

٣٢

لما تبين أن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرف في الأمرين أما في الدين فيمتضي التكليف الشرعية الذي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها وأما سياسة الدنيا فيمتضي رعاية مصالحهم في العمران البشري وقد قدمنا أن هذا العمران ضروري للبشر وأن رعاية مصالحه كذلك لتلافي فساد أعمالهم وقد قدمنا أن الملك وسطوته كافي في حصول هذه المصالح نعم إما أن تكون أكل إذا كانت بالأحكام الشرعية لأنه أعلم بهذه المصالح فقد صار الملك يندرج تحت الخلافة إذا كان إسلامياً ويكون من توابعها وقد ينحدر إذا كان في غير الملة قوله على كل حال مراتب خادمة ووظائف تابعة تتعين خططا وتوزع على رجال الدولة ووظائف فيقوم كل واحد بوظيفته حسب ما عينه الملك الذي تكون يده عالية عليهم فيتم بذلك أمره ويحسن قيامه بسلطانه وأما منصب الخلافة وإن كان الملك يندرج تحت هذا الاعتبار الذي ذكرناه فتصرفه الديني يختص بخطط ومراتب لا تعرف إلا للخلفاء الإسلاميين فلذلك الآن الخطط الدينية المختصة بالخلافة ونرجع إلى الخطط الملوكية السلطانية فاعلم أن الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحبة كلها

مندرجة تحت الامامة الكبرى التي هي الخلافة فكأنها الامام الكبير والاصل الجامع وهذه كلها متفرعة عنها وداخلية فيها العموم فنظر الخلافة ونصرفها في سائر أحوال الملّة الدينية والدينية وتنفيذ أحكام الشرع فيها على العموم فأما إمامة الصلاة فهي أرفع من هذه الخلق كلها وأرفع من الملك بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة ولقد يشهد لذلك استدلال الصحابة في شأن أبي بكر رضي الله عنه باستخلافه في الصلاة على استخلافه في السياسة في قولهم أرقت دماء رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا فأفانز ضالدينا فلو أن الصلاة أرفع من السياسة لما صبح القياس وإذا ثبت ذلك فاعلم أن المساجد في المدينة مئتان مساجد عظيمة كثيرة القماشية معدة للصلوات المشهوددة وأخرى دونها مختصة بقوم أو علة وليست للصلوات العامة فأما المساجد العظيمة فأمرها راجع إلى الخليفة أو من يفوض إليه من سلطان أو وزير أو قاض فينصب لها الإمام في الصلوات الخمس والجمعة والعيد والحفوفين والاستسقاء وتعين ذلك هو إما من طريق الأول والاستحسان وللألفيات الرعايا عليه في شيء من النظر في مصالح العامة وقد يقول بالوجوب في ذلك من يقول بوجوب إقامة الجمعة فيكون نصب الإمام لها عتده واجبا وأما المساجد المختصة بقوم أو علة فأمرها راجع إلى الخليفة ولا يحتاج إلى نظر خليفة ولا سلطان وأحكام هذه الولاية وشروطها والمولى فيها معروف في كتب الفقه وبسبوط في كتب أحكام السلطانية لما ورد في غيره فلا تطول بذكرها ولقد كان الخلفاء الأولون لا يقدرون بها لغيرهم من الناس وانظر من طعن من الخلفاء في المسجد عند الأذان بالصلاة ونزولهم لذلك في أوقاتها يشهد لك ذلك بما شرتهم لها وإنهم لم يكونوا يستخلفون فيها وكذا كان رجال الدولة الأموية يمتنعون من استئثار إمامها واستعظاما لرتبتها ثمكي عن عبد الملك أنه قال لحاجبه قد جعلت لك حجابة بابي إلا عن ثلاثة صاحب الطعام فإنه يفسد بالتأخير والأذان بالصلاة فإنه مداع إلى الله والبريد فإن في تأخير فساد القماشية فلما جئت طبيعة الملك وعوارضه من الغلظة والترف عن مساواة الناس في دينهم وديانهم استجابوا في الصلاة فكانوا يستأثرون بها في الأحياء وفي الصلوات العامة كالعديدين والجمعة الشادة وتنويعها فعل ذلك كثير من خلفاء بني العباس والعبيديين صدر دولتهم وأما الفتيا فالخليفة تفحص أهل العلم والتدريس ورد الفتيا إلى من هو أهل لها وإعانتة على ذلك ومنع من ليس أهل لها وزجره لأنهم من مصالح المسلمين في أديانهم فتجب عليه مراعاتها لئلا يتعرض لذلك من ليس له بأهل فيفضل الناس والمدرسين الانتصاب لتعليم العلم ويشمل الجلوس لذلك في المساجد فإن كانت من المساجد العظام التي للسلطان الولاية عليها والنظر في أمورها فلا بد من استئذانه في ذلك وإن كانت من مساجد العامة فلا يشوق ذلك على إذن على أنه ينبغي أن يكون لكل أحد من الفقهاء والمدرسين زاجر من نفسه يمنع عن التصدي لما ليس له بأهل فيعدل به المستهدى ويضل به المسترشد وفي الأثر أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على جرائم جهنم فلا سلطان فيهم لذلك من النظر ما توجه المصلحة من إجازة أو رد * وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للنزاع إلا أنه بالأحكام الشرعية المتفقاة من الكتاب والسنة فكان

لذلك من وظائف الخلافة ومتدورا في عمومها وكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونها بأنفسهم ولا
يصلون القضاء إلى من سواهم وأول من دفعه إلى أمره وفوضه فيه عمر رضي الله عنه قولي أبا الدرداء معه
بالدينة قولي شرعنا بالبصرة وولي أيام موسى الأشعري بالكوفة وكتب له في ذلك الكتاب المشهور
الذي تدور عليه أحكام القضاء وهي مستوفاة فيه يقول (أما بعد) فإن القضاء فريضة محكمة وستة متبعة
فانهم إذا أدى اليك فإنه لا ينفع شكك بحق لا نقاذله وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى
لا يطمع شريف في حيفك ولا يأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر
والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ولا تمتك قضاء قضيت أمس فراجعت
اليوم فيه عقلك وهديت فيه ثم شدة أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في
الباطل الفهم الفهم فيما تلجج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعر في الأمثال والأشياء وقس
الأمور بنظائرها واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمديتعي اليه فإن أحضر بيته أخذت له حقه والا
استحللت القضية عليه فإن ذلك أتى لثبات وأجل للعلماء السمون عدول بعضهم على بعض إلا يعملوا في
حد أو غير باعديه شهادة زور أو ظن في نسب أو ولاه فإن الله سبحانه عفا عن الأيمان ودر أبا لينات وإياك
والتعلق والتضرع والتأفف بالخصوم فإن استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به
الذكر والسلام انتهى كتاب عمر وإنما كانوا يقدون القضاء لغيرهم وإن كان مما يتعلق بهم لقيامهم
بالسياسة العامة وكثرة أشغالهم من الجهاد والفتوحات وسد الثغور وحماية البيضة ولم يكن ذلك مما يقوم
به غيرهم لمظم العناية فاستحقوا القضاء في الوقعات بين الناس واستخلفوا فيه من يقوم به تخفيفا على أنفسهم
وكانوا مع ذلك إنما يقدونهم أهل عصبيتهم بالنسب أو الولاء ولا يقدونهم بعد عنهم في ذلك وأما أحكام
هذا النصب وشروطه فمعرفة في كتب الفقه وخصوصا كتب الأحكام السلطانية إلا أن القاضي إنما
كان له في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط ثم دفع لهم بعد ذلك أمور أخرى على التدرج بحسب
اشتغال الخلفاء والفلوك بالسياسة الكبرى واستقر منصب القضاء آخر الأمر على أنه يجمع مع الفصل بين
الخصوم إستيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من الخجائن واليتامى
والمفلسين وأهل السفه وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيتام عند فقد الأولياء على رأي
من رآه والنظر في مصالح الطرقات والأبنية وقصص الشهود والأمناء والنواب واستيفاء العلم
والحيرة فيهم بالعدالة والجرح لئلا يسهل له الوتوق بهم وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته ونواحي
ولايته وقد كان الخلفاء من قبل يعملون للقاضي النظر في المظالم وهي وظيفة مترجمة من سطوة
السلطنة ونفذة القضاء وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة ترفع الظالم من الخصمين وتزجر
المتعدي وكأنه يتضي ما يحز القضاء أو غيرهم عن امضائه ويكون نظره في اليينات والتقارير واعتماد الأمارات
والقرائن وتأجبر الحكم إلى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستخلاص الشهود وذلك
أوسع من نظر القاضي * وكان الخلفاء الأولون يباشرونها بأنفسهم إلى أيام المهدي من بني العباس

وربما كانوا يحملونها لقضائهم كما فعل عمر رضي الله عنه مع قاضيه أبي إدريس الخولاني وكان فعله المأمون
ليحيى بن أكرم والعقاصم لأحمد بن أبي دؤاد وربما كانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر
الطوائف وكان يحيى بن أكرم مخرج أيام المأمون بالطائفة إلى أرض الروم وكذا منذر ابن سعيد
قاضي عبد الرحمن الناصر من بني أمية بالأندلس فكانت تولية هذه الوظائف انما تكون للعلماء أو من
يعملون ذلك له من وزير مفوض أو سلطان متغلب وكان أيضا النظر في الجرائم وإقامة الحدود في
الدولة العباسية والأُموية بالأندلس والعبيديين بمصر والمغرب اجعا إلى صاحب الشرطة وهي وظيفة
أخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلا فيجعل
التهمة في الحكم بحالا ويفرد العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ويقيم الحدود والثابتة في عالمها
وينكم في التودد والتقصاص ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة ثم تنوسى شأن عاتين
الوظيفتين في الدول التي تنوسى فيها أمر الخلافة فنصار أمر المظالم اجعا إلى السلطان كان له تفويض
من الخليفة أو لم يكن وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين منها وظيفة التهمة على الجرائم وإقامة حدودها
ومباشرة القلع والتصاص حيث يتعين ونسب لذلك في هذه الدول حاكم يحكم فيها بموجب النيابة
دون مراعاة الأحكام الشرعية ويسمى تارة باسم الوالي وتارة باسم الشرطة وبقي قسم التعازير وإقامة
الحدود في الجرائم الثابتة شرعا لجميع ذلك للقاضي مع ما تقدم وصار ذلك من توابع وظيفته وولايته
واستقر الأمر لهذا العهد على ذلك وخرجت هذه الوظيفة عن أهل عصية الدولة لأن الأمر لما كان
خلافة دينية وهذه الخط من مر اسم الدين فكانوا لا يولون فيها إلا من أهل عصبيتهم من العرب ومواليهم
بالخلف أو بالرق أو بالاصطناع ممن يوثق بكفائته أو غناؤه فيما يدفع إليه * ولما اقر شأن الخلافة
وظورها وصار الأمر كله ملكا أو سلطانا صارت هذه الخطط الدينية بعيدة عنه بعض الشيء لانها
ليست من ألقاب الملك ولا من اسمه ثم خرج الأمر جملة من العرب وصار الملك لسواهم من أم الترك والبربر
فازدادت هذه الخطط الخلافية بعد انهم تتحاووا عصبيتها وذلك أن العرب كانوا يرون أن الشريعة
دينهم وأن النبي صلى الله عليه وسلم منهم وأحكامه وشرائعه نزلت عليهم بين الأئمة وطريقهم وغيرهم لا يرون
ذلك إلا يولونها جانباً من التعظيم لما كانوا بالملك فقط فنصاروا بقلوبهم من غير عصبيتهم ممن كان تأهل لها
في دول الخلفاء السالفين وكان أولئك المتأهلون لما أخذهم ترف الدول منذميين من سنين قد نسوا عهد
البداءة وخشوتها والتيسر بالحضارة في عوائدهم ترفهم ودعتهم وقلة الممانعة عن أنفسهم وصارت هذه
الخطط في الدول اللوكية من بعد الخلفاء مختصة بهذا النصف من المستضعفين في أهل الأمصار ونزل
أهلها عن مراتب العزلة فقد الأهلية بأنسابهم وما هم عليه من الحضارة فلحقهم من الاحتقار ما لحق الحضرة
المنحمنين في الترف والسعة البعداء عن عصية الملك الذين هم عيال على الخامية وصار اعتبارهم في الدولة
من أجل قيامها بالملك وأخذها بأحكام الشريعة لما أنهم الحاملون للأحكام المقتدون بها ولم يكن إشارتهم في
الدولة حينئذ كإمالة دولهم وانما هو لما يتلصق من التجميل بمكانهم في مجالس الملك للتعظيم الرتب الشرعية

ولم يكن لهم فيها من الحل والعقد شيء وإن حضروه فغضوره رسمى لاحقية ووراءه اذ حقيقته الحل والعقد إنما هي لأهل القدرة عليه فمن لا قدرة له عليه فلا حل له ولا عقد لديه التليم الأخذ الأحكام الشرعية عنهم وتلقى الفتاوى منهم فنعم والله الموفق ورعا يظن بعض الناس أن الحق فيهم وراء ذلك وإن فعل الملوك فيما فعلوه من إخراج الفقهاء والقضاة من الشورى مرجوح وقد قل صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الأنبياء فاعلم أن ذلك ليس كاختصاصهم بالملك والسلطان إنما يجري على ما تقتضيه طبيعة العمران والا كان بعيدا عن السياسة فطبيعة العمران في هؤلاء لا تقتضي لهم شيئا من ذلك لأن الشورى والحل والعقد لا تكون إلا لأصحاب عصبية يقتدر بها على حل أو عقد أو فعل أو ترك وأما من لا عصبية له ولا يملك من أمر نفسه شيئا ولا من حمايتها وإنما هو عيال على غيره فأى مدخل له في الشورى أو أى معنى يدعو إلى اعتبارها فيها اللهم إلا شورا فيما يعلم من الأحكام الشرعية فموجودة في الاستفتاء خاصة وأما شورا في السياسة فهو بعيد عنها لفقدانها العصبية والقيام على معرفة أحوالها وأحكامها وإنما أكرمهم من تبرعات الملوك والأمراء الشاهدة لهم بحمل الاعتراف في الدين وتعظيم من ينسب إليه بأى جهة انساب وأما قوله صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الأنبياء فاعلم أن الفقهاء في الأغلب هذا العهد وما انحرف به إنما حملوا الشريعة أقوالا في كيفية الأعمال في العبادات وكيفية القضاء في المعاملات ينصونها على من يحتاج إلى العمل بها هذه غاية أكابرهم ولا يتصفون إلا بالآقل منها وفي بعض الأحوال والسلف وضوان الله عليهم وأهل الدين والورع من السامعين حملوا الشريعة اتصافا بها وتحققا بعبادتها فمن حملها اتصافا وتحققا دون نقل فهو من الوارثين مثل أهل رسالة القشيري ومن اجتمع له الأمران فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة مثل فقهاء التابعين والسلف والأئمة الأربعة ومن اقتنى طريقهم وجاء على أثرهم وإذا انفرد واحد من الأئمة بأحد الأمرين فالعابد أحق بالوراثة من النقيض الذي ليس بعابد لأن العابد يورث صفة والفقهاء الذي ليس بعابد لم يرث شيئا إنما هو صاحب أقوال ينصها علينا في كيفية العمل وهؤلاء أكثر فقهاء عصرنا لا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل مام

بالعدالة وهو وظيفة دينية نابعة للقضاء ومن مواد تصرفه حقيقة هذه الوظيفة القيام عن اذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحملا عند الأشهاد وأداء عند التنازع وكتبها في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأعمالهم وديونهم وسائر معاملاتهم وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عباراتها وانتظام فصولها ومن جهة أحكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ إلى ما يتعلق بذلك من التقدير والجل هذه الشروط وما يحتاج إليه من المراتن (١) على ذلك والممارسة له اختصاص ذلك ببعض العدول وصار الصنف القائمون به كأنهم يختصون بالعدالة وليس كذلك وإنما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة ويجب على القاضي تصفح أحوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم وأن لا يهمل ذلك ما يتعين

(١) قوله المراتن في كتب اللغة مرث على الشيء مدونا ومرونة ومرونة تعودده واستمر عليه اه

عليه من حفظ حقوق الناس فلمعبدة عليه في ذلك كله وهو ضامن دركهو اذا تعين هذا لمعبدة الوظيفة
نعت القائدة في تعيين من نحتي عدالته على القضاء بسبب اتساع الامصار واشتباه الاحوال واضطرار
القضاة الى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة فيعوثون غالباً في الوثوق بها على هذا الصنف ولهم في
سائر الامصار دكاكين ومضايط مختصون بالجلوس عليها فيتعاضدون أصحاب المعاملات للاشهاد
وتقييدهم بالكتاب وصار مدلول هذه اللفظة مشتركة بين هذه الوظيفة التي تبين مدلولها وبين العدالة
الشرعية التي هي أخت الجرح وقد تواردان ويشترقان والله تعالى أعلم ﴿ الحسبة والسكة ﴾ أما الحسبة
فهي وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين
يعين لذلك من يراه أهلاً له فيعين فرضه عليه ويتخذ الاعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر
ويؤدب على قدرها ويعمل الناس على المسامحة العامة في المدينة مثل النع من المضايقة في الطرقات ومنع
الحالين وأهل المدن من الاكثار في الخيل والحكم على أهل المباني المتداخلة للسقوط بهدمها وازالة
ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيره في الابلاغ في ضربهم
للصبيان المتعلمين ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداد بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك
ويرفع اليه وليس له امضاء الحكم في الدعاوى مطلقاً بل فيما يتعلق بالنفس والتدليس في المعاش وغيرها
وفي المكاتب والنوازل وله أيضاً حمل الماطلين على الانصاف وأمثال ذلك مما ليس فيه شعاع بينة ولا انفاذ
حكم وكأنها أحكام يتره القاضي عنها العموم وسبيلة أغراضها فندفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها
فوضعا على ذلك أن تكون خادمة لمتب القضاء وقد كانت في كثير من الدول الإسلامية مثل العبيدين
بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخلية في عموم ولاية القاضي بولي فيها باختياره ثم لما انفردت
وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عام في أمور السياسة اندرجت في وظائف الملك وأفردت
بالولاية ﴿ وأما السكة ﴾ فهي النظر بالنقود التعامل بها بين الناس وحفظها مما يداخلها من النقص أو
النقص إن كان يتعامل بها عدداً أو ما يتعلق بذلك ويوصل اليه من جميع الاعتبارات ثم في وضع علامة
السلطان على تلك النقود بالاستجداء والخلاص برسم تلك العلامة فيها من ختم جديد اتخذ لذلك ونقش
فيه نقوش خاصة به فيوضع على الدبنار بعد أن يقدر ويضرب عليه بالطريقة حتى يرسم فيه تلك النقوش
وتكون علامة على جودته بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف أهل القطر
ومذهب الدولة الحاكمة فإن السبك والتخليص في النقود لا يقف عند غاية وإتمام جع غايته إلى الاجتهاد
فأذا وقف أهل أفق أو قطر على غاية من التخليص وقفوا عندها وسموها إماماً وعياراً يعتبرون به
نقودهم وينقدونها بمثلته فإن نقص عن ذلك كان زيفاً والنظر في ذلك كله لصاحب هذه الوظيفة وهي
دقيقة بهذا الاعتبار فتندرج تحت الخلافة وقد كانت تندرج في عموم ولاية القاضي ثم أفردت لهذا
العهد كما وقع في الحسبة هذا آخر الكلام في الوظائف الخلافية وبقيت منها وظائف ذهبت
بذهاب ما ينظر فيه وأخرى صارت سلطانية فوظيفة الامارة والوزارة والحرب والحراج صارت

تتكم على سلطانية في أممها بعد وخليفة الجهاد بطلت بطلانه إلا قليلا من الدول
يعارسونه ويديرجون أحكامه غلبا في السلطانيات وكذا نقابة الأنساب التي توصل بها إلى الخلافة أو
الحلق في بيت المال قد بطلت لتغير الخلافة ورسومها وبالجملة قد اندرجت رسوم وظائفها في رسوم
الملوك والسياسة في سائر الدول لهذا العهد والله مصرف الأمور كيف يشاء

فصل في القلق بأمير المؤمنين وأمن سماء الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء

وذلك أنه لما بويع أبو بكر رضي الله عنه كان الصحابة رضي الله عنهم وسائر المسلمين يسمونه خليفة
رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك فمابويع لعمر بعده اليكأنوا يدعونه
خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانهم استقلوا هذا القلق بكثرة وطول إقامته وأنه يزايد
فيما بعد دائما إلى أن ينتهي إلى المهنة ويذهب منه التميز بعدد الإضافات وأكثرها فلا يعرف فكلوا
يعدلون عن هذا القلق إلى ما سواه مما يناسبه ويدعي به مثله وكانوا يسمون قوادبعوث باسم الأمير
وهو فعيل من الأمارة وقد كان الجاهلية يدعون النبي صلى الله عليه وسلم أمير مكة وأمير الحجاز وكان
الصحابة أيضا يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المؤمنين لأمرته على جيش القادسية وهم معظم المسلمين يومئذ
واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه بأمير المؤمنين فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به
يقال أن أول من دعه بذلك عبد الله بن جحش وقيل عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وقبله يريدها
بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر يقول أين أمير المؤمنين وسمعا أصحابه
فاستصوبوه وقبوا أصابت والله اسمه الله أمير المؤمنين خفاف دعوه بذلك وذهب نصيبه في الناس
وتوارثه الخلفاء من بعده سمة لا يشار كيم فيها أحد سائر دولة بني أمية ثم إن الشيعة خصوا عليه باسم
الامام فقاتله بالامامة التي هي أخت الخلافة وتعرضا بذهبهم في أنه أحق بالامامة الصلاة من أبي بكر لما هو
مذهبهم ويدعونه بهذا القلق ولحق يسوقون إليه منصب الخلافة من بعده فكانوا كلهم يسمون
بالامام ماداموا يدعونهم في الخفاء حتى إذا استولوا على الدولة تحولوا القلق فيمن بعده إلى أمير المؤمنين
كأقوله شيعة بني العباس فاتهم ما زالوا يدعون أنهم بالامام إلى إبراهيم الذي جبروا بالدعاء له وعقدوا
الرايات للحرب على أمره فلما هلك دعى أخوه السفاح بأمير المؤمنين وكذا الرافضة بأقرية فاتهم ما زالوا
يدعون أنهم من ولد إسماعيل بالامام حتى انتهى الأمر إلى عبيد الله المهدي وكانوا أيضا يدعونه بالامام
ولابنه أبي القاسم من بعده فلما استوثق لهم الأمر دعوا من بعدهم بأمير المؤمنين وكذا الأدارسة بالمغرب
كانوا يلتقيون إدريس بالامام وابنه إدريس الأصغر كذلك وهكذا شأنهم وتوارث الخلفاء هذا
القلق بأمير المؤمنين وجعلوه سمة لمن علك الحجاز والشام والعراق الموطن التي هي ديار العرب ومراکز
الدولة وأهل اللغة والفتح وازداد لذلك في عنفوان الدولة وبذلك القلق آخر للخلفاء بتميز به بعضهم عن
بعض لما في أمير من الاشتراك بينهم فاستحدث ذلك بنو العباس حجابا لاسمهم الأعلام عن امتنانها في

ألسنة السوقة وصوتها عن الابتذال فتلقبوا بالسفاح والنصور والمهدي والمهدي والرشيدي آخر الدولة واقتفى أثره في ذلك العبيديون بأفريقية ومصر ونجاشي بنو أمية عن ذلك بالشرق قبلهم مع الغضاضة والسذاجة لأن العروبية ومنار عياهم تفارقهم حينئذ ولم يتحول عنهم شعار البداوة إلى شعار الحضارة وأما بالاندلس فتلقبوا أكسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من النصور عن ذلك بالنصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة والبعث عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية وأنهم اتخاموا بإمارة القاصية أنفسهم من مهالك بني العباس حتى إذا جاء عبد الرحمن الداخل الآخر منهم وهو الناصر بن محمد بن الأمير عبد الله ابن محمد بن عبد الرحمن الأوسط ولما تولى الإمارة واشتهر ما نال الخلافة بالشرق من الحجز واستبداد الثوالة وعينهم في الخلفاء بالعز والاحتداد والقتل والسيل ذهب عبد الرحمن هذا إلى مثل مذاهب الخلفاء بالشرق وأفريقية وتسمى بأمر المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله وأخذت من بعده عادة ومذهب لقن عنه ولم يكن لأبائه وسلف قومه واستمر الحال على ذلك إلى أن انقضت عصبية العرب أجمع ومذهب رسم الخلافة وتلقب الثوالة من العجم على بني العباس والصنائع على العبيديين بالقاهرة وصنهاجة على أمراء أفريقية وزنانة على الغرب وملوك الطوائف بالاندلس على أمر بني أمية وانقسموه وافترق أمر الاسلام فاختلق مذاهب الملوك بالمغرب والشرق في الاختصاص باللقاب بعد أن انحوا جميعا باسم السلطان * فأما ملوك الشرق من العجم فكان الخلفاء يخصوصهم بألقاب تترفية حتى يستمر منها انقيادهم وطماعتهم وحسن ولايتهم مثل شرف الدولة وعبد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبياء الدولة وذخيرة الملك وأمثال هذه وكان العبيديون أيضا يخصوصون بها أمراء صنهاجة فما استبدوا على الخلافة قنعوا بهذه الألقاب وتجاؤا عن ألقاب الخلافة أدبامعيا وعمدوا عن سياتها المختصة بها شأن المنفصلين المستبدين كإقلاء قتل وزرع المتأخرون أعاجم الشرق حين قوى استبدادهم على الملك وعلا كبرهم في الدولة والسلطان وتلاشت عصبية الخلافة واضمحلت بالجملة إلى انتقال الألقاب الخاصة بالملك مثل الناصر والنصور زيادة على الألقاب يخصوصون بها قبل هذا الانتقال مشعرة بالخروج عن رتبة الولاء والاصطناع بما أضافوها إلى الدين فقط فيقولون صلاح الدين أسد الدين نور الدين * وأما ملوك الطوائف بالاندلس فلقبوا ألقاب الخلافة وتوزعوا لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيتها فلقبوا بالناصر والنصور والعتمد والمظفر وأمثالها كما قد ابن أبي شريف يعني عليهم

بما يزهدني في أرض اندلس * أسماء معتمد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة في غير موضعها * كالمهر عجي انتفاخ صورة الأسد

وأما صنهاجة فاقصروا على الألقاب التي كان الخلفاء العبيديون يلقبونها بالثوية مثل نصير الدولة ومعز الدولة واتصل لهم ذلك لما أدلوا من دعوة العبيديين بدعوة العباسيين ثم بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدا فنسوا هذه الألقاب واقصروا على اسم السلطان وكذا شأن ملوك

مغراوة بالمغرب لم يتخلو شيئا من هذه الألقاب إلا اسم السلطان جريا على مذاهب البداوة والغضاضة
ولما عي رسم الخلافة وتطلبت دستها وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك ثنوية فملك
العدويين وكان من أهل الخير والافتداء نزعته بهمة إلى الدخول في طاعة الخليفة تكميلا لمراسم
دينه فطالب المستنصر العباسي وأوقف عليه بيعته عبد الله بن العربي وابنه القاضي أبابكر من مشيخة
أشبيلية يطلبان توليته إياه على المغرب وتقليده ذلك فاقبلوا إليه بعد الخلافة على المغرب واستشار
زهم في لبوسه ورتبته وخاطبه فيه بأمر المؤمنين تشریفه واختصاصا فاتخذها لقباً وقال أنه كان
دعى له بأمر المؤمنين من قبل أديباع رتبة الخلافة لما كان عليه هو وقومه المزابليون من اتحال الدين
واتباع السنة وجاء المهدي على أثرهم داعيا إلى الحق آخذا بمذاهب الأشعرية داعيا على أهل المغرب عدولهم
عنها إلى تقليد السلف في ترك التأويل لظواهر الشريعة وما يؤول إليه ذلك في التجسيم كاهو معروف
من مذهب الأشعرية وسمي أتباعه الموحدين تعريضا بذلك التكبير وكان يرى رأى أهل البيت في
الامام المعصوم وأنه لا بد منه في كل زمان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم فسمى بالامام لما قلناه أولا من
مذاهب الشيعة في ألقاب خلفائهم وأردف بالمعصوم شارة إلى مذهبه في عصبة الامام وتزعمه عند
اتباعه عن أمير المؤمنين أخذا بمذاهب المتقدمين من الشيعة ولما فيها من مشاركة الأنصار والولدان من
أعقاب أهل الخلافة يومئذ بالشرق ثم اتحل عبد الله من ولي عهده اللقب بأمر المؤمنين وجرى عليه
من بعده خلفاء بني عبد المؤمن وآل أبي حفص من بعدهم استشاراه ممن سواهم لما دعى إليه شيخهم
المهدي من ذلك وأنه صاحب الأمر وأولياؤه من بعده كذلك دون كل أحد لا تنفاه عصبة قریش
وتلاشيها فكان ذلك دأبهم ولما انتقض الأمر بالمغرب وانزع زائدة ذهب أولهم مذاهب البداوة
والسذاجة واتباع ثنوية في اتحال اللقب بأمر المؤمنين أديباع رتبة الخلافة التي كانوا على طاعتها لبني
عبد المؤمن وأولاد بني أبي حفص من بعدهم ثم نزع المتأخرون منهم إلى اللقب بأمر المؤمنين واتحلوه لهذا
العبد استقبالا في منازع الملك وتسميا لمذاهبه وسماته والله غالب على أمره

٣٤٤ فصل في شرح اسم البابا والبطرك في اللغة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود

(إعلم) أن اللغة لا بد لها من قائم عند غيبة النبي محمد عليهم على أحكامها وشرائعها ويكون كالخليفة فيهم للنبي
فيما جاء به من التكليف والتنوع الانساني أيضا بما تقدم من ضرورة السياسة فيهم للاجتماع البشري لا بد
لهم من شخص يحملهم على مصالحهم وزعيمهم عن مفاسدهم بالتبوي وهو المسمى بالملك واللغة الإسلامية لما كان
الجهاد فيها مشروعا وعموم الدعوة وحمل الكفاية على دين الاسلام طوعا أو كرها اتخذت فيها الخلافة والملك
لتوجه الشوكة من القائمين بها اليهم معا وأما ما سوى اللغة الإسلامية فلم تكن دعوتهم عامة ولا الجهاد عندهم
مشروعا الا في المدافعة فقط فصار القائم بأمر الدين فيها لا يعتبه شيء من سياسة الملك وإنما وقع الملك لمن
وقع منهم بالعرض ولا أمر غير ديني وهو ما اقتضته لهم العصبة لما فيها من الطلب للملك بالطبع لما قدمناه لأنهم

غير مكلفين بالغلب على الآثم كافي للملة الإسلامية وإنهم مطلوبون بإقامة دينهم في خاصتهم ولذلك بقي بنو إسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهما نحو أربع مائة سنة لا يعتنون بشيء من أمر الملك إنما هم بإقامة دينهم فقط وكان القائم به بينهم يسمى الكوهن كأنه خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم أمر الصلاة والقربات ويشترون فيه أن يكون من ذرية هرون صلوات الله عليه لأن موسى لم يعقب ثم اختاروا الإقامة السياسية التي هي للأشعر بالطبع سبعين شيخا كانوا يتلون أحكامهم العامة والكوهن أعظم منهم رتبة في الدين وأبعد عن شعب الأحكام واتصل ذلك فيهم إلى أن استحكمت طبيعة العصبية وتمحض الشوكة للملك فقبلوا الكنعانيين على الأرض التي أورشليم الله بيت المقدس وما جاورها كآيين لهم على لسان موسى صلوات الله عليه سفاريتهم أم الفلسطينيين والكنعانيين والأثريين وأردن وعمان ومأرب وزياب منهم في ذلك ثم رجعت إلى شيوخهم وأقاموا على ذلك نحو مائة سنة ولم تكن له صلوة الملك ونحوه بنو إسرائيل من مطالب الآثم فقبلوا على آسان شمويل من أنبيائهم أن يأذن الله لهم في تملك رجل عليهم فولى عليهم طائوت وغلب الآثم وقتل جاوت ملك الفلسطينيين ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليهم واستفحل ملكه وامتد إلى الحجاز ثم أطراف اليمن ثم إلى أطراف بلاد الروم ثم افتقر في الأسباط من بعد سليمان صلوات الله عليه بمقتضى العصبية في الدول كإفدمناه إلى دولتين كانت أحدهما بالجزيرة والتوصل للأسباط العشرة والأخرى بالقدس والشام لبني يهوذا وبنيامين ثم عليهم غنصر ملك بابل على ما كان بأيديهم من تلك الأسباط العشرة ثم تانيا بن يهوذا وبيت المقدس بعد انفصال ملكهم نحو ألف سنة وخراب معبدهم وأحرق توراتهم أمات دينهم ونقلهم إلى أصبهان وبلاد العراق إلى أن ردهم بعض ملوك الكيانية من الفرس إلى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من خروجهم فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الأول للكهنة فقط والملك للفرس ثم غلب الاسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود في ملكهم ثم قتل أمر اليونانيين فاعتز اليهود عليهم بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم الكهنة الذين كانوا فيهم من بني حشمتاي وقتلوا يونان حتى انقرض أمرهم وغلب الروم فصاروا تحت أمرهم ثم رجعوا إلى بيت المقدس وفيها بنو هيردوس أصهار بني حشمتاي وبقيت دولتهم ماضية مدة ثم افتتحوها عنوة وأغشوا في القتل والمهدم والتحريق وخرابوا بيت المقدس وأجلوا عنها إلى روما وما وراءها وهو الخراب الثاني للمعبد ويسميه اليهود بالجلوة الكبرى فلم يبق لهم بعده ملك لفقدان العصبية منهم وبموا بعد ذلك في ملكة الروم ومن بعدهم بقيهم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن * ثم جاء المسيح صلوات الله وسلامه عليه بما جاء به من الدين والنسخ لبعض أحكام التوراة وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من إبراء الأكف والأبرص وإحياء الموتى واجتمع عليه كثير من الناس وآمنوا به وأكثر من الخواريون من أصحابه وكانوا اثني عشر وبعث منهم رسالا إلى الآفاق داعين إلى ملته وذلك أيام أوغسطس أول ملوك القيصرية وفي مدة هيردوس ملك اليهود الذي انتزع الملك من بني حشمتاي أصهاره

خذه اليهود وكذبوه وكاتب هيردوس ملكهم ملك القياصرة أوغسطس يخرجه بفأذن لهم في قتله ووقع ما تلاه القرآن من أمره واقترب الخواريون شيما ودخل أكثر بلاد الروم داعين إلى دين النصرانية وكان بطرس كبيرهم فزاد برومة دار ملك القياصرة ثم كتبوا الانجيل الذي أنزله على عيسى صلوات الله عليه في نسخ أربع على اختلاف رواياتهم فكتب من انجيله في بيت القدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدي منهم إلى المسار اللطيني وكتب لوقا منهم انجيله باللطيني إلى بعض أكابر الروم وكتب يوحنا بن زبدي منهم انجيله برومة وكتب بطرس انجيله باللطيني ونسبه إلى مرقس تلميذه واختلفت هذه النسخ الأربعة من الانجيل مع أمم البست كلها وحبا صر قابل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام وبكلام الخواريين وكلها مواعظ وقصص وأحكام فيها قليلة جدا واجتمع الخواريون الرسل لذلك العبد برومة ووضعوا في اللغة النصرانية وصيروها بيد اقليمنتس تلميذ بطرس وكتبوا فيها عند الكتب التي يجب قبولها والعمل بها فمن شريعة اليهود القديمة التوراة وهي خمسة أسفار وكتاب يشوع وكتاب الفضاة وكتاب راعوث وكتاب يهوذا وأسفار الملوك أربعة وسفر بنيامين وكتب المقاييس لابن كرون ثلاثة وكتاب عزرا الامام وكتاب اوشير وقصة هامان وكتاب أيوب الصديق ومزامير داود عليه السلام وكتاب ابنه سليمان عليه السلام خمسة ونبوات الانبياء الكبار والصغار ستة عشر وكتاب يشوع بن شارح ووزير سليمان ومن شريعة عيسى صلوات الله عليه اثنتان من الخواريين نسخ الانجيل الأربعة وكتب القائلون سبع رسائل وثامنها الابريكسيس في قصص الرسل وكتاب بولس أربع عشرة رسالة وكتاب اقليمنتس وفيه الأحكام وكتاب أبو غالمسيس وفيه رؤيا يوحنا ابن زبدي واختلف شأن القياصرة في الأخذ بهذه الشريعة نارة وتعظيم أهلها ثم تركها أخرى والتسلط عليهم بالقتل والبعث إلى أن جاء قسطنطين وأخذها واستمر وأهلها وكان صاحب هذا الدين والمقيم له اسمه يسمونه البطرك وهو رئيس الملة عنده وخليفة المسيح فيهم يبعث نوابه وخلفاءه إلى ما بعد عنه من أم النصرانية ويسمونه الأسقف أي نائب البطرك ويسمون الامام الذي يقيم الصلوات ويقيمهم في الدين بالفسيس ويسمون المنقطع الذي حبس نفسه في الخلوة للعبادة بالراغب وأكثر خلواتهم في الصوامع وكان بطرس الرسول رأس الخواريين وكبير التلاميذ برومة يقيم بها دين النصرانية إلى أن قتلته نيروز خامس القياصرة فيمن قتل من البطارقة والأساقفة ثم قام بخلافته في كرسي رومة أربوس وكان مرقس الانجيلي بالاسكندرية ومصر والمغرب داعيا سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو أول البطارقة فيها وجعل معه اثني عشر قساعا على أنه إمامات البطرك يكون واحد من الاثني عشر مكانه ويختار من المؤمنين واحدا مكان ذلك الثاني عشر فكان أمر البطارقة إلى القسوس ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا ببثنية أيام قسطنطين لتحرير الحق في الدين وانفق ثلثمائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأي واحد في الدين فكذبوه وسموه الامام وصيروا أصلا يرجعون إليه وكان فيها كتبوه أن البطرك القائم بالدين لا يرجع في تعيينه

إلى الجتهاد الأقبة كما قرر حنايا تلميذ مرقس وأبطلوا ذلك الرأي وإعاقهم عن ملا واختيار من
أئمة المؤمنين ورؤسائهم فبقى الأمر كذلك ثم اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين وكانت لهم
مجموعات في تقريره ولم يختلفوا في هذه القاعدة فبقى الأمر فيها على ذلك وانصل فهم بإزالة ساقفة عن
البطاركة وكان الألساقفة يدعون البطرك بالأب أيضا تعظيما فاشبه الاسم في أعصار متطاولة يقال
آخرها بطركية هرقل بالأسكندرية فأرادوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف في التعظيم فدعوه البابا
ومعناه أبو الآباء وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر على ما زعم جرجيس بن العبيد في تاريخه ثم
نقلوه إلى صاحب الكرسي الأعظم عندهم وهو كرسى رومة لأنه كرسى بطرس الرسول كما قدمناه فلم
يزل سمة عليه إلى الآن ثم اختلفت النصارى في دينهم بعد ذلك وقبيل بعضهم في المسيح وصاروا
طوائف وفروا واستظهروا بطوك النصرانية كل على صاحبه فاختلف الحال في العصور في ظهور فرقة
دون فرقة إلى أن استقرت لهم ثلاث طوائف هي فرقة ولا يلتفتون إلى غير هاهو الملكية واليعقوبية
والنسطورية ولم تر أن نسخ أوراق الكتاب يذكر مذهب كفرهم فهي على الجملة معروفة وكلها كفر
كما صرح به القرآن الكريم فمذيق يبتناو بينهم في ذلك جدال ولا استدلال إنما هو الإسلام أو الجزية
أو القتل ثم اختلفت كل فرقة منهم ببطرك فبطرك رومة اليوم المسمى بالبابا على رأي الملكية ورومة
للافرنجية وملسكهم ثم بتلك الناحية ويطرك العاهدين بمصر على رأي اليعقوبية وهو ساكن بين
ظهرانهم والحيشة يدينون بدينهم ويطرك مصر فيهم أساقفة بنوبون عنه في إقامة دينهم هنالك
واختص اسم البابا ببطرك رومة لهذا العبد ولا تسمى العاقبة بطركيم بهذا الاسم وضبط هذه اللفظة
بإيمان موحدتين من أسفل والتطرق بها مفضحة والثانية مشددة ومن مذاهب البابا عند الأفرنجية
أنه يحضهم على الانتقاد لذلك واحد يرجعون إليه في اختلافهم واجتماعهم يخرجهم من افتراق الكلمة
ويتحرى به العصبية التي لا فوقها منهم لتكون يده عالية على جميعهم ويسمونه الأبرذور وحرفه الوسط
بين الدال والظاء المعجمتين ومباشره يضع التاج على رأسه للتبرك فيسمى المتوج ولعله معنى لفظة
الأبرذور وهذا ملخص ما أوردناه من شرح هذين الاسمين اللذين هما البابا والكوهن والله يفضل
من يشاء ويهدي من يشاء

٣٥ فصل في مراتب الملك والسلطان وألقابهما

اعلم أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمتا قتيلا فلا بد له من الاستعانة بأبناء جنسه وإذا كان
يستعين بهم في ضرورته معاشه وسائر مهنه فما ظنك بسياسة نوعه ومن استعاض الله من خلقه وعباده وهو
محتاج إلى حماية الكافة من عدوم والمدافعة عنهم وإلى كف عدوان بعضهم على بعض في أنفسهم بأعضاء
الأحكام الوازنة فيهم وكف العدوان عليهم في أموره بأصلاح سابلتهم وإلى حملهم على مصالحهم وما
تعمهم به البلوي في معاشهم ومعاملاتهم من تفقد العايش والسكايل والموازين حذر من التخيف وإلى

النظر في السكة يحفظ النقود التي يتعاملون بها من الغش وإلى سياستهم بما يريد من الاقتصاد
والرضا بمقاصده منهم وانفراد بالجدد ونهم فيتحمل من ذلك فوق الغاية من معاناة القلوب قل بعض
الاشراق من الحكماء لمعاننات ثقل الجبال من أما كنهاهون على من معاناة قلوب الرجال ثم ان
الاستعانة اذا كانت بأولى القربى من أهل النسب أو التربية أو الاصطناع القديم للدولة كانت أكمل
لما يقع في ذلك من حراسة خلقهم لخلقهم فتم المشاكلة في الاستعانة قال تعالى واجعل وزيراً من أهل هرون
أخى أشد به أزرى وأشركه في أمرى وهو إيمان يستعين في ذلك بسيفه أو فقهه أو رأيه أو معارفه
أو يحجابه عن الناس أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن النظر في معاتهم أو يدفع النظر في الملك
كله ويعمل على كفايته في ذلك واضطلاعه فلذلك قد توجد في رجل واحد وقد تفرق في أشخاص وقد
يتفرع كل واحد منهما إلى فروع كثيرة كالقلم يتفرع إلى قلم الرسائل والمخاطبات وقلم الصكوك
والاقتطاعات وإلى قلم الحسابات وهو صاحب الجباية والعتاء وديوان الجيش وكالسيف يتفرع
إلى صاحب الحرب وصاحب الشرطة وصاحب البريد وولاية الثغور * ثم اعلم أن الوظائف
السلطانية في هذه الملة الإسلامية مندرجة تحت الخلافة لا تحت منصب الخلافة على الدين والدنيا كما
قد مر فالأحكام الشرعية متعلقة بجميعها وموجودة لكل واحدة منها في سائر وجوهها العموم
تعلق الحكم الشرعي بجميع أفعال العباد والفقيه ينظر في مرتبة الملك والسلطان وشروط
تقليدها إسداد على الخلافة وهو معنى السلطان أو تعويضاً عنها وهو معنى الوزارة عند كيانى وفي
نظره في الأحكام والأموال وسائر السياسات مطلقاً أو مقيداً أو في موجبات العزل إن عرضت وغير
ذلك من معاني الملك والسلطان وكذا في سائر الوظائف التي تحت الملك والسلطان من وزارة أو جباية
أو ولاية لا بد للفقيه من النظر في جميع ذلك كما قدمناه من انساب حكم الخلافة الشرعية في الملة الإسلامية
على رتبة الملك والسلطان إلا أن كلامنا في وظائف الملك والسلطان ورتبته إنما هو بمقتضى طبيعة العمران
ووجود البشر لا بما يخصها من أحكام الشرع فليس من غرض كتابنا كما علمت فلا نحتاج إلى تفصيل
أحكامها الشرعية مع أنها مستوفاة في كتب الأحكام السلطانية مثل كتاب المناهى أبى الحسن الماوردى
 وغيره من أعلام الفقهاء فإن أودت استيفاءها فإليك بعبارة عنها هنالك وإنما كلمنا في الوظائف الخلاقية
وأفردناها لنميز بينها وبين الوظائف السلطانية فقط لا لتحقيق أحكامها الشرعية فليس من غرض
كتابنا وإنما تسكّم في ذلك بما تقتضيه طبيعة العمران في الوجود الانساني والله الموفق

﴿الوزارة﴾ وهى أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لأن إسمها يدل على مطلق الاعانة فإن
الوزارة مأخوذة إما من الموازنة وهى المعاونة أو من الوزر وهو الثقل كأنه يحمل مع مقاعله أوزاره
وأثقاله وهو راجع إلى المعاونة المطلقة وقد كنا قد متنا في أول الفصل أن أحوال السلطان وتصرفاته لا تعدو
أربعة لأنها إما أن تكون في أمور حماية السكافة وأسبابها من النظر في الجند والسلاح والحروب
وسائر أمور الحماية والمطالبة وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالشرق ولهذا العهد

بالمغرب وإما أن تكون في أمور غاطية تملأ بعد عنه في المكان أو في الزمان وتنفيذه إلا وأمر فيمن هو
محبوب عنه وصاحب هذا هو الكاتب وإما أن تكون في أمور جباية المال وانفاقه وضبط ذلك
من جميع وجوهه أن يكون بمضيعة وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية وهو المسمى بالوزير لهذا
العهد بالمشرق وإما أن يكون في مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن فيعه
وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه فلا تعدو أحواله هذه الأربعة بوجه وكل خطة أورية من
رتبة الملك والسلطان فليها يرجع إلا أن الأرفع منها ما كانت الأمانة فيه عامة فيما تحت يد السلطان من
ذلك الصنف إذ هو يقتضي مباشرة السلطان داخلاً ومشاركته في كل صنف من أحوال ملكه وإما ما كان
خاصاً ببعض الناس أو بعض الجهات فيكون دون الرتبة الأخرى كقيادة ثغر أو ولاية جباية خاصة
أو النظر في أمر خاص كسكة الطعام أو النظر في الكفان هذه كلها نظر في أحوال خاصة فيكون صاحبها
تبعاً لأهل النظر العام وتكون رتبته سرية لا أولئك وما زال الأمر في الدول قبل الإسلام هكذا حتى
جاء الإسلام وصار الأمر خلافة فذهبت تلك الخطط كلها بذهاب رسم الملك إلى ما هو طبيعي من المعاونة
بالرأي والمفاوضة فيه فزعموا أن زواله إذ هو أمر لا بد منه فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه
ويفاوضهم في مهاتمة العامة والخاصة ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى حتى كان العرب الذين
عرفوا الدول وأحوالها في كسرى وقيصروا والتجاشى يسعون أبا بكر وزيره ولم يكن لغيره وزير يعرف
بين المسلمين لذهاب رتبة الملك بذهاب الخلافة الإسلامية وكذا عمر مع أبي بكر وعلى وعثمان مع عمر وأما حال الجباية
والانفاق والحسبان فلم يكن عندهم رتبة لأن القوم كانوا عرباً أميين لا يحسنون الكتاب والحساب
فكانوا يستعملون في الحساب أهل الكتاب أو أفراداً من موالي العجم ممن يجيده وكان قليلاً فيهم وأما
أشرفهم فلم يكونوا يجيدونه لأن الأمية كانت حقتهم التي امتازوا بها وكذلك الحال في الخطابات وتنفيذ
الأمر لم تكن عندهم رتبة خاصة للأمية التي كانت فيهم والأمانة العامة في كتاب القول وتأديته ولم يخرج
السياسة إلى اختياره لأن الخلافة إنما هي دين ليست من السياسة الملكية في شيء وإنما هي في كتابها
صناعة فيستجد الخليفة أحسنها لأن الكل كانوا يعرفون عن مقاصدهم ببلغ العبارات ولم يبق إلا الخط
فكان الخليفة يستيب في كتابه متى عن له من يحسنه * وأما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم
فكان عسكراً بالشرعة فلم يفعلوه فلما انقلبت الخلافة إلى الملك وجاءت رسوم السلطان وألقابه
كان أول شيء يبدى به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يخشون على أنفسهم
من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلى ومعاوية وعمر بن العاص وغيرهم مع ما في
فتحهم من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسوءه
الحاجب وقد جاء أن عبد الملك لما ولي حاجبه قال له قد وليت حاجباً باني الأذن ثلاثة المودن للصلاة
فإنه داعى الله وصاحب البر يدافعاً عما جاء به وصاحب الطعام لئلا يفسد ثم استعمل الملك بعد ذلك فظفر
المشاور والمعين في أمور القبائل والعصائب واستثلافهم وأطلق عليه اسم الوزير ونفى أمر الحسبان في

الموالي والدميين واتخذت لسلالات كاتب مخصوص حوط على أسرار السلطان أن نشهر لنفسه سياسته مع قومه ولم يكن بمثابة الوزير لأنه إنما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان انتهى هو الكلام إذ اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذ هذا في سائر دولة بني أمية فكان النظر للوزير عما في أحوال التدبير والمقاومات وسائر أمور الخبايا والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالأهله وغير ذلك فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت عظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في انفاذ الحل والعقد وتعبت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجود وخضعت لها الرقاب جعل لها النظر في ديوان الحسبان لما احتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه وأضيف إليه الشرية ثم جعل له النظر في القمم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة كما كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الحاتم لسلالات السلطان ليحفظها من الدباغ والشياع ودفع إليه قصار اسم الوزير جعلها لخططي السيف والقمم وسائر معاني الوزارة المعونة حتى لقد دعى جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة التي هي القيام على الباب فلم تكن له الاستفكافه عن مثل ذلك ثم جاء في الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان ونماور فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان أخرى وصار الوزير إذا استبدع محتاجا إلى استنابة الخليفة إياه لذلك أصبح الأحكام الشرعية ونجى على حالها كما تقدم فانتصحت الوزارة حيثئذ إلى وزارة تنفيذ وهي حال ما يكون السلطان قائما على نفسه وإلى وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير مستفدا عليه ثم استمر الاستبداد وصار الأمر للولاة المعجم وتعطل رسم الخلافة ولم يكن لا أولئك المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء في القبل لأنهم خولهم فقسموا بالأماره والسلطان وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الأمراء أو بالسلطان إلى ما يحليه به الخليفة من ألقابه كما تراءى في ألقابهم وتركوا اسم الوزارة إلى من يتولاها بالخليفة في خاصته ولم يزل هذا الشأن عديم إلى آخر دولتهم وفسد اللسان خلال ذلك كله وصارت صناعة ينتحلها بعض الناس فامتنت وترفع الوزراء عنها لذلك ولائهم محم وغيره وليست تلك البلاغة هي المقصودة من لسانهم فتخير لها من سائر الطبقات واختصت به وصارت خادمة للوزير واختص اسم الأمير بصاحب الحروب والجند وما يرجع إليها وبده مع ذلك عالية على أهل الرتب وأمره نافذ في الكل إمانية أو استبدادا واستمر الأمر على هذا ثم جاءت دولة الترك آخرهم فراءوا أن الوزارة قد ابتذلت بترفع أولئك عنها ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور ونظروا مع ذلك متعجب بنظر الأمير نصارت مرؤسة ناقصة فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة وصار صاحب الأحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد وبقي اسم الحجاب في مدلوله واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الحجابة * وأما دولة بني أمية بالاندلس فألقوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافا وأفردوا لكل صنف وزيرا فجعلوا الحسبان

المال وزيراً والترسيل وزيراً وللتظرف في حوائج للتخمين وزيراً وللتظرف في أحوال أهل الثغور وزيراً وجعل لهم بيت يحلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم مباشرة السلطان في كل وقت فارتفع عجله عن عيالتهم وخصوه باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم فارتفعت خطبة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها فأكثرهم يؤمنون بسمي الحاجب كأنه كرمهم جاءت دولة الشيعة بأفريقية والفيروان وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة فأغفلوا أمر هذه الخطط أولاً وتنقيح أسمائها حتى أدركت دولتهم الحضارة فصاروا إلى تقليد الدولتين قبلهم ووضع أسمائها كآثر أفي أخبار دولتهم ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك أغفلت الأمر أولاً للبداهة ثم صارت إلى انتحال الأسماء واللقاب وكان اسم الوزير في مدلوله ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوا في مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحييمهم وخطابهم والآداب التي تليق في الكون بين يديه ورفعا خطبة الحجابة عنه ماشوا ولم يزل الشأن ذلك إلى هذا العهد * وأما في دولة الترك بالشرق فيسمون هذا الذي يقف بالناس على حدود الآداب في اللقاء والتحية في مجالس السلطان والتقدم بالوفود بين يديه الدويدار ويضيفون إليه استيعاب كاتب السر وأصحاب البريد المتصرفين في حاجات السلطان بالقافية وبالخضرة وحلهم على ذلك لهذا العهد والله مولى الأمور لمن يشاء

الحجابة * قد قدمنا أن هذا اللقب كان مخصوصاً في الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ويفلق بابه دولتهم أو يفتح لهم على قدره في مواقفته وكانت هذه منزلة يومئذ من الخطط رؤسها إذ الوزير متصرف فيها بما يراه وهكذا كانت سائر أيام بني العباس وإلى هذا العهد فهي بمصر رئاسة لصاحب الخطبة العليا المسمى بالنائب * وأما في الدولة الأموية بالاندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دولتهم فكانت في دولتهم رفعة غاية كآثر أفي أخبارهم كابن حديد وغيره من حجابهم ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص الاستبداد باسم الحجابة لشر فيها فكان المنصور بن أبي عامر وأبناءؤه كذلك ولما بدوا في مظاهر الملك وأطواره جاء من بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها وكانوا يعدونه شرفاً لهم وكان أعظمهم ملكاً بعد انتحال القاب للملك وأسمائه لا بد له من ذكر الحاجب وذو الوزيرين يعنون به السيف والقلم ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة وبذو الوزيرين على جمعه لخططي السيف والقلم ثم لم يكن في دول المغرب وأفريقية ذكر لهذا الاسم للبداهة التي كانت فيهم وربما يوجد في دولة العبيديين بمصر عند استعظامها وحضارتها لأنه قليل * ولما جاءت دولة الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة البدائية إلى انتحال القاب وتغيير الخطط وتعيينها بالأسماء إلا آخر أفلح لم يكن عندهم من الرتب إلا الوزير فكانوا أولاً يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان في خاص أمره كابن

عطية وعبد السلام الكومي وكان له مع ذلك النظر في الحساب والأشغال المالية ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لأهل نسب الدولة من الموحدين كابن جامع وغيره ولم يكن اسم الحاجب معروفا في دولتهم يومئذ (وأما بنو أبي حفص بأفريقية) فكانت الرئاسة في دولتهم أولا والتقديم لوزير الرأي والمشورة وكان يخص باسم شيخ الموحدين وكان له النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب واختص الحسبان والديوان برتبة أخرى ويسمى متوليها بصاحب الأشغال ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخروج والحاسب ويستخلص الأموال ويعاقب على التفريط وكان من شرطه أن يكون من الموحدين واختص عند القلم أيضا بن محيد الترسيل ويؤمن على الأسرار لأن الكتابة لم تكن من متعلات القوم ولا الترسيل بسانهم فلم يشترط فيه النسب واحتاج السلطان لانتفاع ملكه وكثرة الموزقين بداره إلى قهرمان خاص بداره أحواله يحرمها على قدرها ورتبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والاصطبلات وغيرها وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج إليه في ذلك على أهل الحيازة خصوصه باسم الحاجب وربما أضافوا إليه كتابة العلامة على السجلات إذا اتفق أنه يحسن صناعة الكتابة وربما جعلوه لغيره واستمر الأمر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب ثم الرأي والمشورة فصارت الخطة أرفع الرتب وأوعيا للخطط ثم جاء الاستيلاء والحجر مدة من بعد السلطان الثاني عشر منهم ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان أبو العباس على نفسه وأذهب آثار الحجر والاستيلاء بأذهاب خيلة الحيازة التي كانت سما إليه وبأشهر أموره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد والأمر على ذلك لهذا العهد

﴿ وأما دولة زناتة بالمغرب ﴾ وأعظمها دولة بني مرين فلا أثر لاسم الحاجب عندهم وأما رئاسة الحرب والعساكر فهي الوزير ورتبة القلم في الحسبان والرسائل راجعة إلى من يحسنهم أهلها وإن اختصت بعض البيوت المصطنعين في دولتهم وقد تجمع عندهم وقد تفرق وأما باب السلطان وحجبه عن العامة فهي رتبة عندهم فيسمى صاحبها عندهم بالمزوار ومعناه التقدم على الجنادة التصرفين بباب السلطان في تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته وإزالة سطواته وحفظ المعتقلين في سجنونه والعريف عليهم في ذلك فالباب له وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العامة راجع إليه فكانت وزارة صغرى

﴿ وأما دولة بني عبد الواد ﴾ فلا أثر عندهم لشيء من هذه الألقاب ولا تميز الخطط لبداءة دولتهم وقصورها وإنما يخصون باسم الحاجب في بعض الأحوال متفذا الخاص بالسلطان في داره كما كان في دولة بني أبي حفص وقد يجمعون له الحسبان والسجل كما كان فيها حملهم على ذلك تقليد الدولة بما كانوا في تبعها وقتئذ بدعوتها منذ أول أمرهم

﴿ وأما أهل الأندلس لهذا العهد ﴾ فالخصوص عندهم بالحسبان وتنفيذ حال السلطان وسائر الأمور المالية يسمونه بالوكيل وأما الوزير فكان وزير الأمانة قد يجمع له الترسيل والسلطان عندهم يضع

خطه على السجلات كلها فليس هناك خطة العلامة كما لغريم من الدول
 وأما دولة الترك بمصر فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من أهل الشوكووم الترك
 يتفقد الأحكام بين الناس في المدينة وهم متعددون وهذه الوظيفة عندهم تحت وظيفة النيابة التي لها الحكم
 في أهل الدولة وفي العامة على الإطلاق وللنائب التولية والعزل في بعض الوظائف على الأحياء ويقطع
 القليل من الأرزاق ويشتهاونفذوا أمره كما تفعل المراسم السلطانية وكان له النيابة المطلقة عن السلطان
 وللعجائب الحكم فقط في طبقات العامة والجند عند الترافع اليهم وإخبار من أتى لالتحاق بالحكم وظورهم
 تحت طور النيابة والوزير في دولة الترك هو صاحب حيازة الأموال في الدولة على اختلاف أصنافها من
 خراج أو مكس أو جزية ثم في نصريفها في الانفاقات السلطانية أو الجرايات انقدر له مع ذلك التولية
 والعزل في سائر العمال المباشرين لهذه الحيازة والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أصنافهم ومن عوائدهم
 أن يكون هذا الوزير من صنف القبط القاطنين على ديوان الحبايز والحيازة لاختصاصهم بذلك في
 مصر منذ عصور قديمة وقد يوليها السلطان بعض الأحياء لا أهل الشوكووم من رجالات الترك أو أبناءهم
 على حسب الداعية لذلك والله مديرو الأمور ومصرفها بحكمته لا إله إلا هو رب الأولين والآخرين

﴿ ديوان الأعمال والحبايات ﴾

إعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام على أعمال الحبايات وحفظ حقوق
 الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم ومصرف أعطياتهم في أماناتها
 والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومة تلك الأعمال وقبارة الدولة وهي كلها مسطورة في كتاب
 شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبنى على جز كبير من الحساب لا يقوم به إلا الأئمة من أهل تلك
 الأعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها ويقال إن أصل
 هذه التسمية أن كسرى نظروها إلى كتاب ديوانه وهم عصبون على أنفسهم كأنهم يحادثون فقال ديوانه
 أي عباين بلغة الفرس فسمى موضعهم بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفا لقليل ديوان ثم نقل
 هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسابات وقيل أنه اسم للشياطين بالفارسية
 سمى الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم في فهم الأمور ووقوفهم على الجلي منها والخفي وجمعهم لما شدوا تفرق ثم
 نقل إلى مكان جلوسهم لتلك الأعمال وعلى هذا فيقول اسم الديوان كتاب الرسائل ومكان جلوسهم باب
 السلطان على ما يأتي بعد وقد تفرده هذه الوظيفة بنظر واحد ينظر في سائر هذه الأعمال وقد يفر دكل
 صنف منها بنظر كما يفر في بعض الدول النظر في العساكر واقطاعاتهم وحبايات أعطياتهم أو غير ذلك
 على حسب مصطلح الدولة وما قرره أولوها واعلم أن هذه الوظيفة إنما أحدث في الدول عند تمكن الغلب
 والاستيلاء والنظر في أعطاف الملك وفتون التمديد وأول من وضع الديوان في الدولة الإسلامية عمر
 رضي الله عنه يقال لسبب مال أتى به أبو هريرة رضي الله عنه من البحرين فاستكثروه وتبعوا في قسمه

فسموا إلى احصاء الاموال و ضبط العطاء و الحقوق فأشار خالف بن الوليد بالديوان و قل رأيت ملوك الشام يدونون قبل منه عمر و قيل بل أشار عليه به الهرمزان لما رأى بيعت البعوت بغير ديوان فقبل له و من يعلم بنية من يعيب منهم فإن من تخلف أخل بمكانه و إنما يضبط ذلك الكتاب فأثبت لهم ديوانا و سأل عمر عن اسم الديوان فعبثوا لما اجتمع ذلك أمر عقيل بن أبي طالب و غزوة بن نوفل و جبير بن مطعم و كانوا من كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الإسلامية على ترتيب الأتباع مبتدأ من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم و ما بعدها الأقرب فالأقرب هكذا كان ابتداء ديوان الجيش و روى الزهري عن سعيد بن المسيب أن ذلك كان في الهرمسة سنة ثمان و أماديو ان الخراج و الجبايات فبقى بعد الاسلام على ما كان عليه من قبل ديوان العراق بالفارسية و ديوان الشام بالرومية و كتاب الدواوين من أهل العهد من الفريقيين و لما جاء عبد الملك بن مروان و استحال الأمر ملكا و انتقل القوم من غصاة اليد او إلى رونق الحضارة و من سذاجة الأمية إلى حذق الكتابة و ظهر العرب و مواليهم مبررة في الكتاب و الحسان فأمر عبد الملك و سليمان بن سعد و إلى الأندلس لعهده أن ينقل ديوان الشام إلى العربية فأكله لسنة من يوم ابتدأه و وقف عليه سرحون كاتب عبد الملك فقال لكتاب الروم اطلبوا العيش في غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم و أماديو ان العراق فأمر الحجاج كاتبه صالح بن عبد الرحمن و كان يكتب بالعربية و الفارسية و لفتن ذلك عن زاذان فروخ كاتب الحجاج قبله و لما قتل زاذان في حرب عبد الرحمن الأشعث استخلف الحجاج صالحا هذا مكانه و أمره أن ينقل الديوان من الفارسية إلى العربية ففعل و زعم لذلك كتاب الفرس و كان عبد الحميد بن يحيى يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب ثم جعلت هذه الوظيفة في دولة بني العباس مضافة إلى من كان له النظر فيه كما كان شأن بني برمك و بني سهل بن نوح و غيرهم من وزراء الدولة و أمما يتعلق بهذه الوظيفة من الأحكام الشرعية مما يختص بالجيش أو بيت المال في الدخل و الخرج و تمييز النواحي بالصلح و العتوة و في تقليد هذه الوظيفة لمن يكون و شروط الناظر فيها و الكتب و فوائده الجبايات فأمر راجع إلى كتب الأحكام السلطانية و هي مسطورة هناك و ليست من غرض كتابنا و إنما نتكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدد الكلام فيه و هذه الوظيفة جزء عظيم من الملك بل هي ثالثة أركانها لأن الملك لا بد له من الجند و المال و الخطابة لمن غاب عنه فاحتاج صاحب الملك إلى الأعوان في أمر السيف و أمر القلم و أمر المال فينفرد صاحب الملك بجزء من رئاسة الملك و كذلك كان الأمر في دولة بني أمية بالأندلس و الطوائف بعدهم و أما في دولة الموحدين فكان صاحبها إنما يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج الأموال و جمعها و ضبطها و تعقب نظر الولاء و العال فيها ثم تنفيذها على قدرها و في مواقيتها و كان يعرف بصاحب الأشغال و كان رعا يباهي الجهات غير الموحدين بمن يحسنونها و استبد بنو أبي حفص بأفريقية و كان شأن الجالية من الأندلس تقدم عليهم أهل البيوتات و فيهم من كان يستعمل ذلك في الأندلس مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني أبي الحسن فاستكفوا

بهم في ذلك وجعلوا لهم النظر في الأشغال كما كان لهم بالاندلس ودالوا فيها بينهم وبين الموحدين ثم استقل بها أهل الحسيان والكتاب وخرجت عن الموحدين ثم لما استغلت أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شأن من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبه مرؤسا للحاجب وأصبح من جملة الجباة وذهبت تلك الرئاسة التي كانت له في الدولة * وأما دولة بني مرين فهذا العهد حسيان العطاء والخراج مجموع لواحد صاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسابات كلها ويرجع إلى ديوانه ونظيره معقب بنظر السلطان أو الوزير وخطه معتبر في صحة الحساب في الخراج والعطاء هذه أصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي علامة النظر ومباشرة للسلطان * وأما هذه الرتبة في دولة الترك فمتنوعة وصاحب ديوان العطاء يعرف بنظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر في ديوان الجباة العامة للدولة وهو أعلى رتب الناظرين في الأموال لأن النظر في الأموال عديم يقتوع إلى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظمة سلطاتهم واتساع الأموال والجبايات عن أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ في الكفاية مبالغة فتعين للنظر العام منها هذا الخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمولى من موالى السلطان وأهل عصيته وأرباب السيوف في الدولة يرجع نظر الوزير إلى نظيره ويحتدج به في متابعتها ويسمى عندها أستاذ الدولة وهو أحد الأُمراء الأكابر في الدولة من الجنود وأرباب السيوف وينبع هذه الخطة خطط عندهم أخرى كلها راجعة إلى الأموال والحسيان مقصورة النظر على أمور خاصة مثل ناظر الخاص وهو المباشر لأموال السلطان الخاصة به من أقطاعه أو سهمانه من أموال الخراج وبلاد الجباة مما ليس من أموال المسلمين العامة وهو تحت يد الأمير أستاذ الدار وإن كان الوزير من الجنود فلا يكون لأستاذ الدار نظر عليه ونظر الخاص تحت يد الخازن لأموال السلطان من ممالكه المسمى خازن الدار لأختصاص وظيفتهما بمال السلطان الخاص هذا بيان هذه الخطة بدولة الترك بالشرق بعد ما قدمناه من أمرها بالمغرب والله مصرف الأمور لأرب غير

ديوان الرسائل والكتابة

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها وأساكا في الدول العربية في البداوة التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع وإنما كد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الأكثر وكان الكتاب للأمر يكون من أهل نسبه ومن عظماء قبيله كما كان للخلفاء وأمراء الصحابة بالشام والعراق أعظم أمانتهم وخلوص أسرارهم فمافسد اللسان وصار صناعة اختص بمن يحسنه وكانت عند بني العباس ربيعة وكان الكتاب يصدر السجلات مطلقة ويكتب في آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم السلطان وهو خابع منقوش فيه اسم السلطان أو شاربه يغمس في طين أحمر مذاب بالماء ويسمى

طين الختم ويطبع به على طرفي السجل عند طيه والصاقه ثم صارت السجلات من بعد تصدير باسم السلطان ويضع الكاتب فيها علامته أولا أو آخرها على حسب الاختيار في محلها وفي لفظها ثم قد تنزل هذه الحطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب في النبوة أو استبداد وزير عليه فتصير علامة هذا الكتاب ملغاة الحكم بعلامة الرئيس عليه يستدل بها في كتب صورة علامته للمعبودة والحكم لعلامة ذلك الرئيس كما وقع آخر الدولة الحفصية لما ارتفع شأن الحجابة وصار أمرها إلى التضييق ثم الاستبداد صار حكم العلامة التي للكتاب ملغى وصورتها ثابتة اتباعا لما سلف من أمرها فصار الحاجب يرسم للكتاب إمعاء كتابه ذلك بخط يصنع ويتخير له من مسيح الانقاذ ماشاء فيأمر الكاتب له ويضع العلامة المعتادة وقد يختص السلطان بنفسه بوضع ذلك إذا كان مستبدا بأمره ثم على نفسه في رسم الأثر للكتاب ليضع علامته ومن خطط الكتابة التوقيع وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه ويصلي ويوقع على النقص المرفوعة إليه أحكامها والنقل فيها من تلقاء من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه فلما أن تصدر كذلك وأما أن يخدموا الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعها وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في النقص بين يدي الرشيد ويرى بالقصة إلى صاحبها فكانت توقيعاته يتنافس البلاء في تحصيلها للتوقيف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل أنها كانت تباع كل قصة منها بدينار وهكذا كان شأن الدرر

واعلم أن صاحب هذه الحطة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فانه معرض للتخلف في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك مما يدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها وقد تكون الرتبة في بعض الدول مستندة إلى أرباب السيوف لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معانات العلوم لا جل سداجة العصبية فيختص السلطان أهل عصبته بخطوط دولته وسائر رتبة فيقتل المال والسيف والكتاب منهم فأما رتبة السيوف فتستغنى عن معاناة العلم وأما المال والكتابة فيضطر إلى ذلك للبلاغة في هذه والحساب في الأخرى فيختارون لها من هذه الطبقة ما دعيت إليه الضرورة ويقلدون له إلا أنه لا تكون يد آخر من هذه العصبية غالبية على يده ويكون نظره منصرفا عن نظره كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالشرق فإن الكتابة عندهم وإن كانت لصاحب الانشاء إلا أنه تحت يد أمير من أهل عصبية السلطان يعرف بالدو يدار وتعمل السلطان ووثوقه به واستقامته في غالب أحواله إلى موثوق به على الأخرى في أحوال البلاغة وتطبيق المقاصد وكتبان الأسرار وغير ذلك من توابعها وأما الشروط المعتبرة في صاحب هذه الرتبة التي يلاحظها السلطان في اختياره وانتقائه من أصفاء الناس فهي كثيرة وأحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكتاب وهي أما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووقفكم

وأرشدكم فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين
ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا وإن كانوا في الحقيقة سواء وصرفهم في صنوف الصناعات
وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم فجعلكم معشر الكتاب في أشرف
الجهات أهل الأدب والروايات والعلم والرياسة بكم ينظم للخلافة محاسنها وتنظيم أمورها
وينصالحكم يصلح الله الخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف إلا منكم فوقعكم
من الملوك موقع أسماهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يسمرون وألسنتهم التي بها ينطقون وأيديهم
التي بها يسطون فأمتمكم الله بتأخضكم من فضل صناعته ولا تزع عنكم ما أضافه من النعمة عليكم وليس
أحد من أهل الصناعات كليا أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحموده وخصال الفضل المذكورة العدد
منكم أيها الكتاب إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفكم فإن الكتاب يحتاج من نفسه ويحتاج
منه صاحبه الذي ينقده في مهمات أموره أن يكون حليما في موضع الخلق فيها في موضع الحكم مقداما
في موضع الأقدام محذرا في موضع الاحجام مؤثرا للضعاف والعدل والانصاف كتمنوا لاسرار وقباعد
الشدة علما بما يأتي من التوازل يضع الأمور مواضعها والطوارق في أمورها كما أنها قد نظرت في كل فن من
فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذه منته يتقار ما يكتب به يعرف بفراسة عقله وحسن أدبه وفنل تجربته
ما يرد عليه فيل وروده وعاقبة ما صدر عنه قبل صدوره فيعدل لكل أمر عدته وعقابه ويهيئ لكل وجه
هيئته وعادته فتناقصوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب وتغلبوا في الدين وأبدوا بكم كتاب الله عز
وجل والقرائن ثم العربية فأنما تناف أنتم ثم أجيدوا الخط فأنه حلية كتبكم وأرووا الأشعار
وأعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها فإن ذلك معين لكم على ما تسموا إليه
مهمكم ولا تضيعوا النظر في الحساب فأنه قوام كتاب الحراج وأرغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنياها
وسفاه الأمور وعافرها فأنها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب وزهوا صانعكم عن الدائمة وأربوا
بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجبال وأيامكم والكبر والخبث والعظمة فأنها عداوة
محتبة من غير اخوة وتحابوا في الله عز وجل في صناعته وتواصوا بعينها الذي هو أليق لأهل الفضل والعدل
والنبل من سلفكم وإن بنا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله ويشوب إليه
أمره وإن أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه فزوره وعظموه وشاوروه واستظبروا
بفضل تجربته وقديم معرفته وليكن الرجل منكم على من اصطفيه واستظبر به ليوم حاجته إليه أنحوط منه
على ولده وأخيه فإن عرست في الشغل عمدة فلا يصرفها إلا إلى صاحبه وإن عرست منعمة فليحملها هو من
دونه وليحذر السقطه والزلة واللئالي عند تغير الحال فإن العيب اليك معشر الكتاب أسرع منه إلى الغراء
وهو لكم أفد منه لما فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يذل له من نفسه ما يغيب له عليه من صفه فواجب
عليه أن يتقده من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ما هو جزاء لحقه
ويصدق ذلك تبعاله عند الحاجة إليه والاضطرار إلى ماله فلا تستعروا ذلك وفقكم الله من أنفسكم في حالة

الرخاء والشدّة والحريمان والمواساة والاحسان والسراء والضراء فتعنت الشبهة هذه من وسعها من
أهل هذه الصناعة الشريفة وإذا وفي الرجل منكم أو صير اليه من أمر خلق الله وعياله أمر فليراقب الله
عز وجل وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقا وللظالم منصفان الخلق عيال الله وأحبهم اليه
أرفقهم بعيله ثم ليكن بالعدل حاكما ولا يشرف مكر ما ولقي بموفر أو بالبلاء عامر أو بالرعية متألفا وعن
أذام متخلفا وليكن في مجلسه متواضعا حليما وفي سجلات خراجها واستغناء حقوقه وفياؤها إذا صحب
أحدكم رجلا فليختر خلائفه فإذا شرف حسنها وقيبحها أعانته على ما يوافقها من الحسن واحتال على
صرفه عما يهواه من القبح بالطف حيلة وأحمل وسيلة وقد علم أن سائس البيعة إذا كان بصيرا
بسياستها التمس معرفة أخلاقها فإن كانت رموحها يهيجها إذا ركبها وإن كانت شيوبا انتقامها من بين
يديها وإن خاف منها شرودا توقها من ناحية أسها وإن كانت حروا تقع برفق هو اعلم طريقا فإن
استمرت عطفها يسيرا فليس له قيادها وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعلمهم
وحرهم ودخلهم والكتاب لفصل أدبه وشر يف صنعته ولطف حيلته ومعاملته لمن يحاوله من الناس
وبناظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق لصاحبه ومدار الله تقوم أوده من سائس البيعة
التي لا خير جواها ولا تعرف صوابا ولا تنهم خطايا لا بقدر ما يصير حاله صاحبها الرأكب عليها ألا فارقوا
رحمكم الله في النظر واعملوا ما أمكنكم فيه من الروبة والفكر تأمنوا بأذن الله ممن يحتموه النبوة
والاستشارة والخبرة ويصير منكم إلى الموافقة وتصبروا منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله ولا يحا وزن
الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه ونباله وخدمه وغير ذلك من فنون أدبه
قدر حقه فانكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا يحملون في خدمتكم على التخصير وحفظه
لا تحمل منكم أفعال التضييع والتبذير واستعينوا على عقابكم بالفسد في كل ما ذكرته لكم وقصصته
عليكم واحذروا متالف الكرف وسوء عاقبة الترف فانهما يعيان الفقر ويذلان الرقاب ويقضخان
أهلها ولا سيما الكتاب وأرباب الآداب والأموار أشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على مؤتلف
أعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ثم اسلكوا من ممالك التدبير أو ضياعها وأصدقها حجة وأحمدوا
عاقبة واعلموا أن التدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن اغراضه ورويته فليقتصد الرجل
منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقته وليوجز في ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حججه فإن ذلك
مصلحة لفعاله ومدفعة للشاغل عن اكثاره وليضرب إلى الله في صلة توفيقه وامداد به بقسديده عاقبة
وقوعه في الغلط المضرب بدنه وعقله وآدابه فإنه إن ظن منكم ظان أو قل قائل إن الذي برز من جميل
صنعتة وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تديره فقد تعرض بحسن ظنه أو مقالته إلى أن يكله
الغزو وجل إلى نفسه فيصير منها إلى غير كاف وذلك على من تأمله غير خاف ولا يقول أحد منكم أنه أبصر
بالأمور وأحسن لعب التدبير من مرافقه في صناعته ومصاحبه في خدمته فإن أعقل الرجلين عند ذوي
الآلباب من رمى بالعجب وراء ظهره ورأى أن أصحابه أعقل منه وأجمل في طريقته وعلى كل واحد من

الفرخين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا زكية لنفسه ولا يكثر على أخيه أو نظيره
وصاحبه وعشيرته وحمد الله أجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته
(وأنا أقول) في كتابي هذا ما سبق به النثل من تلزمه النصيحة يلزمه العمل وهو جوهر هذا الكتاب
وغرة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل فلذلك جعلته آخره ونعمته به تولانا الله وإياكم
بإمضاء الطلبة والسكبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده فإن ذلك إليه ويده والسلام
عليكم ورحمة الله وبركاته اهـ (الشرطة) ويسمى صاحبها لهذا العهد بأفريقية الحاكم وفي دولة أهل
الاندلس صاحب المدينة وفي دولة الترك الوالي وهي وظيفة مرؤسة لصاحب السيف في الدولة
وحكمه نافذ في صاحبها في بعض الأحيان وكان أصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم أحكام
الجرائم في حال استبدائها أو لائم الحدود بعد استيفائها فإن التهم التي تعرض في الجرائم لا تنظر
للشروع إلا في استيفاء حدودها والسياسة النظر في استيفاء موجباتها فإن يكرهه عليه الحاكم إذا
احتضت به الفرائض لما توجبه المصلحة العامة في ذلك فكان الذي يقوم بهذا الاستبداء وبإستيفاء
الحدود بعده إذا تراء عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة وربما جعلوا إليه النظر في الحدود
والدماء بإطلاق وأفردوها من نظر القاضي ونزعوها هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء
الخاصة من مواليهم ولم تكن عامة التنفيذ في طبقات الناس إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الرب
والضرب على أيدي الرعايا والفجرة ثم عظمت بهاعتها في دولة بني أمية بالاندلس ونوعت إلى شرطة
كبرى وشرطة صغيرة وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية
والضرب على أيديهم في الظلمات وعلى أيدي أقاربهم ومن اليهم من أهل الجاه وجعل صاحب الصغرى
مخصوصا بالعامة ونصب لصاحب الكبرى كرسي باب دار السلطان ورجال يتبوؤن المقاعد بين
يديه فلا يرحلون عنها إلا في تصرفه وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحا
للوزارة والحجابة وأما في دولة الموحدين بالمغرب فكان لها حظ من التوبة وإن لم يجعلوها عامة وكان لأهلها
إلا رجالات الموحدين وكبرائهم ولم يكن له التحكم على أهل المراتب السلطانية ثم فسد اليوم منصبها
وخرجت عن رجال الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بها من المصطنعين وأما في دولة بني مرين لهذا
العهد بالشرق فولايتها في بيوت من مواليهم وأهل اصطناعهم وفي دولة الترك بالشرق في رجالات
الترك أو أعقاب أهل الدولة قبلهم من الكرد يتخير منهم لها في النظر بما يظهر منهم من الصلاب والمضام في
الأحكام لقطع مواد الفساد وحسم أبواب الدعارة وتخريب مواطن الفسوق وتزريق عياله مع إقامة
الحدود الشرعية والسياسة كما تقتضيه رعاية المصالح العامة في المدينة والله مقلب الليل والنهار وهو
العزيز الجبار والله تعالى أعلم

في قيادة الأساطيل وهي من مراتب الدولة وخطتها في ملك المغرب وأفريقية ومرؤسة لصاحب
السيف وتحت حكمه في كثير من الأحوال ويسمى صاحبها في عرفهم الملقب بتفخيم اللام منقولاً من

لغة الافرنجية فانه اسماها في اصطلاح لغتهم وانما اختصت هذه المرتبة بملك افريقية والمغرب لانها جميعا على ضفة البحر الرومي من جهة الجنوب وعلى عدوته الجنوبية بلاد البركة منهم من سبته الى الاسكندرية الى الشام وعلى عدوته الشمالية بلاد الاندلس والافرنجية والصفالية والروم الى بلاد الشام ايضا ويسمى البحر الرومي والبحر الشامي نسبة الى اهل عدوته والباكتون بسيف هذا البحر وسواحل من عدوته يمانون من احوالهم لانهم امة من اثم البحار فقد كانت الروم والافرنجية والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي وكانت اكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن فكانوا مبرقة في ركوبه والحرب في اساطيله ولما اسف من اسف منهم الى ملك العدو الجنوبي يمثل الروم الى افريقية والقوط الى المغرب اجازوا في الاساطيل وملسكوه وتلقوا على البر بها وانزعوا من ايديهم امرها وكان لهم بها القدن الحافلة مثل قرطاجنة وسيطة وجنولا ومراق وشرشان وطنجة وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم غارب صاحب رومة وبعث الاساطيل لخر به مشحونة بالعساكر والعدد فكانت هذه عادة لاهل هذا البحر الساكنين حثا فيه معرفة في التديم والحديث واما ملك السلون مصر كتب عمر ابن الخطاب الى عمرو بن العاص رضي الله عنهما ان صفى البحر فكتب اليه ان البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف ودع على عود فأوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه ونزع يركبه احد من العرب الا من اثنان على عمر في ركوبه ونال من عقابه كافين يعرجين هرعة الازدي سيد بجيلة لما غزاه عثمان فبلغه غزوه في البحر فأذكر عليه وعنه أنه ركب البحر لغزو ونزع الشان ذلك حتى اذا كان لعهده معاوية أذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على أعواده والسبب في ذلك أن العرب كانوا ابدوا منهم فيكونوا اول الامر مبرة في ثقافته وركوبه والروم والافرنجية نازسهم احواله ومرباهم في التغلب على أعواده من نوا عليه وأحكموا القدرة بثقافته فلما استقر الملك للعرب وشمع سلطانهم وصارت أم العجم خولا لهم ونحت ايديهم وتقرب كل ذي صنعة اليهم ببلغ صناعته واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية انما تركرت ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصراهمها فشرعوا الى الجهاد فيه وأنشؤا السفن فيه واتشوانا وشحنوا الاساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها بالعساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أم الكفر واختصوا بذلك من محالهم وتغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وافريقية والمغرب والاندلس وأوعز الخليفة عبد الملك الى حسان بن النعمان عامل افريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرسا على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيام ريادة الله الأول ابن ابراهيم ابن الأغلب على يد أسد بن القرات شيخ الفتيان وفتح قوصرة ايضا في أيامه بعد أن كان معاوية بن حديج أغزى صقلية أيام معاوية بن أبي سفيان فلم يفتح الله على يديه وفتح على يد ابن الأغلب وقتله أسد ابن القرات وكانت من بعد ذلك أساطيل افريقية والاندلس في دولة العبيدين والامويين تتعاقب الى بلادهم في سبيل الفتنة فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب واتسعى أسطول الاندلس أيام عبد الرحمن

الناصر إلى مائى مراكب أو نحوها وأسطول أفريقية كذلك مثله أو قريباً منه وكان قائد الأساطيل
بالاندلس من رماحس ومرفؤها ليعظم والاقلاع بحماية والمرية وكانت أساطيلها مبنية من سائر الممالك
من كل بلد تتخذ فيه السفن أسطول يرجع نظره إلى قلة من النوانية يدبر أمرهم بدو سلاحه ومقاتلته
ورئيس يدبر أمر جريته بالرمح أو بالهرايق وأمرار سائقي مرفؤها فاذ اجتمع الأساطيل لغزو ومقتل
أو غرض سلطانى مهم عسكرت عرفها بالعلوم وشحنها السلطان برجاله وانجاد عداكره ومو اليه وجعلهم
لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم اليه ثم يسرحهم لوجوبهم وينتظر إياهم
بالفتح والغنيمة وكان المسلمون لعهدك دولة الاسلام قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت
صوتهم وسلطانهم فيه فلو يكن الأمم النصرانية قبل بأساطيلهم إلى من جواندهم واعتدوا عليهم بالفتح
سائر أيامهم فكانت لهم المقامات نه اومه من انفتحعوا الفاتح وملكو سائر الجزائر المقطعة عن السواحل
في مثل ميورقة ومنورقة وبالياسة وسر دانية وصقلية وقوصرة وما لظنوا اقر بطش وقبرص وسائر ممالك
الروم والافرنج وكان أبو القاسم الشيعي وأبنائه يغزون أساطيلهم من المدينة جزيرة جنوة فتقلب
بالظفر والغنيمة وافتتح عبادا امارى صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سر دانية في أساطيله
سنة خمس وأربعائة وارتجعها النصارى وقتها والسعود خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا
البحر وصارت أساطيلهم فيهم جالية وذاعبهو العساكر الاسلامية تبحر والبحر في الأساطيل من صقلية
إلى البر الكبير المقابل لها من الدولة النجالية فتوقع ملوك الافرنج وشحن في ممالكهم كواقع في أيام بني
الحسين ملوك الصقلية القاطنين فيها بدعوة العبيديين وانحازت أم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب
الشمالى الشرق منه من سواحل الافرنجة والصقلية وجزائر الرومانية لا يعدونهم أساطيل المسلمين
قد صيرت عليهم ضراء الأسد على فريسته وقد ملأت الأساطيل من سيط هذا البحر عدة وعددا
واختلفت في طرقهم لبحر با فلم تسبح للنصرانية فيه أنواع حتى إذا أدركت الدولة العبيدية والأموية
الفتيل والوهن وطرقها الاعتدال مد النصارى أيديهم إلى جزائر البحر التي يسميها صقلية وقرطش
وما لظنوا ملكوها ثم ألحوا على سواحل الشام في تلك الفترة وملكو الراس وعسقلان وصور وعكا
واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام وغلبوا على بيت المقدس ونوا عليه كنيسة لأظهار دينهم
وعبادتهم وغلبوا بني خيزرون على حرابلس ثم على قبرص وصقافس ووضعوا عليهم الجزية ثم ملكوا
المدينة مقر ملوك العبيديين من يدا أعقاب بلكين ابن زبرى وكانت لهم في المائة الخامسة الكثرة بهذا
البحر وضعف شأن الأساطيل في دولة مصر والشام إلى أن انقطع ولم يعتوا شئ من أمراء هذا العهد بعد
أن كان لهم في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف في أخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة
هنالك وبقيت بأفريقية والمغرب فصار غنصتها وكان الجانب الغربى من هذا البحر لهذا العهد موقور
الأساطيل ثابت القوة لم ينحيفه عدو ولا كانت لهم به كلفة فكانت دولة الأسطول به لعهدتونة بن ميمون
رؤساء جزيرة قدس ومن أيديهم أخذها عبد المؤمن بسلامهم وطاقتهم وانتهى عدد أساطيلهم إلى

لثلاثة من بلاد العدوتين جريما * وبما استعظمت دولة الموحدين في ثلاثة السادة وملكوا العدوتين
أقاموا خطة هذا الأسطول على أنهم ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائد أسطولهم أحمد الحقلي أصله من
صدغيار الموحدين بحزيرة جرية من مرويكش أسره النصراني من سواحل باوري عندهم واستخلصه
صاحب سقلة واستكفاه ثم هلك وولى ابنه فأستخطه بعض الزعات وخنى على نفسه ولحق
بتونس وتزل على السيدها من بني عبد المؤمن وأجيز إلى مراكش فتلحقه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن
بلمعة والكرامة وأجزل الصلة وقده أمر أساطيلهم في جباد أم النصرانية وكانت له آثار وأخبار
ومقامات مذكورة في دولة الموحدين وانتهت أساطيل المسلمين على عبده في الكثرة والاستحادة إلى
ما لم يلقه من قبل ولا من بعده فاعيد تاه وفاق صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر وانشأ له عهده
بإسترجاع ثغور الشام من أم النصرانية ونظير بيت المقدس من رجس الكفر وبنااته تايغت
أساطيلهم الكفرية بالندواتك الثغور من كل ناحية قريصة لبيت المقدس الذي كانوا اغداستوا عليه
فأمدهم بالعدد والأقوات ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لاستمرار القلب لهم في ذلك الجانب
الشرقي من البحر وتعد أساطيلهم في موضع المدين مندر مان طويل عن ممانتهم هناك كما أشرنا إليه
قبل فاقود صلاح الدين على أبي يعقوب المنصور سلطان المغرب لعبد من الموحدين وسو له عبد الكريم
ابن منفذ من بيت بني منقذ ملوك شيرز وكان ملكا من أيديهم وأبقى عليهم في دولته فبعث عبد الكريم
منهم هذا إلى ملك المغرب طالب الممدد الأساطيل ليجوز في البحر بين أساطيل الكفرة وبين مرامهم من
إمداد النصرانية بثغور الشام وأحبه كتابه إليه في ذلك من إنشاء الفاضل البيسانى يقول في افتتاحه
فتح الله سيدنا أبواب المناجح والميامن حيا نقله العباد الأصفيانى في كتاب الفتح القدسي فقم
عليهم المنصور تحافهم عن خطابه بأمر المؤمنين وأمره في نفسه وحملهم على مناهج البر والكرامة
وردم إلى مرسلهم ولم يحبه إلى حاجته من ذلك وفي هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالأساطيل
وما حصل للنصرانية في الجانب الشرقي من هذا البحر من الاستطالة وعدم رعاية الدول بمصر والشام
لذلك العهد وما بعده شأن الأساطيل البحرية والاستعداد منها للدولة ولما هلك أبو يعقوب المنصور
واعظمت دولة الموحدين واستولت أم الجلالة على أكثر من بلاد الأندلس وأجزاء المسلمين إلى
سيف البحر وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من البحر الرومي قويت ريجهم في بسط هذا البحر
واشدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه إلى المساواة معهم كما وقع لعهد
السلطان أبي الحسن ملك زنافة بالمغرب فان أساطيله كانت عند مرامه الجهاد مثل عدة النصرانية
وعديدهم ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة
العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسية ورجع النصارى فيه إلى دينهم المعروف من
الدربة فيه والمران عليه والبصر بأحواله وغلب الأثم في بخته وعلى أعواده وحار المسلمون فيه كالأجانب
الأقليات من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لوجودوا أكثر من الأنصار والأعوان أو قوة

من الدولة تستجيب لهم أعوانا وتوضح لهم في هذا الغرض مملكة أو بيت الرتبة لهذا العهد في الدولة الغربية مفضولة والرسم في معاناة الأساطيل بالإنشاء والركوب معهودا لما عساه تدعو إليه الحاجة من الأساطيل اعراض السلطانية في البلاد البحرية والمسلمون يستهونون الرشح على الكفر وأهله فمن المستهينين أهل المغرب عن كتب الخدثان أنه لا بد للمسلمين من الكثرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الأفرنجية وأن ذلك يكون في الأساطيل والله ولي المؤمنين وهو وحده بناوهم الوكيل

٣٦ فصل في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

(اعلم) أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره الآن الحاجة في أول الدولة إلى السيف مادام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة إلى القلم لأن القلم في تلك الحال خادم فقط متقد للحكم السلطاني والسيف شريك في المعونة كذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها كما ذكرناه ونقل أهلها بآبائهم من الهرم الذي قدمناه فتحتاج الدولة إلى الاستظهار بأرباب السيوف وتقوى الحاجة إليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها كما كان شأن أول الأمر في تمهيدها فيكون للسيف منزلة على القلم في الحالتين ويكون أرباب السيف حينئذ أوسع جاهها وأكثر نفعة وأبقى إقطاعا وأما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف لأنه قد تعبد أمره ولم يبق معه إلا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الأحكام والقلم هو المعين في ذلك فتعظم الحاجة إلى تصرفه وتكون السيوف ميسرة في مضاجع العمادها إلا إذا نابت نائبة أودعيت إلى سد فرجة وما سوى ذلك فلا حاجة إليها فتكون أرباب الأقلام في هذه الحاجة أوسع جاهها وأعلى رتبة وأعظم نفعة وزروة وأقرب من السلطان مجلسا وأكثر إليه ترددا وفي خلواته نجاة لأنه حينئذ آتته التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه والنظر في أعطافه وتقيف أطرافه والمباهاة بأحواله ويكون الوزراء حينئذ وأهل السيوف مستغني عنهم بمعدين عن باطن السلطان حذرين على أنفسهم من بوارده وفي معنى ذلك ما كتب به أبو مسلم للمصور حين أمره بالقدوم أما بعد فإنه مما حفظناه من وصايا الفرس أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدخاء سنة الله في عباده والله سبحانه وتعالى أعلم

٣٧ فصل في شارات الملك والسلطان الحاجة به

(اعلم) أن السلطان شارات وأحوالا تقتضيها الأبهة والبذخ فيختص بها ويتميز باستحالتها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء في دولته فلتدكر ما هو مشتهر منها ببلغ المعرفة وفوق كل ذي علم عليم ﴿الآلة﴾ فمن شارات الملك اتخاذ الآلة من نشر الألوية والرايات وقرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون وقد ذكرنا سطو في الكتاب المنسوب إليه في السياسة أن السرفي ذلك أدهاب العدو في الحرب فإن الأصوات الهائلة لها تأثير في النفوس بالروع والغلبة يرى أنه أمر وجداني في مواطن الحرب يحده كل أحد من نفسه وهذا السبب الذي ذكره أرسطو أن كان ذكره فهو صحيح بعض

الاعتبارات وأما الحق في ذلك فهو أن النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة يشتهي بها الصعب ويستمت في ذلك الوجه الذي هو فيه وهذا موجود حتى في الحيوانات العجم يافعل الأبل بالخداء والحيل بالصفير والصرير كما علمت ويزيد ذلك تأثير إذا كانت الأصوات مناسبة كافي الغناء وأنت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى ولا أجل ذلك تتخذ العجم في مواطن حروبهم الآلات الموسيقية (١) لأطبلا ولا يوقا فيحرق المغنون بالسلطان في موكبهم بالآلهم ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم إلى الاستماتة ولقد رأينا في حروب العرب من يتغنى أمام الموكب بالشعر ويضطرب فتجيش هم الأبطال عافيا ويسارعون إلى مجال الحرب وينبعث كل قرن إلى قرنه وكذلك زناتة من أم المغرب يتقدم الشاعر عندهم أمام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسي ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها ويسمعون ذلك الغناء قاصوا كابت وأصله كلمة فرح يحدث في النفس فتنبعث عنه الشجاعة كما تنبعث عن نشوة الخمر بما يحدث عنها من الفرح والله أعلم

وأما تكثير الرايات وتلوينها وإطالها في قصد به التحويل لأكثر ورما يحدث في النفوس من التحويل زيادة في الأقدام وأحوال النفوس وتلوينها غريبة والله الخلاق العظيم ثم أن الموكب والدول يختلفون في اتخاذ هذه الشارات فمنهم مكثر ومنهم مقلد بحسب ادراع الدولة وعظمتها فأما الرايات فلها شعار الحروب من عهد الخليفة ولم تزل الأمم تعقدها في مواطن الحروب والغزوات ولعبد النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء وأما قرع الطبول والنفخ في الأتواق وكان المسلمون لأول الللة متحافين عنه تترها عن غلظة النلك ورفضاً لحواله واحتقاراً له التي ليست من الحق في شيء حتى إذا انقضت الخلافة ملكا وتجعجعا زهرة الدنيا وتعيمها ولا يسهم الموالي من الفرس والروم أهل الدولة بالسالة وأروما كان أولئك ينتحلونه من مذاهب البذخ والترف فكان مما استحسنوه اتخاذ الآلة فأخذوها وأذنوا العظم في اتخاذها تنوعها بالملك وأهله فكثيرا ما كان العامل صاحب الشجر أو قائد الجيش يعقد له الخليفة من العباسيين أو العبيديين لواءه ويخرج إلى يث أو عمله من دار الخليفة أو داره في موكب من أصحاب الرايات والآلات فلا يعز بين موكب العامل والخليفة إلا بكثرة الألوكة وقلتها أو بما اختص به الخليفة من الألوكة لرايته كالسواد في رايات بني العباس فان رايتهم كانت سودا حزنا على شهيد منهم من بني هاشم وتعالى بني أمية في قتلهم ولذلك سمو السوددة ولما اقرق أمر الهاشمين وخرج الطالبيون على العباسيين في كل جهة وعصر ذهبوا إلى مخالفتهم في ذلك فأخذوا الرايات بيضاء وسحوا البيضة لذلك سائر أيام العبيديين ومن خرج من الطالبيين في ذلك العهد بالشرق كالداعي بطبرستان وداعي صعدة أو من دعا إلى بدعة الرافضة من غيرهم كالقرامطة ولما نزع المؤمنون عن لبس السواد وشعاره

(١) قوله الموسيقية وهي نسخة لتوسيقاريه وهي مصبغة لأن الموسيقي بكسر الميم بين المنحنيين اسم للنغم والألحان وتوفيقها ويقال فيها موسيقير ويقال لضارب الآلة موسيقار انظر أول مئونة الشيخ محمد شهاب

في دولته عدل إلى ملوك الحضرة فجعل رأيته خضراء ، وأما الاستكثار منها فلا ينشئ إلى حد وقد كانت آلة
العبيدين لما خرج العزيز إلى فتح الشام خمسمائة من النود وخمسمائة من الأيوان وأما ملوك البربر
بالمغرب من صنهاجة وغيره فلم يقتصروا بلون واحد بل وشوها بالذهب وأخذوها من الحرير الخالص
ملونة واستمرروا على الأذن فيها العالمة حتى إذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناتة قصبوا الآلة
من الطبول والنود على السلطان وحظروها على من سواه من جماله وجعلوها موكبا خاصا يتبع
أثر السلطان في مسيره يسمى الساقة وفيه بين مكثر ومقلل باختلاف مذاهب الدول في ذلك فمنهم
من يقتصر على سبع من العدد تترك السبعة كما هو في دولة الموحدين وبني الأحمر بالأندلس ومنهم من
يلج العشرة والعشرين كما هو عند زناتة وقد بلغت في أيام السلطان أبي الحسن فيما ذكر كنهه مائة
من الطبول ومائة من النود ملونة بالحرير منسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير وأخذون للولادة والعمال
والقواد في اتخاذ آية واحدة صغيرة من السكان بيضاء وطويلة صغير أيام الحرب لا يشجاوزون ذلك
وأما دولة الترتك فهذا العهد بالشرق فيتخذون أولاد آية واحدة عظيمة وفي رأسها خصلة كبيرة من
الشعر يسمونها الشالاش والجتر وهي شعار السلطان عندهم ثم تعدد الرايات ويسمونها السناجق
واحدة سناجق وهي الراية بلسانهم وأما الطبول فيألفون في الاستكثار منها ويسمونها الكوسات
ويديحون لكل أمير أوفد عسكري أن يتخذ من ذلك ما يشاء إلا الجتر فإنه خاص بالسلطان وأما الجلالفة
فهذا العهد من أم الأفرنجية بالأندلس فأكثر شأنهم اتخاذ الأتربة القليلة ذاعبة في الجوصعدا ومعبها
قرع الأوتار من الطنابير ونفع القيطات يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقه في مواطن حروبهم
هكذا يلفنا عنهم وعمن وراهم من ملوك العجم ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف
السننم وأوانهم إن في ذلك لآيات للعالمين

﴿ السرر ﴾ وأما السرر والتبر والنخت والكرسي وهو أعود منصوبة أو أرائك منصبة
لجلوس السلطان عليها مرتفعا عن أهل مجلسه أن يساوهم في الصعيد ولم يزل ذلك من سنن الملوك قبل
الإسلام وفي دول العجم قد كانوا يجلسون على أسرة الذهب وكان سليمان بن داود صلوات الله عليها
وسلامه كرسي وسرر من عاج مغطى بالذهب لإلآته لا تأخذه الدول إلا بعد الاستفحال والترف
شأن الآئمة كلها كما قلناه وأما في أول الدولة عند البداوة فلا يتشرفون إليه * وأول من اتخذ
في الإسلام معاوية واستأذن الناس فيه وقال لهم إني قد بددت فأذنوا له فاتخذته واتبه الملوك
الإسلاميون فيه وصار من منازع الآئمة وانفد كانت عمرو بن العاص بمصر يجلس في
قصره على الأرض مع العرب ويأتيه القوقى إلى قصره ومع سرر من الذهب محمول على الأيدي
لجلوسه شأن الملوك فيجلس عليه وهو أمامه ولا يغيرون عليه وقام له بما اعتقد معهم من التهمة وانظر
لآئمة الملك ثم كان بعد ذلك لبني العباس والعبيدين وسائر ملوك الإسلام شرقا وغربا من الأسرة
والمنابر والنخوت ماعفا عن الأكامرة والقياصرة والله مقلب الليل والنهار ﴿ السكة ﴾ وهي الختم

على الدنانير والدرهم المتعامل بهما بين الناس يطايع حديد ينقش فيه صور أو كلات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فنخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار التقدمين ذلك الجنس في خلوصه بالسبائك مرة بعد أخرى وبعد تقدير أشخاص الدرهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون التعامل بها عددا وإن لم يقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزنا وللفظ السكة كان إسماعيل طابع وهي الحديدة المستخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش المائلة على الدنانير والدرهم ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجته وشروطه وهي أو ثلثة فصار عملا عليها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية لذلك إذ بهما يتميز الخالص من الغشوش بين الناس في النقود وعند التعاملات ويتقون في سلامتها الغش عثم السلطان عليها بتلك النقوش العروفة وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بهما مثل تمثال السلطان لعيدها أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع أو غير ذلك ولم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أمرهم * ولما جاء الإسلام أنقل ذلك لسداجة الدين وبدوادة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزنا وكانت دنانير الفرس ودرهمهم بين أيديهم يردونها في معاملتهم إلى الوزن ويتصارفون بها بينهم إلى أن تفاخس الغش في الدنانير والدرهم لغلبة الدولة عن ذلك وأمر عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيدين المسيب وأبو الزناد بضرب الدراهم ونقش النقوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين وقل المدائني سنة خمس وسبعين ثم أمر بصرفها في سائر الأنواح سنة ست وسبعين وكتب عليها الله أحد الله الصمد ثم ولي ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك بنو السكة ثم بالغ خالد القسري في تجويدها ثم يوسف بن عمر بعده وقيل أول من ضرب الدنانير والدرهم مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولي الحجاز وكتب عليها في أحد الوجحين بركة الله وفي الآخر اسم الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسمه وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام حمير وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الإسلام ستة دنانق والتمثال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم أيام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطا ومنها اثنا عشر ومنها عشرة قيراطا حتى إلى تقديره في الزكاة أخذ الوسط وذلك اثنا عشر قيراطا فكان المثقال درهما وثلاثة أسباع درهم وقيل كان منها البغلي ثمانية دنانق والطبري أربعة دنانق والغربي ثمانية دنانق واليماني ستة دنانق فأمر عمر أن ينظر ألا غلب في التعامل فكان البغلي والطبري وهما اثنا عشر دنانقا وكان الدرهم ستة دنانق وإن زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالا وإذا نقصت ثلاثة أعداد المثقال كان درهما فلما رأى عبد الملك اتخاذ السكة لفسانة القديين الجارين في معاملة المسلمين من الغش فعين مقدارها على هذا الذي استقر لعهد عمر رضي الله عنه وأخذ طابع الحديد وأخذ فيه كلات لاصور لأن العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناجهم وأظهرها مع أن الشرع ينهى عن الصور فلما فعل ذلك استمر بين الناس في أيام الامة كلبا وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين والسكاتية عليهما في دوائر متوازية يكتب فيها من أحد الوجحين

أسماء الله تهللا وتحميدا وصلاة على النبي وآله وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة وهكذا أيام
العباسيين والعبديين والأمويين وأما صاحبها فلم يتخذ واسكة إلا آخر الأمر اتخذها منصور صاحب
بجاية ذكر ذلك ابن حماد في تاريخه ولما جاءت دولة النوحدين كان محاسن لهم المهدى اتخذ سكة الدرهم
مربع الشكل وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه ويعلو من أحد الجانبين تهللا وتحميدا
ومن الجانب الآخر كتب في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده ففعل ذلك الموحدون وكانت سكنتهم على
هذا الشكل لهذا العهد ولقد كان المهدى فيما ينقل يمتع قبل ظهوره بصاحب الدرهم والمربع فعتة
بذلك المتكلمون بالحدائق من قبله المخبرون في ملاحظهم عن دولته وأما أهل المشرق لهذا
العهد فسكنتهم غير مقصورة وإنما يتعاملون بالدينار والدرهم وزنا بالصنجات المقصورة بعدة منها
ولا يطعون عليها بالسكة فحوش الكلمات بالتهليل والصلاة واسم السلطان كما يفعله أهل المغرب
ذلك تقدير العزيز العليم (ولنختم الكلام) في السكة يذكر حفيضة الدرهم والدينار الشرعيين
وبيان حقيقة مقدارها وذلك أن الدينار والدرهم مختلفا السكة في المقدار والتوازن بالآفاق والأقسام
وسائر الأبحاث والشرع قد تعرض لذلك كثيرا وعلم كثيرا من الأحكام بهما في الزكاة والأحكام
والحدود وغيرهما فلا بد لها عند من حقيقة ومقدار معين في تقدير تجري عليها أحكامهم دون غير الشرعي
منها فاعلم أن الإجماع منعقد منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين أن الدرهم الشرعي هو
الذي وزن العشرة منسبعة مثاقيل من الذهب والآلية منه أربعين درهما وهو على هذا سبعة أعشار
الدينار ووزن المثقال من الذهب اثنتان وسبعون حبة من الشعير فالدرهم الذي هو سبعة أعشاره خمسون
حبة وخمسة حبات وهذه التقادير كلها ثابتة بالإجماع فإن الدرهم الجاهلي كان بينهم على أنواع أحوالها الطبري
وهو غانية دوائق والبغلي وهو أربعون دوائق فجعلوا الشرعي بينهما وهو ستون دوائق فكانوا يوجبون
الزكاة في مائة درهم بغلي ومائة طبرية خمسة دراهم وسطا وقد اختلف الناس هل كان ذلك من موضع
عبد الملك أو إجماع الناس بعد عليه كما ذكرناه ذلك الخطام في كتب معالم السنن والموارد في الأحكام
السلطانية وأنكره المحققون من المتأخرين لما يترجم عليه أن يكون الدينار والدرهم الشرعيان مجهولين
في عهد الصحابة ومن بعدهم مع تعلق الحقوق الشرعية بهما في الزكاة والأحكام والحدود وغيرهما كما
ذكرناه والحق أنهما كانا معلومين المقدار في ذلك العصر لجرى أن الأحكام يثبت بها يتعلق بهما من الحقوق
وكان مقدارهما غير مشخص في الخارج وإنما كان متعارفا بينهم بالحكم الشرعي على المقدار في مقدارهما
وزنهما حتى استعمل الإسلام وعظمت الدولة ودعت الخلفاء إلى تشخيصها في المقدار والوزن كما هو
عند الشرع ليستريحوا من كثرة التقدير وقارن ذلك أيام عبد الملك فمشخص مقدارها هو عينها في الخارج
كما هو في الذهب ونقش عليها السكة باسمه وتاريخه أثر الشهادتين الأيمانيتين وطرح النشود الجاهلية
رأسا حتى خلصت ونقش عليها السكة وتلاشى وجودها فهذا هو الحق الذي لا عيب عنه ومن بعد ذلك وقع
اختيار أهل السكة في الدول على مخالفة المقدار الشرعي في الدينار والدرهم واختلفت في كل الأقطار والآفاق

ورجع الناس إلى تصور مقاديرها الشرعية ذهنا كما كان في الصدر الأول وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم معرفة النسبة التي بينها وبين مقاديرها الشرعية وأما وزن الدينار بثنين وسبعين حبة من الشعير الوسط فهو الذي تشبهه المحققون وعليه الإجماع إلا ابن حزم خالف ذلك وزعم أن وزنه أربعة وعشرون حبة نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق ورده المحققون وعده وهما غلطا وهو الصحيح والله يحق الحق بكلماته وكذلك تعلم أن الأوقية الشرعية ليست هي المتعارفة بين الناس لأن المتعارفة مختلفة باختلاف الأقطار والشرعية متحدة ذهنا لا اختلاف فيها والله خلق كل شيء قدره تقديرا

﴿ الخاتم ﴾ وأما الخاتم فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الإسلام وبعده وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب إلى قيصر فقبل له أن العجم لا يقبلون كتابا إلا أن يكون غتما فأتخذ خاتما من فضة ونقش فيه محمد رسول الله ﷺ قال البخاري جعل الثلاث كلمات في ثلاثة أسطر وختم به وقل لا ينشأ أحد مثله قال وتختتم به أبو بكر وعمر وعثمان ثم سقط من يد عثمان في بئر أريس وكانت قليلة الماء فلم يدرك قعرها بعد واعتم عثمان وتطير منه وصنع آخر على مثله وفي كيفية نقش الخاتم والختم به وجوه وذلك أن الخاتم يطلق على الآلة التي تجعل في الأصبع ومنه تختم إذا لبسه ويطلق على النهاية والتام ومنه ختمت الأثر إذا بلغت آخره وختمت القرآن كذلك ومنه خاتم النبيين وخاتم الأمر ويطلق على السداد الذي يسد به الأثر والدنان ويقال فيه ختام ومنه قوله تعالى ختامهم مك وقد غلط من فر هذا بالنهاية والتام قال لأن آخر ما يجدونه في شراهم رشح أسك وليس المعنى عليه وإنما هو من الختام الذي هو السداد لأن الخمر يجعل لها في الدن سداد الطين أو القار يحفظها ويطيب عرفها وذوقها فيولغ في وصف خمر الجنة بأن سداده من أسك وهو أطيب عرفا وذوقا من القار والطين للعبودين في الدنيا فإذا صح إطلاق الخاتم على هذه كلها صح إطلاقه على أثرها الناشئ عنها وذلك أن الخاتم إذا شئت به كلمات أو أشكال ثم غمس في مداف من الطين أو مداد ووضع على صفح القرطاس بق أكثر الكلمات في ذلك الصفح وكذلك إذا طبع به على جسم لين كالشمع فإنه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتباً فيه وإذا كانت كلمات وارتفعت فتدبر أمان الجهة اليسرى إذا كان النقش على الاستقامة من اليمين وقد يقرأ من الجهة اليمينى إذا كان النقش من الجهة اليسرى لأن الختم يقلب جهة الخط في الصفح عما كان في النقش من عين أو يسار فيحتمل أن يكون الختم بهذا الخاتم بنفسه في الداد أو الطين ووضع على الصفح فتنتش الكلمات فيه ويكون هذا من معنى النهاية والتام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونقوده كأن الكتاب إنما يتم العمل به بهذه العلامات وهو من دونها ملغى ليس بنام وقد يكون هذا الختم بالخط آخر الكتاب أو أوله بكلمات منتظمة من حميد أو نسيح أو باسم السلطان أو الأمير أو صاحب الكتاب من كان أول شيء من نقوده يكون ذلك الخط علامة على صحة الكتاب ونقوده ويسمى ذلك في المعارف

علامة ويسمى حقاً تشبيهاً له بأثر الخاتم الأصلى فى النقش ومن هذا خاتم القاضى الذى يبعث به
للخصوم أى علامته وخطته الذى ينفذهما أحكامه ومنه خاتم السلطان أو الخليفة أى علامته قال
الرشيد ليحيى بن خاله لما أراد أن يستوزر جعفر أو يستبدل به من الفضل أخيه فقال لا يهيا يحيى
يأبى أن أردت أن أحول الخاتم من يمينى إلى شمالى فكفى له الخاتم عن الوزارة لما كانت العلامة على
الرسائل والصكوك من وظائف الوزارة لعدم ويشهد لصحة هذا الإطلاق ما نقله الطبرى أن معاوية
أرسل إلى الحسن عند مراودته إياه فى الصلح صحيفة بضاعتهم على أسفلها وكتب إليه أن اشترط فى هذه
الصحيفة التى ختمت أسفلها ما شئت فهو لك ومعنى الختم هنا علامة فى آخر الصحيفة بخط أو غيره
وعنتم أن الختم به فى جسم لين فتنتش فيه حروفه ويجعل على موضع الخزم من الكتاب إذا خزم
وعلى المودعات وهو من السداد كما مر وهو فى الوجهين آثار الخاتم فيطلق عليه خاتم وأول من أطلق
الختم على الكتاب أى العلامة معاوية لأنه أمر لعمر بن الزبير عند زياد بالكوفة بمائة ألف ففتح
الكتاب وصير المائة مائتين ورفع زياد حسابه فأنكرها معاوية وطلب بها عمر وحبس حتى قضاه عنها
أخوه عبد الله واتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم ذكره الطبرى وقل آخره وحزم الكتب ولم تكن
تخزم أى جعل لها السداد وديوان الختم عبارة عن الكتاب القائم على إنشاء كتب السلطان والختم
عليها إما بالعلامة أو بالخزم وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه فى ديوان
الأعمال والخزم للكتب يكون إما بدس الورق كما فى عرف كتاب المغرب وإما بلصق رأس الصحيفة
على ما تنطوى عليه من الكتاب كما فى عرف أهل المشرق وقد يجعل على مكان الدس أو الالتصاق علامة
يؤمن من معي من فتحه والاطلاع على ما فيه فأهل المغرب يجعلون على مكان الدس قطعة من الشمع ويختمون
عليها بخاتم نقش فيه علامة لذلك فيرسم النقش فى الشمع وكان فى المشرق فى الدول القديمة ختم على
مكان اللصق بخاتم منقوش أيضاً قد غمس فى مداف من الطين معد لذلك صبغه أحمر فيرسم ذلك النقش
عليه وكان هذا الطين فى الدولة العباسية يعرف بطين الختم وكان يجب من سيرا ف يظهر أنه مخصوص
بها فهذا الخاتم الذى هو العلامة المكتوبة أو النقش للسداد والخزم للكتب خاص بديوان الرسائل
وكان ذلك للوزير فى الدولة العباسية ثم اختلف العرف وحارث إلى الترسيل وديوان الكتاب فى
الدولة ثم صاروا فى دول المغرب يعدون من علامات الملك وشاراته الخاتم للأصبع فيستجيدون صوغه
من الذهب ويرصعونه بالفصوص من الباقوت والفيروزج والزمرد ويلبسه السلطان شارقة فى
عرفهم كما كانت البردة والقضب فى الدولة العباسية والمظلة فى الدولة العبيدية والله مصرف
الأمور بحكمه

(الطراز) من أبهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم فى
طرارز أو أوابهم المعدة لابسهم من الحرير أو الديباج أو الأبريسم تعتبر كتابة خطها فى نسج الثوب الخام
وسدى غيظ الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع فى

تقدر ذلك ووضعه في صناعة نسجهم فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز تصد المتنويه بلايه من السلطان فمن دونه أو التنويه من يخصه السلطان يلبسه إذا قصد تشريفه بذلك أو لا يتلو وظيفة من وظائف دولته وكان ملوك العجم من قبل الاسلام يعملون ذلك الطراز بصور الملك وأشكالهم أو أشكال وصور معينة لذلك ثم اعتاض ملوك الاسلام عن ذلك بكتب أسمائهم مع كلمات أخرى بحري بحري فقال أو السجلات وكان ذلك في الدولتين من أمية الامور وأخيراً حوال وكانت الدور المعدة لنسج أثوابهم في قصورهم تسمى دور الطراز لذلك وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز ينظر في أمور الصياغ والآلة والخامات فيها وأجراء أربابهم وتسهيل آلتهم ومشارفة أعمالهم وكانوا يفتنون ذلك لحواص دولتهم وثقات مواليهم وكذلك كان الخاف في دولة بني أمية بالاندلس والطوائف من بعدهم وفي دولة العبيديين بمصر ومن كان على عهدهم من ملوك العجم بالشرق ثم بالاضاق فطلق الدول عن الترف والتفنن فيه لضيق نطاقها في الاستيلاء وتعددت الدول تعطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من أكثر الدول بالجملة * ولما خاضت دولة الموحدين بالمغرب بعد بني أمية أول المائة السادسة ولم يأخذوا بذلك أول دولتهم لما كانوا عليه من منازع الديانة والسداجة التي اغتصوها عن إمامهم محمد بن تومرت المهدى وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم واستندرك منها أعقابهم آخر الدولة طرفاً لم يكن بتلك الصناعة وأما هذا العهد فأدر كنا بالمغرب في الدولة المرينية لعنقوا منها ونحو خيار ساحلها لاقنوه من دولة ابن الأحمر معاصريهم بالاندلس واتبع هو في ذلك ملوك الطوائف فأتى منه بلحة شاهدة بالأثر * وأما دولة الترك بمصر والشام لهذا العهد فتبعت الطراز تحرير آخر على مقدار ملكهم وعمران بلادهم الآن ذلك لا يصنع في دورهم وقصورهم وليست من وظائف دولتهم وإنما يسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعه من الحرير ومن الذهب الخالص ويسمونه المزر كش لفظة أعجمية ويرسم باسم السلطان أو الأمير عليه ويعد الصانع لهم فيما يعدونه للدولة من طرف الصناعة الاتفة بها والله مقدر المليل والنهار وهو خير الوارثين

الفاسطيط والسياج

اعلم أن من شارات الملك وترفه اتخاذ الأختية والفاسطيط والغازات من ثياب الكتان والصوف والقطن يجعل الكتان والقطن فيباهي بها في الأسفار وتنوع منها الألوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار وإنما يكون الأمر في أول الدولة في بيوتهم التي جرت عادتهم باتخاذها قبل الملك وكان العرب لعهد الخلفاء الأولين من بني أمية إنما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياماً من الوبر والصوف ولم تزل العرب لذلك العهد يادبن الألائل منهم فكانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعنهم وسائر حللهم وأحيانهم من الأهل والوالد كما هو شأن العرب لهذا العهد وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل بعيدة ما بين المنازل متفرقة الأحياء يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه

من الأخرى كشأن العرب وذلك ما كان عبد الملك يحتاج إلى ساقته تحشد الناس على أثره أن يقيموا إذا ظعن ونقل أنه استعمل في ذلك الحجاج حين أشار بدر روح بن زباج وقصتها في أحراق فساطيط روح وخيامه لأول ولايته حين وجد مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة ومن هذه الولاية تعرف رتبة الحجاج بين العرب فإنه لا يتولى إرادتهم على الظعن إلا من يأمر بواحد السفهاء من أحيائهم بماله من العصبية الحائلة دون ذلك ولذلك اختصه عبد الملك بهذه الرتبة ثقة بعنائه فيها بعصبية وصرامته فلما تفتت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبدخ وزلوا المدن والأحصار وانتقلوا من سكنى الحيام إلى سكنى القصور ومن ظهر الحنف إلى ظهر الحافر اتخذوا للسكنى في أسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتاً مختلفة الأشكال مفردة الأمثال من القوراء والمستطيلة والربعة وغيره مخفون فيها بأبلغ مذاهب الاحتفال والزينت ويدبر الأمير والقائد لما ذكر على فساطيطه وفازاته من بينهم سياجا من الكتان يسمى في الغرب بلسان البربر الذي هو لسان أهله أفرالك بالكاف التي بين الكاف والقاف ويختص به السلطان بذلك القطر لا يكون غيره * وأما في المشرق فيتخذ كل أمير وإن كان دون السلطان ثم جنحت الدعة بالنساء والولدان إلى المقام بقصورهم ومنازلهم غفلاً عن ذلك ظهروا وتقاربت الساح بين منازل العسكر واجتمع الجيش والسلطان في معسكر واحد يحصره البصر في بسيطة زهواً أبقالا اختلاف ألوانه واستمر الحال على ذلك في مذاهب الدول في بدخا ورها وكذا كانت دولة الموحدين وزنادة التي أغلقتا كان سفرهم أول أمرهم في بيوت سكناهم قبل الملك من الحيام والقباطين حتى إذا أخذت الدولة في مذاهب الترف وسكنى القصور غادوا إلى سكنى الأخصية والفساطيط وبلغوا من ذلك فوق ما أرادوه وهو من الترف فكان لأن العساكر به قصر عريضة للبيات لاجتماعهم في مكان واحد تشملهم فيه الصيحة ولحقهم من الأهل والولد الذين تكون لاستانة دونهم فيحتاج في ذلك إلى تحفظ آخر والله القوى العزيز

﴿ المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة ﴾

وهما من الأمور الخلافية ومن شارح الملك الاسلامي لم يعرف في غير دول الاسلام * فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجا على الحراب فيحوزه وما يليه فأول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين طعنه الخارجي والقصة معروفة أو قيل أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليماني ثم اتخذها الخلفاء من بعدها وصارت سنة في غير السلطان عن الناس في الصلاة وإنما هي تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفعال شأن أحوال الأبهة كلها وما زال الشأن ذلك في الدول الإسلامية كلها وعند اقراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالشرق وكذا بالاندلس عند انقراض الدولة الأموية وتعدد ملوك الطوائف وأما المغرب فكان بنو الأغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بنو حماد بالقلمة

ثم ملك الموحدون سائر المغرب والأندلس ومحو ذلك الرسم على طريقة الداوة التي كانت شعارهم ولما استفحلت الدولة وأخذت بحظها من القرب وجاء أبو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فأخذ هذه القصور وبيت من بعده مستملوك المغرب والأندلس وهكذا كان الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده * (وأما الدعاء على المنابر) في الخطبة فكان الشأن أولاً عند الخلفاء ولاية الصلاة بأنفسهم فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والرضا عن أصحابه وأول من اتخذ المنبر عمرو بن العاص لما بنى جامع عصر وأول من دعا للخليفة على المنبر ابن عباس دعا لعلي رضي الله عنهما في خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها فقال اللهم انصر علياً على الحق وأصل العمل على ذلك فيما بعد وبعد أخذ عمرو بن العاص المنبر بلغ عمر بن الخطاب ذلك فكتب إليه عمر بن الخطاب أما بعد فقد بلغني إنك اتخذت منبر الرقي به على رقاب المسلمين أو ما يكفيك أن تكون قائماً والمسلمون تحت عفيك فعزمت عليك إلا ما كسرتة فلما حدثت الآية وحدث في الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة استقايوا فيها فكان الخطيب يشهد بذلك الخليفة على المنبر تنويرها باسمه ودعاء له بما جعل الله مصلحة العالم فيه ولا أن تلك الساعة مظنة للأجابة وثابت عن السلف في قولهم من كانت له دعوة صالحة فلبعضها في السلطان وكان الخليفة يفرد بذلك فلما جاء الحجاز والاستبداد وصلار المتغلبون على الدول كثيراً ما يشاركون الخليفة في ذلك يشاد باسمه وذهب ذلك بذهب تلك الدول وصار الأمر إلى اختصاص السلطان بالدعاء على المنابر دون من سواه وحضر أن يشارك فيه أحد أو يسحوا إليه كثيراً ما يفضل الماهدون من أهل الدول هذا الرسم عند ما تكون الدولة في أسلوب الفضاضة ومناحي البداوة في التفاؤل والخشونة ويقنعون بالدعاء على الأسماء والأجملين وفي أمور المسلمين ويسمون مثل هذه الخطبة إذا كانت على هذا النحى عباسية يعنون بذلك أن الدعاء على الأسماء الأغنياء والعباسية تقليداً في ذلك لأسلاف من الأمراء ولا يخفون بما وراء ذلك من تعينه والنصر بح باسمه * يعني أن يفرس ابن زياد ماهد دولة بني عبدالواد لما غلبه الأمير أبو بكر يحيى بن أبي حفص على بستان ثم بداله في إعادة الأمر إليه على شروط شرطها كأن فيها ذكر اسمه على منابر عماله فقال يفرس ابن تلك أعوادهم يذكرون عليها من شأوا وكذلك يعقوب بن عبد الحق ماهد دولة بني مرين حضره رسول المستنصر الخليفة بتونس من بني أبي حفص وثالث ملوكهم وتحلف بعض أيامه عن شهود الجمعة فقيل لهم يحضر هذا الرسول كراهية خلوا الخطبة من ذكر سلطانه فأذن في الدعاء له وكان ذلك سبباً لا خدم بدعوته وهكذا شأن الدول في بدايتها وتمكنها في الفضاضة والبداوة فإذا انتهت عيون سياستهم ونظروا في أعطاف ملكهم واستمعوا شياطين الحضارة ومعاني البدع والآية اتحلوا جميع هذه السمات وتفنوا فيها وتجاروا إلى غايتها وأفقوا من المشاركة فيها وجزعوا من اقتدادها وخلق دولتهم من آثارها والعالم بستان والله على كل شيء رقيب

يعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة تزلز واقعة في الخليقة منذ برأها الله وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصيته فإذا تذاير والتلك وتواقفت الطائفتان أحدهما تطلب الانتقام والآخرى تدافع كانت الحرب وهو أمر طبيعي في بشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الأمم كثيرة إما غيرة ومنافة وإما عدوان وإما غضب لله ولدينه وإما غضب لملك وسعي في تبيده فلا أول أكثر ما يجري بين القبائل المجاورة والعشائر المتناظرة والثاني هو العدو إن أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر كالعرب والترك والتركمان والأكراد وأشباهم لا أنهم جعلوا أرواقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غريمهم ومن دافعهم عن متاعه آذونه بالحرب ولا يفتقهم فيما وراء ذلك من رتبته ولا ملك وانماهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم والثالث هو التوسعي في التربعة بالجهاد والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمافعين لطاعتها في هذه أربعة أصناف من الحروب الصنفان الأولان منها حروب دينية وفتنة والصنفان الآخران حروب جهاد وعدل وحقة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين نوع بالزحف صفوة ونوع بالسكر والفر أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم وأما الذي بالسكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب وقاتل الزحف أوثق وأشد من قتال السكر والفر وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصغوف ونسوى كالتسوي التدافع أو صغوف الصلاة ويصغوفونهم إلى العدو قدما فذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرعب للعدو لأنه كالخائض ثمندو القصر المشيد لا يطعم في إزالته وفي التزليل أن اللذيق الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بيان مرموس أي تشد بعضهم بعضا بالثبات وفي الحديث الكريم المؤمن المؤمن كالنيران يشد بعضهم بعضا ومن هنا يظهر لك حكمة إيجاب الثبات وتحريم التولي في الزحف فإن المقصود من الصف في القتال حفظ النظام كما قلناه فمن ولي العدو وظهره فقد أخل بالمصاف وبأهائم الهزيمة إن وقعت وصار كأنه جرها على المسلمين وأمكن منهم عدوهم فعظم الذنب لعموم المقسدة وتعدية إلى الدين بخرق سياجه فعد من الكبار ويظهر من هذه الأدلة أن قتال الزحف أشد عند الشارع وأما قتال السكر والفر فليس فيه من الشدة والالام من من الهزيمة ما في قتال الزحف إلا أنهم يتخذون وراءهم في القتال مصافا ثابتا يلجئون إليه في السكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف كما تذكره بعد ثم أن الدول القديمة الكثيرة الجنود المنتعة الممالك كانوا يضمون الجيوش والعساكر أنفسهم يضمونها كراديس ويسوون في كل كراديس صفوه وسبب ذلك أنما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشدوا من قاصية النواحي استدعى ذلك أن يجعل بعضهم بعضا إذا اخططوا في عمال الحرب واعتوروا مع عدوهم الثلعن والضرب فيخشي من تدافعهم فيما بينهم لأجل التكرار وجعل بعضهم بعضا فذلك كانوا يضمون العساكر جموعا ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ويرتبونها قريبا

من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع ورئيس العساكر كلها من سلطان أوق في القلب ويسمون هذا الترتيب النعبية وهو مذكور في أخبار فارس والروم والدولتين صدر الاسلام فيجعلون بين يدي اثنا عشر عسكريا منفردا يصفوه متميزا بقائده ورايته وشعاره ويسمونه المقدمة ثم عسكري آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى يمينه يسمونه البعنة ثم عسكري آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه البعنة ثم عسكري آخر من وراء العسكر يسمونه الباقية ويقف الملك وأصحابه في الوسط بين هذه الأربع ويسمون موقفه القلب فإذا تم لهم هذا الترتيب المحكم إما في مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكريين منها أو كيفما أعطاه حال العساكر في القلة والكثرة حينئذ يكون الزحف من بعد هذه النعبية وانظر ذلك في أخبار الفتوحات وأخبار الدوائين بالشرق وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تتخلف عن رحيله بعد المدى في النعبية فأصبح لمن يسوقها من خلفه وعين ذلك الخياط بن يوسف كما أشرنا إليه وكما هو معروف في أخباره وكان في الدولة الأموية بالأندلس أيضا كثير منه وهو محبوب قبل الله تعالى لنا إنما أدركنا دولا قليلة العساكر لأننا تعري في مجال الحرب إلى التناكر بل أكثر الجيوش من الطائفتين معا يجتمعهم ليدبا حلة أو مدينة ويعرف كل واحد منهم قرينه وينادي به في حومة الحرب باسمه ولقبه فاستغني عن تلك النعبية

فصل ومن مذاهب أهل السكر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عسكري من الجادات والحيوانات العجم فيتخذونها ملجأ للحياة في كرم وفرة يطبلون به ثبات المقاتلة ليكون أديم للحرب وأقرب إلى القلب وقد يفعله أهل الزحف أيضا ليريدوا ثباتا وشدة فتدكان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون الفيلة في الحروب ويحملون عليها أبراجا من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات ويصفونها ورائها في حومة الحرب كأنهم حصون فتقوى بذلك نفوسهم ويزدادون قوتهم وانظر ما وقع من ذلك في القادسية وأن فارس في اليوم الثالث اشتدوا بها على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوهم فبعجوا بها بالسيف على خراطيمها ففترت وتكثرت على أعقابها إلى مرابطها بالمدائن فقام عسكري فارس لذلك وانتهز موافق اليوم الرابع وأما الروم وملوك القوط بالأندلس وأكثر العجم فكانوا يتخذون لذلك الأسر يتصبون للملك سريره في حومة الحرب ويحفظ به خدمه وحاشيته وجنوده من هوزعهم بالاستانة تدونه وترفع الرايات في أركان السرير ويخندق به سياج آخر من الرماة والرجال فيعظم هيكل السرير ويصير فة للمقاتلة وملجأ للسكر والفرو جعل ذلك الفرس أيام القادسية وكان رسم جالسافهم على سريره نصبه لجلوسه حتى اختلفت صفوف فارس وخالطه العرب في سريره ذلك فتعول عنه إلى القراطير قتل وأما أهل السكر والفر من العرب وأكثر الأمم البدوية والرحالة فيصفون لذلك إبلهم والظفر الذي يحمل ثلعاتهم فيكون فتكهم ويسمون بها الجبودة وليس أمة من الأمم إلا وهي تفعل ذلك في حروبها وتراه أوثق في الجولة وآمن من الغرة والهزيمة وهو أمر مشاهد وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظفر الحامل الاثقال والقسايط يجملونها

ساقه من خلفهم ولا تغني غناء القبلة والابل فصارت العساكر بذلك عرضة لهم وهم مستشعرون للقرار في المواقف وكان الحرب أول الاسلام كله زحفا وكان العرب إنما يعرفون الكر والفقر لكن حملهم على ذلك أول الاسلام أمران أحدهما أن عدوم كانوا يقاتلون زحفا فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم الثاني أنهم كانوا مستعدين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما رسخ فيهم من الايمان والزحف إلى الاستانة أقرب وأول من أبطل الصف في الحروب وصار إلى التعبية كراديس مروان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي والحيري بعده قال الطبري لما ذكر قتال الحيري فولى الخوارج عليهم شيخان ابن عبدالعزيز اليشكري وبلغب أبا الدلفاء وقتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف من يومئذ انتهى فتوسى قتال الزحف بأبطال الصف ثم توسى الصغوراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكنهم الخيام كانوا يستكثرون من الابل وسكنى النساء والوثان معهم في الأحياء فلما حصلوا على ترف الملك وألفوا سكنى التصور والخواضر وتركوا شأن البادية والفقر نسوا لذلك عهد الابل والطعان وصعب عليهم اتخاذها فنفقوا النساء في الاسفار وحملهم الملك والترف على اتخاذ القناطير والاشجية فاقسموا على الظهير الخامل للائتمان والابنية (١) وكان ذلك صفتهم في الحرب ولا ينبغي كل التناء لأنه لا يدعو إلى الاستانة كما يدعو إليها الأهل والآن فيحلف السبر من أجل ذلك وتصرفهم الخيومات ونحرم صفوفهم

﴿ فصل ﴾ ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكيده في قتال الكر والفقر صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الافرنج في جندهم واخصوا بذلك لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفقر والسلطان يتأكد في حقه ضرب المصاف ليكون ردا للمقاتلة أمامه فلا بد وأن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف والأجفلوا على طريقة أهل الكر والفقر فانهزم السلطان والعساكر باجنادهم فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جندا من هذه الأمة المتعوده للثبات في الزحف وهم الافرنج ويرتبون مصافهم المحدث بهم منها هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكر وانما استخروا ذلك للضرورة التي أربنا كما من تخوف الأجناد على مصاف السلطان والافرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك لأن عادتهم في القتال الزحف فكانوا أقوم بذلك من غيرهم مع أن الملوك في المغرب إنما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب والبربر وقتالهم على الطاعة وأما في الجهاد فلا يستعينون بهم خذرا من ممالئهم على المسلمين هذا هو الواقع بالمغرب لهذا العهد وقد أبدينا سببه والله بكل شيء عليم

﴿ فصل ﴾ وبلغنا أن أم الترك لهذا العهد قتالهم مناضلة بالسهم وأن تعبته الحرب عنده بالمصاف وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف يضربون صفوا وراء صف ويرجلون عن خيولهم ويخرجون سبابهم

(١) قوله (الائتمان) والابنية مراده بالابنية الخيام كما يدل له قوله في فصل المحدث الآتي قريبا اذا نزلوا أنبيا وضربوهم أم

بين أيديهم ثم يتناضلون جثوسا وكل صف رد للذي أمامه أن يكسبهم العدو إلى أن ينهيا النصر لأحدى الطائفتين على الأخرى وهي تعبئة محكمة غريبة

﴿فصل﴾ وكان من مذاعب الأول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون للزحف خذرا من معرفة البيات والهجوم على المعسكر بالليل لما في ظلمته ووحشته من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار وتجد النفوس في الظلمة سترًا من عاره فإذا اتسأفوا في ذلك أرجف العسكر ووقعت الهزيمة فكانوا بذلك يحفرون الخنادق على معسكرهم إذا ارتزوا وضربوا أيديهم ويديرون الحفائر نطافا عليهم من جميع جهاتهم حرصا أن غالطهم العدو بالبيات فيتخاذلوا وكانت للدول في أمثال هذا قوة وعليه اقتدار باحثاد الرجال وجمع الأيدي عليه في كل منازلهم بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك فلما خرب العمران وتبعه ضعف الدول وقلة الجنود وعدم القعدة نسي هذا الشأن جملة كأنه لم يكن والله خير القادرين وانظر وصية على رضي الله عنه وتحريره لأصحابه يوم صفين تجد كثيرا من غم الحرب ولم يكن أحد أبصر بها منه قل في كلام له فسوا صفوكم كالبيان المرصوص وقدموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الأخراس فانه أنى للسيف عن الهام والنوا على أطراف الرماح أصون للأمنة وعضوا الأيصار فانه أربط للجأش وأسكن للقلوب واخذتوا الأصوات فانه أطرد للفسل وأولى بالوقر وأقيموا أياكم فلا تلبوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فانه بقدر الصبر ينزل النصر وقال الأشر يومئذ يحرض الأزد عضوا على النواخذ من الأخراس واستقبلوا القوم بهامكم وشدوا شدة قوم مو نور بن شأرون بأبائهم أو اخوانهم حنافة على عدوم وقد وطنوا على التوت أنفسهم للتلايقوا بوتر ولا يلحقهم في الدنيا عار وقد أشار إلى كثير من ذلك أبو بكر الصير في شاعر ثنونة وأهل الأندلس في كلمة يمدح بها تاشفين بن علي بن يوسف ويصف ثباته في حرب شهدا ويذكره بأمر الحرب في وصايا وتحذيرات تنبهك على معرفة كثير من سياسة الحرب بقول فيها

يا أيها اللا الذي يتفتح * من منكم تلك الهام الأروع
ومن الذي غدر العدو به دجى * فانهض كل وهو لا يتزعزع
عننى الفوارس والطعان يسدها * عنه ويدمرها الوفاء فترجع
والليل من وضع الترائك انه * صبح على هام الجيوش يلح
أنى فرغتم يا بني صهاجة * واليكوم في الروع كان المزعزع
إنسان عين لم يصبه منكم * حزن وقلب أسلمته الأضلع
وصدتمو عن تاشفين وانه * لعقابه لو شاء فيكم موضع
ما أتممو إلا أسود خفية * كل لكل كربة مستطلع

يأناشقين أقم لجيشك عذره * بالليل والعذر الذي لا يدفع
(ومنها في سياسة الحرب)

أهديك من أدب السياسة ما به * كانت ملوك الفرس قبلك تولع
لأننى أدري بها لكم * ذكرى نفع المؤمنين وتضع
واليس من الخلق انضاعة التي * وصى بها صنع الصنائع تبع
والهندوانى الرقيق فاته * أمضى على حد الدلاس وأقطع
واركب من الخيل السوابق عدة * حصنا حصينا ليس فيه مدفع
خندق عليك إذا صربت محلة * سنان تتبع ظافرا أو تتبع
والواد لا تعبره وأزل عنده * بين العدو وبين جيشك يقطع
واجعل مناجرة الجيوش غشية * ووراءك الصديق الذى هو أمنع
وإذا تضايقت الجيوش بتعرك * ضحك قاطراف الزمان توسع
واصدمه أول وهلة لا تكترث * شيا فظهار الكول يضعضع
واجعل من الخلاع أهل شبابة * للصديق فيهم شبة لا تخضع
لا تسمع الكذاب جارك مرجفا * لا أرى بالكذاب فيها يصنع

قوله واصدمه أول وهلة لا تكترث البيت غائب لما عليه الناس في أمر الحرب فقد قل عمر لأنى
عبيد بن مسعود الثقفى ما ولاه حرب فارس والعراق فقال له اسمع وأطلع من أتعاب النبي صلى الله عليه وسلم
وأشركهم فى الأمر ولا تخيبين مدعى حتى تبين غائب الحرب ولا يصلح لها إلا الرجل المكيت الذى يعرف
الفرصة والكف وقلة فى أخرى إن لم يمتنع أن أوامر سيطر إلا سرعت فى الحرب وفى التسرع فى
الحرب إلا عن بيان ضياع والله تولا ذلك لا مرة لكن الحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيت هذا كلام
عمر وهو شاهد بان الشاغل فى الحرب أولى من الخوف حتى تبين حال تلك الحروب وذلك عكس
ما قاله السير فى الآن يريد أن الصدم بعد البيان فله وجه والله تعالى أعلم

(فصل) ولا وثوق فى الحرب بالظفر وإن حصلت أسبابه من العدة والعديد وإنما الظفر فيها والقلب
من قبل البخت والاضاق ويان ذلك أن أسباب الغلب فى الأ* أكثر جمعة من أمور ظاهرة وهى الجيوش
ووفورها وكال الأ* سلحة واستجارتها وكثرة الشجعان وتربيب الصاف ومنه صدق القتال وما جرى
يجرى ذلك ومن أمور خفية وهى إمامن خدع البشر وحيلهم فى الأرجاف والتشابع التى يقع بها التخذيل
وفى التضمد إلى الأ* ما كن البرقة ليكون الحرب من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك وفى الكون فى
الغياب ومطمئن الأرض والثوارى بالكدر عن العدو حتى يتداولهم العسكر دفعة وقد تورطوا
فيتنمون إلى النجاة وأمثال ذلك وأما أن تكون تلك الأسباب الخفية أمور استأوية لا قدرة للبشر
على اكتسابها تلى فى القلوب فيستولى الرعب عليهم لا جلا فتختل مرا كرم فتقع الهزيمة وأكثر ما تقع

المزائم عن هذه الأسباب الخفية لكثرة ما يمتثل لكل واحد من الفريقين فيها حرصا على الغلب فلا بد من وقوع التأثير في ذلك لا أحدهما ضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة ومن أمثال العرب رب حيلة أشنع من قيلة فقد تبين أن وقوع الغلب في الحروب غالبا عن أسباب خفية غير ظاهرة ووقوع الأشياء عن الأسباب الخفية هو معنى البخت كما تقرر في موضعنا فاعتبره وتفهيم من وقوع الغلب عن الأمور السجارية كما نشر حناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر وما وقع من غلبه للمشركين في حياته بالعدد القليل وغلب المسلمين من بعده كذلك في الفتوحات فإن الله سبحانه وتعالى تكفل لبني القاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولى على قلوبهم فيهنز موامه جزء لرسوله صلى الله عليه وسلم فكان الرعب في قلوبهم سببا لمزائمهم في الفتوحات الإسلامية كلها إلا أنه خفي عن العيون وقد ذكر الطرطوشي أن من أسباب الغلب في الحروب أن تفضل عدة الفرسان المشاهير من الشجعان في أحد الجانبين على عدتهم في الجانب الآخر مثل أن يكون أحد الجانبين فيه عشرة أو عشرون من الشجعان المشاهير وفي الجانب الآخر ثمانية أو ستة عشر فالجانب الأول يكون واحد يكون له الغلب وأعاد في ذلك وأبدى وهو راجع إلى الأسباب الظاهرة التي قدمنا وليس بصحيح وإنما يصحح المعنى في الغلب حال العصبية أن يكون في أحد الجانبين عصبية واحدة جامعة لكلامهم وفي الجانب الآخر عصاب متعددة لأن العصاب إذا كانت متعددة يقع بينهم من التخاذل ما يقع في الواحدان المتفرقين النافقين للعصبية إذ تنزل كل عصابة منهم منزلة واحدة ويكون الجانب الذي عصابته متعددة لا يتقارن الجانب الذي عصابته واحدة لأن ذلك فضلهم وأعم أنه أصح في الاعتبار بما ذهب إليه الطرطوشي ونرى على ذلك الانسيان شأن العصبية في خلقهم وبنده وإنهم إنما يرون ذلك الدفاع والحماية والمطالبة إلى الواحدان والجماعة الناشئة عنهم لا يعتبرون في ذلك عصبية ولا نسبا وقد يتنازع أول الكتاب مع أن هذا وأمثاله على تقدير صحتهم إنما هو من الأسباب الظاهرة مثل اتفاق الجيش في العدة وصدق القتال وكثرة الأسلحة وما أشبهها فكيف يجعل ذلك كفيلا بالغلب ونحن قد قررنا لك الآن أن شئنا منها لا يعارض الأسباب الخفية من الحيل والخداع ولا الأمور السجارية من الرعب والخذلان الإلهي ففهمه وتفهيم أحوال الكون والله مقدر الليل والنهار

(فصل) ويلحق بمعنى الغلب في الحروب وبأن أسبابه خفية وغير طبيعية حال الشهرة والصيت فقل أن تصادف موضعيا في أحد من طبقات الناس من الملوك والعلماء والصالحين والمتحلين الفضائل على العموم وكثير من اشتهر بالشروء وهو بخلافه وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها وقد تصادف موضعيا وتكون طبقات على صاحبها والسبب في ذلك أن الشهرة والصيت إنما هما بالأخبار والأخبار يدخلها الدهول عن المقاصد عند التناقل ويدخلها التعصب والتشيع ويدخلها الأوهام ويدخلها الجبل بمطابقة الحكايات للأحوال خفاها بالتليس والتضيق أو لجبل الناقل ويدخلها التقرب لأصحاب النجاة والمرتبة النبوية بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك والنفس مولعة بحب الشاء

والناس متطاولون إلى الدنيا وأسبابها من حاء أو ثروة وليسوا في إلاكثر براغبين في الفسائل ولا منافسين في أهلها وأن مطابقة الحق مع هذه كلها تقتل الشهرة عن أسباب خفية من هذه وتكون غير مطابقة وكل ما حصل بسبب خفي فهو الذي يعبر عنه بالسخت كما تقرر والله سبحانه وتعالى أعلم به التوفيق

٣٩ فصل في الجباية وسبب قلتها وكثرتها

إنما أن الجباية أول الدولة تكون قليلة الزائغ كثيرة الجملعة وآخر الدولة تكون كثيرة الزائغ قليلة الجملعة والسبب في ذلك أن الدولة إن كانت على سنن الدين فليست إلا للمعاش من الصدقات والحراج والجزية وهي قليلة الزائغ لأن مقدار الزكاة من المال قليل كملت وكذا زكاة الجبوب والماشية وكذا الجزية والحراج وجميع المعاش من الدين وهي حدود لا تتعدى وإن كانت على سنن التغلب والعصية فلا بد من البداوة في أوها كما تقدم والبداهة تقتضي المساعة والمكرمة وخفض الجناح والتجافي عن أموال الناس والفضلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر فيقل ذلك مقدار الوظيفة الواحدة والتوزيع التي تجمع الأموال من مجموعها وإذا قلت الزائغ والوظائف على الرعايا تشطوا للعمل ورغبوا فيه فيكثر الاعتزاز ويتزايد حصول الأغنياء بقلة المعاش وإذا كثرت الاعتزاز كثرت أعداد تلك الوظائف والزائغ فيكثر الجباية التي هي حيلتها فإذا استمرت الدولة وانفصلت وتماقت ملكها واحد بعدوا أحدوا وانفقوا بالكبس وذهب شر البداهة والسذاجة وخلقها من الأغنياء والتجافي وجه المثلث العضوض والحضارة الداعية إلى الكبس وتخلق أهل الدولة حينئذ يخلق التحذلق وتكثر عوائدهم وحواسنهم بسبب ما انغمسوا فيه من التعم والترغ فيكثر من الوظائف والزائغ حينئذ على الرعايا والأكرة والفلاحين وسائر أهل المعاشم ويزيدون في كل وظيفة ووزيرة مقدار اعطيا لكثرهم الجباية ويضعون المكوس على المبيعات وفي الأسواق كأنه كمر بعد ثم تدرج الزيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والاتفاق بسببه حتى تنفق المعاشم على الرعايا وتضم وتصير عادة مفروضة لأن تلك الزيادة تدرجت قليلا قليلا ولم يشعر أحد بمن زادها على التعيين ولا من هو واضعها إنما ثبت على الرعايا في الاعتزاز بذهاب الأموال من نفوسهم بقلة النفع إذا قابل بين نفعه ومعارمه وبين ثمرته وفائدته فتتقبض كثير من الأيدي عن الاعتزاز جملة فنقص جملة الجباية حينئذ ينقص تلك الزائغ منها ويزيدون في مقدار الوظائف إذا رأوا ذلك النقص في الجباية وعسبونه جبرا لما نقص حتى تنتهي كل وظيفة ووزيرة إلى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة لكثرة الاتفاق حينئذ في الاعتزاز وكثرة المعاشم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به فلا تزال الجملعة في نقص ومقدار الزائغ والوظائف في زيادة لما يتصدقونه من جبر الجملعة بها إلى أن ينتقص العمران بذهاب الأموال من الاعتزاز ويعود وبالذلك على الدولة لأن فائدة الاعتزاز عائدة إليها وإذا فهمت ذلك علمت أن أقوى الأسباب في الاعتزاز تقليل مقدار الوظائف على المعتمدين ما أمكن فبذلك تنبسط النفوس إلى كثرتها بادر الكمال

فيه والله سبحانه وتعالى مالك الأمور كلها ويده ملكوت كل شيء.

٤٠ فصل في ضرب السكوس أو آخر الدولة

اعلم أن الدولة تكون في أولها بدوية كما قلنا فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده فيكون خرجها وإنفاقها قليلا فيكون في الحياة حينئذ وفاء بأزمعتها بل يفضل منها كثير عن حاجتهم ثم لا تلبث أن تأخذ بيد الحضارة في الترف وعوائدها وتجرى على نهج الدول السابقة قليلا فيكثر لذلك خراج أهل الدولة ويكثر خرج السلطان خصوصا كثرة بالغة بنفقته في خاصته وكثرة عطائه ولا تفي بذلك الحياة فتحتاج الدولة إلى الزيادة في الحياة لما تحتاج إليه الحامية من العطاء والسلطان من الثقة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع أولا كما قلنا ثم يزيد الخراج والحاجات والتدريج في عوائده الترف وفي العطاء للحامية ويترك الدولة الهرم وضعف عصابها عن حياة الأموال من الأعمال والقاصية فتقل الحياة وتكثر الموائد ويكثر بكثرها أرزاق الجنود وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة أنواعا من الحياة يضربها على البياعات ويفرض لها قدر معلوم على الأثمان في الأسواق وعلى أعيان السلع في أموال المدينة وهو مع هذا مضطر لذلك بمادعاه إليه زحف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد الأسواق لنسب الأمان ويؤذن ذلك باختلال العمران ويعود على الدولة ولا يزال ذلك ينزايد إلى أن تضمحل وقد كان وقع منه بأمصا المشرق في أخريات الدولة العباسية والعبيدية كثير وفرضت الغارم حتى على الحاج في التوسم وأسقط صلاح الدين أيوب تلك الرسوم جملة وأغاضها بأكار الخير وكذلك وقع بالأندلس لعهد الطوائف حتى عارسه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وكذلك وقع بأمصا الجريد بأفريقية لهذا العهد حين استعبدتها رؤساؤها والله تعالى أعلم

٤١ فصل في أن التجارة من السلطان مضره بالرعايا مفسدة للحياة

(اعلم) أن الدولة إذا ضاقت حياتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوائد والنفقات وقصر الحاصل من حياتها على الوفاء بحاجتها وإنفاقها واحتاجت إلى مزيد المال والحياة فتارة توضع السكوس على بياعات الرعايا وأسواقهم كما قدمنا ذلك في الفصل قبله وتارة بالزيادة في القاب السكوس إن كان قد استحدث من قبل وتارة بفساد العمال والحياة وامتلاك عظامهم لما يرون أنهم قد حصلوا على شيء مماثل من أموال الحياة لا يظهره الحسان وتارة باستحداث التجارة والقلاحة لسلطان على تسمية الحياة لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلات مع يسارة أموالهم وأن الأرباح تكون على نسبة رؤس الأموال فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع والتعرض بها لحالة الأسواق ومحسبون ذلك من إدار الحياة وتكثر الفوائد وهو غلط عظيم وإدخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة فأولها مضايقة الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع وتيسير

أسباب ذلك فإن الرعايا منكفئون في القسار متقاربون ومن أحمق بعضهم بعضا تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب وإذا راقبهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثير منهم فلا يكاد أحدهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته ويدخل على النفوس من ذلك غم وشك ثم أن السلطان قد ينزع الكثير من ذلك إذا تعرض له غضا أو بأسر ثمن أو لا يجد من يناقشه في شراؤه فيخس منه على يائه ثم إذا حصل فوائد الفلاحة ومغلبها كله من زرع أو حرير أو عسل أو صكر أو غير ذلك من أنواع الغلات وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع فلا ينتظرون به حوالة الأسواق والاتفاق البياعات لما يدعوم إليه تكاليف الدولة فيكلفون أهل تلك الأصناف من تاجر أو فلاح بشراء تلك البضائع ولا يرضون في أثمانها إلا التميم وأزيد فيستوخبون في ذلك ناض أموالهم وبقى تلك البضائع بأيديهم عروفا جامدة ويكثرون عطلا من الإدارة التي فيها كسبهم ومعاشهم وربما ندعوا الضرورة إلى شيء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأبخس ثمن وربما يكرروا ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يذهب رأس ماله فيقعده عن سوقه ويتعدد ذلك ويكرر ويدخل به على الرعايا من العنت والضايقة وفساد الأرباح ما يقبض آمالهم عن السعي في ذلك جملة ويؤدي إلى فساد الحياة فلأن معظم الحياة إنما هي من الفلاحين والتجار لاسيما بعد وضع الشكوس ونحو الحياة بها فإذا قبض الفلاحون عن الفلاحة وقعد التجار عن التجارة ذهبت الحياة جملة أو دخلها نقص المتناقص وإذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الحياة وبين هذه الأرباح القليلة وجدها بالنسبة إلى الحياة أقل من القليل ثم أنه ولو كان مفيدا فيذهب له بحظ عظيم من الحياة فيما يعانيه من شراء أو بيع فإنه من البعيد أن يوجد فيه من المكس ولو كان غيره في تلك الصفقات لكان تكسها كلها حاصلا من جهة الحياة ثم فيه التعرض لأهل عمراته واختلال الدولة بفسادهم ونقصه فإن الرعايا إذا قعدوا عن تجميع أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات وكان فيها اتلاف أحوالهم فأقيم ذلك وكان الفرس لا يملكون عليهم الأمن أهل بيت المملوك ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والأدب والسخا والشجاعة والسكر ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل وأن لا يتخذ صنعة فيضر بحيرانه ولا يتاجر فيجب غلاء الأسعار في البضائع وأن لا يستخدم العبيد فإنهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة ولا علم إن السلطان لا يسمي ماله ولا يدبر موجوده إلا للحياة وأثرها إنما يكون بالعدل في أهل الأموال والنظر لهم بذلك فبذلك تقيس آمالهم وتنشرح صدورهم فلا أخذ في تجميع الأموال وتنميها فتعظم منها حياة السلطان وأما غير ذلك من تجارة أو فلاح فإنما هو مضره عاجلة للرعايا وفساد للحياة ونقص للعمارة وقد ينتهي الحال بهؤلاء النسلخين للتجارة والفلاحة من الأثراء والتغلبين في البلدان أنهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلادهم ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤون ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا يفرضون من الثمن وهذه أشد من الأولى وأقرب إلى فساد الرعية واختلال أحوالهم وربما يجعل السلطان على ذلك من يدخله من هذه الأصناف أعني التجار والفلاحين لما هي صناعته التي نشأ عليها فيحمل السلطان

على ذلك ويقرب معه بسهم لنفسه ليحصل على قدره من جمع المال سر يعاسي مع ما يحصل لهم من التجارة
بلا مفرم ولا مكس فانها أجدر بنمو الأموال وأسرع في تنميره ولا يفرغ ما يدخل على السلطان من الضمير
بتقص حياته فينبغي للسلطان أن يحذر من هؤلاء ويعرض عن سعايتهم المضرة بحياته وسلطانته والله
يقبها ترشد أنفسنا وبضعنا بصلاح الأعمال والله تعالى أعلم

٤٢ فصل في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة

والسبب في ذلك أن الجباية في أول الدولة تنوزع على أهل القيل والعصبة بمقدار غنائمهم وعصبيتهم
ولأن الحاجة اليهم في تمهيد الدولة ككفلاء من قبل فرئيسهم في ذلك يخاف لهم عما يسمون إليه
من الجباية معترض عن ذلك بما هو بروم من الاستبداد عليهم فله عليهم عزة وله اليهم حاجة
فلا يطير في سيمانه من الجباية إلا الأقل من حاجته فيجد حاشيته لذلك وأذياه من الوزراء
والكتاب والموالي يملقون في الغالب وجاههم متقلص لأنهم من جاهه غدومهم ونطاقه فندماق بمن
يزاحمه فيه من أهل عصبيته فإذا استنحلت طبيعة تلك وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على قومه
قبض أيديهم عن الجبايات إلا ما يطير لهم بين الناس في سيمانهم وتقل حقلو ظهم اذذاك فقل غنائمهم في
الدولة بما تكبح من أعتهم وصار الموالى والعنائع ماضين لهم في القيام بالدولة وتمهيداً لمرفقهم
صاحب الدولة حينئذ بالجباية أو معظمها ويحتوى على الأموال ويحتضنها للتنفقات في معات الأحوال
فنكثر ثروته وتنتلى خزائنه ويتسع نطاق جاهه ويعز على سائر قومه فيعظم حال حاشيته وذويه من
وزير وكتاب وحاجب ومولى وشرطي ويتسع جاههم ويتقنون الأموال ويبتاعونها ثم إذا أخذت
الدولة في الهرم تلاشى العصبة وفناء القيل للماهدين للدولة احتاج صاحب الدولة إلى معاون
والأقارب لكثرة الخوارج والنازعين والثوار وتوهم الانتقاض فيسار خراجهم لظهوراته وأعوانه
وهو أرباب السيوف وأهل العصبيات وأنفق خزائنه وحاصله في معات الدولة وقلت مع ذلك الجباية لما
قدمناه من كثرة العطاء والاتفاق فيقل الخراج وتشتد حاجة الدولة إلى المال فيتقلص ظل النعمة
والترف عن الخواص والحجاب والكتاب يتقلص الجاه عنهم وضيق نطاقه على صاحب الدولة ثم
تشتد حاجة صاحب الدولة إلى المال وتتفق أبناء البطانة والحاشية ما تأتله آباؤهم من الأموال في غير
سبيلها من اعانة صاحب الدولة ويقفون على غير ما كان عليه آباؤهم وسلفهم من المناحة ويرى صاحب
الدولة أنه أحق بتلك الأموال التي اكتسبت في دولة سلفه ويحاجهم فيصطلمها وينزعها منهم
لنفسه شيئاً فشيئاً وواحد بعد واحد على نسبة رتبهم وتكر الدولة لهم ويمود وبال ذلك على الدولة
بفناء حاشيتها ورجاليتها وأهل الثروة والنعمة من بطانتها ويتفوض بذلك كثير من مبادئ الجهد بعد
أن يدغمه أهله ويرفعوه وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني قحطبة وبني برمك
وبني سهل وبني طاهر وأمثالهم ثم في الدولة الأموية بالاندلس عند انحلالها أيام الطوائف في

بني شهيد وبني أبي عبدة وبني حدير وبني برد وأمثالهم وكذا في الدولة التي أدركناها لعهدنا سنة
الله التي قد خلت في عبادته

فصل في ما يتوقعه أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب صار الكثير منهم ينزعون إلى الفرار عن
الرتب والتخلص من رتبة السلطان بما حصل في أيديهم من مال الدولة إلى قطر آخر ويرون أنه
أهناهم وأسلم في انفاقه وحصول ثمرته وهو من الاغلاط الفاحشة والاهام المفسدة لأحوالهم
ودلياهم واعلم أن الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه غير ممتنع فإن صاحب هذا الغرض إذا كان هو
الملك نفسه فلا يمكنه الرعية من ذلك طرفة عين ولأهل العصبية المزاحمون به بل في ظهور ذلك
منه عدم الملكة والاتلاف لنفسه بمجاري العادة بذلك لأن رتبة الملك يعبر الخلاص منها أساعد استفعال
الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والخلال والتخلق بالشر وأما إذا كان صاحب
هذا الغرض من بطانة السلطان وحاشيته وأهل الرتب في دولته قتل أن يغلي يته وبين ذلك أما أولا
فما يراه الملوك أن ذويهم وحاشيتهم بنو سائر عيالهم بمالكهم مطلقون على ذات صدورهم فلا يسمحون
بمحل ربقته من الخدمة ضنا بأسرارهم وأحوالهم أن يطلع عليها أحد وغيره من خدمته لسواهم ولقد كان
بنو أمية بالأندلس يمنعون أهل دولتهم من السفر لفريضة الحج لما يتوهمونه من وقوعهم بأيدي بني
العباس فلم يخرج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم وما أصبح الحج لأهل الدول من الأندلس إلا بعد فراغ
شأن الأموية ورجوعها إلى الطوائف وأما ثانيا فلا تمنعهم وإن سمحوا بمحل ربقته هو فلا يسمحون
بالتجافي عن ذلك المال لما يرون أنه جزء من مالهم كما يرون أنه جزء من دولتهم إذ لم يكن يكسب إلا بها وفي
ظل جاهها فتقوم نفوسهم على انتزاع ذلك المال والتفاهة كما هو جزء من الدولة ينضمون به ثم إذا توهمنا
أنه خلص بذلك المال إلى قطر آخر وهو في النادر الأقل فتنتد إليه أعين الملوك بذلك القطر
وينزعونه بالارهاب والتخويف تعريضا أو بالقهر ظاهرا لما يرون أنه مال الجباية والدول وأنه
مستحق للانفاق في المصالح وإذا كانت أعينهم تعتمد على أهل الثروة واليسار الكنتيين من وجوه
المنعاش فأحرى بها أن تمتد إلى أموال الجباية والدول التي نجد السبيل إليه بالشرع والعادة ولقد
حاول السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحياني تاسع أو عاشر ملوك الحفصيين بأفريقية الخروج
عن عبدة الملك والحقاق بمصر فرارا من طلب صاحب الثغور افريقية لما استجمع لغزو تونس
فاستعمل اللحياني الرحلة إلى ثغر طرابلس يوري بتعميده وركب السفين من هنالك وخلص إلى
الاسكندرية بعد أن حمل جميع ما وجدته بيت المال من الصامت والذخيرة فباع كل ما كان مخزأتهم من المتاع
واقطار والجواهر حتى الكتب واحتمل ذلك كله إلى مصر ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة سبع
عشرة من اثناثة الثامنة فأكرم نزله ورفعه على عرشه ولم يزل يستخلص ذخيره شيئا فشيئا بالتعريض إلى أن حصل
عليها ولم يبق معاش ابن اللحياني إلا في جرايته التي فرض له إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين من حسابنا ذكره
في أخباره فهذا أو أمثاله من جملة الوسواس الذي يعتري أهل الدول لما يتوهمونه من ملوكهم من المعاطب

وإما غلصون ان اتفق لهم الخلاص بأنفسهم وما يتوهمونه من الحاجة فغلط ووم والذى حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف في وجدان المعاش لم بالجرايات السلطانية أو بالحاج في اتحال طرق الكسب من التجارة والفلاحة والدول أنساب لكن

النفس رغبة إذا رغبها * وإذا ترد إلى قليل تنفع

والله سبحانه هو الرزاق وهو الموفق عنه وفضله والله أعلم

٤٣ ﴿ فصل في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الحياة ﴾

والسبب في ذلك أن الدولة والسلطان هي السوق الأعظم للعالم ومنه مادة العمران فإذا احتجن السلطان الأموال أو الحيايات أو فقدت فلم يصرفها في مصارفها قل حينئذ ما يابى بدى الحاشية والحامية وانقطع أيضا ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم وقلت نفقاتهم جملة وهو معظم السواد ونفقاتهم أكثر مادة للأسواق من سواهم فيتبع الكساد حينئذ في الأسواق وتضعف الأرباح في المتاجر فيقل الخراج لذلك لأن الخراج والحيايات إنما تكون من الاعتراف والاعمالات وتفاق الأسواق وطلب الناس للفوائد والأرباح وبأن ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة أموال السلطان حينئذ بقلة الخراج فإن الدولة كإقلاء هي السوق الأعظم أم الأسواق كلها وأصلها ومادتها في الدخل والخرج فإن كسدت وقلت مصارفها فأجدر بما بعدها من الأسواق أن يلحقها مثل ذلك وأشد منه وأيضا فالأعمال ما هو متردد بين الرعية والسلطان منهم إليه ومنه إليهم فإذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعية سنة الله في عباده

٤٤ ﴿ فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران ﴾

إعز أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهاها من أيديهم وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقضت أيديهم عن السعي في ذلك وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب فإذا كان الاعتداء كثيرا عاميا في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لأنها به بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها وإن كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض عن الكسب على نسبه والعمران ووفوره وشاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعى الناس في الصالح والمكاسب ذاهبين وجائين فإذا قعد الناس عن المعاش وانقضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانقضت الأحوال وانزعج الناس في الآفاق من غير تلك الآيالة في طلب الرزق فبما خرج عن نطاقها غف ساكن القنطر وخلت دياره وخربت أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان لما أنها صورة للعمران تفقد في ساد ماداتها ضرورة وانظر في ذلك ما حكاه المعودي في أخبار الفرس عن الموبدان صاحب الدين عندهم أيام بهرام ابن بهرام وما عرض به للملك في انكسار ما كان عليهم من الظلم والغفلة عن عائده على الدولة بضرب الثاق في ذلك على لسان اليوم حين منع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامه فقال له إن يومنا ذكرنا يوم

نكاح يوم أنى وأنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام هيرام فقيل شرطوا وقال طعان دامت
 أيام الملك أقطعك ألف قرية وهذا سهل مرام فغلبه الملك من غفلة وخلا بالمؤذبان وسأله عن مراده
 فقال له أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا بالشر يعمو القيام به بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيته ولا قوام
 للشرعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجل ولا قوام للرجل إلا بالمال ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ولا
 سبيل للعمارة إلا بالعدل والعدل الميزان المنسوب بين الخلقة نصيبه الرب وجعل له قيا هو الملك وأنت
 أيها الملك عمدت إلى الضياع فأنزعتهم من أربابها وعمارها ولم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال
 وأقطعها الخاشية والخدم وأهل البطالة فقركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع وسومعوا
 في الخراج لقرتهم من الملك ووقع الخيف على من بقي من أرباب الخراج وعمار الضياع فنجحوا عن
 ضياعهم وحلوا ديارهم وآووا إلى ما تعذر من الضياع فسكنوها فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت
 الأموال وهلك الجنود والرعية وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد
 التي لا يستقيم دعائم الملك إلا بها فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه وانتزعت الضياع
 من أيدي الخامة وردت على أربابها وحملوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمارة وقوى
 من ضعف منهم فعمرت الأرض وأخصبت البلاد وكثرت الأموال عند جباة الخراج
 وقويت الجنود وقطعت مواد الأعداء وشحنت الثغور وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه
 فحسنت أيامه وانتظم ملكه ففتحهم من هذه الحكاية أن الظلم غرت للعمران وأن عائدة الخراب في العمران
 على أسس الفساد والانقراض ولا تنظر في ذلك إلى أن الاعتداء قد يوجد بالأمصار العظيمة من
 الدول التي يهاولم يضع فيها خراب واعلم أن ذلك إغواء من قبل الفاسية بين الاعتداء وأحوال أهل
 المصر فلما كان المصري كبيرا وعمرانه كثيرا وأحواله مفعمة بما لا يحصر كان وقوع النقص فيه بالاعتداء
 والظلم يسير الآن النقص إغواء يقع بالتدريج فإذا خفي بكثره الأخوان وانشاع الأعمال في المصر لم يظهر
 أثره إلا بعد حين وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصر ونجى الدولة الأخرى
 فترقبه بعدئذ وتجرى النقص الذي كان خفيا فيه فلا يكاد يشعر به إلا أن ذلك في الأقل النادر والشرار
 من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه لما قدمناه ووبأنه عائد
 على الدول ولا تحسب الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو الشهور
 بل الظلم أعم من ذلك وكل من استعملك أحدا أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاله
 يفرضه الشرع فقد ظلمه فبإدائه الأموال بغير حقها ظلمة والعدوان عليها ظلمة والتهبون لها ظلمة والمناعون
 لحقوق الناس ظلمة وغصب الأموال على العموم ظلمة ووبأن ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران
 الذي هو مادتها لا ذهابه إلا ما من أهلها واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو
 ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري وهي الحكمة العامة المرعاة
 للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخصة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال فلما كان الظلم

كأريت مؤذنا باقطاع النوع لما أدى إليه من تخريب العمران كانت حكمة الحظ فيه موجودة فكان
تخريبه سببا وأدته من القرآن والسنة كثيرا أكثر من أن يأخذها قانون الضغط والحصر ولو كان كل
واحد قادر عليه لوضع بازائه من العقوبات الزاجرة ما وضع بازاء غيره من المفسدات للنوع التي يقدر
كل أحد على اقترافها من الزنا والقتل والسكر الآن الظلم لا يقدر عليه إلا من يقدر عليه لأنه إنما يقع من
أهل القدرة والسلطان فيولع في ذمهم وتكرير الوعيد فيه عسى أن يكون الموازع فيه القادر عليه في نفسه
ومار يك بظلام العبيد * ولا تقول أن العقوبة قد وضعت بازاء الحرابة في السرع وغيره من ظلم القادر
لأن الخارب من حرابته قد رافق في الجواب عن ذلك طريقين أحدهما أن تقول العقوبة على ما تقره
من الجنائيات في نفس أو مال على ما ذهب إليه كثير وذلك إما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة بعنائه
وأما نفس الحرابة فهي خلو من العقوبة الطريق الثاني أن تقول الخارب لا يوصف بالقدرة لأنه إنما
نعني بقدرة الظالم اليد المباشرة التي لا تعارضها قدرة فهي المؤذنة بالخراب وأما قدرة الخارب فإما هي
إخافة جعلها ذريعة لا خد لا أموال والدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعا وسياسة فليست من القدرة
المؤذنة بالخراب والله قادر على ما يشاء

فصل ومن أشد الظلمات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا
غير حق وذلك أن الأعمال من قبيل المتمولات تكسب في باب الرزق لأن الرزق والكسب إنما
هو قيم أعمال أهل العمران فإذا معاشهم وأعمالهم كلها متمولات ومكاسبهم بل لا مكاسب لهم سواها
فإن الرعية المتعملين في العارة إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمادهم ذلك فلا يكفوا العمل في غير شأنهم
وانخذوا سخرى في معاشهم بطل كسبهم واعتصموا قيمة عملهم ذلك وهو متمولهم قد دخل عليهم الضرر
وذهب لهم حظ كبير من معاشهم بل هو معاشهم بالجملة وإن تكرر ذلك عليهم أفسد آمالهم في
العارة وقعدوا عن السعي فيها جملة فأدى ذلك إلى انتشار العمران وتخريبه والله سبحانه
وتعالى أعلم وبه التوفيق

فصل وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلسل على أموال الناس بشراء
ما بين أيديهم بأجنس الائمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الائمان على وجه الغصب والأكراه في الشراء
والبيع وربما فرض عليهم تلك الائمان على النواحي والتأجيل فينعلون في تلك الحسارة التي تلحقهم
بما عدهم الطامع من جبر ذلك نحوالة الأسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالغلاء إلى بيعها
بأجنس الائمان وتعود خسارة ما بين الصفقتين على رؤس أموالهم وقد يعم ذلك أصناف التجار
المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع وسائر السوق وأهل الدكاكين في المأكول
والفواكه وأهل الصنائع فيما يتخذ من الآلات والموازين فتشمل الحسارة سائر الأصناف
والطبقات وتوالي على اناسات وتصحف رؤس الأموال ولا يجدون عنها وليجة إلا القعود عن
الأسواق لذهاب رؤس الأموال في جبرها بالأرباح ويتناقل الواردون من الآفاق لشراء البضائع

ويبعثها من أجل ذلك فتكسد الأسواق ويبتل معاش الرعايا لأن عامته من البيع والشراء وإذا كانت الأسواق عطلا منها بطل معاشهم وتنقص جباية السلطان أو تفقد لأن معظمها من أوسط الدولة وما بعدها إنما هو من الكوس على البياعات كما قدمناه ويؤلف ذلك إلى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة ويتطرق هذا الحلل على التدرج ولا يشعر به هذا ما كان بأمثال هذه الدرائع والأسباب إلى أخذ الأموال وأما أخذها عما تلو العدو أن على الناس في أموالهم وحرهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم فهو يفضي إلى الحلل والفساد دفعة وتنقض الدولة سرعاً بما يشأ عنه من المخرج المفضي إلى الانتقاض ومن أجل هذه الفاسد حقرر الشرع ذلك كله وشرع المكايسة في البيع وحظر أكل أموال الناس بالباطل سداً لأبواب الفساد المفضية إلى انتقاض العمران بالمخرج أو بطلان المعاش واعلم أن الداعي لذلك كله إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الأكنار من المال بما يعرض لهم من الترف في الأحوال فتكثر نفقاتهم ويعظم الخروج ولا يبقى به الدخل على القوانين المعتادة يستحدثون ألقاباً ووجوهاً يوسعون بها الجباية لئلا يلمهم الدخل بالمخرج ثم لا يزال الترف يزيد والمخرج يسببه يكثر والحاجة إلى أموال الناس تشتد ونطاق الدولة بذلك يزيد إلى أن تنمحي دأثرها ويذهب رسمها ويغلبها ظالمها والله أعلم

٤٥ فصل في الحجاب كيف يقع في الدول وأنه يعظم عند الحرم

إعلم أن الدولة في أول أمرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه لأنه لا بد لها من العصبية التي به يتم أمرها ويحصل استقلالها والبداءة هي شعار العصبية والدولة إن كان قيامها بالدين فانه بعيد عن منازع الملك وإن كان قيامها بعز الغلب فقط فالبداءة التي بها يحصل الغلب بعيدة أيضاً عن منازع الملك ومذاهبه فإذا كانت الدولة في أول أمرها بدوية كان صاحبها على حال الغضاضة والبداءة والقرب من الناس وسهولة الأذن فإذا رسخ عزه وصار إلى الانفراد بالمجد واحتاج إلى الانفراد بنفسه عن الناس للحدث مع أوليائه في خواص شؤنه لما يكثر حينئذ من مخاشيته فيطلب الانفراد من العامة ما استطاع ويتخذ الأذن بيابه على من لا يؤمنه من أوليائه وأهل دولته ويتخذ حاجباً له عن الناس يقيمه بيابه لهذه الوظيفة ثم إذا استفحل الملك وجاءته مذاهبه ومنازعه استحال خلق صاحب الدولة إلى خلق الملك وهي خلق غريبة منفوعة يحتاج مباشرها إلى مداراتها ومعاملتها بما يجب لها وربما جيل تلك الخلق منهم بعض من مباشرهم فوقع فيما لا يرضيهم فخطوه وصار إلى حالة الانتقام منه فأنقروا معرفته هذه الآداب الخواص من أوليائهم وحجبهوا غير أولئك الخاصة عن لقائهم في كل وقت حفظاً على أنفسهم من معاينة ما يخطئهم وعلى الناس من التعرض لعقابهم فصار لهم حجاب آخر أخفى من الحجاب الأول يفضي إليهم منه خواصهم من الأولياء ويحجب دونه من سوام من العامة والحجاب الثاني يفضي إلى مجالس الأولياء ويحجب دونه من سوام من العامة والحجاب الأول يكون في أول الدولة كما ذكرنا كما حدث لأيام معاوية وعبد الملك وخلفاء بني أمية وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم

الحاجب جري على مذهب الاشتقاق الصحيح ثم لما جاءت دولة بني العباس وجدت الدولة من الترف والعز ما هو معروف وكملت خلق الملك على ما يجب فيها فدعا ذلك إلى الحجاب الثاني وصار اسم الحاجب أخص بموصاريب الخلفاء دار ان للعباسية دار الخاصة ودار العامة كما هو مسطور في أخبارهم ثم حدث في الدول حجاب ثالث أخص من الأولين وهو عند محاولة الحجر على صاحب الدولة وذلك أن أهل الدولة وخوادم الملك إذا نصبوا الأبناء من الأعقاب وحاولوا الاستبداد عليهم فأول ما يبدأ به ذلك المنقيد أن يعجب عنه بظانته وخواص أوليائه ويوحى أن في مباشرتهم إياه خرق حجاب الطهية وفساد قانون الأدب ليقطع بذلك لقاء الغير ويعوده ملازمة أخلاقه هو حتى لا يتبدل به سواد إلى أن يستحكم الاستبداد عليه فيكون هذا الحجاب من دواعيه وهذا الحجاب لا يقع في الغالب إلا أواخر الدولة كما قدمناه في الحجر ويكون دليلا على هرم الدولة ونفاد قوتها وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم لأن الثامنين بالدولة يحاولون على ذلك بطاعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد من أعقاب متوكهم لما ركب في النفوس من عبة الاستبداد بالملك وخصوصا مع الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومبادئه

٤٦ فصل في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

إعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها وذلك أن الملك عندما يستفحل ويبلغ أحوال الترف والتعم إلى غايتها ويستبد صاحب الدولة بالحد ويشرده بأنفسه حينئذ من المشاركة ويصير إلى قطع أسبابها ما استطاع بأهلاك من استقارب به من ذوي قرابته المرشحين لمنصبه فرما ارتاب المسامحة له في ذلك بانفسهم وزعوا إلى القاصية اليهم من يلحق بهم مثل حالهم من الأغترار والاستراية ويكون نطاق الدولة قد أخذ في التضيق ورجع عن القاصية فيستبد ذلك التنازع من القرابة فيها ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى يقاسم الدولة أو يكاد وانظر ذلك في الدولة الإسلامية العربية حين كان أمرها حريزاً معتصماً وانطاقها ممتداً في الاتساع وعصية بني عبد مناف واحدة غالبية على سائر مضر فلم ينبض عرق من الخلاف سائر أيامه إلا ما كان من بدعة الخوارج المستعيتين في شأن بدعتهم لم يكن ذلك لزعة ملك ولا رئاسة ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبية القوية ثم لما خرج الأمر من بني أمية واستقل بنو العباس بالأمر وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف وأذنت بالتقلص عن القاصية نزح عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس قاصية دولة الإسلام فاستحدثت بها ملكا وانتظم بها عن دولتهم وصير الدولة دولتين ثم نزح إدريس إلى المغرب وخرج به وقام بأمره وأمراؤه من بعده البرابرة من أوروبا ومغيلة وزناتة واستولى على ناحية المغربين ثم ازدادت الدولة تقلصا فاضطرب الأغلبية في الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة وقام بأمرهم كتامة وسنهاجة واستولوا على إفريقية والمغرب ثم مصر والشام والحجاز وغلبوا على الإدارة وقسموا الدولة دولتين أخريين وصارت الدولة العربية ثلاث دول دولة بني العباس بمرکز العرب وأصلهم ومادتهم الإسلام

ودولة بني أمية المحدثين بالانديلس ملكهم القديم وخلافتهم بالمشرق ودولة العبيديين بأفريقية ومصر
والشام والحجاز ولم تزل هذه الدولة إلى أن كان اقراضها متقارباً أو جميعاً وكذلك انقسمت دولة بني
العباس بدول أخرى وكان بالقاضية بنو سنان فيها وراء النهر وخراسان والعلوية في الديلم وطبرستان
وآل ذلك إلى استيلاء الديلم على العراقيين وعلى بغداد والحلفاء ثم جاء السلجوقية فلما كمل جميع ذلك ثم
انقسمت دولتهم أيضاً بعد الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم وكذلك اعتبر في دولة صفهانية بالمغرب
وأفريقية لما بلغت إلى ثايتها أيام باديس بن المنصور خرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك العرب لنفسه ما بين
جبل أوراس إلى تلمسان وملوية واحتفظ القلعة بجبل كتامة جبال المسيلة ونزلها واستولى على مركزهم
أشهر بجبل تيطري واستحدث ملكاً آخر قسماً للملك آل باديس وبقي آل باديس بالقيروان ومالها ولم
يزال ذلك إلى أن انقضت أمرها جميعاً وكذلك دولة نو جد بن لما خلاص ذلك بانار بأفريقية بنو أبي حفص
فلما قتلوا منها واستحدثوا ملكاً لا أعقابهم بنو أحبها ثم لما استغفل أمرهم واستولى على الغلبة وخرج على
الممالك الغربية من أعقابهم الأمير أبو بكر يحيى ابن السلطان أبي اسحق إبراهيم رابع خلفائهم
واستحدث ملكاً بجاية وقبطنية ومالها وأوردنيهم وقسموا به الدولة قسمين ثم استولى على كرسى
الحصنة بنونس ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم وقد ينتمى الانقسام إلى أكثر من
دولتين وثلاثة وفي غير أعين ذلك من قومه كما وقع في ملوك الطوائف بالانديلس وملوك العجم بالمشرق
وفي ممالك منهاج بأفريقية فبعد كان آخر دولتهم في كل حصن من حصون أفريقية تأثر مستقل بأمره كما
نقدم ذكره وكذلك حال الجريد والزاب من أفريقية قبل هذا العهد كما نذكره وهكذا شأن كل دولة
لا بد أن يعرض فيها عوارض الهرم بالتزلف والدعوة وتقليص ظل الغلب فيقسم أعينها أو من يغلب من
رجال دولتها الأمر ويتعدد فيها الدولة والله وارث الأرض ومن عليها

فصل في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع

٥٧

قد قدمنا ذكر العوارض المؤثرة بالهرم وأسبابه واحداً بعد واحد وبنينا أنها تحدث للدولة بالطبع
وأنها كلها أمور طبيعية لها وإذا كان الهرم طبيعياً في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية
كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني والهرم من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما أنه
طبيعي والأمور الطبيعية لا تتبدل وقد يتنبه كثير من أهل الدول بمن لا يقفلة في السياسة فيرى ما نزل
بدولتهم من عوارض الهرم ويظن أنه يمكن الارتفاع فيأخذ نفسه بتلافي الدولة واصلاح مزاجها عن ذلك
الهرم ويحسبه أنه لحقها بتقصير من قبله من أهل الدولة وغفلتهم وليس كذلك فإنها أمور طبيعية للدولة
والعوائد هي المانعة له من تلافها والعوائد منزلة طبيعية أخرى فان من أدرك مثلاً بأنه أو أكثر أهل بيته
يلبسون الحرير والدياج ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب ويحتجبون عن الناس في المجالس
والصلوات فيمكنه مخالفة سلفه في ذلك إلى الخشونة في اللباس والزى والاختلاط بالناس إذا العوائد حينئذ

تمتعه وتصبح عليه مرتكبه ولو فعلوا من الجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة واحدة عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانه وانظار شأن الأتية في انكار العوائد وغاليتها لولا التأيد الإلهي والنصر القسماوي وورعنا تكون العصبية قد ذهبت فتكون الأبهة تعوض عن موقعها من النفوس فإذا أزيلت تلك الأبهة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعا على الدولة بذهاب أو هدام الأبهة فتندرج الدولة بتلك الأبهة ما أمكنها حتى ينقضي الأمر ورعا يحدث عند آخر الدولة قوة توم أن المهرم قد ارتفع عنها يوم مض ذباها إغاضة الخوذة كما يقع في الديال المشتعل فإنه عند مقاربه انطفائه يومض إيمانه توم أنها اشتعلت وهي انطفاء فاعتبر ذلك ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه ولكل أجل كتاب

٤٨ فصل في كيفية طروق اخلل للدولة

اعلم أن معنى الملك على أساسين لا يمتنهما فالأول الشوكة والعصبية وهو المعتبر عنه بالجنود الثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند وإقامة ما يحتاج اليه الملك من الأحوال واخلل إذا طرقت الدولة طرقها في هذين الأساسين فلذلك أول ما طروق اخلل في الشوكة والعصبية ثم ترجع إلى طروق في المال والجباة واعلم أن تمديد الدولة وتأسيسها كقولنا إنما يكون بالعصبية وأندلايد من عصبية كبري جامعة للعصائب مستتعبة لها وهي عصبية صاحب الدولة الخاصة من عشرة وقبيلة فإذا جاءت الدولة طليعة الملك من الترف وجمع أنوف أهل العصبية كان أول ما يجمع أنوف عشيرته وذوي قرباه المقاسمين إلى اسم الملك فيستبد في جمع أنوفهم بما بلغ من سوادهم ويأخذهم الترف أيضا أكثر من سوادهم فكانهم من الملك والعز والقلب فيحيط بهم هادمان وهما الترف والقبير ثم يصير القهر آخر إلى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند سوغ الملك لصاحب الأمر في قلب غيرته منهم إلى الخوف على ملكه فيأخذهم بالقتل والاهانة وسلب النعمة والترف الذي تعودوا الكثير منه فيكونون ويتقنون وتضع عصبية صاحب الدولة منهم وهي العصبية الكبرى التي كانت تجمع العصائب وتستعبد فتشعل عرونها وتضعف شكيمة وتبطل عنها البطالة من موالى النعمة وصنائع الاحسان وتتخذ منهم عصبية لأنها ليست مثل تلك الشدة الشكيمة للقدان الرحم والقرابة معها وقد كنا قدما أن شأن العصبية وقوتها إنما هي بالقرابة والرحم لما جعن الله في ذلك فينفرد صاحب الدولة عن العشيرة والأقارب الطبيعية ويحسن بذلك أهل العصائب الأخرى فيتجاسرون عليه وعلى بطائنه تجاسر طبيعي فيهلكهم صاحب الدولة ويتبعهم بالقتل واحدا بعد واحد وقد الآخ من أهل الدولة في ذلك الأول مع ما يكون قد نزل بهم من ملكة الترف الذي قدما فيستولوا عليهم المهلاك بالترف والقتل حتى يخرجوا عن صفة تلك العصبية ويقشوا بعزتها وشورتها ويصيروا أوجز على الحماية ويقولون لذلك قتل الحماية التي تزل بالأطراف والنفور فيتجاسر الرعا على بعض الدعوة في الأطراف ويأدر الخوارج على الدولة من الأعيان وغيرهم إلى تلك الأطراف المارجون حيث من حصول غرضهم بمباينة أهل القاصية لهم

وأمنهم من وصول الحامية اليهم ولا يزال ذلك يتدرج ونطاق الدولة يتضيق حتى تصير الخوارج في أقرب الأماكن إلى مركز الدولة وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين أو ثلاثة على قدر قوتها في الأصل كقلناه ويقوم بأمرها غير أهل عصبيتها السكن إذا كانا أهل عصبيتها وأغلبهم اليهود واعتبر هذا في دولة العرب في الإسلام انتهت أولاً إلى الأندلس والهند والصين وكان أمر بني أمية نافذاً في جميع العرب بعصبة بني عبد مناف حتى لقد أمر سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة قتل ولم يرد أمره ثم تلاشت عصبة بني أمية بما أصابهم من الترف فانقضوا وجاء بنو العباس فنقضوا من أعتة بني هاشم وقتلوا الطالبين وشرذوم فاختل عصبة عبد مناف وتلاشت وتجاسر العرب عليهم فاستبد عليهم أهل القاصية مثل بني الأغلب بأفريقية وأهل الأندلس وغيرهم وانقسمت الدولة ثم خرج بنو ادريس بالمغرب وقام البربر بأمرهم إذا كانا للعصبة التي لهم وأمناء أن تصلهم مقاتلة أو حامية للدولة فإذا خرج الدعاة آخر فيتغلبون على الأطراف والقاصية وتحصل لهم هناك دعوة وملك تنقسم به الدولة وربما يزيد ذلك متى زادت الدولة تقلصا إلى أن ينتهي إلى المركز وتضعف البطانة بعد ذلك بما أخذ منها الترف قبل ذلك وتضعف الدولة المنقسمة كلها وربما طالت أمد ما بعد ذلك فتستغنى عن العصبة بما حصل لها من الضبعة في نفوس أهل أقاليمها وهي صفة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التي لا يقل أحد من الأجيال مبدأها ولا أوليتها فلا يعقلون إلا التسليم لصاحب الدولة فيستغنى بذلك عن قوة العصاب ويكفي صاحبها بما حصل لها في تعهيد أمرها الأجراء على الحامية من جندي ومرزوق وبعض ذلك ما وقع في النفوس عامة من التسليم فلا يكاد أحد أن تصور عصياناً أو خروجاً إلا والجهور منكرون عليه مخالفون له فلا يقدر على التصدي لذلك وتوجه جهده وربما كانت الدولة في هذا الحال أسلم من الخوارج والنازعة لاستحكام صيغة التسليم والانقياد لهم فلا تكاد النفوس تحدث سرها بخلافه ولا يختلج في ضميرها انحراف عن الطاعة فيكون أسلم من انحراف والانتقاد الذي يحدث من العصاب والعشائر ثم لا يزال أمر الدولة كذلك وهي تتلاشى في ذاتها شأن الحرارة الغريزية في البدن العادم للغذاء إلى أن تنتهي إلى وقتها القدر ولكل أجل كتاب ولكل دولة أمد والله يقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار * وأما الخلل الذي ينشأ من جهة المال فاعلم أن الدولة في أولها تكون بدوية كما مر فيكون خلق الرقيق بالرقا وبالغبا والقصد في النفقات والتعفف عن الأموال فتحتاج إلى الامعان في الجباية والتجذلي والكيس في جميع الأموال وحسان العمال ولاداعية حينئذ إلى الأسراف في النفقة فلا يحتاج الدولة إلى كثرة المال ثم يحصل الاستيلاء ويعظم ويستفحل الملك فيدعو إلى الترف ويكثر الانفاق بسببه فتعظم نفقات السultan وأهل الدولة على العموم بل يتعدى ذلك إلى أهل المصر ويدعو ذلك إلى الزيادة في إعطيات الجند وأرزاق أهل الدولة ثم يعظم الترف فيكثر الأسراف في النفقات وينشر ذلك في الرعية لأن الناس على دين ملوكها وعوائدها ويحتاج السultan إلى ضرب الكوس على أغان البياعات في الأسواق لإدارة الجباية لما يراه من ترف المدينة الشاهد عليهم بالرفق ولما يحتاج هو إليه من نفقات

سلطانة أرزاق جندة ثم تزيد عوائد الترف فلا تبقى بها الكوس وتكون الدولة قد استغفلت في الاستطالة والقمهران تحت يدها من الرعايا فتدأ يديهم إلى جمع المال من أموال الرعايا من مكس أو تجارة أو نقد في بعض الأحوال يشبه أو يغير شبهة ويكون الجند في ذلك الطور قد تجاسر على الدولة بما لحقها من الفشل والهرم في العسيرة فتوقع ذلك منهم وتداوى بسكينة العطايا وكثرة الانفاق منهم ولا تجدد عن ذلك وليجة وتكون حياة الأموال في الدولة قد عظمت ثروتهم في هذا الطور بكثرة الجباية وكونها بأيديهم وبما اتسع لذلك من جاههم فيتوجه منهم باحتجاز الأموال من الجباية وتفسد العناية فيهم بعضهم من بعض للمنافسة والحقد فتعهم التكيكات والصادرات واحدًا واحدًا إلى أن تذهب ثروتهم وتلاشي أحوالهم ويقتدما كان للدولة من الأبهة والجلال بهم وإذا اضطلت نعمتهم تجاوزتهم الدولة إلى أهل الثروة من الرعايا سواءم ويكون الوهن في هذا الطور قد دخل الشوك وضمفت عن الاستطالة والقمهر فتتصرف سياسة صاحب الدولة حينئذ إلى مداراة الأمور بهذا المألوف راد أو رفع من السيف ثقل غنائمها فتعظم حاجته إلى الأموال التي زيادة على النفقات وأرزاق الجند ولا يبقى فيها ريد يعظم الهرم بالدولة ويتجاسر عليها أهل النواحي والدولة تنحل عراها في كل طور من هذه إلى أن تفضي إلى الهلاك وتتعوض من الاستيلاء الكلي فإن قصد لها طالب انزعاجاً من أيدي القائمين بها أو الأبقية وهي تتلاشى إلى أن تضمحل كالقذبان في السراج إذا فني زيته وعلني والله مالك الأمور ومديرها كوان لا اله إلا هو

٢٩ فصل في حدوث الدولة وتجددها كيف يقع

إعلم أن نشأة الدولة وبدايتها إذا أخذت الدولة المستقرة في الهرم والانتقاس يكون على نوعين إما بأن يندب ولادة الاحمال في الدولة بالقاسية عند ما يتقلص ظلياً عنهم فيكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه يرثه عنه أبنائه أو مواليه ويستقل لهم الملك بالتدريج ويورثها يزدهمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه ويتنازعون في الاستئثار به ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه وينتزع ما في يده كأوقع في دولة بني العباس حين أخذت دولتهم في الهرم وتقلص ظلياً عن القاسية واستقيد بنو سامان بمأوراء النهر وبمحمدان بالموصل والشام وبنو طولون بمصر وكأوقع بالدولة الأموية بالاندلس واقترب ملكهم في الطوائف الذين كانوا ولايتها في الأعمال وانقسمت دولاً وملوكاً أورثوها من بعدهم من قرايبهم أو مواليتهم وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب لأنهم مستمرون في رياستهم ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب وإنما الدولة أدركها الهرم وتقلص ظلياً عن القاسية وعجزت عن الوصول إليها والنوع الثاني بأن يخرج على الدولة من خارج ممن يجاورها من الأمم والقبائل إما بدعوة يحمل الناس عليها كما أشرنا إليه أو يكون صاحب شوكة وعصية كبيراً في قومه قد استقل أمره فيسمو بهم إلى الملك وقد حدثوا به أنفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة وما تزل بها من الهرم فيتعين له وقومه الاستيلاء عليها وغارسونها

بالمطالبة إلى أن يظفروا بها ويرزقون (١) أمرها كما يقين والله سبحانه وتعالى أعلم

٥٠ فصل في أن الدولة المستعجة إنما تستولى على الدولة

المستقرة لا بالمطالبة بالمناجاة

قد ذكرنا أن الدولة الخائرة للمتحدة نوعان نوع من ولاية الأطراف إذا انقضى ظل دولة عنهم
واخسر نيارها وهو لا يقع منهم مطالبة للدولة في الأثر كما قدمناه لأن قصارهم القنوع تنافي أيديهم
وهو نهاية قوتهم والنوع الثاني نوع الدعاة والخوارج على الدولة وهو لا يقع منهم المطالبة لأن قوتهم
واقية بها فإن ذلك إنما يكون في نصاب يكون لمن العصبية والاعتزاز ما هو كفاها ذلك ووافق به فيقع
بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجلت تكرر وتصل إلى أن يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطوب ولا
يحصل لهم في الغالب ظفر بالمناجاة والسبب في ذلك أن الظفر في الحروب إنما يقع كقدمناه بأمر نفسيانية
وعصبية وإن كان العدو والسلاح وسد في القتال كفيلا به لكنه قد صر مع تلك الأمور الوهمية كما مر وتلك
كان الخداع من أنفع ما يستعمل في الحرب وأكثر ما يقع الظفر به وفي الحديث الحرب خدعة والدولة
المستقرة قد صيرت العوائد المألوفة طاعتها ضرورية واجبة كما تقدم في غير موضع فكثير بذلك
العوائد لصاحب الدولة المستعجة ويكثر من هم أتباعه وأهل شوكته وإن كان الأقربون من
بطانته على بصيرة في طاعته وموازاة الأثرين أكثر وقد داخلهم النشل بتلك العقائد في
التسليم للدولة المستقرة فيحصل بعض الفتور منهم ولا يكاد صاحب الدولة المستعجة يقاوم صاحب
الدولة المستقرة فيرجع إلى الصبر والمطاولة حتى يتضح حرم الدولة المستقرة فتضحل عقائد التسليم
لها من قومه وتنبعث منهم الهمم لصديق المطالبة معه فيقع الظفر والاستيلاء وأيضا فتدولة المستقرة
كثيرة الرزق بما استحكهم لهم من الملك وتوسع من النعيم والذات واختصوا به دون غيرهم من أموال
الحياة فيكثر عندهم ارتباط الحيول واستجادة الأسلحة وتعتظم فيهم الأبهة الملكية ويضيض العطاء
يعينهم من ملوكهم إختيارا واضفارا فيرهبون بذلك كله عدوهم وأهل الدولة المستعجة بمنزل عن
ذلك تمام فيهم البداوة وأحوال الفقر والخصاصة فيسبق إلى قلوبهم أوهم الرعب بما يلغهم من
أحوال الدولة المستقرة ويحرمون عن قتالهم من أجل ذلك فيصير أمرهم إلى المطاولة حتى تأخذ المستقرة
مأخذها من الحرم ويستحكم الخلل فيها في العصبية والحياة فينتهز حينئذ صاحب الدولة المستعجة فرصته
في الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة سنة الله في عباده وأيضا فأهل الدولة المستعجة كلهم مباينون
للدولة المستقرة بآسابهم وعوائدهم وفي سائر مناجيتهم ثم هم مفارقون لهم ومباينون بما وقع من هذه
المطالبة وبطعنهم في الاستيلاء عليه فتتمكن الماعدة بين أهل الدولتين سرا وجهرا ولا يصل إلى أهل
الدولة المستعجة خبر عن أهل الدولة المستقرة يصيبون متدغرة (٢) بالخطا وظاهرا لا بقطع المداخلة

(١) قوله ويرزقون في نسخة ويرغون من الرغوة بالراء والقاء اهـ (٢) قوله غرة بكر النين أي غلة اهـ

بين الدولتين فيقيمون على المطالبة وحيث أحكامهم يشكون عن المناجزة حتى يأذن الله بزوال الدولة المستقرة وفناء عمرها ووفور الخلق في جميع جهاتها وانضج لأهل الدولة المستجدة مع الأيام ما كان يحق منهم من هربها وتلاشيها وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها وتقصود من أطرافها فتنبعث همهم يدوانحدة للمناجزة ويذهب ما كان يث في عزائمهم من النوهات وتنتهي المطالبة إلى حدها ويقع الأسبلاء آخر المناجزة واعتبر ذلك في دولة بني العباس حين ظهورها حين قام الشيعة بخراسان بعد انعقاد الدعوة واجتماعهم على المطالبة عشر سنين أو يزيدو حينئذ تم لهم الظفر واستولوا على الدولة الأموية وكذا العلوية بخراسان عند ظهور دعوتهم في الدين كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا على تلك الساحة ثم تأنقضي أمر العلوية وسما الدين إلى ملك فارس والعراقين فمكثوا سنين كثيرة يطاولون حتى اقتطعوا أسيبان ثم استولوا على الخليفة ببغداد وكذا العبيدون أقام داعيتهم بالمغرب أبو عبد الله الشيعي بنى كناسة من قبائل البربر عشر سنين ويزيد تطاول بنى الأغلب بأفريقية حتى ظفر بهم واستولوا على المغرب كله وسما إلى ملك مصر فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها يخرجون إليها العساكر والأسبلاء في كل وقت ومجيء المدة مدافعتهم برا وبحرا من بغداد والشام وملسكوا الاسكندرية والفيوم والصعيد ونحطت دعوتهم من هناك إلى الحجاز وأقيمت بالحرمين ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بمسكرة مدينة مصر واستولى عليها واقتلع دولة بني طنج من أصولها واختط القاهرة بجاء الخليفة بعد المعز لدين الله فزها سنين سنة أو نحوها منذ أسبلاهم على الاسكندرية وكذا السلجوقية ملوك الترك لما استولوا على بنى سامان وأجازوا من وراء النهر مكثوا نحو من ثلاثين سنة يطاولون بنى سيكتكين بخراسان حتى استولوا على دولته ثم حضوا إلى بغداد فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام من الدهر وكذا الترمين بعدم خرجوا من المغارة أعوام سبعة عشر وستة فمكثهم ثم الأسبلاء الأبعد أربعين سنة وكذا أهل المغرب خرج به المرابطون من ثنونة على ملوكهم من مغراوة فطاولوهم سنين ثم استولوا عليه ثم خرج الموحدون بدعوتهم على ثنونة فمكثوا نحو من ثلاثين سنة بخارج يومهم حتى استولوا على كرسيمهم بمراكش وكذا بنو مرين من زناتة خرجوا على الموحدين فمكثوا يطاولونهم نحو من ثلاثين سنة واستولوا على فاس واقتطعوها وأعمالها من ملكهم ثم أقاموا في محاربتهم ثلاثين أخرى حتى استولوا على كرسيمهم بمراكش حينئذ كره ذلك كله في تواريخ هذه الدول فهكذا حال الدول المستجدة مع المستقرة في المطالبة والمطاولثة سنة الله في عباده ولئن تجددت سنة الله تبارك ولا يعارض ذلك بما وقع في الفتوحات الإسلامية وكيف كان أسبلاء مؤم على فارس والروم ثلاث أو أربع من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واعلم أن ذلك إنما كان معجزة من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم سرها الساتمة المسلمين في جهاد عدوهم استبعادا بالاعتان وما أوقع الله في قلوب عدوهم من الرعب والتخاذل فكان ذلك كله خارقا للعادة المقررة في مطاولاة الدول المستجدة للمستقرة وإذا كان ذلك خارقا فهو من معجزات نبينا صلوات الله المتعارف ظهورها في الثلة الإسلامية والمعجزات لا يقاس عليها الأمور

العادية ولا يعترض بها والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٥١ فصل في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتى والجاعات

(اعلم) أنه قد تقرر لك فيما سلف أن الدولة في أول أمرها لا بد لها من الرفق في ملكها والاعتدال في إنائها أما من الدين إن كانت الدعوة دينية أو من الحكمة والحكمة التي تقتضيها البدوة الطبيعية للدولة وإذا كانت الملكة رفيعة محسنة أبسطت آمال الرعايا وانتشطوا للعمران وأسبابه فتور ويكثر التناسل وإذا كان ذلك كله بالتدريج فالتأثير أثره بعد جيل أو جيلين في الأقل وفي انقضاء الجيلين تنصرف الدولة على نهاية عمرها الطبيعي فيكون حينئذ العمران في غاية الوفور والتمام ولا تقول إنهم قد مررت أن أواخر الدولة يكون فيها الاحتجاج بالرعايا وسوء الملكة فذلك صحيح ولا يعارض ما قلناه لأن الاحتجاج وإن حدث حينئذ وقلت الجبايات فالتأثير أثره في تناقص العمران بعد حين من أجل التدريج في الأمور الطبيعية أن الجبايات والموتى تنكسر عند ذلك في أواخر الدول والسبب فيه أما الجبايات فلغرض الناس أيديهم عن الفلح في الأرض كثير بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتظام الرعايا وكثرة الحوارج لغرم الدولة فيقبل احتكار الزرع غالباً وليس صلاح الزرع وعمره يستمر الوجود ولا على تيرة واحدة فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف ويثقل ويكثر والزرع والنار والضرع على تيرته الآن الناس واتقون في أقواتهم بالاحتكار فإذا فقدوا احتكار عظم توقع الناس للمجاعات فعلا الزرع وعجز عنه أولو الحياصة فهلكوا وكان بعض السنوات والاحتكار مفقود فشمع الناس الجوع وأما كثرة الموتى فلأسباب من كثرة الجبايات كذا ذكرناه أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيوانية والابسه دائماً فيفسد الفساد إلى مزاجه فإن كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وأمراضها خصوصاً بالربوة فإن كان الفساد دون القوى والكثير فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحيات في الأرض وتعرض الأرض يدان وتهلك وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة لما كان في أولها من حسن الملكة ورفقها وقلة الغرم وهو ظاهر ولهذا تبين في موضعه من الحكمة أن تخلل الخلاء والفقر بين العمران ضروري ليكون تروح الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات ويأتي بالهواء الصحيح ولهذا أيضاً أن الموتى يكون في المدن الوفور والعمران أكثر من غيرها بكثير كمصر بالشرق وفاس بالمغرب والندشدر ما يشاء

٥٢ فصل في أن العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره

اعلم أنه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري وهو معنى العمران الذي نتكلم

فيه وأنه لا بد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون اليه وحكمه فيهم نازة يكون مستند إلى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم اليه إغنائهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم اليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعدم معرفته بمصالحهم فلا ولي يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة ولمراعاه نجاة العباد في الآخرة والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكم رأساً ويسمون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك بالمدنية الفاضلة والقوانين المراعاة في ذلك بالسياسة المدنية وليس مرادهم السياسة التي يحمل عليها أهل الأجتماع بالمصالح العامة فإن هذه غير تلك وهذه المدنية الفاضلة عند تادير أو بعيدة الوقوع وإنما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير ثم إن السياسة العقلية التي قدمناها تكون على وجهين * أحدهما راعي فيها المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة الحكمة وقد أغنانا الله تعالى عنها في الملوك لعهد الخلافة لأن الأحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة والآفات وأحكام الملوك مندرجة فيها * الوجه الثاني أن راعي فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة وتكون المصالح العامة في هذه تبعاً وهذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع التي أساء الملوك في العالم من مسلم وكافر الآن ملوك المسلمين يحرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جهدهم فتقوانها إذا جمعة من أحكام شرعية وآداب خلقية وقوانين في الاجتماع طبيعية وأشياء من مراعاة الشوكة والعصبية ضرورية والاقتداء فيها بالشرع أولاً ثم الحكماء في آدابهم والملوك في سيرهم ومن أحسن ما كتب في ذلك وأودع كتاب طاهر بن الحسين لابن عبد الله ابن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما فكتب إليه أبو طاهر كتابه المشهور عهد إليه فيه وصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية وحسنه على مكارم الأخلاق وحسن الشيم بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوفه ونص الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عز وجل ومزايته سخطه واحفظ رعيته في الليل والنهار الزم ما ألبسك الله من العافية بالله كرمك وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ومسئول عنه والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل وينجيحك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه فإن الله سبحانه قد أحسن إليك وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده وأزملك العدل فيهم والقيام بحقوقه وحدوده عليهم والتب عنهم والدفع عن حريتهم ومنصبهم والحقن لهم وألأمن لسرهم وإدخال الراحة عليهم ومؤاخذك بما فرض عليك وموافقتك عليه وسألك عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ففرغ لذلك فيملك وعقاك وبصرك ولا يشغلك عنه شغل وأندأس أمرك وملاك شأنك وأول ما يوفقك الله عليه وليكن أول ما تازم به نفسك وتنسب إليه فعلك الواظبة على ما فرض الله عز وجل عليك

من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك وتوابعها على سنتها من إتيان الوضوء لها وإفتتاح ذكر
الله عز وجل فيها ورتل في قراءتك وتمكين في ذكر كواعك وسجودك وتشهدك وتكسوف فيه رأيت وبيناك
واحتض عليه جماعة ممن معك وتحت يدك وإدأب عليها فأبها كقيل الله عز وجل تنهي عن الفحشاء
والنكر ثم أتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرة على خلافته وإقتناء أثر
السلف الصالح من بعده وإذا ورد عليك أمر فاستمع عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه وبلغزوم
ما أنزل الله عز وجل في كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه وإتمام ما طاعت به الأئمة عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم ثم قم فيه بالحق لله عز وجل ولا تملن عن العدل فيما أحبت أو كرهت لقريب من
الناس أو بعيد وأثر النعمة وأهلها والدين وحملته وكتاب الله عز وجل والعاملين به فمن أفضل ما
يترن به المرء التفتة في الدين والطلب لهو الحث عليه والمعرفة بما يقرب به إلى الله عز وجل فانه القليل
على الخير كله والثبات إليه والآمر به والنهي عن المعاصي والموافات كلها ومع توفيق الله عز وجل
يزداد أثر معرفة وإجلاله ودركا لدرجات العلى في العاد مع ما في ظهوره للناس من التوقير لا مرك
والهبة لسلطانك والانتباه لك والثقة بعدك وعليك بالأقتصاد في الأمور كأيام فليس شيء أبين نفعاً ولا
أخص أمناً ولا أجمع فضلاً منه والقصد داعية إلى الرش والرش دليل على التوفيق والتوفيق قائد إلى
السعادة وقوام الدين والسنن الحمادية بالأقتصاد وكذا في دنياك كلها ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر
والإتقان الصالحة والسنة المعروفة ومعالم الرش والاعتناء والاستكثار من الخير والسعي له إذا كان
يطلب به وجه الله تعالى ومرضاة ومرافقة أولياء الله في دارك اعتدأ ما تعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث
العز ويخلص من الذنوب وأنت لن تحوط نفسك من قتل ولا تصليح أمورك بأفضل منه فإنه واعتدبه
ثم أمورك وتزد من قدرتك ويصلح علمك وخضعت وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقيم لك رعيته
والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستديم به النعمة عليك ولا تهين أحداً من الناس فيما تواليه من
عملك قبل أن تكشف أمره فإن إيقاع التهم بالبراءة والظنون السيئة بهم آثم آثم فاجعل من شأنك
حسن الظن بأصحابك وأطرد عنك سوء الظن بهم وإرضه فيهم يعتك ذلك على استطاعتهم وورايته ولا
تخذن عدو الله الشيطان في أمرك معمدافانه إنما يكتب بالقليل من وهنك ويدخل عليك من الغم بسوء
الظن بهم ما ينقص لداذة عيشك واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة واحتوتك كفايته
من أمورك وتدعويه الناس إلى محبتك والاستقامة في الأمور كلها ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك
والرافقة برعيته أن تستعمل المسئلة والبحث عن أمورك وإبشارة لا أمور الأولياء وحياطة الرعية
والنظر في حوائجهم وحمل مؤناتهم أيسر عندك مما سوي ذلك فإنه أقوم للدين وأحلى لللسنة وأخلص
نيتك في جميع هذا وتغرد بتقوم نفسك تغرد من يعلم أنه مؤن عما صنع وبجزى بما أحسن ومواخذ
بما أساء فإن الله عز وجل جعل الدنيا حوزاً أو غزاً أو رفع من اتبعه وعزه وأسلك بمن توسه وترعاه نهج
الدين وطريقه الأهدى وأتم حدود الله تعالى في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولا تعطل

ذلك ولا تنهاون به ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة فإن في تضييقك في ذلك ما يفيد عليك حسن ظنك
واعظم على أمرك في ذلك بالنسبة المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتملك مروءاتك
وإذا عاهدت عبدا فأوف به وإذا وعدت خيرا فأنجزه واقبل الحسنات وافزع بها وانمض عن عيب كل
ذي عيب من رعيته واشدد لسانك عن قول الكذب وانزور وانض أهل النسيمة فإن أول فساد
أمر لك في عاجلها وأجلها تقرب الكذب والجراءة على الكذب لأن الكذب رأس الشائهم وانزور
والنسيمة خاتمها لأن النسيمة لا يسلم صاحبها قال لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر واجب أهل الصلاح
والصدق وأعن الأشراف بالحق وأعن الضعفاء وقيل الرحم والبر. ذلك وجه الله تعالى وإعزاز
أمره والتمس فيه نوابه والدار الآخرة واجتنب سوء الأهواء والخور واحصر في رايك
واظهر برائك من ذلك الرعيته وأنعم بالعدل مياستهم وقم بالحق بهم وبالعرفه التي تدعي بك إلى
سبيل الهدى واملك نفسك عند الغضب وآثر الخلم والوقر وإياك والخدمة والطيب والغرور فم أنت
بسيده وإياك أن تقول أنا مسلم أفعل ما أشاء فإن ذلك سريع إلى نقص الرأي وقلة اليقين قدس وحل
وأخلص لله وحده النية فيم واليقين واعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء ويهرغه من يشاء
ولن تجد تغير النعمة وحلول النعمة إلى أحد أسرع منه إلى جهة النعمة من انتخاب السلطان والميسوط
ثم في الدولة إذا كفر وانعم الله وإحسانه واستغلوا بما أعطاهم الله عز وجل من فضله ودع عنك شر
نفسك ولنكن ذخرك وكنوزك التي تدخر وتمكز البر والتقوى واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم
والثقتهم لا موزم والحفظ لسمائهم والاعانة للمهوفهم واعلم أن الأموال إذا اكتسبت وادخرت في
الحر أن لا تنمو وإذا كانت في صلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف الأذى عنهم تحت وزك وصلحت
به العامة وترتبت به الولاية وحاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنفعة فليكن كغز خزانك تفريق
الأموال في عمارة الاسلام وأهله ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين فيك حقوقهم وأوف من ذلك
حسبهم وتعمد ما يصلح أمورهم ومعاشهم فانك إذا فعلت قريت النعمة لك واستوجبك المزيد من الله
تعالى وكنت بذلك على حياة أموال رعيته وخرابك أقدر وكان الجمع ما شملهم من عدلك وإحسانك
أسلس لطاغتك وخطب نسا بكل ما أردت واجهد نفسك فيما جددت لك في هذا الباب وليعظم حقك
فيه وإما يبق من المال ما أشتق في سبيل الله وفي سبيل حقه واعرف للشاكرين حقهم وأثمهم عليه وإياك
أن تنسيك الله نيا وغرور هاهول الآخرة فتنهاون بما يحق عليك فإن النهاون يورث التفريط والتفريط
يورث البوار وليكن عملك لله عز وجل وفيه مارج الثواب فإن الله سبحانه قد أسبغ عليك فضله
واعتصم بالشكر وعليه فاعتمد بذك الله خير أو إحسانا فإن الله عز وجل يشيب بقدر شكر الشاكرين
واحسان المحسنين ولا تحقرن ذنبا ولا تحالين حاسدا ولا ترحمن فاجرا ولا تظلمن كفو را ولا تدهن
عدوا ولا تصدقن غاميا ولا تأمنن عدوا ولا تأولين فاسقا ولا تدعين غاويا ولا تحمدن مرأيا ولا تحقرن
إنسانا ولا تردن سائلا فقيرا ولا تحسنن باطلا ولا تلاحظن مضحكا ولا تحلفن وعدا ولا تدهنن غرا

ولا تظهرن غضبا ولا تبائين رجاء ولا تمشين مرحلا ولا تزيكين سقيها ولا تقرطين في طلب الآخرة ولا ترفع للناس عينا ولا تغمضي عن ظلم رهيتمته أو عماية ولا تطلعين ثواب الآخرة في الدنيا أو أكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ولا تدخلين في مشورتك أهل الرفه والبخل ولا تسمعين لهم قولا فإن ضررهم أكثر من نفعهم وليس شيء أسرع فسادا لما استقبلت فيه أمر من عيتك من الشح واعلم أنك إذا كنت حريصا كنت كثير الاختذال قليل العطية إذا كنت كذلك لم يستقم أمرك الا قليلا فإن عيتك إما تعتقد على عيتك بالكف عن أموالهم وترك الخور عليهم ووان من صفالك من أوليائك بالاتصال اليهم وحن العطية لهم واجتنب الشح واعلم أنه أول ما عصى به الإنسان ربه وأن العاصي بمنزلة الحرى وهو قول الله عز وجل ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون فسهل طريق الجود بالحق واجعل للمسلمين كلامهم في بيتك حظا ونصيبا وأيقن أن الجود أفضل أعمال العباد فأعده لنفسك خلقا وأرض به محملا ومذهبا وتفقّد الجندي دواوينهم ومكاتيبهم وأدر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم في معاشهم يذهب الله عز وجل بذلك فاقتهم فيقوى لك أمرهم وتزيد قلوبهم في خائعتك وأترك خلوصا وانسراحا وحسب ذى السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة في عدله وعطيته وانصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فذلك مكروه أحد البابين يستشعرا فضل الباب الآخر ولازم العمل به تلقى إن شاء الله تعالى به نجاحا وصالحا وفلاحا واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس له به شيء من الأمور لا تميز إن الله الذى يعدل عليه أحوال الناس في الأرض وباقامة العدل في القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية وتأمين السبل وينصف المظلوم وتأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ويؤدى حق الطاعة ويرزق من الله المافيه والسلامة ويقم الدين ويحرقى السنن والشرائع في مجاريها واشتد في أمر الله عز وجل وتورع عن التلطف وامتنع لأقامة الحدود وأقلل العجلة وأبعد عن الضجر والقلق واقنع بالقسم واتقنع بشجرتك وانقبه في محنتك واسدد في منطقك وأنصف الخصم وقف عند الشبهة وأبلغ في الحاجة ولا يأخذك في أحد من رعيته عاباة ولا محاملة ولا لومة لائم وثبت وتأن وراقب والنظر وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك وارق في جميع الرعية وسلط الحق على نفسك ولا تسرع عن إلى سفك الدماء فإن الدماء من الله عز وجل يمكن عظيم إتيها كلها بغير حقها وانظر هذا الخراج الذى استقامت عليه الرعية وجعله الله للاسلام عزاء ورفعة ولا أهله توسعة ومنعة ولعدوه كبتا وغيظا ولأهل الكفر من معادهم ذلا وصغارا فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم ولا تدفع شيئا منه عن شريف كثر فقه ولا عن غنى لغناه ولا عن كاتب لك ولا لا أحد من خاصتك ولا حاشيتك ولا تأخذ من فوق الاحتمال له ولا تكلف أمر فيه شطط واحمل الناس كلهم على مر الحق فإن ذلك أجمع لألفتهم والزم ارضاء العامة واعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا ورعايا وإماما أهل محلك رعيته لا تكثر اعيهم وقيمهم فخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ونقد في قوام أمرهم وصالحهم وتقديم أودهم واستعمل عليهم أولى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف ووسع عليهم في الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلت وأسدالك

فلا يشغلك عنه شاغل ولا يصرفك عنه صارف فانك متى آثرته وقت فيه بالواجب استدعيت به زيادة
النعمة من ربك وحسن الاحدوت في عملك واستجرت به الحجة من رعبتك وأعنت على الصلاح
فدبرت الخيرات بذلك وفشت العمارات بناحيك وظهر الخصب في كورك وكثر خراجك وتوفرت أموالك
وقويت بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة بأفاضة العطاء فيهم من نفسك وكنت محمود السياسة
مرضى العدل في ذلك عند عدوك وكنت في أمورك كلها ذا عدل وقوة وعدة فتنافس فيها ولا تقدم عليها
شيئا تحمد عاقبة أمرك إن شاء الله تعالى واجعل في كل كورة من عملك أمينا يخبرك خبر عملك ويكتب
إليك بصره وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله معاينة لا مودة كلها وإذا أردت أن تأمرهم بأمر فانظر
في عواقب ما أردت من ذلك فان رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفع والصنع فأمنه
ولا فتوقف عنه وراجع أهل البصر والعلم ثم خذ فيه عدته فانه رعا نظير الرجل في أمره وقد أناه على
ما بهوى فأغواه ذلك وأعجبه فان لم ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره فاستعمل الحزم في كل ما أردت
وباشره بعد عون الله عز وجل بالقوة وأكثر من استخارة ربك في جميع أمورك وافرغ من عمل يومك
ولا تؤخره وأكثر مباشرته بنفسك فان لغدا مورا أو حوادث تأويلك عن عمل يومك الذي أخرت واعلم
أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه فإذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فبدشغلك ذلك حتى ترضى منه وإذا
مضيت لكل يوم عمله أرحمت بدلك ونفسك وجمعت أمر سلطانك وانظر أحرار الناس وذوى الفضل
منهم بمن يلوذ صفاء طوبى بهم وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك فاستخلصهم
وأحسن اليهم وتعاهد أهل البيوت بمن قد دخلت عليهم الحاجة واحتمل مؤنتهم وأصلح حالهم حتى
لا يجدوا خللهم منافرا وأفرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته
إليك واشتقر الذي لا علم له بطلب حقه فسل عنه أخفى مسئلة وكل بأمثاله أهل الصلاح في رعبتك ومروم
برفع حوائجهم وخلاهم لتنظر فيما يصلح الله به أمره وتعاهد ذوى البأساء وتتامم أراهم واجعل لهم
أرزاقا من بيت المال اقتداء بأمر المؤمنين أعز الله تعالى في العطف عليهم واتصلهم ليصلح الله بذلك
عيشهم ويزقك به بركة وزيادة وأجر للأمراء من بيت المال وقدم حملة القرآن منهم والخافقين لا كثره
في الجرائد على غير هو النصب لمرضى المسلمين دورا تأوهمهم وقواما يرفعون بهم وأحباء يعالجون أسقامهم
وأضعفهم يشبهوهم ما يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وفضل أماتهم
لم تبرهم ورعاتهم المتصفح لا مورا الناس لكثرة ما برده عليه ويشغل ذكره وفكره منها ما يناله به مؤنة
ومشقة وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل كالذي
يستقرى ما يقر به إلى الله تعالى ويلتمس رحمة وأكثرا لذن الناس عليك وأمرهم وجهك وسكن
حراسك واخض لهم جناحك واظهر لهم بشرتك ولن لهم في المسئلة والنطق واعطف عليهم بحودك
وفضلك وإذا أعطيت فاعط بساحة وطيب نفس والناس الصفيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان
فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله تعالى واعتبر بما تزي من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك

من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والائم البائدة ثم اعتصم في أخوالك كلبا لله سبحانه وتعالى
والوقوف عند عينته والعمل بشريعته وسنته وبإقامة دينه وكتابه واجتناب ما فارق ذلك ومخالفة ودعا
إلى سخط الله عز وجل واعرف ما تجمع عمالك من الأموال وما ينفقون منها ولا تجمع حراما ولا تنفق
اسرافا وكثر عباله العلماء ومشاورتهم وغالطتهم وليكن هو الماتباع السنن وإقامتها وإبشار مكرم
الأخلاق ومقاتلتها وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إزار أي عيلك تمنعه هيبك من إنباء ذلك
إليك في ستر وإعلامات بما في يد من النقص فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك وانتظر عمالك
الذين يحضرتك وكتابتك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقايدخل فيه بكتبه ومؤامره وما عده
من حوائج عمالك وأمورهم ولقور عينك ثم فرغ غلبا بور عليك من ذلك سمعك وبصرك وفيحك
وعطفك وكرر النظر فيه والتدبير له فما كان موافقا للحق والحزم فمضه واستخر الله عز وجل فيه وما
كان مخالفا لذلك فاصرفه إلى المسئلة عنه والتثبت ولا تعن على رعبك ولا غير جمع عرف تواتره إليهم ولا
تقبل من أحد إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور السنين ولا تضع المعروف إلا على ذلك وتفهيم كتابي
إليك وأمعن النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع أمورك واستخره فإن الله عز وجل مع الصالح
وأهله وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان الله عز وجل رضاء له نظاما ولا عهده عزرا وتمكيننا
والدلة والذمة عدلا وصلاحا وأنا أسأل الله عز وجل أن يحسن عونك وتوفيقك ويرشدك وكلاءك
والسلام * وحدث الأخباريون أن هذا الكتاب لما ظهر وشاع أمره أعجب به الناس واتصل بالمأمون
فلما قري عليه قال ما أبق أبوا الطيب يعني ظاهرا شيئا من أمور الدنيا والدين والتدبير والرأي
والسياسة وصالح تلك والرعية وحفظ السلطان ومناعة الخلفاء وتقوم الخلافة الا وقد أحكمه
وأوصى به ثم أمر المأمون فكتب به إلى جميع العباد في النواحي ليقتدوا به ويعملوا بما فيه هذا أحسن
ما وقت عليه في هذه السياسة والله أعلم

٥٣ ﴿ فصل في أمر القاضى وما يذهب اليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك ﴾

(اعلم) أن المشهور بين الكافة من أهل الاسلام على محال اعتبار أنه لا يدق آخر الزمان من ظهور
رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولون على الممالك الاسلامية ويسمى
بالمهدي ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره وإن عيسى
ينزل من بعده فيقتل الدجال أو ينزل معه فيساعده على قتله ويأتيهم بالمهدي في صلاته ويحتجون في الباب
بأحاديث خرجها الأئمة وتكلم فيها النكرون لذلك وربما عارضوها ببعض الأخبار والمصوفة
شأنهم في أمر هذا القاضى طريقة أخرى ونوع من الاستدلال وربما يعتمدون في ذلك على
الكشف الذى هو أصل طرائقهم * ونحن الآن نذكر هنا الأحاديث الواردة في هذا الشأن
ومال المنكرين فيها من اللطاعن والمهمل في انكارهم من المتقدمين تبعه بذكر كلام التصوفة ورأيهم

ليتبين لك الصحيح من ذلك ان شاء الله تعالى فنقول ان جماعة من الأئمة خرجوا بأحاديث المهدى
منهم الترمذي وأبو داود البزار وابن ماجه والحاكم والطبراني وأبو يعلى الموصلي وأستدوها إلى
جماعة من الصحابة مثل علي وابن عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي
سعيد الخدري وأم حبيبة وأم سلمة وثوبان وقرّة بن إياس وعلى الهلالى وعبدالله بن الحرث بن جزء
بأسانيد رتبنا عرضها انكروا كما نذكره الآن المعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على
التعديل فإذا وجدنا طعننا في بعض رجال الأسانيد بغفلة أو بسوء حفظ أو ضعف أو سوء رأى تطرق
ذلك إلى صحة الحديث وأوهم منها ولا نقول مثل ذلك ربما تطرق إلى رجال الصحيح فإن الإجماع
قد اتصل في الأمة على تلقيها بالقبول والعسل بما فيها وفي الإجماع أعظم حماية وأحسن دفع وليس
غير الصحيحين مثابتهما في ذلك فقد نجد ما لا للكل في أسانيد جماعة في عن أئمة الحديث في ذلك *
ولقد توغل أبو بكر بن أبي حنيفة على ما نقل السبيل عنه في جملة الأسانيد الواردة في المهدى فقال ومن
أغربها اسنادا ما ذكره أبو بكر الاسكافي في قوائمه لا خيار مستند إلى مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر
عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كذب بالمهدى فقد كفر ومن كذب بالرجال فقد
كفر وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك فيما أحسب وحسبك هذا غلو والله أعلم بصحة
طريقه إلى مالك بن أنس على أن أبا بكر الاسكافي عندهم منهم وضاع * وأما الترمذي فخرج هو
وأبو داود بسنديهما إلى ابن عباس من طريق عاصم بن أبي النجود أحد القراء السبعة إلى زر بن حبیش
عن عبدالله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم لو لم يبق من الدنيا الا يوم لطول الله ذلك اليوم
حتى يبعث الله فيه رجلا مني أو من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي هذا اللفظ أني داود
وسكت عليه وقال في رسالته المشهورة ان ما سكت عليه في كتابه فهو صالح ولنظ الترمذي لا يذهب
الدنيا حتى يهلك العرب رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي وفي لفظ آخر حتى يلى رجل من أهل بيتي
وكلاهما حديث حسن صحيح ورواه أيضا من طريق موقوف على أبي هريرة وقال الحاكم رواه النوري
وشعبة وزائدة وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم قال وطرف عاصم عن زر عن عبدالله كليا صحيحة
على ما أصلته من الاحتجاج بأخبار عاصم ادهو امام من أئمة المسلمين انتهى إلا أن عاصم قال فيه أحمد بن حنبل
كان رجلا صالحا قال في القرآن خير أئمة والأعمش أحفظ منه وكان شعبة يختار الأعمش عليه في تثبيت
الحديث وقال العجلي كان يختلف عليه في زر وأبي والى يشير بذلك إلى ضعف روايته عنها وقال
محمد بن سعد كان ثقة إلا أنه كثير الخطأ في حديثه وقال يعقوب بن سفيان في حديثه اضطراب وقال
عبد الرحمن بن أبي حاتم قلت لأبي أن أبا زرعة يقول عاصم ثقة فقال ليس عنده هذا وقد تكلم فيه ابن
علية فقال كل من اسمه عاصم سبي الحفظ وقال أبو حاتم عنه عنده عن علي الصدوق صالح الحديث ولم يكن
بذلك الحافظ واختلف فيه قول النسائي وقال ابن خراش في حديثه نكرة وقال أبو جعفر العقيلي
لم يكن فيه الاسوء الحفظ وقال الدارقطني في حفظه شيء موقال يعي القطان ما وجدت رجلا اسمه عاصم

الأوجدته رديء الحفظ وقال أيضا سمعت شعبة يقول حدثنا عاصم بن أبي النجود وفي الناس ما فيها
وقال الله هي ثبت في القراءة وهو في الحديث دون الثبت صدوق فهم وهو حسن الحديث وإن احتج
أحد بأن الشيخين أخرجهما فنقول أخرجهما مقررنا بغيره لأصله والله أعلم * وخرج أبو داود في الباب
عن علي رضي الله عنه من رواية قطن بن خليفة عن القاسم بن أبي مرة عن أبي الطفيل عن علي عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال لو لم يبق من الدهر إلا يوم أليث الله رجلا من أهل بيتي يملؤها عدلا كما ملئت
جورا وقطن بن خليفة وإن وثقه أحمد بن محمد بن القطان وابن معين والنسائي وغيرهم إلا أن العجلي
قال حسن الحديث وفيه تشيع قليل وقال ابن معين مرة ثقة شيعي وقال أحمد بن عبد الله بن يونس
كناشر على قطن وهو مطروح لا نكتب عنه وقال مرة كنت أمر به وأدعته مثل الكلب وقال الدارقطني
لا يحتج به وقال أبو بكر بن عياش ما تركت الرواية عنه إلا لسوء مذهبه وقال الجرجاني زائع غير ثقة
انتهى وخرج أبو داود أيضا بسنده إلى علي رضي الله عنه عن مروان بن المغيرة عن عمر بن أبي قيس عن
شعب بن أبي خالد عن أبي إسحاق النسي قال قال علي ونظر ابنه الحسن أن ابني هذا سيد كأنما رسول الله
صلى الله عليه وسلم سبخر ج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه في الخلق ولا يشبهه في الخلق بملا
الأرض عدلا وقال هرون حدثنا عمر بن أبي قيس عن مطرف بن حريظ عن أبي الحسن عن هلال بن
عمر سمعت عليا يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحرث على مقدمته رجل
يقال له منصور يوطيء أو تمكن لأن محمد كان مكنت قرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجب على كل
مؤمن نصره أو قال اجابته سكت أبو داود عليه السلام وقال في موضع آخر في هرون وهو من ولد الشيعة
وقال السلمي فيه نظر وقال أبو داود في عمر بن أبي قيس لا بأس به في حديثه خطأ وقال الله هي صدوق
له أو هامو أما أبو إسحاق الشيعي وإن خرج عنه في الصحيحين فقد ثبت أنها اختلط آخر عمره وروايته
عن علي منقطعة وكذلك رواية أبي داود عن هرون بن المغيرة * وأما السند الثاني فأبو الحسن فيه
وهلال بن عمر يجهلان ولم يعرف أبو الحسن إلا من رواية مطرف بن حريظ عنه انتهى وخرج
أبو داود أيضا عن أم سلمة وكذا ابن ماجه والحاكم في المستدرک من طريق علي بن نفيل عن سعيد بن
السيب عن أم سلمة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المهدي من ولد فاطمة ولقظ الحاكم
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر المهدي فقال نعم هو حق وهو من بني فاطمة ولم يتكلم عليه
بتصحيح ولا غيره وقد ضعفه أبو جعفر العقيلي وقال لا يتابع علي بن نفيل عليه ولا يعرف إلا به وخرج
أبو داود أيضا عن أم سلمة من رواية صالح أبي الخليل عن صاحب له عن أم سلمة قال يكون اختلاف
عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هاربا إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه
وهو كاره فيأبى عنه بين الركن والمقام فيبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة
فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال أهل الشام وعصائب أهل العراق فيأبى عنه ثم ينشأ رجل من قرين
أخواله كلب فيبعث إليهم بعثا فيظهرون عليهم وذلك بعث كلب والحقيقة لم يشهد غنيمة كلب فيقسم

انك ويعمل في الناس بسنة بينهم صلى الله عليه وسلم ويلقى الاسلام بحرانه على الارض فليبت سبع
 سنين وقال بعضهم تسع سنين ثم رواه أبو داود من رواية أبي الخليل عن عبد الله بن الحرث عن أم
 سلمة فتبين بذلك المذهب في الاسناد الا أن رجلا من رجال الصحيحين لا مذهب فيهم ولا معزز وقد يقال أنه من
 رواية قتادة عن أبي الخليل وفتادة مدلس وقد عنته والمدلس لا يقبل من حديثه إلا ما صرح فيه بالسماع
 مع أن الحديث ليس فيه تصريح بذلك المذهب نعم ذكره أبو داود في أبوابه وخرج أبو داود أيضا
 وتابعه الحاكم عن أبي سعيد الخدري عن طريق عمران القطان عن قتادة عن أبي بصرة عن أبي سعيد
 الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهدي مني أحلى الجبهة أفنى الأنف بملا الأرض
 قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا علق سبع سنين هذا لفظ أبي داود وسكت عليه ولفظ الحاكم
 المهدي متأهل البيت أشم الأنف أفنى أحلى بملا الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يعيش
 هكذا ويط يبارء وأصبعين من عتة السبابة الأيهام وعقد ثلاثة قال الحاكم هذا حديث يعصم على
 شرط مسلم ولم يخرجاه اه وعمران القطان عاتلف في الاحتجاج به إنما أخرجه البخاري استشهادا
 لأصلا وكان يحيى القطان لا يحدث عنه وقال يحيى بن معين ليس بالقوي وقال مرة ليس بشيء وقال
 أحمد بن حنبل أرجو أن يكون صالح الحديث وقال يزيد بن زريع كان حروريا وكان يري السيف
 على أهل القبلة وقال النسائي ضعيف وقال أبو عبيد الآجري سألت أبا داود عنه فقال من أصحاب الحسن
 وما سمعت الا خبرا أو سمعته مرثا أخرى ذكره فقال ضعيف أفنى في أيام إبراهيم بن عبد الله بن حسن
 بفتوى شديدة فيها سفك الدماء وخرج الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي سعيد الخدري من
 طريق زيد العمي عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال خشيت أن يكون بعض
 شيء حدث فأناني الله صلى الله عليه وسلم فقال إن في أمي المهدي يخرج بعيسى خما
 أو سبعا أو تسعا زيد الشاذل قال قلنا وما ذلك قال سنين قال فيحيى إليه الرجل فيقول يا مهدي
 أعطني قال فيحيى له في توبه ما استطاع أن يحمله هذا لفظ الترمذي وقال حديث حسن وقد
 روى من غروجه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم ولفظ ابن ماجه والحاكم يكون في أمي
 المهدي إن قصر فسبع والأفصح فتع أمي فيه نعمة ثم ينعموا بمثلها فقط تؤتي الأرض كلها ولا يدخر منه
 شيء وانما يومئذ كدوس فيقوم الرجل فيقول يا مهدي أعطني فيقول خذ انتهي وزيد العمي وإن قال
 فيه الدارقطني وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين أنه صالح وزاد أحمد أنه فوق زيد الرقاشي وفضل بن عيسى
 الا أنه قال فيه أبو حاتم ضعيف يكتب حديثه ولا يخرج به وقال يحيى بن معين في رواية أخرى لا شيء وقال
 مرة يكتب حديثه وهو ضعيف وقال الجرجاني متأسك وقال أبو زرعة ليس بقوي واهن الحديث
 ضعيف وقال أبو حاتم ليس بذلك وقد حدث عنه شعبة وقال النسائي ضعيف وقال ابن عدي عامة ما يرويه
 ومن يروى عنهم ضعفاء على أن شعبة قد روى عنه ولعل شعبة ثم يروى عن أضعف منه وقد يقال إن حديث
 الترمذي وقع تصغيرا لما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون

في آخر أمي خليفة عن المال حيا لا بعد عدا ومن حديث أبي سعيد قال من خلفكم خليفكم بخي المال
 حيا ومن طريق أخرى عنها قال يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا بعده انتهى وأحدث
 مسلم يقع فيها كراهي ولا دليل يقوم على أنه المراد منها ورواه الحاكم أيضا من طريق عوف الأعرابي
 عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى
 تملأ الأرض جورا وظلما وعدوانا ثم يخرج من أهل بيتي رجل يملؤها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما
 وعدوانا وقبل فيه الحاكم هذا الصحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الحاكم أيضا من طريق
 سليمان بن عبيد عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
 يخرج في آخر أمي المهدي يستغيث الله الغيث ويخرج الأرض نباتها ويعطي المال صحاحا وتكثر الفاشية
 وتكظم الأمة بعيش سعا أو ثمانيا يعني جمعا وقل فيه حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه مع أن سليمان
 ابن عبيد لم يخرجه أحد من الستة لكن ذكره ابن حبان في الثقات ولم يرد أن أحدا تكلم فيه ثم رواه
 الحاكم أيضا من طريق أسد بن موسى عن حماد بن سلمة عن مطر الوراق وأبي عروون العبدي عن أبي
 الصديق الناجي عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تملأ الأرض جورا وظلما فيخرج
 رجل من عترتي فيملك سعا أو تسعا فيملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما وقال الحاكم
 فيه هذا حديث صحيح على شرط مسلم وإنما جمعه على شرط مسلم لأنه أخرجه عن حماد بن سلمة وعن
 شيخه مطر الوراق وأما شيخه الآخر وهو أبو عروون العبدي فلم يخرجاه وهو ضعيف جدا منهم
 بالكذب ولا حاجة إلى بسط أقوال الأئمة في تضعيفه * وأما الراوي له عن حماد بن سلمة وهو أسد بن
 موسى ويلقب أسد السنة وإن قال البخاري مشهور الحديث واستشهد به في صحيحه واحتج به أبو داود
 والنسائي إلا أنه قد مره أخرى ثقة لم يصنف كان خيرا له وقل فيه محمد بن حزم منكر الحديث ورواه
 الطبراني في معجمه الأوسط من رواية أبي الواصل عبد الحميد بن واصل عن أبي الصديق الناجي عن
 الحسن بن يزيد السعدي أحد بني بهدلة عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يقول يخرج رجل من أمي يقول يسئني نزل الله عز وجل له القطر من السماء ويخرج الأرض بركتها
 وتملأ الأرض منه قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يعمل على هذه الأمة سبع سنين وينزل بيت
 المقدس وقل الطبراني فيه رواه جماعة عن أبي الصديق ولم يدخل أحد منهم بينه وبين أبي سعيد أحدا
 إلا أبو الواصل فانه رواه عن الحسن بن يزيد عن أبي سعيد انتهى وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن أبي
 حاتم ولم يعرفه بأكثر مما في هذا الإسناد من روايته عن أبي سعيد ورواية أبي الصديق عنه وقال الذهبي
 في الميزان أنه مجهول لكن ذكره ابن حبان في الثقات وأما أبو الواصل الذي رواه عن أبي الصديق فلم
 يخرجه له أحد من الستة وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة الثانية وقال فيه يروى عن أنس وروى عنه
 شعبة وعتاب بن بشر وخرج ابن ماجه في كتاب السنن عن عبد الله بن مسعود من طريق يزيد بن أبي
 زياد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قيل فتيمة من

أمت يلقون سبع رايات تحت كل راية منها رجل يطلب الملك فيقتلهم الله جميعا ويرد الله إلى المسلمين ألقمهم
ونعمهم وقاصيتهم ودانيتهم أم وفيه عبد الله بن طيبة وهو ضعيف معروف الطال ورواه الحارثي
المستدرک وقال صحيح الاسناد وخرج في رواية ثم يظهر الهاشمي فيرد الله الناس إلى ألقمهم الخ وليس
في طريقة ابن طيبة وهو اسناد صحيح كما ذكره وخرج الحارثي المستدرک عن علي رضي الله عنه من
رواية أبي الطفيل عن محمد بن الحنفية قال كنا عند علي رضي الله عنه فأتى الرجل عن المهدي فقال علي هيات ثم
عقد يده سبعة فقال ذلك يخرج في آخر الزمان إذا قال الرجل الله الله قتل ويجمع الله قوما قوما كفزع
السحاب يؤلف الله بين قوميهم فلا يمتنعون إلى أحد ولا يفرحون بأحد دخل فيهم عدتهم على عدة أهل
بدر فيسبهم الأولون ولا يدرهم الآخرون وعلى عدد أصحاب طائفة الذين جاوز وأمه الزهراء قال أبو
الطفيل قال ابن الحنفية أن يده قلت نعم قال فانه يخرج من بين هذين الأثنين قلت لأجرم والله ولا أدعها
حتى أموت ومات بها يعني مكة قال الحارثي هذا حديث صحيح على شرط الشيخين انتهى وإنما هو على شرط
مسلم فقط فأن فيه عمارا الذهبي ويونس بن أبي اسحق وخرج لها البخاري وفيه عمرو بن محمد العنقري
ولم يخرج له البخاري احتجاجا بل استشهدا مع ما ينضم إلى ذلك من تشيع عمار الذهبي وهو وإن وثقه
أحمد وابن معين وأبو حاتم النسائي وغيرهم فقد قال علي بن المديني عن سفيان أن بشر بن مروان قطع
عرفه فقلت في أي شيء قال في التشيع وخرج ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه في رواية سعد
ابن عبد الحميد بن جعفر عن علي بن زياد اليامي عن عكرمة بن عمار عن اسحاق بن عبد الله عن أنس قال
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نحن ولنا عبد المطلب سادات أهل الجنة أنا وحمزة وعلي وجعفر
والحسن والحسين والمهدي انتهى وعكرمة بن عمار وإن أخرجه لمسلم فمنا أخرجه له مناهضة وقد ضعفه
بعض ووثقه آخرون وقال أبو حاتم الرازي هو مدلس فلا يقبل إلا أن يصرح بالسماع وعلي بن زياد قال
الذهبي في الميزان لا تدري من هو ثم قال السواب فيه عبد الله بن زياد وسعد بن عبد الحميد وإن وثقه يعقوب
ابن أبي شيبة وقال فيه يحيى بن معين ليس به بأس فقد تكلم فيه الثوري قالوا لأنه رآه يفتي في
مسائل ويعطي فيها وقال ابن حبان كان ممن خش عطاؤه فلا يخرج به وقال أحمد بن حنبل سعد
ابن عبد الحميد يدعي أنه سمع عرض كتب مالك والناس ينحسرون عليه ذلك وهو ههنا
يغفد في جميع فكيف سمعوا جعله الذهبي ممن لم يفتح فيه كلام من تكلم فيه وخرج الحارثي في
مستدرکه من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفا عليه قال مجاهد قال لي ابن عباس لو لم أسمع أنك من
أهل البيت ما حدثتك بهذا الحديث قال مجاهد فانه في ستر لأذكر من بكره قال ابن عباس
منا أهل البيت أربعة منا السفاح ومنا المنذر ومنا المنصور ومنا المهدي قال فقال مجاهد بين لي هؤلاء
الأربعة فقال ابن عباس أما السفاح فربما قتل أنصارا وعقاعن عدوه وأما المنذر أراه قال فانه يعطي المال
الكثير ولا يتعاضد في نفسه ويمسك القليل من حقه وأما المنصور فانه يعطي النصر على عدوه
الشرير بما كان يعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرهب منه عدوه على مسيرة شهرين والمنصور

برهب منه عدوه على مسيرة شهر وأما المهدي فانه الذي غلب الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وتأمين
 اليها ثم السباع وتلقى الأرض أفلاذ كبدها قل قلت وما أفلاذ كبدها قال أمثال الاسطوانة من
 الذهب والفضة اه وقال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وهو من رواية اسمعيل بن
 إبراهيم بن ماجر عن أبيه واسمعييل ضعيف وإبراهيم أبوه وإن خرج له مسلم فلا كثره على
 تضعيفه اه * وخرج ابن ماجه عن توبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل عند كثر كم ثلاثة
 كلهم ابن خليفة ثم لا يصير إلى واحد منهم ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلوه فلا يذبحونهم
 ثم ذكر شيئاً لا أحفظه قل فإذا رأيتموه فابعثوه ولو حبوا على الثلج فانه خليفة الله المهدي اه ورجاله
 رجال الصحيحين إلا أن فيه ألقاباً الجرمي وذكر الذهبي وغيره أنه مدلس وفيه سفيان الثوري وهو
 مشهور بالكذب وكل واحد منها عنعن ولم يصرح بالسماع فلا يثبت وفيه عبد الرزاق بن همام وكان
 مشهوراً بالتشيع وعنى في آخر وقته غلط قال ابن عدى حدث بأحد حديث في الفضائل لم يوافقه عليها أحد
 ونسبوه إلى التشيع انتهى * وخرج ابن ماجه عن عبد الله بن الحرث بن جزء الزبيدي عن طريق ابن
 طهية عن أبي زرعة عن عمر بن جابر الحضرمي عن عبد الله بن الحرث بن جزء قال قال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي يعني سلطاناً قال الطبراني تفرده ابن طهية وقد تقدم
 لنا في حديث علي الذي خرج الطبراني في معجمه الأوسط أن ابن طهية ضعيف وأن شيخه عمر بن جابر
 أضعف منه * وخرج البراء في مسنده والطبراني في معجمه الأوسط والمفظة للطبراني عن أبي هريرة
 عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يكون في أمتي المهدي إن قصر فسيبع والافتان والافتقار تتم في أمتي نعمة
 ثم تصواب أهلها ثم يسلم السماء عليهم مدراراً ولا تدخر الأرض شيئاً من النبات والمال كدوس يقوم الرجل
 يقول يا مهدي أعطني فيقول خذ قال الطبراني واليزار تفرده محمد بن مروان العجلي زاد البزار ولا نعلم
 أنه تابعه عليه أحد وهو إن وثقه أبو داود وابن حبان أيضاً ما ذكره في الثقات وقال فيه يحيى بن معين
 صالح وقال مرة ليس به بأس فقد اختلفوا فيه وقال أبو زرعة ليس عندي بذلك وقال عبد الله
 ابن أحمد بن حنبل رأيت محمد بن مروان العجلي حدث بأحد حديث وأنا شاهد لم أكتبها لكنها على عهد
 وكثب بعض أصحابنا عنه كأنه ضعفه وخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي هريرة وقال
 حدثني حنبل أبو القاسم صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل من أهل بيتي فيضربهم
 حتى يرجعوا إلى الحق قال قلت وكيف يملك قال خمساً وأربعين قال قلت وما خمس وأربعين قال لا أدري اه
 وهذا السند وإن كان فيه بشر بن تيبك وقال فيه أبو حاتم لا يحتج به فقد احتج به الشيخان ووثقه الناس
 ولم يلتفتوا إلى قول أبي حاتم لا يحتج به إلا أن فيه رجلاً من أبي رجاء اليشكري وهو مختلف فيه قال أبو
 زرعة ثقة وقال يحيى بن معين ضعيف وقال أبو داود ضعيف وقال ردة صالح وعلق له البخاري في صحيحه
 حدثنا واحدا * وخرج أبو بكر البزار في مسنده والطبراني في معجمه الكبير والأوسط عن مرة

ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتعلمن الأرض جوراً وظلماً فإذا ملكت جوراً وظلماً بعث الله رجلاً من أمي اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي عليّ هادلاً وقسطاً كما ملكت جوراً وظلماً فلا تمنع السماء من قطر هاشياً ولا الأرض شيئاً من نباتها يابث فيكم سبعاً أو ثمانياً أو تسعين سنين اه وفيه داود بن الحبحر ابن قحزم عن أبيه وهما ضعيفان جداً * وخرج الطبراني في معجمه الأوسط عن ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من المهاجرين والأَنْصار وعلى بن أبي طالب عن يساره والعباس عن يمينه إذ تلاحي العباس ورجل من الأنصار فأغلظ الأنصارى للعباس فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد العباس ويده على وقال سيخرج من سلب هذا في تلال الأرض جوراً وظلماً وسيخرج من سلب هذا في تلال الأرض قسطاً وعدلاً فإذا رأيت ذلك فعليكم بالفتى التميمي فإنه يقبل من قبل الشرق وهو صاحب راية المهدي انتهى وفيه عبد الله بن عمر العمري وعبد الله بن شعبة وهما ضعيفان اه * وخرج الطبراني في معجمه الأوسط عن طلحة بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ستكون فتنة لا يمكن منها جانب إلا تهاجر جانب حتى ينادي من السماء إن أميركم فلان اه وفيه الثوري بن الصباح وهو ضعيف جداً وليس في الحديث تصريح بذكر المهدي وإنما ذكره في أبو أيوب ورجله استثناساً (فيذه) جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان وهي كذا أيتمم بخلص منها من النفاذ القليل أو الأقل منه وروينا تساك التكرار لثأته تارة محمد بن خالد الجندي عن أبيان بن صالح بن أبي عياش عن الحسن البصري عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا مهدي إلا عيسى بن مريم وقال يحيى بن معين في محمد بن خالد الجندي انه ثقة وقال البيهقي انه رده به محمد بن خالد وقال الحاكم فيه انه رجل مجهول واختلف عليه في اسناده مرة يروي كما تقدم وينسب ذلك لحمد بن إدريس الشافعي ومرة يروي عن محمد بن خالد عن أبيان عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم رسالة قال البيهقي فرجع إلى رواية محمد بن خالد وهو مجهول عن أبيان بن أبي عياش وهو متروك عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو منقطع وبالجملة فالحديث ضعيف مضطرب وقد قيل في أن لا مهدي إلا عيسى أي لا يتكلم في المهدي إلا عيسى يخاولون بهذا التأويل رد الاحتجاج به أو الجمع بينه وبين الأحاديث وهو مدفوع بحديث جريح ومثله من الخواارج * وأما التصوف فهم يكن المتقدمون منهم يخوضون في شيء من هذا وإنما كان كلامهم في المجاهدة بالأعمال وما يحصل عنهما من نتائج المواجد والأحوال وكان كلام الإمامية والرافضة من الشيعة في تفصيل علي رضي الله تعالى عنه والقول بإمامته وادعاء الوصية بذلك من النبي صلى الله عليه وسلم والنجاشي من الشيخين كعاد كونه في مذاهبتهم ثم حدث فيهم بعد ذلك القول بالإمام المعصوم وكثرت التأليف في مذاهبتهم وجاء الأسماء على من يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ وآخرون ينتظرون عيسى من ينقطع بموته منهم وآخرون ينتظرون عوداً لم يمت في أهل البيت مستدين على ذلك بما قدمناه من الأحاديث في المهدي وغيرهائم حدث أيضاً عند التأخرين من التصوفية الكلام في الكشف وفيما وراء الحسن

وظهر من كثير منهم القول على الاطلاق بالحلول والوحد فصار كوا فيها الامامية والرافضة لقولهم
بالوحية الاثثة وحلول الاله فيهم وظهر منهم ايضا القول بالتطير والابدان وكأنه يحاكي مذهب الرافضة
في الامام والنجباء واشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم حتى لقد جعلوا مسند طريقهم
في لبس الخرقه أن علي رضي الله عنه ألبسها الحسن البصري وأخذ عليه العهد بالزام الطريقة
وانفل ذلك عنهم الجند من شيوخهم ولا يعلم هذا عن علي من وجه صحيح ولم تكن هذه الطريقة خاصة
بعلي كرم الله وجهه بل الصحابة كلهم أسوة في طرق الهدى وفي تخصيص هذا بعلي دونهم راحة من
الشييع قوية فيهم منها ومن غيرها مما تقدم . خوهم في التتبع وانخرطهم في سلكه وظهر منهم
ايضا القول بالقطب وامتلاآت كتب الاسماعيلية من الرافضة وكتب التأخرين من المتصوفة بمثل
ذلك في الفاطمي المنظر وكان بعضهم عليه على بعض وينقنه بعضهم عن بعض وكأنه مبني على أصول
واحدة من الفريقين وربما يستدل بعضهم بكلام المنجمين في القرائات وهو من نوع الكلام في
الملاحم ويأتي الكلام عليها في الباب الذي يلي هذا وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين
في شأن الفاطمي ابن العربي الخافعي في كتابه عنقاء مغرب وابن قسي في كتاب خلع النعيلين وعبد الحق
ابن سبعين وابن أبي واطيل تليده في شرح كتاب خلع النعيلين وأكثر كتابهم في شأنه الغارز وأمثال
وربما يصرحون في الاقل أو يصرح مفسرو كلامهم وحاصل مذهبهم فيه على ما ذكر ابن أبي واطيل
أن النبوة بها ظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمى وانما يعقب الخلافة ثم يعقب الخلافة الملك ثم
يعود تجبر أو تكبرا وباطلا قالوا ولما كان في اليهود من سنة التدرجوع الامور إلى ما كانت وجب
أن يحيا أمر النبوة والحق بالولاية ثم بخلافها ثم يعقبها الدجل مكان الملك والفسط ثم يعود الكفر
بجعله يسرون بهذا لما وقع من شأن النبوة والخلافة بعدها وانما تلك بعد الخلافة هذه ثلاث مراتب
وكذلك الولاية التي هي لهذا الفاطمي والدجل بعدها كناية عن خروج النجاة على أثره والكفر
من بعد ذلك فهي ثلاث مراتب على نسبة الثلاث مراتب الأولى ثم يعود الكفر كما كان قبل النبوة
قالوا ولما كان أمر الخلافة لفريش حكما شرعيا بالإجماع الذي لا يوهنه انكار من لم يزاول علمه
وجب أن تكون الامامة فيمن هو أحسن من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم اما ظاهرا كقبي
عبد المطلب واما باطنا ممن كان من حقيقة الآل والآل من إذا حضر لم يغيب من هو آله وابن
العربي الخافعي سماه في كتابه عنقاء مغرب من تأليفه خاتم الأولياء وكفى عنه بلينة الفضة اشارة
إلى حديث البخاري في باب خاتم النبيين قال صلى الله عليه وسلم مثلي فيمن قبل من الأنبياء
كمثل رجل ابتنى بيتا وأكمله حتى إذا لم يبق منه الا موضع لبنة فانا تلك اللبنة فيفسرون
خاتم النبيين باللبنة حتى أكملت البيان ومعناه النبي الذي حصلت له النبوة الكاملة ويمثلون الولاية
في تفاوت مراتبها بالنبوة ويجعلون صاحب السكال فيها خاتم الأولياء أي حائز الرتبة التي هي خاتمة الولاية
كما كان خاتم الأنبياء معاذو المراتبة التي هي خاتمة النبوة فكفي الشارع عن تلك المراتبة الخاتمة لبنة البيت في

الحديث المذكور وهما على نسبة واحدة فهما في لبنة واحدة في التعميل في النبوة لبنة ذهب وفي الولاية
لبنة فضة للتفاوت بين الرتبين كما بين الذهب والفضة فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبي صلى الله عليه
وسلم ولبنة الفضة كناية عن هذا الولي الفاطمي المنتظر وذلك خاتم الانبياء وهذا خاتم الاولياء وقال ابن
العربي فيما نقل ابن أبي واطيل عنه وهذا الامام المنتظر هو من اهل البيت من ولد فاطمة وظهره يكون
من بعد مضي خم ف ج من الهجرة ودرسم حروفه ثلاثة يريد عددها بحساب الجمل وهو الحاء المعجمة
بواحدة من فوق ستاين والفاء اخذت القاف بتاين والجم المعجمة بواحدة من أسفل ثلاثة وذلك ستاينة
وثلاث وثمانون سنة وهي في آخر القرن السابع ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر حمل ذلك بعض المتفكرين لهم
على أن المراد بتلك المدة مولده وعبر بظهوره عن مولده وأن خروجه يكون بعد العشر والتسعة فانه
الامام الناجم من ناحية الغرب قال واذا كان موته كزعم ابن العربي سنة ثلاث وثمانين وستائة فيكون
عمره عند خروجه ستاين وعشرين سنة قال وزعموا أن خروج السجدة يكون سنة ثلاث وأربعين وسبعائة
من اليوم الممدي وابتداء اليوم الممدي عندهم من يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى عام ألف سنة
قال ابن أبي واطيل في شرحه كتاب خلع النعائن الولي المنتظر القائم بأمر الله الميار إليه محمد الزيد
وخاتم الاولياء وليس هو بنو وإمامه ولي اجتماعه وحبيبه قال صلى الله عليه وسلم العالم في قومه
كالنبي في أمته وقال علماء أمي كآنياء بني إسرائيل وبني إسرائيل في بني إسرائيل في أول اليوم الممدي إلى
فيل الحسنة نصف اليوم وتأكدت ونضاعت بباشر المشايخ بتقريب وقته وازدلاف زمانه منذ
انقضت إلى هلم جرا قال وذكر الكندي أن هذا الولي هو الذي يصلي بالناس صلاة الظهر ويحدد الاسلام
ويظهر العدل ويفتح جزيرة الأندلس ويصل إلى رومية فيفتحها ويسير إلى المشرق فيفتحها ويفتح
القسطنطينية ويصير له ملك الأرض فيتقوي المسلمون ويعلموا الاسلام ويظهر دين الحقانية فان من
صلاة الظهر إلى صلاة العصر وقت صلاة قال عليه الصلاة والسلام ما بين هذين وقت وقال الكندي أيضا
الحروف العربية غير المعجمة يعني المفتوح بها سور القرآن جملة عددها سبعائة وثلاثة وأربعون وسبعة
دجالية ثم يزل عيسى في وقت صلاة العصر فيصلح الدنيا ويمشي الشاة مع الذهب ثم يبق ملك العجم بعد
اسلامهم مع عيسى مائة وستين عاما عند خروجه المعج وهو في ن دولة العدل منها أربعون عاما قال
ابن أبي واطيل وماورد من قوله لامهدي إلا عيسى فعنه لامهدي تساوي هدايته ولايته وقيل لا يكلم
في المبدأ إلا عيسى وهذا مدفوع بحديث جريح وغيره وقد جاء في الصحيح أنه قال لا يزال هذا الامر
قائما حتى تقوم الساعة أو يكون عليهم اثنا عشر خليفة يعني قريشا وقد أعطى الوجود أن منهم من كان في
أول الاسلام ومنهم من سيكون في آخره وقال الخلافة بعدني ثلاثون واحدي وثلاثون أوست وثلاثون
وانقضاءها في خلافة الحسن وأول أمر معاوية فيكون أول أمر معاوية خلافة أخذ بأوائل الاسماء فهو
سادس الخلفاء وأما سابع الخلفاء فعمير بن عبد العزيز والباقي خمسة من أهل البيت من ذرية علي يؤيده
قوله انك لتدور فيها يريد الامة أي انك الخليفة في أولها وذريتك في آخرها ورعا استدلال بهذا

الحديث القائلون بالرجعة فلا أول هو المثار إليه عندهم بظنوع الشمس من مغربها وقد قال صلى الله عليه وسلم إذا هلك كسري فلا كسري بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والتي نفى يده لتنفق كنوزها في سبيل الله وقد أشق عمر بن الخطاب كنوز كسري في سبيل الله والذي هلك قيصر ويتفق كنوزه في سبيل الله هو هذا المنتظر حين يفتح القسطنطينية فتم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش كذا قال صلى الله عليه وسلم ومدة حكمه بضع والبضع من ثلاث إلى تسع وقيل إلى عشر وجاء ذكر أربعين وفي بعض الروايات سبعين وأما الأربعون فأنها مدة ومدة الخلفاء الأربعة الباقيين من أهل القائلين بأمره من بعده على جميعهم السلام قالوا ذكر أصحاب النجوم والقرانات أن مدة بقاء أمره وأهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عاما فيكون الأمر على هذا جاريا على الخلافة والعدل أربعين أو سبعين ثم يختلف الأحوال فيكون ملكا انتهى كلام ابن أبي واطيل وقال في موضع آخر نزول عيسى يكون في وقت صلاة العصر من اليوم الممدي حين غشى ثلاثة أرباعه قال وذكر الكندي يعقوب ابن اسحق في كتاب الجعفر الذي ذكر فيه القرانات أنه إذا وصل القران إلى الثور على رأس سبع بحرفين (١) الضاد المعجمة والحاء المبدلة يريد ثمانية وتسعين وسبائة من الهجرة ينزل المسيح فيحكم في الأرض ما شاء الله تعالى قل وقد ورد في الحديث أن عيسى ينزل عند المنارة البيضاء شرق دمشق ينزل بين مروتين يعني حلتين من عفرتين صغراوين محصرتين واضعا كفيه على أجنحة الملكين له لمة كأنها خرج من دباس إذا لها ظن أن أسه قطار وإذا رفعه تحدر منه جمان كالقؤل كثير خيلان الوجه وفي حديث آخر مربوع الخلق وإلى البياض والحجرة وفي آخراته يتزوج في الغرب والغرب دلو البادية يريد أنه يتزوج منها وتزوجته وذكر وفاته بعد أربعين عاما وجاء أن عيسى يموت بالمدينة ويدفن إلى جانب عمر بن الخطاب وجاء أن أب بكر وعمر وعثمان بين يمين قل ابن أبي واطيل والشيعة تقول أنه هو المسيح مسيح الساجع من آل محمد قلت وعليه حمل بعض المتصوفة حديث لا يهدى إلا عيسى أي لا يكون مهدي إلا المهدي الذي نسبته إلى الشريعة المحمدية نسبة عيسى إلى الشريعة الموسوية في الانبأ وعدم النسخ إلى كلام من أمثال هذا يعنون فيه الوقت والرجل والسكان بأدلة واضحة وتحكمات غريبة فيقتضي الزمان ولا أثر لشيء من ذلك فيرجعون إلى تجديد رأي آخر منتحل كاتراهم من مفهومات لغوية وأشياء غيبية وأحكام نجومية في هذا انقضت أعمار الأول منهم والآخر وأما المتصوفة الذين عاصروا فأكثروا يشير ون إلى ظهور رجل بعدد الأحكام المائة ومراحم الحق ويتحينون ظهوره لما قرب من عصرنا فبعضهم يقول من ولد فاطمة وبعضهم يطلق القول فيه سمعناه من جماعة أكبرهم أبو يعقوب البادسي كبير الأولياء بالمغرب كان في أول هذه المائة الثامنة وأخبرني عنه حافظه صاحبنا أبو يحيى ذكر يا عن أبيه أبي محمد عبد الله عن أبيه الولي أبي يعقوب المذكور هذا آخر ما اطلعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة ما أورده أهل الحديث من أخبار المهدي قد استوفينا جميعه

يبلغ طافتناو الحق الذي ينبغي أن يتقرر له ذلك أنه لا تتم دعوة من الدين والملك إلا بوجود شوكة عصبية
 تظهره وتواقع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي أريناك
 هناك وعصبية الفاطميين بل وقرشي أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد أمر آخرون قد
 استلمت عصبيتهم على عصبية قرشي إلا ما بقى بالحجاز في مكة وينبع بالمدينة من الطالبين من بني حسن
 وبني حسين وبني جعفر منتشرون في تلك البلاد وغالبون عليها وهم عدايب بدوية متفرقون في مواضعهم
 وأما زعمهم وآرائهم فيكون آلافا من الكثرة فمن صح ظهور هذا المذهب فلا وجه لظهور دعواه إلا بأن
 يكون منهم من يؤلف الله بين قلوبهم في اتباعه حتى تتم شوكة وعصبية وافية باظهاركم وحمل الناس عليها
 وأما على غير هذا الوجه مثل أن يدعو فاطمي منهم إلى مثل هذا الأمر في أفق من الآفاق من غير عصبية
 ولا شوكة إلا عبرة نسبة في أهل البيت فلا يتم ذلك ولا يمكن لما أسلفناه من البراهين الصحيحة وأما ما تدعيه
 العامة والآنصار من الدهاء ممن لا يرجع في ذلك إلى عقل يهديه ولا علم يهديه فيجيئون ذلك على غير نسبة
 وفي غير مكان تقليدا لما اشتهر من ظهور فاطمي ولا يعلمون حقيقة الأمر كما بيناه وأكثروا ما يسمون
 في ذلك الفاصية من المالك وأخلاف العمران مثل الرب بأفريقية والسوس من المغرب ونجد الكثير
 من ضعفاء البصائر يقصدون رباطا غاصة لما كان ذلك الرباط بالمغرب من المسلمين من كدائق اعتقادهم أنه
 منهم أو قائمون بدعونه زعمنا لا مستند لهم إلا غرابة تلك الأسماء وبعدم على يقين المعرفة بأحوالها من
 كثرة أوقلة أو ضعف أو قوة ولبعد الفاصية عن منازل الدولة وحروجها عن نطاقها فتقوى عندهم
 الأوهام في ظهوره هناك بخروجهم عن رتبة الدولة ومنازل الأحكام والقهر ولا يصحول لديهم في ذلك
 إلا هذا وقد قصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبس بدعوة ثمة ثماها وسواسا وحماقا وقتل
 كثير منهم أخبرني شيخنا محمد بن إبراهيم الأبلي قد خرج برباط مائة لأول المائة الثامنة وعصر
 السلطان يوسف بن يعقوب رجل من منتحلي التصوف يعرف بالتوزيري نسبة إلى توزر مضفر
 وادعى أنه الفاطمي المنتظر واتباعه الكثير من أهل السوس من ضالقة كزولة وعظم أمره وخافه رؤساء
 المصامدة على أمرهم فحس عليه السكسوى من قتله يائنا وأغل أمره وكذلك ظهر في حمارة في آخر المائة
 السابعة وعشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس وادعى أنه الفاطمي واتباع الدهماء من حمارة ودخل
 مدينة فاس عنوة وحرق أسواقها وأرسل إلى بلد المرمة فقتل بها غيلة ولم يتم أمره وكثير من هذا
 النمط وأخبرني شيخنا المذكور بغربية في مثل هذا وهو أنه يحب في حجة في رباط العباد وهو مدفن
 الشيخ أبي مدين في جبل تلسان للطل عليها رجلا من أهل البيت من سكان كربلاء كان متبوعا معظما
 كثير التميز والخدم قال وكان الرجال من موطنه يتلفونه بالنفقات في أكثر البلدان قالونا كدت
 الصلبة يبتغي ذلك الطريق فانتكشف لي أمرهم وإتهم إنما جأوا من موطنهم بكربلاء لطلب
 هذا الأمر وانتحال دعوة الفاطمي بالمغرب فلما عاين دولة بني مرين ويوسف بن يعقوب
 يومئذ منازل تلسان قال لأصحابه ارجعوا فقد أفرى بنا الغلط وليس هذا الوقت وقتنا

ويبدل هذا القول من هذا الرجل على أنه مقصود في أن الأمر لا يتم إلا بالعصبة المكافئة لأهل الوقت فلما علم أنه غريب في ذلك الوطن ولا شوكة له وإن عصبة بني مرين لذلك انعبدا لا يقولوا بها أحدا من أهل المغرب استكان ورجع إلى الحق وأقصر عن مضامعه وبقى عليه أن يدين أن عصبة الخواشم وقريش أجمع قد ذهبت لاسم في المغرب إلا أن التعصب لشأنه لم يترك هذا القول ولا يعلم وأنتم لا تعلمون وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القوية زعنة من الدعاء إلى الحق والقيام بالسنة لا ينتحلون فيها دعوة فاشية ولا غير - وإنما يترفع منهم في بعض الأحيان أو أحد فلو أحد إلى إقامة السنة وتغيير المنكر ويعني بذلك ويكثر تابعه وأكثر ما يعتنقون بإصلاح السابلة لما أن أكثر فساد الأعراب فيها لما قدمه من طبيعة معاشهم فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا إلا أن السبقة الدينية فيهم تستحق أن توبة العرب ورجوعهم إلى الدين إنما يقصدون بها الانحصار عن الفارقة والنهب لا يعملون في توبتهم وقيامهم إلى مساحي الديانة غير ذلك لأنها العصبة التي كانوا عليها قبل القرية ومنها توبتهم فتجد ذلك المنحل الدعوة والقيام بزعم السنة غير متعدين في فروع الاقتداء والاتباع إنما يناديهم الأعراض عن النهب والبغى والفساد السابلة ثم لا يقبل على طلب الدنيا والمعاش بأقصى جهدهم وشأن بين هذا الأخذ في إصلاح الخلق ومن طلب الدنيا فافتقارها محتج لا يستحكم له صفة في الدين ولا يكمل له زرع عن الباطل على الجملة ولا يكثرون ويختلف حال صاحب الدعوة معهم في استحكام دينه ولا يهتم في نفسه دون تابعه فإذا هلك انحل أمرهم وتلاشت عصبيتهم وقد وقع ذلك بأفريقية لرجل من كعب من سليم يسمى فاسم بن مرة بن أحمد في المائة السابعة ثم من بعده لرجل آخر من بادية رياح من بطن منهم يعرفون بسلم وكان يسمى سعادة وكان أشد ديناً من الأول وأقوم طريقة في نفسه ومع ذلك فلم يستتب أمر تابعه كما ذكرناه حين يأتي ذكر ذلك في موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يتشبهون بتلك تلك ويلبسون فيها وينتحلون اسم السنة وليسوا عليها إلا الأقل فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من أمرهم انتهى

٥٤ فصل في ابتداء الدول والأئم وفيه الكلام على الثلاثم والكشف

عن معنى الجفر

(اعلم) أن من خواص النفوس البشرية التشوف إلى عواقب أمورهم وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخبر وشيها الحوادث العامة كعرفة ما في من الدنيا ومعرفة مدد الدول أو تفاوتها والتطلع إلى هذا طبيعة البشر يحبون عليها ولذلك نجد الكثير من الناس ينشوفون إلى الوقوف على ذلك في المنام والأخبار من السكان من قد يمشي ذلك من الملوك والسوقة معروفه ولقد نجد في المدن صنفان من الناس ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بعرض الناس عليه فيقتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه فتندو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها وكثير من ضعفاء العقول يستكشفون عواقب أمرهم في الكسب والجاه والمعاش والمعاشره والعداوة وأمثال ذلك ما بين خط

في الرمل ويسمونه النجم وطريق الحصى والحبوب ويسمونه الخشب وقطر في المراتب والنياد ويسمونه
ضارب المندل وهو من المنكرات الفاشية في الآمنسار لما تقر في الشريعة من ذم ذلك وأن البشر معجوبون
عن الغيب الآمن أطلعه الله عليه من عنده في نوم أو ولاية أو أكثر ما يعني بذلك ويطلع اليه الأمراء
والملوك في آمان دولتهم ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم اليه وكل أمة من الأمم يوجد لهم كلام من
كاهن أو منجم أو ولي في مثل ذلك من ملك يرتقبونه أو دولة يعدنون أنفسهم بها وما يحدث لهم من
الحرب والملاحم ومدة بقاء الدولة وعدد الملوك فيها والتعرض لآسمائهم ويسمى مثل ذلك الحدنان وكان
في العرب السكبان والعراقون يرجعون إليهم في ذلك وقد أخبروا بما سيكون للعرب من الملك والدولة
كما وقع لشق وسطيح في تأويل رؤيا ربيعة بن نصر من ملوك اليمن أخبرهم بملاك الحبة بلادهم ثم
رجوعها إليهم ثم ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك وكذا تأويل سطيح رؤيا الموبدان حين
بعث إليه كرى مباح عبد المسيح وأخبرهم بظهور دولة العرب وكذا كان في جيل اليربر كيان من
أشهرهم موسى بن صالح من بني يفرن ويقال من عمر دولة كلات حدانية على طريقه الشعر برعاتهم وفيها
حدنان كثير ومعظمه فيها يكون نانة من الملك والدولة بالمغرب وهي متداولة بين أهل الجبل وهم
يزعمون تارة أنه ولي وتارة أنه كاهن وقد يزعم بعض مزاعمهم أنه كان نبيا لأن تاريخه عند قبل
الحجرة بكثير والله أعلم وقد يستند الجبل إلى خبر الأنبياء إن كان لهم كما وقع لبني إسرائيل فلن
أنبياء متعاقبين فيهم كانوا أخبر ونهم بمثلته عند ما يعنونهم في السؤال عنه * وأما في الدولة الإسلامية
فوقع منه كثير فيما يرجع إلى بقاء الدنيا ومدتها على العموم وفيما يرجع إلى الدولة وأعمارها على
الخصوص وكان المتمد في ذلك في صدر الإسلام آثارا منقولة عن الصحابة وخصوصا مسلمة بن
إسرائيل مثل كعب الأشجار ووهب بن منبه وأمثلة ما وردنا اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر ما نورة
وتأويلات غميلة وقع لبعض أمثاله من أهل البيت كثير من ذلك مستند فيه والله أعلم الكنف
بما كانوا عليه من الولاية وإذا كان مثله لا ينكر من غير من الأولياء في ذوهم وأعتابهم وقد قل
صلى الله عليه وسلم إن فيكم عدتين في أولي الناس بهذه الرتب الشريفة والكرامات الوهوبة
وأما بعد صدر الله وحين علق الناس على العلوم والاصطلاحات وترجمت كتب الحكماء إلى اللسان
العربي فأكثر معتمد في ذلك كلام النجمين في الملك والدول وسائر الأمور العامة من الثرائات وفي
الموالي والمسايل وسائر الأمور الخاصة من الطوائع والهاوي شكل الملك عند حدوثها فلذلك كرا لأن
ما وقع لأهل الأثر في ذلك ثم ترجع لكلام النجمين * أما أهل الأثر فلم في مدة الملك وبقاء الدنيا على
ما وقع في كتاب السبيل فإنه نقل عن الطبري ما يقتضي أن مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسة مائة سنة ونقص
ذلك بظهور كذبه ومسنده الطبري في ذلك أنه نقل عن ابن عباس أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة ولم
يذكر لذلك دليلا وسره والله أعلم تقدير الدنيا بأيام خلق السموات والأرض وهي سبعة ثم اليوم بالف
سنة لقوله وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون قال وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم قال أحلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى غروب الشمس وقال بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى وقدر ما بين صلاة العصر وغروب الشمس حين وصيرورة ظل كل شيء مثليه يكون على التقريب نصف سبع وكذلك وصل الوسطى على السبابة فتكون هذه المدة نصف سبع الجمعة كلها وهو خمسمائة سنة ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم فدل ذلك على أن مدة الدنيا قبل الملة خمسة آلاف وخمسمائة سنة وعن وهب بن منبه أنها خمسة آلاف وستة مائة سنة أعني الماضي وعن كعب أن مدة الدنيا كلها ستة آلاف سنة قال السهيلي وليس في الحديثين ما يشهد بشيء مما ذكره مع وقوع ان وجود بخلافه فأما قوله لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم فلا مقتضى في الزيادة على النصف وأما قوله بعثت أنا والساعة كهاتين فلما فيه الإشارة إلى القرب وأنه ليس بينه وبين الساعة شيء غيره ولا شرع غير شرعهم رجع السهيلي إلى تعيين أمد الملة من مدرك آخر لو ساعده التحقيق وهو أنه جمع الحروف المقطعة في أوائل السور بعد حذف المكرر قال وهي أربعة عشر حرفا يجمعها قولك (ألم يستطع نص حقه) فاختار عددها بحساب الجمل فكان سبع مائة وثلاثة (١) أضافه إلى التقصى من الألف الآخرة قبل بعثته فهذه هي مدة الملة قال ولا يعد ذلك أن يكون من مقتضيات هذه الحروف وقوائدها قلت وكونه لا يعد لا يقتضى ظهوره ولا التعويل عليه والذي حمل السهيلي على ذلك إنما هو ما وقع في كتاب السير لابن اسحق في حديث ابن أبي عمير عن أخبار اليهود وهما أبو ياسر وأخوه حيي حين سمعا من الأحرف المقطعة ألم وتأولاها على بيان المدة بهذا الحساب فبلغت إحدى وسبعين فاستقلا المدة وجاء حيي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله هل مع هذا غيره فقال النص ثم استزاد الر ثم استزاد المر فكانت إحدى وسبعين ومائتين فاستطال المدة وقال قد ليس علينا أترك يا محمد حتى لا ندرى أقلبلا أعطيت ألم كثيرا ثم ذهبوا عنه وقال لهم أبو ياسر ما يدريكم لعله أعطى عددها كلها تسعة وأربع سنين قال ابن اسحق فزل قوله تعالى منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات اه ولا يقوم من القصة دليل على تقدير الملة بهذا العدد لأن دلالة هذه الحروف على تلك الأعداد ليست طبيعية ولا عقلية وإنما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه حساب الجمل نعم أنه هو قديم مشهور وقدم الاصطلاح لا يصير حجة وليس أبو ياسر وأخوه حيي ممن يؤخذ رأيهم في ذلك دليلا ولا من علماء اليهود لأنهم كانوا بادية بالحجاز غفلا عن الصنائع والعلوم حتى عن علم شريعتهم وقته كتابهم وملتهم وإنما يتلقفون مثل هذا الحساب كالتلقفه العوام في كل ملة فلا ينهض السهيلي دليل على ما ادعاه من ذلك ووقع في الملة في حدثنان دولتها على الخصوص مسند من الأثر اجمالى في حديث خرجه أبو داود عن حذيفة بن اليمان عن طريق شيخه محمد بن يحيى الذهبي عن سعيد بن أبي مريم عن عبد الله بن فروخ

(١) هذا العدد غير مطابق كما أن المترجم التركي لم يطابق في قوله ٩٣٠ وإنما المطابق للحروف المذكورة ٦٩٣ وهو الموافق لما سيذكره عن يعقوب الكندي قاله نصره

عن أسامة بن زيد الليثي عن أبي قبيصة بن ذؤيب عن أبيه قال قال حذيفة بن اليمان والله ما أدري
أُنسِي أصحابي أم تناسوه والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من فائدة إلى أن تنقضي الدنيا
يبلغ من معه ثلاثمائة فسادوا الا قد سمعنا باسمه أبيه وقبيلته وسكت عليه أبو داود وقد تقدم
أنه قال في رسالته ما سكت عليه في كتابه فهو صالح وهذا الحديث إذا كان صحيحاً فهو محل وبقتصر
في بيان اجماله وتعيين مبهماته إلى آثار أخرى نحو دأساندها وقد وقع اسناد هذا الحديث في غير كتاب
السنن على غير هذا الوجه فوقع في الصحيحين من حديث حذيفة أيضاً قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم قينا خطيباً فمات كشيء يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة الا حدث عنه حفظه من
حفظه ونسبه من نسبه وقد علمه أصحابه هؤلاء اهـ واللفظ البخاري ما ترك شيئاً إلى قيام الساعة إلا
ذكره وفي كتاب الترمذي من حيث أبي سعيد الخدري قال صلى الله عليه وسلم يوم ما
ملاة العصر بنهار ثم قام خطيباً فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به حفظه من حفظه ونسبه
من نسبه اهـ وهذه الأحاديث كلها موقوفة على ما ثبت في الصحيحين من أحاديث الفقه والاشراط
لا غير لأنه المعبود من الشارع صلوات الله وسلامه عليه في أمثاله هذه العمومات وهذه الزيادة التي
تفرد بها أبو داود في هذا الطريق شاذة متكررة مع أن الائمة اختلفوا في رحاله فقال ابن مريم في ابن فروخ
أحاديثه منا كبر وقال البخاري يعرف منه وينكر وقال ابن عدي أحاديثه غير محفوظة وأسامة بن زيد
وان خرج له في الصحيحين ورواه بن معين فاما خرج له البخاري استشهدا أو ضعفه يحيى بن سعيد وأحمد
ابن حنبل وقال أبو حاتم يكتب حديثه ولا يخرج به وأبو قبيصة بن ذؤيب مجهول فتضعف هذه الزيادة التي
وقعت لأبي داود في هذا الحديث من هذه الجباب مع شذوذها كآمر وقد يستندون في حدثان الدول
على الخصوص إلى كتاب الجفر ويزعمون أن فيه على ذلك كله من طريق الآثار والتجوم لا يزيدون على
ذلك ولا يعرفون أصل ذلك ولا مستنده واعلم أن كتاب الجفر كان أصلاً أن هرون بن سعيد العجلي
وهو رأس الزيدية كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق وفيه علم ما يقع لأهل البيت على العموم
ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالهم على طريق الكرامة
والكشف التي تقع لثلاثهم عن الأولياء وكان مكتوباً عند جعفر في جلد ثور صغير فرواه عنه هرون
العجلي وكتبه وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتبته لأن الجفر في اللغة هو الصغير وصار هذا الاسم علماً
على هذا الكتاب عندهم وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق
وهذا الكتاب لم يتصل روايته ولا عرف عنه وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحها دليل
ولو صح السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه فيهم أهل الكرامات
وقد صح عنه أنه كان يحضر بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصح كما يقول وقد حذر يحيى بن عمار عن
مصرعه وعصا غرجه وقتل بالجوز جان كما هو معروف وإذا كانت الكرامة تقع لغيرهم فما ظنك بهم علماً
ودينا وآثاراً من النبوة وعنايتهم من الله بالأصل الكرم تشبه لقر وعه الطيبة وقد يقتل بين أهل البيت

كثير من هذا الكلام غير منسوب إلى أحد وفي أخبار دولة العبيديين كثير منه وانظر ما حكاه ابن الرقيق في لقاء أبي عبد الله الشيعي لعبد الله الزهدي مع ابنه محمد الحبيب وما حدثناه به وكيف بعثاه إلى ابن حوشب داعينهم باليمن فأمره بالخروج إلى المغرب وبث الدعوة فيه على علم لفته أن دعونه تم هناك وإن عبيد الله لما بنى المدينة بعد انتفحال دولهم بأفريقية قال بيئتها ليعتصم بها الفواطم ساعة من نهار وأرام موقف صاحب الحمار أبي يزيد بالمهدية وكان يسأل عن منتهى موقفه حتى جاءه الخبر بلوغه إلى المكان الذي عينه جده عبيد الله فأيقن بالظفر وبرز من البلاط فزعمه واتبعه إلى ناحية الزاب فظفر به وقتله ومثل هذه الأخبار عنه في كثيرة * وأما المجموع فيستندون في حدثان الدول إلى الأحكام النجومية أما في الأمور العامة مثل الملك والدول فمن القرائن وخصوصا بين العلويين وذلك أن العلويين زحل والمشتري يقتربان في كل سبعين سنة مرة ثم يعود القرائن إلى برج آخر في تلك الثلاثة من الثلاث الأيمن ثم يعود إلى آخر كذلك إلى أن يتكرر في الثلاثة الواحدة اثنتي عشرة مرة تسوي بوجه الثلاثة في ستين سنة ثم يعود فيستوي بها في ستين سنة ثم يعود ثالثة ثم رابعة فيستوي في الثلاثة اثنتي عشرة مرة وأربع عودات في مائتين وأربعين سنة ويكون انتقاله في كل برج على الثلاث الأيمن وينتقل من الثلاثة إلى الثلاثة التي تليها أعني البرج الثاني إلى البرج الأخير من القرائن الذي قبله من الثلاثة وهذا القرائن الذي هو قرائن العلويين ينقسم إلى كبير وصغير ووسط فالكبير هو اجتماع العلويين في درجة واحدة من الفلك إلى أن يعود إليها بعد تسعمائة وستين سنة مرة واحدة والوسط وهو اقتران العلويين في كل ثلاثة اثنتي عشرة مرة وبعد مائتين وأربعين سنة ينتقل إلى مثله أخرى والصغير هو اقتران العلويين في درجة برج وبعد عشرين سنة يقتربان في برج آخر على ثلثه الأيمن في مثل درجة أو دقيقتهم مثال ذلك وقع القرائن أول دقيقة من الحمل وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من القوس وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من الأسد وهذه كلها نارية وهذا كله قرائن صغير ثم يعود إلى أول الحمل بعد ستين سنة ويسمى دور القرائن وعود القرائن وبعد مائتين وأربعين ينتقل من النارية إلى القرائن لأنها بعدها وهذا قرائن وسط ثم ينتقل إلى الهوائية ثم المائية ثم رجع إلى أول الحمل في تسعمائة وستين سنة وهو الكبير والقرائن الكبير يدل على عظام الأمور مثل تغير الملك والدولة وانتقال الملك من قوم إلى قوم والوسائط على ظهور المتغلبين والطالبيين للملك والصغير على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن أو عمرانها وشفع أئمة هذه القرائن القرائن التحسين في برج السرطان في كل ثلاثين سنة مرة ويسمى الرابع وبرزج السرطان هو طالع العالم وفيه وبال زحل وهبوط المريخ فتعظم دلالة هذا القرائن في الفتن والحروب وسفك الدماء وظهور الخوارج وحركة العساكر وعصيان الجند وأنوباء والفحط ويدوم ذلك أو ينتهي على قدر السعادة والنحوسة في وقت قرائنها على قدر تيسير المذلل فيه قال ابن جرير أحمد الحاسب في الكتاب الذي ألفه لنظام الملك ورجوع المريخ إلى العقرب له أثر عظيم في الملة الإسلامية لأنه كان دليلا فأنولد النبوي كان عند قرائن العلويين برج العقرب فصار جمع هنالك حدث التشويش على الخلفاء وكثر المرض في أهل

العلم والدين ونقصت أحوالهم ورماهم بدم بعض ميوت العبادة وقد يقال أنه كان عند قتل علي رضي الله عنه ومروان من بني أمية والتوكل من بني العباس فأذا روعيت هذه الأحكام مع أحكام القرائات كانت في غاية الأحكام * وذكر شاذان البلخي أن الملة تنتهي إلى ثلاثمائة وعشرين وقد ظير كذب هذا القول وقال أبو معشر يظهر بعد المائة والخمسين منها اختلاف كثير ولم يصح ذلك وقال جراس رأيت في كتب القدماء أن المنجمين أخبروا كسرى عن ملك العرب وظهور النبوة فيهم وأن دليلهم الزهرة وكانت في شرفها فيبقى الملك فيهم أربعين سنة وقال أبو معشر في كتاب القرائات القسمة إذا انتهت إلى السابعة والعشرين من الحوت فيها شرف الزهرة ووقع القرآن مع ذلك برج العقرب وهو دليل العرب ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبي ويكون قوة ملكه ومدته على ما بقي من درجات شرف الزهرة وهي إحدى عشرة درجة بتقريب من برج الحوت ومدة ذلك ستين سنة وعشرين سنة وكان ظهور أي مسلم عند انتقال الزهرة ووقوع القسمة أول الحمل وصاحب الجسد المشتري وقال يعقوب بن اسحق الكندي أن مدة الملة تنتهي إلى ستين سنة وثلاث وتسعين سنة قال لأن الزهرة كانت عند قران الملة في ثمان وعشرين درجة وثلاثين دقيقة من الحوت فالباقي إحدى عشرة درجة وثمان عشرة دقيقة ودقائقها ستون فيكون ستين سنة وثلاثا وتسعين سنة قال وهذه مدة الملة باتفاق الحكماء وبعضهم الحروف الواقعة في أول السور بحذف المكرر واعتباره بحساب الجمل قلت وهذا هو الذي ذكره السهيلي والغالب أن الأول هو مستند السهيلي فيما نقلناه عنه قال جراس سألت جريرا من أفريد الحكيم عن مدته أشد من مدته ملوك الساسانية فقال دليل ملكه المشتري وكان في شرفه فيعطي أطوال السنين وأجودها أربع مائة وسبعين وعشرين سنة ثم زيد الزهرة وتكون في شرفها وهو دليل العرب فيملك كون لأن خالق القرآن الميزان وصاحبه الزهرة وكانت عند القران في شرفها فعدل أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة وسأل كسرى أنوشروان وزيره بزرجمهر الحكيم عن خروج الملك من فارس إلى العرب فأخبره أن القائم منهم يولد نحس وأربعين من دولته ويملك المشرق والمغرب والمشتري يغوص إلى الزهرة وينتقل القرآن من الهوائية إلى العقرب وهو مائي وهو دليل العرب فهذه الأدلة تقضي للملة بمدة دور الزهرة وهي ألف وستون سنة وسأل كسرى أبرويز اليوس الحكيم عن ذلك فقال مثل قول بزرجمهر وقال توفيل الرومي المنجم في أيام بني أمية أن ملة الإسلام تبقى مدة القرآن الكبير تسع مائة وستين سنة فإذا عاد القرآن إلى برج العقرب كما كان في ابتداء الملة وتغير وضع الكواكب عن هيئتها في قران الملة حينئذ لما أن يضرا العمل به أو يتجدد من الأحكام ما يوجب خلاف الظن قال جراس وانفقوا على أن خراب العالم يكون باستيلاء الماء والنار حتى تهلك سائر المكنونات وذلك عند ما يقع قلب الأسد أربعين وعشرين درجة التي هي حد المربع وذلك بعد مضي تسع مائة وستين سنة وذكر جراس أن ملك زابلستان بعث إلى المأمون بحكيمه ذوبان آتخه به في هدية وأنه نصر في المأمون في الاختيارات بحروب أخيه ويعقد اللواء لظاهر وأن المأمون أعظم حكمته فسأله عن مدة ملكهم فأخبروه بانقطاع الملك من عقبه واتصاله في ولد أخيه وأن العجم

ينقلون على الخلافة من الديلم في دولة سنة خمسين ويكون ما يريد الله ثم يسوء حالهم ثم تظهر التركة من
شمال الشرق فيملكونه إلى الشام والفرات وسجود وسيملكون بلاد الروم ويكون ما يريد الله
فقال له المؤمنون من أين لك هذا فقال من كتب الحكماء ومن أحكام حصه بن داود الهندي الذي وضع
السطرحة قلت والترك الذين أشار إلى ظهورهم بعد الديلم في السلجوقية وقد انقضت دولتهم أول القرن
السابع قال جراس وانتقال القرن إلى المثلثة المائبة من برج الحوت يكون سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة
ليرد جرد وبعدها إلى برج العقرب حيث كان قران الملة سنة ثلاث وخمسين قال والذي في
الحوت هل هو أول الانتقال والذي في العقرب يستخرج منه لائل الملة قال ونحوه إلى السنة الأولى
من القران الأولى في المثلثات المائبة في ثاني رجب سنة ثمان وستين وثمانمائة ثم يتوقف الكلام
على ذلك وأما عند المنجمين في دولة على الخصوص فمن القران الأوسط وهيئة الفلك عند وقوعه
لأنه دلالة عندهم على حدوث الدولة وجباها من العمران والقائمين بها من الأئمة وعدد ملوكهم وأسمائهم
وأعمارهم ونحلهم وأديانهم وعقائدهم وسرورهم وكذا كرايوهم في كتابه في القرانات وقد وجد هذه
الدلالة من القران الأصغر إذا كان الأوسط دال عليه فمن هدايو جد الكلام في الدول وقد كان
يعقوب بن اسحق السكندر منجم الرشيد والمؤمنون وضع في القرانات الكائنة في الملة كتابا سماه الشيعة
بالجفر باسم كتابهم المنسوب إلى جعفر الصادق وذكر فيه ما ينال حدثان دولة بني العباس وانها نهايت
وأشار إلى انقراضها والحادثة على يد اعدائها تقع في انتصاف المائة السابعة وأن انقراضها يكون انقراض
المفهوم نصف على شيء من خبر هذا الكتاب ولا رأينا من وقف عليه وتعلقه غرق في كتبهم التي طرحها
هلاكمات التتر في دجلة عند استيلائهم على بغداد وقتل المعتصم آخر الخلفاء وقد وقع بالعرب جزء
مذروب إلى هذا الكتاب يسمونه الجفر الصغير والظاهر أنه وضع لبنى عبد المؤمن المذكور الأولين من
ملوك الموحدين فيه على التفصيل ومطابقة من تقدم عن ذلك من حدثان وكذب ما بعده وكان في دولة
بني العباس من بعد السكندر منجمون وكتب في الحدثان وانظر ما نقله الطبري في أخبار المهدي عن أبي
بديل من أصحاب الدولة قال بعث إلى الربيع والحسن في غزاتهم مع الرشيد أيام أبي جعفر صاحب
الليل فإذا اعتد بها كتاب من كتب الدولة يعني الحدثان وإذا معة المهدي فيه عشر سنين فقلت هذا الكتاب
لا يخفى على المهدي وقد مضى من دولته ماضى فإذا وقف عليه كنتم قد نعيم إليه نفسه قال فما الخيلة قالت دعيت
عيسة الوراق مولى آل بديل وقلت له انسخ هذه الورقة واكتب مكان عشر أربعين ففعل فوالله
لو لاني رأيت العشرة في تلك الورقة والأربعين في هذه ما كنت أشك أنها هي ثم كتب الناس من بعد
ذلك في حدثان الدول منطوما ومنثورا ورجز ماشاء الله أن يكتبوه وبأيدي الناس متفرقة كثير
منها ونسبى الملاحم وبعضها في حدثان الملة على العموم وبعضها في دولة على الخصوص وكلها منسوبة إلى
مشاهير من أهل الخليفة وليس منها أحمل يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب إليه فمن هذه الملاحم
بالمغرب قصيدة بن مران من بحر الطويل على روى الزراء وهي متداولة بين الناس ونحسب العامة أنها من

الحديثان العام فيظنون الكثير منها على الحاضر والمستقبل والذي سمعناه من شيوخنا أنها مخصوصة بدولتنا لأن الرجل كان قليل دولتهم وذكرونها ابتلاء على سبنة من يدمو إلى بني حمود وملكهم لعدوة الأندلس ومن الملاحم يد أهل المغرب أيضا قصيدة تسمى التبعة أولها
 طربت وماذا لك مني طرب * وقد يطرب الطائر لفتضب
 وما ذلك مني للهو أراه * ولكن لتذكر بعض السبب
 فربما من خمسمائة بيت أو ألف فيها يقال ذكر فيها كثيرا من دولة الموحدين وأشار فيها إلى الفاطمي وغيره وإظهار أنها مصنوعة ومن الملاحم بالمغرب أيضا ملحمة من الشعر الرجلي منصوبة لبعض اليهود ذكر فيها أحكام القرائات لعصره العلويين والنحسين وغيرها وذكروا ميقته قنيلافاس وكان كذلك فيما زعموه وأوثق

في صبيح ذا الأثر في انصرفه خبارا * فافهموا يا قوم هدى الأشارا
 نجم زحل أخير بني العسلا * وبدل الشكلا وهي سلا
 شاشية زرقا بدل العنما * وشاش أزرع بدل الغرارا
 يقول في آخره

قد تم ذا النجيس لسان يهودي * يعلب بilde فارس في يوم عيد
 حتى يحبه الناس من البوادي * وقته يا قوم على الفراد
 وأما هذه نحو الخمائة وعرف في القرائات التي دلت على دولة الموحدين ومن ملاحم المغرب أيضا قصيدة من عروض النجارب على روى الباء في حديثان دولة بني أبي حفص بتونس من الموحدين منسوبة لابن الأبار وقال لي قاضي قطنطينية الخطيب الكبير أبو علي بن باديس وكان يصير ابنا يقول له وله قدم في التجهيم فقال لي أن هذا ابن الأبار ليس هو الحافظ الأندلسي الكاتب مقتول المستنصر وإنما هو رجل خياط من أهل تونس تواسات شهر تميم شيرة الحافظ وكان والدي رحمه الله تعالى ينشد هذه الأبيات من هذه الملحمة وتبقى بعضها في حنظلي مطلقا

عذيري من زمن قلب * يفر يبارقه الأشقب
 ومنها ويبحث من جيشه قائدا * ويبقى هناك على مرقب
 فتأتي إلى الشيخ أخباره * فيقبل كالجلل الأخر
 ويظهر من عدله سيرة * وتلك سياسة مستجلب

ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم

فأما رأيت (١) الرسوم انمحت * ولم يرع حق لدى منصب

(١) قوله قلما رأيت أسله قل وأيت زبدت ما أدعيت وأن الترمطية المحذوف تونها خطأ وفي نسخة قلما رأيت والاولى هي الموجودة في النسخة الذهبية قلما تصرا

غلب في الترحل عن تونس * وودع مغلها واذهب
فصوف تكون بها فتنة * تضيف البرى إلى المذهب
ووقفت بالمغرب على ملحمة أخرى في دولة بن أبي حفص هؤلاء بتونس فيها بعد السلطان
أبي يحيى النسيب عشر ملوكهم ذكر محمد أخيه من بعده يقول فيها
وبعد أي عيد إله شقيقه * ويعرف بالوثاب في نسخة الأصل
إلا أن هذا الرجل لم يملكها بعد أخيه وكان يعني بذلك نفسه إلى أن هلك ومن الملاحم في المغرب أيضا
الملعبة المنسوبة إلى الموشني على لغة العلامة في عروض البلد التي أولها

دعني يدمع الحدان * فتدفع الأمطار ولم تغتر
واستقت كلبا الويدان * وأنى تملى وتغتر
البلاد كلبا زوى * فأوى ماميل ما تدرى
ما بين السيف والسنوى * والعام والربيع تجرى
قل حين صحت الدعوى * دعني نكي ومن عذر
أنادي من ذي الأزمان * ذا القرن اشتد ونمى

وهي طويلة ومغفظة بين عامة المغرب الأقصى والغالب عليها الوضع لا أنه يوضح منها قول إلا على تأويل
تحرقة العلامة أو الحارث فيمن ينتجها من الخاصة ووقفت بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن العربي
الحاتمي في كلام طويل شبه ألفاز لا يعلم تأويله إلا الشاذلخلد أوافق عديدة ورموز ملفوزة وأشكال
حيوانات تامة ورؤس مقطوعة وتماثيل من حيوانات غريبة وفي آخرها قصيدة على روى اللانم والغالب
أنها كلبا غير صحيحة لا نعلم نشأ عن أصل علمي من نجاعة ولا غيرها وسمعت أيضا أن هناك ملاحم أخرى
منسوبة لابن سينا وابن عتب وليس في شيء منها دليل على الصحة لأن ذلك إنما يؤخذ من القرائن ووقفت
بالمشرق أيضا على ملحمة من حدان دولة الترك منسوبة إلى رجل من الصوفية يسمى الباجري وكلها
ألفاز بالحروف أولها

إن شئت تكشف سرا الجعفر ياسائي * من علم جفر وصي والده الحسن
فافهم وكن واعيا حرجا وجملته * والوصف فافهم كفعل الخاذق الفطن
أما الذي قبل عصري لست أذكره * لكنني أذكر الآتي من الزمن
بشهرس بيمرس يبقى بعد خمسها * وحاء ميم بطيش نام في الككن
شبن له أثر من تحت سرته * له القضاء قضى أي ذلك الفن
فصبر له والشأم مع أرض العراق له * وأذريجان في ملك إلى اليمن
ومنها وآل بوران لما نال طاهرهم * الفاتك الباتك المعنى بالسمن
خلع ضعيف السبن سين أنى * لاوافق وتون ذي قرن (١)

قمر شجاع له عقل ومشورة * بقي بجاه وأين بعد ذو سنان
 ومنها من بعداء من الأعوام قتلته * إلى المشورة مع الملك ذو النسن
 وهذا الأعرج الكلي فأعن به * في عصره فتن ناهيك من فتن
 يأتي من الشرق في جيش يندمهم * غار عن النفاق قاف جد بالفتن
 بقتل دال ومثل الشأم أجمعها * أبدت بشجو على الأهلين والوطن
 إذا أني زلزلت يابوخ مصر من الزلزال مازال جاء غير منتظن
 طاء وضاء وعين كلهم حبسوا * هلكا وينفق أموالا بلا ثمن
 يسير القاف قافا عند جميعهم * هون به أن ذاك الحصن في سكن
 وينصبون أخاه وهو صالحهم * لاسم الألف سين لذلك نبي
 تمت ولايتهم بالحاء لا أحد * من السنين بداني الملك في الزمن
 ويقال أنه أشار إلى تلك الظاهر وفدوم أبيه عليه بمصر

يأتي إليه أبوه بعد هجرته * وطول غيبته والشظف وأورن
 وأبياتها كثيرة والغالب أنها موضوعة ومثل صنعها كان في التقديم كثيرا ومعروف الانتحال
 (حكى) المؤرخون لاخبار بغداد أنه كان بها أيام المقتدر وراق ذكر يعرف بالدينالي يلى الأوراق
 ويكتب فيها بخط عتيق رمز فيه بحروف من أسماء أهل الدولة ويشير بها إلى ما يعرف ميلهم اليه من
 أحوال الرفعة والجاه كأنها ملاحم وعخص على ما يريد منهم من الدنيا وأندوضع في بعض دفتاره مباحرة
 ثلاث مرات وجاءه إلى مفلح مولى المقتدر فقال له هذا كناية عنك وهو مفلح مولى المقتدر وذكر عنه
 ما برضاه وبناؤه من الدولة ونصب تلك علامات بموهبها عليه فبذل له ما أغناه به ثم وضعه لوزير ابن
 القاسم بن وهب على مفلح هذا وكان معز ولاجاءه بأوراق مثلها وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف
 وبعلامات ذكرها ثم أتى الوزير للثاني عشر من الخلفاء وتسلم الأمور على يديه وقهر الأعداء
 وتعمد الدنيا في أيامه وأوقف مفلح هذا على الأوراق وذكر فيها كوائن أخرى وملاحم من هذا
 النوع مما وقع ومما لم يقع ونسب جميعه إلى دانيال فأعجب به مفلح ووقف عليه المقتدر واحتدى من
 تلك الأمور والعلامات إلى ابن وهب وكان ذلك سببا لوزارته بمثل هذه الحيلة العريضة في الكذب
 والجيل بمثل هذه الألفاظ والظواهر أن هذه الملحمة التي نسبونها إلى الباجري من هذا النوع * ولقد
 سألت أكل الدين ابن شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية عن هذه الملحمة وعن هذا الرجل الذي نسب
 إليه من الصوفية وهو الباجري وكان عارفا بطرائقهم فقال كان من القلندرية المبتدعة في خلق النحية
 وكان يتحدث عما يكون بطريق الكشف ويؤى إلى رجال معينين عنده ويلغز عليهم بحروف
 يعينها في ضمنها لمن يراه منهم ورجا يظهر نظم ذلك في أبيات قليلة كان يتعاهدها فتوقلت عنه وولع
 الناس بها وجعلوا ملحمة رموزة وزاد فيها الخراسون من ذلك الجنس في كل عصر وشغل العامة

بذاك رموزها هو أمر محتجج إذ الرمز أعياها إلى كشفه فنون يعرف قبله ويوضع له وأما مثل هذه
الشروف فدلائلها على المراد منها خصوصية بهذا النظم لا يتجاوز ما فرأيت من كلام هذا الرجل الفاضل
شفاه لما كان في النفس من أمر هذه اللصحة وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله والله سبحانه وتعالى
أعلم وبه التوفيق

﴿ الفصل الرابع من الكتاب الأول ﴾

في البلدان والأمصار وسائر العمران وما تعرض في ذلك من الأحوال وفيه سوابق وتواحق

١ ﴿ فصل في أن الدول أقدم من المدن والأمصار وإنما انما توجدها في غنى تلك ﴾

وبيانه أن البناء واخطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعوا إليها الترف والدعة كما
قدمناه وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها وأيضاً فللمدن والأمصار ذاتها هيكل وأجرام عظيمة
وجناء كبير وهي موضوعة للعموم لا لخاصة فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون وليست
من الأمور الضرورية للناس التي تم بها البلوى حتى يكون نزوحهم إليها اضطراراً بل لا بد من إكراههم
على ذلك وسوقهم إليه منطهدين بعض الملوك أو مرغبين في الثواب والأجر الذي لا يفي بكثرة الملوك
والدولة فلا بد في تمهيد الأمصار واخطاط المدن من الدولة والملوك ثم إذا بنيت المدينة وكل
تشييدها بحسب نظر من شيدها وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها فعمير الدولة حينئذ عمر لها
فإن كان عمر الدولة قصيراً وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمراتها وخربت وإن كان أمد
الدولة طويلاً ومدنها منسجبة فلا تزال الصنائع فيها تنادى والمنازل الرعية تكثر وتتعدو لنطاق الأسواق
ينباعد وينضج إلى أن تنبع الحطبة وتبعد المسافة وتضع ذراع المساحة كما وقع ببغداد وأمثالها
ذكر الخطيب في تاريخه أن الحمامات بلغ عددها ببغداد لعبد المأمون خمسة وستين ألف حمام
وكانت مبنية على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين ولم تكن مدينة وحدها بجميعها
سور واحد لأفراط العمران وكذا حال الفيوان وقرطبة والمدينة في الملة الإسلامية وحال مصر
القاهرة بعدها فيما يبلغنا لهذا العهد وأما بعد انقراض الدولة المنشيئة للمدينة فلما أن يكون لضواحي
تلك المدينة ومقارها من الجبال والبساتين يادية بعدها العمران دائماً فيكون ذلك حافظاً لوجودها
ويستمر عمرها بعد الدولة كآرام بفس وبجاية من المغرب ويعراق العجم من المشرق الموجودها
العمران من الجبال لأن أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتها من الرقة والركب تدعوا إلى
الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر فيزلون المدن والأمصار وينأهلون وأما إذا لم يكن لتلك المدينة
المؤسسة مادية شيدها العمران يترادف الساكن من يدوها فيكون انقراض الدولة خرقاً لياجها
فيزول حفظها وينتقض عمرها شيئاً فشيئاً إلى أن يذعر ساكنها ونحرب كما وقع بمصر وبغداد والكوفة

بالمشرق والقيروان والمدينة وقلعة بني حماد بالمغرب وأماها فنفهمه وربما ينزل المدينته بعدا تراض
مخططيها الأولين ملك آخر ودولة ثانية يتخذها قرايرا وكريسا يستغني بها عن احتياط مدينة ينزلها
فتحفظ تلك الدولة سياجها وتزايد مبانها ومضافها بتزايد أحوال الدولة الثانية ونزولها وتجدد
بعمرها عمرا آخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٢ فصل في أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار

وذلك أن القبائل والعصائب إذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الأمصار لأن من أحد ما يدعو
إليه الملك من الدعوة الراحة وحط الأثقال واستكمال ما كان ناقصا من أمور العمران في البدو الثاني دفع
ما يوقع على الملك من أمر المنازعين والتشاكسين لأن المصير الذي يكون في توأجهما ربما يكون ملجأ لمن
يروم منازعتهما والخروج عليهم وانزعاج ذلك الملك الذي سمو إليه من أيديهم فيعصم بذلك المصير ويغالبهم
ومعالجة المصير على نهاية من الصعوبة والاشقة والمصير يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكابة
الحرب من وراء الجدران من غير حاجة إلى كثير عدد ولا عظيم شوكة لأن الشوكة والعصا إنما يحتاج
اليها في الحرب ثلاثا ما يقع من بعد كورة الذوم بعضهم على بعض عند الجولة وثبات هؤلاء بالجدران فلا
يضطرون إلى كبير عساية ولا عدد فيكون حال هذا الحصن ومن يعتصم به من المنازعين مما يقتضي
عشدة الأمانة التي تروم الاستيلاء وغضد شوكة استيلائها فإذا كانت بين أجنابهم أمصار انتظموها في
استيلائهم للأمن مثل هذا الأجرام وإن لم يكن هناك مصر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم أولا
وحط أثقالهم ويكون شجاعة في خلق من روم العزة والامتناع عليهم من ظلماتهم وعصائهم فنعين أن
الثلاث يدعو إلى نزول الأمصار والاستيلاء عليها والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لأرب سواه

٣ فصل في أن المدن العظيمة والهيكل المرتفعة إنما يشيدها الملك الكثير

قد قدمنا ذلك في آثار الدولة من المبانى وغيرها وأنها تكون على نسبتها وذلك أن تشييد المدن إنما
يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم فإذا كانت الدولة عظيمة منسبة الملك حشر الفعلة من أقطارها
وجمعت أيديهم على عملها وربما استعين في ذلك في أكثر الأمر بالهندام الذي يضاعف القوى والقدر في
حمل أثقال البناء لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك كالمحال وغيره وربما ينوم كثير من الناس إذا
نظر إلى آثار الأقدمين ومضافهم العظيمة مثل أيوان كسرى وأهرام مصر وحنايا الملقة وشرشال
بالمغرب إنما كانت بقدرهم مضرقين أو مجتمعين في تخيلهم أجساما تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في
طولها وقدرها والتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المبانى عنها ويعمل عن شأن الهندام والمنحان
وما اقتضت في ذلك الصناعة الهندسية وكثير من التغلبين في البلاد يملين في شأن البناء واستعمال الجبل في
نقل الأجرام عند أهل الدولة المقتنين بذلك من العجم ما يشهد له بما قلناه عيانا وأكثر آثار الأقدمين
لهذا العهد تسببها العامة عادة نسبة إلى قوم عاد ومضافهم إنما عظمت لعظم أجسامهم وتضاعف قدرهم

وليس كذلك فقد نجد آثارا كثيرة ضمن آثار الذين نعرف مقادير أجسادهم من الأسم وهو في مثل ذلك العظم أو أعظم كما هو أن كسرى ومباني العبيديين من الشيعة بأفريقية والصنهاجيين وأنهم باد إلى اليوم في صومعة قلعة بني حماد وكذلك بناء الأغالبة في جامع القيروان وبناء الموحدين في رباط الفتح ورباط السلطان أبي سعيد بعد أن بعين سنة في المنصورة بأرضه فسان وكذلك الحنايا التي جلب إليها أهل قرطاجنة المام في الفتنة الرابية عليها مائة أيضا لهذا العبد وغير ذلك من الباق والمياكل التي نقلت إليها أخبار أهلها قريبا وبعيدا وتيقنا أنهم يكونوا باغراط في مقادير أجسادهم وإنها عذار أي ولع به القصاص عن قوم عاد ونموذ والمعلقة ونجد بيوت عمود في الحجر منحوته إلى هذا العبد وقد ثبت في الحديث الصحيح أنها بيوتهم يرميها الركب الحجازي أكثر السنين ويشاهدونها لا يزيد في حوها وماحتها وحكمها على التعاهد وانهم ليلعون فيها بعضدون من ذلك حتى أنهم لم يعمون أن عروج بن عناق من جيل العملاقة كان يتناول السك من البحر طريا فيشوي في الشمس يعمون بذلك أن الشمس حارة فيها قرب منها ولا يعمون أن الحرف فيها لديها هو الغزو لأنعكس الشعاع غفالة سطح الأرض والهواء وأما الشمس في نفسها فغير حارة ولا باردة وإنها كوكب مضى لا مزاج له وقد تقدم شيء من هذا في الفصل الثاني حيث ذكرنا أن آثار الدولة على نسبة قوتها في أصلها والله يخلق ما شاء ويحكم ما يريد

٤ فصل في أن المياكل العظيمة جدا لا تبطل ببنائها الدولة الواحدة

والسبب في ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء إلى العاون ومضاعفة القدر البشري بقدر تكون المباني في عظمها أكثر من القدر مفردة أو مضاعفة بالندام كقلنا فيحتاج إلى معاودة قدر أخرى مثلها في أزمته متعاقبة إلى أن تم فينتهي الأول منهم بالبناء ويعقبه الثاني والثالث وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر القلعة وجمع الأيدي حتى يتم القصد من ذلك ويكمل ويكون ماثلا للعبان يظهرون من وراءه من الآخر بن أنه بناء دولة واحدة وانظر في ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سد مأرب وأن الذي بناه سد بن يشجب وساق السبعين وأديا وعاقه الموت عن إتمامه فأنهم ملوك حمير من بعده ومثل هذا ما نقل في بناء قرطاجنة وفتاتها الرابية على الحنايا العادية وأكثر المباني العظيمة في الغالب هذا شأنها ويشهد لذلك أن المباني العظيمة لم يبنها أحد الملك الواحد يسرع في اختطاطها وتأسيسها فإذا أتبع أثره من بعده من الملوك في إتمامها بقيت بحالها ولم يكمل القصد فيها ويشهد لذلك أيضا أن نجد آثارا كثيرة ضمن المباني العظيمة تعجز القول عن هدمها وتخريبها مع أن الهدم أسير من البناء بكثير لأن الهدم رجوع إلى الأصل الذي هو العدم والبناء على خلاف الأصل فإذا وجدنا بناء تضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم علمنا أن القدرة التي أسسته مفرطة القوة وأنها ليست أثر دولة واحدة وهذا مثل ما وقع للعرب في أنوان كسرى لما عزم الرشيد على هدمه وبعث إلى يحيى بن خالد وهو في عصبه يستشير في ذلك فقال يا أمير المؤمنين لا تفعل وأمره ماثلا يستدل به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لأهل ذلك الهيكل

فأتممه في النسيئة وقبل أخذته النعرة للعجم والله لأصرعه وشرعه في هدمه وجمع الأيدي عليه وانخذ له الفؤوس وحماء النار وجب عليه الخلع حتى إذا أدركه العجز بعد ذلك كله وخاف القضيحة بعث إلى يحيى يستشير به فأتى في التحلف عن الهدم فقال يا أمير المؤمنين لا تفعل واستمر على ذلك إلى أن قال عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم فعرفوا الرشد وأقصر عن هدمه وكذلك اتفق المؤمنون في هدم الأهرام التي بقصر وجمع القملة لهم بما هم على بطائل وشرعوا في نهبه فأتوا إلى جوبين الحائط الظاهر وما بعده من الخيطان وهناك كان متعبي هدمهم وهو إلى اليوم فيها يقال منعت ظاهروهم وزعم الزعمون أنه وجد ركايز بين تلك الخيطان والله أعلم وكذلك حثنا المعلقة إلى هذا العهد تحتاج أهل مدينة تونس إلى انتخاب الحجارة لبنائهم وتستعيد الصناع حجارة تلك الحثايا فيحاولون على هدمها الأيام العديدة ولا يسقط تصغير من جدرانها إلا بعد نصب الريق وتجتمع له الحفائل المشهورة شهدت منها في أيام صباي كثيرا والله خلقكم وما تعبدون

٥ فصل في يجب مراعاته في أوصاف المدن وما يحدث إذا أغفل عن تلك الملاحظات

(إعلم) أن المدن قرار تحده الأمم عند حصول الغلبة المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثر السعة والسكون وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار ولما كان ذلك للقرار والتأوى وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب النافع وتسهيل المرافق لها فأما الحماية من المضار فبإعني لها أن يدار على ماز لها جميعا سباح الأسوار وأن يكون موضع ذلك في منمنع من الأمكنة اعلى هضبة متوعة فمن الجبل واما استدارة نهر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب مناهلها على العدو ويتعاضد منها عبا وحصنها وما يراعى في ذلك للحماية من الآفات الجوية وطيب الهواء السلامة من الأمراض فإن الهواء إذا كان ركا خبيثا أو مجلورا للمياه الفاسدة أو مابقع متعنة أو مروج خبيثا أسرع إليها العفن من مجاورتها فأسرع الأرض للحيوان السكان فيه لانهالة وهذا ما شاهدو المدن متى لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب وقد اشتهر بذلك في قطر الغرب بلد قابس من بلاد الجزائر بدياً فبقية فلا يكاد ما كنها أو طارقها يخلص من حمى العفن بوجه ولقد يقال أن ذلك حدث فيها ولم تكن كذلك من قبل وقتل البكري في سبب حدوثه أنه وقع فيها حفر ظهر فيه إناء من نحاس غثوم بالرياح فلما قضى ختامه صدمته دخل إلى الجو وانقطع وكان ذلك مبدأ أمراض الحمايات فيموأراد بذلك أن الإناء كان مشعلا على بعض أعمال القسطسات أو بانيه وأنه ذهب سره بذهابها فجمع إليها العفن والوباء وهذه الحسكية من مذاهب العامة وما ختمهم الركيكة والبكري لم يكن من نباهة العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يبين خرفه فنفله كما سمعه والذي يكشف لك الحق في ذلك أن هذه الأهوية العفنة أكثر ما يربها التعفن الأجسام وأمراض الحمايات ركودها فإذا تخلصها الريح وتفتت وذهبت بهما عينا وشمالا لا تخف شأن العفن والأرض البادية منها للحيوانات والبلد إذا كان كثير الساكن وكثرت

حركات أهله فيسوج الهواء ضرورية وتحدث الرياح التخلط للهواء الرأكد ويكون معينا له على الحركة والتموج وإذا خفف الساكن لم يجد الهواء معينا على حركته وتوجهه وبقي ساكنا رأكدا وعظم غننه وكثر ضرره وبذلك يفسد هذه كانت عندما كانت أفر يقينه مستحقة العمران كثيرة الساكن تخرج بأهلها ومجا فكان ذلك معينا على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الأذى منه فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض وعند ما خفف ساكنها رأكدهاؤها المتعفن بفسادها بها فكثر العفن والمرض فيها أوجبه لا غير وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وضعف ولم ير أع فيها خيب الهواء وكانت أوال قليلة الساكن فكانت أراضيها كثيرة فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك وهذا مثل دار الملك بناس لهذا العهد المسمى بالبلد الحديديو كثير من ذلك في العالم ففسده تجد ما قلته ذلك وأما جلب المنافع والمرافق للبلد في أعى فيه أمور منها الماء بان يكون البلد على نهر أو يار أنهار يكون عذبة ثمرة فإن وجود الماء قريبا من البلد يسبب على الساكن حاجة الماء هي ضرورية فيكون لهم في وجوده رفقة عظيمة عامة ومما ير أعى من المرافق في المدن طلب المراعى إسائهم إذ صاحب كل قرار لا بد من دواجن الخيول للتناجر والضرع والركوب ولا بد لها من المراعى فإذا كان قريبا طيا كان ذلك أرفق غلهم لما يعانون من المشقة في بعده ومما ير أعى أيضا المزارع فإن الزروع هي الأقوات فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذها أقرب في تحصيلها ومن ذلك الشجر للحطب والبناء فإن الحطب مما تم البلوى في اتخاذها لو غود النيران للاسطلاء والخلع والحشب أيضا ضروري لاستفهم وكثير مما يستعمل فيه الحشب من ضرورياتهم وقد ير أعى أيضا قربها من البحر لتسهيل الحاجات الفاضية من البلاد النائية لأن ذلك ليس بمثابة الأول وهذه كلها متفاضلة بتفاوت الحاجات وماتدعو إليه ضرور قال الساكن وقد يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعي أو تأثير أعى ما هو أهم على نفسه وقومه ولا يذكر حاجته غيرهم كالفعل العرب لأن الاسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وأقرية فاتهم لم ير أعوا فيها إلا أنهم عندهم من مراعى الأبل وما يصلح لها من الشجر والماء المالح ولم ير أعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعى الساعة من ذوات الظلف ولا غير ذلك كالتفريوان من الكوفة والبصرة وأمثالها ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لما لم ير أعوا فيها الأمور الطبيعية

(فصل) ومما ير أعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين أمة من الأمم موفرة العدد تكون صرخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر ولم يكن يساحتها عمران للقبائل أهل العصابات ولا موضعها متوعر من الجبل كانت في غرة للبيات وسهل طرقها في الأساطيل البحرية على عدوها ونحوها لما يأمن من وجود الصرخ بها وإن الحضر المتعدين للعدة قد صاروا عيالا وخرحوا عن حكم الثغاة وهذه كالأسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبوننة وسلاو متى كانت القبائل والعصابات متوطنين بقربها بحيث يبلغهم الصرخ والتفري وكانت متوعرة السالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبلان وعلى أسنمتها كان لها بذلك منعة من العدو ويشو امن طرقها لما يكادونه من وعرها وما يتوقعونه من إجابة صرخها كافي ستة

وحجابه وبلد القل على صغرها فافهم ذلك واعتبره في الاختصاص الاسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية مع أن الدعوة من ورائها بركة وافريقية وأما اعتبار في ذلك الخفاة للنو قعة فيها من البحر لسهولة وضعها ولذلك والله أعلم كان طريق العدو للاسكندرية وطرابلس في الليلة مرات متعددة والله تعالى أعلم

٦ ﴿ فصل في المساجد والبيوت العظيمة في العالم ﴾

﴿ اعلم ﴾ ان الله سبحانه وتعالى فضل من الأرض بقائه اختصها بتكريفه وجعلها مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب وتنمو بها الاجور واخيرنا بذلك على السن رسله وأنبياؤه لطفاً بعباده وتيسيراً لغيره في السعادة لهم * وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع الأرض حسباً في الصحيحين وهي مكة والمدينة وبیت المقدس أما البيت الحرام الذي بمكة فهو بيت ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه أمره الله ببنائه وأن يؤذن في الناس بالحج اليه فيناه هو وابنه اسمعيل كانهما القرآن وقام بها أمره الله فيه وسكن اسمعيل به مع هاجرو من نزل معهم من حرم الى أن قبضهما الله ودفنا بالحجر منه * وبیت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام أمرهما الله ببنائه معجده وتصبها كاه ودفن كثير من الانبياء من ولد اسحاق عليه السلام حوا اليه * والمدينة مهاجر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه أمره الله تعالى بالحج إليها واقامة دين الاسلام بها فبنى مسجد الحرام بها وكان ملحده الشريف في تربتها فهذه المساجد الثلاثة فرة عين المسلمين ومهوى أفئدتهم وعظمة دينهم وفي الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب في عبادتها والصلاة فيها كثير معروف فلنذكر الى شيء من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرجت أحوالها الى أن كل ظهور عا في العالم * (فأما مكة) فأوليتها هيما يقال ان آدم صلوات الله عليه بناها فبناها البيت المعمور ثم هدمها الطوفان بعد ذلك وليس فيه خبر صحيح يعول عليه وإنما يتيسر من عمل الآية في قوله لو اذ رفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ثم بعث الله ابراهيم وكان من شأنه وشأن زوجته سارة وغيرتها من هاجر ما هو معروف وأوحى الله اليه أن يترك ابنه اسمعيل وأمه هاجر بالثلاث فوضعهما في مكان البيت وسار عنهما وكيف جعل الله لهما من المظف في سبع ماء زمزم ومرور الرفقة من حرميهما حتى احتملوهما وسكنوا اليها وترلوا معها حوا الى زمزم كما عرف في موضعه فخذ اسمعيل بموضع الكعبة يتأوى اليه وأدار عليه سياجاً من الردم وجعله زراً بالغنم وجاء ابراهيم صلوات الله عليه مراراً لزيارته من الشام أمر في آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الذي رب فيناه واستعان فيه بابنه اسمعيل ودعا الناس إلى حجه ونفى اسمعيل ساكنه ولما قبضت أمه هاجر وفهم نوه من بعده بأمر البيت مع أحوالهم من حرم ثم العائيق من بعده واستمر الحال على ذلك والناس يهرعون اليها من كل أفق من جميع أهل الخليقة لامن بني اسمعيل ولامن غيرهم ممن دنا أو تأى فقد قيل أن التابعة كانت تخرج البيت وتظلمه وأن تبعاً كساها الملاء والوصائل وأمر بتطيرها وجعل لها مفتاحاً وقيل أيضاً أن الفرس كانت تخرج وتقرّب اليه وأن غزا الى الذهب المدين وجدها عبد المطلب حين احتضر زمزم كانا من

قراينهم ولم يزل لهم انولاد عليهم من بعد ولده اسمعيل من قبل خولتهم حتى اذا خرجت خزاعة واتهموا
بها بعد ما شاء الله ثم كثروا واسمعوهم وانتشروا وتبعوا الى كنانة ثم كنانة الى قريش وغيره وساءت
ولايتهم خزاعة فغلبتهم قريش على أمره وأخرجوه من البيت وملكوا عليهم يومئذ قصى بن كلاب فبنى
البيت وسقفه بحشب السوم وجريد النخل وقال الأعشى

حلفت بشوي راحب العبر والى * بناها قصى والمضاض بن جرم

ثم أصحاب البيت سيل وبقا حريق ونهدم وأعادوا بناءه وجمعوا الثقة لذلك من أموالهم وانكسرت
سفينة بساحل جدة فاشترى خشبها بالسقف وكانت جدرانها فوق القامة فجعلوها ثمانية عشر
ذراعا وكان الباب لاحضا بالأرض فجعلوه فوق القامة لئلا تدخله السيول وقسمت بهم الثقة
عن إقامته فقصر واعن قواعده وتركوا منه ستأذرع وشبرا الدار وعا بمقدار قصير يطاف من وراءه
وهو الحجر وبقي البيت على هذا البناء إلى أن تحسن ابن الزبير تكلم في دعائه لنفسه وزحف إلى عيسى
بزيدين معاوية مع الحسين بن عمار السكوني وورى البيت ستأذرع وستين فأصابه حريق يقال من النبط
الذي رآموه في ابن الزبير فأعاد بناءه أحسن ما كان بعد أن اختلف عليه الصحابة في بناءه واحتج عليهم
بقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها لو لاقوا ملكا حديثوا عهد بكفر لردت البيت على
قواعده إبراهيم وجعلت له بابين شرقيا وغربيا فهدمه وكشف عن أساس إبراهيم عليه السلام وجمع
الوجود هو الآخر حتى غابوا وأشار عليه ابن عباس بالنجوى في حفظ القبلة على الناس فأدار على الأساس
الخشب ونصب من فوقها الأساس فحفظوا القبلة وبعث إلى صنعاء في الفضة والسككس فحملها وسأل عن
مقطع الحجارة الأولى فجمع منها ما احتاج إليه ثم شرع في البناء على أساس إبراهيم عليه السلام ورفع
جدرانها سبعة وعشرين ذراعا وجعل لها بابين لاصقين بالأرض كآروي في حديثه وجعل فرشها
وأزرها بالرخم وصاغ لها المنافع وصفائح الأنوار من الذهب * ثم جدد الحاجاج فصاره أيام عبد الملك
وروى على السجد بالبحرانيات إلى أن قصدت حيطانها ثم ما انفك ابن الزبير شاوور عبد الملك فيما يراه زاده
في البيت فأمره بهدمه ورد البيت على قواعده قريش كما هي اليوم ويقال أنه ندم على ذلك حين علم صحة
رواية ابن الزبير لحديث عائشة وقال وددت إني كنت حملت أبا حبيب في أمر البيت وبنائه ما تحمل فهدم
الحجاج ستأذرع وشبرا مكان الحجر وبناه على أساس قريش وسد الباب الغربي وما تحت عتبة
بابها اليوم من الباب الشرقي وترك ساورها غير منه شيئا فشكل البناء الذي فيه اليوم بناء ابن الزبير وبناء
الحجاج في الخائط صلة ظاهرة للعيان ثمة ظاهرة بين البناءين والبناء متميز عن البناء بمقدار
أصبع شبه الصدع وقد لحقهم * ويعرض ههنا أشكال قوى لمنافاته لما يقوله الفقهاء في أمر الطوافي
ويحذر الطائف أن يميل على الشاذر وإن الدائر على أساس الجدر من أسفلها فيقع طوافه داخله
البيت بناء على أن الجدر إنما قامت على بعض الأساس وترك بعضه وهو مكان الشاذر وإن وكذا
قالوا في تقبيل الحجر الأسود لا بد من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوي قائما لئلا يقع

بعض طوافه داخل البيت واذا كانت الجدران كلها من بناء ابن الزبير وهو إنما بنى على أساس ابراهيم فكيف يقع هذا الذي قوته ولا يخلص من هذا الا بأحد أمرين إما أن يكون الحاجاج هدم جميعه وأعادوه وقد مثل ذلك جماعة إلا أن العيان في شواهد البناء بالتحام ما بين البنائين وتميز أحد الشقين من أعلاه عن الآخر في الصناعة برذلك وإما أن يكون ابن الزبير لم يرد البيت على أساس ابراهيم من جميع جهاته وإنما فعل ذلك في الحجر فقط ليدخله فهي الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد ابراهيم وهذا بعيد ولا عيسى من هذين والله تعالى أعلم ثم أن مساحة البيت وهو المسجد كان فضاء لاطافين ولم يكن عليه جدران التي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر من بعده ثم كثر الناس فاسترى عمر رضي الله عنه دورا هدمها وزادها في المسجد وأدار عليها جدارا دون القاعة وفعل مثل ذلك عثمان ثم ابن الزبير ثم الوليد بن عبد الملك وبناه بعد ذلك خام ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدي من بعدهم وقت الزيادة واستقرت على ذلك أعيننا * ونعريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر من أن نحاظ به وكفى من ذلك أن جعله مهيأ للوحى والتلاوة ومكانا للعبادة وفرض شعائر الحج ومنها سجد أو جوب الحرم من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق ما يوجب له غيره فجمع كل من خالف دين الاسلام من دخول ذلك الحرم وأوجب على داخله أن يتجرد من الخيط الأزارا يستردو حصى العائد وهو الرائع في مسارحه من مواقع الآفات فلا يراد فيه خائف ولا يصاد له وحش ولا يغتصب له شجرة وحدا الحرم الذي يختص بهذه الحرمه من طريق المدينة ثلاثة أميال إلى النعيم ومن طريق العراق سبعة أميال إلى الثانية من جبل المنقطع ومن طريق الطائف سبعة أميال إلى بطن نجرة ومن طريق جدة سبعة أميال إلى منقطع العشار * هذا شأن مكة وخبرها ونسبها أم القرى وتسمى الكعبة لعلاها من اسم الكعب ويقال لها أيضا بكة قال الأصمعي لأن الناس يابك بعضهم بعضا إليها أي يدفع وقال مجاهد بامكة أبدلوها منها كما قالوا لا زب ولازم لترب الخرجين وقال النخعي بالباء البيت وبالميم الله وقال الزهري بالباء للمسجد كله وبالميم للحرم وقد كانت الأمم منذ عهد الجاهلية تعظمه والمولود تبث اليها أموالا والتخثر كسرى وغيره وقصة الأساف وغزالي الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين احتضر زم زم معروفة وقد وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة في الجب الذي كان فيها سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان القلوك يهدون للبيت فيها ألف ألف دينار مكررة مرتين بمائتي قنطار وزنا وقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك فلم بفعل ثم ذكر لابي بكر فلم يحركه هكذا قال الأزرقي وفي البخاري يستند إلى أبي وائل قال جلست إلى شيبة بن عثمان وقال جلست إلى عمر بن الخطاب فقال هممت أن لأدع فيها احفراء ولا يضاء الا قسمنا بين المسلمين قلت ما أنت بفعل قال ولم قلت فلم يفعله صاحبك فقال هما اللذان يقتدى بهما وخرجه أبو داود وابن ماجه وأقام ذلك المال إلى أن كانت فتنة الأفضس وهو الحسن بن الحسين بن علي بن علي بن العابد بن ستيع وقبعين ومائة حين غلب على مكة عمه إلى الكعبة فأخذ ما في خزائنها وقل ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعا فيها

لا يبتلع به نحن أحق به نستعين به على حربنا وأخرجه وتصرف فيه وبطلت الذخيرة من الكعبة من يومئذ **﴿ وأما بيت المقدس ﴾** وهو المسجد الأقصى فكان أول أمره أيام السابئة موضع الزهرة وكانوا يقربون إليه الزيت فيما يقربونه يصونونه على الصخرة التي هناك ثم دثر ذلك الهيكل وأخذها بنو إسرائيل حين ملكوها قبله لصلاتهم وذلك أن موسى صلوات الله عليه لما خرج ببني إسرائيل من مصر لتمليكهم بيت المقدس كما وعد الله أباهم إسرائيل وأباه اسحق من قبله وأقاموا بأرض النبية أمره الله بأخذ ذقنة من خشب السنت عرين بالوحى مقدارها وصفتها وهاكلها وتماثيلها وأن يكون فيها التابوت ومائدة يصحافها ومنازة يشاديلها وأن يستع مذبحا للقربان وصف ذلك كله في التوراة أكل وصف فصنع القبة ووضع فيها تابوت العهد وهو التابوت الذى فيه الألواح المصنوعة عوضا عن الألواح المنقوشة بالكلمات العشر لما تكسرت ووضع المذبح عندها وعهد الله إلى موسى بأن يكون هرون صاحب القربان وتصبو تلك القبة بين خيامهم في البية يصلون إليها ويقرَّبون في المذبح أمامها ويقرَّبون للوحى عندها ويملكوا الشام وبقيت تلك القبة قبلتهم ووضعوها على الصخرة ببيت المقدس وأراد داود عليه السلام بناء مسجده على الصخرة مكانها فلم يتم له ذلك وعهد به إلى ابنه سليمان فبناه لأربع سنين من ملكه وخمسة سنة من وفاة موسى عليه السلام وأخذ عمده من الصخر وجعل به صرح الزجاج وغشى أبوابه وحيطانه بالذهب وصاغ هياكله وتماثيله وأوعيته ومنازته ومفتاحه من الذهب وجعل في ظهره قبرا ليضع فيه تابوت العهد وهو التابوت الذى فيه الألواح وجاء به من صهيون يده أبيه داود تحمله الأسباز والكهولة حتى وضعه في القبر ووضعته القبة والأوعية والمذبح كل واحد حيث أعد الله من المسجد وأقام كذلك ما شاء الله ثم خربه بختصر بعد ثمانمائة سنة من بنائه وأحرق التوراة والعصا وصاغ الهياكل وثراها حجار ثم بناها أعادهم ملوك الفرس بناء عزير بنى بني إسرائيل لعهدده بأعانة يهم من ملك الفرس الذى كانت الولادة لبني إسرائيل عليه من سبي بختنصر وحدثهم في بنائه جدو دادون بناء سليمان ابن داود عليهما السلام فلم يجاوزوها ثم تداولتهم ملوك يونان والفرس والروم واستفحل الملك لبني إسرائيل في هذه المدة ثم لبني خيمان من كبتهم ثم لصبرهم هيردوس ولبنيه من بعده وبني هيردوس بيت المقدس على بناء سليمان عليه السلام وتأنق فيه حتى أكمله في ست سنين فلما جاء بطيطس من ملوك الروم وغلبهم وملك أمرهم ضرب بيت المقدس ومجدها وأمر أن يزرع مكانه ثم أخذ الروم بدين المسيح عليه السلام ودانوا بتعظيمه ثم اختلف ملوك الروم في الأخذ بدين النصارى تارة وتركه أخرى إلى أن جاء قسطنطين وتنصرت أمة هيلانة وأرتحلت إلى القدس في طلب الخشبة التي صلب عليها المسيح بزعمهم فأخبرها القساوسة بأنهم لم يجدوها على الأرض وألقى عليها القمامات والقاذورات فلست خرجت الخشبة وبنت مكان تلك القمامات كنيسة القيامة كما أنها على قبره بزعمهم وخربت ما وجدت من عمارة البيت وأمرت بطرح الزبل والقمامات على الصخرة حتى غطاها وخفي مكانها جزاء بزعمهم لما فعلوه بقبر المسيح ثم بنوا إزاء القيامة بيت لحم وهو البيت الذى ولد فيه عيسى عليه السلام وبقي الأمر كذلك

إلى أن جاء الإسلام وحضر عمر الفتح بيت المقدس وسأل عن الصخرة فأري مكانها وقد علاها الزبل والتراب فكشف عنها وبني عليها مسجداً على طريق البدوة وعظم من شأنه ما أذن الله من تعظيمه وما سبق من أم الكتاب في فضله حيث ثبت ثم احتفل الوليد بن عبد الملك في تشييده معجده على منى مساجد الإسلام تشاء الله من الاحتفال كما فعل في المسجد الحرام وفي مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وفي مسجد دمشق وكانت العرب تسميه بلاط الوليد أو الزم ملك الروم أن يبعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد وأن يعمرها بالنسب فأطاع ذلك وتم بناءها على ما اقترحه ثم لما مضى أمر الخلافة أعوام الخمسة من الهجرة في آخرها وكانت في ملكة العبيديين خلفاء القاهرة من الشيعة واختلف أمرهم وحذف الفرقة إلى بيت المقدس فملكوه وملكوا معه عامة تغور الشام ونحوها على الصخرة المقدسة منه كنيسة كانوا يعظمونها ويفخرون ببنائها حتى إذا استقل صلاح الدين بن أيوب الكردي تلك مصر والشام وعائز العبيديين وبدعهم زحف إلى الشام وجاهد من كان به من الفرقة حتى غلبهم على بيت المقدس وعلى ما كانوا يملكوه من تغور الشام وذلك نحو ثمانين وخمس مائة من الهجرة وهدم تلك الكنيسة وأخبر الصخرة وبني المسجد على النحو الذي هو عليه اليوم لهذا العهد ولا يعرف لك إلا شكل المعروف في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أول بيت وضع فقال مكة قبل ثم أي قبل بيت المقدس قيل فكم بينهما قال أربعون سنة فإن المدعيين بناء مكة وبين بناء بيت المقدس بمقدار ما بين إبراهيم وسليمان لأن سليمان بنى به وهو بنى على الألف بكثير * واعلم أن المراد بالوضع في الحديث ليس البناء وإنما المراد أول بيت عيّن للعبادة ولا يعد أن يكون بيت المقدس عيّن للعبادة قبل بناء سليمان على هذه المدة وقد نقل أن الصابئة بنوا على الصخرة هيكل الزهرة فلعل ذلك أنها كانت مكاناً للعبادة كما كانت الجاهلية تضع الأصنام والتماثيل حوائى الكعبة وفي جوفها والصابئة الذين بنوا هيكل الزهرة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام فلا تبع مدة الأربعين سنة بين وضع مكة للعبادة ووضع بيت المقدس وإن لم يكن هناك بناء كما هو المعروف وأن أول من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام فتطمع فيه من هذا الشكل * وأما المدينة * وهي المسماة ببيت فخي من بناء يثرب بن مباليل من العاتكة وملكها بنو إسرائيل من أيديهم فيما يملكوه من أرض الحجاز ثم جاورهم بنو قيلة من عشان وغلبهم عليها وعلى حصونها ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة إليها لما سبق من غناية الله بها فجر إليها معه أبو بكر وتبعه أصحابه ونزل بها وبني مسجده ويؤنه في الموضع الذي كان الله قد أعده لذلك وشرقه في سابق أزله وآواه أبناء قيلة ونصروه فلذلك سموا الأنصار وعت كلمة الإسلام من المدينة حتى علت على السكيات وغلب على قومهم وفتح مكة وملكها وظن الأنصار أنه يتحول عنهم إلى يده فأهمهم ذلك فطأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرهم أنه غير متحول حتى إذا قبض صلى الله عليه وسلم كان ملجده الشريف بها وجاء في فضلها من الأحاديث الصحيحة ما لا يخفى به ووقع الخلاف بين العلماء في تفضيلها على مكة وبه قال مالك رحمه الله لما ثبت عنده في ذلك من النص الصريح عن رافع بن خديج أن النبي صلى الله عليه وسلم

قال المدينة خير من مكة قبل ذلك عبد الوهاب في المعونة إلى أحاديث أخرى تدل بظاهرها على ذلك وخالف أبو حنيفة والشافعي وأصبحت على كل حال ثمانية المسجدين الحرام وجنح إليها الأئمة بأئمتهم من كل أبواب فانظر كيف تدرجت الفضيلة في هذه المساجد العظيمة تاسيق من عناية الله لها وتضمير سر الله في الكون وتدرجه على ترتيب محكم في أمور الدين وأهله **✽** وأما غير هذه المساجد الثلاثة فلا نعلمه في الأرض إلا ما يقال من شأن مسجد آدم عليه السلام بسمرند ب من جزائر الهند لكنه لم يثبت فيه شيء يعول عليه وقد كانت للأئمة في القديم مساجد يحضرونها على جبة الديانة برغمهم منها بيوت النار للفرس وهياكل يونان وبيوت العرب بالحجاز التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهدمها في غزواته وقد ذكر السعدي منها بيوت السنام ذكرها في شيء إذ هي غير مشروعة ولا هي على طريق ديني ولا يلتفت إليها ولا إلى الخبر عنها ويكنى في ذلك ما وقع في التواريخ فمن أراد معرفة الأخبار فعليه بها والله يهدي من يشاء سبحانه

٧ فصل في أن المدن والأمصار بأفريقية والمغرب قليلة **✽**

والسبب في ذلك أن هذه الأقطار كانت البربر منذ آلاف من السنين قبل الإسلام وكان عمرانها كله بدويا ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستمكن أحوالها والموال التي ملكهم من الأفريقية والعرب لم يدخل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها فلم تزل عوائد البداوة وشؤونها فكانوا إليها أقرب فلم تكثر مبانهم وأيضاً الصنائع بعيدة عن البربر لأنهم أعرق في البدو والصنائع من نواحي الحضارة وإغاثة المأبى بها فلا بد من الخلق في تعلمها فلما لم يكن البربر ارتحالاً لم يكن لهم تشوف إلى المأبى فضلاً عن لندن وإضافتهم أهل عصبية وأنساب لا يخلو عن ذلك جمع منهم والأنساب والعصبية أجمع إلى البدو وإنما يدعو إلى المدن السعة والسكون ويصير ما كنهم عيالاً على حاميتهم فتجد أهل البدو لذلك يستكفون سكنى المدينة أو الأقامة بها ولا يدعو إلى ذلك الترف والغنى وقليل ما هو في الناس فذلك كان عمران أفريقيا والمغرب كله أو أكثره بدوياً بأهل خيام وظواعن وقباطين وكثرت في الجبال وكان عمران بلاد العمم كله أو أكثره قرياً وأمصاراً ورساتيق من بلاد الأندلس والشام ومصر وعراق العجم وأمثالها لأن العجم في الغالب ليسوا بأهل أنساب يحافظون عليها ويتنافسون في صراحها والتحامها إلا في الأقل وأكثر ما يكون سكنى البدو لأهل الأنساب لأن لغة النسب أقرب وأشد فتكون عصبية كذلك وتزعم بصاحبها إلى سكنى البدو والتجافي عن المصر الذي يذهب بالبساطة ويصير عيالاً على غيره فافهمه وقس عليه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٨ فصل في أن المأبى والصنائع في الأمة الإسلامية قليلا بالنسبة إلى قدرتها **✽**

والى من كان قبلها من الدول **✽**

والسبب في ذلك أن ما ذكرنا مثله في البربر بعينه إذا العرب أيضاً أعرق في البدو وأبعد عن الصنائع وأيضاً فكانوا أجانب من الممالك التي استولوا عليها قبل الإسلام ولما تملكوها لم ينفسح الأمد

حتى تسوفي رسوم الحضارة مع أنهم استغنوا بما وجدوا من مباني غيرهم وأيضا فكان الذين أول الأمر ما عمن المغالاة في البنيان والأسراف فيه في غير القصد كما عهد لهم عمر حين استأذنه في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في العصب الذي كانوا بنوا به من قبل فقالوا فعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبنان ولا تطاولوا في البنيان والرموا السنة تترمك الدولة وعهد إلى الوفد وتقدم إلى الناس أن لا رفعوا أبنانا فوق القدر قلوا وما القدر قل ما لا يفرجكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد فلباهم العهد بالدين والتعرج في أمثال هذه المقاصد وغلبت طبيعة المالك والترف واستخدم العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمباني ودعتهم إليها أحوال الدعة والترف فحينئذ شيدوا المباني والمصانع وكان عهد ذلك قريبا بانقراض الدولة ولم ينفسح الأمد لكثرة البناء واختطاط المدن والأقمار الاقلية وليس كذلك غيرهم من الأمم فالفرس طالت مدتهم آلاف من السنين وكذلك الفبط والبط والروم وكذلك العرب الأولى من عاد ونحوهم والمعلقة والنباهة طالت أعمارهم ورسخت الصنائع فيهم فكانت مبانيهم وهياكلهم أكثر عددا وأبقى على الأيلام أثرا واستبصر في هذا نجد كما قلت لك والله وارث الأرض ومن عليها

٩ فصل في أن الباني التي كانت تخطها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل

والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها وله والله أعلم وجه آخر وهو أن مسيرهم وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي فانه بالتفاوت في هذه تفاوت جودة المصير وردائه من حيث العمران الطبيعي والعرب بعزل عن هذا وإغماير اعون مراعى ابلهم خاصة لا ياتون بالماء طاب أوجبت ولاقل أو أكثر ولا يسألون عن ركاز المزارع والمنايا والأهوية لا تنظلم في الأرض وشليم الجيوب من البدائعي وأما الرياح فالتفر مختلف للمباب كلها والظعن كليل لهم بطبيعتها لأن الرياح إغمايرت مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات وانظروا اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها الأمر اعى ابلهم وما يقرب من القفر ومساكن الظعن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للبدن ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم كما قدمنا أنه يحتاج اليه في حفظ العمران فقد كانت مواضعها غير طبيعية للقرار ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس فلا أول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سياجها لها في عليها الخراب والانحلال كأنهم لم تكن والله يحكم لا معقب لحكمه

١٠ فصل في مبادئ الخراب في الأمصار

(اعلم) أن الأمصار إذا اختطت أو لا تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر والخير وغيرهما يعلو على الحيطان عند التناق كالأريج والرخام والريج والرجاج والفيغيا والصدف فيكون بناؤها يومئذ يدويا وآلاتها فاسدة فإذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات

بكثرة الأعمال حينئذ وكثرة الصناعات إلى أن تبلغ غايتها من ذلك كما سبق شأنها فإذا تراجع عمر أهلها وحذف ساكنها قلت الصنائع لأجل ذلك فقعدت الأجداد في البناء والأحكام والمعالجة عليه بالتنسيق ثم نقلت الأعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما فتفقدوا بصيرتها ثم تشييدهم من الآلات التي في مبانهم فيقلون بها من مصنع إلى مصنع لأجل خلافة أكثر الشائع والقصور وانزاله بقللة العمران وقصوره مما كان أولاً ثم لا يزال ينقل من قصر إلى قصر ومن دار إلى دار إلى أن يفقد الكثير منها جملة فيعودون إلى البداوة في البناء واتخاذ الطوب عوضاً عن الحجارة والقصور عن التنسيق بالسكنية فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمدائن ويظهر عليها البداوة ثم يمر في التناقص إلى غايتها من الخراب إن قدر لها به سنة الله في خلقه

١١ فصل في أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرفة لأهلها ونطاق الأسواق
إتاهو في تفاضل عمراتها في الكثرة والقلّة

والسبب في ذلك أنه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه وأنهم متعاونون جميعاً في عمراتهم على ذلك والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تشتد ضرورة الأمر أكثر من عدم أضعافاً بالقوت من الخطة مثلاً لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه وإذا انتدب انحصاره السقاة والعشرة من حداد ونجار للآلات وقائم على البقر وأتارة الأرض وحصاد السبل وسائر مؤن الفلح وتوزعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت فإنه حينئذ قوت لأضعافهم مرات فلا أعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضرورتهم فأهل مدينة أو مصر إذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضرورتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالأقل من تلك الأعمال وبقيت الأعمال كلها زائدة على الضرورات فنصرف في حالات الطرف وعوائده وما يحتاج إليه غيرهم من أهل الأمصار ويستعملونه منهم بأعواضه وقيمة فيكون لهم بذلك حفظ من الغنى وقد تبين لك في الفصل الخامس في باب الكسب والرزق أن المسكسب إنما هي قيم الأعمال فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكسبهم ضرورة ودعيتهم أحوال الرفة والغنى إلى الترف وحاجاتهم من التأنق في المساكن والملابس واستعادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والراكب وهذه كلها أعمال تستدعى بقيمتها وغنار المبرة في صناعتها أو القيام عنها فتتفق أسواق الأعمال والصنائع ويكثر دخل المصر ويخرجه ويحصل اليسار لتتعلل ذلك من قبل أعمالهم ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية ثم زاد الترف ثانياً بالسبب وزادت عوائده وحاجاته واستتبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة لتلك ثانية ونفقت سوق الأعمال بها أكثر من الأولى وكذا في الزيادة الثانية والثالثة لأن الأعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى بخلاف الأعمال الأصلية التي تختص بالمعاش فالمصر إذا فضل ب عمران واحد فضله بزيادة كسب ورفه بعوائد من الترف لا توجد في الآخر فما كان عمراته من الأمصار أكثر وأوفر كان حال أهلها في الترف أبلغ من حال المصر الذي دونه على ونيرة واحدة في

الاصناف القاضى مع القاضى والتاجر مع التاجر والصانع مع الصانع والسوق مع السوق والامير مع
الامير والشرطي مع الشرطي واعتبر ذلك في المغرب مثلاً بحال فاس مع غير هامن أمصاره الأخرى
مثل بجاية وتلمسان وسبتة تجده بينهما يونا كثير على الجملة ثم على الخصوص حيات حال القاضى بفاس أو مع
من حال القاضى بتلمسان وهكذا كل صنف مع صنف أهله وكذا أيضا حال تلمسان مع وهران أو الجزائر
وحال وهران والجزائر مع مادونهما إلى أن تنفعي إلى المداشر الذين اعتزلهم في ضرورات معاشهم فقط
ويقتصرون عنها وما ذلك إلا لتفاوت الأعمال فيها فكأنها كلها أسواق للأعمال والخراج في كل سوق
على نسبه فالقاضى بفاس دخله كفاء خرجته وكذا القاضى بتلمسان وحيث الدخل والخراج أكثر
تكون الأحوال أعظم وهما بفاس أكثر لئلا في سوق الأعمال بما يدعو إليه الترف فلا حوال أضخم
ثم كذا حال وهران وقسنطينة والجزائر وبسكرة حتى تنعني كما قلناه إلى الأمصار التي لا توفي أعمالها
بضرورتها ولا تعد في الأمصار إذ هي من قبيل القرى والمداشر فذلك بعد أهل هذه الأمصار الصغيرة
ضعفاء الأحوال متقاربين في الفقر والخصاصة لأن أعمالهم لا تفي بضرورتهم ولا يفضل ما يتأثرونه
كسباً فلا تنمو مكاسبهم ولذلك مساكين عاود في الأقل النادر واعتبر ذلك حتى في أحوال الفقراء
والسؤال فإن السائل بفاس أحسن حالا من السائل بتلمسان أو وهران ولقد شاهدت بفاس السؤال
يسألون بأهم الأساخي أمان ضحايا عمور أيهم يسألون كثير من أحوال الترف واقتراح المال كل مثل
سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون كالغربان والآنية ولو سأل سائل مثل هذا
بتلمسان أو وهران لاستنكر وعنف وزجر ويبلغ هذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف
والغنى في عوائد ما يقضى منه العجب حتى أن كثير من الفقراء بالمغرب يزعمون إلى النقلة إلى مصر
لذلك ولما يلعبهم من أن شأن الرفه بمصر أعظم من غيرها ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة لثرفي
أهل تلك الآفاق على غيرهم أو أموال غفيرة لديهم وأنهم أكثر صدقة وإيثار من جميع أهل الأمصار
وليس كذلك وإنما هو لما تعرف من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار التي
لديها فعلمت لذلك أحوالهم * وأما حال الدخل والخراج فتكفي في جميع الأمصار متى عظم الدخل
عظم الخرج وبالعكس ومتى عظم الدخل والخراج اتبعت أحوال الساكنين ووسع المصير كل شيء يبلغك
من مثل هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران وما يكون عنه من كثرة الكاسب التي يسهل بسببها البذل
والإيثار على منتهيه ومثله بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة وكيف يختلف أحوالها في
هجرانها أو غشيانها فإن بيوت أهل النعم والثروة والوالت الخصبة منها أكثر باحتها وأغنيها بئر الحبوب
وسواقق الفئات فيزدحم عليها غواشي النمل والحشاش ويخلق فوقها عصاب الطيور حتى تروح
بطاناً وتمتلئ شجراً ورياً وبيوت أهل الخصاصة والفقراء الكسدة أوزاقهم لا يسيروا باحتها ديب
ولا يخلق بجوها طائر ولا تأوى إلى زوايا بيوتهم فأرة ولاهرة كما قال الشاعر
تسقط الطير حيث تلفظ الـ * حب وتغنى منازل الكرماء

فتأمل سر الله تعالى في ذلك واعتبر غلبة الأمانى بغاشية العجم من الحيوانات وفئات الموائد بفضلات
الرزق والترف وسهولتها على من يذللها لاستغنائهم عنها في الأكل وجود أمثلهم لبيهم واعلم أن السباع
الأحوال وكثرة النعم في العمران تابع لكثرة والله سبحانه وتعالى أعلم وهو عني عن العالمين

١٢ ﴿ فصل في أسعار المدن ﴾

اعلم أن الأسواق كلها تشمل على حاجات الناس فمنها الضروري وهي الأقوات من الخبثه وما في معناها
كالأقالق والبصل والثوم وأشباهه ومنها الحاجي والسكراني مثل الأدم والقواكه والملايس والماعون
والمرآكب وسائر المصانع والبناني فإذا استبحر المصير وكثرت أكله خفت أسعار الضروري من القوت
وما في معناه وغلت أسعار السكراني من الأدم والقواكه وما يتبعها وإذا قل ساكن المصير وضعف
عمرانه كان الأمانى بالعكس والسبب في ذلك أن الحبوب من ضرورات القوت فتوفر البدوا على
اتخاذها إذ كل أحد لا يحمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره أو سنته فيم اتخذها أهل المصير أجمع
أو الأكل كثير منهم في ذلك المصير أو فيها قرب منه لا بد من ذلك وكل من اتخذ لقوته تفضل عنه وعن أهل
بيته فصلة كبيرة تدخله كثيرين من أهل ذلك المصير تفضل الأقوات عن أهل المصير من غير شائكة
فترخص أسعارها في الغالب إلا ما يضيها في بعض السنين من الآفات السحابية ولو لا احتكار الناس لها
يتوقع من تلك الآفات لبدلت دون شئ ولا عوض لكثرةها بكثرة العمران وأما سائر المرافق من
الأدم والقواكه وما إليها فإنها لا تعم بها البلوى ولا يستغرق اتخاذها أعمال أهل المصير أجمعين
ولا الكثير منهم ثم أن المصير إذا كان مستبحر موفور العمران كثير حاجات الترف توفرت حينئذ
البدوا على طلب تلك المرافق والاستكثار منها كل بحسب حاله فيقصر الموجود منها على الحاجات
تصورها بالغنا ويكثر المستامون لها وهي قليلة في نفسها فتردحم أهل الأغراض ويذل أهل الرفه
والترف أثمانها باسراف في الغلاء لحاجتهم إليها أكثر من غيرهم فيقع فيها الغلاء كثره * وأما المصانع
والأعمال أيضا في الأمصار الموفورة العمران فبسبب الغلاء فيها أمور ثلاثة الأول كثرة الحاجة
لمكان الترف في المصير بكثرة عمرانه والثاني انحصار أهل الأعمال لخدمتهم وإيمان أنفسهم بسهولة
العاش في المدينة بكثرة أقواتها والثالث كثرة الترفين وكثرة حاجاتهم إلى أمانتها غير هو إلى استعمال
الصناع في منبهم فيذلون في ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة في الاستكثار
بها فيعتبر العامل والصناع وأهل الحرف واملأ أعمالهم وتكثر نفقات أهل المصير في ذلك * وأما الأمصار
الصغيرة والقليلة الساكن فأقواتهم قليلة لقلة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصروفهم من عدم القوت
فيتمسكون بما يحصل منه في أيديهم ويحتكرونه فيعز وجوده لديهم ويغلوا عنه على مستامه وأما
مرافقهم فلا تدعو إليها أيضا حاجة بثلة الساكن وضعف الأحوال فلا تنفق لديهم سوق فيختص
بالرخص في سعره وقد يدخل أيضا في قيمة الأقوات قيمة ما يعرض عليها من المكوس والغرام

للسلطان في الأسواق وأبواب الحضر والحياة في منافع وصولها عن البيوعات لما يتيسر وبذلك كانت
الأسعار في الأمصار أغلى من الأسعار في البادية إذ المسكوس والمغارم والغرائب قليلة عليهم أو معدومة
وكثرها في الأمصار لاسيما في آخر الدولة وقد تدخل أيضا في قيمة الأقوات قيمة علاجها في الفلح
ومحافظة على ذلك في أسعارها كما وقع بالأندلس لهذا العهد وذلك أنهم لما ألقوا النصر إلى سيف
البحر وبلاطه المتوعدة الحبيثة الزراعة النكدة النبات وملكوا عليهم الأرض الزراعية والبساتين
فلحقوا إلى علاج المزارع والحدائق لصلاح نباتها أو فسادها وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومودا
من الزيل وغيره مما مؤنة وصارت في فلحهم نفقات لها حظ فاعتبروها في سعرهم واختص فطر الأندلس
بالغلاء منذ اضطرم النصارى إلى هذا العمور بالاسلام مع سوا حلها لأجل ذلك وبحب الناس إذا
سمعوا ابتلاء الأسعار في قتلها وانها القلة الأقوات والحبوب في أرضهم وليس كذلك فهم أكثر أهل
العمور فلحقا فيما غلبه وأقومهم عليه وقل أن يغلو منهم سلطان أو سوقة عن فدان أو مزرعة أو فلاح
الاقليل من أهل الصناعات والمهن والظراء على الوطن من الغزاة المجاهدين ولهذا يختصهم السلطان في
عنائهم بالعونة وهي أقواتهم وغلاتهم من الزرع وإعالة السبب في غلاء سعر الحبوب عند ما ذكرناه
ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في ذلكاء منابهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المؤن جملة في الفلح
مع كثرته وعمومه فصارت ذلك سببا لرخس الأقوات ببلدهم والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد
القهار لأرب سواد

١٣ فصل في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكبير العمران

والسبب في ذلك أن المصر الكبير العمران يكثر ترده كقدمناه ونكثر حاجات ساكنه من أجل
الترف وتعدد تلك الحاجات لما يدعو إليها فتقلب ضرورات وتصبح فيه الأعمال كلها مع ذلك عزيزة
والترافق غالبية بازديادها من أغراض عليها من أجل الترف والمغارم السلطانية التي توضع على الأسواق
والبياعات وتعتبر في قيم المبيعات ويعظم فيها الغلاء في الترافق والأقوات والأعمال فتكثر تلك نفقات
ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانه ويعظم خرجه فيحتاج حينئذ إلى المال الكثير للنفقة على نفسه
وعياله في ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم والبدوي لم يكن دخله كثير إذا كان ساكنا فكان كاسد
الأسواق في الأعمال التي هي سبب السكب فم يتأهل كسبا ولا مالا فيتعذر عليه من أجل ذلك
سكنى المصر الكبير لغلاء مرافقه وعزلة حاجاته وهو في بدو يسد خلته بأقل الأعمال لأنه قليل عوائد
الترف في معاشه وسائر مؤنه فلا يضطر إلى التذلل وكل من يتشوف إلى المصر وسكنائه من أهل البادية
فسرعاما يظهره مجزء ويفتضح في استيظانه الأمن ية قدم منهم تأهل المال ويحصل له منه فوق الحاجة
ويجئ إلى الغاية الطبيعية لأهل العمران من المدعة والترف فيقتد ينقل إلى المصر وينتظم حاله
مع أحوال أهله في عوائدهم وترفهم وهكذا شأن بداية عمران الأمصار والله بكل شيء محيط

١٥ فصل في أن الاقطار في اختلاف أحوالها بالرفه والفقر مثل الأمصار

(اعلم) أن ما توفر عمرانه من الاقطار وتعددت الأمم في جهاته وكثر ما كنه اتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم وأمصارهم وعظمت دولتهم وممالكهم والسبب في ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الأعمال ومساكني ذكره من أنها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضرورة في حاجات الساكنين من القسبة البالغة على مقدار العمران وكثرته فيعود على الناس كسباً يثابرونه حسباً تذكره في فصل العاش وبيان الرزق والكسب فيزيد الرفه لذلك وتنسج الأحوال ورجى الترف والفنى وكثر الجباية للدولة بتفاق الأسواق فيكثر مالها ويشجع مسانها ويتفنن في اتخاذ العاقل والحصون واخطاط المدن وتشيد الأمصار واعتبر ذلك بأقطار المشرق مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كطابو أقطارها ورا البحر الرومي لما كثر خبرها كيف كثر المال فيها وعظمت دولتهم وتعددت مدنها وحواسنها وعظمت متاجرها وأحوالهم قلدي نشاهد هذا العهد من أحوال تجار الأمم النصرانية أو الذين على المسلمين بالمغرب فيعرفهم والساحل أحوالهم أكثر من أن يخط به الوصف وكذا تجار أهل المشرق وما يبلغان من أحوالهم وأبلغ منها أحوال أهل المشرق الأقصى من عراق العجم والهند والصين فانه يبلغانهم في باب الغنى والرفه غرائب نهر الزبكان بخديتها ورماتلقي بالانكسار في غالب الأمر ويحسب من سمعها من العامة أن ذلك زيادة في أموالهم أولاً لان العادن الذهبية والفضية أكثر بأرضهم أولاً ذهب الاقدمين من الأمم استأثروا به دون غيرهم وليس كذلك فعدن الذهب التي نعرفه في هذه الاقطار إنما هو من بلاد السودان وهي إلى المغرب أقرب وجميع ما في أرضهم من البضاعة فاما يخلون به إلى غير بلادهم للتجارة فلو كان المال عتيداً موفوراً اليهم لما جلبوا بضائعهم إلى سواهم يتفنون بها الأموال ولا استغنوا عن أموال الناس بالجلد وقد ذهب المنجمون نظر أو أمثال ذلك واستغربوا ما في المشرق من كثرة الأحوال وتضاعها وفور أموالها فقالوا بأن عطايا الكواكب والسهام في مواليد أهل المشرق أكثر منها حصصاً في مواليد أهل المغرب وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الاحكام النجومية والأحوال الأرضية كما قلناه واما ما أعطوا في ذلك السبب النجومي وبق عليهم أن يعطوا السبب الأرضي وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصه بأرض المشرق وأقطاره وكثرة العمران فبذلك كثرة الكسب بكثرة الأعمال التي هي سببه فلذلك اختص المشرق بالرفه من بين الآفاق لأن ذلك لغير ذلك لأن النجومي فقد فهمت مما أشرنا لك أولاً أنه لا يستغل بذلك وأن المطابقة بين حكمه وعمران الأرض وطبيعتها أمر لا بد منه واعتبر حال هذا الرفه من العمران في قطر أفريقية وبرقة لما خف سكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت أحوال أهلها وانتهوا إلى الفقر والخصاصة وضعت جباياتها قللت أموال دولها بعد أن كانت دول الشيعة وضمهاجة بها على ما بلغت من الرفه وكثرة

الجبايات والنساج الأحوال في نفقاتهم وأعطيتهم حتى لقد كانت الأموال ترفع من الفقر وإن إلى صاحب مصر حاجاته ومفاته وكانت أموال الدولة بحيث حمل حوهر الكاتب في سفره إلى فتح مصر ألف حمى من المال يستعملها لأرزاق الجنود وأعطيتهم ونفقات الغزاة وقطر المغرب وإن كان في القديم دون أفرقية فلم يكن بالقليل في ذلك وكان أحواله في دول النوحين متعة وجباياته موفورة وهو لهذا العهد قد أقصر عن ذلك لتقصير العمران فيه وتناقصه فقد ذهب من عمران البربر فيه أكثره وقص من معبوده شصا ظاهرا محسوسا وكاد أن يلحق في أحواله بثل أحوال أفرقية بعد أن كان عمرانه متصلا من البحر الرومي إلى بلاد السودان في طول ما بين السوس الأقصى وبرقة وهي اليوم كلها أو أكثرها عقار وخلا وسخارى إلا ما هو منها يبيع الفبحر أو ما يقاربه من التلول والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين

١٥ فصل في تأثر العقار والضيايع في الاعتبار وحال فوائدها ومستغلاتها

(اعلم) أن تأثر العقار والضيايع الكبير فلا من الأمصار والمدن لا يكون دفعة واحدة ولا في عصر واحد إذ ليس يكون لأحد منهم من الثروة ما يملك به الأملاك التي تخرج قيمتها عن الحدود لو بلغت أحوالهم في الرفعة ما عسى أن تبلغ وإنما يكون ملكهم وتأثيرهم لها من رعاياها لا من آياتهم وذويهم حتى تنادي أملاك الكبيرين منهم إلى الواحد أو أكثر لذلك أو أن يكون بحالة الأسواق فإن العقار في آخر الدولة وأول الأخرى عند فناء الحامية وخرق السياج ويدعى العصر إلى الحراب تنقل القبط فيه القادة المنفعة فيها يتلاشى الأحوال فترحم قيمها وتتمتص الأثمان البسيطة وتختلج بالمراث إلى ملك آخر وقد استجد العصر شبابه باستفحال الدولة الثانية وانظمت له أحوال الرافعة حسنة تحصيل معها القبط في العقار والضيايع لكثرة منافعها حينئذ فتنظم قيمها ويكون لها خطر لم يكن في الأول وهذا معنى الحوالة فيها لو أصبح مالكها من أغنى أهل العصر وليس ذلك ببعيد وأكثابه إذ قد ترفع عن مثل ذلك وأما فوائد العقار والضيايع فهي غير كافية لما لكها في حاجات معاشه إذ هي لا تفي بعوائد الثرف وأسبابه وإنما هي في الغالب لسد الحاجة وضرورة المعاش والذي سمعناه من مشيخة البلدان أن القصد باقتناء الملك من العقار والضيايع إنما هو لحشية على من يترك خلفه من القدرة الضعيفة ليكون مربيهم ورزقهم فيه ونشؤهم بقائدهم ماداموا عاجزين عن الاكتساب فإذا اقتدر وأعلى تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم وربما يكون من أولهم من يعجز عن التكسب لضعف في يده أو آفة في عقله المعاشي فيكون ذلك العقار قواما لحاله هذا القصد المترفين في اقتنائه وأما التمويل منه وأجراء أحوال المترفين فلا وقد يحصل ذلك منه للقليل أو النادر نحوالة الأسواق وحصول الكثرة بالاعانة من العالي في جنسه وقيمتها في الحصر الآن ذلك إذ حصل ربما امتدت إليه أعين الأمراء والولاة واغتصبوا في الغالب أو أرادوه على بيعهم منهم ونالت أحمالهم منه مضار ومعاظيب والله غالب على أمره وهو رب العرش العظيم

١٦ فصل في حاجات المتولين من أهل الأمصار إلى الجاه والمدافعة

وذلك أن الحضري إذا عظم قوله وكثر له غار والضياع تأتله وأصبح أغني أهل الضرور ومقتة العيون بذلك وانفجعت أحواله في الترف والعوائد اجم عليها الأمر أبو الملوك وغسوا به ونا في طباع البشر من العدوان وإن قد أعينهم إلى ثالث ما يندهو بنافسونه فيه ويتحولون على ذلك بكل تمكن حتى يحصلونه في رقة حكم سلطاني وسبب من المؤاخذة ظاهر يتزع به ماله وأكثر الأحكام السلطانية جائرة في الغالب إذ العدل الخلف إنما هو في الخلافة الشرعية وهي قليلة البتة قال صلى الله عليه وسلم الخلافة بعد ثلاثون سنة ثم تعود ملكا عضوضا فلا بد حينئذ لصاحب المال والزر والنسب في العمران من حامية تدود عنه وجاه يسحب عليه من ذي قرابة الملك أو خالصته أو عضوية يتحامها السلطان فيستظل بظلالها ويرتفع في أمنها من طوارق التعدي وإن لم يكن له ذلك أصبح نهبا بوجوه التحيلات وأسباب الحكم والله بحكمه لا معقب لحكمه

١٧ فصل في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول وأنها ترسخ بالمال والدولة ورسخوها

والتفنن في صناعاته من الطائفة والملايين وسائر أحوال الدنيا حتى أنها لم تؤخذ عنهم في الغالب إلى اليوم ورسخت الحضارة أيضا وعوائلها في الشام منهم ومن دولة الروم بعدهم ستائة سنة فكانوا في غاية الحضارة وكذلك أيضا القبط دامت ملكيتهم في الخلافة ثلاثة آلاف من السنين فرسخت عوائل الحضارة في بلادهم مصر وأرضهم بها ملك اليونان والروم ثم ملك الإسلام التامسح للكل فلم تزل عوائل الحضارة بها متصلة وكذلك أيضا رسخت عوائل الحضارة باليمن لان اتصال دولة العرب بها منذ عهد العباسية والتابعة آلاف من السنين وأرضهم ملك مصر وكذلك الحضارة بالعراق لان اتصال دول النبط والفرس بها من قبل السكانيين والكنانية والكسروية والعرب بعدهم آلاف من السنين فلم يكن على وجه الأرض لهذا العبد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر وكذا أيضا رسخت عوائل الحضارة واستحكمت بالاندلس لان اتصال الدولة العظيمة فيها للقوط ثم ما أخضاها من ملك بني أمية آلاف من السنين وكلتا الدولتين عظمى فانتقلت فيها عوائل الحضارة واستحكمت وأما إفريقية والمغرب فلم يكن بها قبل الإسلام ملك ضخم إنما أقطع الأفريقية إلى إفريقية البحر وملكوها البحار وكانت طاعة البربر أهل الساحلية لهم طاعة غير مستحكمة فكانوا على قلعة وأوفار وأهل المغرب لم يهابوهم دولة وإنما كانوا يعشون بطاعتهم إلى القوط من وراء البحر ولما جاء الإسلام ملك العرب إفريقية والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب الا قليلا أول الإسلام وكانوا لذلك العبد في طور البداوة ومن استقر منهم بأفريقية والمغرب لم يجد بها من الحضارة ما يقدرون عليه بل كانوا يرار منفسين في البداوة ثم انتقص رابرة المغرب الاقصى لا قرب اليهود على يد ميسرة المظفر في أيام هشام بن عبد الملك ولم يراجعوا أمر العرب بعدوا استقلالهم وان بايعوا الأندلس خلافة عبد الله بن هشام عربية لأن البربر الذين تولوها ولم يكن من العرب فيها كثير عندو بقيت أفريقية للأغلبية ومن اليهم من العرب فكان لهم من الحضارة بعض الشيء بما حصل لهم من ترفى الملك وقيم وكثرة عمران القير وان وورث ذلك عنهم كتامة ثم صناعته من بعدهم وذلك كله قليل لم يبلغ أربع مائة سنة وانصرمت دولتهم واستحال نصيب الحضارة بها كانت غير مستحكمة وتقلب بدو العرب المتلايين عليها وخرابوها وبقي أثر حق من حضارة العمران فيها وإلى هذا العهد يؤنس فيمن سلف له بالقلعة والنيران أو الهدية سلف فتجدله من الحضارة في شؤون منزله وعوائله أحواله آثارا ملتصقة بغيرها غير أنها الحضرة البصير بها وكذا في أكثر أمتار أفريقية وليس ذلك في المغرب وأمتار دلسوخ الدولة بأفريقية أكثر أمدا منذ عهد الأغالية والشيعة وصناعته أما المغرب فانتقل اليه منذ دولة الموحدين من الاندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت به عوائلها بما كان لهم من الاستيلاء على بلاد الاندلس وانتقل الكثير من أهلها اليهم طوعا وكرها وكانت من اتساع النطاق ما علمت فكان فيها حظ ضائع من الحضارة واستحكمت بها ومعظمها من أهل الاندلس ثم انتقل أهل شرق الاندلس عند جالية النصارى إلى أفريقية فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثارا ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائلها فكان بذلك المغرب

وأفريقية حظ صالح من الحضارة فعنى عليه الخلاوة ورجع على أعقابهم وعاد القربى بالمغرب إلى أديانهم من البدوة والحشونة وعلى كل حال وآثار الحضارة بأفريقية أكثر منها بالمغرب وأما مصر لما تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب والقربى عواذهم من عوائد أهل مصر بكثرة التردد بين بينهم فنعطى لهذا السر بأنه حق عن الناس وأعلم أنها أمور متناسبة وهي حال الدولة في القوة والضعف وكثرة الأمانة والجليل وعظم المدينة أو النضر وكثرة النعمة واليسار وذلك أن الدولة والملك صورة الخليفة والعمران وكما أمدتها من الرعايا والأمصار وسائر الأحوال وأموال الجباية عائدة عليهم ويسارهم في أغلب من أسواقهم ومتاجرهم وإذا أفضى السلطان عطاءه وأمواله في أهلها انبثت فيهم وزجت إليه ثم اليهم منه على ذاهبة عنهم في الجباية والمخراج عائدة عليهم في العطاء وعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة وأصله كله العمران وكثرتهم فاعتبره وتامله في الدول تجده والله يحكم لأمره الحكمة

١٨ فصل في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده

قد بينا في سلف أن الملك والدولة غاية للعصية وأن الحضارة غاية للبدوة وأن العمران كله من بدوة وحضارة ومملك وسوقته عمر عسوس كأن للشخص الواحد من أشخاص المكنونات عمر عسوسا تبين في العقول والنقول أن الأربعمائة للانسان غاية في زياد قواه ونحوها وأنه إذا بلغ سن الأربعمائة وقفت الطبيعة عن أثر النمو والنمو برهة ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط فلنعلم أن الحضارة في العمران أيضا كذلك لأنها لا تزيد بعد رواءها وذلك أن الترف والنعمة إذا حصل لا أهل العمران دعم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعواذها والحضارة كما علمت هي الترف في الترف واستحادة أحواله والكلف بالصنائع التي تؤتى من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطامح أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الأواني وسائر أحوال المنزل واللباس في كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البدوة وعدم التأنيق فيها وإذا بلغ التأنيق في هذه الأحوال المادية الغاية نزع طاعة الشهوات فتكون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولادنياها وأما دينها فلا استحكام صبغة العوائد التي يعسر زرعها وأما دينها فلم تكن الحاجات والمؤثرات التي تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها ويبيانه أن العصر بالتقني في الحضارة تعظم نفقات أهله والحضارة تفاوتت بتفاوت العمران فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكثر وقد كنا قد علمنا أن العصر الكثير العمران يختص بالقلاء في أسواقه وأسعار حالته ثم تزيد بها الكوس من غلاء لأن الحضارة إنما تكون عند انتهاء الدولة في استيفائها وهو زمن وضع الكوس في الدول لكثرة خرجها حينئذ كما تقدم والكوس تعود على البياعات بالقلاء لأن السوق والنجار كلهم يحسبون على سلمهم وبضائعهم جميع ما يتفقونه حتى في مؤنة أنفسهم فيكون الكس كذلك داخل في قيم البياعات وأثمانها فتعظم نفقات أهل

الحضارة وتخرج عن القصد إلى الاسراف ولا يجدون وليجة عن ذلك لما ملكتهم من أثر العوائد
وظاعنها وتذهب مكاسهم كلها في النفقات ويتقاعسون في الاملاق والخصاصة ويطلب عليهم الفقر
ويقل المتاعون للمصانع فتكسد الأسواق ويضد حال المدينة وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف
وهذه مقدمات في المدينة وعلى العموم في الأسواق والعمران وأما فساد أهلها في ذاتهم واحدا
واحدا على الخصوص فمن الكد والتعب في ساحات العوائد والتلون بأنواع الشرع تحصيلها وما يعود
على النفس من الضرر بعد تحصيلها خصوصا ولون آخر من ألوانها فذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة
والتحيل على تحصيل العائش من وجهه ومن غير وجهه وانصرف النفس إلى الفكر في ذلك والخواص
عليه واستجماع الحيلة له فتجدهم أجربا على الكذب والقامرة والغش والخلافة والسرقة والفجور
في الإيمان والربا في البياعات ثم تجدهم أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه
وأطراف الحسنة في الخواص فيه حتى بين الأقارب وذوي المحارم الذين تنفض اليدواة الحياء منهم في
الافذاع بذلك وتجدهم أيضا أبصر بالسكر والخدعة يدفعون بذلك ما عساه ينالهم من الضرر وما ينفو عنه
من العقاب على تلك القبائح حتى يصير ذلك عادة وخلقاً لا يكثر إلا من عصمة الله وعوج بحر المدينة
بالسفسفة من أهل الأخرى في التميعة وخارجهم فيها كثر من ناشئة الدولة ولداهم من أهل عن التأديب
وغلب عليه خلق الجوار وان كانوا أهل أنساب وبيونات وذلك أن الناس يهرموا تلون وإنما غاضوا
وتميزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل فمن استحكمت فيه صبغة الرذائل بأي وجه
كان فسد خلق الخير فيه لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منته وهذا نجد كثيرا من أعقاب البيوت
وذوي الاحساب والاصالة وأهل الدول منطرحين في الغار متحللين للحرف الدينية في معاشهم
بما فسد من أخلاقهم وماتلوا بأيديهم صبغة الشر والسفسفة وإذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله
بخرابها وانقراضها وهو معنى قوله تعالى وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسدوا فيها فحق عليها
القول فدمرناها تدميرا ووجهه حينئذ أن مكاسهم لا تفي بحاجتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها
فلا تستقيم أحوالهم وإذا فسدت أحوال الأشخاص واحدا واحدا اختل نظام المدينة وخربت وهذا معنى
ما يقوله بعض أهل الخواص أن المدينة إذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب حتى إن كثير من العامة
يتحاجن غرس النارنج بالبور وليس المراد ذلك ولا أنه ضامة في النارنج وإنما معناه أن البساتين وأجراء
المياه هو من توابيع الحضارة ثم إن النارنج واللهم والسرور وأمثال ذلك مما لا تعلم فيه ولا منفعة هو من غاية
الحضارة إذ لا يقصد بها في البساتين إلا أشكلها فقط ولا تفرس إلا بعد التقن في مذاهب الترف وهذا
هو البلور الذي غشي معه هالك القصر وخرابه كقلناه ولقد قيل مثل ذلك في الدفلي وهو من هذا
الباب إذ الدفلي لا يقصد بها إلا تلون البساتين بنورها ما بين أحمر وأبيض وهو من مذاهب الترف *
ومن مفايد الحضارة الانهالك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف فبقع الضيق في شهوات
البطن من الماء كل والملاذ وبقيع ذلك الضيق في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الرنا واللواط

فيقتضى ذلك إلى فساد النوع إما بواسطة اختلاط الأنساب كما في الزنا فيجهد كل واحد ابنه اذ هو لغیر رشدة لأن المياه عند تلطخ في الارحام تفقد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيهلكون ويؤدي ذلك إلى انقطاع النوع أو يكون فساد النوع كاللواط اذ هو يؤدي إلى أن لا يوجد النوع والزنا يؤدي إلى عدم ما يوجد منه وذلك كان مذهب مالك رحمه الله في اللواط أظهر من مذهب غيره ودل على أنه أیصر بتفاسد الشريعة واعتبارها بالمصالح ففهم ذلك واعتبر به أنه غاية العمران هي الحضارة والترف وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ في الهولم كالأشجار الطبيعية للحيوانات بل يقول إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد لأن الإنسان إنما هو إنسان بقدر ما به على جلب منافعها ودفع مضارها واستقامة خلقه لا يسعى في ذلك والحضري لا يندبر على مباشرة حاجته إنما عجز الماحصل له من السعة أو ترعا لما حصل له من الترف في التعم والترف وكلا الأمرين ضميم وكذا لا يندبر على دفع المضار واستقامة خلقه لا يسعى في ذلك والحضري بما فقد من خلق الإنسان بالترف والتعم في قهر التأديب فهو بذلك عيال على الحماية التي تدافع عنه ثم هو فساد أيضا غالباً ما فسدت منه العوائد طاعتها وما تلومت به النفس من مكانتها كقرينة الألفي الأقل النادر وإذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسد إنسانيته وصار مسيخاً على الحقيقة وبهذا الاعتبار كان الذين يتبرون على الحضارة وخلقها موجودين في كل دولة فقد تبين أن الحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة والله سبحانه وتعالى كل يوم هو في شأن لا يشغله شأن عن شأن

١٩ فصل في أن الأمصار التي تكون كراسي لها تخرّب بخراب الدولة وانقراضها

قد استقرينا في العمران أن الدولة إذا اختلفت وانتقضت فإن العمر الذي يكون كراسيها لسلطانها ينتقض عمره دور بما ينتهي في انقراضه إلى الخراب ولا يكاد ذلك يتخلف والسبب فيه أمور (الأول) أن الدولة لا بدق أو لها من البداوة المتقضية لتجافي عن أموال الناس والبعد عن التحذلق ويدعو ذلك إلى تخفيف الجباية والمعاملة التي منها مادة الدولة فتقل النفقات ويقصر الترف فاذا صار العمر الذي كان كراسيها للملك في ملك هذه الدولة المتجددة ونقضت أحوال الترف فيها تنقض الترف فيمن تحت أيديها من أهل مصر لأن الرعايا تبع لدولة فيرجعون إلى خلق الدولة لما ملو عالم في طابع البشر من تقليد منبوعهم أو كرها لما يدعو إليه خلق الدولة من الانقباض عن الترف في جميع الأحوال وقلة الفوائد التي هي مادة العوائد فتعصر لذلك حضارة مصر ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهو معنى ما تقول في خراب مصر

الامر الثاني أن الدولة إنما تحصل لها الملك والاستيلاء والغلب وإنما يكون بعد العداوة والحروب والعداوة تقتضي منافاة بين أهل الدولتين وتكثر أحوالها على الأخرى في العوائد والأحوال وغلب أحد المتنافيين يذهب للمنافي الآخر فتكون أحوال الدولة السابقة منكورة عند أهل الدولة الجديدة ومستبشرة وفيجهدوا خصوماً أحوال الترف فتفقد في عرفهم بتكثير الدولة لها حتى تنشأ لهم بالنسبة عوائد

أخرى من التي تفكون عنها حضارة تمتد نفوذها بين ذلك قصور الحضارة الأولى ونقصها وهو معنى
اختلال العمران في العصر **الأمير الثالث** أن كل أمة لا بد لهم من وطن هو منشؤهم ومنه أوليت ملكهم
وإذا ملكوا ملكاً آخر صار تبعاً للأول وأما مصر فابعداً لمصر الأولى واتسع نطاق الملك عليهم ولا بد
من توسط الكرسي تحوم الملك إلى الدولة لأنه شبه المركز لنطاق فيعده مكانه عن مكان الكرسي الأول
وتهوى أفئدة الناس إليه من أجل الدولة والسلطان فينتقل إليه العمران ويخف من مصر الكرسي الأول
والحضارة فتناهي نوفر العمران كما قدمناه فتختص حضارة تمددوه هو معنى اختلاله وهذا كما وقع للسلجوقية
في عدولهم بكرسيهم عن بغداد إلى أصبهان والعرب قبلهم في العدول عن الشام إلى الكوفة والقاهرة
ولبنى العباس في العدول عن دمشق إلى بغداد ولبنى من المغرب في العدول عن مراکش إلى فاس وبالجملة
فالتحاذي للدولة الكرسي في مصر غفل بعمران الكرسي الأول **الأمير الرابع** أن الدولة الثانية لا بد فيها
من تبع أهل الدولة السابقة وأشياءها نحو يليه التي قطر آخر يؤمن فيه فالتزم على الدولة وأهل مصر
الكرسي أشياخ الدولة من الحامية الذين تزوا به أول الدولة أو أعيان مصر لأنهم في الغالب خالطة للدولة
على طبقاتهم وتوابع أصنافهم بل أكثر مما شئ في الدولة ولهم شعبة طوائف يكونوا بالشوكا والعصبية فيهم بالمثل
والحصة والعقيدة وطبيعة الدولة المتحددة نحو آثار الدولة السابقة فيقتلهم من مصر الكرسي إلى وطنها
المتمكن في ملكيتها فيعصبهم على نوع التغريب والحبس وبعضهم على نوع الكرامة والالتطف بحيث لا يؤدي
إلى انصرافه حتى لا يبقى في مصر الكرسي إلا الساعية والطامل من أهل الفلح والعيارة وسواد العامة وينزل
مكانهم حاميةها وأشياءها من دشتها مصر وإذا ذهب من مصر أعيانهم على طبقاتهم نفس ساكنة وهو معنى
اختلال عمرانه ثم لا بد من أن يستجد عمران آخر في ظل الدولة الجديدة وتحصل فيه حضارة أخرى على
قدر الدولة وإنما ذلك بتناهي من له بيت على أو صاف خصوصاً فأنظر من قدرته على تغيير تلك الأوصاف
 وإعادة بنائها على ما يختاره ويفترجه فيخرب ذلك البيت ثم يعيد بناءه ثانية وقد وقع من ذلك كثير في
الأمصار التي هي كراسي الملوك وشاهدناه وعلمناه والله يقدر الليل والنهار هو السبب الطبيعي الأول
في ذلك على الجملة أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصور والمادة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها
وقد تفرق في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر فالسولة دون العمران لا تصور
والعمران دون الدولة والملك متغير لما في طباع البشر من العدوان الداعي إلى الوازع فتتبعين
السياسة لذلك أما الشرعية أو الملكية فهو معنى السولة وإذا كانا لا ينفكان فاختلال أحدهما يؤثر في اختلال
الآخر كما أن عدمه يؤثر في عدمه والخلل العظيم إنما يكون من خلل الدولة الكلية مثل دولة الروم
أو الفرس أو العرب على العموم أو بني أمية أو بني العباس كذلك وأما الدولة الشخصية مثل دولة
أنوشروان أو هرقل أو عبد الملك بن مروان أو الرشيد فأشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده
وبقائه وقريبة الشبه بعضهم ببعض فلا تؤثر كثير اختلال لأن الدولة الحقيقية القائمة في مدة العمران
إنما هي العصبية والشوكا وهي مستمرة على أشخاص الدولة فإذا ذهبت تلك العصبية ودفعها عصبية

أخرى مؤثرة في العمران ذهب أهل الشوكه بأجمعهم وعظم الخلل كما قررناه أولاً والله سبحانه وتعالى أعلم

٢٠ فصل في اختصاص بعض الأقطار ببعض الصنائع دون بعض

وذلك أنه من البين أن أعمال أهل مصر يستدعي بعضها بعضاً في طبيعة العمران من التعاون وما يستدعي من الأعمال يختص بعض أهل مصر فيقومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويعملون معاشهم فيعمرونهم منه لعدم البلوى به في مصر والحاجة إليه وما يستدعي في مصر يكون غداً إذا فائدة مستحقة في الاحتراف به وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مصر كالحياض والحداد والنجار وأمثالها وما يستدعي لعوائد الترف وأحواله فائماً يوجد في المدن المستحقة في العبارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجاج والصنائع والدهان والبطاخ والصفار والقراش والدياج وأمثال هذه وهي متفاوتة وتقدر ما يزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع ذلك النوع فتوجد بذلك مصر دون غيرها ومن هذا الباب الحمامات لأنها إنما توجد في الأقطار المستحضرة المستحقة العمران لما يدعو إليه الترف والقي من التمتع ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة وإن زرع بعض الملوك والزوايا إليها فيختطها ويحرق أحوالها إلا أنها إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس مصرعان ما تهجر وتخرب وتضرعها القومة لقلة فائدتهم ومعاشهم منها والله يقض ويبسط

٢١ فصل في وجود العصبية في الأقطار وتغلب بعضهم على بعض

من البين أن الاتصال والاقبال موجود في طبع البشر وإن لم يكونوا أهل نسب واحد إلا أنه كما قدمناه أضعف مما يكون في النسب وأنه تحصل به العصبية بعضاً مما تحصل بالنسب وأهل الأقطار كثير منهم ملتصمون بالصهر يجذب بعضهم بعضاً إلا أن يكونوا متحالفاً وقرابة قرابة وتجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر فيقترب مثله فينتقون شيعاً وعصائب فإذا نزل الهرم بالدولة وتقلص ظل الدولة عن القاصية احتاج أهل أقطارها إلى القيام على أمرهم والنظر في حماية بلادهم ورجعوا إلى الشورى وتميز العلية عن السفلة والتفوس بطباعتها متطاولاً إلى الغلب والرياسة فتطرح الشيعة لخلع الجوارح من السلطان والدولة القاهرة إلا الاستعداد وبتأثير كل صاحب ويستوصون بالاتباع من التواقي والشيخ والأخلاف ويدنون ملقى أيديهم للأوغاد والأوشاب فيعصو صب كل لصاحبه ويتعين القلب لبعضهم فيعطف على كفايته ليقص من أعتهم ويتبعهم بالقتل أو الضرب حتى يخضع منهم الشوكه كانفاذة ويقلم الأقطار الحادشة ويستبد بمصره أجمع ويرى أنه قد استحدث ملكاً يورثه عقبه فيحدث في ذلك الملك الأصغر ما يحدث في الملك الأعظم من عوارض الجدة والهرم وورثها يسمو بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأقطار أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزعوف والحروب والأقطار والممالك فيتحلون بها من الجلوس على السرير واتخاذ الآلة وأعداد المواكب

للمير في أقطار البلد والتعتم والحبية والخطاب بالتمويل ما يسخر منه من يشاهد أحوالهم لما انتحلوه من شارات الملك التي لبسوا لها أهل إغاد فعم إلى ذلك تغلب الدولة والتمتع بعض التراتبات حتى صارت عصبية وقد يتزده بعضهم عن ذلك ويحري على مذهب السذاجة فرار من التعريض بنفسه للسخرية والعبث وقد وقع هذا أفرقية لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية لأهل بلاد الجريد من طرابلس وقايس وتوزر ونقطة ونقصه وبسكرة والزاب وما إلى ذلك سمو إلى مثابا عند تغلب على الدولة عنهم مندعقو دمن السنين فاستغلبوا على أمصارهم واستبدوا بأمرها على الدولة في الأحكام والحياة وأعطوا طاعة معروفه وحققة مراضة وأقطعوها جاشا من الملائكة والملائكة والأتقياء وهم معزول عنه وأورثوا ذلك أعقابهم لهذا العهد وحدث في خلفهم من الغلبة والنخب ما يحدث لأعقاب الملوك وخلفهم ونظموا أنفسهم في عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوق حتى عاينوا أمير المؤمنين أبو العباس واتزع ما كان بأيديهم من ذلك كما ذكره في أخبار الدولة وقد كان مثل ذلك وقم في آخر الدولة الصنهاجية واستقل بأمصار الجريد أهلها واستبدوا على الدولة حتى اتزع ذلك منه شيخ الموحدين وملكهم عبد المؤمن بن علي ونظم عليهم كلهم من إمارتهم بها إلى المغرب وعاش من تلك البلاد آثارهم كما ذكر في أخبارهم وكذلك وقع بسنة آخر دولة بني عبد المؤمن وهذا التغلب يكون غالبا في أهل السروات واليوتات والمرشحين للشيخة والرياسة في مصر وقد يحدث التغلب لبعض السقطة من الغوغاء والذهاب إذا حصلت له العصبية والالتحام بالأوغاد لأسباب بحر حاله التقدير في تغلب على الشيخة والعلية إذا كانوا فاقدين لعصايتهم وانتسبوا له ونعالي قلب على أمره

٢٢ فصل في لغات أهل الأمصار

(اعلم) أن لغات أهل الأمصار إما تكون بلسان الأمة أو الجليل الغالين عليها أو المختطين لها وذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالشرق والمغرب لهذا العهد عربي وإن كان اللسان العربي المنصري قد فسدت ملكته وتغيرت أعرابه والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من التغلب على الأمم والدين والملة صور ذلك وجود ولسلك وكلها موادله والصورة مقدمة على المادة والدين إنما يستند من الشريعة وهي بلسان العرب لما أن النبي صلى الله عليه وسلم عربي فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من اللسان في جميع ممالكها واعتبر ذلك في نهى عمر رضي الله عنه عن بطانة الأعاجم وقال أنها خب أي مكرو وخديعة فلما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها لأن الناس تبعوا لسلطان وعلى دينه فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطلاقة العرب وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدتهم وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها وعربية ثم فسد اللسان العربي بمغالطتها في بعض أحكامه وتغير أو آخره وإن كان في في الدلالات على أصله ومين لسانا

حضرياً في جميع أمصار الاسلام وأيضاً فأكثر أهل الأمصار في التهلكة العبد من أعقاب العرب
 المالكين لها المالكين في ترقيتها أكثر والعجم الذين كانوا بها وورثوا أرضهم وديارهم واللغات
 متوارثة فبقيت لغة الأعقاب على حال لغة الآباء وإن فسدت أحكامها بمخالطة الأبحام شيئاً فشيئاً وسببت
 لغتهم حضرية مدسوبة إلى أهل الحواضر والأمصار بخلاف لغة البدو من العرب فإنها كانت أعرق في
 العروبة ولما تملك العجم من الديلم والسجوقية بدمهم بالشرق وزناً في البر بالغرب وصار لهم تلك
 والأسلحة على جميع تلك الإسلامية فسد اللسان العربي لذلك وكان يذعن لولا ما حفظه من غناية
 المسلمين بالكتاب والسنة الذين هم ما حفظ الدين وصار ذلك مرجحاً لبقاء اللغة العربية الضاربة من
 الشعر والكلام الاقليات من الأمصار فلهذا ملك النثر واللغة بالشرق ولم يكن نواغذ دين الاسلام ذهب
 ذلك المرجح وفسدت اللغة العربية على الاطلاق وذيق فاسد في الممالك الإسلامية بالعراق وخراسان
 وبلاذقار من أرض الهند والسند وماوراء النهر وبلاذقار والهند وبلاذقار وماوراء الروم وذهبت أساليب اللغة العربية
 من الشعر والكلام الاقليات يقع تعليمه صناعاً بالقوانين المتعارضة من كلام العرب وحفظ كلامهم ابن
 يسره الله تعالى لذلك وما بقيت اللغة العربية المصرية بمصر والشام والأندلس والغرب لبقاء الدين
 طلباً لها فاعضفت بعض الشيء موافقاً لمالك العرب وماوراء فلهذا بقي له أثر ولا عين حتى أن كتب العلوم
 صارت تكتب باللسان العجمي وكذا تدريس في الخجائن والله أعلم بالصواب

﴿ الفصل الخامس من الكتاب الأول ﴾

(في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من
 الأحوال وفيه مسائل)

﴿ فصل ﴾ في حقيقة الرزق والكسب وشرحيهما وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية
 اعلم أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويعونه في حالته وأطوار من من نشوة إلى أشده إلى كبره
 والله الغني وأنتم الفقراء والله سبحانه خلق جميع ما في العالم للإنسان وأتمن بدعيه في غير ما آتاه
 من كتابه فقال وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه وسخر لكم البحر وسخر لكم
 الفلك وسخر لكم الأنعام وكثير من شواهد وبدل الإنسان مبسوط على العالم وما فيه بما جعل
 الله له من الاستخلاف وأيدي البشر منتشرة فهي مشتركة في ذلك وما حصل عليه يد هذا امتنع
 عن الآخر لا يعوض فالإنسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز طول الضعف سعى في اقتناء الكاسب
 لينتقم ما آتاه الله منها في تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الاعراض عنها قال الله تعالى فابتغوا
 عند الله الرزق وقد حصل له ذلك بغير سعي كالنظر المصلح للزراعة وأمثاله إلا أنها إنما تكون
 معينة ولا يد من سعيها كما يأتي فتكون له تلك الكاسب معاشاً إن كانت بتقدير الضرورة والحاجة
 ورياشاً ومنه ولا إن زادت على ذلك ثم إن ذلك الحاصل أو القسبي إن عادت منفعة على العبد

وحصلت له ثمرة من اتفاق في مصالحه وحاجته هي ذلك الرزق قل صلى الله عليه وسلم إنما لك من مالك ما أكلت فأفريت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت وإن لم ينفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة إلى المال الرزق أو التملك منه حيث يسعى العبد وفدته يسمى كسبا وهذا مثل الثروات فإنه يسمى بالنسبة إلى المال كسبا ولا يسمى رزقا إذ لم يحصل به منفعة وبالنسبة إلى الوارثين متى انتفعوا به يسمى رزقا وهذا حقيقة معنى الرزق عند أهل السنة وفداشته طاعة العزة في تسميته رزقا أن يكون بحيث يصح تملكه ولا يملك عند ولا يسمى رزقا وأخر جوار النسيب والحرمان كله عن أن يسمى شيء منها رزقا والله تعالى رزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر ويختص برحمته وهدايته من يشاء ولم يعم في ذلك جميع ليس هذا موضع يطهره ثم اعلم أن الكسب إنما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد إلى التحصيل فلا بد في الرزق من سعي وعمل ولو في تناول ما يفتقر منه وجوهه قال تعالى فأبغوا عند الله الرزق والسعي إليه إنما يكون بأقدار الله تعالى وإتمامه فكل من عند الله تعالى فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسب ومندول لأن كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلا بد فيه من العمل الإنساني كإتراء والام بحصول ولم يقع به انتفاع ثم أن الله تعالى خلق الحجرين والمعدنين من الذهب والفضة فيسب لئلا يتصور لها النخبة والفتنة لأهل العالم في الغالب وإن اتقى سواها في بعض الأحيان فأنما هو القصد لتحصيلها بما يقع في غيرها من حوالة الأسواق التي لها عنها يعمل فيها أهل المكسب والفتنة وإذا تقرر هذا كله فاعلم أن ما يبيده الإنسان ويقتنيه من الممولات إن كان من الصنائع فالمقادير التي منه قيمة عمله وهو القصد بالفتنة إذ ليس هناك إلا العمل وليس بمقصود بتعبه بالفتنة وقد يكون مع الصنائع في بعضها غير مماثل التجارة فالحاجة معها الحطب والقول إلا أن العمل فيها أكثر قيمته أكثر وإن كان من غير الصنائع فلا بد في قيمته ذلك المقادير والفتنة من دخول قيمة العمل الذي حصلت به إذ لو لا العمل لم تحصل قيمتها وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغر ثم وقد تخفى ملاحظة العمل كفي أسعار الأقوات بين الناس فإن اعتبار الاعمال والتفاوت فيها ملاحظة في أسعار الحبوب كما قدمناه لك مخفي في الأقطار التي علاج الفلح فيها مؤنته يسيرة فلا يشعر به إلا القليل من أهل الفلح فقد تبين أن المقادير والمكسبات كلها أو أكثرها إنما هي في الأعمال الإنسانية وتبين معنى الرزق وأنه المنفعة بقدر ما معنى الكسب والرزق وشرح مساهمهم واعلم أنه إذا اقتدت الأعمال أو قلت بانقاس العمران تأذن الله برفع الكسب لأنزوي إلى الأعمار القليلة الساكن كيف يشاء الرزق والكسب فيها أو بفتنة الأعمال الإنسانية وكذلك الأعمار التي يكون عمرها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالا وأشد رفاعة كما قدمناه قبل ومن هذا الباب تقول العامة في البلاد إذا تناقص عمراتها أنها قد ذهب رزقها حتى أن الأثرياء والعيون ينقطع جريها في القفر لما أن نور العيون إنما يكون بالأنباط والأمراء الذي هو بالعمل الإنساني كالحال في ضروع الأعمار فلم يكن أنباط ولا

امراء نصبت وغارت بالجملة كما يخفف الضرر اذا اثر كاعراضه والظفر في البلاد التي تعهد فيها العيون
لا يامحمراتها ثم ياتي عليها الخراب كيف تنور مياهها جملة كأنها لم تكن والله يقدر الليل والنهار

٢ فصل في وجود المعاش وأصنافه ومذاهبه

اعلم أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله وهو مفعول من العيش كأنه ما كان العيش
الذي هو الحياة لا يحصل إلا بهذه جعلت موضعاً له على طريق المبالغة ثم إن تحصيل الرزق وكسبه اما أن
يكون بأخذ من يد الغير وانزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مع ما وجبة واما أن
يكون من الحيوان أو حتى باقتناصه وأخذ من ميه من البر أو البحر ويسمى اصطياداً واما أن يكون من
الحيوان الداجن باستخراج فضوله المتصرفه بين الناس في منافعهم كالثدي من الأنعام والحرير من دوده
والعسل من نحلته أو يكون من النبات في الزرع والشجر بالقيام عليه واعداده لاستخراج ثمرة ويسمى
هذا كله فلحاً واما أن يكون الكسب من الأسمان الإنسانية في مواد معينة وتسمى الصنائع من
كتابة وتجارة وخياطة وحياكة وغروسية وأمثال ذلك أو في مواد غير معينة وهي جميع الامتيازات
والصرفات أن يكون الكسب من الصنائع واعدادها للأغراض إما بالطلب بها في البلاد
واحتكاكها وارتقاب حوالة الأسواق فيها ويسمى هذا تجارة فيده وجود المعاش وأصنافه وهي
معنا ما ذكره المختصون من أهل الأدب والحكمة كالطير وغيره فاتهم فلو المعاش أماوة وتجارة
وفلاحة وصناعة فأما الأمارة فليست بذهب طبيعي المعاش فلا حاجة بنا إلى ذكرها وقد تقدم
شيء من أحوال الحيوانات السطحية وأغلبها في الفص الثاني وأما الفلاحة والصناعة والتجارة
فهي وجود طبيعية للمعاش أما الفلاحة فهي متقدمة عليها كلها بالذات اذ هي بسيطة وطبيعية فطرية
لا تحتاج إلى نظر ولا علم ولهذا نسب في الخليفة لا آدم أي البشر وانه مصلها والقائم عليها اشارة إلى
أنها أقدم وجود المعاش وأنسبها إلى الطبيعة وأما الصنائع فهي تانيها ومتأخرة عنها لأنها مركبة
وعليه تصرف فيها الأفكار والألفاظ وهذا لا توجد غالباً إلا في أهل الحضرة الذي هو متأخر عن
البدو وثاني عنه ومن هذا المعنى نسب إلى إدريس الأب الثاني للخليفة فانه مستنبطها لمن بعده من البشر
بالوحي من الله تعالى وأما التجارة وإن كانت طبيعية في الكسب فلا كثر من طرقها ومذاهبها إنما
هي تحيلات في الحصول على ما بين القيمتين في الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من تلك
الفضلة ولذلك أباح الشرع فيه المكاباة لما أنه من باب المقامرة لأنه ليس أخذاً لئال الغير عبثاً فلهذا
اختص بالمشروعة

٣ فصل في أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعي

اعلم أن السلطان لا بد أن يأخذ الخدمة في سائر أبواب الأمارة والملك الذي هو بسبيله من الخدم
والشرطي والكاتب ويستكن في كل باب من يعلم غناه فيه ويتكفل بأرض اقيم من بيت داله وهذا كله

مندرج في الأمانة ومعاشها إذ كلهم ينسحب عليهم حكم الأمانة والمالك الأعظم هو بدووع جدواهم
وأما مادون ذلك من الخدمة فسيبها أن أكثر الترفيع يرفع من مباشرة سلطانه أو يكون عاجزا عنها
فأرى عليه من خلق التعم والترفع فيتحكم من يتولى ذلك لئلا يقطع عليه أجر من ماله وهذه الحالة
غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان إذ الشئ بكل أحد عجز ولا نهاز يد في الوظائف والخرج
وتدل على العجز والخس التي يفتي في مذاهب الرجولية التزه عنهما إلا أن العوائد تقلب طباع
الإنسان إلى مؤلفها فبو ابن عوانده لا ينسبه ومع ذلك فالخدم الذي يستكن ويوثق به بفائدة كالفقد
إذ الخديم القائم بذلك لا يعد وأربع حالات لما مضطلع بأمره وهو موثوق فيها يحصل بيده وأما بالعكس
فيها وهو أن يكون غير مضطلع بأمره ولا موثوق فيها يحصل بيده وأما بالعكس في إحداها فيحفظ مثل
أن يكون مضطلعا غير موثوق أو موثوقا غير مضطلع فأما الأول هو المضطلع الموثوق فلا يمكن أحد
استعماله بوجه إذ هو باضطراره وتلقه غي عن أهل الرب الدنية وعجزه عن المال الآخر من الخدمة
لا تداره على أكثر من ذلك فلا يستعمله إلا الأملأ أهل الخلد العريض لعموم الحاجة إلى الجاه وأما
الصف الثاني وهو ليس بظلم ولا موثوق فلا ينبغي إقامته استعماله لا تدينه في نفسه وفي الأمرين
معا فيضيع عليه لعدم الاضطرار تارة ويذهب ماله بالحيلة أخرى فهو على كل حال على مولاه فذان
انصافا لا يطمع أحد في استعمالها ولم يبق إلا استعمال العندين الآخرين وهو موثوق غير مضطلع ومضطلع
غير موثوق ولذا في الترتيب بينهما من كل من الترتيبين وجه إلا أن المضطلع ولو كان غير
موثوق أرجح لأنه يؤمن من تضيمه ويحاول على التحرر من حياته حيد الاستعانة وأما المضطلع وهو
كان مأمونا فضرره بالتضيم أكثر من نفعه فغير ذلك واتخذة قنونا في الاستكفاء بالخدمة والله
سبحانه وتعالى قدر على ما يشاء

٥ فصل في أن ابتغاء الأموال من الدقائق والكنوز ليس بمعاش طبيعي

إعلم أن كثير من ضعفاء العقول في الأمصار يحرسون على استخراج الأموال من تحت الأرض ويتفنون
الكسب من ذلك ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مخزنة كلها تحت الأرض غنوم عليها كلها
بظلام سحرية لا يقص ختامها ذلك إلا من عثر على غده واستحضر ما خله من البخور والبناء والقربان
فأهل الأمصار بأفريقية يرون أن الأفريقية الذين كانوا قبل الإسلام يهاذفوا أموالهم كذلك وأدعوها
في الصحف بالكتاب إلى أن يجدوا السبل إلى استخراجها وأهل الأمصار بالشرق يرون مثل ذلك
في أم القبط والروم والفرس ويناقضون في ذلك أحاديث شبيه حديث خرافة من انتهاء بعض الظالمين
لذلك إلى حفر موضع المالك من لا يعرف طلسمه ولا خبره فيجدون نخلها أو معمورا بالثريدان أو يشاهد
الأموال والجواهر موضوعة في الحرس دونها متصفين سيوفهم أو قنيد به الأرض حتى يظن ضفأ أو
مثل ذلك من الهذر وتجد كثير من طلبية البربر بالمغرب العاجزين عن المعاش الطبيعي وأسبابه يتقربون

أهل الدنيا بالآرزاق المتجزئة الخواشي أما بخطوط عجيبة أو بما يرجع بزعمهم منها من خطوط أهل الدقائق باعطاء الامارات عليها أما كتبها يبتغون بذلك الرزق منهم بما يشتهونهم على الحفر والطلب وعو هون عليهم بأنهم اغاحهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا من مال الحكام والعقوبات وربما تكون عند بعضهم فائدة أو غريبة من الاعمال السحرية عو بها على تصديق ما يوق من دعواه وهو يعزل عن السحر وحرقه فيولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الايدي على الاحتفال والنسر فيه بظلمات الليل غافة الرقباء وعيون أهل الدول فاذا لم يثر وا على شيء ردوا ذلك الى الجليل بالظلم الذي ختم به على ذلك المال يخادعون به أنفسهم عن اخفاق مطالبهم والذي يحمل ذلك في الغالب زيادة على ضعف العقل اغاهاو العجز على طلب المعاش بالوجود الطبيعية لكسب من التجارة والخلق والصناعة في طلبه بالوجود المتحرقة وعلى غير المجري الطبيعي من هذا وأمثاله يخرج عن السعي في الكسب ويركوا الى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب في تحصيله واكتسابه ولا يعرفون أنهم يوقعون أنفسهم بائقاء ذلك من غير وجه في نصب ومتاعب وجه شديد أشد من الا ولو يعرفون أنفسهم مع ذلك شال العقوبات وربما يحصل على ذلك في الا أكثر زيادة مترف وعو الله وخروجها عن حد النهاية حتى يفسد عنها وجود الكسب ومذايقه ولا تفي بمطالبها فاذا عجز عن الكسب بالمجري الطبيعي لم يجدوا حيلة في نفسه إلا التمسى وجود المال العظيم دفعة من غير كلفة ليقي له ذلك بالعوائد التي حصل في أسرها فيحرس على انفساء ذلك ويستمر في جهده ولهذا فأكبر من تراهم يحرمون على ذلك المترفون من أهل الدولة ومن سكان الامصار الكثير الترف المتبعة الا حوال مثل مصر وما في معناها تجد الكثير منهم معر من بائقاء ذلك وتحصيله ومسا لئال كيان عن شواذه كبحر صون على الكياء هكذا بلغني عن أهل مصر في مناوخته من يلتون به من طلبه انظار به عليهم يعرفون منه على دفين أو أكثر ويزيدون على ذلك البحث عن تقويم المياه لما يرون أن غالب هذه الاموال الدفينة كلها في بحاري النيل وأنه أعظم ما يستردفنا أو غنم تالفي تلك الآفاق وعمو عليهم أتعاب تلك الدفاتر المتعلقة في الاعتذار عن الوصول اليها بحرية النيل لترايد ذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه فيحرم من سامع ذلك منهم على ندوب الماء بالاعمال السحرية لتحصيل مبتغاه من هذه كلها بشأن البحر متوار نا في ذلك القطر عن أوليه فعلوهم السحرية وآثارها باقية بأرضهم في البراري وغيرها وقصة سحره فرعون شاعرة باقتصاصهم بذلك وقد تناقل أهل الغرب قصيدة ينسبونها إلى حكيم المشرق تعطى فيها كيفية العمل بالتغوير بصناعة سحرية حسبما تراه فيها وهي هذه

يا طالب السر في التغوير * اسمع كلام الصدق من خير
دع عنك ما قد منطوا في كتبهم * من قول بهتان ولفظ غرور
واسمع لصدق مقالتي وتصيحتي * إن كنت بما لا يرى بالزور
فاذا أردت تغوير البئر التي * حارت لها الأوهام في التدوير

صور كصور تلك التي أوقفها * والرأس رأس النور
ويدها ماسكتان للجبل الذي * في الدلو ياشل من قرار البير
ويصدره ماء كما عاينتها * عند الخلاق احذر من التكرار
ويطأ على الطآت غير ملامس * مشى اللبيب الكبس التحرر
ويكون حول الكل خط دائر * تريعة أولى من التكرار
واذبح عليه الطير والظن به * واقصده عقب الذبح بالتخير
بالسندورس وباللبان ومبعة * والقسط والبه شوب حرر
من أحمر أو أصفر لأزرق * لأخضر فيه ولا تكدير
ويشده خيطان صوف أبيض * أو أحمر من خالص التحمير
والطالع الأسد الذي قد يبوا * ويكون بدء الشهر غير مفير
والبير متصل بسعد عطارد * في يوم سبت ساعة الديبر

يعني أن تكون الطآت بين قدميه كأنه عشي عليها وعندى أن هذه القصيدة من تمويهاات المتخرفين
فلهم في ذلك أحوال غريبة وأحطلاحان غريبة وتذهي التخرفة والكذب بهم إلى أن يكونوا النازل
المهورة والدور المعروفة بمثل هذه ويخفون الحفر ويضعون الطابق فيها والشواهد التي يكونها
في هوائهم كذبهم ثم يقصدون ضمنا العقول أمثال هذا الصحائف ويعتقون على أكثره ذلك
المنزل ومكانه ويؤمنون أنه دفين من المال لا يعرف عن كثرة ويطلبون بالمال لا شراء العقاقير
والبحورات لحن الطلاس ويعدونه بظهور الشواهد التي قد أعدوها هنالك بأنفسهم ومن فعلهم
فبعضت لما رآه من ذلك وهو قد خضع وأبس عليه من حيث لا يشعر وبينهم في ذلك إصطلاح في كلامهم
يلبسون به عليهم ليحقي عندنا ورسمه فمما يتلوه من حفر ونحوه وذبحوا وان وأمثال ذلك وأما الكلام
في ذلك على الحقيقة فلا أصل له في علم ولا خبر وإنما أن الكون وإن كانت توجد لكها في حكم النادر على
وجدا اتفاق لا على وجه القصد اليها وليس ذلك بأمر نعم به البلوى حتى يدخر الناس أموالهم تحت الأرض
ويؤمنون عليها بالسلام لا في القدم بل في الحديث والركا الذي ورد في الحديث وفرضه الفناء وهو دفين
الجاهلية إنما يوجد العتور والاتفاق لا بالقصد والطلب وإنما من اخترن ماله وختم عليه بالانتمان البحرية
فقد بالغ في إحقاقه فكيف يصيب عليه الأدلة والآثار التي يتبعه ويكتب ذلك في الصحائف حتى يطلع
على دخرته أهل الأعصار والآفاق هذا يناقض قصد الاختفاء أيضا فإذ مال الغلاء لا بد وأن تكون لغرض
مقصود في الانتفاع والخزان المال فإنه يخزن لمولده أو قريته أو من يؤثره وأن يقصد ما أخفاه بالكلية
عن كل أحد وإنما هو للبلاء والمال لا يؤمن لا يعرفه بالكلية من سياتي من الآثم فهذا ليس من مقاصد
الغلاء بوجه * وأما قولهم أن أموال الآثم من غلنا وما علم فيها من السكرة والفور فاعلم أن
الأموال من الذهب والفضة والجمهر والآمنة إنما هي معادن ومكسب مثل الحديد والنحاس

والرماس وسائر العقارات والمعادن والعمران يظهرها بالأعمال الإنسانية ويزيد فيها أو ينقصها وما يوجد منها بأيدي الناس فهو متناقل متوارث شورعاً انتقل من قطر إلى قطر ومن دولة إلى أخرى بحسب أغراضه والعمران الذي يستعمله في المثل في الغرب وأفريقية فلم ينقص بلاد الصقالية والأفريقية وإن نقص في مصر والشام فلم ينقص في الهند والصين وإنما هي الآلات والكمال والعمران يوفرها أو ينقصها مع أن المعادن يسر كالبلاء كما يسر لوسائل الموجودات ويسرع إلى اللؤلؤ والجوهر أعظم مما يسرع إلى غيره وكذا الذهب والفضة والنحاس والحديد والرماس والتقصير إنما هي من البلاء والغناء ما يذهب بأعيانها لا قرب وقت وأما ما وقع في مصر من أمر الطالب والكنوز فسيبته أن مصر في ملك القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين وكأن موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجوهر والآلات على مذهب من تقدم من أهل الدول فلما انقضت دولة القبط وماتت الفرس بلادهم تفرروا على ذلك في قبورهم وكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم ما لا يؤسف كالأهرام من قبور الملوك وغيرها وكذا من اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد ويعبر على المدفين فيها في كثير من الأوقات إما يدفنونه من أموالهم أو ما يكرمون بموتاهم في الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة مع ذلك فسارت قبور القبط منذ آلاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها فقد ذكرني أهل مصر بالبحث عن الطالب لوجود ذلك فيها واستخرجوا حتى أنهم حين صيرت المكوس على الأصناف آخر الدولة ضربت على أهل الطالب وصدرت ضريبة على من يشتغل بذلك من الخلق والمبوسين فوجد بذلك المتطاولون من أهل الأقطار الدريعة إلى الكشف عنه والذرع باستحراجه وما حصلوا إلى الحية في جميع مساعيهم فعوذ بالله من الحسرة فيحتاج من وقته شيء من هذا الوسواس والفتنة بدأن يعوذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه كما تعود رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وينصرف عن طرف الشيطان ووسواسه ولا يشغل نفسه بالخلات والكاذب من الحكايات والله يرزق من يشاء بغير حساب

٥ ﴿ فصل في أن الجاه مفيد لغال ﴾

وذلك أنا نجد صاحب المال والحظوة في جميع أصناف المعاش أكثر يساراً وزوداً من فقد الجاه والسبب في ذلك أن صاحب الجاه غدوم بالأعمال يتقرب بها إليه في سبيل التزلف والحاجة إلى جاهه والناس معينون له بأعمالهم في جميع حاجاته من ضروري أو حاجي أو كلي فتحصل قيم تلك الأعمال كلها من كسبه وجميع مشأته أن تذلل فيه الأعوان من العمل يستعمل فيه الناس من غير عوض فتوفر قيم تلك الأعمال عليه فيو بين قيم الأعمال بكتبها وقيم أخرى تدعو الضرورة إلى إسائها فتتوفر عليه والأعمال لصاحب الجاه كثيرة فتفيد الغنى لا قرب وقت ويزداد مع الأيام يساراً وزوداً ولهذا المعنى كانت الأمانة أحد أسباب المعاش كما قدمناه وفقد الجاه بالكسبة ولو كان صاحب مال فلا

يكون يساره الإغفار ماله وعلى نسبة سعيه وهو لا يملك أكثر التبحر ولهذا نجد أهل أحوالهم
 يكونون أيسر بكثير ونما يشهد بذلك أننا نجد كثير من الفقهاء وأهل الدين والعبادة إذا اشتهر حسن الظن
 بهم واعتقد الجمهور معاملته الله في أرفقهم فأخص الناس في إعانتهم على أحوال دنياهم والاعتناء في
 مصالحهم أسرع عن اللهم الثروة وأصبحوا أيسر من غير ما لم يقتنى إلا ما يحصل لهم من قيم الأعمال
 التي وقعت المعونة بها من الناس لهم إذا من ذلك أعدادا في الأمصار والمدن وفي البدو ويسعى لهم
 الناس في القلح والتجر وكل قاعد بمنزله لا يبرح من مكانه فيسوم ماله ويعظم كسبه ويتأهل الغني من
 غير سعي ويعجب من لا يفتن لهذا السر في حال ثروته وأسباب غناه ويساره والله سبحانه وتعالى
 يرزق من يشاء بغير حساب

٦ فصل أن السعادة والكسب إنما يحصل غالبا لأهل الخضوع والتسليم وأن هذا الخلق من أسباب السعادة

قد سلف لنا فيما سبق أن الكسب الذي يستفده البشر إنما هو قيم أعمالهم ولو قدر أحد عطل عن العمل
 جهلا كان فقد الكسب بالكيفية على قدر عمله وشرفه بين الأعمال وحاجة الناس إليه يكون
 قدر قيمته وعلى نسبة ذلك ثم كسبه أو نقصانه وقد بينا أننا أن الجاهل يغيب الناس عن مصالحهم من
 تقرب الناس إليه بأعمالهم وأموالهم في دفع الضرر وجلب النافع وكان ما يقررون به من عمل أو مال
 عوضا عما يحصلون عليه بسبب الجاه من الأضرار في صالح أو ضار وتغير تلك الأعمال في كسبه
 وقيمتها أموال وثروة له فيستفيد الغني واليسار لا قرب وتم أن الجاه منوزع في الناس ومترتب
 فيهم طبقة بعد طبقة يتدرج في العلو إلى الملوكة الذين ليس فوقهم يد عالية في السفلى إلا من لا يملك ضرا ولا
 نفعا بين أبناء جنسه وبين تلك طبقات متعددة حكمتها الله في خلقه بما ينظم معاشهم وتيسر مصالحهم ويتم
 بقاؤه لأن النوع الإنساني لا يتم وجوده إلا بالتعاون وأنه وإن ندر فقد ذلك في صورة مفرودة لا يصح
 بقاؤه ثم إن هذا التعاون لا يحصل إلا بالكراه عليه فيهم في الأكثر بمصالح النوع ولما جعل لهم من
 الاختيار وإن أعمالهم إنما تصدر بالفكر والروية لا بالطبع وقد يمنع من التعاون فيعين عمله عليها فلا
 بد من حامل يكره أبناء النوع على مصالحهم لقم الحسنة الإلهية في بناء هذا النوع وهذا معنى قوله تعالى
 ورفعتنا بعضهم فوق بعض درجات ليختبرهم بهما خيرا ورحمة ربك خير مما يجمعون فقد تبين أن
 الجاه هو القدرة الشاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالأذن والمنع والتسلط
 بالقهر والغلبة ليحصلهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل بأحكام الشرائع والسياسة وعلى
 أغراضه فيما سوى ذلك وتكون الأول المقصود في العناية الربانية بالذات والثاني داخل فيها بالعرض كسائر
 الشرور الداخلة في القضاء الإلهي لأنه قد لا يتم وجود الخير الكثير إلا بوجود شر يسير من أجل أنوار
 فلا يفوت الخير بذلك بل يقع على ما يتطوّر عليه من الشر اليسير وهذا معنى وقوع الظلم في الخليقة

فتفهم ثم إن كل طبقة من طباق أهل العمران من مدينة أو إقليم لها قدرة على من دونها من الطباق
 وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد بشي الجاه من أهل الطبقة التي فوقه ويزداد كاسبه تصرفا فيمن
 تحت يده على قدر ما يستفيد منه والجاه على ذلك داخل على الناس في جميع أبواب المعاش ويتسع ويضيق
 بحسب الطبقة والطور الذي فيه صاحبها فإن كان الجاه مدعا كان الكسب الناشئ عنه كذلك وإن
 كان ضيفا قليلا فقله وفقد الجاه وإن كان له مال فلا يكون يساره إلا اعتداد عمله وأمواله ونسبة سعيه
 ذاهبا وآتيا في تنميته كما كثر التجار وأهل الفلاحة في الغالب وأهل الصنائع كذلك إذا قصدوا الجاه
 واقتصروا على فوائده صناعهم فانهم يصيرون إلى الفقر والحاجة أو في الأكثر ولا تسرع اليهم زوة
 وإنما يرثون العيش ثم يقاتلون يدافعون ضرورة الفقر مدافعة وإذا انقضى ذلك وأن الجاه متفرج وأن
 السعادة والخير مقترنان يحصل له علمت أن بذله وإفادته من أعظم النعم وأجلها وإن باذله من أجل
 للنعمين وإنما بذله لمن تحت يديه فيكون بذلك يدعى عليه وعزة فيحتاج طالبه ومنه إلى الخضوع وتعلق
 كما يسأل أهل العز والمهالك وإلا فيتعذر حصوله فلذلك قلنا أن الخضوع والتعلق من أسباب حصول هذا
 الجاه المحصل للعبادة والكسب وإن أكثر أهل الزوة والعبادة بهذا التعلق ولهذا نجد الكثير من
 يتخلق بالترفع والشحم لا يحصل لهم غير من الجاه فيقتصرون على التكسب على أمثالهم ويصيرون إلى
 الفقر والحاجة واعلم أن هذا الكبر والترفع من الأنحلاف المدمومة إنما يحصل من قوم الكمال
 وإن الناس يحتاجون إلى صناعة من علم أو صناعة كالعلم التجار في علمه أو الكاتب الهيد في كتابته
 أو الشاعر البليغ في شعره وكل عسى في صناعته يقوم أن الناس يحتاجون لما يده فيحدث له ترفع عليهم
 بذلك وكذا يتوهم أهل الأنساب من كان في آله ملك أو علم مشهور أو كمال في طور يعبرون بما رأوه
 أو سمعوه من حال آبائهم في المدينة ويتوهمون أنهم استحقوا مثل ذلك بقرابته اليهم ووراثتهم عنهم فهم
 مستمسكون في الجاه بالامر المعلوم وكذلك أهل الحيلة والبصر والتجارة بالأمور قديتهم بعضهم
 كمالا في نفسه بذلك واحتياجه إليه وتبعده هؤلاء الأنصاف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب الجاه ولا
 يتعلقون لمن هو أعلى منهم ويستصغرون من سواهم لا اعتقادهم الفضل على الناس فيستكف أحدهم عن
 الخضوع ولو كان للمالك ويعدده مثلا وهو أنا وسبقا ويحاسب الناس في معاملتهم إياه بمقدار ما يتوهم
 في نفسه ويحقد على من قصر له في شيء مما يتوهم من ذلك ويرغب يدخل على نفسه المعلوم والآثران من
 تقصيرهم فيه ويستمر في غناء عظيم من إيجاب الحق لنفسه أو إياهم من الناس له من ذلك ويحصل له المقت
 من الناس لما في طباع البشر من التأله وقد أن يسمي أحدهم لا يجد في الكمال والترفع عليه إلا أن يكون
 ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة وهذا كله في ضمن الجاه فإذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه وهو
 مفقود له كما تبين لك مقتته الناس بهذا الترفع ولم يحصل له حظ من إحصائهم وقد الجاه لذلك من أهل
 الطبقة التي هي أعلى منه لا جل القوت وما يحصل له بذلك من العتود عن تعاهدهم وغشيان منازلهم ففسد
 معاشه وبقي في خصاصة وفقر أو فوق ذلك بقليل وأما الثروة فلا تحصل له أصلا ومن هذا الشتر بين الناس

أن الكامل في المعرفة عروم من الخط وإنه قد حوسب بالرزق من المعرفة وانتطع له من ذلك من الخط وهذا معناه ومن خلق شيء يسره والله قادر لأرب سواه ولقد يقع في الدول اضطراب في المراتب من أهل هذا الخلق ويرتفع فيها كثير من السفلة وينزل كثير من العلية بسبب ذلك وذلك أن الدول إذا بلغت نهايتها من التغلب والاستيلاء انفرد منها منبت الملك على حكمهم وسلطانهم وينس من سواهم من ذلك وإنما صاروا في مراتب دون مرتبة الملك وتحب يد السلطان وكأنهم خول له فإذا استمرت الدولة وشمخ الملك تساوى حينئذ في المراتب عند السلطان كل من انسى إلى خدمته وتقرب إليه بنصيحة واصطنعه لغناؤه في كثير من مهماته فتجد كثيرا من السوقة يسعى في التقرب من السلطان يحدد ونصحه ويتزلف إليه بوجود خدمته ويدعين على ذلك بعضهم من الخسوع والتلفي له ولخاصيته وأهل نسبه حتى يرضع قدمه معهم وينظمه السلطان في جملة فيحصل له بذلك حظ عظيم من السامدة وينظم في عدد أهل الدولة وتأسيس الدولة حيث يخدم من أبناء قومه الدين والادب أضغانهم ومهدوا أكتافهم مغفرون بما كان لأبائهم في ذلك من الآثام تسحب به شوهمهم على السلطان ويعدون بأنهم لا يتعدون يقدم ولا ينهون إلى ذلك ولا ترفع إماراتهم الخسوع لله والتعلق بالأعتال في غرضه متى ذهب إليه فيجمع جاههم وتعلم منازلهم وتصرف إليهم الوجوه والحواسل بما يحصل لهم من قبل السلطان والسكينة عنده ويبقى ناشئة الدولة فيهم فيه من الترفع والاعتداد بالتقدم لا يزيد ذلك إلا بعدا من السلطان ومقتوا ائثارا هؤلاء الصاعطين عليهم إلى أن تنقض الدولة وهذا أمر طبيعي في الدولة ومنه جاء شأن الصاعطين في الغالب والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لأرب سواه

٧ فصل في أن القائمين بأمر الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة

والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب

والسبب لذلك أن الكسب كافد مناهضة الأعمال وأنها متغلوفة بحسب الحاجة إليها فإذا كانت الأعمال ضرورية في العمران عامة البلوي به كانت قيمتها أعظم وكانت الحاجة إليها أشد وأهل هذه البضائع الدينية لا تنظر إليهم عامة الخلق وإنما يحتاج إلى ما عندهم الحواس من قبل على دينه وإن احتجج إلى الفتيا والقضاء في الخصومات فليس على وجه الاضطراب والعموم فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأكر وأما بهم بأقله مراسم صاحب الدولة بماله من النظم في المساع فيقسم له حظا من الرزق على نسبة الحاجة إليهم على النحو الذي قررناه لا يساوهم بأهل الشوك ولا بأهل الصنائع من حيث الدين والمراسم الشرعية لكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العمران فلا يصح في قسمهم إلا القليل وهم أيضا الشرف بضاعتهم أغزة على الخلق وعند نفوسهم فلا غشعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظا يستدرون به الرزق بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك تمام فيهم من الشغل بهذه البضائع الشريفة المشتملة

على أعمال الفكر والبدن بل ولا يسعهم ابتذال أنفسهم لانهل الدنيا لشرف بضائعهم فهم يعزل عن ذلك فذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب ولقد باحثت بعض الفضلاء فنكر ذلك على فوق يدي أوراق عرفة من حسابات الدواوين بدار المؤمنين نشتم على كثير من الدخيل والخرج وكان فيها طالعت فيه أرزاق القضاة والائمة والمؤذنين فوففته عليهم وعلم منه حجة ما قلته ورجع اليه وقضينا العجب من أسرار الله في خلقه وحكمته في عوالمه والله الخالق القادر لأرب سواه

٨ ﴿ فصل في أن الفلاح من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو ﴾

ولذلك أبدأ أصل في النسيئة وبسيط في منجاة ولذلك لا أجدد بفتح أحد من أهل الحضر في الغالب ولا من المترفين ويخص منتهى بل لا تقل صلى الله عليه وسلم وقدر أي السكة بعض دور الانصار ما دخلت هذه دار قوم الا دخله الله وحمله البخاري على الاستكثار منه وترجم عليه باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بالآزرع أو تجاوز الحد الذي أمر به والرب فيه والله أعلم - ما يتبعها من الغرم المفضي إلى التحكم واليد العالية فيكون الغار مذللاً بأساما تناوله أيدي القهر والاستغلال على صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرماً بالشارية إلى الملك العضوض القاهرة للناس انتهى معه التسلط والجور ونسيان حقوق الله تعالى في التمولات واعتبار الحقوق كلها مغرماً بالملوك والدون والله قادر على ما يشاء والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٩ ﴿ فصل في معنى التجارة ومداعبها وأساليبها ﴾

اعلم أن التجارة محاولة الكسب بنسيئة المال بشراء السلع بالرخس وبيعها بالغلاء أي بما كانت السلعة من رقيق أو زرع أو حيوان أو قماش وذلك القدر الثاني يسمى ربحاً والمحاولة لذلك الربح إما أن يخرجن السلعة ويتحين بها حوالة الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه وإما بأن ينقله إلى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلد الذي اشتراها فيه فيعظم ربحه ولذلك فإن بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة أنا علمها لك في كتبتين اشتراء الرخص وبيع الغالي فقد حصلت التجارة إشارة له بذلك إلى المعنى الذي قررناه والله سبحانه وتعالى أعز وبه التوفيق لأرب سواه

١٠ ﴿ فصل في أي أصناف الناس يحترف بالتجارة وأيهم ينبغي له اجتناب حرفياً ﴾

قد قدمنا أن معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأغلى من ثمن الشراء إما بانتظار حوالة الأسواق أو نقلها إلى بلد ذي أغلى وأغلى أو بيعها بالغلاء على الآجال وهذا الربح بالنسيئة إلى أصل المال يسير إلا أن المال إذا كان كثيراً أعظم الربح لأن القليل في الكثير كثير ثم لا بد في محاولة هذه التنمية من حصول هذا المال بأيدي الباعة بشراء البضائع وبيعها ومعاملتهم في تقاضي أثمانها وأهل النسبة قليل فلا بد من الغش والتطيف والجعف بالبضائع ومن المثل في الانحياز الجعف بالربح كتمطيل الخواص في تلك المدة وماؤه ومن الجحود والانكار السحت لرأس المال إن لم ينفد بالكتاب والشهادة

وغياء الحكم في ذلك قليل لأن الحكم إنما هو على الظاهر فيعاني التاجر من ذلك أحوال أصعب ولا يكاد يحصل على ذلك النافه من انزعج إلا بعظم العناء والشقة أو لا يحصل أو يتلشى رأس ماله فإن كان جريئاً على الخصومة يصير بالحسبان شديداً لما حكمة مقدما على الحكم كان ذلك أقرب له إلى النصفة بحراة منهم ومما حكته وإلا فلا بد له من جاء يدرع بدفعه إليه القيمة عند الباعة ويحمل الحكم على انصافه من معاملاته فيحصل له بذلك النصفة في ماله ولو عا في الأول وكرها في الثاني وأما من كان فاقه الجراءة والاقدام من نفسه فقد لا يجد من الحكم فيعني له أن يحتجب الاحتراف بالتجارة لأنه يعرض ماله للضياع والتهريب ويصير مأكلة للباعة ولا يكاد ينتصف منهم لأن الغالب في الناس وخصوصاً الرعايا والباعث هو أن يلقى أيدي الناس سواء تموتون عليه ولو لا انزعج الأحكام لما أصبحت أموال الناس نهبا ولو لا دفع الله الناس بعضهم بعضا لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين

١١ فصل في أن خلق التجار نارلة عن خلق الأشراف والملوك

وذلك أن التجار في غالب أحوالهم إنما يعانون البيع والشراء ولا بد فيه من الكفاية ضرورة فإن اقتصر عليها اقتصر تبه على خلقها وهي أغنى خلق الكفاية بعدد من الثروة التي تتخلق بها الملوك والأشراف وأما إن استرذل خلقه بما يتبع ذلك في أهل الطبقة السفلى منهم من الماحكة والغش والخلافة وتعاهد الأيمان الكاذبة على الأيمان رداً وقبولاً فأجدر بذلك الخلق أن يكون في غاية المذلة ناهو معروف ولذلك تجد الرياسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة لا أجل ما يكسب من هذا الخلق وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحامله شرف نفسه وكرمه جلالة إلا أنه في النادر بين الوجود والله يهدي من يشاء بفضله وكرمه وهورب الأولين والآخرين

١٢ فصل في نقل التاجر للسلع

التاجر البصير بالتجارة لا يشغل من السلع إلا ما تكفي الحاجة إليه من الغنى والفقر والسلطان والسوقة إذ في ذلك اتفاق سلعته وأما إذا احتضن قلدها محتاج إليه البعض فقط فقد يتعذر اتفاق سلعته حينئذ بأعواز الشراء من ذلك البعض لعارض من العوارض فتكسد سوقه وتفسد أرباحه وكذلك إذا نقل السلعة المحتاج إليها فأتا ينقل الوسط من صنفها فإن العالي من كل صنف من السلع إنما يختص به أهل الثروة وحاشية الدولة وهم الأقل وإنما يكون الناس أسوة في الحاجة إلى الوسط من كل صنف فليتحري ذلك جهده فقيه اتفاق سلعته أو كسادها وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو في شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحاً أو كقل بحالة الأسواق لأن السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة أبعد مكانها أو شدة الضرر في طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها وإذا قلت وعزت غلت أثمانها وأما إذا كان البلد قريب المسافة والطريق سائلاً بالأمس فانه حينئذ يكثر ناقلوها فتكثر وترخص أثمانها ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالسحور إلى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم

أموال البعده غير قيم ومشتته واعتراض المفارقة للصحة الخطورة بالخوف والعطش لا يوجد فيها الماء إلا في أماكن معلومة يهتدى إليها أدلاء الزكيات فلا يرتكب خطيئة هذا الطريق وبعده إلا الأقل من الناس فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختص بالغلاء وكذلك سلعنا لديهم فتعظم بضائع التجار من تناقلها ويسرع اليهم الغنى والثروة من أجل ذلك وكذلك يسافرون من بلادنا إلى المشرق بعد الثقة أيضا وأما أنت ددون في أفق واحد مابين أمصاره وبلداته فثقتهم قليلة وأرباحهم تافهة لكثرة السلع وكثرة تناقلها والله هو الرزاق ذو القوة المتين

١٣ ﴿ فصل في الاحتكار ﴾

وما اشتهر عند ذوى البصر والتجربة في الأمصار أن احتكار الزرع والحبين أوقات الغلاء مشؤم وأنه يعود على الزارع بالتلف والخسران وسببه والله أعلم أن خباياهم إلى الأقوات مضطرون إلى ما يذنون فيها من المال اضطرارا فبقى النفوس متعلقة بدوى تعلق النفوس باللهاسر كبير في وئاله على من يأخذه يمانوا ولعله الذي اعتبره الشارع في أخذ أموال الناس بالباطل وهذا وإن لم يكن نكاحا فالنفوس متعلقة به لاعطائه ضرورة من غير سعة في العذر فهو كالسكره وماعدا الأقوات والمأكولات من المبيعات لا يضطرر الناس إليها وإنما يعظم عليها الضيق في التصورات فلا يذنون أموالهم فيها إلا باختيار وحرس ولا يبقى لهم تعلق بما أعطوه فلهذا يكون من عرف بالاحتكار تجتمع القوى النفسانية على متابعتها لما يأخذ من أموالهم فيفسد بخدمه والله تعالى أعلم * وصحت فيما يناسب هذا حكاية غريبة عن بعض مشيخة المغرب أخبرني شيخنا أبو عبد الله الأبلق قال حضرت عند القاضي بفاس لعبد السلطان أبي سعيد وهو الفقيه أبو الحسن المليقي وقد عرض عليه أن يختار بعض الألقاب الخيرية لجزائره قال فأطرق مليا ثم قال لهم من مكس الخمر فاستضعف الحاضرون من أصحابه وعجبوا أو سألوه عن حكمة ذلك فقال إذا كانت الجبايات كلها حراما فما يختار منها ما لا يتابعه نفس معطية والخمر قل أن يندل فيها أخدمائه إلا وهو طرب مسرور بوجدانه غير أسف عليه ولا متعلقة به نفسه وهذه ملاحظة غريبة والله سبحانه وتعالى يعلم ما تكن الصدور

١٤ ﴿ فصل في أن رخص الأسعار مضر بالمحترفين بالرخيس ﴾

وذلك أن الكسب والمعاش كما قد مناه إمامهم بالصنائع أو التجارة أو التجارة هي شراء البضائع والبيع وإدخالها يتحين بها حوائج الأسواق بالزيادة في أثمانها ويسمى رخصا ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة إذا ما فإذا استدبر الرخص في سلعة أو عرض من مأكول أو ملبوس أو متمول على الجملة ولم يحصل للتاجر حوائج الأسواق فسد الرخخ والماء يطول تلك المدة وكسدت سوق ذلك الصنف فتعد التجار عن السعي فيها وفسدت رؤس أموالهم واعتبر ذلك أولا بالزرع فلهذا إذا استدبر رخصه يفسد به حال المحترفين بسائر أطواره من الفلح وازرع لقلعة الرخخ فيه وندارته أو فقهه فيفقدون الثماني في أموالهم أو يحدون على قلته ويعودون بالاشفاق على رؤس أموالهم وتفسد أحوالهم ويصرون إلى

الفقر والخصاصة ويبيع ذلك فساد حال المحترفين أيضاً بالطين والخبز وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحرت إلى صيرورته ما كولا وكذا يفسد حال الجند إذا كانت أرزاقهم من السلطان على أهل الفلح زرعاً فأنها تقتل حياتهم من ذلك ويعجزون عن إقامة الجديف التي يبيعونها ومطالبون بها ومنقطعون عما قصدوا من المم وكذا إذا استديم الرخص في السكر أو العسل فسد جميع ما يتعلق به وقعدا المحترفون عن التجارة فيه وكذا اللبوسات إذا استديم فيها الرخص ففاد الرخص المقرط يذهب بعاش المحترفين بذلك الصنف الرخص وكذلك الغلام المقرط أيضاً وانما معاش الناس وكسبهم في النوسط من ذلك وسرعة حوالة الأسواق وعلى ذلك يرجع إلى العوالم المتفرقة بين أهل العمران وانما يحمدهم الرخص في الزرع من بين البيعات لعموم الحاجة اليه واضطرار الناس إلى الأقوات من بين الغنى والفقير والعالة من الخلق لا أكثر في العمران فعم الرقي بذلك ويرجع بنائب القوتى على جانب التجارة وفى هذا الصنف الخاص والله الرازق دى القوة المتين والله سبحانه وتعالى رب العرش العظيم

١٥ فصل فى أن خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء، ويعيد من المروءة

قد قدمنا فى الفصل قبله أن التاجر مدفوع إلى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والأرباح ولا بد فى ذلك المكايبة والمحاكمة والتخلى وتجارة الخصومات والحاجج وهي عوارض هذه الحرفة وهذه الأوصاف نقص من الركا والمروءة ونخرج فيها لائق الأفعال لا بد من عود آثارها على النصيب فافعال الخير تعودياً آثار الخير والركاء وأفعال الشر والسففة تعود بضد ذلك فتتمكن وترسخ إن سبقت وتكررت وتنفذ خلال الخير إن تأخرت عنها بما ينطبع من آثارها المذمومة فى النفس شأن الملكات الناشئة عن الأفعال وتتفاوت هذه الآثار بتفاوت أسواق التجار فى أحوالهم من كان منهم سافل التطور عالفا لا شرار الباعة أهل الغنى والحلاية والفجور فى الأثمان اقراروا انكارا كانت رداءة تلك الخلق عنه أشد وغلبت عليه السففة ويعود من المروءة واكتسابها بالثقة والأفلا بد من تأثير المكايبة والمحاكمة فى مروءته وفقدان ذلك منهم فى الجملد وجود الصنف الثانى منهم الذى قدمناه فى الفصل قبله أنهم يدعون بالجاه ويعوض لهم من مباشرة ذلك فهم نادر وأقل النادر وذلك أن يكون المال قد يوجد عنده دفعة بنوع غريب أو ورثة عن أحد من أهل بيته حصلت له ثروة معينة على الاتصال بأهل الدولة ونكسبه فلهو أو شهرة بين أهل عصره فيرتفع عن مباشرة ذلك بنفسه ويدفعه إلى من يقوم له من وكلائه وحشمه ويسهل له الحكم النصفة فى حقوقهم بما يؤمن به واثقاً فيعبدون عنه تلك الخلق بالبعد عن معاناة الأفعال المفضية لها كما فتكون مروءتهم أرسخ وأبعد عن تلك الحاجة إلا ما يسرى من آثار تلك الأفعال من وراء الحجاب فأنهم يضطرون إلى مشاركة أحوال أولئك ووفائهم أو خلافهم فيما يأتون أو يذرون من ذلك إلا أنه قليل ولا يكاد يظهر أثره والله خلقكم وما تعملون

١٦ فصل في أن الصنائع لا بد لها من المعلم

(اعلم) أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري ويكونه عملها هو جساني محموس والأحوال الجسانية المحسوسة ثقلها بالباشرة أو عب لها أو أكل لأن المباشرة في الأحوال الجسانية المحسوسة آتم فائدة والمملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته وعلى نسبة الأصل تكون للملكة ونقص العائنة أو عب وأثم من نقل الخبر والعلم فللملكة الحاصلة عنه أكل وأرسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حق حذق المعلم في الصناعة وحصول ملكتهم أن الصنائع منها البسيط ومنها المركب والبسيط هو الذي يختص بالضروريات والمركب هو الذي يكون للسكالات والتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته أولا ولأنه مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله فيكون سابقا في التعليم ويكون تعليمه لذلك ناقصا ولا يزال الفكر يخرج أصنافا ومركباتها من القوة إلى الفعل بالاستبطان شيئا فشيئا على التدرج حتى تكمل ولا يحصل ذلك دفعة وإنما يحصل في أزمان وأجيال إذ خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة لأسباب في الأمور الصناعية فلا بد له أذن من زمان ولهذا تجد الصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها إلا البسيط فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع خرجت من القوة إلى الفعل وتنضم الصنائع أيضا إلى ما يختص بأمر المعاش ضروريا كان أو غير ضروري وإلى ما يختص بالآسكات التي هي خاصة الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة ومن الأول الحياكة والحرازة والنجارة والحداقة وأمثالها ومن الثاني الوراقة وهي معانة الكتب بالانساخ والتجليد والقناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك ومن الثالث الجندية وأمثالها والله أعلم

١٧ فصل في أن الصنائع إنما تكمل بحال العمران الحضري وكثرته

والسبب في ذلك أن الناس ما لم ينسوف العمران الحضري وتتمدين المدينة إنما هم في الضروري من المعاش وهو تحصيل الأقوات من الحنطة وغيرها فإذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه صرف الزائد حينئذ إلى السكالات من المعاش ثم إن الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية فهو مقدم لضروريته على العلوم والصنائع وهي متأخرة عن الضروري وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنيق فيها حينئذ واستحادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة وأما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجار أو حداد أو خياط أو حائك أو جرار وإذا وجدت هذه بعده فلا توجد فيه كاملة ولا مستحادة وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة إذ هي كلها وسائل إلى غيرها وليست مقصودة لذاتها وإذا زخر عمر العمران وطلبت فيه السكالات كان من جملة التأنيق في الصنائع واستحادتها فكملت بجميع متعتها

وتزايدت صنائع أخرى معها لما تدعو اليه عوائل الترف وأحواله من حزاز وديباغ وخرار وصافغ
وأمثال ذلك وقد تنطوي هذه الأصناف إذا استبحر العمران إلى أن يوجد منها كثير من الكمالات
والتألق فيها في الغاية وتكون من وجوه المعاش في المصر منتطبا بل تكون فائدتها من أعظم
من فوائد الأعمال لما يدعو اليه الترف في المدينة مثل الدهان والصفار والطحى والطبخ والسفاح
والهراس ومعهم الغناء والرقص وفرع الطبول على التوقيع ومن الوراقين الذين يعانون صناعة انساخ
الكتب وتجليدها وتصحيحها فإن هذه الصناعة إنما يدعو اليها الترف في المدينة من الاشتغال بالأعمال
الفكرية وأمثال ذلك وقد تخرج عن الحد إذا كان العمران خارا جاعا من الحد كما بلغنا عن أهل مصر
أن فيهم من يعلم الطيور العجم والحجر الأجنبي وتخييل أشياء من العجائب بأبصارهم لا عيان وتعليم الحداء
الرقص والشئ على الحيوط في الهواء ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك من الصنائع
التي لا توجد عندنا بالمغرب لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة أدام الله عمرهما بالسلامين

١٨ فصل في أن رسوم الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعمران وألوان والعوائد إنما ترسخ بكثرة
التكرار وطول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الأجيال وإذا استحكمت الصبغة عسر نزعها ولهذا
نجد في الأمصار التي كانت استبحرت في الحضارة آثارا راجع عمراتها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه
الصنائع ليست في غيرها من الأمصار المستحدثة العمران ولو بلغت مبالغها في الوفور والكثرة
وما ذاك إلا لأن أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الأمد خاض وتداول الأحوال
وتكرر هاو هذه لم تبلغ الغاية بعد وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد فأنما تجد فيها رسوم الصنائع فائقة
وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو اليه عوائدها من مصارها كتاباني والطبخ وأصناف الغناء
واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنشيد الفرش في القصور وحسن الترتيب والأوضاع في البناء
وصوغ الآنية من العادن والحرف وجمع المواضع وإقامة الولائم والأعراس وسائر الصنائع التي يدعو
اليها الترف وعوائده فنجد أقوم عليها وأبصر بها ونجد صنائعها مستحكمة لديهم فهم على حصة موفورة
من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار وإن كان عمراتها قد تناقص والكثير منه لا يلاوى عمران
غيرها من بلاد العدو وما ذاك إلا لما قدمناه من رسوم الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية وما قبلها
من دولة القوط وما بعدهما من دولة الطوائف التي هم جرا فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم يبلغه في قطر
إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضا لطول أمد الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع وكلت
جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران لا تتأرقه إلى أن ينتقص
بالكلية حال الصبغ إذا رسخ في الثوب وكذا أيضا حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول
الصنهاجية والوحدين من بعدهم وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الأحوال وإن كان ذلك

دون الأندلس لأنه منضع برسوم منها تنقل إليها من مصر لقرى المسافة بينهم ما تورد المسافرون من قنطرة إلى قطر مصر في كل سنة وربما سكن أهلها هناك عصور فينقلون من عوائد ترفيم ومحكم صنائعهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه ومن أحوال الأندلس لما أن أكثر ساكنيها من شرق الأندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة ورسخ فيها من ذلك أحوال وإن كان عمراتها ليس يتناسب لذلك لهذا العهد الآن الصبغة إذا استحكمت قليلا ما تحول الأبروال عليها وكذا نجد بالغرب وإن ومرا كثر وقلعة ابن حماد أثر باقيا من ذلك وإن كانت هذه كلها اليوم خرابا أو في حكم الخراب ولا يظن لها إلا التدمير من الناس فيجد من هذه الصنائع آثارا تدل على ما كان بها كآثار الخط الممحو في الكتاب والله الخلاق العليم

١٩ ﴿فصل في أن الصنائع إنما تستجد وتكثر إذا كثر طلبها﴾

والسبب في ذلك تناقص وجو أن الإنسان لا يسمع بعمله أن يقع عبثا لأنه كسبه ومته معاشه إذ لا فائدة له في جميع عمره في شيء مما سواه فلا يصرفه إلا قيمة في مصره ليعود عليه بالنفع وإن كانت الصناعة مطلوبة توجه إليها اتفاق كانت حينئذ الصناعة بمثابة السعة التي تنفق سوقها وتطلب للبيع فتجده الناس في المدينة تعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم وإذا تمكن الصناعة بطوبى لم تنفق سوقها ولا يوجه قصد إلى تعلمها فاختصت بالترك ونقصت للأعمال ولهذا يقال عن علي رضي الله عنه قيمة كل امرئ ما يحسن بمعنى أن صناعته هي قيمة أي قيمة عمله الذي هو معاشه وأيضافنا سر آخر وهو أن الصنائع واحداً إنما تطلبها الدولة وهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات إليها ما لم تطلبه الدولة وإنما بطلبها غيرها من أهل المصر فليس على نسبتها لأن الدولة هي السوق الأعظم وفيها اتفاق كل شيء والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة فما غرق منها كان أكثر باضرورة والسوق وإن طلبوا الصناعة فليس طلبهم يعلم ولا سوقهم يتفقوا والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء

٢٠ ﴿فصل في أن الأضرار إذا قربت الخراب انتفعت منها الصنائع﴾

وذلك لما بينا أن الصنائع إنما تستجد إذا احتيج إليها وكثر طلبها وإذا ضعفت أحوال المصر وأخذ في الهرم بانتفاض عمراته وقنصا كنه تناقص فيه الترف ورجعوا إلى الاقتصاد على الضرورى من أحوالهم فنزل الصنائع التي كانت من توابيع الترف لأن صاحبها حينئذ لا يصح له بهام معاشه فيصرفها أو يموت ولا يكون خلف منه فيذهب رسم تلك الصنائع جملة كما يذهب النقاشون والصواغ والكتاب والنساخ وأمثالهم من الصنائع لحاجات الترف ولا تزال الصنائع في النقص ما زال المصر في النقص إلى أن تضمحل والله الخلاق العليم سبحانه وتعالى

٢١ ﴿فصل في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع﴾

والسبب في ذلك أنهم أكثر في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها

والعجم من أهل المشرق وأم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها لأنهم أعرق في
 العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه حتى أن الذين أتت العرب على التوحش في القفر
 والأعراق في البدو منقودة قلوبهم بالجملة ومفقودة مراعيها والزمان الدينة لتأجها ولهذا نجد أوطان
 العرب وما ملكتهم في الإسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب يديه من قطر آخر وانظر بلاد العجم
 من الصين والهند وأرض الترك وأم النصرانية كيف استكثرت فيها الصنائع واستجلها الأمم من
 عديم وعجم المغرب من البربر مثل العرب في ذلك لرؤسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين ويشهد
 لك بذلك قلة الأصناف القطر كما قدمناه فلصانع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكة إلا ما كان
 من صناعة الصوف من نسجه والجلد في خروجه ودفعه فأنهم لما استحضروا بلغوا فيها البالغ العموم
 البلوى بها وكون هذين أغلب السلع في قطرهم لما غلب عليهم من حال البداوة وأما المشرق فقد رست
 الصنائع فيه منذ ملك الأمم الأقدمين من الفرس والبط والنبط وبنو إسرائيل ويونان والروم
 أحقابا متطاولة فرسخت فيها أحوال الحضارة ومن جملة الصنائع كما قدمناه فلم يبع رخصتها وأما
 اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وأن ملكت العرب إلا أنهم تداولوا ملكة آلهم من السنين في
 أم كثيرين منهم واختلفوا أمصاره ومنه وبلغوا الغاية من الحضارة والترف مثل عاد وثمود والعاقلة
 وحمر من بعدهم والتابعة والأذواء فثلك أمد الملك والحضارة واستكثرت صيغتها وتوفرت
 الصنائع ورست علم بلبله دولة كما قدمناه فبقيت مستعدة حتى الآن واخصت بذلك الوطن
 كصناعة النسي والقصب وما يستجد من حول الثياب والحرير فيها والله وأرض ومن عليها
 وهو خير الوارثين

٢٢ فصل فيمن حصلت له ملكة في صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة في أخرى

ومثال ذلك الخياط إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورست في نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة
 التجارة أو البناء إلا أن تكون الأولى في حكم بعد ولم ترسخ صيغتها والسبب في ذلك أن الملكات
 صفات النفس وألوان فلا تزدهم دفعة ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعدادا
 لحصولها فلذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعفت فيها الاستعداد بالكون
 الخاص من هذه الملكة فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف وهذا بين بشهادة الوجود فقل أن
 يجيد صاحب صناعة يحكمها ثم يحكم من بعدها أخرى ويكون فيها معا على رتبة واحدة من الاجادة حتى
 أهل العلم الذين ملكهم فكريه فهم بهذه المثابة ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجادها في
 الغاية فقل أن يجيد ملكة علم آخر على نسبه بل يكون مقصرا فيه إن طلبه إلا في الأقل النادر من
 الأحوال ومبني سببه على ما ذكرناه من الاستعداد وتلونه بلون الملكة الخاصة في النفس والله سبحانه
 وتعالى أعلم وبه التوفيق لأرب سواه

٢٣ ﴿ فصل في الإشارة إلى أمهات الصنائع ﴾

(اعلم) أن الصنائع في النوع الانساني كثيرة فكثرة الاعمال المتداولة في العمران فهي بحيث
تقتضي الحصر ولا يأخذها العقل إلا أن منها ما هو ضروري في العمران أو شريف بالموضوع فنخصها
بالذكر ونترك ما سواها فاما الضروري فالفلاحة والبناء والحياطة والسجادة والحياكة وأما الشريفة
بالموضوع فكانت وليد الكتابة والوراقة والغناء والطب فأما التوليد فمما هو ضروري في العمران وعامة
البشر إذ بها تحصل حياة المولود ويتم غالبا وموضوعها مع ذلك المولدون وأبائهم وأما الطب فيكون
حفظ الصحة للإنسان ودفع المرض عنه ويخرج عن غم الطبيعة وموضوعه مع ذلك بدن الإنسان وأما
الكتابة وما يتعلق من الورقة فهي حاوية على الإنسان حاجته ومفيدة لها عن البيان ومبلغتها
النفس إلى البعد القابل وغلبة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف ورافعة رتب الوجود والمعاني وأما الغناء
فهو نسب الأصوات ومظهر جماله للاستماع وكل هذه الصنائع الثلاثة دافع إلى مناقلة الملوك الأعظم في
خلواتهم ومجالس أنسهم فلها بذلك شرف ليس لغيرها وما سوى ذلك من الصنائع فتابعة وممثلة في
الغالب وقد يختلف ذلك باختلاف الأغراض والدواعي والله أعلم بالصواب

٢٤ ﴿ فصل في صناعة الفلاحة ﴾

هذه الصناعة شريها اتحاد الأقوات والخبوب بالقيام على إثارة الأرض لها وإزديادها وعلاج
نباتها وتعبئها بالنقى والتنمية إلى بلوغ غايته ثم حصاد ما ينبت واستخراج حبه من غلافه واحكام الاعمال
لذلك وتفصيل أسبابه ودواعيه وهي أقدم الصنائع من أن يكون لها محصلة للقوت الشكلى لحيات الإنسان غالبا
إذ يمكن وجوده من دون جميع الأشياء إلا من دون القوت ولهذا اختصت هذه الصناعة بالبدو إذ قدمنا
أنها أقدم من الحضرة وسابق عليه فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الحضرة ولا يعرفونها
لأن أحوالهم كلها نائية عن البداوة فصنائعهم نائية عن صنائعها وتابعة لها والله - - ونعالى
مقيم العباد فيما أراد

٢٥ ﴿ فصل في صناعة البناء ﴾

هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضري وأقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل
للسكن والمأوى فلا بد أن في المدن وذلك أن الإنسان لما جمل عليه من الفكر في عواقب أحواله لا بد
أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد كاتخاذ البيوت السكنفة بالسقف والحيطان من سائر
جبهاتها والبشر يختلف في هذه الجبلبة الفكرية فمنهم المعتدون فيها يتخذون - - باعتدال أهالي الثاني
والثالث والرابع والخامس والسادس وأما أهل البدو فيعتدون عن اتخاذ ذلك لفصول أفكارهم
عن إدراك الصنائع البشرية فيأخذون للغيران والكهوف المعدة من غير علاج ثم المعتدون المتخذون
للمأوى قد يتكثرون في البسيط الواحد بحيث يتناكرون ولا يتعارفون فيخشون طروق بعضهم

بعضا فيحتاجون إلى حفظ عينتهم بأرق ماء أو أسوار تحوطهم ويصير جميعا مدينة واحدة ومصر
واحدة ويحوطهم الحكم من داخل يدفع بعضهم عن بعض وقد يحتاجون إلى الانتصاف ويتخذون
المعقل والحصون وهم ومن تحت أيديهم مثل الملوك ومن في معانهم الأمراء وكبار القبائل في المدن
كل مدينة على ما تعارفون ويصلحون عليه ويتناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم في الفنى
والفقر وكذلك أهل المدينة الواحدة فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتتة
على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة لسكنة ولولد وحشمه وعياله ونافعه ويؤسس جدرانها
بالخجارة ويلحم بينها بالسكس ويملى عليها بالأصبة والحصى ويبلغ في ذلك بالتجديد والتنميق
إظهار المباشرة بالعناية في شأن الأوى ويهيء مع ذلك الأسراب والمطامير للاختزان لأفواته
والاستطلاات لربط مفراته إذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والخاشية كالأمراء ومن في
معناه ومنهم من يبنى الدور والغرف والبيوت لنفسه وسكنه ولولده لا يبتغي من وراء ذلك لقصور حاله عنه
واقصاره على السكن الطبيعي للشمس وبين ذلك مراتب غير منحصرة وقد يحتاج لهذه الصناعة أيضا
بعد تأسيس الملوك وأهل الدول المدن العظيمة والهيكل المرتفعة ويبلغون في إتقان الأوضاع وعلو
الأجرام مع الأحكام تليق بالصناعة بالعمارة وهذه الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك وأكثر ما
تكون هذه الصناعة في الأقاليم المعتدلة من الرابع وما حواله إذ الأقاليم المنحرفة لا بناء فيها وإنما
يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين وإنما يوجد في الأقاليم المعتدلة وأهل هذه الصناعة
القائمون عليها متفاوتون فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر ثم هي تنوع أنواعا كثيرة فمنها البناء
بالخجارة النجدة يقام بها الجدران ملصقا بعضها إلى بعض بالطين والسكس التي يعقد معها ويلحم
كأنها جسم واحد ومنها البناء بالتراب خاصة يتخذ لها لوحان من الخشب مقدوران طولاً وعرضاً
باختلاف العادات في التقدير وأوسطه أربعة أذرع في ذراعين فيصبان على أساس وقبوعه ما يندمها
بما يراد صاحب البناء في عرض الأساس ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدر
ويسد الحيطان الباقيتان من ذلك الحلاء بينهما لوحين آخرين متغيرين ثم يوضع فيه التراب غلظا
بالسكس ويركز بالمرأكة المعدة حتى ينعم ركزه وتختلط أجزاؤه ثم يزداد التراب تانياً وثالثاً إلى أن
يمتلئ ذلك الحلاء بين اللوحين وقد تداخلت أجزاء السكس والتراب وصارت جسماً واحداً ثم
يعاد نصب اللوحين على الصورة ويركز كذلك إلى أن يتم وينظم الألواح كلها سطراً من فوق سطر
إلى أن ينظم الخائط كله ملتصقاً كأنه قطعة واحدة ويسمى الطابية وصانعها الطواب ومن صنائع
البناء أيضاً أن تجلد الحيطان بالسكس بعد أن يغلى بالماء ويغمر أسبوعاً أو أسبوعين على قدر ما يعتدل
مزاجه عن إفراط النار بالفسدة للإلحاح فإذا تم له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الخائط وذلك
أن يلتحم ومن صنائع البناء عمل السقف بأن يمد الخشب المحكمة التجارة أو الساذجة على خائط
البيت ومن فوقها الألواح كذلك موصولة بالسنار ويصب عليها التراب والسكس ويسط بها ركز

حتى تتدخل أجزاؤها وتلتصم ويعلو عليها السكس كالإعالى على الحائط ومن صناعة البناء ما يرجع إلى التعميق والتزين كما يصنع من فوق الحيطان الأشكال الجسمية من الجص يخرق الماء ثم يرجع حدا وفيه بقية الليل فيشكل على التناسب ثم بما يتناسب الحديد إلى أن يبقى له رونق ورواء وريفا عولى على الحيطان أيضا قطع الرخام والأجر والخرف أو بالسندف أو بالسيح بفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة وتوضع في السكس على نسب وأوضاع مقدرة عندهم يبدو به الحائط ليعيان أنه قطع الرخام أو النعمة إلى غير ذلك من بناء الجباب والصهاريج لسفح الماء بعد أن تعد في البيوت قصاص الرخام والقوراء المحكمة الخراط بالفوهات في وسطها لتبع الماء الجارى إلى الصبريج يحلب اليه من خارج في السنوات المفتية إلى البيوت وأمثال ذلك من أنواع البناء وتختلف الصنائع في جميع ذلك باختلاف الخلق والبصر ويعظم عجز الإنسان المدبنة وينسج فيكثرون وربما يرجع الحكم إلى نظر هؤلاء فيها مما يصره من أحوال البناء وذلك أن الناس في المدن السكرة الأزدهم والعمران يتعاشون حتى في الفضاء والهواء إلا على والأسفل ومن الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع حصول الضرر في الحيطان فيمنع جاره من ذلك إلا ما كان له في حق ويختلفون أيضا في استحقاق الطرق والمنازل للبياد الجارية والفضلات لتسرب في السنوات وربما يدعي بعضهم حق بعض في حائطه أو علوه أو قناته لتسابق الجوار أو يدعي بعضهم على جاره اختلال حائطه خشية سقوطه ويحتاج إلى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عندهم من براد أو يحتاج إلى قسمة دار أو عرصة بين شركيين بحيث لا يقع معها فساد في الدار ولا إهمال لتقعتها وأمثال ذلك ونحو جميع ذلك إلا على أهل البصر العارفين بالبناء وأحواله السدلين عليم بالمعاقد والقيط ومراكر الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم الساكن على نسبة أوضاعها ومتاعها وتسرب المياه في السنوات مجاورة ومرفوعة بحيث لا تضر ملامرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك فليهم بهذا كله البصر والخبرة التي ليست تغيبهم وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والصور في الأحياء باعتبار الدول وقوتها فإن قدما أن الصنائع وكلها إنما هو بكمال الحضارة وكثرتها بكثرة الطالب لها فذلك عندما تكون الدولة يدوية في أول أمرها تفتقر أمر البناء إلى غير قوتها كما وقع للوليد بن الملق حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام فبعث إلى هناك الروم بالقسططينية في القعلة المبرقة في البناء فبعث إليه منهم من حصل له غرض من تلك المساجد وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة متى تسوية الحيطان بالوزن وإجراء البناء بأخذ الارشاق وأمثال ذلك فيحتاج إلى البصر بشئ من مسائله وكذلك في جبر الأثقال بالهندام فإن الأجرام العظيمة إذا شيدت بالحجارة الكبيرة يمجز قدر القعلة عن رفعها إلى مكانها من الحائط فيجبل لذلك تضاعفة قوة الجبل بإدخاله في المعالق من ألقاب مقدرة على نسب هندسية تصير الثقل عند معاناة الرفع خفيفا فيتم المراد من ذلك بغير كلفة وهذا إنما يتم بأصول هندسية معروفة متداولة بين البشر ومثلها كان بناء الهياكل الماثلة لهذا العهد التي يحجب الناس أنها من بناء الجاهلية وإن أبدانهم كانت على نسبتها في العظم الجسماني وليس كذلك وإنما

ثم لم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه فنضم ذلك والله يخلق ما يشاء سبحانه

٢٦ فصل في صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضروريات العمران ومادتها الخشب وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل للأدنى في كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضروراته أو حاجاته وكان منها الشجر فلله فيه من المنافع ما لا يحصر ما هو معروف لكل أحد ومن منافعها اتخاذها خشباً إذا ليست وأول منافعها أن يكون وقوداً للإنسان في معاشهم وعصياً للأنعام والبهائم وغيرهما من ضرورياتهم ودعهم لما يخفى عليهم من أنفعهم ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والحضر فأما أهل البدو فيتخذون منها العمود والأوتاد لحياهم والحدود لقطعانهم والرماح والقسي والسهام للاحيم وأما أهل الحضر فيسقف بيوتهم والأغلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم وكل واحد من هذه فالخشبة مادة لها ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة والصناعة التكلفة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هي النجارة على اختلاف رتبها فيحتاج صاحبها إلى تفصيل الخشب أولاً إما خشب أصغر منه أو ألواح ثم يركب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة وهو في كل ذلك يحاول يصنعه إبعاد تلك الفصائل بالنظام إلى أن تصبح أعضاء لذلك الشكل المخصوص والقائم على هذه الصناعة هو النجار وهو ضروري في العمران ثم إذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتأنق الناس فيها يتخذونه من كل صنف من سقف أبواب أو كراسي أو ما يحسون حداث التأنق في صناعة ذلك واستجادة بقرائن من الصناعة كالية ليست من الضروري في شيء مثل التخفيف في الأبواب والكراسي ومثل هيئة القفص من الخشب بصناعة الخراط بحكم ترتيبها وتشكيلها ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالسنن فيبدو لأولي العين ملتحمة وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب يصنع هذا في كل شيء يتخذ من الخشب فيجب ما أتق ما يكون وكذلك في جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب من أي نوع كان وكذلك قد يحتاج إلى هذه الصناعة في إنشاء المراكب البحرية ذات الأتواح والذمر وهي إجرار هندسية صنعت في قلب الحوت واعتبار سببته في الماء بقوامه وكما كماله يكون ذلك الشكل أعون لها في مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسمك تحريك الرياح وربما أعيت بحركة المفاذيف كما في الأساطيل وهذه الصناعة من أصلياً يحتاج إلى أصل كبير من الهندسة في جميع أصنافها لأن أخرج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الأحكام يحتاج إلى معرفة التناسب في القادير إما محسوماً أو خصوصاً وتناسب القادير لا بد فيه من الرجوع إلى المهندس ولهذا كان أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة فكان أوقليدس صاحب كتاب الأصول في الهندسة نجاراً وبها كان يعرف وكذلك إيلونيوس صاحب كتاب الخروطات وميلادوش وغيرهم وفيما يقال أن معلم هذه الصناعة في الحقيقة هو نوح عليه السلام وبها أنشأ سفينة لنجاة التي كانت بها معجزة عند الطوفان وهذا الخبر وإن كان ممكناً أئني كونه نجاراً إلا أن كونه أول من غلب أو

تعلما لا يقوم دليل من النقل عليه بعد الآماد وإنما معناه والله أعلم الإشارة الى قدم التجارة لانه لم يصح حكاية عنها قبل خبر نوح عليه السلام فجعل كانه أول من تعلما فتفهم أسرار الصنائع في الخليفة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٢٧ فصل في صناعة الحياكة والحياطة

هاتان الصناعتان ضرورتان في العمران لما يحتاج اليه البشر من الرفة فلا ولي للنسيج الغزل من الصوف والكتان والقطن سدا في الطول والخام في العرض لذلك النسيج بالانصاف الشديد فيتم منها قطع مقدرة فتمها الاكسية من الصوف للاشتغال ومنها الثياب من القطن والكتان للباس والصناعة الثانية لتقدير المنوجات على اختلاف الاشكال والعوائد تفصل أولا بالمقراض قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية ثم تلحم تلك القطع بالحياطة المحكمة وصلاً أو تبيثاً أو تفصلاً على حسب نوع الصناعة وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضري لما أن أهل البدو يستغنون عنها وإنما يشتملون الاتياب الشتالا وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإتمامها بالحياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها وتفهم هذا في سر تحریم الخبيث في الحج لما أن مشروعية الحج مشتملة على بند العلائق الدنيوية كلها والرجوع الى الله تعالى كما خلقنا أول مرة حتى لا يعلق العبد قلبه بشيء من عوائد ترفه لا طيباً ولا نباه ولا غنيظاً ولا خفا ولا يعرض لصيد ولا شيء من عوائده التي تلوت بها نفسه وخلقه مع أنه يفقد هاهنا لوت ضرورة وإغاخي كالموارد الى الحشر ضار عاقله غلب المربة وكان أجراًؤه إن لم له إخلاصه في ذلك أن يخرج من ذنوبه كيوم ولده أمه سبحانه ما أرفقت بعبادك وأرحمك بهم في طلب عبادتهم اليك وهاتان الصنعتان قدعتان في الخليفة لما أن الهدف ضروري للبشر في العمران المعتدل وأما المتحرف الى الحرف لا يحتاج أهله الى دف ولهما يلقن عن أهل الاقليم الاول من السودان أنهم عراة في الغالب ولقد علم هذه الصنائع ينسبها العامة الى إدريس عليه السلام وهو أقدم الانبياء ورعا ينسبونها الى هرمس وقد يقال أن هرمس هو إدريس والله سبحانه وتعالى هو الخلاق العليم

٢٨ فصل في صناعة التوليد

وهي صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود آدمي من بطن أمه من الرقيق في اخراجهم من رحمها وتهيئة أسباب ذلك ثم ما يوصله بعض الخروج على ما تذكروا هي مختصة بالنساء في غالب الامر لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض وتسمى القاتنة على ذلك منهن القابلة استعير فيها معنى الاعطاء والتوليد كان النساء تعطينا الجن وكأنا تقبله وذلك أن الجنين اذا استكمل خلقه في الرحم وأطواره وبلغ الى غاية والمدد التي قدر الله لمكانه وهي تسعة أشهر في الغالب فيطلب الخروج بما جعل الله في المولود من النزوع لذلك ويضيق عليه النفذ فيعسر وربما مرق بعض جوارب الفرج بالضغط وربما انقطع

بعض ما كان في الأغشية من الالتصاق والالتحام بالرحم وهذه كلها آلام يشتد لها الوجع وهو معنى
الطلق فتكون القابلة معينة في ذلك بعض الشيء بعض الظهور والوركين وما يحاذي الرحم من الأسافل
تساوق بذلك فعل الدافعة في إخراج الجنين وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها وعلى ما تهدي إلى معرفة
عمره ثم إذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة حيث كان يتغذى منها منفصلة من سريته
بعده وتلك الوصلة عضو فضلي لتغذية المولود خاصة فتقطعها القابلة من حيث لا تتعدى مكان الفضلة
ولا تضر بمعاء ولا برحم أمه ثم تدمل مكان الجراحة منه بالسكي أو تاتراه من وجوه الاندمال ثم أن
الجنين عند خروجه في ذلك المنفذ الضيق وهو رطب العظام سهل الانعطاف والانثناء فربما تغير
أشكال أعضائه وأوضاعها لقرب التكوين وورطوبة المواد فتناول القابلة بالغمز والأصابع حتى يرجع
كل عضو إلى شكله الطبيعي ووضع المقدر له ويرتد خلقه سويًا ثم بعد ذلك تراجع النساء وتحاذيها
بالغمز والملاينة لخروج أغشية الجنين لأنها ربما تأخر عن خروجه قليلا ونحس عند ذلك أن تراجع
الماسكة عنها الطبيعية قبل استكمال خروج الأغشية وهي فضلات فتعفن ويسرى عفنها إلى الرحم
فيفقع الهلاك فتحاذر القابلة هذا وتحاول في إعانة الدفع إلى أن يخرج تلك الأغشية إن كانت قد تأخرت
ثم ترجع إلى المولود فتخرج أعضائه بالأدهان والقدور والقباضة لتشده وتجفف رطوبات الرحم
وتحس كل فرع هاته وتمسكه لاستخراج بطون دماغه وتفرغه بالاهو في دفع السدد من معاءه وتجوفها
عن الالتصاق ثم تدوى النساء بعد ذلك من الوهن الذي أصابها بالطلق والحق رحمها من ألم الانفصال
إذا المولود إن لم يكن عضو طبيعيًا خالفة التكوين في الرحم صيرته بالالتحام كالمعضو المنصل فذلك كان في
انفصاله ألم يقرب من ألم القطع وتدوى مع ذلك ما يلحق الفرج من ألم من جراحة التمزيق عند
الضغط في الخروج وهذه كلها أدواء نجد هؤلاء القوابل أبصر بدوائها وكذلك ما يعرض للمولود
مدة الرضاع من أدواء في بدنه أي حين الفصل تجد من أبصر بها من الطبيب الماهر وما ذاك إلا لأن بدن
الإنسان في تلك الحالة إنما هو بدن إنسان بالقوة فقط فإذا جاوز الفصل صار بدنًا إنسانيا بالفعل فكانت
حاجته حينئذ إلى الطبيب أشد فهذه الصناعة كآراء ضرورية في العمران النوع الإنساني لا يتم كون
أشخاصه في الغالب دونها وقد يعرض لبعض أشخاص النوع الاستفناء عن هذه الصناعة إما بخلق الله
ذلك لهم معجزة وخارقا لعبادة كافي حق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أو بالهام وهداية يلهم لها
المولود ويظهر عليها قيم وجودهم من دون هذه الصناعة فأما شأن المعجزة من ذلك فقد وقع كثير أو منه
ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم وتدمر ور اعتونا واضعابده على الأرض شاخصا يصره إلى السماء
وكذلك شأن عيسى في المهد وغير ذلك وأما شأن الألهام فلا ينكر وإذا كانت الحيوانات العجم تختص
بقرائب من الألهامات كالنحل وغيرها فماذا بك بالإنسان الفضل عليها وخصوصا عن اختصاص بكرامة الله
ثم الألهام العام للمولودين في الأقبال على الندى أوضح شاهد على وجود الألهام العام لهم فتأني العناية
الالهية أعظم من أن يحاط به ومن هنا يصم بطلان رأي الفارابي وحكاه الأندلس فيما احتجوا به

لعدم انقراض الأنواع واستحالة انقطاع المكونات خصوصاً في النوع الإنساني وقلوا لو انقطعت
أشخاص لا استحال وجودها بعد ذلك لتوقف على هذه الصناعة التي لا يتم كون الإنسان إلا بها إذ لو
قدرة ما موفوداً دون هذه الصناعة وكفائها إلى حين انفصال لم يتم بقاؤه أصلاً ووجود الصانع دون
الفكر يمنع لأنها أثرته وتابعة وتكلف ابن سينا في الرد على هذا الرأي لمخالفته إياه وذهابه إلى إمكان
انقطاع الأنواع وخراب علم التكوين ثم عوده ثانية لاقتضاآت فلسفية وأوضاع غريبة تنذر في
الاعتقالات بزمه فتشفي تخدير طينة مناسبة فزاجه حرارة مناسبة فيتم كونه إنساناً ثم يقرب له حيوان
يخلق فيه اللحم لثريته والخنوع عليه أي أن يتم وجوده وفضاله وأطلب في بيان ذلك في الرسالة التي
سمها رسالة حي بن يقظان وهذا الاستدلال غير صحيح وإن كنا نوافقه على انقطاع الأنواع لكن
من غير الاستدلاله فأن دليله مبني على إسناد الأفعال إلى العلة الموجبة ودليل القول بالفاعل المختار يرد
عليه واسطة على القول بالفاعل المختار بين الأفعال والقدرة القديمة ولا حاجة إلى هذا التكلف *
ثم لو سلمناه جدلاً لغاية ما ينبغي عليه إفراد وجود هذا الشخص بخلق اللحم لثريته في الحيوان
الأنجم وما الضرورة الداعية لذلك وإذا كان اللحم يخلق في الحيوان الأنجم فما المانع من خلقه
للمولود نفسه كما قررناه أولاً وخلق اللحم في شخص يصالح نفسه أقرب من خلقه في شخص غيره
فكلا المذهبين شاهدان على أنفسهما بالبطالان في منحيهما لما قررته لك والله تعالى أعلم

٢٩ فصل في صناعة الطب وأنها عتاج اليها في الخواصر والأمصار دون البادية

هذه الصناعة ضرورية في المدن والأمصار لما عرف من فائدتها فإن قدرتها تحفظ الصحة للأصحاء
ودفع المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم واعلم أن أصل الأمراض كلها إنما هو من
الغذية كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الجامع للطب وهو قوله تعدد بيت الداء والحمة رأس
الدواء وأصل كل داء البردة فأما قوله تعدد بيت الداء فهو ظاهر وأما قوله الحمة رأس الدواء فالحمة
الجوع وهو الاحتناء من الطعام والمعنى أن الجوع هو الدواء العظيم الذي هو أصل الأدوية وأما قوله
أصل كل داء البردة فعني البردة ادخال الطعام على الطعام في المعدة قبل أن يتم هضم الأول وشرح
هذا أن الله سبحانه خلق الإنسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالأكلة ويتغذى فيه القوى الفاضلة
الغاذية إلى أن يصير دماغاً لا أجزاء البدن من اللحم والعظم ثم تأخذ الغذية فينقلب لحمًا وعظامًا ومعنى
الهضم طبع الغذاء بالحرارة الغريزية طوراً بعد طور حتى يصير جزءاً بالفعل من البدن وتفسيره أن
الغذاء إذا حصل في الفم ولا كنه الاشدق آثرت فيه حرارة الفم على ما يفسرنا وقلبت مزاجه بعض الشيء
كما تراه في النخلة إذا تناولتها طعاماً ثم أجدها متغايرة مزاجها غير مزاج الطعام ثم يحصل في المعدة
فتطبخه حرارة المعدة إلى أن يصير كيموساً وهو صفو ذلك المطبوع وترسله إلى الكبد مارسب منه في
المعي ثلثاً ينفذ إلى الفرجين ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك الكيموس إلى أن يصير دماغاً عيظاً وتطفو

عليه رغوته من الطبخ هي الصفراء وترسب منه أجزاء يابسة هي السوداء يقتصر الحار الغريزي
بعض الشيء عن طبخ الغليظ منه فهو البلغم ترسبها الكبد كلها في العروق والجداول ويأخذها
طبخ الحار الغريزي هناك فيكون عن الدم الخالص بخار حار ورطب عند الروح الحيواني وتأخذ
النامية مأخذها في الدم فيكون لها ثم غليظه عظما ثم ترسل البدن ما يفضل عن حاجته من ذلك فضلات
مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة إلى الفعل لها ثم
إن أصل الأمراض ومعظمها هي الحيات وسببها أن الحار الغريزي قد يصف عن تمام التضييق في طبخه
في كل طور من هذه فيبقى ذلك الغذاء دون تضييق وسببه غالباً كثرة الغذاء في المعدة حتى يكون أغلب
على الحار الغريزي أو يدخل الطعام إلى المعدة قبل أن تستوفي طبخ الأول فيستغل بها الحار الغريزي ويترك
الأول بحاله أو يتوزع عليها فيقتصر عن تمام الطبخ والتضييق وترسل المعدة كذلك إلى الكبد فلا
تقوى حرارة الكبد أيضا على امتصاصه ويبقى في الكبد من الغذاء الأول فصلة غير النجبة وترسل
الكبد جميع ذلك إلى العروق غير تاضج كاهو غذا أخذت من حاجتها فلا تأسر مع الفضلات
الأخرى من العرق والدمع واللعاب إن اقتدر على ذلك ورتب ما يعجز عن الكثير منه فيبقى في العرق
والكبد والمعدة وتزايد مع الألم وكل ذي رطوبة من المتزجات إذا لم يأخذها الطبخ والتضييق
يعفن فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالخلط وكل منعقن فيه حرارة غريبة وذلك
هي المسماة في بدن الإنسان بالحصى واختبر ذلك بالطعام إذا ترك حتى تعفن وفي الزبل إذا تعفن أيضا كيف
تبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها فهذا معنى الحيات في الأبدان وهي رأس الأمراض وأصلها
كما وقع في الحديث وهذه الحيات علاجها بقطع الغذاء عن الرئس أساميع معلومة ثم تناولها الأغذية
الملائمة حتى يتم برؤوده وذلك في حال الصحة علاج في التحفظ من هذا المرض وأصله كما وقع في الحديث
وقد يكون ذلك العفن في عضو مخصوص فيتولد عنه مرض في ذلك العضو ويحدث جراحات في البدن
أما في الأعضاء الرئيسية أو في غيرها ويصير مرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له هذه
كلها جماع الأمراض وأصلها في الغالب من الأغذية وهذه كله مرفوعة إلى الطبيب ووقوع هذه
الأمراض في أهل الحضرة والأمصا أكثر لحسب عيشهم وكثرة ما كلهم وقلة اقتصارهم على نوع واحد
من الأغذية وعدم توفيقهم لتناولها وكثيرا ما يختلطون بالأغذية من التوابل والبقول والفواكه
رجيا وبإساقى سبل العلاج بالطبخ ولا يقتصرون في ذلك على نوع أو أنواع فربما عددناه في اليوم
الواحد من ألوان الطبخ أربعين نوعا من النبات والحيوان فيصير للغذاء مزاج غريب وربما يكون
غريبا عن ملاءمة البدن أجزائه ثم إن الأهوية في الأمصا تفسد بمخالطة الأبخرة العفنة من
كثرة الفضلات والأهوية عنشطة للأرواح ومقوية بشايطها الأثرة الحار الغريزي في المضم ثم الرياضة
مفقودة لأهل الأمصا اذم في الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيئا ولا تؤثر فيهم أثرها
فكان وقوع الأمراض كثيرا في البدن والأمصا على قدر وقوعه كانت حاجتهم إلى هذه الصناعة وأما

أهل البدن فما كوفهم قليل في الغالب والجوع أغلب عليهم لقلة الجيوب حتى صار لهم ذلك عادة وربما يظن أنها حيلة لاستمرارها ثم الادم قليلة لديهم أو مفقودة بالجملة وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه إنما يدعو إليه ترف الحضارة الذين هم معزل عنه فيتناولون أغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها ويقترب من أجزائها من ملائمة البدن وأما أهويتهم فقليلة العن لقلة الرغوبات والعقوبات إن كانوا آهلين أو لا اختلاف الأهوية إن كانوا غلو عن ثم إن الرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة في ركض الخيل والصيد أو طلب الحاجات شبه أنفسهم في حاجاتهم فيحسن بذلك كله المضم ويجود ويشهد ادخال الطعام على الطعام فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد من الأمراض فيقل حاجتهم إلى الطب ولهذا لا يوجد الطب في البداية بوجه وما ذلك إلا لاستغناء الذوات حتى يصح اليه لوجده لأنه يكون له بذلك في البدن معاش يدعو به إلى سكناه سنة الله التي قد خلقت في عباده ولن نجد لسنة الله تبديلا

٣٠ فصل في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية

وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكميات المسموعة بالله على ما في النفس فهو تأتي رتبة من الدلالة اللغوية وهو صناعة شريفة إذ الكتابة من خواص الإنسان التي تميز بها عن الحيوان وأيضا فهي تطلع على ما في الضمائر وتؤدي بها الأغراض إلى البلاد البعيدة فتففي الحاجات وقد دفعت مؤنة المباشرة لها ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين وما كتبوه من علومهم وأخبارهم فهي شريفة بهذه الوجود والنافع وخرجها في الإنسان من القوة إلى الفعل إنما يكون بالتعليم وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناهي في الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط في المدينة أدهو من جملة الصنائع وقد قدمنا أن هذا شأنها وأنها تابعة للعمران ولهذا تجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرؤون ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قصير وقراءته غير نافذة ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقا لاستحكام الصناعة فيها كما ينبغي لنا عن مصر لهذا العهد وأن بها معلمين مستصيين لتعليم الخط يفتنون على التعليم قوانين وأحكاما في وضع كل حرف ويزيدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه فتتضد به رتبة العلم والحسن في التعليم وتأتي ملكته على أتم الوجوه وإنما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الأعمال وقد كان الخط العربي بالغاً مبالغه من الأحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة ما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الخيري وانتقل منها إلى الخيرة لما كان بها من دولة آل المنذر تسياء التبابعة في العصبية والمجذدين ملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم من الأجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك ومن الخيرة لقنه أهل الطائف وقريش فبما ذكره يقال إن الذي تعلم الكتابة من الخيرة هو سفيان بن أمية ويقال حبيب بن أمية وأخذها من أسلم بن سيرة وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب إلى أنهم تعلموها من أياد أهل العراق لقول شاعرهم

قوم لهم ساحة العراق إذا * ساروا جميعا والخط والقلم
وهو قول بعيد لأن إيداً وإن نزلوا ساحة العراق قم يزوالوا على شأنهم من البداوة والخط من الصنائع
الحضرية وإنما معنى قول الشاعر أنهم أقرب إلى الخط والقلم من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة
الأمصار وضواحيها فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التابعين وحمير
هو الأقرب من الأقوال وكان حمير كتابة تسمى السند حروفاً منفصلة وكانوا يمنعون من تعليلها إلا
بأذنهم ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية إلا أنهم يذكرون أعيانها من شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو فلا
تكون عكمة المذاهب ولا مائلة إلى الاتقان والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة واستثناء البدو عنها في
الأكثر وكانت كتابة العرب بدوية مثل أو فريما من كتابتهم لهذا العبد أو يقولون أن كتابتهم لهذا العبد أحسن
صناعة لأن هؤلاء أقرب إلى الحضارة ومخالطة الأمصار والدول وأما مضر فكانوا أعرق في البدو وأبعد
عن الحضرة من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ
إلى الغاية من الأحكام والاشقان والاجادة نولا إلى التوسط فكان العرب من البداوة والتوحش وبعدم
عن الصنائع وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير
مستحكمة في الاجادة بخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ثم اقتصى
التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخير الخلق من بعده
المتلقون لوجه من كتاب الله وكلامه كما يقتضى لهذا العبد خط ولى أو عالم تبركا ويتبع رسمه خطأ
أو صواباً أو أين نسبة ذلك من الصحابة فيها كتبوه فاتبع ذلك وأثبت رسمه وبه العلماء بالرسم على مواضعه
ولا تلتفت في ذلك إلى ما رسمه بعض القليلين من أنهم كانوا يحكمين لصناعة الخط وأن ما يتخيل من
مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل بل لسكنا وجه ويقولون في مثل زيادة الألف في
الأدوية أنه تنبيه على أن الله سبحانه وتعالى في زيادة الباء في تأييداته تنبيه على كمال القدرة الربانية وأمثال ذلك
مما لا أصل له إلا التحكم الخوض وما حملهم على ذلك الاعتقاد أن في ذلك تنزيهاً للصحابة عن تورم النص
في قلة اجادة الخط وحسبوا أن الخط كمال فزهوهم عن نفسه ونسبوا اليهم الكمال بالاجادة وطلبوا
لتعليل ما خالف لاجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح * واعلم أن الخط ليس بكمال في حضمه إذ
الخط من جملة الصنائع المادية المعاشية كآرائته فيما مرو الكمال في الصنائع اضافي وليس بكمال مطلق
إذ لا يعود نفسه على الذات في الدين ولا في الخلال وإنما يعود على أسباب المعاش وبحسب العمران
والتعاون عليه لا جل دلالته على ما في النفوس وقد كان صلى الله عليه وسلم أمياً وكان ذلك كلاً في حقه
وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التي هي أسباب المعاش والعمران كلها وليست
الأمية كلاً في حقنا نحن إذ هو منقطع إلى ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها حتى
العلوم الاصطلاحية فإن الكمال في حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا
الأمصار وملكوا الممالك ونزلوا البصر قوال الكوفة واحتاجت الدولة إلى الكتابة استعملوا الخط

وطلبوا صناعته وتعلمه ونداولوه فترقت الاجادة فيه واستحكم وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة من
الانتماء الا انها كانت دون الغاية والخط الكوفي معروف الرسم لهذا العهد ثم انتشر العرب في
الاقطار والممالك واقتحموا افريقية والاندلس واخط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها
الى الغاية لما سبجرت في العمران وكانت دار الاسلام ومركز الدولة العربية وكان الخط البغدادي
معروف الرسم وتبعه الافريقى المعروف رسمه القديم لهذا العهد ويقرّب من أوضاع الخط الشرقى
وتغير ملك الاندلس بالامويين فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط فتميز صنف
خطهم الاندلسى كغيره معروف الرسم لهذا العهد وضاع العمران والحضارة في الدول الاسلامية
في كل قطر وعظم الملك ونفت أسواق العلوم وانتخت الكتب وأجيد كتبها وتجلدها وملئت
بها التصور والخرائن المنوكية بما لا يكفاهه وتنافس أهل الاقطار في ذلك وتنافسوا فيه ثم لما اهل نظام
الدولة الاسلامية وتناقص تناقص ذلك أجمع ودرست معالم بغداد بدرو من الخلافة فانقل شأنهم من الخط
والكتابة بل والعلم في مصر والشام فلم تزل أسواقها باقية لهذا العهد وله بها معلمون يرسمون لتعليم
الحروف بقوانين في وضعها وأشكالها متعارفة بينهم فلا يلبث التعلم أو يحكم أشكال تلك الحروف على
نلك الاوضاع وقد قلصها حسنا وحذق فيها درية وكتابوا أخذها قوانين علفية فنجى أحسن ما يكون
وأما أهل الاندلس فافترقوا في الاقطار عند تلالى ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر وتغلبت
عليهم أم النصرانية فانتهشوا في عدوة المغرب وافريقية من لدن الدولة الممتونية الى هذا العهد
وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع وتعلقوا بأذيال الدولة فغلب خطهم على الخط الافريقى وعنى
عليه ونسى خط القيروان والمهديّة بنسيان عوائدهما وصنائعهما وصارت خطوط أهل افريقية كلها
على الرسم الاندلسى بنونس وما اليها التوفر أهل الاندلس بها عند الحالية من شرق الاندلس وبقي
منه رسم بلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الاندلس ولا عرسوا بجوارم إنما كانوا يعدون على
دار الملك بنونس فصار خط أهل افريقية من أحسن خطوط أهل الاندلس حتى اذا تقلص ظل
الدولة الموحدية بعض الشيء وتراجع أمر الحضارة والترف تراجع العمران نقص حينئذ حال الخط
وفسدت رسومه وجعل فيه وجه التعلم بفساد الحضارة وتناقص العمران وبقيت فيه آثار الخط
الاندلسى تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدمناه من أن الصنائع اذا سحت بالحضارة فيعسر عوها
وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى بون من الخط الاندلسى لقرب جوارم وسقوط
من خرج منهم الى فاس فربما واستعملهم ايام سائر الدولة ونسى عهد الخط فيها بعد عن سدة الملك وداره
كانهم يعرف فساد الخطوط بأفريقية والمغربين مائلة الى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب
اذا انتسخت فلا فائدة تحصل من تصفحها منها الا العناء والمشقة لسكرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف
وتغير الاشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ الا ثمة عسر ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع
بنقص الحضارة وفساد الدول والله أعلم

كانت العناية قديما بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة وفقد ذهب العبد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه في الأمة الإسلامية بحوز آخر بالعراق والأندلس اذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة وثفاق أسواق ذلك لديهم فكثر التأليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تنافسها في الآفاق والأعصار فاندسخت وجذبت وجاءت صناعة الوراقين المعانين للاتساع والتصحيح والتجليد وسائر الأمور السكتية والدواوين واختصت بالأخبار العظيمة العمران وكانت السجلات أولا لا تنسخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والاقطاعات والصكوك في الرق وفي المياة بالصناعة من الجلد لكثرة الرقة وقلة التأليف صدر الملة كان ذكره وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك فاقصر وأعلى الكتاب في الرق تشرى في المكنوبات وميل إليها إلى الصحة والاتقان ثم طبع في التأليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضايق الرق عن ذلك فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه وأخذ الناس من بعده صحفا لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة في صناعته ما شاءت ثم وقفت عناية أهل العلوم وهم أهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة إلى مؤلفيها واضعها لأنه الشأن الأول من التصحيح والضبط فبذلك تسند الأقوال إلى قائلها والفتيا إلى الحاكم بها المجتهد في طريق استنباطها وما لم يكن تصحيح النون باستنادها إلى مدونها فلا يصح ستاد قولهم ولا فتيا وهكذا فن شأن أهل العلم وحملته في العصور والأجيال والآفاق حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثة في الرواية على هذه فقط إذ تكثر بها الكبري من معرفة تصحيح الأحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها قد ذهبت وتمحضت بدة ذلك في الأميات المتلفات بالقبول عند الأمة وصار القصد إلى ذلك لغوا من العمل ولم تبقى ثمرة الرواية والأشغال بها إلا في تصحيح تلك الأميات الحديثة وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من الدواوين والتأليف العلمية واتصال سندها بمؤلفيها ليصح النقل عنهم والاستناد اليهم وكانت هذه الرسوم بالشرق والأندلس معبدة الطرق وانحطت السالك ولهذا نجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد في أقطارهم على غاية من الاتقان والأحكام والصحة ومنها لهذا العهد بأيدي الناس في العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم في ذلك وأهل الآفاق ينقلونها إلى الآن ويشدون عليها يد الضمانة ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب وأهل الاقطاعات صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتهاض عمرانه وبدادة أهله وصارت الأميات والدواوين تنسخ بالخطوط البدوية تنسخها طلبة البربر بعنائهم مستعجلة برداء الخط وكثرة الفساد والتصحيف فتستغرق على متصفحها ولا يحصل منها فائدة إلا في الأقل النادر وأيضا فقد دخل الحلل من ذلك في الفتيا فان غالب الأقوال المعزوة غير

مروية عن أئمة الذهب وإغاثة في من تلك الدواوين على ما هي عليه وتبع ذلك أيضا ما يتصدى إليه بعض أئمتهم من التأليف لقله يصرم بصناعته وعدم الصنائع الوافية بمقاصده ولم يبق من هذا الرسم إلا ندلس إلا آثاره حفية بالأحياء وهي على الأخص محال فقد كاد العلم ينقطع بالكسبة من المغرب والله غالب على أمره ويلغ هذا العبد أن صناعة الرواية قائمة بالشرق ونصحيح الدواوين من رومه بذلك سهل على مبتغيه لنفاق أسواق العلوم والصنائع كما نذكره بعد إلا أن الخط الذي بقي من الاجادة في الانحطاط هناك إغا هو المعجود في خطوطهم وأما النسخ فمهر ففسد كما فسد بالغرب وأشدوا ففسد جانهو تعالى أعلم وبه التوفيق

٣٢ فصل في صناعة الغناء

هذه الصناعة هي تلحين الألحان الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة بوقع على كل صوت منها توقيعا عند قطعه فيكون نغمة تم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لا جل ذلك التناوب وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الأصوات وذلك أنه تبين في علم الموسيقى أن الأصوات تتناسب فيكون صوت نصف صوت وربع آخر وخمس آخر وجزء من أحد عشر من آخر واختلاف هذه النسب عند تأديتها إلى السمع يخرجها من البساطة إلى التركيب وليس كل تركيب منها ملذوذا عند السماع بل تراكيب خاصة هي التي حصرها أهل علم الموسيقى وتكلموا عليها كما هو مذکور في موضعه وقديما في ذلك التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من الجادات إما بالقرع أو بالنفخ في الآلات تتخذ ذلك فترى لها هذه عند السماع فنها هذا العبد أصناف منها ما يسمى بالشبابية وهي قسبة جوفاء بأبخاش في جوانبها معدودة ينفع فيها قصوت وتخرج الصوت من جوفها على سداد من تلك الألحان ويقطع الصوت بوضع الأصابع من اليدين جميعا على تلك الألحان وضع متعارفا حتى تحدث النسب بين الأصوات فيحصل كذلك متناسبة فيلذ السمع بأدراكها للتناسب الذي ذكرناه ومن جنس هذه الآلة الزمار الذي يسمى الزلامي وهو شكل القسبة منحوتة الجانبيين من الخشب جوفاء من غير تدوير لأجل اختلافها من قطعتين منفردتين كذلك بأبخاش معدودة ينفع فيها بقسبة صغيرة توصل لينفذ النفخ بواسطة اليها وتصور بنغمة حادة يخري فيها من تقطيع الأصوات من تلك الألحان بأصابع مثل ما يخري في الشبابية ومن أحسن آلات الزمر لهذا العبد البوق وهو بوق من نحاس أجوف في مقدار الذراع يقسم إلى أن يكون انفرج عرجه في مقدار دون الكعب في شكل برى القلم وينفع فيه بقسبة صغيرة تؤدي الریح من الفم إليه فيخرج الصوت نخبنا دوا فيه بأبخاش أيضا معدودة وتقطع نغمة منها كذلك بالأصابع على التناسب فيكون ملذوذا ومنها آلات الأوتار وهي جوفاء كلها إما على شكل قطعة من السكر مثل البربط والرباب أو على شكل مربع كالفانون توضع الأوتار على بساطها مشدودة في رأسها إلى دساتر جائلة ليتأني شد الأوتار ورخوها عند الحاجة اليه بأدائها ثم تفرع الأوتار إما بعود آخر أو بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليها بعد أن يظلى بالشمع والسكندر

ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في أمراره أو نقله من وتر إلى وتر واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الأوتار توقع بأصابعها على أطراف الأوتار فيما يقرع أو يحك بالوتر فتحدث الأصوات متناسبة ملذذة وقد يكون القرع في الطسوت بالقضبان أو في الأعواد بعضها بعض على توقع متناسب يحدث عنه التذاذ بالسموع ولتين لك السبب في اللذة الناشئة عن الغناء وذلك أن اللذة كما تقرر في موضعه هي إدراك الملائم والخوس التامندرك منه كيفية فإذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذذة وإذا كانت متنافية لمنافرة كانت مؤلمة فلللائم من الطعوم ما تناسب كيفية حساسة الذوق في راجها وكذا الملائم من اللسوسات وفي الروائح ما تناسب مزاج الروح القلبي البخاري لأن المدرك واليه تؤديه الحاسة ولهذا كانت الرياحين والأزهار العطريات أحسن الرائحة وأشد ملاءمة للروح ولعلية الحرارة فيها التي هي مزاج الروح القلبي وأما المراتبات والسموعات فلللائم فيها تناسب الأوضاع في أشكالها وكمياتها فهو أنسب عند النفس وأشد ملاءمة لها فإذا كان المرئي متناسبا في أشكاله وتخطيطه التي له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تنظيه مادة الحاسة من كمال المناسبة والوضع وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك كان ذلك حيث تناسب للنفس المدرك فلتذاد إدراك ملاءمتها ولهذا تجد العاشقين المستهترين في المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أرواحهم بروح المحبوب وفي هذا سر نفهمه أن كنت من أهله هو اتحاد البدن وان كل ماسواك إذا نظرت وتأملته رأيت بينك وبينه اتحاد في البداية يتصلك به اتحاد كما في الكون ومعناه من وجه آخر أن الوجود يشترك بين الموجودات كما تقول الحكماء فنود أن نخرج عما شاهدت فيه الكمال لتعديبه بل تزوم النفس حيث الخروج عن الوجود إلى الحقيقة التي هي اتحاد البدن والكون ولما كان أنسب الأشياء إلى الإنسان وأقربها إلى أن يدرك الكمال في تناسب موضوعها هو شكله الإنساني فكان إدراك الجمال والحسن في تخطيطه وأصواته من المدرك التي هي قرب إلى فطرته فيلجج كل إنسان بالحسن من المرئي أو السموع بمقتضى الفطرة والحسن في السموع أن تكون الأصوات متناسبة لا منافرة وذلك أن الأصوات لها كميات من الخمس والجبر والرخاوة والشددة والقلقلة والضغط وغير ذلك والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن فأولاً لأن لا يخرج من الصوت إلى مدة رفعة بل بتدرج ثم يرجع كذلك وهكذا إلى المثل بل لا بد من توسط المغاير بين الصوتين وتأمل هذا من افتتاح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو التقاربة الخارج قاته من يابه ونأيت تناسبها في الأجزاء كما مر أول الباب فيخرج من الصوت إلى نصفه أو ثلثه أو جز من كذا منه على حسب ما يكون التثقل مناسباً على ما حضره أهل الصناعة فإذا كانت الأصوات على تناسب في الكميات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذذة ومن هذا التناسب ما يكون بسيطاً ويكون الكثير من الناس مطبوعاً عليه لا يحتاجون فيه إلى تعليم ولا صناعة كما نجد للطوبى عين في الموازين الشعرية وتوقع الرقص وأمثال ذلك وتسمى العامة هذه القابلية بالمضمار وكثير من القراء بهذه القابلية يقرؤون القرآن فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنها لزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم ومن هذا التناسب ما يحدث

بالتركيب وليس كل الناس يستوى في معرفته ولا كل البلغاء توافق صاحبها في العمل به اذا علم وهذا هو
التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى كما نشره بعد عدد ذكر العلوم وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى
القراءة بالتلحين وأجازها الشافعي رضي الله تعالى عنه وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعي فإنه
لا ينبغي ان يختلف في حظره اذ صناعة الغناء مباينة للقرآن بكل وجه لان القراءة والاداء تحتاج الى مقدار
من الصوت لتعيين آداء الحروف لامن حيث اتباع الحركات في موضعها ومقدار المد عند من يطلقه
أو يقصره وأمثال ذلك والتلحين أيضا يتعين لمقدار من الصوت لا يتم الا به من أجل التناسب الذي قلناه
في حقيقة التلحين واعتبار أحدهما قد يغفل بالآخر اذا تعارضوا وتقديم الروايات معين من تغيير الروايات المشوكة
في القرآن فلا يمكن اجتماع التلحين والاداء المعبر في القرآن بوجه وانما مراده التلحين البسيط الذي
يهتدى اليه صاحب المصنف بطبعه كما قدمناه في رد أصواته ترديدا على نسب بدر كماله بالغناء وغيره
ولا ينبغي ذلك بوجه كما قلناه مالك هذا هو محل الخلاف والظاهر تنزيه القرآن عن هذا كله كاذهيب اليه
الامام رحمه الله تعالى لان القرآن محل خشوع وذكر الموت وما بعده وليس مقام التذاذب اذ احسن من
الاصوات وهكذا كانت قراءة الصحابة رضي الله عنهم كافي أخبارهم أو ما قولهم صلى الله عليه وسلم لقد أوتي
مزامير من مزامير آل داود فليس المراد به التردد والتلحين انما معناه حسن الصوت وأداء القراءة
والآبانة في غارج الحروف والخلق بها * وإذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنه يحدث في العمران اذا توفر
وتجاوز حد الضرورى الى الحاجى ثم الى الكمالي وتفتوا فيه فتحدث هذه الصناعة لا بد لا يستدعيها الا
من فرع من جميع حاجاته الضرورية والمبعدة من العاش والمنزل وغيره فلا يضبطها الا الفارغون عن
سائر أحوالهم تفننا في مذاهب اللذوات وكان في سلطان المعجب قبل الملة منها يحرز آخر في أمصارهم
ومدتهم وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به حتى لقد كان الملوك الفرس اهتموا بأهل هذه الصناعة
ولهم مكان في دولتهم وكانوا يحضرون مشاهدهم وعجائبهم ويغنون فيها وهذا شأن العجم لهذا العهد
في كل أفق من أفاقهم ومملكتهم وأما العرب فكان لهم أولاف في الشعر يؤلفون فيه الكلام
أجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة والسكون ويفصلون الكلام في تلك
الأجزاء تفصيلا يكون كل جزء منها مستقلا بالافادة لا يتعطف على الآخر ويسمونه البيت فتلائم
الطبع بالتجزئة أولا ثم يتناسب الأجزاء في المقامع والبادى ثم تبدأ المعنى المقصود تطبيق الكلام
عليها فليجوابه فليمتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره لاجل اختصاصه بهذا التناسب
وجعلوه ديوانا لأخبارهم وحكمهم وشرفهم ونمكا لقراءتهم في أصابة المعاني واجادة الأساليب
واستمرروا على ذلك وهذا التناسب الذي من أجل الأجزاء والمتحرك والسكون من الحروف فطرة
من بحر من تناسب الأصوات كما هو معروف في كتب الموسيقى الا أنهم لم يشعروا بما سواه لانه حينئذ
لم يحتاجوا علما ولا عرفوا صناعة وكانت البداوة أغلب نحلهم ثم تغنى الحداء منهم في حياء بليلهم
والفتيان في فضاء خلواتهم فرجعوا الأصوات وزغوا وكانوا يسمون الترنم اذا كان بالشعر غناء

وإذا كان التهليل أو نوع القراءة تغير بالعين المعجمة والباء الواحدة وعليها أبو اسحق الزجاج فانها تذكر بالغابر وهو الباقي أي بأحوال الآخرة وربما ناسبوا في غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن رشيقي آخر كتاب العمدة وغيره وكانوا يسمونه السناد وكان أكثر ما يكون منهم في الحفيف الذي يرقص عليه وعشى بالدف والزمار فيضطرب ويستخف الخلووم وكانوا يسمون هذا المزج وهذا البسيط كله من التلاحين هو من أوائلها ولا يعد أن تنطق له الطباع من غير تعليم شأن البساط كلها من الصنائع ولم يزل عند شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم فلما جاء الإسلام واستولوا على تلك الدنيا وحازوا سلطان العجم وعليه عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التي عرفت لهم مع غضايرة الدين وشدة في ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع في دين ولا معاش فيحرروا ذلك شعباً ولم يكن المملوك عندهم إلا ترجيع القراءة والتمتع بالشعر الذي هو دينهم ومذهبهم فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الترف بما حصل لهم من غنائم الأثم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا إلى الخجاز وصاروا إلى العرب وغنوا جميعاً بالعيدين والطنابير والمعارف والزمامير وسمع العرب تلحينهم للأصوات فلحنوا عليها أشعارهم وظهر بالمدينة تبسط الفارسي ولويس وسائب حاتم مولى عبيد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكرهم أخذ عنهم معيدو طبقتهم ابن سريج وأنظاره وما زالت صناعة الغناء تدرج إلى أن كملت أيام بني العباس عند إبراهيم بن المهدي وإبراهيم الموصلي وابنه اسحق وابنه حماد وكان من ذلك في دولتهم يفتاد ما تبعه الحديث بعده به وبجاليه هذا العهد وأمعنوا في اللهو واللعب وانخذلت آلات الرقص في اللبس والفضبان والأشعار التي يترجم بها عليه وجعل صنفاً وحده وانخذلت آلات أخرى للرقص تسمى بالسكرج وهي عاثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية يقبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرونها ويفرون ويتناقون وأمثال ذلك من اللعب للعد للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو وكثر ذلك يفتادوا وأما العراق وانتشر منها إلى غيرها وكان الموصلين غلام اسمه زرباب أخذ عنهم الغناء فأجاد فصرفوه إلى المغرب عبرته منه فلقن بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس فبالغنى تكرمته وركب للقائه وأسنى له الجوائز والأقطاعات والجرایات وأحلته من دولته وندمائه بمكان فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف وطما منها بأبيلية بحرر آخر وتناقل منها بعد ذهاب غضايرتها إلى بلاد العدو بأفريقية والمغرب وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صباية على تراجع عمراتها وتناقص دولها وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لأنها كالية في غير وظيفة من الوظائف الأولية الفراغ والفرح وهي أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلافه وتراجعه والله أعلم

٣٣ فصل في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوماً الكتابة والحساب

قد ذكرنا في الكتاب أن النفس الناطقة للإنسان إنما توجد فيه بالقوة وإن خرجها من القوة إلى

الفعل إنما هو بتعدد العلوم والأدراكات عن المحسوسات أولاً ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية إلى أن يصير إدراكاً بالفعل وعقلاً محسناً تكون ذاتاً روحانية ويستكمل حينئذ وجودها فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلوم والنظر بقيد عقلها فلا يبدأ بالصنائع أبداً يحصل عنها وعن ملكيتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة فلهذا كانت الحكمة في التجربة تفيد عقلاً والملكات الصناعية تفيد عقلاً والحضارة الكاملة تفيد عقلاً لأنها مجتمعة من صنائع في شأن تدبير المنزل ومعايشة أبناء الجنس وتحصيل الآداب في غاياتهم ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرائطها وهذه كلها قوانين تنظم علومها فيحصل منها زيادة عقل والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك لأنها تشمل على العلوم والأنظار بخلاف الصنائع وبيانه أن في الكتاب انتقالاً من الحروف الخطية إلى السمكات اللفظية في الخيال ومن السمكات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في النفس ذلك دائماً فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات وهو معنى النظر العقلي الذي يكسب العلوم المجهول فيكسب بذلك ملكة من النقل تكون زيادة عقل وحصل به قوة فطنة وكس في الأمور المتعددة من ذلك الانتقال ولذلك قال كسرى في كتابه لما رأى تلك الفطنة والكس فقال ديو أنه أي شياطين وجنون قلوب أو ذلك أصل اشتقاق الديوان لأهل الكتابة ويلحق بذلك الحساب فن في صناعة الحساب نوع تصرف في العدد بالضم والتفريق يحتاج فيه إلى استدلال كثير في متعود الاستدلال والنظر وهو معنى العقل والله أعلم

﴿ الفصل السادس من الكتاب الأول ﴾

في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوه ما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه مقدمة ولو اُحِق

١ ﴿ فصل في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري ﴾

وذلك أن الإنسان قد شاركت جميع الحيوانات في حيوانيتها من الحس والحركة والغذاء والسكن وغير ذلك وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحقيق معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه والاجتماع المهيء لتلك التعاون وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى والعمل به واتباع صلاح أخراه فهو مفكر في ذلك كله دائماً لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما يقتضيه من الصنائع ثم لا جل هذا الفكر وما جبل عليه الإنسان بل الحيوانات من تحصيل ما تستدعيه الطباع فيكون الفكر راغياً في تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات فيرجع إلى من سبقه يعلم أو زاد عليه بمعرفة أو إدراك أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه فيلقن ذلك عنهم ويحرم على أخذه وعلمه ثم إن فكره ونظيره يتوجه إلى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض له لذاته وحاد بعد آخر ويتعمق على ذلك حتى يصير الخالق العوارض بذلك الحقيقة ملكة له فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علماً مخصوصاً وتقشوف نفوس أهل الجيل الناشئ إلى تحصيل ذلك فيفرعون إلى أهل معرفته ويحيى التعليم من هذا فقد تبين بذلك أن

٢ فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع

وذلك أن الخلق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الذاكرة بمباديه وفروعها والوقوف على مسائل واستنباط فروعه من أصوله ومالم تحصل هذه الملكة لم يكن الخلق في ذلك الفن المتناول حاصلًا وهذه الملكة هي في غير القسم والوعى لأنها تجد في المشكلة الواحدة من الفن الواحد وعيها مشتركًا بين من شأ في ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه وبين العاقل الذي لم يحصل عفا وبين العالم النحرير والملكه إنما هي للعالم أو الشاوي في القنون دون من سواها فدل على أن هذه الملكة غير القيم والوعى والملكات كلها جسمانية سواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره كالخساب والجسمانيات كلها عسوسة فتفتقر إلى التعليم ولهذا كان السند في العلم في كل علم أو صناعة إلى مشاهير الأمة بين فيها معتبر عند كل أهل أفي وحيل وبدل أيضا على أن تعليم العلم صناعة تختلف لأصناف الحيات فيه فلذلك إمام من الأئمة المشاهير اصلاحي في التعليم يخص به شأن الصنائع كلها فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم والالكان واحدا عند جميعهم ألا ترى إلى علم الكلام كيف تخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتأخرين وكذا أصول الفقه وكذا العربية وكذا كل علم يتوجه إلى مطالعته تجد الاصطلاحات في تعليمه متخالفة فدل على أنها صناعات في التعليم والعلم واحد في نفسه وإذا تقرر ذلك فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمراته وتناقص الدول فيه وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حضرتي المغرب والأندلس واستبحر عمرائهما وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وجمهور زاخرة ورسخ فيها التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيها من الحضارة فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب الا قليلا كان في دولة الموحدين بمراكش مستفاد منها ولم ترسخ الحضارة بمراكش لبداء الدولة الموحدية في أولها وقرب عهد انقراضها عيبتها فلم تحصل أحوال الحضارة فيها الا في الأقل وبعد انقراض الدولة من مراكش ارتحل إلى الشرق من أفريقيا القاضي أبو القاسم بن زيتون لعهد أو ساطة المائة السابعة فأدرك تلميذ الامام ابن الخطيب فأخذ عنهم ولحق تعليمهم وحقق العقليات والتفانيات ورجع إلى تونس بعلم كثير وتعليم حسن وجاء على أثره من الشرق أبو عبد الله بن شعيب الدكالي كان ارتحل إليه من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع إلى تونس واستقر بها وكان تعليمه مفيدا فأخذ عنها أهل تونس واتصل سند تعليمها في تلاميذها جيلا بعد جيل حتى انتهى إلى القاضي محمد بن عبد السلام شارح ابن الحاجب وتلميذه وانتقل من تونس إلى تلمسان في ابن الامام وتلميذه فانه قرأ مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة وفي محاليس بأعيانها وتلميذ ابن عبد السلام بتونس وابن تلمسان لهذا العهد الا الامام منهم من انقلبه بحيث يحشي انقطاع سندهم ثم ارتحل من زواوة في آخر المائة السابعة أبو علي ناصر الدين الشاذلي وأدرك تلميذ أبي عمرو بن الحاجب

وأخذ عنهم ولحق تعليمهم وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة وحقق في العقليات
والنقليات وأرجع إلى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ونزل بجاية واتصل بسند تعليمه في طلبها وبما انتقل
إلى تلمسان وعمران المشد إلى من تلميذه وأوطنها وبث طريقته فيها وتلميذه لهذا العهد بجاية وتلمسان قليل
أو أقل من القليل وبقيت فارس وسائر أقطار المغرب خلوا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة
والقبروان ولم يحصل بسند التعليم فيهم ففسر عليهم حصول الملكة والخدق في العلوم وأيسر طرق هذه
الملكة فتق اللسان بالخواصة والمناظرة في المسائل العمية فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها فتجد
طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة مجالس العبدية سكوناً لا ينطقون ولا يفوضون
وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل
من يرى منهم أنه قد حصل لعدم ملكته قاصرة في علمه ان فلو ض أو ناظر أو علم وما تأم التصور الا من
قبل التعليم وانقطاع سنده والاخفافهم أبغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة
العمية وليس كذلك ومما يشهد بذلك في المغرب أن المدة المقيمة السكنى طلبه العلم بالمدارس عند موت عشرة
سنة وهي ثمان وخمس سنين وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي أقل مما ينبغي فيها الطالب العلم حصول
مبتغاه من الملكة العمية أو اليأس من تحصيلها فاقطع أمد هافي المغرب لهذه المدة لا جل عسرهما من قلة الجودة
في التعليم خاصة لا محاسن ذلك وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم
لتنافس عمران المسلمين بها منذ مشين من السنين ولم يبق من رسم العلم فيهم إلا فن العربية والآداب
اقتصروا عليه واخفظت سند تعليمه بينهم فانحفظ بحفظه وأما الفقه بينهم فوسم خلو وأثر بعد
عين وأما العقليات فلا أثر ولا عين وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتنافس العمران وتقلب
العدو على علمها إلا قليلاً بسبب البحر شغلهم بتعاليمهم أكثر من شغلهم بابتدعها والله غالب على أمره وأما
المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل أسواقه نافقة ومخورد من آخره لاتصال العمران الموفور واتصال السند
فيه وإن كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة إلا أن الله
تعالى قد أزال منها بأمنصار أعظم من تلك وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من
المشرق ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب فلم تزل موفورة وعمرانها متصلاً وسند التعليم بها قائماً فأهل
المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم بل سائر الصنائع حتى أنه ليقطن كثير من رحالة أهل المغرب إلى
المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكثر من عقول أهل المغرب وأنهم أشد نباهة وأعظم كياسة
بفطرتهم الأولى ولو أن نفوسهم الناطقة أكل بقطرتيها من نفوس أهل المغرب ويحتدون التفاوت بيننا
وبينهم في حقيقة الانسانية ويتشيعون لذلك ويولعون به لما يرون من كبرهم في العلوم والصنائع وليس
كذلك وليس بين مظهر المشرق والمغرب تناوت بهذا المقدار الذي هو تفاوت في الحقيقة الواحدة اللهم إلا
الاختلاف المتحرفة مثل الأول والسابع فإن الأمازجة فيها منحرفة والنفوس على نسبتها كما مروا بما الذي
فضل به أهل المشرق أهل المغرب هو ما يحصل في النفس من آثار الحضارة من العقل الزيد كما تقدم في

الصنائع وتزیده الآن حقيقة أو ذلك أن الحضرة لهم آداب في أحوالهم في المعاش والمكسب والبناء وأمور الدين والدنيا وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم فليهم في ذلك كله آداب يوقف عندها في جميع ما يتناولونه ويتلبسون به من أخذ وترك حتى كأنها حد ولا تتعدى وهي مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الأول منهم ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها إلى النفس أثر يكسبها عقلا جديدا تستعده لقبول صناعة أخرى ونشأ بها العقل بسرعة الأدوار والعارف ولقد بلغنا في تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا تدرك مثل أنهم يعلمون الحركات النسبية والحيوانات العجم من الماشي والطارئ مفردات من الكلام والأفعال يستغرب قدورها ويرجع أهل المغرب عن فهمها وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية يزيد الإنسان ذكاء في عقله وإضاء في فكره بكثرة الملكات الخاصة بالنفس إذ قدمنا أن النفس إنما تنشأ بالأدراكات وما يرجع إليها من الملكات فيزدادون بذلك كسبا لما يرجع إلى النفس من الآثار العلمية فيظنه العاقل تفاوتا في الحقيقة الإنسانية وليس كذلك ألا ترى إلى أهل الحضرة مع أهل البدو كيف تجد الحضرة متحيا بالذكاء، مختلفا من الكيس حتى أن البدو ليظنه أنه قد فاته في حقيقة إنسانيته وعقله وليس كذلك وما ذاك إلا جادته في ملكات الصنائع والآداب في العوائد والأحوال الحضرة ما لا يعرفه البدوي فلما امتلأ الحضرة من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها ظن كل من قصر عن تلك الملكات أنها السكينة في عقله وأن نفوس أهل البدو قصيرة بفطرتها وجبلتها عن فطرتها وليس كذلك فإنما تجد من أهل البدو ومن هو في أعلى رتبة من الفهم والسكينة في عقله وفطرنه إنما الذي ظهر على أهل الحضرة من ذلك هو رتق الصنائع والتعليم فإن لها آثارا ترجع إلى النفس كإدخالها وكذا أهل المشرق لما كانوا في التعليم والصنائع أرسخ رتبة وأعلى قدما وكان أهل المغرب أقرب إلى البداءة لما قدمناه في الفصل قبل هذا من المغفلين في بادي الرأي أنه كمال في حقيقة الإنسانية خصوصا به عن أهل المغرب وليس ذلك بصحيح فقصمه والله يزيد في الخلق ما يشاء وهو إليه السموات والأرض

٣٠ فصل في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعلم الحضارة

والسبب في ذلك أن تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع وقد كنا قدمنا أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار وعلى نسبة العمران في الكثرة والقلّة والحضارة والترقي تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة لأنه أمر زائد على المعاش فمضى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرنه إلى العلم بمن نشأ في القرى والأمصار غير المتصدية فلا يجد فيها التعليم الذي هو صنائع لفقدان الصنائع في أهل البدو كما قدمناه ولا بدله من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع كلها واعتبر ما قررناه بخلاف بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانهما صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا في

اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على انشغافهم وقتوا
 انشأخريين ولما تناقص عمر انبهاوا بغير سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة وقد العلم بها والتعليم
 وانتقل الى غير هاهنا من أمصار الاسلام ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم انما هو بالقاهرة من بلاد مصر
 لما أن عمر انبها مستبحر وحضار تها مستحكمة عند آلاف من السنين فاستحكمت فيها الصنائع وتفتتت ومن
 حملتها تعليم العلم وأكذلك فيها وحفظه ما وقع هذه العصور بهما من مائتين من السنين في دولة الترك من أيام
 صلاح الدين بن أيوب وهم جرا وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على ما يخلقونه
 من ذريتهم ثاله عليهم من الرق أو الولاء ولما غشى من معاطب الملك ونكباته فاستكروا امن بناء المدارس
 والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شر كالوهم ينظر عليها أو يصيب منها مع ما فيه
 غالبا من الجنوح الى الخير والتماس الاحور في المقاصد والأفعال فكثرت الأوقاف لذلك وعظمت
 الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة حرايتهم منها وانحل اليها الناس في طلب العلم من العراق
 والمغرب ونفتت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها والله خلق ما يشاء

٤ فصل في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العيد

(إعلم) أن العلوم التي تخوض فيها البشر ويتداولونها في الأعمار تحصيلها وتعلما هي على صنفين
 صنف طبيعي للانسان يهتدي اليه بفكره وصنف ثقلي يأخذه عن وضعه الأول هي العلوم الحكيمية
 الفلسفية وهي التي يمكن أن يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ويهتدي بمداركه البشرية الى موضوعاتها
 ومسائلهما وأنحاء براهينها وجوه تعليلها حتى يقفه نظره (١) ويبحث على الصواب من الخط فيها من
 حيث هو انسان وفكر والثاني هي العلوم الثقيلة الوضعية وهي كلها مستندة الى الخبر عن الواقع الشرعي
 ولاعمال فيها للعقل إلا في الحاق الفروع من مسائلها بالاصول لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج
 تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فتحتاج الى الحاق بوجه قياسي إلا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر
 بثبوت الحكم في الأصل وهو ثقلي فرجع هذا القياس الى الثقلي لتفرعه عنه وأصل هذه العلوم الثقيلة
 كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم
 التي نهيها للأفاد ثم يستنبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الله وبه نزل القرآن وأصناف هذه
 العلوم الثقيلة كثيرة لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المقرضة عليه وعلى أبناء جنسه
 وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالإجماع أو بالأخلاق فلا بد من النظر في الكتاب ببيان ألفاظه
 أو لا وهذا هو علم التفسير ثم بإسناد نقله وروايته الى النبي صلى الله عليه وسلم الذي جاء به من عند الله
 واختلاف روايات القراء في قراءته وهذا هو علم القراءات ثم بإسناد السنة الى صاحبها الكلام في الرواة
 الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليضع الوثوق بأخبارهم يعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هي

(١) قوله حتى يقفه نظره يستعمل وقف متعديا فنقول وقته على كذا أي أطلته عليه قاله نسر اه

علوم الحديث ثم لا بد في استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجهات توفى فيها العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو أصول الفقه وبعد هذا نحصل الشرة بعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين وهذا هو المقصود ثم أن التكليف منها بدني ومنها قلبي وهو المختص بالإيمان وما يجب أن يعتقد مما لا يعتقد وهذه هي العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأموال الخير والتعبد والعذاب والفقر والحجاج عن هذه الأدلة العقلية هو علم الكلام ثم النظر في القرآن والحديث لا بد أن تقدمه العلوم الأولية لأنه متوقف عليها وهي أصناف منها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الأدب حسبما تكلم عليها أكابر هذه العلوم العقلية كالأغصان بالغة الأسامية وأهلها وإن كانت كل ملة على الجملة لا بد فيها من مثل ذلك فهي مشار كالمقام في الجنس البعيد من حيث أنها علوم الشرعية المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة البلوغ لها وأما على الخصوص في بابة جميع الملل لأنها نسخة لها وكل ما قلنا من علوم الملل في مجاور النظر فيها محذور فقد نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن فإن صلى الله عليه وسلم لا تصدق أهل الكتاب ولا تكذبون وقولنا آمنا بالذي أنزل علينا وأنزل إليكم وإنا وإلهم وإلهم واحد ورأى النبي صلى الله عليه وسلم في يد عمر رضي الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتى نبين الغضب في وجهه ثم قال ألم آتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي ثم أن هذه العلوم الشرعية العقلية قد غشت أسواقها في هذه الأمة بما لا من يدخله وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية التي لا فوقها وهذه الاصطلاحات ورثت الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتميق وكان لكل فن رجال يرجع إليهم فيه وأوضاع يستفاد منها التعليم والعرض الشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسبما نذكره الآن عند تعدد هذه الفنون وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص المعمران فيه وانقطاع سبل العلم والتعليم كما قدمناه في الفصل قبله وما أدري ما فعل الله بالمشرق والظن به تفاق العلم فيه واتصال التعليم في العلوم وفي سائر الصنائع الضرورية والسكالية لسكرة عمراته والحضارة ووجود الأمانة لطالب العلم بالجزيرة من الأوقاف التي أنعمت بها أرواقهم والله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد ويده التوفيق والإعانة

٥ علوم القرآن من التفسير والقراءات

القرآن هو الكلام المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي الصحف وهو متواتر بين الأمة إلا أن الصحابة رويوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها وتوقف ذلك واشتهر إلى أن استغرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضا بأدائها واختصت بالانتساب إلى من اشهر بروايتها من الخيم الغضير فصارت هذه القراءات السبع أصولا للقراءة وربما زيد بعد ذلك قراءات أخر خضت بالسبع لأنها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها في النقل وهذه القراءات السبع معروفة في كتبها وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها لأنها عندكم كيفيات

للأداء وهو غير منتظم وليس ذلك عند مدح في تواتر القرآن وآياته أكثر وقولوا بتواترها
وقول آخرون بتواتر غير الأداء عنها كالدوا النسيب لعدم الوقوف على كيفية السمع وهو الصحيح ولم
زل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها إلى أن كتبت العلوم ودونت فكتبت فيما كتب من العلوم
وصارت صناعة مخصوصة وعلما مقربا أو ناقلا للناس بالشرق والأندلس في حيل بعد حيل إلى أن ملك
بشرقي الأندلس مجاهد من موالى العاصريين وكان معنانيا بهذا الفن من بين قنون القرآن لما أخذ
به مولاه المنصور ابن أبي عامر واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته فكان
سببه في ذلك وأقر واحتضن مجاهد بعد ذلك بأمره دانية والجزائر الشرقية فنقلت بها سوق أقرأة
لما كان هو من أمته وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموما وبالقراءات خصوصا فظهر لعبد
أبو عمرو الداني وبلغ الغاية فيها ووقفت عليه معرفتها واشتهت إلى روايته أسانيدها وتعددت تأليفه
فيها وعلو الناس عليها وعدوا عن غيرها واغتمدوا من بينها كتاب التيسير لهم ظهر بعد ذلك فيما
يليه من المنصور والأجيال أبو القاسم بن قبة من أهل شاطبة فعمد إلى تهذيب مادونه أبو عمرو
ولخصه فنظم ذلك كله في قصيدة ألف فيها أسماء القراء بحروف أبجد ترتيبا أحكمه ليتيسر عليه
ما قصد من الاختصار ويكون أسهل للحفظ لأجل نظمها فاستوعب فيها الفن استيعابا حسنا
وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس
وربما أضيف إلى فن القراءات فن الرسم أيضا وهي أوضاع حروف القرآن في الصحف ورسومه الخطية
لأن فيه حروفا كثيرة وفروعها على غير المعروف من قياس الخط كزيادة الياء في أبيدوز زيادة الألف
في لا أدعنه ولا أوضعوا والواو في جزاؤ الظنئين وحذف الألفات في مواضع دون أخرى ومارس فيه
من التناآت ممدودا والاسل فيه مربوط على شكل الهاء وغير ذلك وقدمت تعليق هذا الرسم الصحفي عند
الكلام في الخط فلما جاءت هذه المخالفة لأوضاع الخط وقوته احتج إلى حصرها فكتب الناس فيها
أيضا عند كتبهم في العلوم واشتهر بالمغرب إلى أبي عمرو الداني المذكور فكتب فيها كتابا من أشهرها
كتاب المنعم وأخذ به الناس وعملوا عليه ونظمه أبو القاسم الشاذلي في قصيدته المشهورة على
روى الرامدولع الناس بحفظها ثم كثرت الخلاف في الرسم في كلمات وحروف أخرى ذكرها أبو داود
وسليمان بن نجاح من موالى مجاهد في كتبه وهو من تلاميذ أبي عمرو الداني والمشهور بعمل علومه
ورواية كتبه ثم قل بعده خلاف آخر فنظم الحراز من التأخرين بالمغرب أرجوزة أخرى زاد
فيها على المنعم خلافا كثيرا وعزاه لناقليه واشتهرت بالمغرب واقتصر الناس على حفظها وهجرها
كتب أبي داود وأبي عمرو والشاذلي في الرسم **﴿ وأما التفسير ﴾** فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى
أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه وكان ينزل جملا جملا
وآيات آيات ليبين التوحيد والتموض الدينية بحسب الوقائع ومنها ما هو في العوائد الإيمانية ومنها
ما هو في أحكام الجوارح ومنها ما يتقدم ومنها ما يتأخر ويكون ناسخا له وكان النبي صلى الله عليه وسلم

يبين الجمل وغير الناسخ من المنسوخ ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومتعقبات
الحال منها متقولا عنه كما عظم من قوله تعالى إذا جاء نصر الله والفتح أنها لعلى النبي صلى الله عليه وسلم وأمثال
ذلك ونقل ذلك عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وتداول ذلك التابعون من بعدهم ونقل
ذلك عنهم ونزل ذلك متنافلا بين الصدر الأول والسلف حتى صارت المعارف علوما ودونت الكتب
فكتب الكثير من ذلك ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين وانتهى ذلك إلى الثبوت
والواقف والتهالبي وأمثال ذلك من المفسرين فكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار ثم صارت
علوم اللسان صناعة من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الأعراب والبلاغة في التراكيب
فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات للعرب لا يرجع فيها إلى نقل ولا كتاب فتنوسى ذلك
وصارت تلقى من كتب أهل اللسان فأخرج إلى ذلك في تفسير القرآن لا يدل على العرب وعلى منهاج
بلاغتهم وصار التفسير على صنفين تفسير نقلي مستند إلى الآثار المنقولة عن السلف وهي معرفة النسخ
والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآي وكل ذلك لا يعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين وقد
جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والقبول
والردود والسبب في ذلك أن العرب ما يكونوا أهل كتاب ولا علم وإنما غلبت عليهم البداهة والامية
وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه انشغوا في أسباب انكسارات وبدء الخليفة وأسرار
الوجود فأغابوا عن أهل الكتاب قلبهم ويغيبونه منهم وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع
دينهم من النصارى وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا
ما عرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية فلما أسلموا بقوا على
ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يختاطون لها مثل أخبار بدء الخليفة وما يرجع إلى
الحدائق والملاحم وأمثال ذلك وهو لا يمثل كعب الأحيار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم
فلما تلى التفسير من المنقولات عندهم وفي أمثال هذه الأعراف أخبار موفوفة عليهم وليست عارضة
إلى الأحكام فتعسر في الصحة التي يجب بها العمل وينساهل المفسرون في مثل ذلك وملؤا كتب
التفسير بهذه المنقولات وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم
بمعرفة ما ينقلونه من ذلك إلا أنهم بعد صيبتهم وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة
فقلقيت بالقبول من يومئذ فلما رجع الناس إلى التحقيق والتحريض وجاء أبو محمد بن عطية من
التأخرين بالمغرب فليخص تلك التفسير كلها ونحرم ما هو أقرب إلى الصحة منها ووضع ذلك في كتاب
متداول بين أهل المغرب والاندلس حسن المنهج وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد
في كتاب آخر مشهور بالمشرق والصنف الآخر من التفسير وهو ما يرجع إلى اللسان في معرفة اللغة
والأعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب وهذا الصنف من التفسير قل أن يفرد
عن الأول إذا الأول هو بالمقصود بالذات وإنما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة نعم قد

يكون في بعض التفاسير غالبا ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف
للزمخشري من أهل خوارزم العراق إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد فيأتي الحجاج على
مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في أي القرآن من طرق البلاغة قصار بذلك للمحققين من أهل
السنة اعتراف عنه وتحذير للجمهور من مكانه مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة
وإذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية حسنا للحجاج عنها فلا جرم أنه مأمون من
غوائله فلتنغم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان ولقدوصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض
العرفيين وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريث من عراق العجم شرح فيه كتاب الزمخشري هذا
وتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة ترضيا وبين أن البلاغة ألتفتع في الآية على ما يراه
أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة فأحسن في ذلك ما شاء مع امتناعه في سائر فنون البلاغة وفوق
كل ذي علم عليم

٦ علوم الحديث

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة لأن منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه وذلك بما ثبت في
شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لغلطا من الله بعباده وتخفيفا عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل لهم بها
قال تعالى ما نسخ من آية أو تنسخها فأت غير منها أو مثلها فاذا تعارض الخبران بالنفي والاثبات وتعد الجمع
بينهم ببعض التأويل وعلم تقدم أحدهما فحين أن المتأخر ناسخ وبمعرفة النسخ والمنسوخ من أهم علوم الحديث
وأصعبها قل الزهري أعيان الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا نسخ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من
منسوخه وكان الشافعي رضي الله عنه فيه قدم اسخفه من علوم الأحاديث النظر في الأسانيد ومعرفة
ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط لأن العمل إنما وجب بما يغلب على
الظن صدقه من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجهد في الطريق التي تحصل ذلك الظن وهو
بمعرفة رواة الحديث بالعدالة والضيقة وإعمايبت ذلك بالنقل عن أعلام الدين بتعديلهم وبراءتهم من
الجرح والغفلة ويكون لنا ذلك دليلا على القبول أو الترك وكذلك مراتب هؤلاء النقلة من الصحابة
والتابعين وتفاوتهم في ذلك وتخيرهم فيه واحدا واحدا وكذلك الأسانيد وتتفاوت بالتصالحاوا انقطاعها بأن
يكون الراوي لم يلق الراوي الذي نقل عنه وبسلامتها من العلل الموهنة لها وتنتهي بالتفاوت إلى طرفين
حكم بقبول الأثر على وردها لا سفل ويختلف في المتوسط بحسب النقول عن أئمة الشأن ولهم في ذلك ألفاظ
اصطلاحوا على وضعها لهذه المراتب المرتبة مثل الصحيح والحسن والضعيف والرسيل والنقطع والمضل
والشاذ والغريب وغير ذلك من ألقابه التداوله بينهم ويؤيدوا على كل واحد منها وتقولوا ما فيه من الخلاف
لائمة اللسان أو الوفاق ثم النظر في كيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناوله أو
أجازة وتفاوت رتبها وما علمنا في ذلك من الخلاف بالقبول والرد ثم أتبعوا ذلك بكلام في ألفاظ تنفع في

متون الحديث من غريب أو مشكل أو تصحيف أو مفترق منها أو مختلف وما يناسب ذلك هذا معظم ما ينظر فيه أهل الحديث وغالبه وكانت أحوال ثقله الحديث في عصور السلف من الصحابة والتابعين معروفة عند أهل بلده فمنهم بالحجاز ومنهم بالبصرة والكوفة من العراق ومنهم بالشام ومصر والجميع معروفون مشهورون في أعصارهم وكانت طريقة أهل الحجاز في أعصارهم في الأسانيد أعلى من سواهم وأمن في الصحة لاستبدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط وتحافهم عن قبول الغبول الخالي في ذلك وسند الطريقة الحجازية بعد السلف الإمام مالك عليه الله دينه رضي الله تعالى عنه ثم أصحابه مثل الإمام محمد بن إدريس الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وأما في كماله وكان عدد التبرعة في عهد هذا الأسانيد مرغلا صرفا ثم رها السلف ونهروا الصحيح حتى أكملوها وكتب مالك رحمه الله كتاب التوطأ أو دعه أصول الأسانيد من الصحيح المتفق عليه من غير أن يوجب أبواب الفقه ثم في الحفاظ بمعرفة طرق الأسانيد وأسانيدها المختلفة وربما يقع إسناد الحديث من طرق متعددة عن رواة مختلفين وقد يقع الحديث أيضا في أبواب متعددة باختلاف المعاني التي اشتمل عليها وجه محمد بن اسمعيل البخاري إمام الحديثين في عصره نخرج أحاديث السنة على أبوابها في مسنده الصحيح بجميع الطرق التي للحجازيين والعراقيين والشاميين واعتمدوا عليها دون ما اختلفوا فيه وكرر الأسانيد يسوقها في كل باب بمعنى ذلك الباب الذي تضمنه الحديث فتكررت لذلك أحاديثه حتى يقال أنه اشتمل (١) على تسعة آلاف حديث ومائتين منها ثلاثة آلاف متكررة وفرق الطرق والأسانيد عليها مختلفة في كل باب ثم جاء الإمام مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله تعالى فألف مسنده الصحيح هذا فيه حذف البخاري في نقل الجميع عليه وحذف المتكرر منها وجمع الطرق والأسانيد وبوب على أبواب الفقه ونزاجه ومع ذلك فلم يستوعبها الصحيح كله وقد استترك الناس عليها في ذلك ثم كتب أبو داود السجستاني وأبو عيسى الترمذي وأبو عبد الرحمن الدسوقي في السنن بأوسع من الصحيح وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل إما من الرتبة العالية في الأسانيد وهو الصحيح كما هو معروف وأما من الذي دونه من الحسن وغيره ليكون ذلك إماما للسنة والعمل وهذه هي الأسانيد المشهورة في الأمة وهي أميات كتب الحديث في السنة فاتها وإن تعددت ترجع إلى هذه في الأغلب ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها هي علم الحديث وربما يفرد عنها الناسخ والمنسوخ فيجعل غنابراسه وكذا الغريب والناس فيه تأليف مشهورة ثم المؤلف والمختلف وقد ألف الناس في علوم الحديث وأكثروا ومن خول علمائه وأئمتهم أبو عبد الله الحاكم وتأليفه مشهورة وهو الذي هذبه وأظهر محاسنه وأشهر كتابه للتأخيرين فيه كتاب أبي عمرو بن الصلاح كان لعبد أوائل المائة السابعة وتلاه يحيى الدين النويري يمثل ذلك والفن شريف في معزاه لا تهمة معرفة ما يحفظ به السنن المتقولة عن صاحب الشريعة ولقد انقطع لهذا العهد تخرج شيء من الأسانيد واستدراكها

على المتقدمين اذ العادة تشهد بأن هؤلاء الأئمة على تعدد وعلا حق عصورهم وكفايتهم واجتهادهم
 فيكونوا يغفلوا شيئاً من ائمة أو يتركوه حتى يعثر عليه التأخر هذا بعيد عنهم وإنما تنصرف العناية
 لهذا العهد إلى تصحيح الأئمة المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفها والنظر في أسانيدھا إلى
 مؤلفها وعرض ذلك على ما تقرر في علم الحديث من الشروط والأحكام لتصل الأسانيد محكمة إلى
 متنها هو ما يزيدو في ذلك على العناية بأكثر من هذه الأئمة الخمسة الألفي القليل * فأما البخاري وهو
 أعلاها رتبة فاعتصب الناس شرحه واستغلقوا مناجاه من أجل ما يحتاج اليه من معرفة الطرق المتعددة
 ورجلها من أهل الحجاز والشام والعراق ومعرفة أحوالهم واختلاف الناس فيهم ولذلك يحتاج إلى
 إيمان النظر في النسخة في ترجمه لأنه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسنده أو طريق ثم يترجم
 أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمنه من المعنى الذي ترجم به الباب وكذلك في ترجمة
 و ترجمة إلى أن يتكرر الحديث في أبواب كثيرة بحسب معانيه واختلافها ومن شرحه ولم يستوف
 هذا فيه فمد يوف حق الشرح كابن بطلان وابن الهيثم وابن التين ونحوهم ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا
 رحمهم الله يقولون شرح كتاب البخاري دين على الأئمة يعنيون أن أحداً من علماء الأئمة لم يوف ما
 يجب له من الشرح بهذا الاعتبار * وأما صحيح مسلم فكثرت عناية علماء الغرب به وأكبوا عليه
 وأجمعوا على تصحيحه على كتاب البخاري من غير التصحيح مما لم يكن على شرطه وأكثر ما وقع له في
 التراجم وأملى الامام المازري من فقهاء المالكية عليه شرحاً وسماه المعجم فوائده مسلم اشتمل على عبون
 من علم الحديث وفنون من الفقه ثم أكمله القاضي عياض من بعده وتممه وسماه إكمال المعجم وتلاها
 محي الدين النووي بشرح استوفى ما في الكتابين وزاد عليهما فجاء شرحاً وافياً * وأما كتب السنن
 الأخرى وفيها معظم مأخذ الفقهاء فأكثر شرحها في كتب الفقه إلا ما يختص بعلم الحديث فكتب
 الناس عليها واستوفوا من ذلك ما يحتاج اليه من علم الحديث وموضوعاتها والأسانيد التي اشتملت
 على الأحاديث المعمول بها من السنة * واعلم أن الأحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح
 وضعيف ومعلول وغيرهائز لها أئمة الحديث وجهاً بذهب وعرفوها ولم يبق طريق في تصحيح ما يصح
 من قبل وقد كان الأئمة في الحديث يعرفون الأحاديث بطرقها وأسانيدھا بحيث لوروي حديث
 بغير سند وطريقه يفتنون إلى أنه قد قلب عن وضعه ولقد وقع مثل ذلك للإمام محمد بن إسماعيل
 البخاري حين ورد على بغداد وقصد المحدثون امتحانه فسأوه عن أحاديث قبلوا أسانيدھا فقال
 لا أعرف هذه ولكن حدثني فلان ثم أتى بجميع تلك الأحاديث على الوضع الصحيح ورد كل من أتى إلى
 سنده وأقره بالامامة * واعلم أيضاً أن الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الأكتار من هذه الصناعة
 والأقلال فأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يقال عنده بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثاً ونحوها ومالك
 رحمه الله (١) إنا صح عنه ما في كتاب الموطأ وأثبتها ثلثمائة حديثاً ونحوها وأحمد بن حنبل رحمه الله

(١) الذي في شرح الرقاعي على الموطأ مكتوبة أقوال خمسة في عدد حديثه ولها خمسمائة ثابته بمائة ثابته

تعالى في مسنده خمسون ألف حديث ولكل ما أداه إليه اجتهاده في ذلك وقد تقول بعض البغضيين المتعصبين إلى أن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث فهذا قلت روايته ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة لأن الشريعة إنما تؤخذ من الكتاب والسنة ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير في ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة ويتلقى الأحكام عن صاحبها المبلغ لها وإنما قليل منهم من قلل الرواية لا جمل المطالع التي تعترضه فيها والعلة التي تعرض في طرقها سيما والجرح مقدم عندنا كثر فيؤديه الاجتهاد إلى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد ويكثر ذلك فتقل روايته لضعف في الطرق هذا مع أن أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق لأن المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم فأجباد أكثر والامام أبو حنيفة إنما قللت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحصيل وضعف رواية الحديث اليقيني إذا عارضها الفعل النفسي وقلت من أجلها روايته فتقل حديثه لأنه ترك رواية الحديث متعمدا خشية من ذلك ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره ردا وقبولا وأما غيره من المحدثين وهم الجمهور فتوسعوا في الشروط وكثر حديثهم والكل عن اجتهاد وقد توسع أصحابه من بعده في الشروط وكثرت روايتهم وروى الطحاوي فأكثر وكتب مسنده وهو جليل القدر إلا أنه لا يعدل الصحيحين لأن الشروط التي اعتمدها البخاري ومسلم في كتابيهما تجمع عليها بين الأئمة كما قالوه وشروط الطحاوي غير متفق عليها كإرواية عن المستور أحوال وغيره فلهذا أقدم الصحيحان بل وكتب السنن المعروفة عليه لتأخر شرحه عن شروطهم ومن أجل هذا قبل في الصحيحين بالاجماع على قبولها من جهة الاجماع على صحة ما فيها من الشروط المتفق عليها فلا تأخذك ريب في ذلك فالقول أم حق الناس بالفضل الجليل بهم والتماس الخارج الصحيحة لهم والله سبحانه وتعالى أعلم بما في حقائق الأمور

٧ علم الفقه وما يتبعه من الفرائض

اتفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكرهية والإباحة وهي متلفذة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتهما من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيها بينهم ولا بد من وقوع ضرورة أن الأدلة غالبها من النصوص وهي بلغة العرب وفي اقتضاآت ألفاظها لكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف وأيضا فائسنة مختلفة الطرق في الثبوت وتعارض في الأدلة أكثر أحكامها فتحتاج إلى إقتراب جميع وهو مختلف أيضا فالأدلة من غير النصوص تختلف فيها وأيضا فالوقائع المتجددة لا توقيها

الف وبنف ورايتها ألف وسبع مائة وعشرون خامسها سبعمائة وستون وليس فيه قول بما في هذه النسخة قاله نصر الهوري

النصوص وما كان منها غير ظاهر في المتصوص فيحمل على منصوص مشابهة بينهما وهذه كلها اشارات للخلاف ضرورية الوقوع ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والائمة من بعدهم ثم أن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ولا كان الذين يؤخذ عن جميعهم وإنما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن العارفين بنسخه ومنسوخه ومثابه وعكسه وسائر دلالاته بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه منهم من علمهم وكانوا يسمون لذلك القراء أي الذين يقرؤون الكتاب لأن العرب كانوا أمة أمية فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ وبقي الأمر كذلك صدر خلة ثم عظمعت أعمار الاسلام وذهبت الامية من العرب بملارسة الكتاب وتمكن الاستنباط وكل الفقه وأصبح صناعة وعلماً فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين طريقة أهل الرأي والقياس وأهل العراق وطريقة أهل الحديث وأهل الحجاز وكان الحديث قليلاً في أهل العراق لما فتنه فاستكثروا من القياس ومهروا فيه فقل ذلك قيل أهل الرأي ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة وإمام أهل الحجاز مالك بن أنس والشافعي من بعده ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به وم الظاهرية وجعلوا المدارك كلها منحصرة في النصوص والاجماع ورددوا القياس الجلي والعلّة المنصوصة إلى النص لأن النص على العلة نص على الحكم في جميع معاملها وكان إمام هذا المذهب داود بن علي وابنه وأصحابهما وكانت هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشهورة بين الأمة (١) وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انحدروا به وينوء على مذاهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح وعلى قولهم بعض الائمة ودرغ الخلاف عن أقوالهم وهي كلها أصول وأهية وشذ بمثل ذلك الخوارج ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوها جانب الانكار والقدح فلا تعرف شيئاً من مذاهبهم ولا يروى كتبهم ولا أثر لشيء منها إلا في مواطنهم فكذب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن والخرابج كذلك ولكل منهم كتب وتآليف وآراء في الفقه غريبة ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس أئمتته وانكار الجمهور على متخله ولم يبق إلا في الكتب المجلدة وربما يعكف كثير من الطالبين ممن تكلف بالتحال بمذاهبهم على تلك الكتب يروم أخذ فقههم منها ومذاهبهم فلا يحلو بطائل ويصير إلى مخالفة الجمهور وانكارهم عليه وربما عُد بهذه النحلة من أهل البدع بنقله العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين وقد فعل ذلك ابن حزم بالاندلس على علور تبته في حفظ الحديث وصار إلى مذهب أهل الظاهر ومهر فيه باجتهاد زعمه في أقوالهم وخالف إمامهم داود وتعرض الكثير من أئمة المسلمين فقم ذلك عليه وأوسعوامذهبه استهجاناً وانكاراً وتلقوا كتبه بالانغال والترك حتى انها ليحظر بيعها بالأسواق وربما تمزق في بعض الأحيان ولم يبق إلا المذهب أهل الرأي من العراقي وأهل الحديث من الحجاز فأما أهل العراق فأماهم الذي استقرت عندهم مذاهبهم

(١) قوله وشذ أهل البيت صوابه وشذ شيعة أهل البيت بدليل مقابلتهم بالخوارج اهـ مصححه

أبو حنيفة النعمان بن ثابت ومقامه في الفقه لا يلحق شهده بذلك أهل جلده وخصو صامالك والشافعي *
وأما أهل الحجاز فكان إمامهم مالك بن أنس الأصبحي إمام دار الهجرة رحمه الله واختص بزيادة
مدرك آخر للأحكام غير المدرك المتبعة عند غيره وهو عمل أهل المدينة لا ندرأي أنهم فيما ينفسون
عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة لمدنيهم واقتدائهم وهكذا إلى الجيل المباشرين لفعل
النبي صلى الله عليه وسلم الآخذين ذلك عنه وصار ذلك عندهم من أصول الأدلة الشرعية ووطن كثير
أن ذلك من مسائل الإجماع فأذكره لأن دلائل الإجماع لا يخص أهل المدينة من سواهم بل هو شامل
للأمة وأعلم أن الإجماع إنما هو الاتفاق على الأمر الديني عن اجتهاد ومالك رحمه الله تعالى يعتبر بعمل
أهل المدينة من هذا المعنى وإنما اعتبره من حيث اتباع الجيل بالمشاهدة للجيل إلى أن ينتهي إلى الشارع
سلوات الله وسلامه عليه وضرورة اقتدائهم بعين ذلك يعلم الله وذكر في باب الإجماع الأبواب
بها من حيث ما فيها من الاتفاق الخالص بينها وبين الإجماع إلا أن اتفاق أهل الإجماع عن نظر
واجتهاد في الأدلة واتفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستندين إلى مشاهدة من قبلهم ولو ذكرت المسئلة
في باب فعل النبي صلى الله عليه وسلم وتقريره أو مع الأدلة اختلف فيها مثل مذهب الصحابي وشرع
من قبلنا والاستصحاب لكن أليق ثم كان من بعد مالك ابن أنس محمد بن إدريس المظلي الشافعي رحمه
الله تعالى رحل إلى العراق من بعد مالك ولقي أصحاب الإمام أبي حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل
الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب وخالف مالكاً رحمه الله تعالى في كثير من مذهبه
وجاء من بعدهما أحمد بن حنبل رحمه الله وكان من عليّة الحديثين وقرأ أصحابه على أصحاب الإمام
أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء
الأربعة ودرس المقلدون من سواهم وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثرت شعب الاصطلاحات
في العلوم ولما علق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ونأخشي من إسداد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق
برأيه ولا بدنه فصرحوا بالعجز والاعواز وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء كل بمن اختصاصه من
المقلدين وحظروا أن يتداول تقليد ما فيه من التلاعب ولم يبق الا نقل مذاهبهم وعمل كل مقتد بمذهب
من قلده منهم بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية لا محصول اليوم للفقه غير هذا ومدعى
الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده وقد صار أهل الاسلام اليوم على تقليد هؤلاء
الأربعة الأربعة فأما أحمد بن حنبل فمقلده قليل بعد مذهبه عن الاجتهاد وأصلاته في محاضرة الرواية
والأخبار بعضها ببعض وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظاً للسنّة
ورواية الحديث وأما أبو حنيفة فنقله اليوم أهل العراق ومسلمة الهند والصين وما وراء النهر وبلاد
المعجم كلها لما كان مذهبه أخص بالعراق ودار السلام وكان تنفيذهم بحماية الخلفاء من بني العباس فكثرت
تأليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في الخلافات وجاؤا منها يعلم مستطرف وأنظار
غريبة وهي بين أيدي الناس وبالعرب منها شيء قليل نقله إليه القاضي ابن العربي وأبو الوليد الباجي

في رحلتها وأما الشافعي فمقلدوم بمصر أكثر مما سواها وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان
وما وراء النهر وقاصموا الحنفية في الفتوى والتدريس في جميع الأمصار وعظمت مجالس المناظرات
بينهم وشجرت كتب الخلافات بأنواع استدلالهم ثم درس ذلك كله بدروس المشرق وأقطاره وكان
الامام محمد بن ادريس الشافعي لما نزل على بني عبد الحكم بمصر أخذ عنه جماعة من بني عبد الحكم
وأشهب وابن القاسم وابن النواز وغيرهم ثم الحارث بن مسكين وبنوه ثم انقرض فقه أهل السنة من
مصر بظهور دولة الرافضة وتداول بها فقه أهل البيت وتلاشى من سواهم إلى أن ذهبت دولة العبيديين
من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب ورجع إليهم فقه الشافعي وأصحابه من أهل العراق
والشام فعاد إلى أحسن ما كان ونفق سوقه واشهر منهم يحيى الدين النووي من الحلة التي ربيت في
ظل الدولة الأيوبية بالشام وعز الدين ابن عبد السلام أيضا ثم ابن الرافضة بمصر وتي الدين ابن دقيق
العيد ثم تقي الدين السبكي بعدها إلى أن انتهى ذلك إلى شيخ الاسلام بقصر لهذا العهد وهو سراج الدين
البلقيني فهو اليوم أكبر الشافعية بمصر كبير العلماء بل أكبر العلماء من أهل العصر * وأما المالكية
الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس وإن كان يوجد في غيرهم إلا أنهم لم يقلدوا غيره لافي
التقليد لما أن رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج
إلى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقنمروا على الأندلس أخذ من علماء المدينة وشيخهم يومئذ وامامهم
مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده فرجع إليهم أهل المغرب والأندلس فقلدوه دون غيره ممن
لم تصل إليهم طريقته وأيضا فالبداءة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون
الحضارة التي لأهل العراق فكانوا إلى أهل الحجاز أميل تناسب البداءة ولهذا لم يزل المذهب المالكي
غضا عندهم ولم يأخذوا نقيض الحضارة وتهذيبها كواقع في غيره من المذاهب ولما صار مذهب كل امام
علما مخصوصا عند أهل مذهبه ولم يكن لهم سبيل إلى الاجتهاد والقياس فاحتاجوا إلى تنظير المسائل
في الأحكام وتفريقها عند الاشتباه بعد الاستناد إلى الأصول المقررة من مذهب امامهم وصار ذلك كله
محتاجا إلى ملكة واسعة يتدربها على ذلك النوع من التنظير أو التفرقة واتباع مذهب امامهم فيها
ما استطاعوا وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد وأهل المغرب جميعا مقلدون لما كان رحمه الله
وقد كان تلاميذه افرقوا بمصر والعراق فكان بالعراق منهم القاضي اسمعيل وطبقته مثل ابن خوز
منداد وابن البان والقاضي أبو بكر الأبهري والقاضي أبو الحسين بن القصار والقاضي عبد الوهاب
ومن بعدهم وكان بمصر ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم والحارث بن مسكين وطبقته ورحل
من الأندلس عبد الملك بن حبيب فأخذ عن ابن القاسم وطبقته وبت مذهب مالك في الأندلس
ودون فيه كتاب التواضعة ثم دون العتي من تلامذته كتاب العتية ورحل من أفريقية أسد بن
الفرات فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولا ثم انتقل إلى مذهب مالك وكتب على ابن القاسم في سائر
أبواب الفقه وجاء إلى القيروان بكتابه وسمى الاسدية نسبة إلى أسد بن الفران فقرأها سحنون على

أشدّهم حرصاً على الشرف ولقي ابن القاسم وأخذ عنه وعارضه بمسائل الاسدية فرجع عن كثير منها
وكتب سجنون مسائلها ودونها وأثبت ما رجع عنه وكتب لا أشد أن يأخذ بكتاب سجنون فألف
من ذلك فترك الناس كتابه واتبعوا مدونه سجنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب فكانت
تسمى المدونة المختلطة وعكف أهل القيروان على هذه المدونة وأهل الأندلس على الواضحة والعينية
ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة والمختلطة في كتابه المسمى بالمختصر وخصه أيضاً أبو سعيد البرادعي من
فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب واعتمده المشيخة من أهل إفريقية وأخذوا به وتركوا ما
سواه وكذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب العينية وعجز الواضحة وما سواها ولم تزل علماء المذهب
يتعاهدون هذه الأئمة بالشرح والإيضاح والجمع فكتب أهل إفريقية على المدونة ما شاء الله أن
يكتبوا مثل ابن يونس والمخني وابن عزرز التونسي وابن بشير وأمثالهم وكتب أهل الأندلس على
العينية ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد وأمثاله وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الأئمة من المسائل
والخلاف والأقوال في كتاب النوادر فاشتمل على جميع أقوال المذهب وقرع الأئمة كلها في هذا
الكتاب ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة وزخرت بحار المذهب المالكي في الأئمة إلى
انقراض دولة قرطبة والقيروان ثم تمسك بها أهل المغرب بعد ذلك إلى أن جاء كتاب أبي عمرو بن
الحاجب لحسن فيه طرق أهل المذهب في كل باب وتعدد أقوالهم في كل مسألة فجاء كالبرق جامع للمذهب
وكانت الطريقة المالكية بقيت في مصر من لندن الحرف بن مسكين وابن البشر وابن المهيب وابن
رشيق وابن شاوس وكانت بالاسكندرية في بني عوف وبني سند وابن عطاء الله ولم أدر ممن أخذها
أبو عمرو بن الحاجب لكنه جاء بعد انقراض دولة العبيديين وذهب فقهاء أهل البيت وظهر فقهاء السنة
من الشافعية والمالكية وما جاء كتابه إلى المغرب آخر المائة السابعة عكف عليه الكثير من طلبة المغرب
وخصوصاً أهل بجاية فكان كبير مشيختهم أبو علي ناصر الدين الزواوي هو الذي جلبه إلى المغرب فانه
كان قرأ على أئمة بجاية ونسخ مختصره ذلك فأجابه وانتشر بمطرب بجاية في تلميذه ومنهم من نقل إلى سائر
الأمصار المغربية وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد تداولون في قراءته ويشتاد سونهما يؤثر عن الشيخ
ناصر الدين من الترغيب فيه وقد شرحه جماعة من شيوخهم كابن عبد السلام وابن رشد وابن هرون
وكلهم من مشيخة أهل تونس وسابق جليلهم في الاجادة في ذلك ابن عبد السلام وجميع ذلك يتعاهدون
كتاب التهذيب في دروسهم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

٨ ﴿ علم الفرائض ﴾

وهو معرفة فروض الوارثة وتصحيح سهام القرينة مما يصح باعتبار فروضها الأصول أو مناسبتها
وذلك إذا هلك أحد الورثة وانكسرت سهامه على فروض ورثته فانه حينئذ يحتاج إلى حساب
يصح القرينة الأولى حتى يصل أهل الفروض جميعاً في القرينتين إلى فروضهم من غير تجزئة

وقد تكون هذه المناسبات أكثر من واحد واثنين وتعدد لذلك بعدد أكثر ويقدر ما تعدد يحتاج إلى الحسبان وكذلك إذا كانت فريضة ذات وجهين مثل أن يفر بعض الورثة بوارث ويكره الآخر فتصحح على الوجهين حينئذ وينظر مبلغ السهام ثم تقسم الثروة على نسب سهام الورثة من أصل الفريضة وكل ذلك يحتاج إلى الحسبان وكان غالباً فيه وجعلوه فنا مفردا وللناس فيه تأليف كثيرة أشهرها عند المالكية من متأخري الأندلس كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي ثم الجعدي ومن متأخري أفرقية ابن النمر الطرابلسي وأمثالهم وأما الشافعية والحنفية والحنابلة فله في تأليف كثيرة وأعمال عظيمة صعبة شاهدهم بانساع الباع في الفقه والحساب وخصوصاً أبا المعالي رضي الله تعالى عنه وأمثاله من أهل الأندلس وهو في شريف الجمع بين المعقول والمنقول واتصوا به إلى الحقوق في الوراثة بوجوه صحيحة يقينية عند ما يحمل المخطوط وتشكل على القاسمين والعلماء من أهل الأمصار بها عناية ومن المصنفين من يحتاج فيها إلى الغلو في الحساب وفرض المسائل التي تحتاج إلى استخراج المجهولات من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والنصرف في الجزور وأمثال ذلك فملأوها تأليفهم وهو وإن لم يكن متداولاً بين الناس ولا يفيد فيما يتداولونه من وراثتهم لغرابته وقلة وقوعه فهو يغيد المران ونحصل المصلحة في المتداول على أكمل الوجوه وقد يحتاج أكثر من أهل هذا الفن على فضله بالحديث المعقول عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الفرائض نزلت بالعلم وأنها أول ما ينسى وفي رواية نصف العلم خرجته أبو نعيم الحافظ واحتج به أهل الفرائض بناء على أن المراد بالفرائض فروض الوراثة والذي يظهر أن هذا الحمل بعيد وأن المراد بالفرائض إتمام الفرائض التكليفية في العبادات والعادات والموارث وغيرها وهذا المعنى يصح فيها التصفية والثلثية وأما فروض الوراثة فعلى أقل من ذلك كله بالنسبة إلى علم الشريعة كلها ويعين هذا المراد أن حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص أو تخصيصه بفروض الوراثة إنما هو اصطلاح ناشئ عن الفقهاء عند حدوث الفنون والاصطلاحات ولم يكن مصدر الإسلام بطلاق على هذا إلا على عمومته مشتقاً من الفروض التي هي لوعة التقدير أو القطع وما كان المراد به في إطلاقه الإجماع الفروض كإطلاقه وهي حقيقة الشرعية فلا ينبغي أن يحمل الاسم على ما كان يحمل في عصرهم فهو أليق بمرادهم منه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٩ أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافات

(اعلم) أن أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدراً وأكثرها فائدة وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف وأصول الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن ثم السنة المبينة له فعلى عبد النبي صلى الله عليه وسلم كانت الأدلة أحكام تتلقى منه بما يوحى إليه من القرآن وبينه بقوله وفعله بخطاب شفاهي لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظر وقياس ومن بعده صلوات

الله وسلامه عليه نعتد الخطاب الشافعي والمحقق القرآن بالتواتر وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان
 الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل اليها من قول أو فعل بالتقليد الصحيح الذي يغلب على الظن
 صدقة وتعين دلالة الشرع في الكتاب والسنة بهذا الاعتبار ثم ينزل الاجماع منزلة الاجماع الصحابة على
 التكبر على مخالفتهم ولا يكون ذلك الا عن مستند لا ينطبق عليهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة
 الأدلة بعصمة الجماعة قصار الاجماع دليلان ثابتان في الشرعيات ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف
 بالكتاب والسنة فإذا هم يقيسون الأشياء بالأشياء منهنما وينظرون الامثال بالامثال بالاجماع
 منهم وتسلم بعضهم البعض في ذلك فإن كثيرا من الوقائع بعد صلوات الله وسلامه عليه لم تدرج
 في النصوص الثابتة فقاموا بها بتأنيدها وألحقوها بما نص عليه ضرورة في ذلك الاخلاق تصحيح تلك
 المساواة بين الشبهين أو المثلين حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد وصار ذلك دليلا
 شرعيا بالاجماع عليه وهو القياس وهو رابع الأدلة والتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة
 وإن خالف بعضهم في الاجماع والقياس إلا أنه شذوذ وألحق بعضهم بهذه الأربعة أدلة أخرى
 لا حاجة بنا إلى ذكرها للضعف مداركمها وشذوذها تقول فيها فكان أول ما بحث هذا الفن النظر في كون
 هذه أدلة فأما الكتاب فدليله المعجزة الفاطمة في منتهى التواتر في نقله فيبقى فيه مجال للاختلاف وأما السنة
 وما نقل اليها من الاجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما قلناه معتضدا بما كان عليه العمل في حياته
 صلوات الله وسلامه عليه من إغناص الكتب والرسائل والنواحي بالأحكام والشرائع آمرا وناهيا
 وأما الاجماع فلا نقاها رضوان الله تعالى عليهم على إنكار مخالفتهم مع العصمة الثابتة للأئمة وأما
 القياس فبالاجماع الصحابة رضي الله عنهم عليه كما قدمناه هذه أصول الأدلة ثم أن المنقول من السنة يحتاج
 إلى تصحيح الخبر بالنظر في طرق النقل وعدالة الناقلين فتتميز الحالة المحصلة للظن بصدقة الذي هو
 مناط وجوب العمل وهذه أيضا من قواعد الفن ويلحق بذلك عند التعارض بين الخبرين وطلب
 التمسك منهما معرفة الناسخ والمنسوخ وهي من قبوله أيضا وأبوابه ثم بعد ذلك يتعين النظر في دلالة
 الألفاظ وذلك أن استفادة المعاني على الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق يتوقف على معرفة
 الدلالات الوضعية مفردة ومركبة والنوائين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والصرف والبيان
 وحين كان الكلام ملكة لأهلهم تكن هذه علوم ما ولا قوانين وفيمكن الفقه حينئذ يحتاج إليها لأنها
 جيلة وملكة فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيدها الجهابذة المتجردون لذلك بنقل صحيح
 ومقاييس مستنبطة صحيحة وصارت علومها يحتاج إليها الفقيه في معرفة أحكام الله تعالى ثم أن
 هناك استفادات أخرى خاصة من تراكيب الكلام وهي استفادة الأحكام الشرعية بين المعاني
 من أدلتها الخاصة من تراكيب الكلام وهو الفقه ولا يكفي فيه معرفة الدلالات الوضعية
 على الإطلاق بل لابد من معرفة أمور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة وبها
 تستفاد الأحكام بحسب ما أصل أهل الشرع وجها بذه العلم من ذلك وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة

مثل أن اللغة لا تثبت قياسا والمشارك لا يراد به معناه معا والواو لا تقتضي الترتيب والعام اذا
أخرجت أفراد الخامس منه هل يبقى حجة فيها عداها والامر للوجوب أو الندب والنفور
أو التراخي والتهني يقتضي الفساد أو الصحة والطلق هل يعمل على النفي والنس على العلة كاف
في التعدد أم لا وأمثال هذه فكانت كلها من قواعد هذا الفن ولكونها من مباحث الأدلة
كانت اقوية ثم أن النظر في القياس من أعظم قواعد هذا الفن لأن فيه تحقيق الأصل
والفرع فيما يقاس وبماثل من الأحكام وينتج الوصف الذي يقابله على الفن أن الحكم علق به في الأصل
من بين أوصاف ذلك المخل أو وجود ذلك الوصف والفرع من غير معارض يمنع من ترتيب الحكم
عليه في مسائل أخرى من توابع ذلك كلها قواعد هذا الفن (واعلم) أن هذا الفن من الفنون المستحدثة
في اللغة وكان السلف في غنيته عنه بما أن استنادا للمعاني من الألفاظ لا يحتاج فيها إلى مزيد مما عندهم من
المسئلة الاسانية وأما القوانين التي يحتاج اليها في الاستفادة الأحكام خصوصا فمنهم أخذ معظمها وأما
الاسانيد فمكونوا يحتاجون إلى النظر فيها لقرب العصر وممارسة الشبهة وخبرتهم بهم فلما انقضى
السلف وذهب الصدر الأول وانقلبت العلوم كلها صناعة كقراة من قبل إحتياج الفقهاء والمجتهدين
إلى تحصيل هذه القوانين والفوائد لاستفادة الأحكام من الأدلة فكتبوها فوائدا ثم أبرأسه سموه أصول
الفقه وكان أول من كتب فيه الشافعي رضي الله تعالى عنه أملى فيه رسالته المشهورة تكلم فيها في الأصول
والنواحي والبيان والخبر والذبح وحكم العلة المنصوصة من القياس ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا
تلك الفوائد وأوسعوا القول فيها وكتب المتكلمون أيضا كذلك الآن كتابا الفقهاء فيها أمس بالفقه
وأبقى بالفروع فكثرة الأمثلة منها والشواهد وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية والمتكلمون
يحدون صور تلك المسائل على اتفقهم ويعيدون إلى الاستدلال العقل ما لم يكن لا يغالب قوتهم ومقتضى
طريقتهم فكانت لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من القوم على النكت الفقهية والتقاط هذه القوانين من
مسائل الفقه ما لم يكن وجاء أبو زيد الدبوسي من أئمتهم فكتب في القياس بأوسع من جميعهم وشم الأبحاث
والشروط التي تحتاج إليها فيه وكلفت صناعة أصول الفقه بكمالها وتهذيب مسائلها وتعهدت قواعد وعنى
الناس بطريقة المتكلمين فيه وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتاب البرهان لآمام الحرمين
والمستصفي لغز إلى وهما من الأشعرية وكتاب العهد بعد الجبار وشروحه المعتمد لآبي الحسين البصري
وهما من المعتزلة وكانت الأربعة قواعد هذا الفن وأركانها ثم لحص هذه الكتب الأربعة خلاص من
المتكلمين التأخرين وهما الآمام غفر الدين بن الخطيب في كتاب المحصول وسيف الدين الأمدى في
كتاب الأحكام واختلفت طر القضاة في الفن بين التحقيق والحجاج فبن الخطيب أميل إلى الاستكثار
من الأدلة والاحتجاج والأمدى مولع بتحقيق المذاهب وتفريع المسائل وأما كتاب المحصول فاختصره
تلميذه الآمام سراج الدين الأرموي في كتاب التحصيل وتاج الدين الأرموي في كتاب الحاصل
واقطف شهاب الدين القرافي منها مقدمات وقواعد في كتاب صغير سماه التقيحات وكذلك فعل

البضاوي في كتاب التهاج وعنى البيهقي مذهب الكنايين وشرحه كثير من الناس وأما كتاب
 الأحكام للأمدى وهو أكثر تحقيقات المسائل فلخصه أبو عمرو بن الحاجب في كتابه المعروف بالختصر
 الكبير ثم اختصره في كتاب آخر ندوله طلبه العلم وعنى أهل المشرق والمغرب به وبمطالعة وشرحه
 وحصلت زيادة طريقة التكلمين في هذا الفن في هذه المختصرات وأما طريقة الحنفية فكتبوا فيها
 كثيرا وكان من أحسن كتابة فيها المتقدمين تأليف أبي زيد البوسني وأحسن كتابة المتأخرين فيها تأليف
 سيف الإسلام البردوي من أئمتهم وهو مستوعب وجاء ابن الساعاتي من فقهاء الحنفية بجمع بين كتاب
 الأحكام وكتاب البردوي في الطريقتين وسمى كتابه بالبدائع فجاء من أحسن الأوضاح وأوسعها
 وأثمة العلماء لهذا العهد يتداولونه قراءة وبحثا وولع كثير من علماء المعجم بشرحه والحال على ذلك لهذا
 العهد هذه حقيقة هذا العهد وتعنى موضوعات وتقدير التأليف الشهيرة لهذا العهد فيه والله
 ينفعنا بالمعلم ويجعلنا من أهله بمنه وكرمه انه على كل شيء قدير ﴿ وأما الخلافات ﴾ فاعلم أن هذا
 الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية أكثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم
 خلافا لا بد من وقوعه لما قدمناه وانسع ذلك في الملة اتساعا عظيما وكان للفقهاء أن يقدروا من شأوا منهم
 ثم لما انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار وكانوا يمكن من حسن الظن بهم اقتصر الناس على
 تقليدهم ومنعوا من تقليد سواهم انذهاب والاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواد الاتصال
 الزمان واقتضاد من يقوم على سوى هذه المذاهب الأربعة فأقيمت هذه المذاهب الأربعة أصول الملة
 وأجرى الخلاف بين التمسكين بها والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص الشرعية والأصول
 الفقهية وجرى بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب امامه تجري على أصول صحيحة وطرائق
 يوزع تحتاج بها كل على مذهبه الذي قدده وبمسك به وأجريت في مسائل الشريعة كلها وفي كل باب
 من أبواب الفقه فتارة يكون الخلاف بين الشافعي ومالك وأبو حنيفة يوافق أحدهما وتارة بين مالك
 وأبي حنيفة والشافعي يوافق أحدهما وتارة بين الشافعي وأبي حنيفة ومالك يوافق أحدهما وكان في
 هذه المناظرات بيان مأخذ هؤلاء الأئمة ومشاراة اختلافهم ومواقع اجتهدهم كان هذا الصنف من العلم
 يسمى بالخلافات ولا بد لصاحبه من معرفة القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام كما يحتاج إليها
 المجتهد الآن المجتهد يحتاج إليها للاستنباط وصاحب الخلافات يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة
 من أن يهدى بها الخالف بأدلة وهو امر ي علم جليل الفائدة في معرفة مأخذ الأئمة وأدلتهم ومران
 النظار العين على الاستدلال فيما رمون الاستدلال عليه وتألف الحنفية والشافعية فيه أكثر من التأليف
 المالكية لأن القياس عند الحنفية أصل للكثير من فروع مذهبهم كما عرفت لذلك أهل النظر والبحث
 وأما المالكية فالأثر أكثر معتمد وليسوا بأهل نظر وإضافا أكثر أهل المغرب وهم بادية غفل من
 الصنائع إلا في الأقل والفرز الذي رحمه الله تعالى فيه كتاب المأخذون لأبي زيد البوسني كتاب التعليقة ولابن
 الفصار من شيوخ المالكية عبون الأدلة وقد جمع ابن الساعاتي في مختصره في أصول الفقه جميع

ما ينبغي عليها من الفقه الخلافى مدرجاً في كل مسألة ما ينبغي عليها من الخلافات **﴿ وأما الجدل ﴾** وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم فانهما كان باب المناظرة في الرد والقبول منه وكل واحد من المناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنده في الاحتجاج ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المناظران عند حدودها في الرد والقبول وكيف يكون حال المستدل والمجيب وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً وكيف يكون خصوماً منقطعاً على اعتراضه أو معارضته وأن يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال ولذلك قيل فيه أنه معرفة بالتقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي توصل بها إلى حفظ رأي وعدمه كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره وهي طريقتان طريقة البردوي وهي خاصة بالأدلة الشرعية من النص والإجماع والاستدلال وطريقة العميدى وهي عامة في كل دليل يستدل به من أي علم كان وأكثره استدلال وهو من المناحي الحسنة والمغالطات فيه في نفس الأمر كثيرة وإذا اعتبرنا النظر المنطقي كان في الغالب أشبه بالقياس المنطقي والسوفسطائي لأن صور الأدلة والأقضية فيه عفوطة مراعاة تتحرى فيها طرق الاستدلال كما ينبغي وهذا العميدى هو أول من كتب فيها ونسب الطريقة إليه وضع الكتاب المسمى بالارشاد مختصر أو تبعه من بعده من المتأخرين كالنسفي وغيره جازاً على أنه وسلكوا مسلكه وكثرت في الطريقة التآليف وهي لهذا العهد مهجورة لتقص العلم والتعليم في الأمصار الإسلامية وهي مع ذلك كلبية وليست ضرورية والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

١٠ ﴿ علم الكلام ﴾

هو علم يتضمن الاحتجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على البدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد فلنقدم هنا لطيفة في برهان عقلي يكشف لنا عن التوحيد على أقرب الطرق ولما أخذ ثم ترجع إلى تحقيق علمه وفيما ينظر ويشير إلى حدوده في الملة ومادتها إلى وضعه فنقول أن الحوادث في العالم الكائنات سواء كانت من الدواب أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية فلا بد لها من أسباب متقدمة عليها بها تقع في مستقر العادة وغنها يتم كونه وكل واحد من هذه الأسباب حادث أيضاً فلا بد له من أسباب أخرى ولا زال تلك الأسباب مرتبة حتى تنتهي إلى مسبب الأسباب وموجدوها وخالقها سبحانه لا اله الا هو وتلك الأسباب في ارتقاءها تنفسح وتتضاعف طويلاً وعرضاً ويحار العقل في إدراكها وتعددها فلا يحصرها إلا العلم المحيط بها الأفعال البشرية والحيوانية فإن من جملة أسبابها في الشاهد التقصود والآراء إذ لا يتم كون الفعل الآراء التقصود إليه والتقصود والآراء أمور تضاهية ناشئة في الغالب عن تصورات سابقة يتلو بعضها بعضها تلك التصورات هي أسباب قصد الفعل وقد تكون أسباب تلك التصورات تصورات أخرى

وكل ما يقع في النفس من التصورات مجهول سببه اذا لم يطلع أحد على مبادئ الأمور النفسانية ولا على ترتيبها إنما هي أشياء يلقىها الله في الفكر يتبع بعضها بعضا والإنسان عاجز عن معرفة مبادئها وغاياتها وإنما يحيط علما في الغالب بالأسباب التي هي طبيعة ظاهرة ويقع في مدار كيا على نظام وترتيب لأن الطبيعة محصورة للنفس وتحت طورها وأما التصورات فنطاقها أوسع من النفس لأنها العقل الذي هو فوق طور النفس فلا تترك الكثير منها فضلا عن الإحاطة وتأمل من ذلك حكمة الشارع في نهيه عن النظر إلى الأسباب والوقوف معها فإنه وادهم فيه الفكر ولا يخلو منها بطلان ولا يفتقر بحقيقة قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وربما انقطع في وقوفه عن الارتقاء إلى ما فوقه فزلت قدمه وأصبح من الضالين المهالكين نعوذ بالله من الحرمان والحسران المنيين ولا تحسب أن هذا الوقوف أو الرجوع عنه في قدرتك واعتبارك بل هو ثوب يحصل للنفس وصيغة تستحكم من الخوض في الأسباب على نسبة تعلوها إذ لو علمنا أنها لا تحرز تأملها فلتتحرز من ذلك بقطع النظر عنها جملة وأيضا فوجه تأثير هذه الأسباب في الكبير من مبادئها مجهول لأنها إنما يوقف عليها بالعادة لا قدرنا الشاهد بالاستناد إلى الظاهر وحقيقة التأثير وكيفية عيولها وما أوتيت من العلم الأقل فلا لذلك أمرنا بقطع النظر عنها والغايات جملة والنوحي إلى مسبب الأسباب كلها وقاطعها وموجداتها لترسخ حقيقة التوحيد في النفس على ما علمنا الشارع الذي هو أعرف بمصالح ديننا وطرق سعادتنا لا غشاه على ما وراء الحس قل صلى الله عليه وسلم من مات بشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة قلن وقف عند تلك الأسباب فقد انقطع وحطت عليه كفة الكثير وإن سيج في بحر النظر والبحث عنها وعن أسبابها وتأثيراتها واحدا بعد واحد فأنما الضامن له أن لا يعود الإباحية فلذلك نهانا الشارع عن النظر في الأسباب وأمرنا بالتوحيد لئلا يطلق قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ولا تتقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله وسفه رأيه في ذلك واعلم أن الوجود عند كل مدرك في مبادئ رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها والأمر في نفسه بخلاف ذلك والحق من وراءه ألا نرى إلا صم كيف يتحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعتولات ويسقط من الوجود عند صنف السموات وكذلك الأعمى أيضا يسقط عنده صنف المراتب ولولا ما يردم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصره هو الكفاية لا أقر وأيد لكم يتبعون الكفاية في إثبات هذه الأصناف لا يقتضي فطرته وطبيعة إدراكهم ولو شئت الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكرا للمعتولات وساقطة لديه بالكيفية فإذا علمت هذا فقل هناك ضربا من الإدراك غير مدركتنا لأن ادراكنا مخلوق معدة وخلق الله أكبر من خلق الناس والحصر بمجهول والوجود أوسع نطاقا من ذلك والله من وراءهم محيط فأنهم إدراكك ومدركك في الحصر واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك فهو أحرص على سعادتك وأعم غاية فاعلم لا نعمن طور فوق إدراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك وليس ذلك بفادح في العقل ومداركه بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير أنك

لا تطلع أن ترن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الالهية وكل ما وراء
طوره فان ذلك خضع في محال ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب قطع أن يزن به
الجمال وهذا لا يدرك على أن الميزان في أحكامه غير صادق لكن العقل قد يشك عند ولا يتعدى طوره
حتى يكون له أن يحيط بالله وصفاته فانه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه وتظن في هذا الغلط
من يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا وتصور فهمه واضمحلال رأيه فقد تبين لك الحق
من ذلك وإذا تبين ذلك قلل الأسباب إذا تجاوزت في الارتقاء فطابق ادراكنا ووجودنا خرجت
عن أن تكون مدرك فيفضل العقل في بدهاء الأوهام ووعار وينقطع فلذا التوحيد هو العجز عن ادراك
الأسباب وكيفية تأثيرها وتوضيح ذلك إلى خلقها المحيط بها فلا فاعل غيره وكلها ترتق إليه وترجع
إلى قهرته وعلمنا به إغاهو من حيث صدورنا عنه وهذا هو معنى ما نقل عن بعض الصديقين العجز
عن الادراك ادراكهم أن الاعتبار في هذا التوحيد ليس هو الاعتراف فقط الذي هو تصديق حكيم فان ذلك
من حديث النفس وإنما السكالم فيه حصول صفة منه تكيف بها النفس كما أن المطلوب من الأعمال
والعبادات أيضا حصول ملكة الطاعة والالتزام وتزويج القلب عن شواغل ما سوى العبود حتى يتقلب
المرء السابق رايها والفرق بين الخلق والعلم في العقائد فرق ما بين القول والاتصاف وشرحه أن كثيرا
من الناس يعلم أن رحمة اليتيم والمساكين قريبة إلى الله تعالى مندوب إليها ويقول بذلك ويعترف به ويذكر
مأخذه من الشريعة وهو لو رأى يتيما أو مسكينا من أبناء المستضعفين لفر عنه واستنكب أن يباشره
فضلا عن التمسح عليه بالرحمة وما بعد ذلك من مقامات العطف والحنو والصدقة فهذا إنما يحصل له من
رحمة اليتيم مقام العلم ولم يحصل له مقام الحال والاتصاف ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم
والاعتراف بأن رحمة المسكين قريبة إلى الله تعالى مقام آخر أعلي من الأول وهو الاتصاف بالرحمة
وحصول ملكتها فمضى رأى يتيما أو مسكينا بأدرا إليه ومسح عليه والتمس الثواب في الشفقة عليه
لا يكاد يصبر عن ذلك ولو دفع عنه ثم تصدق عليه بما حضره من ذات يده وكذا عملك بالتوحيد مع
اتصافك به والعلم الحاصل عن الاتصاف ضرورة وهو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف
وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويشكر مرارا غير متحصرة فترسخ تلك
ويحصل الاتصاف والتحقيق ويحى العلم الثاني النافع في الآخرة فان العلم الأول المجرد عن الاتصاف
قليل الجدوى والنفع وهذا علم أكثر النظائر والمطلوب إنما هو العلم الخالي بالشيء عن العادة * واعلم
أن السكالم عند الشارع في كل ما كلف به إغاهو في هذا ما طلب اعتقاده فالسكالم في العلم الثاني الحاصل
عن الاتصاف وما طلب عمله من العبادات فالسكالم فيها في حصول الاتصاف والتحقق بهانهم أن الاقبال
على العبادات والواظبة عليها هو المحصل لهذه الشعرة الشريفة قل صلى الله عليه وسلم في رأس العبادات
جعلت قرة عيني في الصلاة فان الصلاة صارت له صفة وحالا يحد فيها منتهى لذته وقره عينه وأين هذا من
صلاة الناس ومن لهم بها فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون اللهم وفقنا واعدا الصراط

المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقد تبين لك من جميع ما قررناه
 أن المطلوب في التكليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس يحصل عنها ثم اضطراب في النفس هو
 التوحيد وهو العقيدة الإيمانية وهو الذي تحصل به السعادة وأن ذلك سواء في التكليف القلبي
 والبدني ويتضح منه أن الإيمان الذي هو أصل التكليف وينبوعها هو بهذه المائة ذو مراتب
 أولها التصديق القلبي الموافق للسان وأعلها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي وما يتبعه من
 العمل مستولية على القلب فيستتبع الجوارح وتدرج في طاعتها جميع التصرفات حتى تتخرط
 الأفعال كلها في طاعة ذلك التصديق الإيماني وهذا أرفع مراتب الإيمان وهو الإيمان الكامل الذي
 لا يقارن المؤمن معه صغيرة ولا كبيرة إذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن متابعتها
 طرفة عين قال صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وفي حديث هرقل لما سأل أبا
 سفيان ابن حرب عن النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله فقال في أصحابه عن يرتد أحد منهم سقط عليه
 قال لا قال وكذلك الإيمان حين تحالط بشاشته القلوب ومعناه أن ملكة الإيمان إذا استقرت عسر على
 النفس غالفها شأن الملكات إذا استقرت فأنها تحصل بثبات الجيلة والقطرة وهذه هي المراتبة العالية من
 الإيمان وهي في المراتبة الثانية من العصمة لأن العصمة واجبة للأنبياء وجوبا سابقا وهذه خاصية
 للمؤمنين حصولها لا يعمالهم وتصديقهم وهذه الملكة ورسوخها يقع التفاوت في الإيمان كالذي تلى
 عليك من أقوال السلف وفي تراجم البخاري رضي الله عنه في باب الإيمان كثير منه مثل أن الإيمان قول
 وعمل وزيد وينقص وأن الصلاة والصيام من الإيمان وأن تطوع ومسان من الإيمان والحياء من
 الإيمان والمراد بهذا كله الإيمان الكامل الذي أشرنا إليه وإلى ملكته وهو فعلي وأما التصديق الذي هو
 أول مراتبه فلا تفاوت فيه فمن اعتبر أوائل الأسماء وحمله على التصديق منع من التفاوت كما قال أئمة
 المتكلمين ومن اعتبر أواخر الأسماء وحمله على هذه الملكة التي هي الإيمان الكامل ظهر له التفاوت وليس
 ذلك بخادع في اتحاد حقيقته الأولى التي هي التصديق إذ التصديق موجود في جميع رتبته لأنه أقل
 ما يطلق عليه اسم الإيمان وهو الخلق من عهد الكفر والقيصل بين الكافر والمسلم فلا يجوز في أقل
 منه وهو في نفسه حقيقة واحدة لا تفاوت وإنما التفاوت في الحال الحاصلة عن الأعمال كما قلناه فافهم
 « واعلم أن الشارع وصف لنا هذا الإيمان الذي في المراتبة الأولى الذي هو تصديق وعين أمور
 غنوصة كلفنا التصديق بما نقلنا واعتقاده في أنفسنا مع الإقرار بأكسنا وهي العقائد التي تقررت
 في الدين قال صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الإيمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله
 واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره وهذه هي السائدة بالإيمانية المقررة في علم الكلام ولنشرها
 محملة لتبين لك حقيقة هذا الفن كيفية حدوده فنقول « أعلم أن الشارع نأمرنا بالإيمان بهذا الخالق الذي
 رد الأفعال كلها إليه وأفرده به كما قدمناه وعرفتنا أن في هذا الإيمان نجاة عند الموت إذا حضرنا لم يعرفنا
 بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود إذ ذلك المعتذر على إدراكنا ومن فوق طورنا فكأننا أولا اعتقاد

تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين وإلا لما صح أنه خالق لهم لعدم الفارق على هذا التقدير ثم تنزيهه
عن صفات النفس والاشباه المخلوقين ثم توحيده بالإيجاد والإلم بهم الخلق للتأنيح ثم اعتقاده أنه عالم
قادر فبذلك تم الأفعال شاهد فضيته لكمال الإيجاد والخلق ومريد والالم لمخصص شيء من المخلوقات
ومقدر لكل كائن وإلا فالارادة حادثة وإنه يعيدنا بعد الموت تكميلا لعنايته بالإيجاد ولو كان
لامر فإن كان عبثا فهو للبقاء السرمدي بعد الموت ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقاء
هذا اليعاد لاختلاف أحواله بالشقاء والسعادة وعدم معرفتنا بذلك وعلم لطفه بنا في الآيات
بذلك وبيان الطريقين وإن الجنة للنعم وجهنم للعذاب هذه أمهات العقائد الإيمانية معللة
بأدلتها العقلية وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة عن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد إليها
العلماء وحققوا الأئمة إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر مشارها من
الآي المتشابهة فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل فحدث بذلك علم
الكلام ولتبيين لك تفصيل هذا العمل وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق
الظاهر الدلالة من غير تأويل في آي كثيرة وهي أسلوب كلها وصريحة في بابها فوجب الإيمان
بها ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها ثم
وردت في القرآن آي أخرى قليلة توم التشبيه مرة في الذات وأخرى في الصفات فأما السلف
فقبلوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها وعلو استحالة التشبيه وقضوا بأن الآيات من كلام الله
فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها بحث ولا تأويل وهذا معنى قول الكثير منهم اقرؤها كما جاءت أي
آمنوا بأنها من عند الله ولا تعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن تكون ابتلاء فيجب الوقف
والإذعان له وهذا العصر متدعة اتباعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه ففرق أشبهوا في الذات
باعتماد اليد والتقدم والوجه عملا بظواهر وردت بذلك فوقها في التجسيم الصريح وغالفة آي
التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة لأن معقولية الجسم تقتضي النقص والافتقار
وتغليب آيات السلوب في التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة أولى من التعلق بظواهر
هذه التي لتاعتها غنية وجمع بين الدليلين بتأويلهم ثم يفرون من شاعة ذلك بقولهم جسم لا كالأجسام
وليس ذلك بدافع عنهم لأنه قول متناقض وجمع بين نقي واثبات إن كان بالمعقولية واحدة من الجسم
وإن خالفوا بينها ونفوا المعقولية المتعارفة فقد وافقونا في التنزيه ولم يبق إلا جعلهم لفظ الجسم اسم من
أسمائه ويتوقف مثله على الإذن وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات كاثبات الجهة والاستواء
والتزول والصوت والحرف وأمثال ذلك وآل قولهم إلى التجسيم فترعوا مثل الأولين إلى قولهم
صوت لا كالأصوات جهة لا كالجهات زول لا كالزول يعنون من الأجسام واندفع ذلك بما اندفع به
الأولون ولم يبق في هذه الظواهر إلا الاعتقادات السلف ومذاهبهم والإيمان بها كما هي لكلا يكر النقي
على معانيها بنفسها مع أنها صحيحة ثابتة من القرآن ولهذا ننظر ما تراها في عقيدة الرسالة لابن أبي زيد وكتاب

المختصرة وفي كتاب الحافظ بن عبد البر وغيرهم فاتهم بحرمون على هذا المعنى ولا تفض عنك عن
 القرائن الدالة على ذلك في غضون كلامهم ثم كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث
 في سائر الانحاء وألف المتكلمون في التنزيه حديث بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزيه في أي السلوب
 فقضوا بنى صفات المعاني من العلم والقدرة والآرادة والحياة زائدة على أحكامها لما يلزم على ذلك من
 تعدد القديم بزعمهم وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها وقضوا بنى السمع والبصر
 لسكونها من عوارض الأجسام وهو مردود لعدم اشتراط البنية في مدلول هذا التقط وإما هو إدراك
 السمع أو البصر وقضوا بنى الكلام لشبه ما في السمع والبصر ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس
 فقضوا بأن القرآن مخلوق بدعة فصرح السلف بخلافها وعظم ضرر هذه البدعة لفتها بعض الخلفاء عن
 أئمتهم فعمل الناس عليها وخالف أئمة السلف فاستحل خلافهم أيسار كثير منهم ودماءهم وكان ذلك
 سبباً لا تنهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد دفعاً في صدور هذه البدع وقام بذلك الشيخ
 أبو الحسن الأشعري إمام المتكلمين فتوسط بين الطريق ونفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية وقصر
 التنزيه على ما فسره عليه السلف وشهدت له الأدلة المختصة لعمومه فأثبت الصفات الأربع المعنوية
 والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل ورد على المبتدعة في ذلك كله وتكلم
 معهم فيما مهدوه فهدى البدع من القول بالصالح والأصلح والتحسين والتفصيل وكمل العقائد في البعثة
 وأحوال الجنة والنار والثواب والعقاب وألحق بذلك الكلام في الإمامة لما ظهر حينئذ من بدعة الإمامية
 من قولهم أنها من عقائد الأغان وأنه يجب على النبي تعيينها والخروج عن العدة في ذلك ثم هي له وكذلك
 على الأمة وقصارى أمر الإمامة أنها قضية فصلحية إجماعية ولا تلحق بالعقائد فذلك ألحقوها بمسائل
 هذا الفن وسموا مجموعة علم الكلام إمامانية من انتاخره على البدع وهي كلام صرف وليست برابعة
 إلى عمل وإمامان سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في إثبات الكلام النفس وكثرة اتباع الشيخ
 أبي الحسن الأشعري وافترق طريقته من بعده تلميذه كآبن مجاهد وغيره وأخذ عنهم القاضي أبو بكر
 الباقلاني فتصدر للإمامة في طريقتهم وذهبها ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة
 والأشعار وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد والخلاء وإن العرض لا يقوم بالعرض وأنه لا يبقى زمانين
 وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم وجعل هذه القواعد تبعاً للعقائد الإمامية في وجوب اعتقادها
 لتوقف تلك الأدلة عليها إن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول وحملت هذه الطريقة وجاءت من
 أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية إلا أن صور الأدلة تعتبر بها الأقيسة وممكن حينئذ ظاهرة في
 الملة ولو ظهر منها بعض الشيء فلم يأخذ به المتكلمون لما يستلزمها للعلوم الفلسفية المبينة للعقائد الشرعية
 بالجملة فكانت مبحورة عندهم لذلك ثم جاء بعد القاضي أبي بكر الباقلاني إمام الحرمين أبو المعالي
 في الطريقة كتاب الشامل وأوسع القول فيه ثم خصه في كتاب الارشاد واتخذ الناس إماماً لعقائدهم ثم
 انتشرت من بعد ذلك علوم المنطق في الملة وقرأه الناس وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية بأنه قانون

ومعيار الأدلة بسيرة الأدلة منها يسير من سواها ثم نظروا في تلك القواعد والتقدمات في فن الكلام
للاقدمين خالفوا الكثير منها بالبراهين التي أدلت إلى ذلك وربما أن كثيرا منها مقتبس من
كلام الفلاسفة في الطبيعيات والأهليات فلما سبروها بتعيار المنطق ردم إلى ذلك فيها ولم يعتقدوا
بطلان الدلول من بطلان دليله كما صار إليه القاضي فصارت هذه الطريقة من مصطلحهم
مباينة للطريقة الأولى وتسمى طريقة التأخرين وربما أدخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيها خالفوا
فيه من العقائد الإيمانية وجعلوا من خصوم العقائد لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة
ومذاهبهم وأول من كتب في طريقة الكلام على هذا اتحنى الغزالي رحمه الله وتبعه
الامام ابن الخطيب وجماعة فمؤثرهم واعتمدوا تقليد من هم نوع للتأخرين من بعدهم في مخالطة كتب
الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع في العلمين فحسبوه فيها واحدا من أشباه المسائل فيها * واعلم
أن المتكلمين لما كانوا يستدلون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته
وهو نوع استدلالهم غالبا والجسم الطبيعي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات وهو بعض من هذه الكائنات
الأن نظره فيها خالف لنظر المتكلم وهو ينظر في الجسم من حيث يتحرك ويمكن التكلم بنظر فيه
من حيث يدل على الفاعل وكذا نظر الفيلسوف في الأهليات إنما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه
لذاته ونظر المتكلم في الوجود من حيث أنه يدل على الموجود وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله إنما
هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية فترفع
البدع وتزول الشكوك والشبه من تلك العقائد وإذا تأملت حال الفن في حدوده وكيف تدرج كلام
الناس فيه صدر بعد صدر وكلهم يرضى العقائد صحيحة ويستنهض الجميع والأدلة علمت حينئذ ما قررناه
لك في موضوع الفن وأنه لا يعدوه ولقد اختلفت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين والتبس مسائل
الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفئتين من الآخر ولا يحصل عليه ظالم من كتبهم كما فعله
الرياضي في الطوالع ومن جاء بعده من علماء المعجم في جميع تأليفهم إلا أن هذه الطريقة قديمتها
بعض طلبة العلم للاطلاع على المذهب والأغراق في معرفة الحجاج لو فور ذلك فيها وأما إعادة طريقة
السلف بعقائد علم الكلام فأعماها للطريقة القديمة لتكاملين وأصلها كتاب الأرشاد وما حذا حذوه
ومن أراد إدخال الرد على الفلاسفة في عقائده فعليه بكتب الغزالي والامام ابن الخطيب فإنها وإن وقع
فيها مخالفة للاصطلاح القديم فليس فيها من الاختلاط في المسائل والالتباس في الموضوع ما في طريقة
هؤلاء المتأخرين من بعدهم وعلى الجملة فيبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري
لهذا العهد على طالب العلم إذ الملحدة والمبتدعة قد اقرضوا الأئمة من أهل السنة كفوا ناشأتهم فيها كتبوا
ودونوا الأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا وأما الآن فلم يبق منها إلا كلام فريز
الباري عن كثير إسمائهم وإطلاقه ولقد مثل الجنيد رحمه الله عن قوم من بهم من المتكلمين يفيضون فيه
فقال ما هؤلاء فقيل قوم يزهون الله بالأدلة عن صفات الحدوث وسمات النقص فقال نبي العيب حيث

يستحيل العيب عيب لكن فائدته في آحاد الناس وطلعة العلم فائدة معتبرة اذ لا يحسن تحمل السنة الجبل
بالحجج النظرية على عقائدها والله ولي المؤمنين

١١ ﴿ علم التصوف ﴾

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تر من عند سلف الامة
وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع
الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها وانزهد فيما يقبل عليه الجهور من لذة ومال وجاه
والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف فلما اقتضا الاقبال على الدنيا في
القرن الثاني وما بعده وجمع الناس الى مخالطة الدنيا اختص المقلوبون على العبادة باسم الصوفية والتصوفة
وقال القشيري رحمه الله ولا يشبه هذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس والظاهر أنه لقب ومن
قال اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعد من جهة القياس اللغوي قلنا وكذلك من الصوف لانهم
لم يختصوا بل به قلنا والظاهر ان قيل بالاشتقاق أنه من الصوف وفيه في الغالب مختصون بل به لما كانوا
عليه من مخالطة الناس في ليس فاخر الثياب الى ليس الصوف فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد
عن الخلق والاقبال على العبادة اختصوا بما أخذ مدركة لهم وذلك أن الانسان عاقل وانسان انما يتميز عن
سائر الحيوان بالادراك اذ ادراكه نوعان ادراك للعلوم والمعارف واليقين والظن والشك والوهم وادراك
للاحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال
ذلك فكل روح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من ادراكات وارادات واحوال وهي التي تتميز بها
الانسان وبعضها ينشأ من بعض كائناً العلم من الأدلة والفرح والحزن عن ادراك المؤمن أو الملتذذ به
والنشاط عن الجمال أو الكسل عن الاعياء وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لا بد وأن ينشأ
له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة وتلك الحال اما أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصلح
مقاماً للمريد واما أن لا تكون عبادة وانما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط
أو كسل أو غير ذلك من المقامات ولا يزال المريد يترقى من مقام الى مقام الى أن ينتهي الى
التوحيد والعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة قال صلى الله عليه وسلم من مات يشهد أن
لا اله الا الله دخل الجنة فلمريض لا بد له من الترقى في هذه الأحوال وأصلها كلها الطاعة والاخلاص
ويتقدمها الايمان ويصاحبها وتنشأ الأحوال والصفات نتائج وثمرات ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى الى
مقام التوحيد والعرفان واذ وقع تفسير في النتيجة أو خلل فاعلم أنه انما أتى من قبل التقصير في الذي قبله
وكذلك في الخواطر النفسانية والارادات القلبية فلها يحتاج المريد الى عاسبة نفسه في سائر أعماله
وينظر في حقائقها لأن حصول النتائج عن الأعمال ضروري وقصورها من الخلل فيها كذلك والمريد
يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على أسبابه ولا يشاركهم في ذلك الا القليل من الناس لان الغفلة عن هذا

كلها شاملة وغاية أهل العبادات إذا لم ينتهوا إلى هذا النوع أنهم يأتون بالطاعات غلبة من نظر الفقه في الأجزاء والامثال وهو لا يبحثون عن نتائجها بالذوق والمواجيد ليطعموا على أنها خالصة من التقصير أو لا فظهر أن أصل طريقهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والتروك والكلام في هذه الأذواق والمواجيد التي تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمريد مقام ويرتقي بها إلى غير هاتم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم إذا وضع اللغوية أعماها للمعاني المتعارفة فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلاحا عن التعبير عنه باللفظ ينسب فهمه منه فلماذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لأحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه وصار علم الشريعة على صنفين صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتاوى هي الأحكام العامة في العبادات والعبادات والمعاملات وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الأذواق والمواجيد العارضة في طريقها وكيفية الطريق منها من ذوق إلى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك كأفعلة القشيري في كتاب الرسالة والسهروردي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب الأحياء فدون فيه أحكام الورع والاقتداء ثم بين آداب للقوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم التصوف في الملة علمامدوا بآبعدادان كانت الطريقة عبادة فقط بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغيره * ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يقعها غالباً كشف حجاب الحس والإطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس أدر الشئ منها والروح من تلك العوالم وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانها وتحدد نشوءه وأعان على ذلك الذكر فإنه كالغذاء للنسمة الروح ولا يزال في نمو وتزايد إلى أن يصير شهو دايم أن كان علماو يكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الأدر الذي تعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم الدنية والفتح الإلهي وتقرب ذاته في تحقق حقيقتها من الأفق الأعلى أفق الملائكة وهذا الكشف كثير ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سوام وكذلك يدركون كثيرا من الواقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهمهم وقوى نفوسهم في الموجودات السلفية وتصير طوع إرادتهم فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون ولا يخبرون عن حقيقة شئ لم يؤمروا بالتكلم فيه بل يعدون ما يقطع لهم من ذلك عنه ويتعدون منه إذاهاجههم وقد كان الصعابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة كان حظهم من هذه البركات أو فر الخلو ولكنهم لم يقع لهم بها عناية وفي فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم كثير منها وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم ومن اتبع طريقهم من بعدهم * ثم أن قوم من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والمدارك التي وراءه واختلفت طرق

الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في أمانة تقوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكريات يحصل للنفس ادراكها الذي لها من ذاتها بهم تشوئتها وتغذيتها فإذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في مداركها حيث وأنهم كشفوا ذوات الوجود وتصور حقائقها كلها من العرش إلى القعر هكذا قال الغزالي رحمه الله في كتاب الأحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة * ثم أن هذا الكشف لا يكون صحيحاً كاملاً عندنا إلا إذا كان ناشئاً عن الاستقامة لأن الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والحلوة وإن لم يكن هناك استقامة كالسحرة والصاري وغيرهم من المرتاضين وليس مرادنا إلا الكشف الناشئ عن الاستقامة ومثاله أن المرأة الصبية إذا كانت عذبة أو معقرة وحوى بها جهة الرئي فإنه يشكّل فيها معوجاً على غير صورته وإن كانت مستقيمة تشكّل فيها للرئي صحيحاً والاستقامة للنفس كالانسياط للبرأة فيها ينطبع فيها من الأحوال والمعاني المتأخرون بهذا النوع من الكشف نكلموا في حقائق الموجودات العلوية والسفلية وحقائق الملك والروح والعرش والكرسي وأمثال ذلك وقصرت مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن فهم أدواقهم ومواقدهم في ذلك وأهل الفياض منكر عليهم ومسلم لهم وليس البرهان والدليل بواقع هذه الطريق ردأوقولنا أنه من قبيل الوجدانيات وربما قصد بعض المصنفين بيان مذهبهم في كشف الوجود وترتيب حقائقه فأنى بالأخص فلا تخفى بالنسبة إلى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم كما فعل الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح فإنه ذكر في صدر الوجود عن القائل وترتبه أن الوجود كله صادر عن صفة الوجدانية التي هي مظهر الأحدية ومما عاصد ان عن الذات الكرعية التي هي عين الواحدة لا غير ويسمون هذا الصدور بالتجلي وأول مراتب التجليات عندنا تجلي الذات على نفسه وهو يتضمن الكمال بأفاضة الأيجاد والظهور لقوله في الحديث الذي يتناقلونه كنت أكثر اغتيافاً حيث أن أعرف خلقت الخلق ليعرفوني وهذا الكمال في الأيجاد المنزل في الوجود وتفصيل الحقائق وهو عندنا عالم المعاني والحضرة الكهالية والحقيقة الحمديدية وفيها حقائق الصفات والروح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين والكمال من أهل الملة الحمديدية وهذا كله تفصيل الحقيقة الحمديدية ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهبائية وهي مرتبة المثال ثم عنها العرش ثم الكرسي ثم الأفلاك ثم عالم العناصر ثم عالم التركيب هذا في عالم الرتبة فإذا تجلت فهي في عالم الفسق ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلي والظاهر والحضرات وهو كلام لا يقتدر أهل هذا النظر على تحصيل مقتضاه لغموضوا تغلقه وبعدم ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب وكذلك ذهب آخرون منهم إلى القول بالوحدة المطلقة وهو رأي أغرب من الأول في تعقله وتغاريه يزعمون فيه أن الوجود له قوى في تفاصيله بها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها والعناصر إنما كانت بما فيها من القوى وكذلك مادتها لها في نفسها قوة بها كان وجودها ثم المركبات فيها تلك القوى متممة في القوة التي كان بها التركيب كالقوة

المعدنية فيها قوى العناصر يبولها وزيادة القوى المعدنية ثم القوى الحيوانية تتضمن القوة المعدنية
 وزيادة قوتها في نفسها وكذلك القوة الانسانية مع الحيوانية ثم القللك يتضمن القوة الانسانية وزيادة
 وكذا الذوات الروحانية والقوة الجامعة لكل من غير تفصيل هي القوة الالهية التي انبثت في جميع
 الموجودات كلية وجزئية وجمعها وأحاطت بها من كل وجه لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفاء
 ولا من جهة الصورة ولا من جهة المادة لكل واحد وهو نفس الذات الالهية وهي في الحقيقة واحدة
 بسيطة والاعتبار هو الفصل لها كالانسانية مع الحيوانية ألا ترى أنها مندرجة فيها وكأنه يكونها
 فارة يمثلونها بالجنس مع النوع في كل موجود كذا كراه وتارة بالسكل مع الجزء على طريقة المثال
 وهم في هذا كله يفرقون من التركيب والكثرة بوجه من الوجود وإنما أوجها عند الوهم والخيال
 والذي يظهر من كلام ابن دھقان في تقرير هذا المذهب ان حقيقة ما يقولونه في الوحدة شبيهة بما تقولونه
 الحكماء في الاثنان من أن وجودهما مشروط بالوجود فذا عدم الضم لم تكن الاثنان موجودا بوجه
 وكذا عدم الوجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرك الحسي بل الموجودات العقلية والتوهم
 أيضا مشروطة بوجود المدرك العقلي فذا الوجود انفصل كاه مشروط بوجود المدرك البشري فلو فرضنا
 عدم المدرك البشري جملة لم يكن هناك تفصيل الوجود بل هو بسيط واحد فالخروج والبرود الصلابة واللين
 بل والارض والماء والنار والسماء والكواكب إنما وجدت لوجود الخواص المدركة لها لما جعل في
 المدرك من التفصيل الذي ليس في الوجود وإنما هو في المدرك فقط فإذا فقدت المدرك القصة
 فلا تفصيل إنما هو ادراك واحد وهو أنا لا غير وهو يعتبر بذلك بحال النائم فإنه اذا نام وفقد الحس انما ظهر
 فقد كل محسوس وهو في تلك الحالة الا ما يفصله الخيال قالوا فكذا البقطان إنما يعتبر تلك المدركات
 كلها على التفصيل بنوع مدركه البشري ولو قدر فقد مدركه فقد التفصيل وهذا هو معنى قولهم التوهم
 لا الوهم الذي هو من جملة المدركات البشرية هذا ملخص رأيهم على ما يفهم من كلام ابن دھقان وهو في
 غاية السقوط لا نأقطع بوجود الله الذي نحن مافرون عنه وإليه ينشأ مع غيبته عن أعيننا وبوجود
 السماء المظلمة والكواكب وسائر الاشياء الغائبة عنا والانسان قاطع بذلك ولا يكابر أحد نفسه في
 اليقين مع أن المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون ان المرید عند الكشف عما يعرض له توهم هذه
 الوحدة ويسمى ذلك عند مقام الجمع ثم يترقى عنه إلى التمييز بين الموجودات ويعبرون عن ذلك بمقام
 الفرق وهو مقام المعارف المحقق ولا يد المرید عندهم من عقبة الجمع وهي عقبة صعبة لأنه يخشى على المرید
 من وقوفه عندها فتخسر حقيقته فقد تبينت مراتب أهل هذه الطريقة ثم ان هؤلاء المتأخرين
 من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيها وراء الحس توغلو في ذلك فذهب الكثير منهم إلى الحلول
 والوحدة كما أثرنا اليه وملأ الصحف منه مثل الحروري في كتاب المقامات له وغيره وتبعهم ابن العربي
 وابن سبعين وتبعهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الاسرائيلي في قصائدكم وكان سلفهم غالطين
 للاسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول والهيئة الالهيّة مذهبهم يعرف لا ولهم فاشرب

كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يفيضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان وقد أشار إلى ذلك ابن سينا في كتاب الاشارات في فصول التصوف منها فقال جل جلاله الحق أن يكون شرعة لكل وارد أو يطلع عليه إلا لو احدث بعد الواحد وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي وإنما هو من أنواع الخطابة وهو بعينه ما نقله الرافضة ودنوا به ثم قالوا بترتيب وجود الابدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في القباة حتى أنهم لما أسندوا لباس خرقه التصوف ليحصلوا أملا لطريقتهم وتخليصهم موعود إلى علي رضي الله عنه وهو من هذا المعنى أيضا وإلا فعلي رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة بتخليه ولا طريقة في لباس ولا حال بل كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أزهى الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم عبادة ولم يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه في الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزموا المجاهدة بشهد ذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر القاطمي وما شحوا اكتسبهم في ذلك مما ليس السلف المتصوفة فيه كلام بني أو إثبات وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم والله يهدي إلى الحق ثم أن كثير من الفقهاء وأهل الفتيا اتدبوا إلى هؤلاء المتأخرين في هذه المقالات وأمثالها وشملوا بالكثير سائر ما وقع لهم في الطريقة والحق أن كلامهم معهم فيه تفصيل فإن كلامهم في أربعة مواضع أحدها الكلام على المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواحد وعامة النفس على الأعمال لتحصل تلك الأذواق التي تصير مقامها وترقى منه إلى غيره كما قلناه وثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المدر كمن غلب الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوذة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الأكوان في صدورهم من موجدتها وتكونها كما هم وثالثها التصرفات في العالم والأكوان بأنواع الكرامات وأربعا القاضية مهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم بعبوديتها عنها في اصطلاحهم بالسلطات تستكمل ظواهرها فأنكر وعسن ومتأول فأما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الأذواق والمواجد في نتائجها وعامة النفس على التقصير في أسبابها فأمر لا مدفع فيه لا حدود أذواقهم فيه صحيحة والتحقيق بها هو عين السعادة وأما الكلام في كرامات القوم وأخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات فأمر صحيح غير منكر وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحق وما احتج به الأستاذ أبو إسحق الأسفري من أن أئمة الأشعرية على إنكارها لا لباسها بالمعجزة فقد فرق المحققون من أهل السنة بينه بالتجدي وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قولهم أن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مألوف لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية فإن صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وإنكارها نوع مكابرة وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك وهو معلوم مشهور وأما الكلام في الكشف واعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من التشابها

أنه وجداني عندهم وفاقدان وجدان عندهم بمنزلة أدواقهم فيه واللغات لا تعطى دلالة على مرادهم منها لأنهم
توضع الاعتراف وأكثره من المحسوسات فينبغي أن لا تعرض لكلامهم في ذلك ويتركه فيما تركناه
من التشابه ومن رزقه الله فيهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم
بها سعادة وأما اللفاظ الموحدة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤخذ بها أهل الشرع فاعلم أن
الانصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحسن والواردات فلكم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه
وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور فمن علم منهم فضله واقتداه حمل على القصد الجليل من هذا
وأن العبارة عن التواجد صعبة للفقدان الوضع لها كواقع لا ي زيد وأمثاله ومن لم يعلم فضله ولا شهرته
فمؤاخذا بما صدر عنه من ذلك إذا لم يشين لنامائهم فلنا على تأويل كلامه وأما من تكلم بمثله وهو حاضر
في حقه ولم يملك الحال مؤاخذاً أيضاً ولهذا أفق الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الخلاج لأنه تكلم في
حضور وهو مالك لحاله والله أعلم وسلف المتصوفة من أهل الرسالة أعلام الملة الذين أشرنا إليهم من
قبل لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الإدراك إنما هم من الاتباع والافتداء ما
استطاعوا ومن عرض لشيء من ذلك أعرض عنه ولم يحتفل به بل يفرون منه ورون أنه من العوائق
والخبر وأنه إدراك من إدراك النفس مخلوق حادث وأن الموجودات لا تنحصر في مدارك الإنسان
وعلم الله أوسع وخلق أكبر وشريعته بالهداية أملاك فلا ينطقون بشيء مما يدركون بل حظروا
الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والتوقف عنده بل
يلزمون طريقهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والافتداء ويأمرون أصحابهم
بالتزامها وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد والله الموفق للصواب

١٢ في علم تعبير الرؤيا

هذا العلم من العلوم الشرعية وهو حادث في الملة عندما سارت العلوم صنائع وكتب الناس فيها وأما
الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجوداً في السلف كما هو في الخلف وربما كان في الملوك والأئمة من قبل إلا
أنهم فصل النبالة ككتفاء فيه بكلام التعبيرين من أهل الإسلام وإلا فالرؤيا موجودة في صنف البشر على
الاطلاق ولا بد من تعبيرها فلقد كان يوسف الصديق صلوات الله عليه يعبر الرؤيا كما وقع في القرآن
وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر رضي الله عنه والرؤيا مدرك من
مدارك الغيب وقال صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة وقال لم يبق
من البشريات إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح وتريه وأول ما يدي به النبي صلى الله عليه وسلم
من الوحى الرؤيا فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا اقتتل
من صلاة الغداة يقول لا صحابه هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا يسألهم عن ذلك ليستبشروا بما وقع من ذلك
مما فيه ظهور الدين وإعزازه وأما السبب في كون الرؤيا مدركاً للغيب فهو أن الروح الغالب وهو

البخار اللطيف المبعث من تجويف القلب النحسي ينتشر في الشريانات ومع الدم في سائر البدن وبه تكمّل
أفعال القوى الحيوانية واحساسها فإذا أدركه اللال بكثرة التصرف في الاحساس بالحواس الخمس
وتصريف القوى الظاهرة وغطى سطح البدن ما يشاء من برد الدليل انخس الروح من سائر أقطار
البدن الى مركزه القلبي فيستجم بذلك لمعاودة فعله فتعطلت الحواس الظاهرة كلها وذلك هو معنى النوم
كما تقدم في أول الكتاب ثم أن هذا الروح القلبي هو مطية للروح العاقل من الانسان والروح العاقل
مدرك لجميع ما في عالم الامر بذاته إذ حقيقته وذاته عين الادراك وانما يمنع من تعقله المدرك الفيزية ما هو
فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه فلو قد خلا من هذا الحجاب ونجس دونه لرجع الى
حقيقته وهو عين الادراك فيعقل كل مدرك فإذا تجرد عن بعضها خفت شواعله فلا بد له من إدراك الخلة
من علمه بتدريج دلوه وهو في هذه الحالة قد خفت شواعله الحس الظاهر كلها وهي الشاغل الأعظم
فان بعد لقول ما هالك من المدارك الثلاثة من علمه وإذا أدرك ما يدرك من عوالمه رجع الى بدنه إذ هو
مادام في بدنه جسماني لا يمكنه التصرف إلا بالمدارك الجسمانية والمدارك الجسمانية للعلم إنما هي الدماغية
وتتصرف منها هو الخيال فانه يتخرج من الصور المحسوسة صوراً خيالية ثم يدفعها الى الحافظة تحفظها
الى وقت الحاجة اليها عند النظر والاستدلال وكذلك تجرد النفس منها صوراً أخرى فسامية عقلية
فيترق التجريد من المحسوس الى العقول والخيال واسطة بينهما ولذلك إذا أدركت النفس من علمها ما تدركه
ألقته الى الخيال فيصوره بالصورة المناسبة له أو يدفعه الى الحس المشترك فيراه المائتم كانه محسوس فيتنزل
المدرك من أرواح العقلي الى الحس والخيال أيضاً بواسطة هذه حقيقة الرؤيا ومن هذا التفرع يظهر لك
الفرق بين الرؤيا والصالحة واضغات الاحلام الكاذبة فانها كلها صور في الخيال بحالة النوم لكن ان كانت
تلك الصور منيرة من الروح العتلى المدركة فهو رؤيا وان كانت مأخوذة من الصور التي في الحافظة
التي كان الخيال أودعها إياها منذ اليقظة فهي واضغات احلام أو أمامني التعبير فانعلم أن الروح العتلى إذا
أدرك مدركه وألقاه الى الخيال يصوره فائما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء كما يدرك
معنى السلطان الأعظم فيصوره الخيال بصورة البحر أو يدرك العداوة فيصورها الخيال في صورة الحية
فإذا استيقظ وهو لم يعلم من أمره إلا أنه رأى البحر أو الحية فينظر المعبر بقوة التشبيه بعد أن يثبته
أن البحر صورة محسوسة وأن المدرك ورامها وهو مهتدي بقرائن أخرى تعينه له المدرك فيقول مثلاً
هو السلطان لأن البحر خلق عظيم يناسب أن يشبه به السلطان وكذلك الحية يناسب أن تشبه العدو
لعظم ضررها وكذلك الأواني تشبه النساء لأنهن أوعية وأمثال ذلك ومن المرنى ما يكون صريحاً
لا يقتصر الى تعبير جلائها ووضوحها أولئرب التشبه فيها بين المدرك وشبهه وهذا وقع في الصحيح
الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان فالرؤيا التي من الله هي الصريحة
التي لا تقتصر الى تأويل والى من الملك هي الرؤيا الصادقة تقتصر الى التعبير والرؤيا التي من
الشيطان هي الاضغات واعلم أيضاً أن الخيال إذا ألقى اليه الروح مدركه فائما يصوره في القوالب

العتادة للحس ما يكن الحس أدركه قط فلا يصور فيه فلا يمكن من ولد أعمى أن يصوره
السلطان بالبحر ولا العدو بالحية ولا النساء بالأواني لأنه لم يدرك شيئا من هذه وإنما يصوره الخيال
أمثال هذه في شهبها ومناسبتها من جنس مداركها التي هي السموات والمسمومات وليتخفظ المعبر
من مثل هذا فربما اختلط به التعبير وقد قانونه ثم أن علم التعبير علم بقوانين كلية يبنى عليها انبير عبارة
ما يقص عليه وتأويله كما يقولون البحر يدل على السلطان وفي موضع آخر يقولون البحر يدل على العدو وفي
موضع آخر يقولون هو كاتم سر وفي موضع آخر يقولون تدل على الحياة وأمثال ذلك فيحفظ المعبر هذه
القوانين الكلية ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي تعين من هذه القوانين ما هو أليق بالمرؤسا
وتلك القرائن منها في العقلة ومنها في النوم ومنها ما يتضح في نفس المعبر بالخاصة التي خلقت فيه وكل ميسر
فما خلق له ولم يزل هذا العلم متافلا بين السلف وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء وكتب عنه في ذلك
القوانين وناقضها الناس لهذا العبد وألف الكرماني فيه من بعده ثم ألف المتكلمون المتأخرون وأكثروا
والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب الفيراني من علماء القيروان مثل المعتز وغيره
وكتاب الإشارة للسالمى وهو علم مضى بنور النبوة له مناسبة بينهما كما وقع في الصحيح والله علام الغيوب

١٣ العلوم العقلية وأصنافها

وأما العلوم العقلية التي هي طبيعية للإنسان من حيث أنه ذو فكر فهي غير مخصصة بخلل يوجد النظر فيها
لأنه من الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمره إن الخليفة
وتسمى هذه العلوم علوم الفلاسفة والحكمة وهي مشتتة على أربعة علوم الأول علم المنطق وهو علم
يعصم الذهن عن الخطأ في افتناس المطالب المحبولة من الأمور الحاصلة المعلومه وفائدة تمييز الخطأ من
الصواب فيما يلتمسه الناظر في الموجودات وعوارضها بالقبض على تحقيق الحق في الكائنات بمنتهى فكره
ثم النظر بعد ذلك عندم إمام في الخصوصيات من الأجسام العنصرية والكونية عنها في المعدن والنبات
والحيوان والأجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك
ويسمى هذا الفن بالعلم الطبيعي وهو الثاني منها وإما أن يكون النظر في الأمور التي وراء
الطبيعة من الروحانيات ويسمونه العلم الإلهي وهو الثالث منها والعلم الرابع وهو الناظر في المقادير
ويشتمل على أربعة علوم وتسمى انعاليم أو لها علم الهندسة وهو النظر في المقادير على الأخلاق أما المنفصلة
من حيث كونها معدودة أو المتصلة وهي إلهي أو أبد واحد هو الخطأ أو ذو بعدين وهو السطح أو ذو
أبعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمي منظر في هذه المقادير وما يعرض لها من حيث ذاتها أو من حيث نسبة
بعضها إلى بعض وثانيها علم الأرتماطيقى وهو معرفة ما يعرض للكم المنفصل الذي هو العدد ويؤخذ له من
الخواص والعوارض اللاحقة وثالثها علم الموسيقى وهو معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض
وتقديرها بالعدد ومعرفة تلاحين الغناء ورابعها علم الهيئة وهو تعيين الأشكال للأفلاك وحصر

أوضاعها وتعدد هالك كوكب من السيارة والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة
الموجودة لكل واحد منها ومن رجوعها واستقامتها وإقبالها وإدبارها هذه أصول العلوم الفلسفية وهي
سبعة المنطق وهو المقدم منها وبعده التعاليم فالارithmetic أو لاثم الهندسة ثم الهيئة ثم الموسيقى ثم الطبيعيات
ثم الاطيات ولكل واحد فروع تنفرع عنه فمن فروع الطبيعيات الطب ومن فروع علم العدد علم الحساب
والفرائض والمعاملات ومن فروع الهيئة الارithmetic وهي قوانين حساب حركات الكواكب وتعديلها
للقوف على مواضعها من قصد ذلك من فروع النظر في النجوم علم الارithmetic حكم النجومية ونحن نتكلم عليها
واحد بعد واحد الى آخرها واعلم أن أكثر من عني بها في الازمان الذين عرفنا أخبارهم الامتان العظيمة
في الدولة قبل الاسلام وهما فارس والروم فكانت أسواق العلوم نافقة لديهم على ما بلغنا لما كان العمران
موفور فيهم والدولة والسلطان قبل الاسلام وعصره لم تكن هذه العلوم محورية في آفاقهم
وأصنافهم وكان للكلدانيين ومن قبلهم من السريانيين ومن غاصرهم من التبط عناية بالسحر والنجامة
وما يتبعها من الطالسم وأخذ ذلك عنهم الاثم من فارس ويونان فأخص بها القبط وطائفة غيرها فيهم كما وقع
في المنام من خير هاروت وماروت وشأن السحر وما نقله أهل العلم من شأن البراري بصعيد مصر ثم تابعت
الملل بخطر ذلك وتحرر عنه فدرست علومه وبطلت كأن لم تكن إلا بقيت بقاياها قلبا متحلوا هذه الصنائع والله
أعلم بصحتها مع أن سيوف الشروع قائمة على ظهورها مائة من أخبارها وأما الفرس فكان شأن هذه
العلوم العقلية عندهم عظيما ونطاقها متسع لما كانت عليه دولتهم من الضخامة واتصال الملث ولقد يقال أن
هذه العلوم انما وصلت الى يونان منهم حين قتل الاسكندر دارا وغلب على مملكة السكيدية فاستولى على كتبهم
وعلومهم ما لا يأخذ الحصر ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتب كثيرة كتب سعد بن أبي وقاص
الى عمر ابن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتلقينها المسلمين فكتب اليه عمر أن اطرحوها في الماء فإن يكن ما فيها
هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وإن يكن ضلالا فقد كفانا الله فطرحوها في النار وذبحت علوم
الفرس فيها عن أن تصل اليها أما الروم فكانت الدولة منهم يونان أولا وهذه العلوم بينهم عيال
رحب وحملها مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم واختص فيها الشاؤون منهم أصحاب
الرواق بطريقة حسنة في التعليم كانوا يقرءون في رواق يظلمهم من الشمس والبرد على ما زعموا واتصل
فيها سند تعليمهم على ما زعمون من ابن القيمان الحكيم في تليذه بقرائه الذين ثم الى تليذه افلاطون ثم
الى تليذه ارسطو ثم الى تليذه الاسكندر الاقروسي ونامسطيون وغيرهم وكان ارسطو معلما
للاسكندر ملكهم الذي غلب الفرس على ملكهم واتزع الملك من أيديهم وكان أوسعهم في هذه
العلوم قدما وأبعدهم فيها صيتا وكان يسمى العلم الاول فطارق في العلم ذكر * ولما انقرض أمر اليونان
وصار الامر لقيصرية وأخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم كانتضية الملل والشرائع فيها
وبقيت في بعضها ودواؤها علة باقية في خزائنها ثم ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيهم ثم
جاء الله بالاسلام وكان لاهل الظهور الذي لا كفاء له وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للاثم وابتدأ

أمرهم بالسذاجة والغفلة عن الصنائع حتى إذا تبجح السلطان والدولة وأخذوا من الحضارة بالخط الذي لم يكن لغیرهم مع الأمم وتفننوا في الصنائع والعلوم تشوقوا إلى الاطلاع على هذه العلوم الحكيمة بما سمعوا من الأساقفة والأقبسة انعاهد من بعض ذكركم منها وبما أسمعوا إليه أفكار الانسان فيها فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه يكتب التعاليم مترجمة فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصا على الظفر بما بقي منها وجاء المأمون بعد ذلك وكانت لدى العلم رغبة بما كان يتخلله فانبعث لهذه العلوم حرصا وأوفد الرسل على ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين وانتسخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب وعكف عليها النظار من أهل الاسلام وحذقوا في فنونها وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها وخالفوا كثيرا من آراء العلم الأول واختصوه بالرد والقبول فوقف الشهرة عنده ودونوا في ذلك القواوين وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم وكان من أكابرهم في الملة أبو نصر الفارابي وأبو علي ابن سينا بشرق والقاضي أبو الوليد بن رشد والوزير أبو بكر بن الصائغ بالاندلس إلى آخرين يفتقوا الغاية في هذه العلوم واختص هؤلاء بالشهرة والذكر واقتصر كثير على اتحال التعاليم وما يضاف إليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات ووقعت الشهرة في هذا التحل على مسند بن أحمد الجرجي من أهل الاندلس وتبعه ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها داخلة واستبوت الكثير من الناس بما جنحوا إليها وقلدوا آراءها والذنب في ذلك شئ ارتكبه ولو شاء الله ما فعلوه ثم ان المغرب والاندلس لما ركبت ريح العمران بهما وتنافست العلوم بتناقضه اضمحل ذلك منها الا قليلا من رسومه تجدها في تفريق من الناس وتحت رقة من علماء السنة ويلغى عن أهل المشرق أن يضائع هذه العلوم لم يزل عندهم موفورة وخصوصا في عراق العجم وما بعده فهاوراء النهر وأنهم على تبيح من العلوم العقلية تنو فر عمرانهم واستحكاهم الحضارة فيهم ولقد وفقت بمصر على تأليف متعددة لرجل من عظماء هراة عن بلادخراسان يشهر بسعد الدين التفتازاني منيا في علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بأن له ملكة اسحة في هذه العلوم وفي أنائها ما يدل على أن له اطلالا على العلوم الحكيمة وقدماء عليه في سائر الفنون العقلية والله يؤيد بنصره من يشاء كذلك بلغنا لهذا العيد أن هذه العلوم الفلسفية يلاذ الا فرجة من أرض رومة وما إليها من العدو الشمالية نافقة الأسواق وأن رسومها هناك متجددة ومجالس تعليمها متعددة ودواوينها جامعة متوفرة وطلبها متكررة والله أعلم بما هناك وهو غلق ما يشاء ويختار

١٤ العلوم العددية

وأولها الأرقام التي وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف اما على التوالي أو بالضعيف مثل أن الأعداد إذا توالى متفاضلة بعدد واحد فإن جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عددين بعدهما من

الطرفين بعد واحد ومثل ضعف الواسطة إن كانت عدة تلك الأعداد فردا مثل الأفراد على تواليها
 والأزواج على تواليها ومثل أن الأعداد إذا توالت على نسبة واحدة يكون أولها نصف ثانيها وثانيها نصف
 ثالثها الخ أو يكون أولها ثلث ثانيها وثانيها ثلث ثالثها الخ فإن ضرب الطرفين أحدهما في الآخر كضرب
 كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد أحدهما في الآخر ومثل ربع الواسطة إن كانت العدد فردا
 وذلك مثل أعداد زوج الزوج المتوالية من اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر ومثل ما يحدث من الخواص
 العددية في وضع الثلثات العددية والمربعات والمكعبات والمبدسات إذا وضعت متتالية في سطورها
 بأن يجمع من الواحد إلى العدد الأخير فتكون مثلثة وتنو إلى إلى الثلثات هكذا في سطر تحت
 المضاع ثم تزيد على كل مثلث ثلث الضلع الذي قبله فتكون مربعة وتزيد على كل مربع مثلث
 الضلع الذي قبله فتكون خمسة وهكذا وتو إلى الأشكال على تو إلى المضاع ويحدث جدول ذو طول
 وعرض في عرضه الأعداد على تو اليها ثم الثلثات على تو اليها ثم المربعات ثم المكعبات الخ وفي طوله كل عدد
 وأشكاله بالتمام بلغة وتحدث في جمعها قسمة بعضها على بعض طولا وعرضا خواص غريبة استقرت منها
 ونغزوت في دواوينهم مسائلها وكذلك ما يحدث للزوج والفرد وزوج الزوج وفرد الفرد وزوج
 الزوج والفردان فإن لكل منها خواص غريبة تخصها هذا الفن وليست في غيره من هذا الفن أول أجزاء
 العالم وأنها ويدخل في براهين الحساب والحكماء المتقدمين والمتأخرين فيدأ ليل وأكثروا
 بدرجته في العالم ولا يفردونه بالتأليف فصل ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة وغيره من المتقدمين
 وأما المتأخرون فهو عندهم مجبور اذ هو غير متداول ومنفعته في البراهين لا في الحساب فحيز ولذلك بعد
 أن استخلصوا زبدته في البراهين الحسابة كما فعل ابن البناء في كتاب وقع الحجاب والله سبحانه وتعالى
 أعلم **وممن فروغ علم العدد صناعة الحساب** وهي صناعة عملية في حساب الأعداد بالضم والتفريق
 فالضم يكون في الأعداد بالأفراد وهو الجمع والتضميف تضاعف عددا بأحد عدد آخر وهذا هو
 الضرب والتفريق أيضا يكون في الأعداد اما بالأفراد مثل إزالة عدد من عدد ومعرفة الباقي وهو
 الق طرح أو تقصيل عدد بأجزاء متساوية تكون عدتها مضمة وهو القسمة وسواء كان هذا الضم
 والتفريق في الصحيح من العدد أو الكسر ومعنى الكسر نسبة عددي عدد وتلك النسبة تسمى
 كسرا وكذلك يكون بالضم والتفريق في الجذور ومعناها العدد الذي يضرب في مثله فيكون المربع فإن
 تلك الجذور أيضا يدخلها الضم والتفريق وهذه الصناعة حادثة أحتيج اليها الحساب في المعاملات وأنف
 الناس فيها كثير أو تداووا في الأعمار بالتعليم للولدان ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها لأنها
 معارف متسقة وبراهين منتظمة فيدشأ عنها في الغالب عقل مضى يدرج على الصواب وقديقال من أخذ
 نفسه بتعليم الحساب أول أمره انه يغلب الصدق لما في الحساب من صحة الباني ومناقضة النفس فيصير ذلك
 خلقا يعود الصدق ويلزمه مذهبا ومن أحسن التأليف المبسوط في هذا العهد بالمغرب كتاب
 الحصار الصغير لابن البناء المراكشي فيه تلخيص ضابط لقوانين أعماله مفيد ثم شرحه بكتاب سمار في

الحجاب وهو مستغرق على الهندى بما فيه من البراهين الوثيقة الباني وهو كتاب جليل القدر أدركنا
 الشيخة معظمه وهو كتاب جدير بذلك وانما جاءه الاستغراق من طريق البرهان ببيان علوم العالم
 لأن مسائله وأعماله واضحة كلها وإذا قصد شرحها فإنما هو اعتناء العليل في تلك الأعمال وفي ذلك
 من تعمير على الفهم ما لا يوجد في أعمال الناسائل فتأمله والله يهدي بنوره من يشاء وهو القوى المتين
 ومن فروع الجبر والمقابلة ﴿﴾ وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل العلوم المفروض إذا
 كان بينهما نسبة تنطفي ذلك فاصطلحوا فيها على أن جعلوا للمجهولات مراتب من طريق الضعيف
 بالضرب أولها العدد لأن به تعيين المطلوب المجهول باستخراجها من نسبة المجهول إليه وناتجها انتهى
 لأن كل مجهول فهو من جهة إيهامه شيء وهو أيضا جند لما يلزم من تضعيفه في اثرية الثانية وناتجها مثال
 وهو أمر مهم وما بعد ذلك فعلى نسبة الاس في الضرب وبين ثم يقع العمل المفروض في المسئلة فتخرج
 الى معادلة بين اثنين أو أكثر من هذه الأجناس فيقالون بعضها بعض ويحسرون ما فيها من الكسر
 حتى يصير صحيفا ويحسبون المراتب الى أقل الاسوس إن أمكن حتى يعبر الى الثلاثة التي عليها مدار
 الجبر عنددهم وهي العدد والشيء والمثال فإن كانت المعادلة بين واحد وواحد تعين فلذلك والجند يزول
 إيهامه بمعادلة العدد وتعين والمثال وإن عدل الجذور وتعين بعدتها وإن كانت المعادلة بين واحد واثنين
 أخرجه العمل الهندسي من طريق تفصيل الضرب في الاثنين وهي مهمة فيعينها ذلك الضرب المتصل
 ولا يمكن المعادلة بين اثنين واثنين وأكثر ما انتهت المعادلة بينهم الى ست مسائل لأن المعادلة بين عدد
 وجذر ومن مفردة أو مركبة نجى ستة وأول من كتب في هذا الفن أبو عبد الله الخوارزمي وبعده
 أبو كامل شجاع بن أسلم وجاء الناس على أثره فيه وكتاب في مسائل الست من أحسن الكتب
 الموضوع في شرحه كثير من أهل الاندلس فأجادوا ومن أحسن شروحاته كتاب القريشي وقد
 بلغنا أن بعض أئمة العالم من أهل المشرق أنهى المعاملات الى أكثر من هذه الستة أجناس وبلغها
 الى فوق العشرين واستخرج لها كلها أعمالا وأتبعه براهين هندسية والله يزيد في الخلق ما يشاء
 سبحانه وتعالى ﴿﴾ ومن فروع أيضا المعاملات ﴿﴾ وهو تصريف الحساب في معاملات المدن في
 البياعات والمساحات والركوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات يصرف في ذلك صناعات الحساب
 في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها والغرض من تكثير المسائل المفروضة
 فيها حصول المراتب والدرية بتكرار العمل حتى ترسخ الملكة في صناعة الحساب ولا أهل الصناعة
 الحسابية من أهل الاندلس تأليف فيها متعددة من أشهرها معاملات الزهر اوى وابن السمع وأبي
 مدين خلدون من تلميذ مسلمة الجريطى وأما لهم ﴿﴾ ومن فروع أيضا الفرائض ﴿﴾ وهي صناعة
 حسابية في تصحيح السهام لذوى القروض في الوراثات إذا تعددت وهلك بعض الوارثين
 وانكسرت سهامه على وورثته أو زادت القروض عدا اجتماعها وراحها على المثال كله أو كان في الفريضة
 إقرار وإنكار من بعض الورثة فيحتاج في ذلك كله الى عمل يبين به سهام الفريضة من كم تصح وسهام

الورثة من كل بطن مصححا حتى تكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة سهامهم من حصة سهام
 القرينة فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحه وكسره وحضره ومعلومه ومجهوله وترتب
 على ترتيب أبواب الفرائض الفقهية ومسائلها فتشتمل حينئذ هذه الصناعة وعلى جزء من الفقه وهو
 أحكام الوراثة من القروض والعول والأقرار والانتكاز والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسائلها
 وعلى جزء من الحساب وهو تصحيح السهمان باعتبار الحكم الفقهي وعلى من أجل العلوم وقد يورد
 أهلها أحاديث نبوية تشهد بفضلها مثل الفرائض ثلث العلم وأنها أول ما يرفع من العلوم وغير ذلك
 وعندى أن ظواهر تلك الأحاديث كلها إنما هي في الفرائض العينية كما تقدم لأفرائض الوراثة فأنها أقل
 من أن تكون في كميتها ثلث العلم وأما الفرائض العينية فكثيرة وقد ألفت الناس في هذا الفن قديما
 وحديثا وأوجبوا ومن أحسن التأليف فيه على مذهب مالك رحمه الله كتاب ابن ثابت وعقصر القاضي
 أبي القاسم الخوافي وكتاب ابن المنذر والجمعي والسري وغيرهم لكن الفضل الخوافي في كتابه مقدم على
 جميعها وقد شرحه من شيوخنا أبو عبد الله سليمان الشافعي كبير مشيخة فاس فأوضح وأوجب ولا مام
 الحرميين فيها تأليف على مذهب الشافعي تشهد بانساع باعده في العلوم ورسوخ قدمه وكذا الحقيقة
 والحنابلة ومقامات الناس في العلوم مختلفة والله يهدي من يشاء عن صوابه

١٥ العلوم الهندسية

هذا العلم هو النظر في المقادير أما المتصلة كالخط والسطح والجسم وأما المنفصلة كالأعداد وفيما تعرض
 لها من العوارض الذاتية مثل أن كل مثلث فزاياه مثل قائمتين ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان
 في وجه ولو خرجا إلى غير نهاية ومثل أن كل خطين متقاطعين فإن زوايا المتقابلتان منهما متساويتان
 ومثل أن الأربعة مقادير متناسبة ضرب الأوزانها في الثالث كضرب الثاني في الرابع وأمثال ذلك في
 الكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب أوقليدس ويسمى كتاب الأصول وكتاب الأركان
 وهو أبسط ما وضع فيها للتعلمين وأول ما ترجم من كتاب اليونانيين في المئة أيام أبي جعفر المنصور
 ونسخه مختلفة باختلاف المترجمين منها الحسين بن إسحق ولطاب بن قرة وليوسف بن الجراح ويشتمل
 على خمس عشرة مقالة أربعة في السطوح وواحدة في الأقدار المتناسبة وأخرى في نسب الطوح بعضها
 التي بعض وتلات في العدد والعاشر في المنطقات والقوى على المنطقات ومعناه الجدور وخمس في الجسيمات
 وقد اختصره الناس اختصارات كثيرة كما فعلها ابن سيناف في العالم الشفاء وأقر دجرا منها اختصاره وكذلك
 ابن الصلت في كتاب الاقتصاد وغيرهم وشرحه آخرون شروحا كثيرة وهو مبدأ العلوم الهندسية
 باطلاقي واعلم أن الهندسة تعيد صاحبها إضاءة في عقله واستقامة في فكره لأن براعمها كلها بيئة
 النظام جليلة الترتيب لا يكاد الغلط يدخل أقيسها لترتيبها وانتظامها فيعد الفكر عار مستباحا خطأ
 وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المنبع وقد زعموا أنه كان مكتوبا على باب أفلاطون من لم يكن مهندسا فلا

يدخلن منزلنا وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون بممارسة علم الهندسة للفكر بثابة الصابون للشوب الذي
يعمل منه الاقدار ويتقيه من الاضرار والاداران وانما ذلك لما اشرنا اليه من ترتيبه وانتظامه
ومن فروع هذا الفن الهندسة المخصوصة بالاشكال الكرية والمخروطات **﴿** أما الاشكال الكرية
ففيها كتابان من كتب اليونانيين لناودوسيوس وميلاوش في سطوحها وقطوعها وكتاب
ناودوسيوس مقدم في التعليم على كتاب ميلاوش لتوقف كثير من رايهيه عليه ولا بد منهما من
يريد الخوض في علم الهيئة لأن رايهيهام متوقفة عليهما فالكلام في الهيئة كله كلام في الكرات
عساو بنو ما تعرض فيها من القطوع والدوائر باسباب الحركات كان ذكره فتدقيق في معرفة أحكام
الاشكال الكرية سطوحها وقطوعها وأما المخروطات فهو من فروع الهندسة أيضا وهو علم ينظر
فيما يقع في الأجسام المخروطية من الاشكال والقطوع ويرهن على ما تعرض لذلك من العوارض يراهين
هندسية متوقفة على التعليم الاول وقائمتها تظهر في الصنائع العلمية التي موادها الاجسام مثل
التجارة والبناء وكيف تصنع النابيل الغريبة والمياكل النادرة وكيف يتحمل على جبال القل وقل
المياكل بالهندام واليخاك وأمثال ذلك وقد أفردي بعض المؤلفين في هذا الفن كتابا في الحيل العلمية
يتضمن من الصنائع الغريبة والحيل المستظرفة كل عجيبة ورعا استغلق على الفهم لصعوبة رايهيه
الهندسية وهو موجود فأكثر الناس ينسبونه الى بنى ساكر والله تعالى أعلم **﴿** ومن فروع الهندسة
الساحية **﴿** وهو فن يحتاج اليه في مسح الارض ومعناه استخراج مقدار الارض المعلومة بنسبة شهر أو
فراخ أو غيرها ونسبة أرض من أرض إذا قويت بمثل ذلك وعحتاج الى ذلك في توظيف الحراج على
المزارع والحدود وقسامين الغراس وفي قسمة الحوائط والاراضي بين الشركاء أو الورثة وأمثال ذلك
ولناس فيها موضوعات حسنة وكثيرة والله اللوفق للصواب بمنه وكرمه **﴿** المناظر من فروع الهندسة **﴿**
وهو علم يبين بأسباب الغلط في الادراك البصري بمعرفة كيفية وقوعها بناء على أن إدراك البصر يكون
بمخروط شعاعي رأسه يقطعه الباصر وقاعدته المرئي ثم يقطع الغلط كثيرا في رؤية القريب كثيرا
والبعيد جفيرا وكذا رؤية الاشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الاجسام الشفافة كبيرة ورؤية النقطة
النازلة من الطير خطا مستقيما والسلعة دائرة وأمثال ذلك فيبين في هذا العلم أسباب ذلك وكيفية
البراهين الهندسية ويبين أيضا اختلاف النظر في الامر باختلاف العروض الذي يبنى عليه معرفة
رؤية الالهة وحصول الكسوفات وكثير من أمثال هذا وقد ألف في هذا الفن كثير من اليونانيين
وأشهر من ألف فيه من الاسلاميين ابن الهيثم وغيره فيه أيضا تأليف وهو من هذه الرياضة وتنازلها

وهو علم ينظر في حركات الكواكب الكاجة والتحركات والتجيزة ويستدل بكيفيات تلك الحركات
على أشكال وأوضاع الافلاك لزمت عنها هذه الحركات المخصوصة بطرق هندسية كما يبرهن على أن

مركز الأرض مابين مركز فلك الشمس بوجود حركة الاقبال والادبار وكما يستدل بالرجوع والاستقامة
 للكواكب على وجود أفلاك صغيرة حاملة لها متحركة داخل فلكها الأعظم وكما يبرهن على وجود
 الفلك الثامن بحركة الكواكب الثابتة وكما يبرهن على تعدد الأفلاك للكواكب الواحد بتعداد
 الميول له وأمثال ذلك وأدراك الموجود من الحركات وكيفياتها وأجناسها إنما هو بالرصد فانما إنما
 علمنا حركة الاقبال والادبار وكذا تركيب الأفلاك في طبقاتها وكذا الرجوع والاستقامة وأمثال
 ذلك وكان اليونانيون يعنون بالرصد كثيرا ويخفون في الآلات التي توضع ليرصد بها حركة الكواكب
 المعين وكانت تسمى عندهم ذات الحلق وصناعة عمليا والبراهين عليه في مطابقة حركتها بحركة
 الفلك منقول بأيدي الناس وأما في الاسلام فلم تنفع به غاية الا في القليل وكان في أيام المأمون شيء منه
 وضع الآلة المعروف بحد الساعات ذات الحلق وشروع في ذلك فلم يتم ولمات ذهب رسمه وأفقل واعتمد
 من بعده على الأرصاد القديمة وليست بمغنية لاختلاف الحركات بالتصال الاحقاب وان مطابقة حركة
 الآلة في الرصد بحركة الأفلاك والكواكب إنما هو بالتقريب ولا يعطى التحقيق فلذا ظال الزمان
 ظهر تفاوت ذلك بالتقريب وهذه الهيئة صناعة شريفة وليست على ما يفهم في الشهور أنها تعطى صورة
 السموات وترتيب الأفلاك والكواكب بالحقيقة بل إنما تعطى أن هذه الصورة والهيئات للأفلاك
 تؤمت عن هذه الحركات وأنت تعلم أنه لا يعد أن يكون الشيء الواحد لازما مختلفين وإن قلنا ان
 الحركات لازمة فهو استدلال باللازم على وجود المزموم ولا يعطى الحقيقة بوجه على أنه علم جليل وهو
 أحد أركان التعاليم ومن أحسن التأليف فيه كتاب المخطي منسوب لبطليموس وليس من ملوك
 اليونان الذين أسماؤهم بطليموس على ما حققه شرح الكتاب وقد اختصره الأئمة من حكماء الاسلام
 كما فعله ابن سينا وأدرجه في تعاليم الفقه والحسد ابن رشد أيضا من حكماء الأندلس وابن السمعاني
 الصلت في كتاب الاقتصار ولابن القرقاني عبدة ملخصة قريها وحذف براهين الهندسية والله أعلم
 الانسان ما لم يعلم سبحانه لا إله الا هو رب العالمين ومن فروعه علم الأزياج وهي صناعة حسابية
 على قوانين عديدة فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى إليه برهان الهيئة وضع من معرفة
 وبيضاء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف بمواضع الكواكب في أفلاكها في وقت فرض من
 قبل حسابان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة وهذه الصناعة قوانين كالمتقدمات
 والاصول لها في معرفة الشهور والأيام والتواريخ الفاضية وأصول متفرقة من معرفة الأوج
 والحضيض والبول وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض يصعونها في جداول مرتبة تسهل على
 المتعلمين وتسمى الأزياج ويسمى استخراج مواضع الكواكب الوقت المفروض لهذه الصناعة
 تعديلا وتقوموا للناس فيه تأليف كثيرة للمتقدمين والمتأخرين مثل البتاني (١) وابن الكياد وقد
 عول التأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيج منسوب لابن اسحق من منجمي تونس في أول المائة

(١) قوله البتاني بفتح الواو وحده واشهد إنشاء كما منبسطه ابن خاتم كان في ترجمته فيبين آخر العهد بن اه

السابعة ويزعمون أن ابن اسحق عول فيه على الرصد وأن يهوديا كان بصليته ماهر في الهيئة والتعالم وكان قد عني بالرصد وكان يبعث إليه بما يقع في ذلك من أحوال الكواكب وحركاتها فكان أهل المغرب لذلك عنوا بوثاقه مبناه على ما يزعمون ولخصه ابن البناء في آخر سماه المنهاج فولع به الناس لما سهل من الأعمال فيه وإغنا يحتاج إلى مواضع الكواكب من الفلك اتفق عليها إلا أحكام النجومية وهو معرفة الآثار التي تحدث عنها بأوضاعها في علم الإنسان من المالك والدول والو اليد البشرية كالتبينة بعد وفوض فيه أدلتهم أن شاء الله تعالى والله الموفق لما يحبه ويرضاه لا معبود سواه

١٧ علم المنطق

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود والمعرفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات وذلك أن الأصل في الإدراك إتمامه المحسوسات بالحواس الخمس وجميع الحيوانات مشتركة في الإدراك من الناطق وغيره وإغنا تميز الإنسان عنها بإدراك السكيات وهي مجردة عن المحسوسات وذلك بأن يحصل في الخيال من الأشخاص المنطقية صورة منطقية على جميع تلك الأشخاص المحسوسة وهي السكيات ثم ينظر الذهن بين تلك الأشخاص المنطقية وأشخاص أخرى توافقها في بعض فيحصل له صورة تنطبق أيضا عليها باعتبار ما اتفقا فيه ولا يزال يرتقى في التجريد إلى الشكل الذي لا يجده كليا آخر معه يوافق فيكون لأجل ذلك بسيطا وهذا مثل ما مجرد من أشخاص الإنسان صورة النوع المنطقية عليها ثم ينظر بينه وبين الحيوان ويجرد صورة المنطقية عليها ثم بينها وبين النبات إلى أن ينتهي إلى الجنس العالى وهو الجوهر فلا يجد كليا يوافقه في شيء فيقف العقل هناك عن التجريد ثم إن الإنسان لما خلق الله الفكر الذي به يدرك العلوم والصنائع وكان العلم أما تصور الماهيات ويعني به أدراك ما دون من غير حكم معه وأما تصديقا أي حكما بثبوت أمر لا مرفصا يسعى الفكر في تحصيل المطلوبات أما بأن تجمع تلك السكيات بعضها إلى بعض على جهة التآليف فتحصل صورة في الذهن كلية منطقية على أفراد في الخارج فتكون تلك الصورة الذهنية مفيدة لمعرفة ماهية تلك الأشخاص وأما بأن يحكم بأمر على أمر فيثبت له ويكون ذلك تصديقا وغايته في الحقيقة راجعة إلى التصور لأن فائدة ذلك إذا حصل إغناهي معرفة حقائق الأشياء التي هي مقتضى العلم وهذا السعي من الفكر قد يكون بطريق صحيح وقد يكون بطريق فاسد فاقضى ذلك تميز الطريق الذي يسعى به الفكر في تحصيل المطالب العلمية لتمييز فيها الصحيح من الفاسد فكان ذلك قانون المنطق وتكلم فيه المتقدمون أول ما تكلموا به جملا جملوا منفردا ثم تذهب طرقهم تجمع مسائله حتى ظهر في يونان أرسطو فذهب مباحثه ورتب مسائله وفصوله وجعله أول العلوم الحسكية وفتحها وأوله لك يسمى بالمعلم الأول وكتابه المخصوص بالمنطق يسمى النص وهو يشتمل على ثمانية كتب أربعة منها في صورة القياس وأربعة في مادته وذلك أن المطالب التصديقية على أنحاء فمنها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه ومنها ما يكون

المطلوب فيه الظن وهو على مراتب فينظر في القياس من حيث المطلوب الذي يقصده وما ينبغي أن تكون مقدماته بذلك الاعتبار ومن أي جنس يكون من العلم أو من الظن وقد ينظر في القياس لا باعتبار مطلوب مخصوص بل من جهة إنتاجه خاصة ويقال للنظر الأول انه من حيث المادة ونعني به المادة المنتجة للمطلوب بخصوص من يقين أو ظن ويقال بالنظر الثاني أنه من حيث الصورة وإنتاج القياس على الإطلاق فكانت لذلك كتب المنطق غاية الأول في الأجناس العالية التي ينتهي إليها تجريد المحسوسات وهي التي ليس فوقها جنس ويسمى كتاب المقولات والثاني في القضايا التصديقية وأصنافها ويسمى كتاب العبارة والثالث في القياس وصورة إنتاجه على الإطلاق ويسمى كتاب القياس وهذا آخر النظر من حيث الصورة ثم الرابع كتاب البرهان وهو النظر في القياس المتبع لليقين وكيف يجب أن تكون مقدماته يقينية وتختص بشروط أخرى لأفادة اليقين مذكورة فيه مثل كونها ذاتية وأولية وغير ذلك وفي هذا الكتاب الكلام في المعرفات والحدود المطلوب فيها إتباعه اليقين لوجوب المطابقة بين الحدود والحدود لا تختمل غيرها فذلك اختصت عند المتقدمين بهذا الكتاب والخامس كتاب الجدل وهو القياس المفيد قطع المشاغب وإفحام الخصم وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات ويختص أيضا من جهة أفادته لهذا الغرض بشروط أخرى من حيث أفادته لهذا الغرض وهي مذكورة هناك وفي هذا الكتاب يذكر المواضع التي يستنبط منها صاحب القياس قياسه وفيه عكوس القضايا والسادس كتاب السفسطة وهو القياس الذي يفيد خلاف الحق ويقال به المناظر صاحبه وهو فاسد وهذا إنما كتب ليعرف به القياس المغالط فيحذر منه والسابع كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب أن يستعمل في ذلك من المقالات والثامن كتاب الشعر وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للإقبال على الشيء أو النقرة عنه وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التخيلية هذه هي كتب المنطق الثانية عند المتقدمين ثم أن حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورتبت رأوا أنه لا بد من الكلام في الكليات الخمس المفيدة للتصور فاستدركوا فيها مقالة تختص بها مقدمة بين يدي الفن فصارت تسعا وترجمت كلها في اللغة الإسلامية وكتبها وتداولها فلاسفة الإسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الأندلس ولابن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها ثم جاء المتأخرون بغير الاصطلاح المنطقي وألحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرته وهي الكلام في الحدود والرسوم فلوها من كتاب البرهان وحذفوا كتاب المقولات لأن نظر المنطق فيه بالعرض لا بالذات وألحقوا في كتاب العبارة الكلام في العكس لأنهم من توابع الكلام في القضايا بعض الوجوه ثم تكلموا في القياس من حيث إنتاجه للمطالب على العموم لا بحسب مادة وحذفوا النظر فيه بحسب المادة وهي الكتب الحقة البرهان والجدو الخطابة والشعر والسفسطة ورعايل بعضهم بالسير منها المأما وأغفلوها كأن لم تكن وهي المهم المعتمد في الفن ثم تكلموا فيها وضموا من ذلك كلاما مستبحرا ونظروا فيه من حيث أنه فن

برأسه لآمن حيث أنه آلف للعلوم فطال الكلام فيه واتسع وأول من فعل ذلك الامام غفر الدين بن الخطيب ومن بعده أفضل الدين الخونجى وعلى كتب معتمد الشارقة لهذا العهد وله في هذه الصناعة كتاب كشف الاسرار وهو طويل واختصر فيها مختصر الموجز وهو حسن في التعليم ثم مختصر الجمل في قد وأربعة أوراخ أخذ بمجامع الفن وأصوله فتداوله المتعلمون لهذا العهد فينتفعون به وهجرت كتب المتقدمين وحرقهم كأنها تكن وهي مملئة من غرة النطق وفائدة كما قلناه والله الهادي للصواب

﴿ الطبيعيات ﴾ ١٨

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يخلق من الحركة والكون فيظفر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وانسان ونبات ومعدن وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك وفي مبدأ الحركة للأجسام وهو النفس على تنوعها في الانسان والحيوان والنبات وكتب أرسطو فيه موجوده بين أيدي الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلسفة أيام المأمون وألف الناس على حدودها وأوعب من ألف في ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمنا ثم لخصه في كتاب النجاة وفي كتاب الاشارات وكأنه يخالف أرسطو في الكثير من مسائلها ويقول برأيه فيها وأما ابن رشد فله خص كتب أرسطو وشرحها متبعاله غير مخالفه وألف الناس في ذلك كثيرا لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في الصناعة ولاهل الشرق في عناية بكتاب الاشارات لابن سينا والامام ابن الخطيب عليه شرح حسن وكذا الأمدى وشرحه أيضا نصير الدين الطوسي المعروف بغواجه من أهل الشرق وبحسب مع الامام في كثير من مسائله فأوفي على أنظاره ونحوه وفوق كل ذي علم عليم والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

﴿ علم الطب ﴾ ١٩

ومن فروع الطبيعيات صناعة الطب وهي صناعة تنظر في بدن الانسان من حيث يمرض ويصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبره المرض بالأدوية والاعذية بعد أن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن وأسباب تلك الامراض التي تنشأ عنها وما لكل مرض من الأدوية مستدلين على ذلك بأمرجة الأدوية وقواها على المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه وقبوله الدواء أولا في السجبة والفضلات والنبض عاذرين لذلك قوة الطبيعة فانها الدبرة في حالتها الصحة والمرض وانما الطبيب يحاذيها ويعينها بعس الشيء بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن ويسمى العلم الجامع بهذا كله علم الطب وربما أفردوا بعض الاعضاء بالكلام وجعلوه علما خاصا كالعين وعلمها وأكأها وكذلك الحقوا بالفن من منافع الاعضاء ومعناها المنفعة التي لا جلبها خلق كل عضو من أعضاء البدن الحيواني وان لم يكن

ذلك من موضوع علم الطب ألا أنهم جعلوه من لواحقه وتوابعه وإمام هذه الصناعة التي ترجمت كتبه فيها من الأقدمين جالينوس يقال أنه كان معاصراً للعيسى عليه السلام ويقال إنه مات بفسقية في سبيل تغلب ومطافعة أغتراب وتأليفه فيها هي الأمهات التي اقتدى بها جميع الأطباء بعده وكان في الإسلام في هذه الصناعة أئمة جوامع ورواء أعقاب مثل الرازي والخبوسي وابن سينا ومن أهل الأندلس أيضاً كثير وأشهرهم ابن زهر وهو لهذا العهد في المدن الإسلامية كأنها غصت بوقوف العمران وتقاصه وهي من الصنائع التي لا يستدعيها الحضارة والترف كما نبينه بعد

(فصل) وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قصيرة على بعض الأشخاص متوارثين مشايخ الحنفي ومجائزه وربما يصحح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج وكان عند العرب من هذا الطب كثير وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره وأنطب النقول في الشرعيات من هذا القيد وليس من الوحي في شيء وإنما هو أمر كان عارداً للعرب ووقع في ذكر أحوال النبي صلى الله عليه وسلم من نوع ذكر أحوال الله التي هي عادة وجلة لا من جهة أن ذلك مشرووع على ذلك النحوم من العمل فانه صلى الله عليه وسلم إنما بعث لبعثنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات وقد وقع له في شأن تلقين النحل ما وقع فقال أنتم أعلم بأمر ديننا كم فلا ينبغي أن يعمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنهم مشرووع فليس هناك ما يدل عليه اللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرك والصدق العقد الايمان فيكون له أثر عظيم في انفع وليس ذلك في السبب المزاجي وإنما هو من آثار الكلمة الايمانية كما وقع في مداوات المبطلون بالعدل والله الهادي إلى الصواب لأرب سواه

٣٠ الفلاحة

هذه الصناعة من فروع الطبيعيات وهي النظر في النبات من حيث تنمية ونشؤه بالنسبة للعلاج وتعمده مثل ذلك وكان المتقدمين بها عناية كثيرة وكان النظر فيها عند العامة في النبات من جهة غرسه وتنميته ومن جهة خواصه وروحانيته ومشاكلته وحيات الكواكب وأهلها كل المستعمل ذلك كله في باب السحر فعملت عنايتهم به لأجل ذلك وترجم من كتب اليونانيين كتاب الفلاحة النبطية منسوبة للعلماء النبط مشتملة من ذلك على علم كبير ولما نظر أهل اللغة فيها اشتمل عليه هذا الكتاب وكان باب السحر مسدوداً والنظر فيه محظوراً فالتصراعه على الكلام في النبات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك وحذفوا الكلام في الفن الآخر منه جملة واختصر ابن العوام كتاب الفلاحة النبطية على هذا النهج وبقي الفن الآخر منه متغلازلاً من مسلة في كتبه السحرية أمهات من مسائله كما ذكره عند الكلام على السحر إن شاء الله تعالى وكتب المتأخرين في الفلاحة كثيرة ولا يعدون فيها الكلام في الغراس والعلاج وحفظ النبات من حوائجه وعوائقه وما يعرض في ذلك كله وهي موجودة

وهو علم ينظر في الوجود المطلق فأولاً في الامور العامة للجنسيات والروحانيات من الالهيات
والوحدة والكمية والوجوب والامكان وغير ذلك ثم ينظر في مبادئ الموجودات وأنها روحانيات ثم
في كيفية صدور الموجودات عنها ومرتباتها في أحوال النفس بعد مفارقة الأجسام وعودها الى البدأ
وهو عند علم شريف يزعمون أنه يوفهم على معرفة الوجود على ما هو عليه وأن ذلك عين السعادة في
زعمهم وسيأتي الرد عليهم وهو تال للطبيعات في ترتيبهم ولذلك يسمى علم ما وراء الطبيعة وكتب العلم
الأول فيه موجود بين أيدي الناس ولخصه بنسبنا في كتاب الشفاء والنجا وكذلك لخصنا بن رشد من
حكماء الأندلس وما وضع المتأخرون في علوم القوم ودونوا فيها ورد عليهم الغزالي ما رد منها ثم خلط
التأخرون من التكليف مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة لعمومها في مباحثهم وتشابه موضوع علم الكلام
بموضوع الالهيات ومسائله بمسائلها فصارت كأنها فن واحد ثم غيروا ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعات
والالهيات وخلطوها فصاروا واحداً قدموا الكلام في الامور العامة ثم اتبعوه بالجنسيات وتوابعها ثم
بالروحانيات وتوابعها الى آخر العلم كما فعله الامام بن الخطيب في المباحث الشرعية وجميع من بعده من علماء
الكلام وصار علم الكلام غنطاً بمسائل الحكمة وكتبه محشوة بما كان الغرض من موضوعها ومسائلها
احد والنسب ذلك على الناس وهو غير صواب لأن مسائل علم الكلام إنما هي عقائد متفككة من الشريعة
كالتقليد السلف من غير رجوع فيها الى العقل ولا تعويل عليه بمعنى انها لا تثبت إلا به فن العقل معزول عن
الشرع وأنظاره وما أحدث فيه المتكلمون من اقامة الحجج فليس بحثنا عن الحق فيها فالتعليل بالدليل بعد
أن لم يكن معلوماً شأن الفلسفة بل إنما هو التماس حجة عقلية تعضد عقائد الايمان ومذاهب السلف
فيها وتدافع شبه أهل البدع عنها الذين زعموا أن مداركهم فيها عقلية وذلك بعد أن تفرض صحبة بالأدلة
العقلية كما تشاها السلف واعتدوها وكثير ما بين القامين وذلك أن مدارك صاحب الشريعة أوسع
لأنساع نظائرها عن مدارك الأناظر العقلية فهي فوقها ومحيط بها لاستمدادها من الأنوار الالهية فلا
تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك الحاط بها فاذا هدا الشارع إلى مدرك فينبغي أن تتقدمه
على مداركنا وثق بدونها ولا تنتظر في تصحيح مدارك العقل ولو عارضه بل نعتد ما أمرنا به اعتقاداً
وعلماً ونسكت عما لم يفهم من ذلك ونفوضه إلى الشارع ونعزل العقل عنه والمتكلمون أعادوا علم ذلك
كلام أهل الاتحاد في معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس
معارضتهم واستدعى ذلك الحجج النظرية وعازاة العقائد السلفية بها وأما النظر في مسائل الطبيعات
والالهيات بالتصحيح والبطالان فليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس أنظار المتكلمين فاعلم
ذلك لتمييز به بين الفئتين فانهما مختلفتان عند التأخرين في الوضع والتأليف والحق مغايرة كلي منهما
لصاحبه بالموضوع والمسائل إنما جاء الالتباس من اتحاد اللطالاب عند الاستدلال وصار احتجاج أهل

الكلام كأنه إنشاء لطلب الاعتداد بالدليل وليس كذلك بل إنما هو رد على الملحدين والمطلوب بمغفروض
الصدق معلوم هو كذا جاء التأخرون من غلاة التصوف المتكلمين بالمواعيد أيضاً فطلخوا مسائل الفنين
بفهم وجعلوا الكلام واحداً فيها كلها مثل كلامهم في النبوات والاتحاد والحلول والوحدة وغير ذلك
والمدارك في هذه الفنون الثلاثة متفارقة مختلفة وأبعدها من جنس الفنون والعلوم مدارك التصوف لا تتمهم
يدعون فيها الوجدان ويفترون عن الدليل والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وأبحاثها وتوابعها كما بيناه
ونبينه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والله أعلم بالصواب

٢٢ علوم السحر والطلسمات

هي علوم بكيفية استعدادات تشترط النفوس البشرية فيها على التأثيرات في غلظ العناصر إما بغير معين أو
بمعين من الأمور السماوية والأول هو السحر والثاني هو الطلسمات وما كانت هذه العلوم بمجورة عند
الشرايع فافهم من الضرر وما يشترط فيها من الوجهة إلى غير الله من كوكب أو غيره كانت كتبها كالمفقود
بين الناس إلا ما وجد في كتب الأمم الأقدمين فيا قيل نبوة موسى عليه السلام مثل التبط والسكندانيين
فلن جميع من تقدمه من الأنبياء لم يصنعوا الشرايع ولا جازوا بالآحكام إنما كانت كتبهم موعظون وحيداً
لله وتذكيراً بالجنة والنار وكانت هذه العلوم في أهل بابل من السريانيين والسكندانيين وفي أهل مصر
من التبط وغيرهم وكان لهم فيها التأليف والآثار ولم يترجم لتأليف كتبهم فيها إلا القليل مثل الفلاحات التبطية
من أوضاع أهل بابل فأخذ الناس منها هذا العلم وتفتتوا فيه ووضعوا بعد ذلك الأوضاع مثل مصاحف
الكواكب السبعة وكتاب طمطم الهندى في صور النرج والكواكب وغيرهم ثم ظهر بالشرق جابر بن
حيان كبير السحرة في هذه الأمة ففصح كتب تقوم واستخرج الصناعة وغاص على زبدتها واستخرجها
ووضع فيها غيرها من التأليف وأكثر الكلام فيها وفي صناعة السيمياء لأنها من توابعها لأن إحاطة
الأنجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العلمية فيؤمن قبيح السحر
كأنه كره في موضعه * ثم جاء مسلمة بن أحمد الحريرى إمام أهل الأندلس في التعاليم والسحريات
فلخص جميع تلك الكتب وهدى بها وجمع عرقها في كتابه الذى سماه غاية الحكيم ولم يكتب أحد في هذا
العلم بعده * ولتقدم هنا مقدمة يبين بها حقيقة السحر وذلك أن النفوس البشرية وإن كانت واحدة
بالنوع فعلى مختلفة بالخواص وهى أصناف كل صنف مختص بخاصية واحدة بالنوع لا توجد فى الصنف
الأخر وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة لصنفها فنفس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصية
تستعدها للمعرفة الربانية وشاطبة الملائكة عليهم السلام عن الله سبحانه وتعالى كامر وماتبع ذلك من
التأثير فى الأنس كوان واستجاب روحانية الكواكب لتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية
فأما تأثير الأنبياء فمدد الهى وخاصية ربانية ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المعينات بقوى
شيطانية وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد فى الآخر والنفوس الساحرة على مراتب ثلاث يأتى

شرحها فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين وهذا هو الذي تسميه الفلاسفة السحر والثاني
بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه الفطريات وهو أضعف رتبة من
الأول والثالث تأثير القوى الخفية يعتمد صاحب هذا التأثير على القوى الخفية وتصرف فيها بنوع من
التصرف ويلقى فيها أنواعاً من الحيات والحيا كالصور إنما يقصده من ذلك تمهيداً لها إلى الخس من الرائق
بقوة نفسه المؤثرة فيه فينظر الراؤن كأنها في الخارج وليس هناك شيء من ذلك كما يحكى عن بعضهم أنه
يرى البساتين والأشجار والقصور وليس هناك شيء من ذلك ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعرة أو الشعيرة
هذا تفصيل مراتبه ثم هذه الخاصية تكون في الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها وإنما يخرج إلى الفعل
بالرياضة ورياضة السحر كلها إنما تكون بالنوجه إلى الأفلاك والكواكب والعلوم العلوية والباطنية
بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل بمعنى ذلك وجهه إلى غير الله وسجوداً له والوجهة إلى غير الله
كفر فلهذا كان السحر كفر أو الكفر من مواده وأسبابه كما رأيت ولهذا اختلف الفقهاء في قتل الساحر
هل هو لكفره السابق على فعله أو لتصريفه بالفساد وما يشأ عنه من الفساد في الأكل والكل حاصل منه
ولما كانت المرتبة الأولى وليان من السحر لها حقيقة في الخارج والمرتبة الأخيرة الثالثة لا حقيقة لها اختلف
العلماء في السحر هل هو حقيقة أو إنما هو تخيل فالتأولون بأن له حقيقة نظروا إلى المرتبتين الأولى
والتأولون بأن لا حقيقة له نظروا إلى المرتبة الثالثة الأخيرة فليس بينهم اختلاف في نفس الأمرين إنما جازعوا
قبل اشتباه هذه المراتب والله أعلم * واعلم أن وجود السحر لا مزية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي
ذكرناه وقد نطق به القرآن قال الله تعالى ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على
الملكين بابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر فيعلمون منها
ما يفرون به بين المرء وزوجه وما هم مبشرين به من أحد إلا باذن الله وسحر رسول الله صلى الله عليه وسلم
حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله وجعل سحره في مشط ومشاقة وجف ملعة ودفن في بئر
ذروان فأرسل الله عز وجل عليه في العودتين ومن شر التفاتات في العقدة لتعشقر ضي الله عنها فكان
لا يقرأ على عقدة من تلك العقدة التي سحر فيها إلا انحلت وأما وجود السحر في أهل بابل وهم الكلدانيون من
النبط والسريانيين فكثير ونطق به القرآن وجاءت به الأخبار وكان للسحر في بابل ومصر أزمان بعث
موسي عليه السلام أسواق نافقة ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتناغون فيه ويبقى من
آثار ذلك في البراري بصعيد مصر شوهد ذلك ورأينا بالبيان من يصور صورة الشخص المسحور
بخواص أشياء متقابلة لنوايه وحاوله موجوداً بالمسحور وأمثال تلك اللعان من أسماء وصفات في التأليف
والتمييز ثم يتكلم على تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور عيناً أو معنى ثم ينفث من ريقه بعد
اجتماعه فيه بتكرير خارج تلك الحروف من الكلام السوء ويعقد على ذلك المعنى في سبب أعدائه لذلك
تفاؤلاً بالعقد والالزام وأخذ العهد على من أشرك به من الجن في نفثه وفي فعله استعارة للعزيمة بالعزم
ولذلك البقية والأسماء السيئة وروح خبيثة تخرج منه مع النفث متعلقة بريقه الخارج من فيه بالنفث فتترك

عنها أرواح خبيثة وتقع عن ذلك بالسحور ما يحاوله الساحر وشاهدنا أيضا من المتحليين بالسحر وعمله من يشير إلى كساء أو جلد أو تكلم عليه في سره فإذا هو منقطع متخرق ويشير إلى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبيع فإذا أعمأها سافطة من بطونها إلى الأرض وسمن أن بأرض الهند هذا العهد من يشير إلى إنسان فيحتق قلبه ويقع منها وينقب عن قلبه فلا يوجد في حشاه ويشير إلى الزمانة وتفتح فلا يوجد من حبسها شيء وكذلك سمعنا أن بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيعطر الأرض الخصوبة وكذلك رأينا من عمل الطلسمات عجائب في الأعداد المتعاقبة وهي رك رفد أحد العددين مائتان وعشرون والآخر مائتان وأربعة وثلاثون ومعنى التعاقبة أن أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وثلاث وربع وسدس وخمس وأمثالها إذا جمع كان مساويا لعدد الآخر صاحبه فتسمى لأجل ذلك التعاقبة وتقل أصحاب الطلسمات أن تلك الأعداد أترا في الألفه بين المتحابين واجتماعها إذا وضع لها مثالان أحدهما بطالع الزهرة وهي في يمينها أو شر فيها ناظرة إلى القمر نظير مودة وقبول ويجعل طالع الثاني سابع الأول ويضع على أحد التمثالين أحد العددين والآخر على الآخر ويقصد بالأكثر الذي يراد التلافة أعني المحسوب ما أدى إلى أكثر كمية أو إلى أكثر أجزاء فيكون لذلك من التاليف العظيم بين المتحابين ما لا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر قاله صاحب الغاية وغيره من أئمة هذا الشأن وشهدت له التجربة وكذلك الطالع الأسد يسمى أيضا طالع الحصى وهو أن يرسم في قلب هند أصبع صورة أسد ثلاثا ذنبه عاض على حصة قد قسمها بنصفين وبين يديه صورة حية مناسبة من رجليه إلى قبالة وجهه فافرة فها إلى فيه وعلى ظهره صورة عقرب تدب وتحين برسمه حلول الشمس بالوجه الأول أو الثالث من الأسد بشرط صلاح اليرين وسلامتهما من النحوس فإذا وجد ذلك وعشر عليه طبع في ذلك الوقت في مقدار اثنتان فمادونه من الذهب ونحس بعد في الزعفران محولا بقاء النور دور وقع في خرقة حرير صفراء فانهم يزعمون أن لمسكهم من العز على السلاطين في مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم لا يعبر عنه وكذلك السلاطين فيه من القوة والعز على من تحت أيديهم ذكر ذلك أيضا أهل هذا الشأن في الغاية وغيره وشهدت له التجربة وكذلك وفق السدس المختص بالشمس ذكره وأندوضع عند حلول الشمس في شرفها وسلامتها من النحوس وسلامة القمر بطالع ملوكي يعتبر فيه نظير صاحب العاشر لصاحب الطالع نظير مودة وقبول ويصلح فيه ما يكون في مو اليد الملوك من الأدلة الشريفة ويرفع في خرقة حرير صفراء بعد أن يغمس في الطيب فرعموا أن له أثر في تعاقب الملوك وخدمتهم ومعاشرتهم وأمثال ذلك كثير وكتاب الغاية فلسفة ابن أحمد الجرجاني هو مدونة هذه الصناعة وفيه استيفاءها وكان مسائلها وذكر لنا أن الامام الفخر بن الحبيب وضع كتابا في ذلك وسماه بالسرا المكتوم وأنه بالشرق يتداوله أهلها ونحن لم نقف عليه والامام لم يكن من أئمة هذا الشأن فيما نظن ولعل الأمر بخلاف ذلك وبالمغرب صنف من هؤلاء المتحليين لهذه الأعمال السحرية يعرفون بالعاجين وهم الذين ذكرت أولا أنهم يشيرون إلى الكساء أو الجلد فينخرق ويشيرون إلى بطون الغنم بالبيع فتبيع ويسمى أحدهم بهذا العهد باسم البيع لأن أكثر

ما ينتحل من السحر يبعج الانعام برهب بذلك أهليا إلى حظوة من فضله أو مستترون بذلك في الغاية خوفا على أنفسهم من الحكم لقبت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه بذلك وأخبروني أن لهم وجهة ورياضة خاصة بدعوات كغريفة واثرا والروحانيات الجن والكواكب سطرت فيها بحيلة عندهم تسمى الخزيرة يتدارسونها وأن هذه الرياضة والوجهة يصلون إلى حصول هذه الأفعال لهم وأن التأثير الذي لهم انما هو فيها سوي الانسان الحر من النافع والحيوان والرقيق ويعبرون عن ذلك بقولهم انما نفعل فيما عشي فيه الدوام أي ما يملك ويأمن ويشترى من سائر الممتلكات هذا ما نرسموا سألنا بعضهم فأخبروني به وأما فعلهم فظاهرة موجودة وقفتنا على الكثير منها وانما نعلم من غير رتبة في ذلك هذا شأن السحر والطلسمات وآثارها في العالم فلما القلاسة فخر قوا بين السحر والطلسمات بعد أن أثبتوا أنهما جميعا أثر للنفس الانسانية واستدلوا على وجود الأثر للنفس الانسانية بان لها آثارا في بدنها على غير الجبري الطبيعي وأسبابه الجسمانية بل آثار عارضة من كفيات الأثر والمعقارة كالسحابة الحادثة عن الفرح والسرور ومن جهة التصورات النفسانية أخرى كالذي يقع من قبل النوم فإن الماشي على حرف حائط أو على جبل منتصب اذا قوى عنده نوم السقوط سقط بلا شك ولهذا اتقوا كثيرا من الناس يعودون أنفسهم ذلك حتى يذهب عنهم هذا الوجود فيجدهم يمشون على حرف الحائط والحبل المنتصب ولا يخافون السقوط فثبت أن ذلك من آثار النفس الانسانية وتصوره السقوط من أجل الوجود اذا كان ذلك أثر للنفس في بدنها من غير الأسباب الجسمانية الطبيعية بخلاف أن يكون لها مثل هذا الأثر في غير بدنها اذ نسبتها إلى الأبدان في ذلك النوع من التأثير واحدة لأنهم اختلف حاله في البدن ولا متغيرة فيه فثبت أنهم ما تؤثر في سائر الاجسام وأما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فيكون السحر لا يحتاج إلى سحر فيه أي معين وحاسب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الوجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقوله النجميون ويقولون السحر اتحاد روح بروح والطلسم اتحاد روح بجسم ومعناه عندهم ربط الطبايع العلوية السماوية بالطبايع السفلية والطبايع العلوية هي روحانيات الكواكب ولذلك يستعين صاحبه في غالب الأثر بالنجامة والساحر عندهم غير مكتسب لسحره بل هو مقلود عندهم على تلك الجيلة المختصة بذلك النوع من التأثير والفرق عندهم بين المعجزة والسحر أن المعجزة قوة إلهية تبعث في النفس ذلك التأثير فهو مؤيد بروح الله على فعله ذلك والساحر انما يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته النفسانية وبإمداد الشياطين في بعض الأحوال فينبغي الفرق في العقولية والحقيقة والذات في نفس الأمر وانما استدلال نحن على التفرقة بالعلامات الظاهرة وهي وجود المعجزة لصاحب الخير وفي مقاصد الخير ولانفسوس المتمحضة للخير والتعدي بها على دعوى البوذة والسحر انما يوجد لصاحب الشر وفي أفعال الشر في الغالب من التفرقة بين الزوجين وخير الأعداء وأمثال ذلك ولانفسوس المتمحضة للشر هذا هو الفرق بينها عند الحكماء الألهيين وقد وجد بعض المنسوفة وأصحاب الكرامات تأثيرا أيضا في أحوال العالم وليس معدودا من جنس السحر وانما هو بالامداد الإلهي لأن طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوة وتوابعها

ولهم في المدد الإلهي حظ على قدر حالهم وإيمانهم وتمسكهم بكلمة الله وإذا اقتدر أحد منهم على أفعال الشر فلا يأتها لأنه متقيد بما يأتيه ويذره للأمر الإلهي فما لا يقع لهم فيه الأذن لا يأتونه بوجه ومن أتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق ورعاسلب حاله ولما كانت المعجزة بامداد روح الله والقوى الإلهية فذلك لا يعارضها شيء من السحر وانظار شأن سحر فرعون مع موسى في معجزة العصا كيف تلففت ما كانوا بأفككون وذهب سحرهم واضمحط كائن لم يكن وكذلك لما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم في المعوذتين ومن شر الفانث في العقد قلت عائشة رضي الله عنها فكان لا يقرؤها على عقدة من العقد التي سحر فيها إلا انحلت فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره وقد نقل المؤرخون أن زركش كانوا يرون راية كسرى كان فيها الوفق للثاني العدي منسوجاً بالله في أوضاع فلما كبر صعدت تلك الوفق ووحدت الرابطة يوم قتل رستم بالقادسية واقعة على الأرض بعد أن هزم أهل فارس وشناهم وهو فماتت أمة أهل الظلمات والأوفاق غصوص بالغلب في الحروب وأن الراية التي يكون فيها أو معها لا تنهزم أصلاً إلا أن هذه عارضها المدد الإلهي من إيمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمسكهم بكلمة الله فاعمل معها كل عقد سحري ولم يثبت ويطلب ما كانوا يعملون وأما الشريعة فلم تفرق بين السحر والظلمات وجعلته كله باباً واحداً محظوراً إلا أن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما لم يمتنع في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا وفي معاشنا الذي فيه صلاح دنائنا وما لا يمتنع في شيء منها فمن كان فيه ضرر أو نوع ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويلاحق به الظلمات لأن أثرهما واحد وكالنجاسة التي فيها نوع ضرر باعتقاد التأثير فتفسد العقيدة الإيمانية برد الأمور إلى غير الله فيكون حينئذ ذلك الفعل محظوراً على نسبه في الضرر وإن لم يكن معها علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من أن تركها قربة إلى الله فإن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه فجعلت الشريعة باب السحر والظلمات والشعوذة باباً واحداً لما فيها من الضرر ونخصته بالحظر والتحريم وأما الفرق عندنا بين المعجزة والسحر فلهي ذكره المتكلمون أنه راجع إلى التجدي وهو دعوى وقوعها على وفق ما دعه فلو أو السحر مصروف عن مثل هذا التجدي فلا يقع منه ووقوع المعجزة على وفق دعوى الكاذب غير متصور لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية لأن حجة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكاذب باطلاً وأما الحكماء فالفرق بينهما عندكم كذا ذكرناه فرق ما بين الخير والشر في نهاية الطرفين فالسحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل في أسباب الخير وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ولا يستعمل في أسباب الشر وكما أنهما على طرفي النقيض في أصل فطرتهما والله يهدي من يشاء وهو القوي العزيز لأرب سواه

فصل ومن قبيل هذه التأثيرات النفسانية الإصابة بالعين وهو تأثير من نفس المعين عند ما يستحسن بعينه مدركا من الذوات أو الأحوال ويقرط في استحسانه وينشأ عن ذلك الاستحسان حينئذ أنه يروم معه سلب ذلك الشيء عن تصفيه فيؤثر فساداً وهو جيلة فطرية أعني هذه الإصابة بالعين والفرق بينها وبين التأثيرات وإن كان منها ما لا يكتب أن حدوثها راجع إلى اختيار فاعلمها

والفطري منها قوة صدورها لأنفس صدورها ولهذا قالوا القاتل بحر أو بالسكرامة يقتل والقاتل بالعين لا يقتل وما ذاك إلا لأنه ليس بما يريد وهو يقصده أو يتركه وإنما هو مجبور في صدوره عنه والله أعلم بما في الغيوب ومطلع على ما في السرائر

٢٣ علم أسرار الحروف

وهو المسمى لهذا العهد بالسيما نقل وضعه من الطلبات إليه في اصطلاح أهل التصريف من المتصوفة فاستعمل استعمال العالم في الخاص وحدث هذا العلم في الملة بعد حذر منها وعند ظهور الغلاة من المتصوفة وحنو حيم إلى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات في عالم العناصر وتدوين الكتب والاصطلاحات ومن أهمهم في نزل الوجود عن الواحد وترتيبهم في عالم الكمال الأسماء مظاهره أو واسع الأقاليم والكواكب وأن طبائع الحروف وأسرارها سارية في الأسماء فهي سارية في الألف كوان على هذا النظام والألف كوان من لدن الأبدان الأول تنقل في أطواره وتغرب عن أسرارها فحدث لذلك علم أسرار الحروف وهو من تفاريع علم السيمياء لا يوقف على موضوعه ولا يحاط بالعدد مماثلة تعددت فيه تأليف البوني وابن العربي وغيرهما ممن اتبع آثارهما وحاصله عندهم ومثرت تصريف النفوس الربانية في عالم الطبيعة بالأسماء الحسنى والكلمات الألهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار السارية في الألف كوان ثم اختلفوا في سر التصريف انتهى في الحروف بما هو فقههم من جعله للمزاج الذي فيه وقسم الحروف بقسمه الطبائع إلى أربعة أصناف كالأصناف واحتصت كل طبيعة بصنف من الحروف يقع التصريف في طبيعتها فعلا وانفعالا بذلك الصنف فتنوعت الحروف بقانون صناعي يسمونه التكرير إلى تارية وهوائية ومائية وترابية على حسب تنوع العناصر فالألف للنار والباء للهواء والجيم للماء والدال للتراب ثم ترجع كذلك على التوال من الحروف والعناصر إلى أن نفذت عين لعنصر النار حروف سبعة الألف والماء والطاء والميم والقاف والسين والذال وتعين لعنصر الهواء سبعة أيضا الباء والواو والياء والنون والضاد والطاء وتعين لعنصر الماء أيضا سبعة الجيم والزاى والكاف والصاد والقاف والياء والعين وتعين لعنصر التراب أيضا سبعة الدال والحاء واللام والعين والراء والحاء والشين والحروف التارية لدفع الأمراض الباردة ولضعفة قوة الحرارة حيث تطلب مضاعفتها أما حسا أو حكما كما في تضعيف قوى المريح في الحروب والقتل والفتك والمائية أيضا لدفع الأمراض الحارة من حميات وغيرها ولتضعيف القوى الباردة تطلب مضاعفتها حسا أو حكما كتضعيف قوى القمر وأمثال ذلك ومنهم من جعل

ترتيب طبائع الحروف عند المقاربة غير ترتيب المشارقة ومنهم من عزى إلى كائن الخلق عندهم بخلاف فيه من أسرارها فالعلاء عندهم يسمون والضاد يسمون والسين المهمة بثلثائة والطاء بثمانائة والعين بستمائة والشين بثلثمائة قاله نصر المهوريني

سر التصرف الذي في الحروف للنسبة العددية فان حروف أ ب ج دالة على أعدادها المتعارفة ووضعا وعلما
فيهما من أجل تناسب الأعداد تناسب في نفسها أيضا كما بين الباء والكاف والراء لئلا يظن أنها كلها على
الاثنتين كل في مرتبة فالباء على اثنين في مرتبة الأحاد والكاف على اثنين في مرتبة العشرات والراء
على اثنين في مرتبة المئين وكالذي بينها وبين الدان والميم والتاء دلالتها على الأربعة وبين الأربعة
والاثنتين نسبة الضعف وخارج الأسماء أوفق كما للأعداد يختص كل صنف من الحروف بصنف من
الأوافق الذي يناسبه من حيث عدد الشكل أو عدد الحروف وامتزاج التصرف من السر الحرفي والسر
العددي لأجل التناسب الذي بينهما فأما سر التناسب الذي بين هذه الحروف وأمزجة الطبائع أو بين
الحروف والأعداد فأمر عسر على القيم إذ ليس من قبيل العلوم والقياسات وإنما مستخدم فيه التوفيق
والكشف قل البوني لا نقول أن سر الحروف مما يتوصل اليه بالقياس العقلي وإنما هو بطريق انشاهدة
والتوفيق الإلهي وأما التصرف في عالم الطبيعة بهذه الحروف والأسماء المركبة فيها وتأثيرها كوان
عن ذلك فأمر لا ينكر لثبوته عن كثير منهم تواترا وقد يظن أن تصرف هؤلاء وتصرف أصحاب
الطلسمات واحد وليس كذلك فإن حقيقة الطلسم وتأثيره على ما حققه أهله أنه قوى روحانية من جوهر
القهر تفعل فيما له ركب فعل عليه وقهر باسمه أو فلكية ونسب عدديه ونحورات جالبات لروحانية ذلك
الطلسم مشدودة فيه بالهمة فالتدبير ربط الطبايع العلوية بالطبايع السفلية وهو عندكم كالخبرة المركبة
من هوائية وأرضية ومائية ونارية حاملة في جملتها تحصيل وتصرف ما حصلت فيه إلى ذاتها وتقليبه
إلى صورتها وكذلك الأكسير للأجسام المعدنية كالخبرة تغلب المعدن الذي تسرى فيه إلى نفسها بالأحوال
ولذلك يقولون موضوع الكيمياء جسد في جسد لأن الأكسير أجزاءه كلها جسدانية ويقولون
موضوع الطلسم روح في جسد لأنه ربط الطبايع العلوية بالطبايع السفلية جسد والطبايع
العلوية روحانية وتحقيق الفرق بين تصرف أهل الطلسمات وأهل الأسماء بعد أن تعلم أن التصرف في عالم
الطبيعة كلها إنما هو للنفس الإنسانية والمهم البشرية لأن النفس الإنسانية محيطة بالطبيعة وحكمة عليها
بالذات إلا أن تصرف أهل الطلسمات إنما هو في استئزال روحانية الأفلاك وربطها بالصور أو بالنسب
العددية حتى يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الأحالة والقلب بطبيعته فعل الخبرة فيها حصلت فيه وتصرف
أصحاب الأسماء إنما هو بما حصل لهم بالمجاهدة والكشف من النور الإلهي والامداد الرباني فيسخر الطبيعة
لذلك طائفة غير مستعصية ولا يحتاج إلى مدد من القوى الفلكية ولا غير هالأن مدده أعلى منها ويحتاج
أهل الطلسمات إلى قليل من الرياضة تفيد النفس قوة على استئزال روحانية الأفلاك وأهون بها وجهة
ورياضة بخلاف أهل الأسماء فإن رياضتهم هي الرياضة الكبرى وليست لقصد التصرف في الأكوان إذ هو
حجاب وإنما التصرف حاصل لهم بالعرض كرامة من كرامات الله لهم فإن خلا صاحب الأسماء عن معرفة
أسرار الله وحقائق اللسكوت الذي هو نتيجة المشاهدة والكشف واقتصر على مناسبات الأسماء
وطبايع الحروف والكلمات وتصرف بها من هذه الحيثية وهو هؤلاء أهل السيمياء في الشهور كان إذا

لا فرق بينه وبين صاحب الظلمات بل صاحب الظلمات أو ثقف منه لا يبرجع إلى أصول طبيعية علمية وقوانين مرتبة أو صاحب أسرار الأسماء إذ إفاته الكشف الذي يطلع به على حقائق الكلمات وآثار المناسبات بقوات الخلق في الوجهة وليس له في العلوم الاصطلاحية قانون برهاني يعمل عليه فيكون حاله أضعف رتبة وقد عجز صاحب الأسماء قوى الكلمات والأسماء بقوى الكواكب فيعين لذلك الأسماء الحسنى أو ما رسم من أوقافها بنو لسان الأسماء أوقات تكون من حظوظ الكواكب الذي يناسب ذلك الاسم كإفعاله اليوناني في كتابه الذي سماه الأسماء وهذه المناسبة عديم من لدن الحضرة العمانية وهي برزخية الكمال الأساني وإنما تنزل تفصيلها في الحقائق على ما هي عليه من المناسبة وإثبات هذه المناسبة عديم إتمامها بحكم الشاهدة فإذا خلا صاحب الأسماء عن تلك الشاهدة وتلقى تلك المناسبة تقليدا كان عمله بمثابة عمل صاحب الظلم بل هو أو ثقف منه كما قلناه وكذلك قديم مزج أيضا صاحب الظلمات عمله وقوى كواكبه بقوى الدعوات المؤلفة من الكلمات المخصوصة المناسبة بين الكلمات والكواكب إلا أن مناسبة الكلمات عديم ليست كما هي عند أصحاب الأسماء من الإطلاع في حال الشاهدة وإنما يرجع إلى ما اقتضته أصول طريقتهم السحرية من اقتسام الكواكب لجميع ما في عالم الكونيات من جواهر وأعراض وذوات ومعان والحروف والأسماء من جملة ما فيه فلكل واحد من الكواكب قسم منها يخصه ويبنون على ذلك مبادئ غريبة منكرة من تقسيم سور القرآن وآية على هذا النحو كما فعله مسلمة المجريطي في الغاية والظاهر من حال اليوناني في أنماطه أنه اعتبر طريقتهم فإن تلك الأنماط إذا تصفحتها وتصفحت الدعوات التي تضمنتها وتسميها على ساعات الكواكب السبعة ثم وقفت على الغاية وتصفحت قيامات الكواكب التي فيها وهي الدعوات التي تختص بكل كوكب يسمونها قيامات الكواكب أي الدعوة التي يقيم لها بها شيد ذلك إما بأنهم من مادتها أو بان التناسب الذي كان في أصل الابداع وبرزخ العلم قضى بذلك كله وما أوتيتهم من العلم الا قليلا وليس كل ما حرمه الشارع من العلوم بمنكر الثبوت فقد ثبت أن السحر حق مع حظره لكن حسنا من العلم ما علمنا * وهو ومن فروع علم السيمياء عديم استخراج الأجوبة من الأسئلة بحسب ما ناطات بين الكلمات حرفية يوهمون أنها أصل في معرفة ما يحاولون علمه من الكائنات المستقبلية وانما هي شبه الغاية والمسائل السائلة ولهم في ذلك كلام كثير من أدعية وأحجبه زايرة العالم السبقي وقد تقدم ذكرها ونبين هنا ما ذكره في كيفية العمل بتلك الزايرة بدائلها وجدولها المكتوب حولها ثم تكشف عن الحق فيها وأنها ليست من الغيب وانما هي مطابقة بين مشكلة وجوابها في الافادة فقط وقد أشرنا إلى ذلك من قبل وليس عندنا رواية يعمل عليها في محبة هذه القصيدة إلا أننا نرى أنها أصح النسخ منها في ظاهر الأمر والله الموفق بئنه وهي هذه

يقول سبتي ومحمد ربه * مصل على هاد إلى الناس أرسلنا

محمد البعوث خاتم الأنبياء * ويرضى عن الصجب ومن لم تلا

ألا هذه زارحة العالم الذي * تراه بحكم وبالعقل قد حلا
 فمن أحكم الوضع فيحكم جسمه * ويدرك أحكاما تدبرها العسا
 ومن أحكم الربط فيدرك قوته * ويدرك للتقوى والكل حلا
 ومن أحكم التصريف يحكم سره * ويعقل نفسه ومسح له الولا
 وفي علم الأمر تراه محققا * وهذا مقام من بالأذكار كمالا
 فينقى سرائر عليهم بكتما * أقبا دوائر والحاء عدلا
 فطاء لها عرش وفيه نقوشنا * بنظم ونثر قدرناه بعدولا
 ونسب دوائر كنية فلكها * وأرسم كواكبا لأدراجها العدا
 وأخرج لأونار وأرسم حروفها * وكور بنلة على حد من خلا
 أتم شكل زبرم وسويوته * وحقق بها مهيم ونورم جلا
 وحصل علوما للطباع مهندسا * وهذا لموسقى والأرباع مثلا
 وسو لموسقى وعلم حروفهم * وعلم بالآلات حقيق وحصلا
 وسود دوائر ونسب حروفها * وعلمها أطلق والأفلام جدولا
 أمير لنا فهو نهاية دولة * زناينة آت وحكم لها خلا
 وفطر لاندلس فأين لمودم * وجاء بوالنصر وظهرم نلا
 ملوك وفرسان وأهل الحكمة * فان شئت نصهم وفطرهم حلا
 ومهدى توحيد بنونس حكمهم * ملوك وبالشرق بالأوفاق زلا
 واقسم على التطر وكن متفندا * فان شئت بالروم فبالخرف شكلا
 ففتش وبرشون الزاء حرفهم * وافرنسهم دن وبالطاء كمالا
 ملوك كناية ودلوا لقاقتهم * واعراب قومنا بترقيق أعمالا
 فهندى حباشى وسند فهرمس * وفرس ملطارى ومايعدم طالا
 قيصرم حاء وزدجردم * لكاف وقبطهم بلامه طولا
 وعباس كلهم شريف معظم * ولا كن تركي بذا الفعل عطالا
 فان شئت تدقيق الملوك وكلهم * غتم بيوتا ثم نسب جدولا
 على حكم قانون الحروف وعلمها * وعلم طباعها وكله مثالا
 فمن علم العلوم يعلم علما * ويعلم أسرار الوجود وأكالا
 فيرسخ علمه ويعرف ربه * وعلم ملاحم بخامم فصلا
 وحيث أتى اسم والعروض يشقه * حكم الحكيم فيه قطعاً لبقلا
 وتأتيك أحرف فسو لضربها * وأحرف سيوية تأتيك فيصلا

فمكن تفكير وقابل وعوض * يقر بملك الغالى للأجزاء خلخلا
 وفي العقد والمجزور يعرف غالبا * وزدنج وصفه في العقل فعلا
 واختار فطلس وسويه رتبة * واعكس بحزبه وبالذور عدلا
 ويدركها المرء فيبلغ قصده * وتعطى حروفها وفي نظمها أنجلا
 اذا كان سعد والسكواكب أسعدت * غيبك في الملك ونيل اسمه العدا
 وإقناع دالمهم بمرمور نمة * قلب دنادينا نجد فيه منها
 وأونار زبرم فلحاء غيم * ومنام الثلث بغيره قد جلا
 وأدخل بأفلاك وعدل بجدول * وارسم أباجاد وأبقية جملا
 وجوز شذوذ النحو بحوز ومثله * أتى في عروض الشعر عن جملة جملا
 فأصل لدينا وأصل الفقهنا * وعلم لنحونا فاحفظ وحصلا
 فأدخل لفظاظ على الوفق جدره * وسبح باسمه وكرم وهلا
 فتخرج أربابنا وفي كل مطلب * بنظم طبيعي وسر من العدا
 ونفى بخصرها كذا حكم عدم * فعمل الفواتيح نرى فيه منها
 فتخرج أربابنا وعشرون ضعفت * من الألف طبعا فباصاح جدولا
 تركيب صنائع من الضربا كملت * فصيح لك النى وصح لك العلى
 وسجع بزبرم وأنى بقرة * أقما دوائر الزبر وحصلا
 أقما بأوفق وأصل لفدها * من أسرار أحرفهم فعذبه سلسلا

٤٣ ك ك و كح واه عم له راسع كطا ال من ح ع ف و ل متافرة

الكلام على استخراج نسبة الأوزان وكيفياتها ومقادير القابل منها وقوة الدرجة المتميزة
 بالنسبة الى موضع التعلق من امتزاج طبائع وعلم طب أوصناعة الكيمياء

أياطالبا لطلب مع علم جابر * وعلم مقدار المقادير بالقولا
 إذا شئت علم الطب لا بد من نسبة * لا أحكام ميزان تصادف منها
 فيشقى عليك والأكبر حكم * وإمزاج وضعكم بتصحيح أنجلا

الطب الروحاني

وشئت إيلاوش ٣٥٦٥ * ودهه نجلا
 لهرام برجيس * وسبعة أكلا
 لتحليل أوجاع البوارد صححوا * كذلك والتركيب حيث تقلا
 كمنع ميم ٣٥٥ وبع ٦ صغ لهاي ولج آ او هج وي سكره لال ح مهبت مهبت ع ي

كذى النون والجنيذ مع سر صنعة * وفي سر بسطام أراك سر بلا
 كذى النون والجنيذ مع سر صنعة * وفي سر بسطام أراك سر بلا
 فبطشك نهلين وقوسك مطلع * ويوم الخيس البدء والاحداث على
 وفي جمعة أيضا بالاسماء مثله * وفي اثنين للحسنى تكون مكمل
 وفي علته سر وفي هائه إذا * أراك بهامع نسبة الكل أعطلا
 وساعة سعد شريطهم في نقوشها * وعود ومصطكي بخور محصلا
 وتلوا عليها آخر الحشر دعوة * والاخلاس والبيع الثاني مرتلا
 ﴿ اتصال أنوار الكواكب ﴾ بلعاني لاهي لا تاذن شي لدسع في صحف وي
 وفي يدك اليمنى حديد وخاتم * وكل برأسك وفي دعوة فلا
 وآية حشر فاجعل القلب وجهها * واتلو اذا نام الانام ورتلا
 هي السر في الاكوان لاشي غيرها * هي الآية العظمى تحقق وحصلا
 تكون بها قطبا اذا جدت خدمة * وتذكر أسرارها من العلم العلا
 سرى بها ناجي ومعروف قبله * وباح بها الخلاج جبريا فأعفلا
 وكان بها الشبلى يدأب دائما * الى أن رقى فوق المريدين واعتلي
 قصف من الادناس قلبك جاهدا * ولازم لأزكار وصم وتنفلا
 فما نال سر القوم الاعحق * علم بأسرار العلوم محصلا

ع صح صح وسلم ع في في ك ملح ١١ ١٤ ملح — سحاح ٨ ٨ ع ١١ ح د ف
 كصرح ا — ر م

﴿ مقامات المحبة وميل النفوس والمجاهدة والطاعة والعبادة وحب وتعشق
 وفناء الفناء وتوجه ومراقبة وخلة دائمة ﴾

الافعال الطبيعية

ليرجيس في المحبة الوفق صرفوا * بقزدير أو نحاس الخلطأ كسلا
 وقيل بضفة صحبها رأيت * لجعلك طالعا خطوطه ماعلا
 توح به زيادة النور للقمير * وجعلك للقبول تسمه أصلا
 ويومه والبخور عود لمندم * ووقت لاعتبه ودعوته الا
 ودعوته بضاية فعي أنعمت * وعن طيمان دعوة ولهاجلا
 وقيل بدعوة حروف لوضعها * بحر هواء أو مطالب أهلا
 فتتقش أحرفا يدك ولامها * وذلك وفق للمربع حصلا

إذالم يكن بهوي هوأك دلالها * فإل ليدو واورز يلب معطلا
 حش لباته وبأتهم إذا * هوأك وبأتهم قليلة جملا
 ونش مشا كل بشرط لوصيم * ومازوت أنبه لفعلك عدلا
 ومفتاح مريم ففعلها سوا * قبوري وبسطامي بورتها تالا
 وجعلك بالقصد وكن متفقد * أدلة وحشي لقبضة ميدلا
 فاعكسر بيوتها بالف ويغ * فباطلها سر وفي سرها انجلا

﴿ فصل في المقامات النهائية ﴾

لك الغيب صور من العالم العلا * وتوجد لها دارا وملبها الخلا
 ويوسف في الحسن وهذا شبيهه * بشر وترنيل حقيقة أنزلا
 وفي يده طول وفي الغيب ناطق * فبحكي إلى عود يعاوب بللا
 وقد جن بهلول يعشق جماعها * وعند نعلها لبسطام أخذلا
 ومات أجليه وأشرب حيا * جنيد وبصري وللجسم أهدلا
 فنطلب في التليل غايه ومن * بأسمائه الحنى بلا نية خلا
 ومن صاحب الحسنى له الفوز بالى * ويسم بالزللى لدى جيرة العلا
 ونخير بالغيب إذا جدت خدمة * نريك عجائبا بمن كان موثلا
 فإذا هو الفوز وحسن تاله * ومنها زيادات لتفسيرها تلا

﴿ الوصية والنظم والإيمان والاسلام والتحريم والأهلية ﴾

فيذا قصيدنا وتسعون عدة * وما زاد خطبة وختا وحدولا
 عجبت لآيات وتسعون عددا * تولد أحيانا وما حصرها انجلا
 فمن فهم السر فيهم نفسه * وفيهم تفسيرا مشابه أشكلا
 حرام وشرعى لأظهار سرنا * لناس وإن خصوا وكان التأهلا
 فإن شئت أهلية فقلظ بعينهم * وفيهم برحلة ودين تطولا
 لعلك أن تنجو وسامع سرهم * من القطع والافشاء فترأس بالعلا
 فتجل للعباس لسره كاتم * فقال سعادات ونابعه علا
 وقام رسول الله في الناس خاطيا * فمن يرأس عرشا فذلك أكلا
 وقدركب الأرواح أجساد مظهر * فألت لقتلهم بدق تطولا
 إلى العالم المعنوى يعني فناؤه * ويلبس أنواب الوجود على الولا
 قد تم نظمنا وصل أهنسا * وعلى خاتم الرسل صلاة بها العلا

وحلى الله العرش ذو الجيد والعلل * على سيد ساد الانام وكلا
عبد الهادي الشفيع اماننا * وأصحابه أهل الكارم والعلل
٨ د الله نرح وطع لا

مرتبة ثالثة عن الخلة سرح اسع صم مم ————— هصه تصحيح النبرن وتعديل
الكواكب عند كل تاريخ مطلوب ب س ر ح ك ل و و ه ا هـ لو طرح الاوتار الكلية
١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ح

الأول تم ٨ عم ٣ عم ٥ عم ح عو ٥ عو ٨ عو ح ح ا عو عو عو عو صم
كملت الزاوية

﴿ كيفية العمل في استخراج أجوبة المسائل من زاوية العام بحول الله
منتولاً ممن لقيناه من القائمين عليها ﴾

السؤال للثلاثة وستون جواباً عدة الدرج وتختلف الاجوبة عن سؤال واحد في مطالع مخصوص
باختلاف الاسئلة المضافة الى حروف الاوتار وتناسب العمل من استخراج الاحرف من بيت القصيد
(نبيه) تركيب حروف الاوتار والجدول على ثلاثة أصول حروف شريفة تنقل على هياتها وحروف
رسم الغبار وهذه تبدل قمتها لينقل على هيئة من ثم تزداد الادوار عن أربعة فان زادت عن أربعة شلت
الى المرتبة الثانية من مرتبة العشرات وكذلك المرتبة المائين على حسب العمل كالسبعة ومنها حروف رسم
الزمام كذلك غير أن رسم الزمام يعطى نسبة ثانية فهي عشرة واحد ألف وبمئة عشرة ولها نسبة من
خمس بالعربي فاستحق البيت من الجدول أن نوضع فيه ثلاث حروف في هذا الرسم وحرفان في الرسم
فاختصر وامن الجدول بيوتاً خالية فكن كانت أصول الادوار زائدة على أربعة حسب في العدد في طول
الجدول وان لم تزد على أربعة فحسب الا العام منها ﴿ والعمل في السؤال يقتضي سبعة أصول ﴾ عدة
حروف الاوتار وحفظ ادوارها بعد طرحها اثني عشر اثني عشر وهي ثمانية ادوار في الكامل وستة
في الناقص أبداً ومعرفة درج الطالع وسلطان البرج والدور الاكبر الاصل وهو واحد أبداً وما يخرج
من اضافة الطالع للدور الاصل وما يخرج من ضرب الطالع والدور في سلطان البرج واطافة سلطان
البرج للطالع والعمل جميعه ينتج عن ثلاثة ادوار مضروبة في أربعة تكون اثني عشر دوراً أو نسبة هذه
الثلاثة ادوار التي هي كل دور من أربعة نشأة ثلاثية كل نشأة لها ابتداء ثم انهاء تضرب ادوار ارباعية
أيضاً ثلاثية ثم انهاء من ضرب بستة في اثنين فكان لها نشأة يظهر ذلك في العمل وينبع هذه الادوار الاثني
عشر نتائج وهي في الادوار اما أن تكون نتيجة أو أكثر الى ستة فأول ذلك فرض سؤال عن الزاوية
هل هي علم قديم أو محدث بطالع أول درجة من القوس أثناء حروف الاوتار ثم حروف السؤال فوضعنا
حروف ورأس القوس ونظيره من رأس الجوزاء وذلك هو رأس الدلو الى حد المركز وأضفنا اليه

حروف السؤال ويظهر ناعتها وأقل ما تكون ثمانية وثمانين وأكثر ما تكون ستة وتسعين وهي جملة الدور الصحيح فكانت في سؤال الثلاثة وتسعين ويختصر السؤال أن زاد عن ستة وتسعين بأن يسقط جميع أدواره الاثني عشرية وعُظُم ما خرج منها وما بقي فكانت في سؤالنا سبعة أدوار الباقي تسعة أمتينها في الحروف ما يبلغ الطالع اثني عشر درجة فإن بلغها لم تثبت قاعدة ولا دور ثم تثبت أعدادها أيضا أن زاد الطالع عن أربعة وعشرين في الوجه الثالث ثم تثبت الطالع وهو واحد وسلطان الطالع وهو أربعة والدور الأول أكثر وهو واحد وجميع ما بين الطالع والدور وهو اثنان في هذا السؤال واضرب ما خرج منها في سلطان البرج يبلغ ثمانية وأضف السلطان للطالع فيكون خمسة في هذه سبعة أصول فما خرج من ضرب الطالع والدور الأول أكبر في سلطان القوس مما يبلغ اثني عشر فيه تدخل في ضلع ثمانية من أسفل الجدول صاعدا وإن زاد على اثني عشر طرح أدوار وتدخل بالباقي في ضلع ثمانية وتعلم على منتهى العدد والخمسة المستخرجة من السلطان والطالع يكون الطالع في ضلع السطح المبسوط الأعلى من الجدول وتعد متواليات الخمسة أدوار أو تحفظها إلى أن يقف العدد على حرف من أربعة وهي ألف أو باء أو جيم أو زاي فوقه العدد في علمنا على حرف الألف وخلف ثلاثة أدوار فضر بنا ثلاثة في ثلاثة كانت تسعة وهو عدد الدور الأول فأثبتته وجميع ما بين الضلعين القائم والمبسوط يكن في بيت ثمانية في مقابلة البيوت العارضة بالعدد من الجدول وإن وقف في مقابلة الخالي من بيوت الجدول على أحدها فلا يعتبر وتستمر على أدوارك وادخل بعد ما في الدور الأول وذلك تسعة في صدر الجدول مما يلي البيت اجتماعيه وهي ثمانية ما زال إلى جية اليسار فوقه على حرف لام ألف ولا يخرج منها أبدا حرف مركب وإنما هو اذن حرف تاء أربعة بعانة برسم الزمان فعلم عليها بعد ثلثها من بيت القصيد وجميع عدد الدور للسلطان يبلغ ثلاثة عشر ادخل بها في حروف الأوتار وأثبت ما وقع عليه العدد وعلم عليه من بيت القصيد ومن هذا القانون تدرى كم تدور الحروف في النظم الطبيعي وذلك أن تجمع حروف الدور الأول وهو تسعة للسلطان البرج وهو أربعة تبلغ ثلاثة عشر أضفها بمثل تكون ستة وعشرين أسقط منها درج الطالع وهو واحد في هذا السؤال الباقي خمسة وعشرون فعلى ذلك يكون نظم الحروف الأول ثم ثلاثة وعشرون مرتين ثم اثنان وعشرون مرتين على حسب هذا الطرح إلى أن ينتهي للواحد من آخر البيت المنظوم ولا تقف على أربعة وعشرين لطرح ذلك الواحد أولا ثم ضع الدور الثاني وأضف حروف الدور الأول إلى ثمانية الخارجة من ضرب الطالع والدور في السلطان تكن سبعة عشر الباقي خمسة فأضف في ضلع ثمانية بخمسة من حيث انتهت في الدور الأول وعلم عليه وادخل في صدر الجدول بسبعة عشر ثم بخمسة ولا تعد الخالي والدور عشرين فوجدنا حرف تاء خمسة وأنها تون لأن دورنا في مرتبة العشرات فكانت الخمسة بخمسين لأن دورها سبعة عشر فلم تكن سبعة عشر لكانت مئة فأثبتت نو ناهم ادخل بخمسة أيضا من أوله وانظر ما حاذي ذلك من السطح تجدوا أحدا فقهر العدد واحد جمع على خمسة أضف لها واحد السطح تكن ستة أثبت واو علم عليها من بيت القصيد أربعة وأضفها للثمانية الخارجة من ضرب الطالع مع الدور في السلطان تبلغ اثني

عشر أضف لها الباقي من الدور الثاني وهو خمسة تبلغ سبعة عشر وهو ما للدور الثاني فدخلنا بسبعة عشر في حروف الأوتار فوق العدد على واحد أثبت الألف وعلم عليها من بيت القصيد وأسقط من حروف الأوتار ثلاثة حروف عدة الخارج من الدور الثاني وضع الدور الثالث وأضف خمسة إلى ثمانية تكن ثلاثة عشر الباقي واحد انقل الدور في ضلع ثمانية بواحد وادخل في بيت القصيد ثلاثة عشر وخذ ما وقع عليه العدد وهو ق وعلم عليه وادخل ثلاثة عشر في حروف الأوتار وأثبت ما خرج وهو سين وعلم عليه من بيت القصيد ثم ادخل بحايي السين الخارجة الباقي من دور ثلاثة عشر وهو واحد فدخل مايلي من الأوتار فكان ب أثبتا وعلم عليها من بيت القصيد وهذا يقال له الدور المعطوف وميز أنه صحيح وهو أن تضعف ثلاثة عشر بثلاث وأضعف إليها الواحد الباقي من الدور تبلغ سبعة وعشرين وهو حرف باء المستخرج من الأوتار من بيت القصيد وادخل في صدر الجدول ثلاثة عشر وانظر ما قبلها من السطح وأضعف بثلاثة وزد عليه الواحد الباقي من ثلاثة عشر فكان حرف جيم وكانت الجملة سبعة فذلك حرف زاي فائتناه وعلمنا عليه من بيت القصيد وميز أنه أن تضعف السبعة بثلاثة وزد عليها الواحد الباقي من ثلاثة عشر يكن خمسة عشر وهو الخامس عشر من بيت القصيد وهذا آخر أدوار الثلاثيات وضع الدور الرابع وله من العدد تسعة بإضافة الباقي من الدور السابق فاضرب الطالع مع الدور في السلطان وهذا الدور آخر العمل في البيت الأول من الرباعيات فاضرب على حرفين من الأوتار واصعد بتسعة في ضلع ثمانية وادخله بتسعة من دور الحرف الذي أخذته آخر من بيت القصيد فالتسع حرف راء فثبتته وعلم عليه وادخل في صدر الجدول بتسعة وانظر ما قبلها من السطح يكون ج قهتر العدد واحدا يكون ألف وهو الثاني من حرف الراء من بيت القصيد فثبتته وعلم عليه وعدد حايي الثاني تسعة يكون ألف أيضا أثبت وعلم عليه واضرب على حرف من الأوتار وأضعف تسعة بثلاث تبلغ ثمانية عشر أدخل بها في حرف الأوتار تقف على حرف راء وأثبتها وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين وأدخل بثمانية عشر في حروف الأوتار تقف على س أثبتها وعلم عليها اثنين وأضف اثنين إلى تسعة تكون أحد عشر أدخل في صدر الجدول بأحد عشر ثمانية من السطح ألف أثبتها وعلم عليها ستة وضع الدور الخامس وعدته سبعة عشر الباقي خمسة اصعد بخمسة في ضلع ثمانية واضرب على حرفين من الأوتار وأضعف خمسة بثلاث وأضف إلى سبعة عشر عدد دورها الجملة سبعة وعشرون أدخل بها في حروف الأوتار تضع على ب أثبتها وعلم عليها اثنين وثلاثين والخارج من سبعة عشر اثنين التي هي في اس اثنين وثلاثين الباقي خمسة عشر أدخل بها في حروف الأوتار تقف على ق أثبتها وعلم عليها ستة وعشرين وادخل في صدر الجدول بست وعشرين تقف على اثنين بالغيار وذلك حرف ب وعلم عليه أربعة وخمسين واضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور السادس وعدته ثلاثة عشر الباقي ومنه واحد فبين اذ ذاك أن دور النظم من خمسة وعشرين فإن الادوار خمسة وعشرون وسبعة عشر وخمسة وثلاثة عشر وواحد فاضرب خمسة في خمسة تكن خمسة وعشرين وهو الدور في نظم البيت

فانقل الدور في ضلع ثمانية بواحد ولكن لم يدخل في بيت القصيد بثلاثة عشر كما قدمناه لا الدوران من
نشأة تركيبية ثانية بل أضفنا الأربعة التي من أربعة وخمسين الخارجة على حروف ب من بيت القصيد إلى
الواحد تكون خمسة تضيف خمسة إلى ثلاثة عشر التي للدور تبلغ ثمانية عشر أدخل بها في صدر الجدول
وخذ ما قبلها من السطح وهو ألف أثبتته وعلم عليه من بيت القصيد اثني عشر واضرب على حرفين من
الأوتار ومن هذا الجدول تنظر أحرف السؤال فما خرج منها زده مع بيت القصيد من آخره وعلم
عليه من حروف السؤال ليكون داخل في بيت القصيد وكذلك تفعل بكل حرف حرف بعد
ذلك متناسبا لحروف السؤال فما خرج منها زده إلى بيت القصيد من آخره وعلم عليه ثم أضف إلى ثمانية
عشر ما علمته على حرف الألف من الآحاد فكان اثني عشر تبلغ الجملة عشرين أدخل بها في حروف الأوتار
تقف على حرف راء أثبتته وعلم عليه من بيت القصيد ستة وتسعين وهو نهاية الدور في الحرف الوزري
فاضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور السابع وهو ابتداء لفتح ثاني ينشأ من الاختراعين
ولهذا الدور من العدد تسعة تضيف لها واحدا تكون عشرة للنشأة الثانية وهذا الواحد يزيد بعد
إلى اثني عشر دورا إذا كان من هذه النسبة أو تنقصه من الأصل تبلغ الجملة خمسة عشر فاصعد في ضلع
ثمانية وتسعين وأدخل في صدر الجدول بعشرة تقف على خمسة وإعالي خمسون مضافا إليها
وتلك في أثبتنا وعلم عليها من بيت القصيد اثنين وخمسين وأسقط من اثنين وخمسين اثنين وأسقط
تسعة التي للدور الباقي واحد وأربعون فأدخل بها في حروف الأوتار تقف على واحد أثبتته وكذلك
أدخل بها في بيت القصيد تجدد واحد فهذا ميزان هذه النشأة الثانية فهو عليه من بيت القصيد عتلاتين
علامة على الألف الأخير الميزاني وأخرى على الألف الأولى فقط والثانية أربعة وعشرون واضرب
على حرفين من الأوتار وضع الدور الثامن وعد تسعة عشر الباقي خمسة أدخل في ضلع ثمانية وخمسين
وأدخل في بيت القصيد خمسة تقع على عين سبعين أثبتنا وعلم عليها وأدخل في الجدول خمسة وخذ
ما قبلها من السطح وذلك واحد أثبتته وعلم عليه من البيت ثمانية وأربعين وأسقط واحد من ثمانية
وأربعين للاثني الثاني وأضف إليها خمسة الدور الجملة اثنان وخمسون أدخل بها في صدر الجدول تقف
على حرف ب غبارية وهي مرتبة مبنية لتزايد العدد فتكون مائتين وهي حرف راء أثبتنا وعلم عليها
من القصيد أربعة وعشرين فانقل الأربعة من ستة وتسعين إلى ابتداء وهو أربعة وعشرين فأضف
إلى أربعة وعشرين خمسة الدور وأسقط واحدا تكون الجملة ثمانية وعشرين أدخل بالنصف منها في
بيت القصيد تقف على ثمانية أثبتت ٢ وعلم عليها وضع الدور التاسع وعدده ثلاثة عشر الباقي واحد
أصعد في ضلع ثمانية بواحد وليست نسبة العمل هنا كذلك في الدور السادس لتضاعف العدد ولأنه
من النشأة الثانية ولأنه أول الثلث من مربعات البروج وآخر الستة الرابعة من الثلاث فاضرب ثلاثة
عشر التي للدور في أربعة التي هي مثلثات البروج السابقة الجملة اثنان وخمسون أدخل بها في صدر الجدول
تقف على حرف اثنين غبارية وإعالي هي مثنى لتجاوزها في العدد عن مرتبة الآحاد والعشرات فأنته

مائتين راء وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين وأضف إلى ثلاثة عشر الدور واحد الأس
وأدخل بأربعة عشر في بيت القصيد تبلغ ثمانية فعمل عليها ثمانية وعشرين وأخرج من أربعة عشر سبعة
ين بقية اضرب على حرفين من الأوتار وأدخل بسبعة تقف على حرف لام أثبتت وعلم عليه من البيت
وضع الدور العاشرة وعدده تسعة وهذا ابتداء المثلثة الرابعة وأصعد في ضلع ثمانية بسبعة تكون خلاه
فأصعد بسبعة ثمانية نصير في السابع من الابتداء أضرب تسعة في أربعة ليعودنا بتعين وإنما كانت
تضرب في اثنين وأدخل في الجدول بسنة وثلاثين تقف على أربعة مائة وهي عشرة فأتخذناها أحادية
لقلة الأدوار فأثبتت حروف دائر وأن أضفت إلى ستة وثلاثين واحد الأس كان حدها من بيت
القصيد فعمل عليها ونودخلت بالتسعة لا غير من غير ضرب في صدر الجدول لم تقف على ثمانية فأخرج من
ثمانية أربعة الباقي أربعة وهو المقصود ونودخلت في صدر الجدول بثمانية عشر التي هي تسعة في اثنين
توقف على واحد زمامي وهو عشرة فأخرج منه اثنين تكرر التسعة الباقي ثمانية فضعها المطلوب ولو
دخلت في صدر الجدول بسبعة وعشرين بنصر بها في ثلاثة توقفت على عشرة مائة والعمل واحد ثم أدخل
بسبعة في بيت القصيد وأثبت ماخرج وهو ألف ثم اضرب تسعة في ثلاثة التي هي مركب تسعة الماضية
وأضف واحد وأدخل في صدر الجدول بسنة وعشرين وأثبت ماخرج وهو مائتان بحرف راء وعلم
عليه من بيت القصيد ستة وتسعين واضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور الحادي عشر ولتسعة
عشر الباقي خمسة أصعد في ضلع ثمانية خمسة وتسعين ما تكرر عليه انتهى في الدور الأول وأدخل في
صدر الجدول بخمسة تقف على خالفا ما قبله من السطح وهو واحد فأدخل بواحد في بيت القصيد تكن
سين أثبتت وعلم عليه أربعة ولو يكون الوقف في الجدول على بيت عامر لا ثبتنا واحدنا ثم أضف سبعة
عشر بثلث وأسط واحد وأضعفها بثلثها وزدها أربعة وتبلغ سبعة وثلاثين أدخل بها في الأوتار تقف
على ستة أثبتت وعلم عليها وأضعف خمسة بثلثها وأدخل في البيت تقف على لام أثبتت وعلم عليها عشرين
واضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور الثاني عشر وله ثلاثة عشر الباقي واحد أصعد في ضلع ثمانية بواحد
وهذا الدور آخر الأدوار وآخر الاختراعين وآخر المربعات الثلاثية وآخر المثلثات الرباعية والواحد
في صدر الجدول يقع على ثمانين زمامية وإنما آحاد ثمانية وليس معنا من الأدوار إلا واحد فلوزاد عن
أربعة من مربعات اثني عشر أو ثلاثين مثلثات اثني عشر لكانت ح وإعنا دفأثبتت وعلم عليها من
بيت القصيد أربعة وسبعين ثم انظر ما ناسبها من السطح تكن خمسة أضعفها بثلثها الأس تبلغ عشرة
أثبتت وعلم عليها وانظر في أي الراتب وقعت وجدناها في الرابعة دخلنا بسبعة في حروف الأوتار
وهذا الدخول يسمى التوليد الحرفي فكانت ف أثبتت وأضف إلى سبعة واحد الدور الحجة ثمانية أدخل
بها في الأوتار تبلغ من أثبتت وعلم عليها ثمانية واضرب ثمانية في ثلاثة إلى ادة على عشرة الدور فأنها آخر
مربعات الأدوار بالمثلثات تبلغ أربعة وعشرين أدخل بها في بيت القصيد وعلم على ماخرج منها وهو
مائتان وعلما ست وتسعون وهو نهاية الدور الثاني في الأدوار الحرفية واضرب على حرفين من

الأوتار وضع النتيجة الأولى ولها تسعة وهذا العدد يناسب أبدا الباقي من حروف الأوتار بعد طرحها أدوار أولئك تسعة فاضرب تسعة في ثلاثة التي هي زائدة على تسعين من حروف الأوتار وأضف لها واحدا الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ ثمانية وعشرين فأدخل بها في حروف الأوتار تبلغ ألف أثبتت وعلم عليه ستون تسعين وإن ضربت سبعة التي هي أدوار الحروف التسعين في أربعة وهي الثلاثة الزائدة على تسعين والواحد الباقي من الدور الثاني عشر كان كذلك وأضف في ضلع ثمانية بضعة وأدخل في الجدول بضعة تبلغ اثنين زمانية واضرب تسعة فيها تناسب من السطح وذلك ثلاثة وأضف لذلك سبعة عددا الأوتار الحرفية وأطرح واحد الباقي من دور اثني عشر تبلغ ثلاثة وثلاثين أدخل بها في البيت تبلغ خمسة فأثبتها وأضف تسعة ثانياً وأدخل في صدر الجدول ثمانية عشر وخذ باقي السطح وهو واحد أدخل به في حروف الأوتار تبلغ م أثبتت وعلم عليه واضرب على حرفين من الأوتار وضع النتيجة الثانية ولها سبعة عشر الباقي خمسة فأضف في ضلع ثمانية بجمعة واضرب خمسة في ثلاثة الزائدة على تسعين تبلغ خمسة عشر أضف لها واحدا الباقي من الدور الثاني عشر تكن تسعة وأدخل بستة عشر في بيت التصيد تبلغ م أثبتت وعلم عليه أربعة وستين وأضف إلى خمسة الثلاثة الزائدة على تسعين وزد واحد الباقي من الدور الثاني عشر تكن تسعة أدخل بها في صدر الجدول تبلغ ثلاثين زمانية وانظر ما في السطح بعد واحد أثبتت وعلم عليه من بيت التصيد وهو التاسع أيضا من البيت وأدخل بضعة في صدر الجدول تغلف على ثلاثة وهي عشرات فأثبت لأم وعلم عليه وضع النتيجة الثالثة وعددها ثلاثة عشر الباقي واحد فاقبل في ضلع ثمانية بواحد وأضف إلى ثلاثة عشر الثلاثة الزائدة على التسعين وواحد الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ سبعة عشر وواحد النتيجة تكن ثمانية عشر أدخل بها في حروف الأوتار تكن لاما أثبتت بهذا آخر العمل والمثال في هذا السؤال السابق أردنا أن نعلم أن هذه الزاوية علم عدت أو قديم بطالع أول درجتين القوس أثبتت حروف الأوتار ثم حروف السؤال ثم الأصول وهي عدة الحروف ثلاثة وتسعون أدوار حسابية الباقي منها تسعة الطالع واحد سلطان القوس أربعة الدور الأكبر واحد درج الطالع مع الدور اثنين ضرب الطالع مع الدور في السلطان ثمانية إضافة السلطان للطالع خمسة بيت التصيد

سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن * غرائب شك ضبطه الحد مثلا

حروف الأوتار من ط ه ر ت ك ه م ص و ن ب ه س ا ن ل م ن
ص ع ف ص و ر س ك ل م ن س ع ف ض ق ر س ت ث خ د ظ
غ ش ط ي ع ح ص ر و ح ر و ح ل ص ك ل م ن ص ا ب ج د ه
و ز ح ط ي

حروف السؤال ١ ل ز ا ي ر ج ت ع ل م م ح د ت ا م ق د ي
م الدور الأول ٦ الدور الثاني ١٧ الباقي ٥ الدور الثالث ١٣ الباقي ١ الدور الرابع ٩

الدور الخامس ١٧ الباقي ٥ الدور السادس ١٣ الباقي ١ الدور السابع ٩ الدور الثامن ١٧ الباقي ٥ الدور التاسع ١٣ الباقي ١ الدور العاشر ١٣ الدور الحادي عشر ١٧ الباقي ٥ الدور الثاني عشر ١٣ الباقي ١ النتيجة الاولى ٩ النتيجة الثانية ١٧ الباقي ٥ النتيجة الثالثة ١٣ الباقي ١

هـ ح ج و ع ع في ا ب ع

- | | |
|----|---|
| ١ | س |
| ٢ | و |
| ٣ | ا |
| ٤ | ل |
| ٥ | خ |
| ٦ | ظ |
| ٧ | ى |
| ٨ | م |
| ٩ | ١ |
| ١٠ | ل |
| ١١ | خ |
| ١٢ | ل |
| ١٣ | ق |
| ١٤ | ح |
| ١٥ | ز |
| ١٦ | ن |
| ١٧ | ف |
| ١٨ | ص |
| ١٩ | ن |
| ٢٠ | ١ |
| ٢١ | ذ |
| ٢٢ | ن |

٢٣	غ
٢٤	ز
٢٥	ا
٢٦	ي
٢٧	ب
٢٨	ن
٢٩	ك
٣٠	ض
٣١	پ
٣٢	ط
٣٣	هـ
٣٤	ا
٣٥	ل
٣٦	ح
٣٧	د
٣٨	م
٣٩	ت
٤٠	ث
٤١	ا

ف و ز ا و س ر و ا ل س ا ب ا ر ق ا ع ا ر ع س ح و ح ل د ا
ر س ا ل د ي و س ر ا د م ن ا ل ل

دورها على خمسة وعشرين ثم على ثلاثة وعشرين مرتين ثم على واحد وعشرين مرتين إلى
أن تنتهي إلى الواحد من آخر البيت وتنتقل الحروف جميعها والله أعلم ن ب ر
و ح ر و ح ا ل و د س ا د ر ر س ر ه ا ل د ر ي س و ا ا ن س د
ر و ا ب ل ا م ر ب و ا ل ع ل ا ل هذا آخر الكلام في استخراج الأجوبة من زارجة
العالم منظومة والنقوم طرائق أخرى من غير الزارجة يستخرجون بها أجوبة المسائل غير منظومة
وعندم أن السر في استخراج الجواب منظوما من الزارجة إنما هو مزجهم بيت مالك بن وهيب
وهو * سؤال عظيم الخلق البيت ولذلك يخرج الجواب على رويه وأما الطرق الأخرى فيخرج

الجواب غير منظوم فمن طرأ في استخراج الأجوبة ما نقله عن بعض المحققين منهم

فصل في الاطلاع على الاسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية

اعلم أريدنا الله وإله أن هذه الحروف أصل الأسئلة في كل قضية وانما نتج الأجوبة على تجزئته بالكلية وهي ثلاثة وأربعون حرفاً كما ترى والله علام الغيوب **ا و ل ا ع ط س ا ل م خ ي د ل ز ق ت ا ر ذ ص ف ن غ ش ا ل ل ك ي ب م ص ب ح ط ل ج . د ن ل ث ا** وقد نظمها بعض الفضلاء في بيت جعل فيه كل حرف مشدداً من حرفين وسماه القطب فقال

سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن * غرائب شك ضبطه الجيد مثلاً

فإذا أردت استخراج المسئلة فاحذف ما تكرر من حروفها واثبت ما فضل منه ثم احذف من الأصل وهو القطب لكل حرف فضل من المسئلة حرفاً مماثلة واثبت ما فضل منه ثم امزج الفضلين في سطر واحد تبدأ بالأول من فضله والثاني من فضل المسئلة وهكذا إلى أن يتم الفضلان أو يتفدا أحدهما قبل الآخر فتضع البقية على ترتيبها فإذا كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج موافقاً لعدد حروف الأصل قبل الحذف فالعمل صحيح فبذلك تضيف إليها خمس نونات لتعدل بها الموازين الموسيقية وتكمل الحروف ثمانية وأربعين حرفاً فتعمر بها جدولاً لا يربعا يكون آخر ما في السطر الأول أول ما في السطر الثاني وتنقل البقية على ما لها وهكذا إلى أن تتم عمارة الجدول ويعود السطر الأول بعينه وتتوالى الحروف في القطر على نسبة الحركة ثم تخرج وتر كل حرف بقسمة مربعة على أعظم جزء يوجد له وتضع الوتر مقابل الحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية وتعرف قوتها الطبيعية وموازنها الزوادية وخانية وعراؤها التفاضلية وأسسها الأصلية من الجدول الموضوع لذلك وهذه صورته

ن
د
ز
ق
ت
ا
ر
ذ
ص
ف
ن
غ
ش
ا
ل
ل
ك
ي
ب
م
ص
ب
ح
ط
ل
ج
د
ن
ل
ث
ا

ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه في أسس أوناد الفلك الأربعة واحذر ما يلي الأوناد وكذلك السواقي لأن نسبتها مضطربة وهذا الخارج هو أول رتب السريان ثم تأخذ مجموع العناصر ونحط منها أسس المولدات يبقى أس عالم الخلق بعد عروضة للعدد الكونية فتحمل عليه بعض المجدرات عن المواد وهي عناصر الامداد يخرج أفق النفس الأوسط وتطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط وهذا مخصوص بعوالم الأكون البسيطة لا المركبة ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الأوسط يخرج الأفق الأعلى فتحمل عليه أول رتب السريان ثم تطرح من الرابع أول عناصر الامداد الأصلية يبقى الثالث رتبة السريان فتضرب مجموع أجزاء العناصر الأربعة أبدأ في رابع مرتبة السريان

يخرج أول علم التفصيل والثاني في الثاني يخرج ثاني علم التفصيل والثالث في الثالث يخرج ثالث علم التفصيل والرابع في الرابع يخرج رابع علم التفصيل فتجتمع علوم التفصيل وتحيط من علم الشكل بقي العوالم المجردة فتقسم على الأفق الأعلى يخرج الجزء الأول ويقسم المنكسر على الأفق الأوسط يخرج الجزء الثاني وما انكسر فهو الثالث وتعين الرابع هذا في الرابع وإن شئت أكثر من الرابع فستكثر من علوم التفصيل ومن رتب السريان ومن الأفق بعد الحروف والقد برشدنا وإياك وكذلك إذا قسم علم التجريد على أول رتب السريان خرج الجزء الأول من علم التركيب وكذلك إلى نهاية الرتبة الأخيرة من علم الكون فليهم وتدبر والله الموفق والأمين * ومن علمهم أيضا في استخراج الجواب قال بعض المحققين منهم علم أبدان الله وإياك بروح منه أن علم الحروف جليل يتوصل العالم به لما لا يتوصل به من العلوم المتداولة بين العالم والعمل بشرايط تلزم وقد يستخرج العالم أسرار الخلق وسرار الطبيعة فيطالع بذلك على نيجتي الفلسفة أعني السبب ما أختم ويرفعه حجاب الغيولات ويطلع بذلك على مكنون خبايا القلوب وقد شهدت جماعة بأرض المغرب ممن انفصل بذلك فأطهر الغراب وخرق العوائد وقصر في الوجود بتأييده واعلم أن ملاك كل فضيلة الاجتهاد وحسن الملكة مع الصبر مفتاح كل خير كما أن الحرق والمجلاة رأس الحرمان فقول إذا أردت أن تعلم قوة كل حرف من حروف الفايظوس أعني أيتجد إلى آخر العدد وهذا أول مدخل من علم الحروف فانظر ما لتلك الحرف من الأعداد فذلك الدرجة التي هي مناسبة للحروف هي قوته في الجسمانيات ثم اضرب العدد في مثله فخرجت قوته في الروحانيات وهي ورده هذا في الحروف المنفردة لا يتبدل بغيره لأن المنفردة منها مراتب ثمان يأتى عليها البيان فيما بعد واعلم أن لكل شكل من أشكال الحروف شكلا في العلم العلوي أعني الكرسي ومنها المتحرك والسكن والعلوي والسفل كما هو مرقوم في أماكنه من الجدول الموضوع في الزيار واعلم أن قوى الحروف ثلاثة أقسام الأول وهو أقلها قوة يظهر بعد كتابتها فتكون كتابته لعالم روحاني مخصوص بذلك الحرف المرسوم فمن خرج ذلك الحرف بقوة تضاهية وجمع حمة كانت قوى الحروف مؤثرة في علم الأجسام الثاني قوتها في الهيئة العسكرية وذلك ما يصدر عن تصريف الروحانيات لها فهي قوة في الروحانيات العلويات وقوة شكلية في علم الجسمانيات الثالث وهو ما يجمع الباطن أعني القوة النفسانية على تكوينه فتكون قبل النطق به صورة في النفس وبعد النطق به صورة في الحروف وقوة في النطق وأما طابعها فهي الطبيعيات النسوية لمولدات في الحروف وهي الحرارة واليوسة والحرارة والرطوبة والبرودة واليوسة والبرودة والرطوبة فهذه سر العدد اليان والحرارة جامعة للهواء والنار وهما ه ط م ف ش ذ ح ز ث س ق ت ظ والبرودة جامعة للهواء والماء ب و ي ن م ت ض د ح ل ع ر خ غ واليوسة جامعة للنار والأرض ا ه ط م ف ش ذ ب و ي ن م ت ض فهذه نسبة حروف الطبايع وتداخل أجزاء بعضها في بعض وتداخل أجزاء العلم فيها علويات وسفليات بأسباب الامبات الأولى أعني الطبايع الأربع

المشردة في أردت استخراج مجهول من مسئلة ما تحقق طالع السائل أو طالع مسئلته واستنطق بحروف
أو نادها الأربعة الأولى والرابع والسادس والعاشر مستوية مرتبة واستخرج أعداد القوى والأوناد
كالتنين واحمل والسب واستخرج الجواب بخارج لك المطلوب اما يصير نوع اللفظ أو بالمعنى وكذلك
في كل مسئلة تقع لك ياتع إذا أردت أن تستخرج قوى حروف الطالع مع اسم السائل والحاجة فاجمع
أعدادها بالجن الكبير فكان الطالع الحزرا بة السرطان سابعه الميزان عشرة الجدي وهو أقوى
هذه الأوناد فاسقط من كل برج حرفي التعريف وانظر ما يخص كل برج من الأعداد المنطقه
الموضوعة في دائرتها واحذف أجزاء الكسر في النسب الاستنطاقية كلها والبت تحت كل حرف
ما يخصه من ذلك ثم اعداد حروف العناصر الأربعة وما يخصها كالأول وارسم ذلك كله أحرفا ورتب
الأوناد والقوى والقرائن سطرًا ممتدًا جاوا كسر واضرب ما يضرب لاستخراج الموازين واجمع
واستخرج الجواب بخارج لك الضمير وجوابه مثاله افرض أن الطالع الحمل كما تقدم رسم ح م ل فللماء
من العدد ثمانية طمان نصف والربع والثلث د ب ا لثم لها من العدد أربعون لها النصف والربع
والثلث والعشر ونصف العشر إذا أردت التدقيق م ك ي ه د ب اللام لها من العدد ثلاثون
لها النصف والثلث والخمس والسادس والعشر ك ي و ه ج وهكذا تفعل بسائر
حروف المسئلة والاسم من كل لفظ يقع لك وأما استخراج الأوناد فهو أن تقسم مربع كل حرف على
أعظم جزء يوجد له مثاله حرف د له من الأعداد أربعة مربعها ستة عشر اقسمها على أعظم جزء
يوجد لها وهو اثنان يخرج جزو ثلثي الدال ثمانية ثم تضع كل وتر مقابل الحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية
كما تقدم في شرح الاستنطاق ولها عدة تطرد في استخراجها من طبع الحرف وطبع البيت انتهى محل
فيه من الجدول كما ذكر الشيخ ابن عرف الاصطلاح والله أعلم

فصل في الاستدلال على مافى الضائر الخفية بالقوانين الحرفية

وذلك لو سأل سائل عن عليل لم يعرف مرضه ما علته وما الموافق ليرثمه فمر السائل أن يسمى
ما شاء من الأشياء على اسم العلة المجهولة لتجعل ذلك الاسم قاعدة لك ثم استنطق الاسم مع اسم
الطالع والعناصر والسائل واليوم والساعة ان أردت التدقيق في المسئلة والاعتصرت على الاسم
الذي سماه السائل وفعلت به كالتنين فأقول مثلا سمي السائل فرسا فاقبت الحروف الثلاثة مع أعدادها
المنطقه ياتع ان النقاء من العدد ثمانين ولها م ك ي ح ب ثم الراء لها من العدد مائتان ق ن
ك ي ثم السين لها من العدد ستون ولها م ل ك فلو اوجدت نام له د ج ب والسين مثله
ولها م ل ك فإذا بسطت حرف الأسماء وجدت عنصرين متساويين فالحكم لاكثرها حروفا
بالغلبة على الآخر ثم احمل عدد حروف عناصر اسم المطلوب وحروفه دون بسط وكذلك اسم
الطالب واحكم للأكثر والأقوى بالغلبة

حتى يتم الفضلتان جميعاً فتكون ثلاثة وأربعين فتضيف إليها خمس نونات ليكون ثمانية وأربعين لتعدل
 بها الموازين الموسيقية ثم تضع الفضة على ترتيبها فإن كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج يوافق العدد
 الأصلي قبل الحذف فالعمل صحيح ثم يخرج بامر جيت جدولاً مربعاً يكون آخر ما في السطر الأول
 أول ما في السطر الثاني وعلى هذا النسق حتى يعود السطر الأول بعينه وتتوالى الحروف في القطر على
 نسبة الحركة ثم يخرج وتر كل حرف كاتقدم ونطعه مقابل الحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف
 الجدولية لتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغرائزها النفسانية وأسسها الأصلية من
 الجدول الموضوع لذلك وصفة استخراج النسب العنصرية هو أن تنظر الحرف الأول من الجدول
 ما طبيعته وطبيعة البيت الذي حل فيه فإن اتفقت طين والألف تستخرج بين الحرفين نسبة ويتبع هذا
 القانون في جميع الحروف الجدولية وتحقق ذلك سهلاً على من عرف قوانينه كما هو مقرر في دوائرها
 للموسيقى ثم تأخذ وتر كل حرف بعد صيره في أسوس أو ناد أو تلك الأربعة كاتقدم واحذر ما يلي
 لا وناد وكذلك السواقط لأن نسبها مضطربة وهذا الذي يخرج لك هو أول مراتب السريان ثم
 ثم تأخذ بمجموع العناصر وتخط منها أسوس المولدات يبقى أس عالم الخلق بعد عروضة لعدد الكونية
 فتعمل عليه بعض المفردات عن الموايد وهي عناصر الأمداد يخرج أفق النفس الأوسط وتطرح أول
 رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم المتوسط وهذا مخصوص بعوالم الأكوان البسيطة المركبة
 ثم تضرب عالم المتوسط في أفق النفس الأوسط يخرج الأفق الأعلى فتعمل عليه أول رتب السريان
 ثم تطرح من الرابع أول عناصر الأمداد الأصلي يبقى ثالث رتبة السريان ثم تضرب مجموع أجزاء
 العناصر الأربعة أبداً في رابع رتب السريان يخرج أول عالم التفصيل والثاني في الثاني
 يخرج ثاني عالم التفصيل وكذلك الثالث والرابع فتجمع عوالم التفصيل وتخط من عالم
 الشكل تبقى العوالم المفردة فتقسم على الأفق الأعلى يخرج الجزء الأول ومن هنا يطرد العمل في
 التامة وله مقامات في كتب ابن وحشية والبوني وغيرهما وهذا التدير يجري على القانون الطبيعي
 الحكمي في هذا الفن وغيره من فنون الحكمة الإلهية وعليه مدار وضع الزياج الحرفية والصناعة
 الإلهية والتي جنت الفلسفية وأقامت لهم وبه استعان وعليه التكلاّن وحبنا الله ونعم الوكيل

﴿ علم الكيمياء ﴾

وهو علم ينظر في المادة التي يتم بها كون والذهب والفضة بالصناعة ويشرح العمل الذي يوصل إلى
 ذلك فيصفحون السكولات كلها بعد معرفة أمر جتها وقواها عليهم يعثرون على المادة المستعدّة لذلك حتى
 من الفضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعذرات فضلاً عن المعادن ثم يشرح الأعمال التي
 تخرج منها تلك المادة من القوة إلى الفعل مثل حل الأجسام إلى أجزاءها الطبيعية بالتصعيد والتفطير وجمد
 الذائب منها بالتكليس وأما الصلب بالفهر والصلابة وأمثال ذلك وعلى عميم أنه يخرج بهذه الصناعة

كلها جسم طبيعي يسمونه الاكسير وأنه يلقى منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو النفضة بالاستعداد القريب من الفعل مثل الرصاص والتصدير والنحاس بعد أن يخفى بالنار فيعود ذهباً بزرّاً ويكون عن ذلك الاكسير اذا أُلغزوا اصطلاحاتهم بالروح وعن الجسم الذي يلقى عليه بالجسد فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي الذي يقبل هذه الاجساد المستعدة الى صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء وما زال الناس يؤلفون فيها حديثاً وحدثاً ويرى عجز الكلام فيها الى من ليس من أهلها وامام المدونين فيها جابر بن حيان حتى أنهم خصمونها به فيسعون عنها علم جابر ولا فيها اسمعون - والى كلها تشبيهة بالالفاز وزعموا أنه لا يفتح مقتضها الا من أحاط علماً بجميع ما فيها والطفرات من حكماء المشرق المتأخرين له فيها دواوين ومناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء وكتب فيها مسند الجريطي من حكماء الاندلس كتابه الذي سماه رتبة الحكيم وجعله قرينة لكتابه الاخر في البحر والظلمات الذي سماه غاية الحكيم وزعم أن هاتين الصناعتين هما نبتان للحكمة وثمرتان للعلوم ومن توقف عليهما فهو فاقد ثمر العلم والحكمة أجمع وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم أجمع في تأليفهم هي الفاز يتعذر فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك * ونحن نذكر سبب عدوهم الى هذه الرموز والالفاز ولا ين الغير في من أئمة هذا الشأن كلمات تدر على حروف المعجم من أبداع ما يجي في الشعر مفعولة كلها العز الا حاجي والمعاينة فلا تكاد تفهم وقد ينسبون للغز الى رتبة الله بعض التأليف فيها وليس بصحيح لأن الرجل لم تكن مداركه العالية لتقف عن خطأ ما يذهبون اليه حتى يتحلوه وربما نسبوا بعض المذاهب والافعال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ومن المعلوم البين أن خالداً من الجيل العربي والبدوة اليه اقرب فهو بعد من العلوم والصنائع بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى حيلة على معرفة حائلي المركبات وأمر جتها وكتب التأملين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم ترجم اللهم الا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المداير الصناعية تشبه باسمه فمكن * وأنا أقول لك هتار سالة أي بكون بشر من لا في السمح في هذه الصناعة وكلامهم من تليد ملة فيستدل من كلامه فيها على مذهب اليه في شأنها اذا أعطيته حقه من التأمل فقل ابن بشر من بعد صدر من الرسالة خارج عن العرض والقدمات التي لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الاولون واقتصر جميعاً أهل النخبة من معرفتها تكوين المعادن وتخلق الاحجار والجواهر وطباع البقاع والامكان فمنعنا اشتهارها من ذكرها ولكن أيمن لك من هذه الصنعة ما يحتاج اليه فبدأت تعرفه فقد قلوا ينبغي اطلاب هذا العلم أن يعفوا اولاد ثلاث خصال اولها هل تكون والثانية من أي تكون والثالثة من أي كيف تكون فاذا عرف هذه الثلاثة وأحكامها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم فأما البحث عن وجودها والاستدلال عن تكوينها فقد كفينا كما بمقتضاه اليك من الاكسير وأما من أي شيء تكون فمما يريدون بذلك البحث عن الحجر الذي يمكنه العمل وان كان العمل موجوداً من كل شيء بالقوة لانها من الطبائع الاربع منها تركيب ابتداء واليه ارجع انتهاء ولكن من الأشياء ما يكون فيه بالقوة ولا يكون بالفعل وذلك أن منها

ما يمكن تفصيلها ومنها ما لا يمكن تفصيلها فالحق يمكن تفصيله تعالى وتدير وهي التي تخرج من القوة الى الفعل والحق لا يمكن تفصيلها لا تعالى ولا تدبر لانها فيها بالقوة فقط والحق يمكن تفصيله لاستغراق بعض طبائعه في بعض وفضل قوة الكبير منها على الصغير فيبغى لك وقتك انك تعرف أوفق الأحجار المنسقة التي لا يمكن فيها العمل وجنسه وقوته وعمله وما يدبر من الحل والعقد والتفتية والتكليس والتشيف والتقليب فان من لم يعرف هذه الأصول التي هي عماد هذه الصنعة لم ينجح ولم يتفكر غير أبدأ ويبنى بان أن تعلم هو يمكن أن يستعان عليه بغيره أو يكتفى به وهل هو واحد في الابتداء أو شاركه غيره فصار في التدبير واحدا فسمى حجرا أو يبنى لك أن تعلم كيفية عمله وكيفية أورايد أو أزماته وكيف تركيب الروح فيه ادخال النفس عليه وهل تقدر المار على تفصيلها منه بعد تركيبها فان تقدر فلا شيء علة وما السبب لتوجب لذلك فان هذا هو المطلوب فالهم * واعلم أن الفلاسفة كلها مدحت النفس ورعت أفعالها المدبرة للجسد والحاملات للدافعة عنه والقاعلة فيه وذلك أن الجسد إذا خرجت النفس منه مات ويردفلم يفكر على الحركة والامتناع من غيره لانه لا حياة فيه ولا نور وإنما ذكرت الجسد والنفس لأن هذه الصفات شبيهة بجسد الانسان الذي تركبه على اتقاء والعشاء وقوامه وتماهه بالنفس الحية الثورانية التي بها يفعل العظامم والأشياء المتشابهة التي لا يقدر عليها غيرها بالقوة الحية التي فيها وإنما انقل الانسان لاختلاف تركيب طبائعه ولو اتفقت طبائعه لسلت من الاعراض والتضاد ولم تقدر النفس على الخروج من بدنه ولما كان حاله باقيا فسمي من مديرات الأشياء تعالى * واعلم أن الطوائف التي يحدث عنها هذا العمل كيفية دافعة في الابتداء فيضية محتاجة الى الانتهاء وليس لها اذا صارت في هذا الحد أن تسهيل الى ما منه تركيب كقولنا آتينا في الانسان لأن طبائعه هذا الجوهر قد تفرم بعضها بعضا وصارت شيئا واحدا شبيها بالنفس في قوتها وفعلها والجسد في تركيبه ومجسسه بعد أن كانت طبائع مفردة باعيانها فباعجبا من أفعال الطوائف أن القوة للضعيف الذي يقوي على تفصيل الأشياء وتركيبها وتماهها فذلك قلت قوى وضعيف وانما وقع التغيير والفناء في التركيب الأول للاختلاف وعدم ذلك في الثاني للاتفاق وقد قلنا بعض الأولين التفصيل والتفطير في هذا العمل حياة وبقاء والتركيب موت وفناء وهذا الكلام دقيق المعنى لأن الحكماء أراد بقوله حياة وبقاء خروجه من العدم الى الوجود لانه مادام على تركيبه الأول فهو فان لا محالة فاذا ركب التركيب الثاني عدم الفناء والتركيب الثاني لا يكون الا بعد التفصيل والتفطير فاذا التفصيل والتفطير في هذا العمل خاصة فلذا بقي الجسد المحلول انبسط فيه لعدم الصورة لانه قد صار في الجسد بمنزلة النفس التي لا صورة لها وذلك أنه لا ورثه فيه وسرى ذلك ان شاء الله تعالى وقد ينبغي لك أن تعلم أن اختلاط اللطيف بالمعطيظ أهون من اختلاط الغليظ بالغليظ وانما أريد بذلك التشاكل في الأرواح والأجساد لأن الأشياء تتصل بأشكالها وذكورت لك ذلك لتعلم أن العمل أوفق وأيسر من الطوائف اللطيفة الروحانية منها من الغليظة الجسمية وقد يصور في العقل أن الأحجار أقوى وأصبر على النار من من الأرواح كالكثيري الذهب والحديد والنحاس

أصير على النار من الكبريت والزئبق وغيرهما من الأرواح فأقول إن الأجساد قد كانت أرواحاً في
بدنها فلما أصابها حر الكيمايات قلبها أجساداً من غليظة فلم تقدر النار على أن تكلها لفرط غليظتها وتلججها
فإذا أفرطت النار عليها صيرتها أرواحاً كما كانت أول خلقها وأن تلك الأرواح اللطيفة إذا أصابتها النار
أبقت ولم تقدر على البقاء عليها فيبقى لك أن تعلم ما صير الأجساد في هذه الحالة وصير الأرواح في هذا
الحال فهو أجل ما تعرفه **فأقول** إنما أبقت تلك الأرواح لاشتغالها ولطافتها وإنما اشتعلت لكثرة رطوبتها
ولأن النار إذا أحست بالرطوبة تعلقت بها لأنها هوائية تشاكل النار ولا تزال تغشى بها إلى أن تنفخ
وكذلك الأجساد إذا أحست بوصول النار إليها القلة تلججها وغليظتها وإنما صارت تلك الأجساد لا تشتعل
لأنها مركبة من أرض وماء صابر على النار فليطيفة متحد بكثيفة لطول الطبع اللين المازج للأشياء وذلك
أن كل متلاش إنما تلاشى بالنار بخاراً فليطيفة من كثيفه ودخول بعضه في بعض على غير التحليل والموافقة
فصار ذلك الانضمام والاندخال مجاوراً لا تمازج فيه فسهل بذلك اقترانها كالنار والدهن وما أشبهها وإنما
وصفت ذلك لتستدل به على تركيب الطبائع وتقابلها فإذا علمت ذلك علمت أيضاً فقد أخذت حظك منها
وينبغي لك أن تعلم أن الأضداد التي هي طبائع هذه الصناعة موافقة بعضها لبعض منفصلة من جوهر واحد
بجمعها بنظام واحد بتدبير واحد لا يدخل عليه غريب في الجزئية ولا في الشكل كما قال الفيلسوف أنك
إذا حكمت تدبير الطبائع وتأليفها لم تدخل عليها غير ما قد أحكمت ما أوردت إحكامه وقوامه إذا الطبيعة
واحدة لا غريب فيها فمن أدخل عليها غير ما قد راعى عنها وقع في الخطأ **وأعلم** أن هذه الطبيعة إذا حل
لها جسد من قراحتها على ما ينبغي في الحل حتى يشاكلها في الرقة واللطفة انبسطت فيه وجرت معها جرت
لأن الأجساد ما دامت غليظة جافية لا تنبسط ولا تمازج وحل الأجساد لا يكون بغير الأرواح فافهم
هذا الله هذا القول واعلم هذا الله أن هذا الحل في جسد الحيوان هو الحق الذي لا يشتمل
ولا ينقص وهو الذي يقلب الطبائع ويعكسها ويظهر لها أوانها وأزهارها عجيبة وليس كل جسد حل
خلاف هذا الحل التام لأنه مخالف للحياة وإنما حله بما واقع ويدفع عنه حر النار حتى يزول عن الغليظ
وتقلب الطبائع عن حالتها إلى ما لها أن تقلب من اللطافة والغليظ فإذا بلغت الأجساد نهايتها من
التحليل والتلطيف ظهرت لها تلك قوة شمك وقومس وتقلب وتنفذ وكل عمل لا يرى له مصداق
في أوله فلا خير فيه واعلم أن البارد من الطبائع هو يبدس الأشياء ويعتد رطوبتها والخار منها يظهر رطوبتها
ويغد يبدسها وإنما قدرت الحر والبرد لأنها فاعلان والرطوبة واليبس متعلان وعلى افعال كل واحد
منها الصاحبة تحدث الأجسام وتكون وإن كان الحر أكثر فعلاً في ذلك من البرد لأن البرد ليس له نقل
الأشياء ولا تحريكها والحر هو علة الحركة ومقضى ضعف علة الكون وهو الحرارة لم يتم منها شيء
أبداً كما أنه إذا أفرطت الحرارة على شيء ولم يكن ثم برداً أحرقت وأهلكته فمن أجل هذه العلة
احتيج إلى البارد في هذه الأعمال ليقوى به كل ضد على ضده ويدفع عنه حر النار ولم يحذر الفلاسفة
أكثر شيء إلا من النيران المحرقة وأمرت بتطهير الطبائع والانتفاس وإخراج دنسها ورطوبتها

ونفى آفاتهما وأوساحها عنها على ذلك استفهام أيهم وتديبرهم فأنما عملهم إنما هو مع النار أولا وإليها
يصر آخرا فذلك قلوا إياكم والنيران المحرقات وإنما أرادوا بذلك نفي الآفات التي معها فتجمع على
الجسد آفتين فتكون أسرع لهلاكه وكذلك كل شيء إنما يتلاشى ويفسد من ذاته لتضاد طبيعته
واختلافه فيتوسط بين شيئين فلم يجد ما يغو به ويعينه إلا قهره الآفة وأهلكته واعلم أن الحكماء كلها
ذكرت زداد النار والحق على الأجساد أن يكون أكرم إليها وأقوى على قتل النار إذا هي باشرت بها عند الآفة
أعني بذلك النار العنصرية فاعلمه ولتقل الآن على الحجر الذي يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة فقد
اختلفوا فيه فمنهم من زعم أنه في الحيوان ومنهم من زعم أنه في النبات ومنهم من زعم أنه في المعادن ومنهم من
زعم أنه في الجميع وهذه الدعوى ليست بحاجة إلى استقصائها ومناظرة أهلها عليها لأن الكلام يطول
جدا وقد قلت فيما تقدم أن العمل يكون في كل شيء بالقوة لأن الطبايع موجودة في كل شيء فهو كذلك
فتريد أن تعلم من أي شيء يكون العمل بالقوة والفعل فتعبد إلى ما قاله الحراني أن الصبيغ كله أحد صبيين
إما صبيغ جسد كالزعفران في الثوب الأبيض حتى يحول فيه وهو مضمحل منتفص التركيب والصبيغ الثاني
تقليب الجوهر من جوهر نفسه إلى جوهر غيره ولو أنه كتقليب الشجر بل التراب إلى نفسه وقلب الحيوان
والنبات إلى نفسه حتى يصير التراب نباتا والنبات حيوانا ولا يكون إلا بالروح الحى والكيان الفاعل الذى له
توليد الأجرام وقلب الأعيان فإذا كان هذا هكذا فنقول أن العمل لا بد أن يكون إما في الحيوان وإما في
النبات وبرهان ذلك أنهم ما مضوا على الغذاء وبه قوامها وتامها فاما النبات فليس فيه ما في الحيوان من
اللطافة والقوة ولذلك قل خوض الحكماء فيه وأما الحيوان فهو آخر الاستحالات الثلاث ونهايتها وذلك
أن المعدن يستحيل نباتا والنبات يستحيل حيوانا والحيوان لا يستحيل إلى شيء هو أظف منه إلا أن يتعكس
راجعا إلى الغلط وأنه أيضا لا يوجد في العالم شيء يتعلق به الروح الحية غير هو الروح أظف ما في العالم ولم
تتعلق الروح بالحيوان إلا بتشاكلته إياها فاما الروح التي في النبات فاتها بسيرة فيها غلظ وكثافة وهي مع ذلك
مستغرقة كامنة فيه لغلظها وغلظ جسد النبات فيقدر على الحركة لغلظه وغلظ روحه والروح المتحركة
أظف من الروح الكامنة كثير أو ذلك أن المتحركة لها قبول الغذاء والتنقل والتنفس وليس للكامنة غير
قبول الغذاء وحده ولا تحرى إذا قبست بالروح الحية إلا كالأرض عند الماء كذلك النبات عند الحيوان
فالعمل في الحيوان أعلى وأرفع وأهون وأيسر فيبقى للعاقل إذا عرف ذلك أن يحرب ما كان سهلا ويترك
ما عشى فيه عسرا واعلم أن الحيوان عند الحكماء ينقسم أقساما من الأقسام التي هي الطبايع والحديثة
التي هي المواليد وهذا معروف متيسر الفهم فلذلك قسمت الحكماء العناصر والمواليد أقساما حية وأقساما
ميتة فعملوا كل متحرك فاعلا حيا وكل ساكن مفعولا ميتا وقسموا ذلك في جميع الأشياء وفي الأجساد
الالهية وفي العقائير العددية قسموا كل شيء يذوب في النار ويظير ويشعل حيا وما كان على خلاف
ذلك ممود ميتا فأما الحيوان والنبات فقسموا كل ما انفصل منها طبايع أرباعا وما لم ينفصل ممود ميتا
ثم إنهم طلبوا جميع الأقسام الحية فلم يجدوا فوق هذه الصناعة مما ينفصل فصولا أربعة ظاهرة للعيان

ولم يحدوا غير الحجر الذي في الحيوان فبحثوا عن جنسه حتى عرفوه وأخذوه وودبروه فكيف لهم منه
الذي أرادوا وقد تكيف مثل هذا في المعادن والنبات بعد جمع العقاقير وخططها ثم تفصيل بعد ذلك فأما
النبات فتمت ما يفصل بعض هذه الفصول مثل الأسنان وأما المعادن ففيها أجساد وأرواح وأنفاس إذا
مزجت ودرت كان منها ما له تأثير وقد دبرنا كل ذلك فكان الحيوان منها أعلى وأرفع وتديره أسهل
وأيسر فينبغي لك أن تعلم ما هو الحجر الموجود في الحيوان وعزريق وجوده أنا بينا أن الحيوان أرفع
الموايد وكذا ما تركب منه فهو ألطف منه كالنبات من الأرض وإنما كان النبات ألطف من الأرض
لأنه إنما يكون من جوهره الصافي وجسده اللطيف فوجب له بذلك اللطافة والريقة وكذلك الحجر
الحيواني بمنزلة النبات في التراب وبالجملة فإنه ليس في الحيوان شيء منفصل طبائع أربعة غير فاقهم
هذا القول فإنه لا يكاد يحتمل إلا على جاهل بين الجلالة ومن لا عقل له فقد أخبرنا ما هي هذه الحجر
وأعلمت جنسه وأما بينك وجود تدبيره حتى يكمل الذي شرطناه على أنفسنا من الانصاف إن
شاء الله سبحانه (التدبير على بركة الله) هذا الحجر الكريم فأودعه القرع والأتريق وفصل طبائعه
الأربع التي هي النار والهواء والأرض والماء وهي الجسد والروح والنفس والصبغ فلذا غرلت الماء
عن التراب والهواء عن النار فارتفع كل واحد في إنشائه على حدة وهذا لما يسطر أسفل الأنام وهو الثقل فأغسله
بالنار الحارة حتى تذهب عنه سواد وزول غلظه وجفافه ويضئ تبيض عكبه وطهر عنه فضول الرطوبة
المتجذبة فيه يصير عند ذلك ماء أبيض لا ظلمة فيه ولا وسخ ولا تضاد ثم أحمدا في تلك الطبائع الأول المساعدة
منه فطهرها أيضا من السواد والتضاد وكرر عليها الغسل والتجديد حتى تلتطف وترق وتصفو فذا فعلت
ذلك فقد فتح الله عليك قايدها بالتركيب الذي عليه العمل وذلك أن التركيب لا يكون إلا بالتزويج والتعنيفين
فأما التزويج فهو اختلاط اللطيف بالغليظ وأما التعنيف فهو التمشية والحق حتى يختلط بهما بعض
ويصير شيئا واحدا لا اختلاف فيه ولا نقصان بمنزلة الامتزاج بالماء فعند ذلك يقوى الغليظ على امساك
اللطيف وتقوى الروح على مقابلة النار وتضرب عليها وتقوى النفس على الخوص في الاتحاد والديب فيها
وأما وحد ذلك بعد التركيب لأن الجسد المحلول لما ازدوج بالروح ما رزقه بجميع أجزائه ودخل بعضها
في بعض لنشأ كلها فصلا شديدا واحدا ووجب من ذلك أن يعرض للروح من الصلاح والفساد والبقاء
والنبوت ما يعرض للجسد لموضع الامتزاج وكذلك النفس إذا اعتزجت بها ودخلت فيها بخدمة التدبير
اختلطت أجزاؤها بجميع أجزائه الآخرين أعني الروح والجسد وصارت هي وهما شيئا واحدا لا اختلاف
فيه بمنزلة الجزء الكلي الذي سلمت طبائعه وانفقت أجزاؤه فذا ألقى هذا المركب الجسد المحلول وألح
عليه النار وأظهر ما فيه من الرطوبة على وجهه ذاب في الجسد المحلول ومن شأن الرطوبة الاشتعال وتعلق
النار بها فذا أدرت النار التعلق بها منعها من الاتحاد بالنفس مما رزقه لبقاء لها فان النار لا تتحد بالدهن حتى
يكون خالصا وكذلك الماء من شأنه النفور من النار فذا ألحقت عليه النار وأدرت تطهير محببه الجسد
اليابس الممازج له في جوفه فمنع من الطير أن فكأن الجسد علة لأمساك الماء والماء علة لبقاء الدهن والدهن

علة لثبات الصبغ والصبغ علة لظهور الدهن واظهار الدهنية في الاشياء المظلمة التي لا نور لها ولا حياة فيها فهذا هو الجسد المستقيم وهكذا يكون العمل وهذه التصفية التي سألت عنها هي التي سمها الحكماء بيضة وإياها يعمون لا بيضة المذبح واعلم أن الحكماء لم يسموها بهذا الاسم لغير معنى بل أشبهتها ولقد سألت مسئلة عن ذلك يوما وليس عنده غيري فقلت له أيها الحكماء الفاضل أخبرني لأي شيء سميت الحكماء مركب الخيرو إن بيضة اختيار امينهم لذلك أم لمعني دعوه اليه فقال إن معنى غرضي فقلت أيها الحكماء وما ظنهم من ذلك من المنفعة والاستدال على الصناعة حتى شبهوها وسموها بيضة فقال أشبهها وقرأتها من التركيب ففكر فيه فانه سيظهر لك معناه فثبت بين يديه مفكر لا أقدر على الوصول إلى معناه فلما رأي ما في من الفكر وأن نفسي قد مضت فيها أخذت بعضي وعزيت هزة خفيفة وفكرت يا أبا بكر ذلك النسبة التي بينهما في كمية الاثوان عند مزاج الطبايع وتأليفها فلما قال ذلك انجلت عني الغمة وأضأت لي نور قلبي وقوى عقلي على فهمه فنهضت شاكر الله عليه في منزلي وأملت على ذلك شكلا عند سياير من به على صحة ما قاله مسلمة وأنا واضعتك في هذا الكتاب مثال ذلك أن المركب اذا تم وكل كان نسبة ما فيه من طبيعة الهواء إلى ما في البيضة من طبيعة الهواء كنسبة ما في المركب من طبيعة النار إلى ما في البيضة من طبيعة النار وكذلك الطليعان الآخران الأرض والماء فاقول إن كل شئ من متساوين على هذه الصفة فعمامتشا بان ومثال ذلك أن نجعل لسطح البيضة هزوح فإذا أردنا ذلك قلنا نأخذ أقل طبائع التركيب وهي طبيعة اليوسة ونضيف اليها مثلها من طبيعة الرطوبة ونديرهما حتى تنصف طبيعة اليوسة طبيعة الرطوبة وتقبل قوتها وكان في هذا الكلام رزاو لكنه لا يخفى عليك ثم تحمل عليها جميعا مثلها من الروح وهو الماء فيكون الجميع ستة أمثال ثم تحمل على الجميع بعد التدوير مثلا من طبيعة الهواء التي هي النفس وذلك ثلاثة أجزاء فيكون الجميع تسعة أمثال اليوسة بالقوة وتجعل تحت كل ضلعين من التركيب الذي طبيعته محيطه بسطح المركب طبيعتين فتجعل أولا ضلعين المحيطين بسطحه طبيعة الماء وطبيعة الهواء وهما ضلعا من د و سطح أ ب ج د وكذلك الضلعان المحيطان بسطح البيضة اللذان هما الماء والهواء ضلعا هزوح فأقول إن سطح أ ب ج د يشبه سطح هزوح طبيعة الهواء التي تسمى نفسا وكذلك أ ب ج د من سطح المركب والحكماء لم يسم شيئا باسم شئ إلا لشيء به هو الكليات التي سألت عن شرحها الأرض المقدسة وهي المتقدمة من الطبائع العلوية والسفلية والنحاس هو الذي أخرج سواده وقطع حتى صار هباء ثم حمر بالزاج حتى صار نحاسيا والنحاس هو الذي تجمد فيه الأرواح وتخرج الطبيعة العلوية التي تسجن فيها الأرواح لتقابل عليها النار والفرفرة تون أحمر فإن يحدته الكيان والرصاص حجر له ثلاث قوى مختلفة الشخوص ولكنها امتشاكلة ومتجانسة فالواحدة روحانية نيرة صافية وهي الفاعلة والثانية نفسانية وهي متحركة حساسة غير أنها أغلظ من الأولى ومركزها دون مركز الأولى والثالثة قوة أرضية حاسة قابضة منعكسة إلى مركز الأرض لقلبها وهي الماسكة الروحانية والنفسانية جميعا والمحيط بها أو أماساثر الباقية في تدعة ومخرعة الباس على الجاهل ومن عرف القدماء استغنى عن غيرها فهذا جميع ما سألتني عنه وقد عشت به اليك

مفسرا وزجو بتوفيق الله أن تبلغ أملاك والسلام انتهى كلام ابن بشرى وهو من كبار تلاميذ
مسلمة الجرجاني شيخ الأندلس في علوم الكيمياء والسيما والسحر في القرن الثالث وما بعده
وأنت ترى كيف صرف ألفاظهم كلها في الصناعة إلى الرموز والالغاز التي لا تكاد تبين ولا تعرف وذلك
دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية * والذي يجب أن يعتد في أمر الكيمياء وهو الحق الذي يعتضده
الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرفها في عالم الطبيعة أما من نوع الكرامة إن كانت
النفوس خيرة أو من نوع السحر إن كانت النفوس شريرة فاجرة فأما الكرامة فظاهرة وأما السحر
فلأن الساحر كما ثبت في مكان تحقيقه بقلب الأعيان المادية بقوة السحرية ولا بد له مع ذلك عند من
مادة يقع فعله السحري فيها كتحريك بعض الحيوانات من مادة التراب أو الشجر والنبات والجملة
من غير مادتها المخصوصة بها كإوقع لسحرة فرعون في الجبال والعصى وكما ينقل عن سحرة السودان
والهنود في قاصية الجنوب والترك في قاصية الشمال أنهم يسحرون الجوالا أمطارا وغير ذلك * ولما كانت
هذه تحقيقات لاذهب في غير مادتها الخاصة به كان من قبيل السحر والتكلمون فيه من أعلام الحكماء مثل
جابر ومسفة ومن كان قبلهم من حكماء الأمم إنما نحو هذا النحى ولهذا كان كلامهم فيه ألباسا أحذرا
عليها من انكار الشرائع على السحر وأنواعه لأن ذلك يرجع إلى الضائقة بها كاهور أي من لم يذهب
إلى التحقيق في ذلك وانظر كيف سمي مسلمة كتابه في تراتيب الحكميم وسمى كتابه في السحر والطاسات
غاية الحكميم إشارة إلى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه لأن الغاية أعلى من الرتبة فكان
مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية وتشاركها في الموضوعات ومن كلامه في الفين يبين ما قلناه ونحن
نبين فيما بعد غلط من يزعم أن مدارك هذا الأمر بالصناعة الطبيعية والله العليم الخبير

٢٥ فصل في إبطال الفلسفة وفساد منحلها

هذا الفصل وما بعده مهم لأن هذه العلوم غارضة في العمران كثيرة في المدن وضررها في الدين كثير
فوجب أن يصدر بشأنها ويكشف عن الاعتقاد الحق فيها وذلك أن قوم من عقلاء النوع الإنساني زعموا
أن الوجود كله الحسي منه وما وراء الحسي تدرك ذواته وأحواله بأسبابها وعليها بالانظار الفكرية
والأقيسة العقلية وأن تصحيح العقائد الإيمانية من قبل النظر لا من جهة السمع فاتها بعض من مدارك
العقل وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف وهو بالأسان اليوناني عيب الحكمة فيحتوا عن ذلك
وشعروا به وحوموا على أصابة الغرض منه ووضعوا قانونا يمتد به العقل في نظره إلى التفسير بين
الحق والباطل وسموه بالمنطق وعصل ذلك أن النظر الذي يفيد تغير الحق من الباطل إنما هو للذهن
في المعاني المتعددة من الموجودات الشخصية فيجرد منها أولا صورا منطبقة على جميع الأشخاص كما
ينطبق الطابع على جميع النقوش التي ترسمها في طين أو شمع وهذه الجردة من المحسوسات تسمى
القوليات الأولى ثم يجرد من تلك المعاني السككية إذا كانت مشتركة مع معاني أخرى وقد عرفت عنها

في الدهن فتجرد هذا معاني أخرى وهي التي اشتهرت بها ثم تجرد ثانياً ان شار كها غير هاو الثالث ان ينتهي
التجريد إلى المعاني البسيطة السكلية المنطقية على جميع المعاني والاشخاص ولا يكون منها تجريد بعد هذا
وهي الاجناس العالية وهذه المجردات كلها من غير الخصوصيات هي من حيث تأليف بعضها مع بعض
لتحصيل العلوم منها تسمى العقولات الشوائب فاذا نظر الفكر في هذه المعنويات المجردة وطلب تصور
الوجود كما هو فلا بد للذهن من اضافة بعضها إلى بعض وتبقى بعضها عن بعض بالبرهان العقلي البقي ليحصل
تصور الوجود تصوراً صحيحاً مطابقاً اذا كان ذلك بقانون صحيح كما هو صنف التصديق الذي هو تلك
الاضافة والحكم متقدم عنده على صنف التصور في النهاية والتصور متقدم عليه في البداية والتعليم لان
التصور التام عنده غاية للطلب الادراك وإثبات التصديق وسيلة وما قسمه في كتب المنطقيين من تقدم
التصور وتوقف التصديق عليه في معنى الشعور لا يعني العلم التام وهذا هو مذهب كبيره ارسطو ثم
يزعمون أن العادة في ادراك الموجودات كلها مافي الحس بهذا النظر وتلك البراهين * وحاصل
مداركهم في الوجود على الجملة وما آلت إليه وهو الذي فرغوا عليه قضايا أنظارهم أنهم عثروا أولاً على الجسم
السفلي بحكم الشهود والحس ثم ترقى ادراكهم قليلاً فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحس
في الحيوانات ثم أحسوا من قوى النفس بسلطان العقل ووقف ادراكهم قفسوا على الجسم العالي
الساوي بنحو من القضاء على أمر الذات الانسانية ووجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كالانسان
ثم أنهم اذ ذلك نهاية عدد الاحاد وهي العشر تسع مفصلة ذواتها جمل وواحد أول مفرد وهو العاشر
ويزعمون أن السعادة في ادراك الوجود على هذا النحو من القضاء مع تهذيب النفس وتخليتها
بالفضائل وأن ذلك ممكن للانسان ولو لم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والزيلة من الافعال بمقتضى
عقله ونظيره وميله إلى المحمود منها واجتنابه للمذموم بفطرته وأن ذلك اذا حصل للنفس حصلت
لها البهجة واللذة وأن الجبل بذلك هو الشقاء البرمدي وهذا عندهم هو معنى النعم والعذاب
في الآخرة إلى خبطهم في تفاصيل ذلك معروف من كلامهم وأما هذه المذاهب التي حصل مسائلها ودون
علمها وسطر حجاجها فيما بلغنا في هذه الأقطاب هو أرسطو القديوني من أهل مقدونية من بلاد اثروم
من تلاميذ أفلاطون وهو معلم الاسكندر ويسمونه العلم الأول على الاطلاق يعنون معلم صناعة الشطرنج إذ
لم تكن قبله مبدئية وهو أول من رتب قانونها واستوفى مسائلها وأحسن بسطها ولقد أحسن في ذلك القانون
ما شاء الله تكفيل له بقصدهم في الالهيات ثم كان من بعده في الاسلام من أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه وحدو
النحل بالتعليل إلا في القليل وذلك أن كتب أولئك المتقدمين لما ترجمها الخلفاء من بني العباس من اللسان
اليوناني إلى اللسان العربي تصفحها كثير من أهل الملّة وأخذ من مذاهبهم من أضلّه الله من متحلي العلوم
وجادلوا عنها واختلفوا في مسائل من تفرع بها وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابي في المائة الرابعة لعبد
سيف الدولة وأبو علي بن سينا في المائة الخامسة لعهد نظام الملك من بني بويه بأصبهان وغيرهما اعلم أن هذا
الرأي الذي ذهبوا إليه باطل بجميع وجوهه فأما إسنادهم الموجودات كلها إلى العقل الأول واكتفاؤهم

به في التفرق إلى الواجب فهو قصور عما وراء ذلك من رب خلق الله فلو جود أو سعة نطاق من ذلك وخلق
 ما لا تعلمون وكانهم في إقتصارهم على إثبات العقل فقط والغلبة عما وراءه بمثابة الطبيعيين انقصر من على إثبات
 الأجسام خاصة بالعرض عن النقل والعقل المعتمد من أنه ليس وراء الجسم في حكمة الله شيء وأما البراهين
 التي يزعمونها على مدعيانهم في الموجودات ويعرضونها على معيار المنطق وفنونها فهي قاصرة وغير وافية
 بالعرض أما ما كان منها في الموجودات الجسمانية ويسمونها العلم الطبيعي فوجه قصوره أن المطابقة بين تلك
 النتائج الذهنية التي تستخرج بالحدود والافتقار كافي في فهمهم وبين ما في الخارج غير يفي لأن تلك أحكام
 ذهنية كلية عامة والموجودات الخارجية متشخصة بموادها وأحوالها في المواد ما يقع من مطابقة الذهني السكلي
 فالخارجي الشخصي الذي لا ما يشهد له الحس من ذلك فدليله شهوده لأن تلك البراهين فائتة اليقين الذي
 يحدونها بما يكون تصرف الذهني أيضا في العقولات الأولى والمطابقة لشخصيات بالصور الحالية لا في
 العقولات الثوابي التي تجري بدعا في الرتبة الثانية فيكون الحكم حينئذ يقينا بمثابة الحسوسات إذا العقولات
 الأولى أقرب إلى مطابقة الخارج لكمال الانطباق فيها ففسد لهم حينئذ دعاوهم في ذلك إلا أنه ينبغي لنا
 الاعراض عن النظر فيها إذ هو من ترك التسليم لا يعنيه فلان مسائل الطبيعيات لا يمتنع في ديننا ولا معاشنا
 فوجب علينا تركها وأما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحس وهي الروحانيات ويسمونها العلم الإلهي
 وعلم ما بعد الطبيعة فإن ذواتها مجهول وأساسها لا يمكن التوصل إليها ولا البرهان عليها لأن تجريده للعقولات
 من الموجودات الخارجية الشخصية إنما هو ممكن فيها هو مدرك لنا ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى
 تجريدها ما هيئات أخرى بحجاب الحس بيننا وبينها فلا يتأتى لنا برهان عليها ولا مدرك لنا في إثبات وجودها
 على الجملة إلا ما يجده بين جنيننا من أمر النفس الإنسانية وأحوال مداركها ونحو ما في الرؤيا التي هي
 وجدانية لكل أحد وما وراء ذلك من حقيقتها وصفاتها فأم غامض لا سبيل إلى الوقوف عليه وقد صرح
 بذلك متفقون حيث ذهبوا إلى أن ما لا مادته لا يمكن البرهان عليه لأن مقدمات البرهان من شرطها أن
 تكون ذاتية وقال كبيرهم أفلاطون أن الأوليات لا يوصل فيها إلى يقين وإنما يقال فيها بالخلق والأولى
 يعني الظن وإذا كنا إنما نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط فيكتفينا بالظن الذي كان أولا فأى
 فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها ونحن إنما غلبتنا بتحصيل اليقين فيما وراء الحس من الموجودات
 وهذه غاية الأفكار الإنسانية عديم وأما قوفهم أن السعادة في إدراك الموجودات على ما هي عليه بتلك
 البراهين فتقول مزيف مردود وتفسره أن الإنسان مركب من جزأين أحدهما جسماني والآخر روحاني
 يخرج به لكل واحد من الجزأين مدارك مختصة به والدرك فيها واحد وهو الجزء الروحاني يدرك
 تارة مداركه روحانية وتارة جسمانية إلا أن المدارك الروحانية يدركها بذاته بغير واسطة والمدارك
 الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس وكل مدرك فله ابتهاج بتأيدركه واعتبره بحال الصبي
 في أول مداركه الجسمانية التي هي بواسطة كيف يتتبع بما يصبره من الضوء وما يسمع من الأصوات فلا
 شك أن الابتهاج بالأدراك الذي للنفس من ذاتها بغير واسطة يكون أشد وألذ فالنفس الروحانية إذا

شعرت بأدراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة لا يعبر عنها وهذا الإدراك لا يحصل
 بتفكير ولا عجز وإنما يحصل بكشف حجاب الحس وبيان إدراك الجسمانية المجردة المقصوفة كثير ما يعتون
 بحصول هذا الإدراك للنفس حصول هذه البهجة فيحاولون بالزيادة أمانة القوى الجسمانية ومدار كيا
 حتى الفكر من الدماغ ليحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها عند نزول النشوة أحب والمواقع الجسمانية
 فيحصل لهم بهجة ولذة لا يعبر عنها وهذا الذي زعموه بتقدير صحتهم لم يعبروا مع ذلك غير واف بقصودهم
 فأما قولهم أن البراهين والأدلة العقلية عسلة لهذا النوع من الإدراك والابتهاج عنه فباطل كقراءة
 إدراكهم والأدلة من جملة إدراك الجسمانية لا أنها بالقوى الدماغية من الخيال والفكر والذكور ونحن
 أول شيء نعلمه في حصول هذا الإدراك أمانة هذه القوى الدماغية كلها لا أنها مازعة لمقادحة فيعود
 الماهر منهم عاكفا على كتاب الشفاء والإشارات والنجاء وتلاخيص ابن رشد لنفس من تأليف أرسطو
 وغيره يقرأون أو يقرأون بوثق من براعيتها وبنفس هذا القسط من السعادة فيها ولا يعلم أنه يستكثر
 بذلك من المواقع عنها مستخدم في ذلك ما ينقلونه عن أرسطو والفارابي وابن سينا أن من حصل له إدراك
 العقل الفعالي واتصل به في حياته فقد حصل حظه من هذه السعادة والعقل الفعالي عنده عبارة عن أول
 رتبة ينكشف عنها الحس من رتب الروحانيات ويحملون الاتصال بالعقل الفعالي على الإدراك العلمي وقد
 رأيت قساده وإنما يعني أرسطو وأصحابه بذلك الاتصال والإدراك إدراك النفس الذي لها من ذاتها
 وبغير واسطة وهو لا يحصل إلا بكشف حجاب الحس وأما قولهم أن البهجة الناشئة عن هذا الإدراك
 هي عين السعادة الموعود بها فما ظل أيضا إنما يبين لنا بقاؤه أن وراء الحس مدركا آخر للنفس من
 غير واسطة وأنها يتبع إدراكها ذلك ابتهاجا شديدا وذلك لا يعين لنا أن عين السعادة الآخر ويتولد
 بل هي من جملة الملائكة التي لتلك السعادة وأما قولهم أن السعادة في إدراك هذه الموجودات على ما هي
 عليه فقول باطل مبني على ما كنا قدمناه في أصل التوحيد من الأوهام والأغلاط في أن الوجود عند
 كل مدرك منحصر في مداركه وبيننا فساد ذلك وأن الوجود أوسع من أن يحاط به أو يستوفي
 إدراكه بمحسوس روحاني أو جسماني والذي يحصل من جميع ما قررناه من مذهبهم أن الجزء الروحاني إذا
 فارق القوى الجسمانية أدرك إدراكا ذاتيا يختصا بنفسه من الإدراك وهي الموجودات التي أحاط بها علمنا
 وليس يعلم الإدراك في الموجودات كلها إذ لم تنحصر وأنه يتبع من ذلك المنحصر من الإدراك ابتهاجا شديدا
 كما يتبع النفس بمداركة الحسية في أول نشوة ومن لنا بعد ذلك بإدراك جميع الموجودات أو حصول
 السعادة التي وعدنا بها الشارع إنما نعمل لها هيئات هيئات لما توعدون وأما قولهم إن الإنسان مستقل
 بتهذيب نفسه وأصلاحيات بلا بسطة المحمود من الخلق ومجانبة الذموم فأمر مبني على أن ابتهاج النفس
 بأدراكها الذي لها من ذاتها هو عين السعادة الموعود بها لأن الرذائل عاقبة للنفس عن تمام إدراكها ذلك
 يتأصل لها من الملكات الجسمانية وألوانها وقد بينا أن أثر السعادة والشقاوة من وراء الإدراكات
 الجسمانية والروحانية فهذا التهذيب الذي توصلوا إلى معرفته إنما تضعه في البهجة الناشئة عن الإدراك

الروحاني فقط الذي هو على مقاييس وقوانين وأما ماوراء ذلك من السعادة التي وعدنا بها الشارع على امتثال ما أمر به من الأعمال والأخلاق فأمر لا يحيط به مدارك المدركين وقد تبين ذلك زعيمهم ابن سينا فقال في كتاب البهنا والمعاد ما معناه أن المعاد الروحاني وأحواله هو مما ينوصل إليه بالبراهين العقلية والمقاييس لأنه على نسبة طبيعية غفوفة ووثيرة واحدة فلنا في البراهين على سعة وأما المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن إدراكه بالبرهان لأنه ليس على نسبة واحدة وقد بسطته الشريعة الحقة الحميدة فليست فيها لرجع في أحواله إليها بهذا العلم أيتبعه واف بمقادير التي حووا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها وليس له فيها علما إلا معرفة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجج لتحصيل ملكة الجود والصواب في البراهين وذلك أن نظم المقاييس وتركيبها على وجه الأحكام والاتقان هو أكثر طوره في صناعتهم المنطقية وفولهم بذلك في علومهم الطبيعية وهم كثير ما يستعملونها في علومهم الحكيمة من الطبيعيات والتعاليم وما بعدهما فيستولي الناظر فيها بكرة استعمال البراهين بشرطها على ملكة الاتقان والصواب في الحجج والاستدلالات لأنها وإن كانت غير وافية بمقصودهم فهي أصح ما علمناه من قوانين الأنظار هذه هي ثمرة هذه الصناعة مع الإطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم ومضارها ما علمت فليكن الناظر فيها متحرزا جديده من معانيها وليكن ينظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والإطلاع على التفسير والفقه ولا يكن أحد عليها وهو خلو من علوم الله فقل أن ناسم لذلك من معانيها والله الموفق للصواب وللاحق والهادي إليه وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

٢٦ فصل في إبطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولات العناصر بمفرده وعتمة فتكون لذلك أوضاع الأقاليم والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع نوع من أنواع الكائنات الكليمة والشخصية فالمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقصر الأعمار كلها واجتمعت عن تحصيلها إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالشكرار ليحصل عنها العلم أو الفطن وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج شكره إلى آماد وأحقاب متطاولة فتفاسر عنها ما هو طويل من أعمار العالم وبما ذهب ضعفهم منهم إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحى وهو رأي قليل وقد كفوا تأمونه إبطاله ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع وأنهم لا يعترضون للأخبار عن الغيب إلا أن يكون عن الله فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعهم من الخلق وأما بطليموس ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دالة الكواكب على ذلك دالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية قل لأن فعل التبرين وأثرها في العنصرينات ظاهر لا يسع أحد أحده مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمرجتها وتضع النار

والزرع وغير ذلك وفعل القمر في الرطوبات والماء واضاح المواد مسخنة وفواكه الشتاء وسائر أفعاله ثم قال وثانيها بعدهما من الكواكب طريقان الأولي التقليد لمن قبل ذلك عنه من أئمة الصناعة إلا أنه غير متنع للنفس الثانية الحدس والتجربة بقياس كل واحد منهما إلى النير الأعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة فننظر هل يزيد ذلك الكوكب عند القرار في قوته ومزاجه فنعرف موافقته له في الطبيعة أو ينقص عنها فنعرف مضادته ثم إذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة وذلك عند تناظرها بأشكال التلث والتربيع وغيرها ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضا إلى النير الأعظم وإذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهي مؤثرة في أفوا ومو ذلك ظاهر والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحته من المولدات وتخلق به النطف والبرز فتصير حال البدن المشكون عنها والنفس المتعلقة به الفائدة عليه التكنية لها منه وما يتبع النفس والبدن من الأحوال لأن كفيات البرزخ والنطفة كفيات ما تولد عنها وينشأ منها قل وهو مع ذلك طفي وليس من اليقين في شيء وليس هو أيضا من القضاء الإلهي يعني القدر إنما هو من جملة الأسباب الطبيعية للكائن والقضاء الإلهي سابق على كل شيء هذا يحصل كلام بطليموس وأصحابه وهو منصوس في كتابه الأربعة وغيره ومنه يتبين ضعف مدرك هذه الصناعة وذلك أن العلم بالكائن أو الظن به إنما يحصل عن العلم بجملة أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما تبين في موضعه والقوى النجومية على ما قررناه إنما هي فاعلة فقط والجزء العنصري هو القابل ثم إن القوى النجومية ليست هي الفاعل بجملة بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في الجزء المادي مثل قوة التوليد للآب والنوع التي في الخلقة وقوى الخاصة التي تميز بها صنف من النوع وغير ذلك فالقوى النجومية إذا حصل كمالها وحصل العلم فيها إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب الفاعلة للكائن ثم أنه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين وحينئذ يحصل عنده الظن بوقوع الكائن والحدس والتخمين قوة للناظر في فكره وليس من علل الكائن ولا من رول الصناعة فإذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت أدراجها عن الظن إلى الشك هذا إذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداده ولم تعترضه آفة وهذا معوز لما فيه من معرفة حسيات الكواكب في سيرها لتعرف به أوضاعها ولما أن اختصاص كل كوكب بقوة لأدليل عليه ومدرك بطليموس في إثبات القوى للكواكب أخفة بقياسها إلى الشمس مدرك ضعيف لأن قوة الشمس غالبية لجميع القوى من الكواكب ومستولية عليها فقل أن يشعر بالزيادة فيها أو النقصان منها عند المقارنة كما قل وهذه كلها قدحة في تعريف الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصناعة ثم أن تأثير الكواكب فيما تحتها باطل إذ قد تبين في باب التوحيد أن لا فاعل إلا الله بطريق استدلال كما رأيت واحتج لأهل علم الكلام بما هو غني عن البيان من أن اسناد الأسباب أو السببيات مجبول الكيفية والعقل منهم على ما يرضى به فيما يظهر يادي الرأي من التأثير فلعل اسنادها على غير صورة التأثير المتعارف

والقدرة الإلهية رابطة بينهما كذا ربطت جميع الكائنات علواً وسفلاً بما هو شرع يرد الحوادث كلها إلى
قدرة الله تعالى ويرأى ما سوى ذلك والنبوات أيضاً مكررة شأن النجوم وتأثيراتها واستقرار السرعات
شاهد بذلك في مثل قوله إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته وفي قوله أصبح من عبادي
مؤمنين وكافرين فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته وذلك مؤمنين كافر بالكواكب وأما من قال
مطرنا بنوء كذا فذلك كافر في مؤمن بالكواكب الحديث الصحيح فقد بان لك بطلان هذه
الصناعة من طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل مع ملها من المضار في العمران
الإنساني بما تبعث في عقائد العوام من الفساد إذا اتفق الصدق من أحكامها في بعض الأحيان اتفاقاً
لا يرجع إلى تعليل ولا تحقيق فيلجج بذلك من لا معرفته وإظن أفراد الصدق في سائر أحكامها
وليس كذلك فيقع في رده الأشياء إلى غير خالقها ثم ما ينشأ عنها كثير في القول من توقع النواظم
وما يعت عليه ذلك التوقع من تطاول الأعداء وانتراصين بالسهولة إلى الفلك والتمورة وقد
شاهدنا من ذلك كثيراً فينبغي أن نحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار
في الدين والدولة ولا يقدح في ذلك كون وجودها طبيعياً لا بشر يقتضي مداركهم وعلومهم فالشر والشر
طبعان موجودان في العالم لا يمكن زعمهما وإنما يتعلق التكليف بأسباب حصولهما فينبغي السعي في
اكتساب الخير بأسبابه ودفع أسباب الشر والمضار هذا هو الواجب على من عرف مفاسد هذا العلم
ومضاره وليعلم من ذلك أنها وإن كانت صحيحة في نفسها فلا يمكن أحد من أهل الأمة تحصيل عدلها ولا
ملكها بل إن نظر فيها ناظر وظن الاحاطة بها فهو في غاية التصور في نفس الأمة من الشرية الماحضة
الظرفية افتقد الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحقيق لتعاليمها ومعارفها من الناس وهم الأقل
وأقل من الأقل إنما يطالع كتبها ومغالاتها في كسب ريعه مستترا عن الناس وتحت راية الجمهور مع تشعب
الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم فكيف يحصل منها على عمال ونحن نجد الفقه الذي هم نفعه دينا
ودنيا وسهلت ما أخذ من الكتاب والسنة وعكف الجمهور على فرائده وتعليمه ثم بعد التحليل والتجميع
وطول المداينة وكثرة المجالس وتعدد ما يحدق فيه الواحد بعد الواحد في الأعصار والأجيال
فكيف يعلم الجمهور للشيعة مضروب دونه سد الحظر والتحریم مكتوم عن الجمهور صعب المآخذ يحتاج
بعد الممارسة والتحصيل لأصوله وفروعه إلى مزيد حدس وتحسين يكفان به من الناظر فأين التحصيل
والحدق فيه مع هذه كلها ومدعي ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك لمرأية الفتن
بين أهل الملة وقلة حمايته فاعتبر ذلك يتبين لك صحة ما ذهبنا إليه والله أعلم بالغيب فلا يظهر على غيبه أحداء
وما وقع في هذا المعنى لبعض أصحابنا من أهل العصر عند ما غلب العرب عساكر السلطان أبي الحسن
وحاصروه بالقيروان وكثر أراجيف الفريقين الأولياء والأعداء وقد في ذلك أبو القاسم الروحاني
من شعراء أهل تونس

أستغفر الله كل حين • قد ذهب العيش والهناء

أصبح في تونس وأمسي * والصبح لله والساء
الخوف والجوع والنايا * يحدثها المرح وأوباء
والناس في مربة وحرب * وماغسي ينفع المراء
فأحمدي يرى عليا * حل به الهلك والتواء
وآخر قال سوف يأتي * به اليكم حبا رخاء
والله من فوق ذا وهذا * يقضى لعبديه مايشاء
ياراصد الخنس الجوارى * ما فعلت هذه السماء
مظلمونا وقد زعمتم * أنكم اليوم أملياه
مر خميس على خميس * وجاء سبت وأربعاء
ونصف شهر وعشر نان * وثالث ضمه القضاء
ولا ترى غير زور قول * أذاك جبل أم ازدراء
أنا إلى الله قد علنا * أن ليس يستدفع القضاء
رضيت بالله لي لها * حكم البدر أو ذكاء
ما هذه إلا نجم السوارى * إلا عباد يد أو لواء
يقضى عليها وليس تقضى * وما لها في الورى اقتضاء
ضلت عقول ترى قدما * ماشأته الجرم والفناء
وحكمت في الوجود طبعها * يحدثه الماء والمروء
لم ترحلوا إراء مر * تغدوها تربة وماء
الله ربي ولست أدري * ما الجوهر الفرد والحلاء
ولا الميوني التي تنادى * مالى عن صورة عراء
ولا وجود ولا انعدام * ولا ثبوت ولا انتفاء
لست أدري ما الكسب إلا * ما جلب البيع والشراء
ولمنا مذهبي وديني * ما كان والناس أولياء
أد لا فصول ولا أصول * ولا جدك ولا ارتياء
ما تبع الصدر واقتضيا * يا حبذا كان الاقتضاء
كانوا كما يعنون منهم * ولم يكن ذلك الهداء
يا أشعري الزمان أنى * أشعري الصيف والشتاء
أنا أجزى الشر شرا * وأخير عن مثله جزاء
وانى أن أكن مطيعا * فرب أعصى ولى رجاء

واننى تحت حكم بار * أطاعه العرش والثرأ
ليس باستاركم ولكن * أتأخى الحكيم والقضاء
لو حدث الأشعري نحن * له الى رأيد انهاء
لقال أخبرم بانى * بما يقولونه براه

٢٧ فصل في انكار ثمره الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من الفساد عن استعمالها

اعلم أن كثير من العاجزين عن معاشهم يحملهم الطامع على استعمال هذه الصانع ويرون أنها أحد
مذاهب العاش ووجوهه وأن اقتناء المال منها أيسر وأسهل على متبعيه فيرتكبون فيها من المناعب والشاق
ومعاينة الصعاب وعنف الحكم وخسارة الأموال في النفقات زيادة على النيل من غرضه وتعطب
آخرا إذا ظهر على خيعة قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وإنما أخضعهم في ذلك رؤية أن تعادن استحليل
ويقلب بعضها إلى بعض لزيادة المصلحة فيحاولون بالعلاج ضرورة الفضة ذهباً والنحاس فضة
وهم في ذلك طرق مختلفة لا اختلاف في مذهبهم في التدبير
وصورته وفي المادة الموضوعة عندهم للعلاج السبعة عندهم بالحجر المكرم هل هي العذرة أو اللهم أو الشعر
أو البيض أو كذا أو كذا ما سوى ذلك لجملة التدبير عندهم بعد تعيين المادة أن تعني بالخير على حجر
صلد أملس ونسقى أثناء ما بها بالماء بعد أن يضاف إليها من العقاقير والأدوية ما يناسب القصد منها ويؤثر
في انقلابها إلى المعدن المطلوب ثم تحفف بالشمس من بعد السقي أو تطبخ بالنار أو تصعد أو تنكس
لاستخراج ماؤها أو غيرها فإذ اضربى بذلك كله من علاجها وتم التدبير على ما تقتضيه أصوله صنعت حصل
من ذلك كله تراب أو مانع يسمونه لا كبير ويزعمون أنه إذا ألقى على الفضة الحقة بالنار عادت ذهباً
أو النحاس المحمي بالنار عادت فضة على حسب ما قصد به في عمله فيزعم المحققون منهم أن ذلك لا كبير
مادة مركبة من العناصر الأربعة حصل فيها بذلك العلاج الحاشي والتدبير مزاج ذوقوى طبيعية
تصرف ما حصلت فيه إليها وتقلبه إلى صورته وبما احتاجت فيه ما حصل فيها من الكيفيات والقوى
كالحجارة للخير تقلب العجين إلى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الانقشاش والمشايشة ليحسن هضمه
في المعدة ويستحيل سريعاً إلى الغذاء وكذا أكسير الذهب والفضة فما حصل فيه من المعدن يصرفه إليها
ويقلبه إلى صورته ما هذا يحصل زعمهم على الجملة فتجدهم عاكفين على هذا العلاج يتبعون الرزق والمعاش
فيه ويتناقلون أحكامه وقواعده من كتب الأئمة الصناعة من قبلهم يتداولونها بينهم ويتناظرون في فهم
لغوزها وكشف أسرارها وهي في الأثر كثير تشبه العمى كذا ليف جابر بن حيان في رسائله السبعين
ومجلة الجبريطي في كتابه نية الحكيم والطغرائي وغيره في قصائده العريضة في اجادة النظم وأمثالها
ولا يحلون من بعدهم هذا كله يطأ إلى منها * فأوصت يوماً ما شيخنا أبا البركات التلغفي كبير مشيخة الأندلس
في مثل ذلك ووقفته على بعض آثاء ليف فيها فتصفحه طويلاً ثم رده إلى وقال لي وأنا الضامن له أن لا يعود

الشيخ

الشيخ

الشيخ

الشيخ

هذا الكتاب من كتب
الشيخ

إلى بيته إلا بالحيلة ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدلية فقط أما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب أو النحاس بالفضة أو خلطها على نسبة جزء أو جزأين أو ثلاثاً أو الحفية كالقاء الشبه بين المعادن بالصناعة مثل تبيض النحاس وتليته بالزوق ^{بالمسحوق} فيجى جسم معدني يشبهها بالفضة لو غنى إلى أعلى النقاد الثيرة فيقدر أصحاب هذه الدلس مع دلتهم هذه سكايسر بونهاقي الناس ويظلمونها بطابع السلطان تمويهها على الجمهور بالخلاص وهو لا مأخض الناس حرفة أو أسوأ عاقبة لتلبسهم بسرقة ثموال الناس فإن صاحب هذه الدلسة إنما هو يدفع نخاساً في الفضة وفضة في الذهب ليستخلصها لنفسه فهو سارق أو أشرم من السارق أو معظم هذا الصنف لا ينال المغرب من طلبة البر والمثبذين بأطراف البقاع ومساكن الانحمار يأوون إلى مساجد البادية ويعوّهون على الاغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة والقوس مولعة بجعبها والاستهلاك في طلبها فيحصلون من ذلك على معاش ثم يبق ذلك عندهم تحت الخوف والرقبة إلى أن يظهر المعجزة وتقع الفضيحة فيفرون إلى موضع آخر ويستعدون حالاً أخرى في استهوا بعض أهل الدنيا بأطاعهم فيما ليسهم لا يزالون كذلك في ابتغاء معاشهم وهذا الصنف لا كلام معهم لأنهم بلغوا الغاية في الجبل والرياءة والاحتراف بالسرقه ولا حاسم لعلمهم الا اشتداد الحكم عليهم وتناولهم من حيث كانوا وقطع أيديهم متى ظهروا على شأنهم لأن فيه افساد للسكة التي نعم بها البلوى وهي ممنول الناس كافة والسلطان مكلف باصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على مفسديها وأما من انتحل هذه الصناعة ولم يرض بحال الدلسة بل استكتف عنها ونزه نفسه عن افساد سكة المسلمين وتقوم وإعما يطلب احالة الفضة للذهب والرخايس والقردير والنحاس إلى الفضة بذلك النحو من العلاج وبالأكبر الحاصل عنده فلنا مع هؤلاء متكلم ويبحث في مداركهم لذلك مع أننا لا نعلم أن أحداً من أهل العلم ثم له هذا الغرض أو حصل منه على بغية إغاثة ذهب أعمارهم في التدبير والفهر والصلابة والتصعيد والتكليس والانتيام إلا خضار يجمع العقاقير والبحث عنها ويتناقلون في ذلك حكايات وقت لغيرهم ممن تم له الغرض منها أو وقف على الوصول يفتنوا باستماعها والمفاوضة فيها ولا يسترهبون في تصديتها شأن السككفين الغربيين بوساوس الاخبار فيما يكلفون به فذا مشلوا عن تحقيق ذلك بالمعاينة أنكره وقالوا لنا سمعنا ولم نر هكذا شأنهم في كل عصر وجيل * واعلم أن انتحال هذه الصناعة قديم في العالم وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين والمتأخرين فلنقل مذاهم في ذلك ثم نتلو بما يظير فيها من التحقيق الذي عليه الأمر في نفسه فنقول ان معنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المنتشرة وهي الذهب والفضة والرخايس والقردير والنحاس والحديد والحارصيني هل هي مختلفات بالفضول وكلها أنواع قائمة بأنفسها أو أنها مختلفة بغواص من الكيفيات وهي كلها أصناف لنوع واحد قالني ذهب اليه أبو نصر الفارابي ونابغة عليه حكما، إلا ندلس أنها نوع واحد وأن اختلافها إنما هو بالكيفيات من الرطوبة واليوسة واللين والصلابة والاتوان من الصفرة والبياض والواد

فالظفر إلى الذهب ما يكون له في معدنه من الاطوار منذ ألف سنة وثمانين وما ينقل فيه من الاحوال
فيحتاج صاحب الكيمياء إلى أن يسأل في فعل الطبيعة في المعدن وعلاجه بالتدبير وعلاجه إلى أن يتم من
شرط الصناعة أبداً تصور ما يقصد اليه بالصناعة فمن الامثال السائرة للحكماء أول العمل آجر الفكرة وآخر
الفكرة أول العمل فلا بد من تصور هذه الحالات للذهب في احواله المتعددة ونسبها المتفاوتة في كل
طور واختلاف الخلق في غرضه عند اختلافها ومقدار الزمان في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى
الشائعة ويقوم مقامه حتى عاين بذلك كمال فعل الطبيعة في المعدن وتبدل بعض المواد بصورة مزاجية
تكون كصورة الحجرة لاخبر وتعمل في هذه المادة بالشاسبة لقواها ومقاديرها وهذه كلها ما يغسر ها
العلم المحيط والعلوم البشرية قصيرة عن ذلك وإنما حصل من يدعى حصوله على الذهب بهذه الصناعة بمثابة
من يدعى الصناعة تخليق انسان من التراب ونحن إذا سلمنا له الاحاطة بأجزائه ونسبته واطواره وكيفية
تخليقه في رحمته وعلم ذلك علماً عاصلاً بتفاصيله حتى لا يشك منه شيء مع علمه سبحانه بالتخليق هذا الانسان
وأقوله ذلك ولتقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فتقول حاصل صناعة الكيمياء وما
يدعونه بهذا التدبير أنه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي وعاداتها به إلى أن يتم كون الجسم
المعدني أو تخليق مادة بشوى وأفعال وسورة مزاجية تعمل في الجسم فعلا طبيعيا فتصيره وتقلبه إلى
صورتهما بالفعل الصناعي مسبوقة بتصورات احوال الطبيعة المعدنية التي يقصد مساوقتها أو عاداتها
أو فعل المادة ذات القوى فيها تصور كمفصلا واحدة بعد أخرى وتلك الاحوال لانهاية لها والعلم البشري
عاجز عن الاحاطة بما دونها وهو بمثابة من يقصد تخليق انسان أو حيوان أو نبات إلهذا حصل هذا
البرهان وهو أوثق ما علمته وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول كما رأيت ولا من الطبيعة إنما هو من
نعدرا الاحاطة وقصور البشر عنها وما ذكره ابن سينا بمنعزل عن ذلك وله وجه آخر في الاستحالة من
جهة غايته وذلك أن حكمة الله في الحجرين وتدويرها أنهما قيمتهما كاسب الناس ومنمو لاتهم فلو حصل
عليهما بالصناعة لمثلت حكمة الله في ذلك وكثر وجودهما حتى لا يحصل أحد من اقتنائهما على شيء مؤله وجه
آخر من الاستحالة أيضا وهو أن الطبيعة لا تترك أقرب من الطرق في أفعالها وترتكب الاغوس
والا بعد فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح وأنه أقرب من طريق الطبيعة في
معدنها وأقل زمانا لما تركته الطبيعة إلى طريقها الذي سلكته في كون الفضة والذهب وتخليقها وأما
تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لا مثاله في الطبيعة كالغريب والنحل والحية
وتخليقها فأمر صحيح في هذه أدى اليه العشور كما زعم وأما الكيمياء فلم ينقل عن أحد من أهل العلم أنه
عثر عليها ولا على طريقها وما زال متحلوها يحبطون فيها خبط عشواء إلى هلم جرا ولا يظفرون الا
بالحكايات الكاذبة ولو صح ذلك لأحد منهم لحفظه عنه أو لآله أو تلميذه أو أصحابه وتوقل في الاصدقاء
وضمن تصديقه صحة العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ الينا أو إلى غيرنا وأما قولهم أن الاكبر بمثابة
الحجرة وأندركب عجل ما يحصل فيه ويقلبه إلى ذلك فاعلم أن الحجرة إنما تغلب العجين وتعدده للضم وهو

فساد في الموانئ يقع بأيسر شيء من الأفعال والطبائع والعلوب بالأكبر قلب العادن إلى ما هو
أشرف منه وأعلى فهو تكوين وصالح والتكوين أحب من الفساد فلا يقاس الأكبر بالخبرة وتحقيق
الامر في ذلك أن الكيمياء انصح وجودها كترغم الحكماء المتكلمون فيها مثل جابر بن حيان
ومسلمة بن أحمد الجريظي وأمثالهم فليست من باب الصنائع الطبيعية ولا تتم بأمر صناعي وليس
كلامهم فيها من منحنى الطبيعيات إنما هو من منحنى كلامهم في الأمور البحرية وسائر الخوارق وما
كان من ذلك للعلاج وغيره أو قد ذكر مسئلة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك وكلامه فيها في كتاب رتبة
الحكيم من هذا المنحنى وهذا كلام جابر في رسالته نحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة بنا إلى شرحه
وبالجملة فأمره عند من كليات المواد الخارجة عن حكم الصنائع فسيكلا لا يتدبر بأمته الخشب والحيوان
في يوم أو شهر حسبا أو حيوانا في بعد اعترى خلقه كذلك لا يتدبر ذهب من مادة الذهب في يوم ولا شهر
ولا يتغير طريق عاده الأبار فادعوا لعالم الطبائع ومحل الصنائع فكذلك من طلب الكيمياء طلبا
صناعيا ضيع ماله وعمله ويقال لهذا التدبير الصناعي التدبير النعيمي لأن نيلها إن كان بحسبها هو واقع
بما وراء الطبائع والصنائع فهو كالشيء على الماء أو استطاع الهواء والنقود في كثائف الأجساد ونحو ذلك
من كرامات الأولياء الخارجة للعادة أو مثل تخليق الطير ونحوها من معجزات الأنبياء قبل تعالى وإذا
خلق من الطين كريمة الطير بأذن فتنتفع فيها فتكون طيرا بأذن وعلى ذلك فسيل تيسرها مختلف
بحسب حال من يؤتاها فربما أوتىها الصالح ويؤتىها غيره فتكون معارة وربما أوتىها الصالح ولا
يملك إنشاءها فلا تتم في يد غيره ومن هذا الباب يكون عملها سحريا فقد تبين أنها إنما تقع بتأثيرات
النفوس وخوارق العادة أما معجزة أو كرامة أو سحر ولهذا كان كلام الحكماء كلهم فيها الغار لا يظفر
بحقيقته الا من خاض لجة من علم السحر وأطلع على تصرفات النفس في عالم الطبيعة أو أمور خرق العادة
غير منحصرة ولا يقفنا أحد إلى غصيلها والله تعالى يعلمون عجبا أو أكثر ما يحيل على الناس هذه الصناعة
وانتاجها هو كقلادة العجز عن الطرق الطبيعية للعاش وانتفاعه من غير وجوه الطبيعة كالفلاحة
والتجارة والصناعة فيستعصب العاجز ابتغاة من هذه وبروم الحصول على الكثير من المال دفعة
بوجوه غير طبيعية من الكيمياء وغيرها بوا أكثر من يعني بذلك الفقراء فمن أهل العمران حتى في
الحكماء المتكلمين في انكارها واستحالتها فان ابن سينا القائل باستحالتها كان قلبه الوزراء فكان من
أهل الغنى والثروة والفارابي القائل بإمكانها كان من أهل الفقر الذين يعوزهم أدنى بلعة من العاش
وأسبابه وهذه مهمة ظاهرة في أنظار النفوس المولعة بطرقها وانتاجها والله الرزاق ذو القوة
المتين لا رب سواه

٢٨ فصل في أن كثرة التأليف في العلوم عاقبة عن التحصيل

(أعلم) أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غايته كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات

في التعليم وأمدد طرقها ثم مطالبة المعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحيث أنه ليس له منصب التحصيل فيحتاج
 المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها
 فيقع القصور ولا بد من رتبة التحصيل ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بكتاب المدونة
 مثلا وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس والخصي وابن بشر والنبات
 والقدمات والبيان والتحصيل على العتية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه ثم أنه يحتاج إلى
 تمييز الطريقة القبروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق التأخرين عنهم والاحاطة بذلك
 كله وحيث أنه ليس له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز
 ما بينها والعمر يقتضي في واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالتعليم على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر
 بدون ذلك بكثير كان التعلم سهلا وما أخذ قريبا ولكنه دائر لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت
 كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها ويمثل أيضا علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه
 وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والاندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والتأخرين
 مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك وكيف يطالب به المتعلم ويتقضى عمره دونه ولا
 يطمع أحدهم في الغاية منه إلا في القليل النادر مثل ما وصل إليها بالقرب لهذا العهد من تأليف رجل من
 أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة
 تلك الصناعة لم يحصل إلا سيبويه وابن جني وأهل طيفهم ما عظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك
 الفن وتفاوت به وحسن تصرفه فيه ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصر في المتقدمين سيما مع ما قدمناه
 من كثرة الشواغب بعدد المذاهب والطرق والتأليف ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا
 نادر من نواذر الوجود والافالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يبق له بتحصيل علم
 العربية مثلا الذي هو آلف من الآلات ووسيلة فكيف يكون في التصود الذي هو النعمة ولكن
 الله يهدي من يشاء

٢٩ فصل في أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم غفلة بالتعليم

ذهب كثير من التأخرين إلى اختصار الطرق والأنواع في العلوم يولعون بها ويدنون منها برغبا
 مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدائها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالغايات
 البكثرة من ذلك الفن وصار ذلك خلا بالبلاغة وعسرا على الفهم وربما عمدوا إلى الكتب الأميات
 المنطوية في القنون للتفسير والبيان فاختصروها فقرروا بالحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه
 وابن مالك في العربية والخواص في المنطق وأمثالهم وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل وذلك
 لأن فيه تخليطا على البدن بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم
 كإسباني ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بترجم المعاني عليها

وصعوبة استخراج السائل من بينها لائن ألفاظ المختصرات تجدها لا حل ذلك صعبة عويصة فينقطع
في فهمها حظ صالح من لوقت ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات اذا تم على
سداده ولم تعقب آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة الطويلة
بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والاحالة الفيدن لحصول الملكة النافعة واذا اقتصر على التكرار
قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فتصعد الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبهم
صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها ومن يهدي الله فلا مضل له ومن يضل فلا
هادي له والله سبحانه وتعالى أعلم

٣٠ فصل في وجه الصواب في تعليم العلوم والطريق لإفادته

(إعلم) أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً اذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا يلقى
عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ويترب لها في شرحها على سبيل الاجمال
ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي الى آخر الفن وعند ذلك يحصل له
ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة وغائبة عنها هيأته لنه الفن وتحصيل مسائله ثم يرجع به
الى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة الى أعلى منها ويستوفى الشرح والبيان ويخرج عن
الاجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته ثم يرجع به
وقد شد الاثر كعويصة ولا مهاب ولا مقلداً إلا ونحوه وفتح له مقلده فيخلص من الفن وقد استولى
على ملكته هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض
في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدر كنا
يجهلون طرق التعليم وإفادته ويحضرون المتعلم في أول تعليمه المسائل الثقيلة من العلم ويطلبونه
باحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك سراناً على التعليم وصواباً فيه ويكافونه رعي ذلك وتحصيله
ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها وقبل أن يستعد لفهمها فإن قبول العلم
والاستعدادات لفهمه تشأ تدرجاً ويكون المتعلم أولاً عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الاقل وعلى
سبيل التفریب والاجمال وبالأمثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلاً قليلاً بمخالفة مسائل
ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التفریب الى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في
الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن واذا ألتفت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز
عن الفهم والوعى ويعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل
عنه وانحراف عن قبوله وتغادي في هجرانه وإغناى ذلك من سوء التعليم ولا ينبغي للمعلم أن يزيد
متعلمه على فهم كتابه الذي أكتب على التعلم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو متنبهاً
ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعميه من أوله الى آخره ويحصل أغراضه ويستولى منه على ملكة

بها ينفذ في غيره لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعدادها للقبول ما بقى وحصل له نشاط
 في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولى على غايات العلم وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم
 وأدركه الكلال وانطمس فكره وبس من التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدي من يشاء
 وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لأنه ذريعة
 إلى النسيان وانقطاع سائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها وإذا كانت أوائل
 العلم وأواخره خاضرة عند الفكر عجاجة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب
 صبة لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره وإذا تنوسى الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه
 والله عليكم ما كنتم تعلمون ومن المذاهب الجلية والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على
 المتعلم علمان معاً فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم الباطن وانصرافه عن كل واحد
 منهما إلى نضم الآخر فيستغلطان معاً ويستعجمان ويعود منهما بالجملة وإذا تفرغ الفكر لتعليم
 ما هو بسبيله مختصراً عليه فربما كان ذلك أجدر بتحصيله والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب
 (خيل) واعلم أيها المتعلم أني أخفك بفائدة في تعلحك فإن تلقيتها بالقبول وأمسكها بيد
 الصناعة ظفرت بكثرة عظيم وذخيرة شريفة وأقدم لك مقدمة قبلك في فهمها وذلك أن
 الفكر الإنساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبدعاته وهو وجدان حركة لنفسه
 في البطن الأوسط من الدماغ تارة يكون مبتدأ للأفعال الإنسانية على نظام وترتيب وتارة
 يكون مبتدأ العلم مالم يكن حاصلًا بأن يتوجه إلى المطلوب وقد تصور طريقه ويروم نفيه أو إثباته
 فيلوح له الوسط الذي يجمع بينهما أسرع من منع البصر إن كان واحداً وينتقل إلى تحصيل آخر
 إن كان متعدداً ويصير إلى الظفر بطولبه هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميز بها البشر من
 بين سائر الحيوانات ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية تصفه لتعلم
 سداده من خطئه لأنها وإن كان الصواب لها ذاتياً إلا أنه قد يعرض لها الخطأ في الأقل من تصور
 الطرفين على غير صورتها من اشتباه الهيات في نظم القضايا وترتيبها للنتاج فتعين المنطق للتخلص
 من ورطة هذا الفساد إذا عرض فللنطق إذا أمر صناعي مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على
 صورة فعلها ولكونه أمراً صناعياً استغنى عنه في الأقل كثر ولذلك نجد كثيراً من غول النظر
 في الحقيقة يحصلون على الطالب في العلوم بدون صناعة المنطق ولا سيما مع صدقانية والتعرض لرحمة
 الله فإن ذلك أعظم معنى ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها فيفضي بالطبع إلى حصول الوسط
 والعلم بالمطلوب كما فطرها الله عليه ثم من دون هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق مقدمة أخرى
 من التعلم وهي معرفة الألفاظ ودلالاتها على المعاني الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب
 ومشافهة اللسان بالخطاب فلا بد أيها المتعلم من عبور تلك هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك
 فأولا دلالة الكتابة امرسومة على الألفاظ المقولة وهي أخفها ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعاني
 المطلوبة ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قولها المعروفة في صناعة المنطق ثم تلك المعاني

مجردة في الفكر اشراك يقتضى بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ولا يشطع هذه الحجب في التعليم بسهولة بل ربما وقف القديس في حجب الالفاظ بالمناقشات أو عثر في اشراك الأدلة بشغب الجدال والشبهات وقعد عن تحصيل المطلوب ولم يكديتخلص من تلك الغمرة إلا قليل ممن هداه الله فإذا ابتليت بشئ ذلك وعرض لك ارتباك في فهمك أو تشعب بالشبهات في ذهنك فاطرح ذلك واتخذ حجب الالفاظ وعوائق الشبهات في آثارك الأمر الصناعي جملة واخلص الى فضاء الفكر الطبيعي الذي فطرت عليه وسر حفظك فيه وفرغ ذهنك فيه للنغوص على مرامك منه واضعاً لها حيث وضعها كابر النظر قبلك مستعرضاً للفتح من الله كما فتح عليهم من ذنوبهم من رحمته وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون فإذا فعلت ذلك أشرقرت عليك أنوار الفتح من الله الظاهر بمطلوبك وحصل الامام الوسيط الذي جعله الله من مقتضيات هذا الفكر وفطره عليه كالفناء وحينئذ فارجع به الى قوالب الأدلة وصورها فأفرغه فيها ووفه حقه من القانون الصناعي ثم اكبه صور الالفاظ وأبرزه الى عام الخطاب والشفاهة وثيق العري صحيح البيان * وأما ان وفقت عند المناقشة والشبهة في الأدلة الصناعية وتمحيص صوابها من خطئها وهذه أمور صناعية وصعبة تسوي جباهها المتعددة وتشابه لأجل الوضع والاصطلاح فلا تتميز جهة الحق منها إذ جهة الحق إلتباسيين اذا كانت بالطبع فيستمر ما حصل من الشك والارتباك وتسدل الحجب على المطلوب وتقعّد بالنظر عن تحصيله وهذا شأن الأكثرين من النظائر والتأخرين سيما من سبقت له عجمة في لسانه فربطت على ذعنه ومن حصل له شغب بالقانون المنطقي تعصبه فاعتقد أنه الذريعة الى إدراك الحق بالطبع فيقع في الحيرة بين شبه الأدلة وشكوكها ولا يكاد يخلص منها والذريعة الى إدراك الحق بالطبع إلتماها هو الفكر الطبيعي كالفناء إذا جرد عن جميع الأوعام وتعرض الناظر فيه الى رحمة الله تعالى وأما المنطق فإلتماها هو واصف لفعل هذا الفكر فيسأوقه لذلك في الأكثر فاعتبر ذلك واستعطر رحمة الله تعالى متى أعوزك فيه المسائل تشرق عليك أنواره بالالهام الى الصواب والله الهادي الى رحمة وما العلم الا من عند الله

٣١ ﴿فصل في أن العلوم الإلهية لا توسع فيها الاًنظار ولا تفرع المسائل﴾

(اعلم) أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والطبيعات والالهيّات من الفلّفة وعلوم هي آليّة وسيلة لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما لشرعيّات وكلّ منطلق للفلّفة ويزمّا كان آليّة لعلم الكلام ولاصول الفقه على طريقة المتأخّرين فأما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفرّيع المائن واستكشاف الأدلة والأفكار فإنّ ذلك يزيد مطالعها تمكّنا في منكرته وإيضاحا لمعانيها المقصودة وأما العلوم التي هي آليّة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آليّة لذلك الغير

فقط ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرغ المسائل لأن ذلك يخرجنا عن المقصود إذا المقصود منها ما هي آتاه لا غير فكما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغوا مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائقا عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع أن شأنها مهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تشجيعا للعمر وشغلا بما لا يعنى وهذا كالفعل المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق وأصول الفقه لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها وأكثروا من التفاريع والاستدلالات بما أخرجهما عن كونها آلة وصير هاهنا المقاصد وربما يقع فيها أنظار لاحتمالها في العلوم المقصودة فهي من نوع اللغو وهي أيضا مضرة بالمتعلمين على الإطلاق لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فحق يظفرون بالمقاصد فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا في شأنها وينبهوا التلميذ على الغرض منها ويقفوا به عنده فمن زرع به همة بعد ذلك إلى شيء من التوغل فليرقله ما شاء من المراق صعبا أو سهلا وكل ميسر لما خلق له

٣٢ ﴿ فصل في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طريقه ﴾

(اعلم) أن تعليم الولدان لا يفرق بين شعائر من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما سبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان ونفاذ من آيات القرآن وبعض ممنون الأخبار وصار القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعض من الملكات وسبب ذلك أن تعليم الصغار أشد رسوخا وهو أصل لما بعده لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأسايله يكون حال ما يبنى عليه واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصاد على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء الدراسة بالرسم ومبادئه واختلف حملة القرآن فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يخلق فيه أو ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أم المغرب في ولادتهم إلى أن يجاوزوا أحد البلوغ إلى الشيعة وكذا في الكبير إذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواه أما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذي يراعونه في التعليم لأنه لما كان القرآن أصل ذلك فهو منبع الدين والعلوم جعلوه أصلا في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا يخص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشيعة وقد شذا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بها وبرز

في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم لكنهم يقطعون عند ذلك
لا يقطع سند التعليم في آفاقهم ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول وفيه كفاية لمن
أرشد الله تعالى واستعداد إذا وجد العلم وأما أهل أفريقيا فيخطون في تعليمهم بالولدان القرآن بالحديث
في الغالب ومدارسه قواني العلوم تلقين بعض مسائلها الآن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان آياته
ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءته أكثر مما سواه وعنايتهم بالخط تبع لذلك وبالجملة فطريقهم
في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس لأن سنده طريقهم في ذلك متصل بمشايخ الأندلس
الذين أجازوا عند غلب الصاري على شرق الأندلس واستقروا بتونس وعثم أخذوا ولدهم بعد
ذلك وأما أهل الشرق فيخطون في التعليم كذلك على ما بلغنا ولا أدري بم عنايتهم منها والذي ينقل
لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشيعة ولا يخطون بتعليم الخط
بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلوم على انفرادهم كتنعيم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان
وإذا كتبوا لهم الاتواح فيخط قاصر عن الاجادة ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يستعمله بعد ذلك
من المهمة في طلبه ويتغيبه من أهل صنعة فأما أهل أفريقية والغرب فأقدم الأقتصار على القرآن القصور
عن ملكة الانسان جملة وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة فأن البصر مصر وفون عن الايمان
بمثله فهم مصر وفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها وليس لهم ملكة في غير أساليبه ولا يحصل
لصاحبه ملكة في اللسان العربي وحظه الجود في العبارات وقلة التصرف في الكلام وربما كان أهل
أفريقية في ذلك أخف من أهل المغرب يخطون في تعليمهم القرآن بعبارة العلوم في قوانينها كما
قلناه فيقتدرون على شيء من التصرف وعادة المثل بالمثل الآن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة
لأن أكثر محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة كالمسياني في نفسه وأما أهل الأندلس فأقدم
التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والرسول ومدارس العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا
بها أعرف في اللسان العربي وقصر وافق سائر العلوم لعدم عن مدارس القرآن والحديث الذي هو
أصل العلوم وأساسها فكانوا لذلك أهل خط وأدب باع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من
بعد تعليم الصبا ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته إلى طريقة غربية في وجه التعليم
وأعاد في ذلك وأبدى وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس قال
لأن الشعر ديوان العرب ويدعو إلى تقدمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه إلى
الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل إلى درس القرآن فانه يتيسر عليه بهذه المقدمة ثم قال
ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر غيره أم
عليه ثم قال ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه ونهى مع ذلك أن يحفظ
في التعليم علما الآن يكون التعلم بالاندلس بمجودة الفهم والنشاط هذا ما أشار إليه القاضي أبو بكر رحمه
الله وهو لعمرى مذهب حسن الآن العوائد لا تساعد عليه وهي أم ملكة بالاحوال ووجه ما اختص به

أعوانهم من تقدم دراسة القرآن إشاراً للمترك والثواب وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات
والشواغل عن العلم فيقوته القرآن لأنه مادام في الحجز منقاداً للحكمة فإذا تجاوز البلوغ وانحل من رتبة القبر
فربما عصفت به رياح الشبهة فألقته بساحل البطالة فيغتمسون في زمان الحجر وريقة الحكم تحصيل القرآن
ثلاثاً يذهب خلواصه ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي
ذكره القاضي أولى ما أخذه أهل القرب والشرق ولكن الله يحكم ما يشاء لا معقب لحكمه سبحانه

٣٣٣ فصل في أن الشدة على المعلمين مضرّة بهم

وذلك أن أرحاف الجسد في التعليم مضر بالمعلم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء المسكوة ومن كان
مرهاً بالعسف والقهر من المعلمين أو المالك أو الخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب
بنشاطها ودعا إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط
الأيدي بالقهر عليه وعمله المسكر والحديعة لذلك وسارت له هذه عادة وخلقا وفسدت معاني الإنسانية
التي له من حيث الاجتماع والتمرن وهي الحجة المدافعة عن نفسه ومزله وصار عبداً على غيره في ذلك بل
وكلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فاقبضت عن غايتها ومدى انبساطها فارتكس
وعاد في أسفل السافلين وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العنف واعتبره في كل
من تلك أمور عليه ولا تكون المسكوة الكفيلة برفقة به تجد ذلك فيهم استقراء وانظره في اليهود وما
حصل بذلك فيهم من خلق السوء حتى أنهم يوصفون في كل أفق وعصر بالخروج ومعناه في الاصطلاح
الشيور الخباث والكيد وسببه ما قلناه فينبغي للعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبدوا عليهم
في التأديب وقد قال أبو عبد بن أبي زيد في كتابه الذي ألقه في حكم المعلمين والمعلمين لا ينبغي لمؤدب
الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً ومن كلام عمر رضي الله عنه من لم يؤدبه
الشرع لأدبه الله حرصاً على صون النفوس عن مذلة التأديب وعلمنا بأن القدار الذي عينه الشرع
لذلك أملك له فإنه أعلم بعصلحته ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لعلم ولده محمد الأمين فقال
يا أحمراً إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرته قلبه فصر يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة
فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرته القرآن وعرفه الأخبار ورواه الأشعار وعلمه السنن وبصره
بمواقع الكلام وبدنه وامتنعه من الضحك إلا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه
ورفع مجالس الفوائد إذا حضر واجلسه ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت معتزم فائدة تفيده إياها من غير أن
تخزئه وتميت ذهنه ولا تمنع في مسامحته فيستحلي الفراغ وبألفه وقومه ما استطاعت بالقرب والملاينة فإن
أياها فعليك بالشدة والغلظة اهـ

٣٣٤ فصل في أن الرحلة في طلب العلوم وإتمام المشيخة مزيد كمال في التعلم

والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل تارة

علماء وتعالى والقاء ونارة عما كانت وتلقينا بالباشرة الآن حصول تلكات عن الباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول تلكات ورسوخها والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم غلظة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرة لا اختلاف الطرق فيها من العميق فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد تميز الاصطلاحات بما رام من اختلاف طرقهم فيها فيجد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصيل وتنهض قوام إلى الرسوخ والاستحكام في تلكات ويسجع معارفه ويميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالباشرة والثقلين وكثرتهم ما من الشيخة عند تعددهم وتنوعهم وهذا لمن يصر الله عليه طرق العلم والهداية فالحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

٣٥ ﴿ فصل في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومداهاها ﴾

والسبب في ذلك أنهم معتادون النظر الفكري والغوص على المعاني واتراعيها من المحسوسات وتجريدتها في الذهن أمور كلية عامة ليحك عليها بأمر العموم لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس ويطبّقون من بعد ذلك الكلي على الخارجيات وأيضاً يقبسون الأمور على أشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس الفقهى فلا تزال أحكامهم وأنظاريهم كلها في الذهن ولا تصير إلى المطابقة إلا بعد الفراغ من البحث والنظر ولا تصير بالجملة إلى المطابقة وإنما تفرع ما في الخارج عما في الذهن من ذلك كالأحكام الشرعية فإتباعاً فروع عما في المفظوظ من أدلة الكتاب والسنة فتطلب مطابقة ما في الخارج لها عكس الأنظار في العلوم العقلية التي تطلب في بعضها مطابقتها لما في الخارج فهم متعودون في سائر أنظاريهم الأمور الذهنية والأنظار الفكرية لا يعرفون سواها والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج وما بلحقها من الأحوال ويتبعها فإتباعاً خفية ولعل أن يكون فيها ما يمنع من إلحاقها بشيء أو مثال ويتألف الكلي الذي يحاول تطبيقه عليها ولا يقاس شيء من أحوال العمران على الآخر إذ كما اشتبه في أمر واحد فلهما اختلافاً في أمور فتكون العلماء لا جيل ما تعودوه من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض إذ انظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب أنظاريهم ونوع استدلالهم فيقعون في الغلط كثيراً ولا يؤمن عليهم ويلحق بهم أهل الدكاه والكيس من أهل العمران لأنهم ينزعون بثقوب أدهانهم إلى مثل شأن الفقهاء من الغوص على المعاني والقياس والمحاكاة فيقعون في الغلط والعمى السليم الطبع المتوسط الكيس لقصور فكره عن ذلك وعدم اعتياده إياه يقتصر لكل مادة على حكمها وفي كل صنف من الأحوال والأشخاص على ما يختص به ولا يعتدي الحكم بقياس ولا تعميم ولا يفارق في أكثر نظره المواد المحسوسة ولا يجاوزها في ذهنه كالسائح لا يفارق البر عند الفوج قال الشاعر

فلا توغلي اذا ما سبحت * فان السلامة في الساحل

فيكون مأموماً من النظر في سياسته مستقيم النظر في معاملة أبناء جنسه فيحسن معاشه وتندفع آفاته ومضاره باستقامة نظره وفوق كل ذي علم عليم ومن هنا ينبغي أن - صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من الانزاع وبعدها عن المحسوسات فانها تنظر في العقولات النوافي ولعل المواد فيها ما يمنع تلك الأحكام وينافيها عند مراعاة التطبيق اليقيني وأما النظر في العقولات الأولى ولو هي التي تجريدها قريب فليس كذلك لأنها خيالية وصور المحسوسات محافظة مؤذنة بتصديق انطباقه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٣٦ * فصل في أن حملة العلم في الاسلام أكثرهم العجم

من العرب الواقع أن حملة العلم في الأمة الإسلامية أكثرهم العجم لأن العلوم الشرعية ولأن المأمونة العقلية لا في التليل النادر وإن كان منهم العربي في نسبه فهو عجمي في لغته ومرياده ومشيجته مع أن اللغة عربية وصاحب شريعتها عربي والسبب في ذلك أن اللغة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة تقتضي أحوال السداجة والبداءة وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب السرع وأصحابه والقوم يومئذ عرب يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولادفعوا اليه ولادعتهم إليه - حاجة وجرى الأمر على ذلك من الصحابة والتابعين وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القراء أي الذين يقرؤون الكتاب وليسوا أميين لأن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة كما كانوا عرباً فقل حملة القرآن يومئذ قد أشارت إلى هذا فهم قراء الكتاب الله والسنة المأثورة عن أئمة لا ثمهم إذ عرفوا الأحكام الشرعية الآمنة ومن الحديث الذي هو في غالب موارد تفسيره وشرح قال صلى الله عليه وسلم تركت فيكم أمراً من أن تصلوا ما تمسكتم بها كتاب الله وسنتي فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد شاع بعد احتياج إلى وضع التفسير القرآنية وتفسير الحديث مخافة ضياعه ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعيين الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه ثم كثر استخراج أحكام الوقعات من الكتاب والسنة وفسد مع ذلك اللسان فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباط والاستخراج والتفكير والقياس واحتاجت إلى علوم أخرى وهي وسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذهب عن العباد لا بمازاة بالآلة لكثرة البدع والاحاد فصارت هذه العلوم كلها معلوماً ذات ملكات محتاجة إلى التعليم فاندوجت في جملة الصنائع وقد كنا قدمنا أن الصنائع من متعلات الحضرة وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضيرية وبعد عنها العرب وعن سوقها والحضر لذلك العبد العجم أو من في معانهم من الموالى وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوم

على ذلك لمحضار ذلك الحق فهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيديوه والفارسي من بعدهم والراجح من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم وإخباروا في اللسان العربي فاكسبوه بالآري وغالطة العرب وصيروه قوانين وفنالمين بعدم وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والآري وكان علماء أصول الفقه كلهم عجميا كما يعرف وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر التفسيرين ولم يقيم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأتباع وخبر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم تو تعلق العلم بأكتاف السماء لانه قوم من أهل فارس وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها من البداوة فتعلمهم الرئاسة في الدولة العباسية وما دفعوا اليه من القيام بذلك عن القيام بالعلم والنظر فيه فانهم كانوا أهل الدولة وحنيتها وأولى سياستها مع ما يلحقهم من الألفة عن اتجال العرب حينئذها صار من جهة الصنائع والرؤساء أبدا يستفكفون عن الصنائع والمهن وما يجر اليها ودفعوا ذلك الى من قلمه من العجم وثوليد من وماز الوابرون لهم حق القيام به فانه دينهم وعلومهم ولا يخفون حملها كل الاحتياز حتى اذا خرج الأمر من العرب حملة وصار للعجم صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل تلك فاعلم عليه من البعد عن نسبتها وامتنع حملتها بآيرون أنهم بعداء عنهم مشتغلين بتأديبهم ولا يمدى عنهم في الملك والسياسة كاذكرناه في نقل الراتب الدينية فيذا الذي قررناه هو السبب في أن حملة الشريعة أو علمهم من العجم وأما العلوم العقلية أيضا فلم تظهر في اللغة إلا بعد أن تغير حملة العلم ومولفوه واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركها العرب وانصرفوا عن اشتغالها فحملها الا المعربون من العجم شأن الصنائع كما قلناه أولا فم ذلك في الأمصار ما دامت الحضارة في العجم وبلاذ من العراق وخراسان وما وراء النهر فلما خربت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع ذهب العلم من العجم حملة فانتقلهم من البداوة واختص العجم بالأمصار الوفرة الحضارة ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع وبقى بعض الحضارة في بلاد النوبة المماثلة من الحضارة بالدولة التي فيها فلهم بذلك حصة من العلوم والصنائع لا تنكر وقد لبنا على ذلك كلام بعض علمائهم في تأليف وصلت بنا الى هذه البلاد وهو سعد الدين انتفازي وأما غيرهم من العجم فلم تر لهم من بعد الامام ابن الخطيب ونسب الدين بن الطوسي كلاما يعول على نهايته في الاصابة فاعتبر بذلك وتأملوا عجباً في أسرار الخليفة والله خلق ما يشاء لا اله الا هو وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل واتخذ الله

أركان أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والآداب ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة اذا ما أخذوا بحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي لغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب

وشرع مشكلاتها من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان فمن أراد علم الشريعة وتفاوتت في التأكيدها وتفاوتت مراتبها في التوفيق بمقصود الكلام حسب ما يتبين في الكلام عليها فافنا والذي يتحصل أن الأصول المتقدم منها هو النحو انبئيت بين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمتدي من الخبر ولولا له لجعل أصل الافادة وكان من حق علم اللغة التقدم ولو لأن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تغير بخلاف الاعراب الداو على الاستاد والمستند والسند اليه فانه تغير بالجملة وذيق لذلك كان علم النحو أهم من اللغة في جهله الاخلال بالتفاهيم وبقول ليست كذلك اللغة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

علم النحو

اعلم أن اللغة في التعارف هي عبارة التكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لسانى فلا بد أن يصير ملكة مقررة في العضو الناعل له وهو اللسان في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم وكانت الملكة الخاصة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول والخبر وزاعى الضاف ومن الحروف التي تفضى بالافعال الى التواتر من غير تكلف ألفاظ أخرى وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب وأما غيرهما من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من اللفاظ تخصه بالدلالة ولذلك نجد كلام المعجم في غناطياتهم أطول مما تقدر به بكلام العرب وهذا هو معنى قولنا صلى الله عليه وسلم أتيت حوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا فصار للحروف في لغاتهم والحركات والهيئات أي الأوضاع اعتبار في الدلالة عن المقصود غير متكلفين فيه لصناعته يستفيدون ذلك منها إنها هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخرون عن الأول كاتأخذ صيانتها لهذا العهد لغاتنا فنداء الاسلام وفرقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأثم والدول وخالفوا العجم لغاتهم تلك الملكة بما ألقى اليها السمع من المخالفات التي لغتهم والسمع أي الملكات الإنسانية ففسدت بما ألقى اليها مما يغيرها لجنوحها اليه باعتماد السمع وخشى أهل العلوم منهم أن تضد تلك الملكة رأسا ويطلو العبد بها فيخلق القرآن والحديث على الفهم فاستنبطوا من عبارات كلامهم قوايتين لتلك الملكة مطردة شبه الكلمات والقواعد يقيمون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الاشياء بالاشياء مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع نهر أو انفيير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته إعرابا وتسمية الموجب لتلك التغير عاملا وأمثال ذلك وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدها بالكتاب وجعلوها صناعة لم خصوصية واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو وأول من كتب فيها أبو الاسود الدؤلي من بني كنانة ويقال بإشارة على رضي الله عنه لا تدر أي تغير الملكة فأشار عليه بحفظها ففرغ إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل ابن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد أخرج ما كان الناس اليه فذهب تلك الملكة من من العرب فذهب الصناعة وكل أبوها وأخذها عنه سيوييه فكمل تقاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدا ووضع فيها كتابه

المنهور الذي صار اماما لكل ما كتب فيها من بعده ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم راجح كتبها مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الأمام في كتابه ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة المصريين القدمين للعرب وكثرت الأدلة والحجج بينهم وتباينت الطرق في التعليم وكثر الاختلاف في اعراب كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد وطال ذلك على المتعلمين وجاء المتأخرون عندهم في الاختصار فاختصروا كثيرا من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك في كتاب التيسيل وأمثلة أو اختصار على المدي للمتعلمين كما فعله الزمخشري في المفصل وابن الحاجب في المقدمة له ورعا نظموا ذلك نظما مثل ابن مالك في الأرجورين الكبرى والصغرى وابن معطي في الأرجوزة الألفية وبالجملة فالتأليف في هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها وطرق التعليم فيها مختلفة فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين والصنوفيون والبصريون والاندلسيون مختلفون طريقة طرفهم كذلك وقد كادت هذه الصناعة أن تؤذي بالذهاب لما أينا من النقص في سائر العلوم والصناعات بتدريس العمران ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين ابن هشام من علماءها استوفى فيه أحكام الأعراب بحجة ومفصلة وتكلم على الحروف والفردات والحل وحذف ما في الصناعة من التكرار في أكثر أبوابها وسماه بالمغني في الأعراب وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها ووضعتها بأبواب وفضول وقواعد انتظمت سائرها فوقفنا على علم جم يشهد بعلم قدر في هذه الصناعة ووفور بضاعته بها وكأنه يتجو في طريقته مستحاذ أهل لاوصل الذين اقتفوا أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه فأتى من ذلك ما يشي عجيب دال على قوة ملكته وإطلاعه والتفريد في الخلق ما يشاء.

﴿ علم اللغة ﴾

هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية وذلك لأنها فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات السبعة عند أهل النحو بالأعراب واستنطقت القواوين لحفظها كما قلناه ثم استمر ذلك الفساد بتلاوة العجم ومخالطتهم حتى تآدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عند ملأ مع هجنة التعريين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فأحتجج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث فشمع كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه التداوين وكان سابق الخطبة في ذلك الحلليل بن أحمد الفراهيدي ألف فيها كتاب العين فصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرابعي والخامس وهو غاية ما انتهى إليه التركيب في اللسان العربي وتأتى له حصر ذلك بوجوه عديدة حاصرة وذلك أن جملة الكلمات الثمانية تخرج من جميع الأعداد على التوالي من واحد إلى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد

من السبعة والعشرين فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحدا فتكون كلها أعدادا على توالي العدد من واحد الى سبعة وعشرين فتجتمع كلها بالعمل المعروف عند أهل الحساب ثم تضاعف لأجل قلب الثاني لأن التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات وتخرج الثلاثيات من ضرب عدد الثنائيات فيما تجمع من واحد الى ستة وعشرين لأن كل ثنائية ترتب عليها حرف فتكون ثلاثية فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفا بعد الثنائية فتجمع من واحد الى ستة وعشرين على توالي العدد ويضرب فيه جملة الثنائيات ثم يضرب الخارج في ستة جملة مفلو بات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبيها من حروف المعجم وكذلك في الرباعي والخماسي فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف واعتمد فيه ترتيب الخارج فبدأ بحروف الخلق ثم ما بعده من حروف الخلق ثم الآخر اس ثم الشمة وجعل حروف العلة آخرها وهي الحروف الهوائية وبدأ من حروف الخلق بالعين لأنه الأقصى منها فذلك سمي كتابه بالعين لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم الى مثل هذا وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ ثم بين الميمل منها من المستعمل وكان الميمل في الرباعي والخماسي أكثر قلة استعمال العرب له لثقله ولحق به الثاني لقلة دورانه وكان الاستعمال في الثلاثي أغلب فكانت أوضاعه أكثر لدورانه وضمن الخليل ذلك كله في كتاب العين واستوعبه أحسن استيعاب وأوعاه وجاء أبو بكر الزبيدي وكتب لهشام المؤيد بالله أندلس في المائة الرابعة فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه الميمل كله وكثيرا من شواهد المستعمل ولحقه بالحفظ أحسن تلخيص وألف الجوهري من المشارقة كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعل البداءة منها بالهمزة وجعل اترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لا يضطروا الناس في الألفاء كثير إلى أواخر السكام وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل ثم ألف فيها من الأندلسيين ابن سيدة من أهل دانية في دولة علي بن أبي طالب كتاب الحكيم على ذلك النحى من الاستيعاب وعلى نحو ترتيب كتاب العين وزاد فيه التعرض لاشتقاقات السكام وتصاريقها فجاء من أحسن التواوين ولحقه محمد بن أبي الحسين صاحب المختصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح في اعتبار أواخر السكام وبناء تراجم عليها فكانت أواخرهم ووسطى أبيه هذه أصول كتب اللغة فيما علقناه وهناك مختصرات أخرى مختصة بنصف من السكام ومستوعبة لبعض الأبواب أول كتابها الآن وجه المختصر فيها خلق ووجه المختصر في تلك جلي من قبل التراكيب كالأيت ومن الكتب الموضوعات أيضا في اللغة كتاب الزعمرى في الجازين فيه كل ما تحوزت به العرب من الألفاظ وما تحوزت به من المدلولات وهو كتاب شريف بالأفادة تهما كانت العرب تضع الشيء على العموم ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظا أخرى خاصة بها فارق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال واحتاج إلى تفهيم اللغة

عزير المأخذ كما وضع الأبيض بالوضع العالم لكل ما فيه بياض ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب
ومن الإنسان بالأزهر ومن القم بالأملح حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها خطأ وخروجاً عن
لسان العرب واختص بالتأليف في هذا المنحى الثعالبى وأفرده في كتابه سماه فقه اللغة وهو من أكد
ما يأخذ به اللغوى نفسه أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه فليس معرفة أو وضع الأول بكف في
التركيب حتى يشبهه استعمال العرب فذلك وأكثر ما يحتاج إلى ذلك الأديب في فن نظم وشعر حذرا
من أن يكثر لحنه في الموضوعات الغريبة في مقدماتها ونزائرها وهو أشد من اللحن في الأعراب وأحسن
وكذلك ألف بعض المتأخرين في الألفاظ المشتركة وتكمل بحصرها وإن لم تبلغ إلى النهاية في ذلك
فيومستوعب للأكثر وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن المختصصة بفتاوى من اللغة الكثير
الاستعمال نسبها لحققتها على الطالب فكثرة مثل الألفاظ لابن السكيت والفيحيى لعلب وغيرهما
وبعضها أقل لغة من بعض لاختلاف نظرهم في الأم على الطالب للاحتياط والله الخلاق العليم لأرب سواه

علم البيان

هذا العلم حادث في اللغة بعد علم العربية واللغة وهو من العلوم اللسانية لا يتعلق بالألفاظ وما نصيده
ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني وذلك أن الأمور التي يقصد التكلم بها أفادة السامع من كلامه هي
أما تصور مفردات السند ويسند إليها ويقضى بعضها إلى بعض والدالة على هذه هي المفردات من الأسماء
والأفعال والحروف وأما غير السندات من المسند إليها والأزمنة ويدل عليها بغير الحركات وهو
الأعراب وأيقية الكلمات وهذه كلها هي صناعة النحو ويبقى من الأمور المكتشفة بأواقعات المحتاجة
للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل وهو يحتاج إلى الدلالة عليه لأنه من تمام
الأفادة إذا حصلت للمشكك فقد بلغ غاية الأفادة في كلامه وإذا لم يستعمل على شيء منها فليس من جنس كلام
العرب فإن كلامهم واسع ولكل مقام عند مقارن يختص به بعد كمال الأعراب والأبابة لا ترى أن قولهم
زيد جاءني مغاير لقولهم جاءني زيد من قبل أن لا تقدم متنها هو الأمر عند التكلم فمن قال جاءني زيد أفاد
أن اهتمامه بالجني قبل الشخص السند إليه ومن قال زيد جاءني أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل الجني السند
وكذا التعبير عن أجزء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرف أو كذا أنا كيد الاستناد على الجملة
كقولهم زيد قائم وإن زيد قائم وأن زيد قائم متغايرة كلها في الأدلة وإن استوت من طريق الأعراب
فإن الأول العارى عن التأكيدها فيزيد الخالي ذهن والثاني المؤكده بأن يفيد التردد والثالث يفيد التكرار
فهى مختلفة وكذلك تقول جاءني الرجل ثم تقول مكانه بعينه جاءني رجل إذا قصدت بذلك التنكير تعظيمه
وأمر رجل لا يعادله أحد من الرجال ثم الجملة الاستنادية تكون خبرية وهي التي لها خارج تطابقه أو لا واتساقه
وهي التي لا خارج لها كالطلب وأنواعه ثم قد يتعين ترك العاطف بين الجملتين إذا كان للثانية عمل من
الأعراب فيقول بذلك منزلة الطابع المقر دعتا وتوكيدا وبدلا بلا عطف أو يتعين العطف إذ لم يكن للثانية عمل

من الاعراب ثم يقتضى المحل الاطراب والايحار فيورد الكلام عليهما ثم قديمتان باللفظ ولا يريد منطوقه
ويريد لازمه ان كان مفردا كما تقول زيدا أسد فلا تريد حقيقة الأسد المنطوقه وإنما يريد شجاعته
اللازمة وتسند هذا الزيد وتسمى هذه استعارة وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على مغزومه كما تقول
زيد كثير الزاد وتريد به ما ذكره من الجود وقرى الضيف لأن كثرة الزاد ناشئة عنها فهي دالة
عليها وهذه كلها دالات على دلالة الألفاظ المفرد والركب وإتمام عيانت وأحوال وإتمامات جعلت
بالدلالة عليها أحوال وحيات في الألفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه فثبت على هذا العلم السمي بالبيان على
البحث عن هذه الدلالات التي لايات والأحوال والتميزات وجعل على ثلاثة أصناف الصنف الأول
يبحث فيه عن هذه الهميات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى علم البلاغة
والصنف الثاني يبحث فيه عن الدلالة على اللزوم المنطوق ومغزومه وهي الاستعارة والكناية كقوله
ويسمى علم البيان وألحقوا بهما صنفا آخر وهو النظر في ترتيب الكلام وتحسينه بنوع من الترتيب إما
بسجع يفصله أو تخميس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع يضع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود بإيهامه مني
أخفى منه لا شتراته اللفظ بينهما وأمثال ذلك ويسمى عند علم البديع وأطلق على الأصناف الثلاثة عند
المحدثين اسم البيان وهو اسم الصنف الثاني لأن الأقدمين أول ما تكلموا فيه ثم تلاخثت مسائل الفن
واحدة بعد أخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأما علم أملاآت غير وافية فيها ثم تزل
مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا إلى أن عجز السكاكي زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه
آفاقا من الترتيب وألف كتابه السمي بالفتح في النحو والتصريف والبيان لجعل هذا الفن من بعض
أجزائه وأخذ المتأخرون من كتابه وخصوصا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد كقوله السكاكي في
كتاب البيان وابن مالك في كتاب الصباح وجمال الدين القزويني في كتاب الإيضاح والتلخيص وهو
أصغر حجما من الإيضاح والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره
وبالجملة فلما شارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة وسيد به والله أعلم أنه كالم في العلوم اللسانية والصنائع
الكلمالية توجد في العمران والمشرق أو فر عمرانا من المغرب كاذ كرتاه أو نقول لعناية العجم وهو
معظم أهل المشرق كتفسير الزعزعي وهو كالم على هذا الفن وهو أصله وأما الخنص أهل المغرب
من أصناف علم البديع خاصة وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية وفرعوا له ألفا وعددوا أبوابا
ونوعوا أنواعا وزعموا أنهم أحصوا هامن لسان العرب وأما علمهم على ذلك النوع بترتيب الألفاظ وإن
علم البديع سهل المأخذ وصعب عليهم ما أخذ البلاغة والبيان لدقة أنظارها ونموس معانيها فنجافوا
عنهما ومن ألف في البديع من أهل إفريقية ابن رشيح وكتاب العمدة له مشهور وجرى كثير من أهل
إفريقية والأندلس على منهجه وأعلم أن ثمة هذا الفن انتهى في فهم الإنجاز من القرآن لأن إنجاز
في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقه ومفهومه وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال
فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة صفها وتركيبها وهذا هو الإنجاز الذي تنصير الألفاظ عن دركه

وأما يدرك بعض الشيء من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته فيدرك من اعجازه على قدر ذوقه فهذا كانت مدارك العرب الذين جمعوهم من مبلغة أعلى مقام في ذلك لأنهم فرسان الكلام وجبابرة التوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأنصح وأحوج ما يكون إلى هذا الفن المفسرون وأكثر تفسير المتقدمين غفل عنه حتى ظهر جاراته الزعزعي ووضع كتابه في التفسير وتبع أي القرآن بالحكم هذا الفن بما يبدى البعض من اعجازه فاقترد بهذا الفضل على جميع التفسيرين ولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ولا حتى هذا استحسانه كثير من أهل السماع وفور بضاعتهم من البلاغة فمن أحكم عقائد السنة وشاركت في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولا تصرف في معتقده فانه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب لا يخفى على من لا يخاف مع السلامة من البدع والآله هو الله الهادي من يشاء إلى سواء السبيل

علم الأدب

هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها وإنما المقصود منه عند أهل اللسان عزيمته وهي الاجادة في فن المنظوم والنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالى الطبقة وسجع متساو في الاجادة ومائيل من اللغة والنحو ميثوقة أثناء ذلك متفرقة يسقى منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من آيات العرب يفهم به ما وقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر الملم من الأساليب الشبيهة والآخبار العامة والمقصود بذلك كله أن لا يغنى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذ تصفحه لأنه لا يحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه فيحتاج إلى تقديم جميع ما يدور قلبه عليه فبهم فهمهم إذا أرادوا أحد هذا الفن فتوا الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والآخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كل فهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات المعقدة فالحتاج صاحب هذا الفن حيث تدانى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها ومعناها من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانها أربعة دواوين وهي أدب الكتب لا ينفع كذاب الكامل المعبر ذو كتاب البيان والتبيين لا يحفظ وكتاب النوادر لا يلى على اثنى البغدادى وما سوى هذه الأربعة فبغيرها وفروع عنها وكتب المحدثين في ذلك كثيرة وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تاج علمهم إذا الغناء إنما هو تلحينه وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه فلم يكن اعتحاله قادحافي العدالة والارادة وقد ألف القاصي أبو الفرج الأصبهاني وهو ما هو كتابه في الأغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأخبارهم ودولهم وجعل منه على الغناء في المائة صوت التي اختارها القنون

للرشيد فتشوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ولعمري أنه ديوان العرب وجامع أشات الخاسن
التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك
فيما قلناه وهو الغاية التي يسعوا إليها ويقف عندها وأنى لديها ونحن الآن رجع بالتحقيق على
الأجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان والله الهادي لأصواب

٣٨ ﴿ فصل في أن اللغة ملكة صناعية ﴾

(اعلم) أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودها
وفصولها عجب تمام الملكة أو نقصانها وليس ذلك بالنظر إلى الفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب
فإذا حصلت الملكة أثناء في تركيب الألفاظ انفراداً لا تعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي
يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة
والمملكة لا تحصل إلا بشكرار الأفعال لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه الذات صفة ثم تكرر فتكون
خلاً ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يبدأ التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة فملكته من العرب
حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في غاطبائهم وكيفية تعبيرهم
عن مقاصدهم كما يسمع العربي استعمال الفردات في معانيها فيلحقها أولاً يسمع التراكيب بعدها فيلقنها
كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك
ملكته وصفة راسخة ويكون كأحدهم هكذا نصيرت اللسان واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم
والأطفال وهذا هو معنى ما نقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع أي بالملكة الأولى التي أخذت عندهم
ولم يأخذوها عن غيرهم ثم أنها فسدت هذه الملكة لمصر بمخالطتهم الأعاجم وبسبب فسادها أن الناس
من الحبش صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر بها
عن مقصوده لكثرة مخالطتهم للعرب من غيرهم ويجمع كيفيات العرب أيضاً فخلط عليه الأمر
وأخذ من هذه وهذه فاستحدثت ملكة وكانت ناقصة عن الأولى وهذا معنى فساد اللسان العربي
ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصحها لعدم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من
أكتسبهم من تميم وهذيل وحزاعة وبنو كنانة وعظمان وبنو أسد وبنو تميم وأما من بعد عنهم من
ربيعة وخزاعة وجذام وغسان وإباد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأنهم الفرس والروم والحبشة فلم
تكن لغتهم نامة للملكة بمخالطة الأعاجم وعلى نسبة لعدم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة
والفساد عند أهل الصناعة العربية والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٣٩ ﴿ فصل في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مصر وخمير ﴾

وذلك أنا عجزها في بيان المقاصد والأوفاء بالدلالة على سنن اللسان المصري وفي مقدمتها الإدالة الحركات
على تعيين الفاعل من المفعول فاعتاضوا عنها بالتقديم والتأخير وقرأ أن تدل على خصوصيات المقاصد

إلا أن البيان والبلاغة في اللسان المفسري أكثر وأعرف لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها
 ويبقى ما تقتضيه الأحوال ويسمى بساط الحال منها إلى ما يدل عليه وكل معنى لا بد وأن تكنه أحوال
 تخصه فحجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود لأنها صفاته وتلك الأحوال في جميع الألسن
 أكثر ما يدل عليها ألفاظ تخصها بالوضع وأما في اللسان العربي فأنما يدل عليها بأحوال وكيهيات في
 تراكيب الألفاظ وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حرك كالأعراب وقيدل عليها بالخروف غير
 المشفلة ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيهيات
 كما قدمنا فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل الفاظا وعبارة من جميع الألسن وهذا معنى
 قوله صلى الله عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا واعتبر ذلك بما
 يحكي عن عيسى بن عمر وقد قلده بعض النحاة إلى أحد في كلام العرب شكرارا في قولهم زيد قائم
 وإن زيد قائم وإن زيد قائم والمعنى واحد فقال له إن معانيها مختلفة فلا أول لا فائدة الحالي القهين من قيام
 زيد والثاني لمن سمعه فأنكره الثالث لمن عرف بالأصغر على إنكاره فختلفت الدلالة باختلاف الأحوال
 وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد ولا تافئ في ذلك إلى خروقة
 النحاة أهل صناعة الأعراب الفاصلة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت
 وأن اللسان العربي فسد اعتبارا بما وقع أو آخر الكلام من فساد الأعراب الذي تدارسون قوانينه
 وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألفاها التصور في أفئدتهم والافتحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ
 العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الأمانة موجود في كلامهم
 لهذا العهد وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في خطباتهم وأهمل الخطيب المصنع في
 محافلهم وعجائهم والشاعر المقلق على أساليب لغتهم والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك
 ولم يفتقد من أحوال اللسان المدون الحركات الأعراب في أو آخر الكلام فقط الذي لازم في لسان مضر
 طريقة واحدة ومبعا معروفا وهو الأعراب وهو بعض من أحكام اللسان وانما وقعت العناية بلسان
 مضر لما فسد بمخالطتهم إلا عجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب وصارت ملكته
 على غير الصورة التي كانت أولا فاقبل لغة أخرى وكان القرآن مثرا لا بهو والحديث النبوي منقول لا بلغته
 وهما أصلا الدين والملة غشي تناسها وانغلاق الأفهام عنها يفقدان اللسان الذي نزل به فاحتجج إلى تدوين
 أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه وصار علما ذافصول وأبواب ومقدمات ومسائل مما أهله
 بعلم النحو وصناعة العربية فأصبح فناعفوظا وعلما مكتوبا وسما إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله وأما
 ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه فعتاض عن الحركات الأعرابية في
 دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها ولعلها تكون في أو آخره على غير المنهاج
 الأول في لغة مضر فليست اللغات وملكاتها بما ناوله كان اللسان المفسري مع اللسان الخيري بهذه المثابة
 وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الخيري وتصاريف كالاته تشهد بذلك الانتقال الموجودة

لدينا خلافتين بحسب الفصوح على أنها لغة واحدة ويلتمس أجزاء اللغة الخيرية على مقاييس اللغة المضربة وقوانينها كإزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الخيري أنه من القول وكثير من أشباه هذا وليس ذلك بصحيح ولغة حمير لغة أخرى مقابلة لغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها كحجة لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر الآن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة كإقلناه حمل ذلك على الاستنباط والاستفراء وليس عندنا لهذا العبد ما يعملنا على مثل ذلك ويدعونا إليه ونألف في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد حيث كانوا من الأقطار شأنهم في النطق بالثقافة فاهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الأمصار كحوم مذكور في كتب العربية أنه من أقصى اللسان وما فوقه من الحناك الأعلى وما ينطقون بها أيضا من مخرج السكاف وإن كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحناك الأعلى كحجى بل نجيو ونها متوسطة بين السكاف والثقاف وهو موجود للجميل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأمم والأجيال ومختصا بهم لا يشار إليهم فيها غيرهم حتى أن من يريد أن يعرف والانتساب إلى الجيل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بها وعندهم أنها تميز العربي الصريح من النخيل في العرب وبنو الحضري بالنطق بهذه الثقافة ويظهر بذلك أنها لغة مضر بعينها فإن هذا الجيل السابقين معظمهم ورؤساؤهم شرق وغربا في ولد منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور ومن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور وهذا العهد أكثر الأمم في العمور وأغلبهم ومن أعقاب مضر وسائر الجيل منهم في النطق بهذه الثقافة أسوة وهذه اللغة لم يتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة ويظهر من ذلك أنها لغة مضر الأولى ولعلها لغة النبي صلى الله عليه وسلم بعينها وقدا عى ذلك فقهاء أهل البيت وزعموا أن من قرأ في أم القرآن أهدنا الصراط المستقيم بغير الثقافة التي لهذا الجيل فقد لحق وأفقد صلاحه ولم أدر من أين جاء هذا فإن لغة أهل الأمصار أيضا لم يستحدثوها وإنما نقلوها من لدن سلفهم وكان أكثرهم من مضر لمازلوا الأمصار من لدن الفتح وأهل الجيل أيضا لم يستحدثوها إلا أنهم أبعد من مخالطة الأعاجم من أهل الأمصار فهذا يرجح فيما يوجد من اللغة لديهم أنهم من لغة سلفهم هذا مع اتفاق أهل الجيل كلهم شرقا وغربا في النطق بها وإنما الخاصية التي تميزها العربي من الهجيين والحضري فيهم ذلك والله الهادي المبين

٤٠ فصل في أن لغة أهل الحضرة والأمصار لغة قائمة بنفسها بخلاف لغة مضر

اعلم أن عرف النخاطب في الأمصار بين الحضرة ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجيل بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعبدنا وهي عن لغة مضر أبعد فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التغاير الذي يعد عند صناعة أهل النحول حنا وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم فلغة أهل الشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب وكذا أهل الأندلس معها وكل منهم متوصل بلغته إلى قادية مقصوده والابانة عما في نفسه وهذا معنى

اللسان واللغة وقدان الاعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العبد وأما أنها أبعد عن اللسان
 الأول من لغة هذا الجيل فلائن البعد عن اللسان إنما هو بخلاف لغة العجم فمن خلط العجم أكثر كانت لغته
 عن ذلك اللسان الأصلي أبعد لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم كما قلناه وهذه الملكة بمنزلة من الفلسفة
 الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم فهي مقدار ما يسمعون من العجمة ويربون
 عليه يعمدون عن الملكة الأولى واعتبر ذلك في أمصار إفريقية والمغرب والأندلس والشرق أما
 إفريقية والمغرب شالطت العرب فيها البرابرة من العجم يوفور عمراتها بهم وهم يكذبونهم عنهم مضر
 ولاجيل فغلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم وصارت لغة أخرى شتى عن العجمة فيها
 أغلب لما ذكرناه فهي عن اللسان الأول أبعد وكذا الشرق لما غلب العرب على أمم من فارس والترك
 غالطوه وتداولت بينهم في لغاتهم الأكرمة والفلاحين والسبي الذين اتخذوه خولاً ودايات وأطياراً
 ومراضع فصدت لغتهم بقسا الملكة حتى انقلب لغة أخرى وكذا أهل الأندلس مع عجم الجلائفة
 والأفريقية صار أهل الأمصار كلهم من هذه الألفاظ لغة أخرى غريبة بهم تخالف لغة مضر
 ويخالف أيضاً بعضها بعضاً كالذكره وكانها لغة أخرى لاستحكام ملكتها في أجيالهم والله يخلق ما
 يشاء ويقدر

٤١ ﴿فصل في تعليم اللسان المضرى﴾

(إعلم) أن ملكة اللسان المضرى هذا العبد قد ذهبت وقصدت ولغة أهل الجيل كلهم مغارة لغة مضر التي
 نزل بها القرآن وإنما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها كما قدمناه الآن اللغات لما كانت مشكلات كما مر
 كان تعلمها ممكنات لأن سائر الملكات ووجه التعليم لمن يقتضي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه
 بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف وخطابات خول العرب
 في أسجاعهم وأشعارهم وكلمات الولدين أيضاً في سائر فنونهم حتى يتزلزل لسانه وحفظه لكلامهم من المنظوم
 والنثر منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن الفاضل منهم ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على
 حسب عباراتهم وتأليف كتابهم وما وعده وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم فتحصل له هذه الملكة
 بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتهما رسوخاً وقوة ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبيعة والتنظيم
 الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في التراكييب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال والدوق
 يشهد بذلك وهو ناشأ ما بين هذه الملكة والطبع السليم فيهما كان ذكره على قدر الحفظ وكثرة الاستعمال
 تكون جودة القول المصنوع نظماً ونثراً ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر وهو الناقد
 البصير بالبلغة فيها وهكذا ينبغي أن يكون نعمها والله يهدي من يشاء نفسه وكرمه

٤٢ ﴿فصل في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ويستغني عنها في التعليم﴾

والسبب في ذلك أن الصناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة فهو علم بكيفية

لأنفس كيفية فليست نفس النكة وإغايها بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا مثل
أن يقول بصير بالخياطة غير محكم فكيفها في التعبير عن بعض أنواعها الخياطة هي أن يدخل الخيط في حرت
الابرة ثم يغرزا في لثقي الثوب فيتمعين ويخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا ثم يرددها إلى حيث
ابتدأت ويخرجها قدام متعدها الأول مطروح ما بين الثقبين الأولين ثم يتدلى على ذلك إلى آخر
العمل ويعطى صورة الحيك والتفتيت والتفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها وهو إذا شئى أن
يعمل ذلك بيده لا يحكمه متعشياً وكذا الوستل علم بالتجارة عن تفصيل الخشب فيقول هو أن تضع المنشار
على رأس الخشبة وتمسك بطرفه وآخر قبالتك بمسك بطرفه الآخر وتعاقبانه بينكما وأطرافه الضرسية
المحددة تقطع ما حرت عليه ذاهبة وجالية إلى أن ينتهي إلى آخر الخشبة وهو لو لم يلب هذا العمل أو شيء
منه يحكمه وهكذا العلم بقوانين الأعراب مع هذه الملكة في نفسها فإن العلم بقوانين الأعراب إنما هو علم
بكيفية العمل وليس هو نفس العمل ولذلك نجد كثيرا من جهابذة السجدة والمهرة في صناعة العربية
الحيطيين علماء تلك القوانين إذا سئل في كتابة سطر من أبي أخيه أو ذى مودته أو شكوى ظلامه أو قصد
من قصوده احتشأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن
القصود على أساليب اللسان العربي وكذا نجد كثيرا من يحسن هذه الملكة ويحيد الفتن من المنظوم
والشور وهو لا يحسن إعراب الغائل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئا من قوانين صناعة
العربية فمن هذا نعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية وإنما مستغنية عنها بالجلد وقد نجد بعض المهرة في
صناعة الأعراب يصير الخيال هذه الملكة وهو قليل وإلحاقاً وأكثر ما يقع للمخالفين لكتاب سيبويه
فإنهم يقتصر على قوانين الأعراب فقط بل ملا كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعبارةاتهم
فكان في جزء صالح من تعليم هذه الملكة فيجد العالم كتب عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب
واندرج في محفظة في أمما كنه ومفاصل حاجاته ونبيه بشأن الملكة فاستوفى تعليمها فكان أبلغ في
الافادة من هؤلاء المخالفين لكتاب سيبويه من يغفل عن التفطن لهذا فيحصل على علم اللسان صناعة ولا
يحصل عليه ملكة وأما المخالفون لكتب المتأخرين العارفة عن ذلك إلا من القوانين النحوية بعبارة عن
أشعار العرب وكلامهم فقلما يشمرون لذلك بأمر هذه الملكة أو ينتبهون لأنها فتجدهم يحسون أنهم قد
حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد الناس عنه وأهل صناعة العربية بالاندلس ومعلومها أقرب
إلى تحصيل هذه الملكة لتعليمها من سواهم لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم والتفقه في الكثير من
التراكيب في مجالس تعليمهم فيسبى إلى المنتهى كثير من الملكة أثناء التعليم فتقطع النفس لها وتستعد
إلى تحصيلها وقبولها وأما من سواهم من أهل المغرب وإفريقية وغيرهم فأجروا صناعة العربية بغير العلوم
بحا و قطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب إلا أن أعربوا شأها أو رجحوا مذهباً من جهة
الاعتناء الذهني لامن جهة عامل اللسان وتراكيبه فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين
المنطق العقلية أو الحدس وبعدت عن مناحي اللسان وملكته وما ذلك إلا لعدو لهم عن البحث في شواهد

اللسان وتراكيبه وتخيير أساليبه وغفلتهم عن المزان في ذلك للتعلم فهو أحسن ما تفيد به الملكة في اللسان وتلك القوانين إنما هي وسائل للتعليم لكنهم أجزوا على غير ما قصد بها وأجازوا على ما بدا لهم وبعثوا عن غرضها وتعلم مما قررناه في هذا الباب أن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرسم في حياته المنوال الذي نسخوا عليه تراكيبهم فينسخ هو عليه ويشترل بذلك منزلة من نشأ معهم وحافظ عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم والله مقدر الأمور كلها والله أعلم بالتعيب

٤٢ فصل في تفسير الذوق في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه

وبيان أنه لا يحصل غالباً للمستعمر بين من المعجم

(اعلم) أن لفظة الذوق يتداولها العتقون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان وقدر تفسير البلاغة وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تنوعه تراكيب في المادة ذلك فلذلك بلسان العرب والبلغة فيه ينحصر في الهيئة الفريدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطبتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جديد هذا الأصل مقاماته بمخاطبة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد يتحوف فيه غير منجي البلاغة التي للعرب وإن سمع تركباً غير جار على ذلك المنهج يهتوا بما عايناه بأدنى فكريل ويغير فكرال إنما استفاد من حصول هذه الملكة فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في عمالها ظهرت كأنها طبيعة وجيلة لذلك الخلق ولذلك يظن كثير من المتفلسفين ممن لا يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعراباً وبلاغة أمر طبيعي ويقول كانت العرب تتفلق بالطبيع وليس كذلك وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام كانت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلية وطبيع وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفلسن لخواص تراكيبه ولعبت تحصل بمعرفة القوانين العميقة في ذلك التي استقطبها أهل صناعة اللسان فإن هذه القوانين إنما تضيد علماء الملكة اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في عمالها وقدر ذلك وإذا انقضى ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البلغة إلى وجود النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم ولورام صاحب هذه الملكة جيداً عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة ما قدر عليه ولا واقته عليه لسانه لأنه لا يعتاد ولا يتهدي إليه ملكته الراسخة عنده وإذا عرض عليه الكلام حاله عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومعه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذي ما رس كلامهم وما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانة ففقد ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفاداة بالاستقرار وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم ومثاله لو فرضنا سيبا من مديانهم نشأ ورعى في جبلهم فإنه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الأعراب والبلاغة فيها حتى يستولي على غايتها وليس من العلم القانوني في شيء وإنما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه وكذلك أن تعلم هذه الملكة لمن بعد ذلك الجليل يحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم

والدأومة على ذلك بحيث يحصل الملكة ويصير كواحد من نشأ في جيلهم ويرى بين أجيالهم والقوانين
بمعزنا عن هذا واستعير لهذه الملكة عند ما ربح واستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة
البيان وإناعه موضوع لا درك الطعوم ولكن لما كان عمل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام
كما هو عمل لا درك الطعوم استعير لها اسمها أيضا فهو وجداني للسان كما أن الطعوم عسوسة له قليل له ذوق
وإذا تبين لك ذلك علمت منه أن الأعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئين عليه المضطربين إلى المنطق به
مخالطة أهل كافر وس والروم والترك بالشرق وكالبر بالمرج فانه لا يحصل لهم هذا الذوق لتصور حظه
في هذه الملكة التي قررنا أمرها لأن قصارهم بعد طائفة من العمر وسبق ملكة أخرى إلى اللسان وهي
لغاتهم أن يعتنوا بما يتدواله أهل مصر بينهم في المحاور من مفرد ومركب فباضطربن إليه من ذلك وهذه
الملكة قد ذهبت لأهل الأمصار وبعدها عنها كما تقدم وإنا لهم في ذلك ملكة أخرى وليست هي ملكة
اللسان المطلوبة ومن عرف تلك الملكة من القوائين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة
في شيء إنما حصل أحكامها كعرفت بالممارسة والاعتقاد والتكرار لكلام العرب فإن عرف ذلك ما تسمعه
من أن سيمويه والفارسي والبرغشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجبا مع حصول هذه الملكة
لهم فاعلم أن أولئك القوم الذين سمع عنهم إنما كانوا أعجبا في تسهيل فقط وأما البري واقشاة فكانت بين
أهل هذه الملكة من العرب ومن تعديا عنهم فاستولوا بذلك من الكلام على غاية الأوراءها وكأنهم
في أول نشأتهم من العرب الذين نشأوا في أجيالهم حتى أدر كوا كنه اللغة وصاروا من أهلها فهم وإن كانوا
عجبا في النسب فليسوا بالعجم إذا عرفت الكلام لأنهم أدر كوا الملك في غفواها واللغة في شباها ولم تذهب
آثار الملكة ولأن أهل الأمصار ثم عكفوا على الممارسة والممارسة لكلام العرب حتى استولوا على غايته
واليوم الواحد من العجم إذا خالط أهل اللسان العربي بالأمصار فأول ما يجد تلك الملكة المنصودة
من اللسان العربي محتجة الآثار ويوجد على كنه الحامية بهم ملكة أخرى مخالفة لملكة اللسان العربي ثم
إذا فرضنا أنه قبل على الممارسة لكلام العرب وأشعارهم بالممارسة فيستفيد تحصيلها قبل أن يحصل
له قدمنا من أن الملكة إذا سبقها ملكة أخرى في الحقل فلا تحصل إلا ناقصة غندوشة وان فرضنا عجبا
في النسب سلم من مخالطة اللسان العجمي بالكلمة وذهب إلى تعلم هذه الملكة بالممارسة فربما يحصل له
ذلك لكنه من التدور بحيث لا يفي عليك بما تقدر ويرى يدعي كثير ممن ينظر في هذه القوائين البيانية
حصول هذا الذوق له بها وهو غلط أو مخالطة أو ما حصلت له الملكة إن حصلت في تلك القوائين البيانية
ولست من ملكة العبارة في شيء واقفه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

٤٤ فصل في أن أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية

التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربي كان حصولها له أصعب وأعسر

والسبب في ذلك ما سبق إلى الشرح من حصول ملكة معنافية للملكة المطلوبة بما سبق إليه من اللسان

الحضري الذي أفادته العجمة حتى نزل بها اللسان عن ملكته الأولى إلى ملكة أخرى هي لغة الحضري
 لهذا العهد ولهذا نجد المتعلمين يذهبون إلى المسابقة بتعليم اللسان للولدان وتعتقد النجاة أن هذه المسابقة
 بصناعتهم وليس كذلك وانما هي بتعليم هذه الملكة بمخالطة اللسان وكلام العرب نعم صناعة النحو
 أقرب إلى مخالطة ذلك وما كان من لغات أهل الأمصار أعرق في العجمة وأبعد عن لسان مضر قصر
 بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية وحصول ملكتها لتكن المنافاة حينئذ واعتبر ذلك في أهل الأمصار
 فأهل أفرقية والمغرب لما كانوا أعرق في العجمة وأبعد عن اللسان الأول كان لهم قصور تام في تحصيل
 ملكته بالتعليم وقد نقل ابن الرقي أن بعض كتاب القبروان كتب إلى صاحب الديار أخي ومن لا دعمت
 قدمه أعلني أبوسعيد كلاماً أنك كنت ذكرت أنك تكون مع الدين تاني وعاقبنا اليوم فلم يأتنا الخروج
 وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كذبوا هذا بالمال ليس من هذا حرفوا واحداً وكتاني اليك
 وأما شناق اليك ان شاء الله وهكذا كانت ملكتهم في اللسان المضرية شبيهة ما ذكرنا وكذلك أشعارهم
 كانت بعيدة عن الملكة نازلة عن الطبيعة ولم نزل كذلك لهذا العهد ولهذا ما كان بأفرقية من مشاهير
 الشعراء إلا ابن رشيقي وابن شرف وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها ولم نزل يطقهم في البلاغة
 حتى الآن مائة إلى الفصور وأهل الأندلس أقرب منهم إلى تحصيل هذه الملكة بكثر معاناتهم وامتناعهم
 من المحفوظات القوية نظماً ونثراً وكان فيهم ابن جيان المؤرخ أمام أهل الصناعة في هذه الملكة وروافع
 الراية لهم فيها وابن عبدريد والقسطلي وأمثالهم من شعراء ملوك الطوائف لما خرجت فيها بحار اللسان
 والآداب وتداول ذلك فيهم مئين من السنين حتى كان الانقراض والجللاء أيام غلب النصرانية
 وشغلوا عن ذلك تعلم ذلك وتنافس العمران فنناقص ذلك شأن الصنائع كلها فتصورت الملكة
 فيهم عن شأنها حتى بلغت الخفيض وكان من آخرهم صاحب ابن شريف ومالك ابن المرحل من
 نلبذ الطبقة الأشبيلية بسببته وكتاب دولة ابن الأحمر في أولها وألفت الأندلس أقاليد كيدها
 من أهل تلك الملكة بالجللاء إلى العدو لعدو الأشبيلية إلى سببته ومن شرق الأندلس إلى
 أفرقية ولم يلبثوا إلى أن انقرضوا وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة لعسر قبول العدو لها
 وصعوبتها عليهم يعوج ألسنتهم وورسوخهم في العجمة البربرية وهي منافية لما قلناه ثم عادت الملكة من
 بعد ذلك إلى الأندلس كما كانت ونحتم بها ابن بشرين وابن جابر وابن الجباب وطبقهم ثم إبراهيم الساحلي
 الطرخي وطبقته وقفاهم ابن الخطيب من بعدهم المالك لهذا العهد شهيداً بعبادة أعدائه وكان له في اللسان
 ملكة لا تدرك واتبع أثره تلميذه بعده وبالجملة فشأن هذه الملكة بالأندلس أكثر وتعليمها أيسر
 وأسهل تمام عليه لهذا العهد كما قدمناه من معاناة علوم اللسان وعماقتهم عليها وعلى علوم الآداب وسند
 تعليمها ولأن أهل اللسان العجمي الذين تقدم ملكتهم إتمام طرائفهم عليهم وليس بمجتمهم أصلاً
 للغة أهل الأندلس والبربر في هذه العدو هم أهلها ولسانهم لسانهم إلا في الأمصار فقط وفيها منفسون
 في بحر مجتمهم وروايتهم البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم بخلاف أهل الأندلس

واعتبر ذلك بحال أهل المشرق بعد الدولة الأموية والعباسية فكان شأنهم شأن أهل الأندلس في تمام هذه المملكة وإجاداتها بعد ذلك العهد عن الأعاجم وغالطتهم إلا في القليل فكان أمر هذه المملكة في ذلك العهد أقوم وكان قول الشعراء والكتاب أو فرقتو فر العرب وأبنائهم بالمشرق وانظر ما اشتمل عليه كتاب الأتقنى من نظمهم ونثرهم فإن ذلك الكتاب هو كتاب العرب وديوانهم وفي لغتهم وأخبارهم وأيامهم وملتهم العربية وسيرتهم وآثار خلفائهم وملوكهم وأشعارهم وغناؤهم وسائر مغانيهم فلا كتاب أو عيب منه إلا حوال العرب وبقي أمر هذه المملكة مستحكما في المشرق في الدولتين وربما كانت فيهم أبلغ من سواهم من كان في الجاهلية كما نذكره بعد حتى نلاشى أمر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقصى أمرهم ودولتهم وصار الأمر للأعاجم والمثلث في أيديهم والتغلب لهم وذلك في دولة الأديب والسجوقية والظواهر أهل الأمصار والخواضر حتى بعدوا عن اللسان العربي وملكته وصار متعطلها منهم مقصرا عن تحصيلها وعلى ذلك نجد لسانهم لهذا العهد في فني المنظوم والمثور وإن كانوا مكثرين منه والله يخلق ما يشاء ويختار والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لأرب سواه

٤٥ فصل في أقسام الكلام إلى فني النظم والنثر

(اعلم) أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون الملقى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية وفي النثر وهو الكلام غير الموزون وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام فأمّا الشعر فمذهبه التمدح والهجاء والثناء وأما النثر فمذهبه السجع الذي يؤتى به قطعاً ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعاً ومنه الترسل وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجراً بل يرسل إرسالاً من غير قيد بقافية ولا غيرها ويستعمل في الخطب والثناء وترغيب الجمهور وترهيبهم وأما القرآن وإن كان من المثور إلا أنه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسلاً مطلقاً ولا مسجعاً بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد النوق بانتهاء الكلام عندها ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية وهو معنى قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشع مرته جلود الذين يخشون ربهم وقال قد فصلنا الآيات ويسمى آخر الآيات منها فواصل إذ ليست أسجاعاً ولا التزام فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضاً قواف وأطلق اسم الثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه واختصت بأم القرآن للغة فيها كالنجم للثريا ولهذا سميت السبع المثاني وانظر هذا مع مقاله المفسرون في تعليل تسميتها بالثاني تشهد لك الحق برجحنا ما قلناه واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهل ولا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه مثل السبب المختص بالشعر والحمد والثناء المختص بالخطب والثناء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينها في المثور

من كثرة الاسجاع والتزام التفتية وتضيق السبب بين يدي الأعراض وصار هذا المنشور اذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفرقا في الوزن واستمر التأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في الخطابات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنشور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخطبوا الأساليب فيه وهجروا المرسى وتناسوه وخصوصا أهل المشرق وصارت الخطابات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذي أشيرنا اليه وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال الخطيب والخطيب وهذا الفن المنشور المتفق أدخل التأخرون فيه أساليب الشعر فوجب أن تزد الخطابات السلطانية عنه إذا سلب الشعر تنافيا للوزنية وخطب الجدي بالهزل والأطباء في الأوصاف وضرب الأمثال وكثرة التضمينات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة إلى ذلك في الخطاب والتزام التفتية أيضا من اللوزنية والتزيين وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب يتنافى ذلك وبيانته والحمود في الخطابات السلطانية الترس وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا في الأقل النادر وحيث ترسل الملكة إرسالا من غير تكافله ثم إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فإن المقامات مختلفة ولكل مقام أسلوب يخصه من إغراب أو إخلال أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة أو كناية واستعارة وأما اجراء الخطابات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمنموم وما حمل عليه أهل العصر الاستيلاء العجمة على أساليبهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فعجزوا عن الكلام إرسالا بعد أمده في البلاغة وانفساح خطوبه ولعمري هذا المسجع يلفقون به تقصير من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والألقاب البدعية ويفعلونه عما سوى ذلك وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه هذا العهد حتى أنهم ليخلون بالأعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجنبس أو مطابقة لا يهتمعان معارف جحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الأعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس فتأمل ذلك بما قدمناه لك تنقف على صحة ما ذكرناه والله الموفق للصواب عنه وكرمه والله تعالى أعلم

٤٦ ﴿ فصل في أنه لا تنفق الأجابة في فن المنظوم والمنثور معا إلا لائق ﴾

والسبب في ذلك أنه كأي بناء ملكة في الإنسان فإذا نسبت إلى عمله ملكة أخرى قصرت بالهمل عن تمام الملكة اللاحقة لأن تمام الملكات وحصولها الطابع التي على الفترة الأولى أسهل وأيسر وإذا تقدمتها ملكة أخرى كانت منازعة لها في المادة القابلة وعائنة عن سرعة القبول فوقعت المنافسة وتعدرت التام في الملكة وهذا موجود في الملكات الصناعية كلها على الإطلاق وقد برهننا عليه في موضعه بنحو من هذا البرهان فاعتبر مثله في اللغات فإنها ملكات اللسان وهي بمنزلة الصناعة وانظر من تقدمه شيء من

العجبة كيف يكون قاصرا في اللسان العربي أبدا فلا عجمي الذي سبق له اللغة الفارسية لا يستولى على ملكة اللسان العربي ولا يزال قاصرا فيه ولو تعمق وعلمه وكذا البربري والرومي والأفريقي قل أن تجد أحدا منهم يحكمها لملكاة اللسان العربي وما ذلك إلا لما سبق إلى ألسنتهم من ملكة اللسان الآخر حتى أن طالب العلم من أهل هذه الألسن إذا طلبه بين أهل اللسان العربي جاء مقصرا في معارفه عن الغاية والتحصيل وما أتى إلا من قبل اللسان وقد تقدم لك من قبل أن الألسن واللغات شبيهة بالصنائع وقد تقدم لك أن الصنائع وملكاتها لا تزدهم وإن من سبغت له إجادة في صناعة فقل أن يجيد أخرى أو يستولى فيها على الغاية والله خلقكم وما تعملون

٤٧ ﴿ فصل في صناعة الشعر ووجه تعلمه ﴾

هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم ويوجد في سائر اللغات إلا أن الآن إنما تتكلم في الشعر الذي للعرب فإن أمكن أن تجد فيه أهل الألسن الأخرى مقصودهم من كلامهم وإلا فكل لسان أحكام في البلاغة تخصه وهو في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنجى إذ هو كلام مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتاً ويسمى الحرف الأخير الذي تتفق فيه روياء وفافية ويسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدة وكله وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وما بعده وإذا أفر دكاناً ما في باب في مدح أو تشبيب أو رثاء فيحرض الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقل في إفادته ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر كذلك ويستطرد لا يخرج من فن إلى فن ومن مقصود إلى مقصود بأن يوحى المقصود الأول ومعانيه إلى أن يتناسب المقصود الثاني ويبعد الكلام عن التناثر كما يستطرد من التشبيب إلى المدح ومن وصف البهاء والظلول إلى وصف التركاب أو الحبل أو الطيف ومن وصف الممدوح إلى وصف قومه وعساكره ومن التفجع والعزاء إلى الرثاء إلى التأثر وأمثال ذلك وبراعى فيه إتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذراً من أن يتساهل الطبع في الخروج من وزن إلى وزن يقاربه فقد يعنى ذلك من أجل القاربة على كثير من الناس ولهذا الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض وليس كل وزن يتفق في الطبع استعماله العرب في هذا الفن وإتمام موازين مخصوصة تسمى بأهل تلك الصناعة البحور وقد حصر وهافي خمسة عشر بحراً يعني أنهم لم يجدوا للعرب في غيرها من الموازين الطبيعية نظماً واعلم أن فن الشعر من بين الكلام كان شريفاً عند العرب ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطيئهم وأصلاد يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن الملكات كلها والملكات المسانية كلها إنما اكتسب بالصناعة والارتياض في كلامهم حتى يحصل شبه في تلك الملكة والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من

المتأخرين لاستغلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده ويصلح أن يفرد دون ما سواه فيحتاج من أجل ذلك إلى نوع تلطف في تلك الملكة حتى يفرغ الكلام الشعري في قوائمه التي عرفت له في ذلك المنحى من شعر العرب ويرزده مستقلاً بنفسه ثم يأتي بيت آخر كذلك ثم بيت ويستكمل القنون الوافية بمقصوده ثم يناسب بين البيوت في مواضعها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة ولصعوبة متجاده وغرابته كان محال للقرائح في استجادة أساليبه وشحذ الأفكار في تزييل الكلام في قوائمه ولا يمكن في ملكة الكلام العربي على الإطلاق بل يحتاج بخصوصه إلى تلطف ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصت العرب بها واستعمالها ولذا ذكرها سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم فاعلم أنها عبارة عن النوال الذي يتسبغ فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه ولا يرجع إلى الكلام باعتبار أفلاطونه أصل المعنى الذي هو وظيفة الأعراب ولا باعتبار إفادته كالمعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن كما يستعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وإنما يرجع إلى صورة ذهنية التراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة يتزعمها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصير هائي الخيال كالقالب أو النوال ثم ينفق التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الأعراب والبيان فيرصفها فيمرصا كما يفعلة البناء في القالب أو النسيج في النوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويضع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه فإن لكل فن من الكلام أساليب يختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة فمثل الطول في الشعر يكون بخطاب الطول كقوله * يادارمية فالعلياء فالسند * ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله * قفنا بسأل الدار التي خفت أهلها * أو باستدعاء الصحب على الطلل كقوله * قفنا بك من ذكري جيب ومزل * أو بالاستغناء عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله * ألم تسأل فتخبرك الرسوم * ومثل تحية الطول بالأمر المخاطب غير معين بتحياتها كقوله * حي الديار بخباب الغزل * أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله

أسقى طلوعهم أجش هديم * وغدت عليهم نضرة وانعم

أو سؤال السقيا لها من البرق كقوله

يا برق طالع منزلا بالبرق * واحد السحاب لها حذاء الأنيق

أو مثل التمتع في الجزع باستدعاء البكاء كقوله

كذا فليجل الخطب وليقدح الأمر * وليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وباستعظام الحادث كقوله * أرأيت من حملوا على الأعواد * أو بالتسجيل على الأكوان بالمصيبة

لفقده كقوله

منابت الشعب لأحام ولا راعي * مضى الردي بطويل الرمح والباع

أوبالانكار على من لم يتفجع لهم من الجمادات كقول الخارجية

أي شجر الخابور مالك مورقا * كأنك لم تجزع على ابن طريف

أو بهتة فريضة بالراحة من ثقل وطأته كقوله

ألقى الرماح ربيعة بن زرار * أودى الردى بقرينك المغوار

وأما ذلك كثير في سائر فنون الكلام ومذاهبه وتنظم التراكيب فيه بالحل وغير الحل انشائية وخبرية اسمية و فعلية متفقة وغير متفقة مفصولة وموصولة على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي في مكان كل كلمة من الأخرى يعرفك فيه ما تستفيد به بالارتياض في أشعار العرب من القالب الكلي المجرد في الذهن من التراكيب المعينة التي ينطق ذلك القالب على جميعها فإن مؤلف الكلام هو كالتناء أو التساج والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي يبنى فيه أو النوال الذي يسلج عليه فإن خرج عن القالب في بناءه أو عن النوال في نسجه كان فاسدا ولا تقول أن معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك لا تأقول قوانين البلاغة أغامى قواعد علمية قياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئتها الخاصة بقياس وهو قياس على صحيح مطرد كما هو قياس القوانين الاعرابية وهذه الأساليب التي نحن نقرر هالست من القياس في شئ ما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب تجربتها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل على مثاها والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك في الكلام باطلاق وان القوانين العلمية من العربية والبيان لا تفيد تعليمه بوجه وليس كل ما يصح في قياس كلام العرب وقوانينه العلمية استعماله وإنما المستعمل عندهم من ذلك أعظم معرفة يطلع عليها الخافضون لكلامهم تندرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية فإذا نظر في شعر العرب على هذا النحو وبهذه الأساليب الذهنية التي نصير كالقوالب كان نظر في المستعمل من تراكيبهم لا فيما يقضيه القياس ولهذا قلنا إن المحصل لهذه القوالب في الذهن إنما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في النثر فإن العرب استعمالوا كلامهم في كلا النوعين وجاءوا به مفسلا في النوعين في الشعر بالقطع الموازنة والقوافي القيدة واستقلال الكلام في كل قطعة وفي النثر يعتبرون الموازنة والنشابة بين القطع غالبا وقد يمتدونه بالأسجاع وقد يرسلونه وكل واحدة من هذه معروفة في لسان العرب والمستعمل منها عندهم هو الذي يبنى مؤلف الكلام عليه تأليفه ولا يعرفه إلا من حفظ كلامهم حتى يجرد في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قلب كلى مطلق يحدو حدوه في التأليف كما يحدو البناء على القالب والتساج على النوال فلماذا كان من تأليف الكلام منسندا عن نظر النحوي والبيان والعروضي نعم أن مراعات قوانين هذه العلوم شرط في لا يتم بدونها فإذا تحسنت هذه الصفات كل ما في الكلام اختص بنوع من النظر لطيف في هذه القوالب التي يسمونها أساليب ولا يفيد إلا حفظ كلام العرب نظما و نثرا وإذا شرد معنى الأسلوب ما هو فلنذكر بعده حدا أو رسا لشعر به تفهم حقيقته على صعوبة هذا القرض فأنما نقف عليه لا حدى من التقديم فيأرأينا وقول

العروضيين في جداته الكلام الموزون المقي ليس بمد هذا الشعر الذي نحن بصدده ولا رسم له وصناعتهم
 انما تنظر في الشعر باعتبار ما فيه من الاعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة فلا جرم أن عدم
 ذلك لا يصلح له عندنا فلا بد من تعريف يعطينا حقيقة من هذه الحيتية فنقول الشعر هو الكلام
 البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل
 جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري على أساليب العرب المخصوصة بقولنا الكلام
 البليغ جنس وقولنا المبني على الاستعارة والأوصاف فصل عما يغلو من هذه فانه في الغالب ليس
 بشعر وقولنا المفصل بأجزاء متفقة الوزن والروي فصله عن الكلام المنشور الذي ليس بشعر عند
 الكل وقولنا مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده بيان للحقيقة لأن الشعر لا
 تكون أبياته الا كذلك وفي فصل به شيء وقولنا الجاري على الأساليب المخصوصة بفصل له علم
 يجر منه على أساليب العرب الشعر وقت فانه حينئذ لا يكون شعرا انما هو كلام منظوم لأن الشعر له أساليب
 تخصه لا تكون لا منشور وكذا أساليب المنشور لا تكون لا شعرا فاما كان من الكلام منظوما وليس على تلك
 الأساليب فلا يكون شعرا او بهذا الاعتبار كان الكثير من لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية
 يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب عند من يرى
 أن الشعر لا يوجد لغير هوأما من يرى أنه يوجد للعرب وغيرهم من الأمم فلا يحتاج الى ذلك ويقول مكانه
 الجاري على الأساليب المخصوصة واذ قد فرغنا من الكلام على حقيقة الشعر فلنرجع الى الكلام في كيفية
 عمله فنقول « اعلم أن لعمل الشعر وأحكام صناعته شروطا أولها الحفظ من جنس أي من جنس شعر
 العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ويتخير المحفوظ من الحرالنقي الكثير الأساليب
 وهذا المحفوظ المختار أقل ما يمكن فيه شعر شاعر من الفحول الاسلاميين مثل ابن أبي ربيعة وكثير وذي
 الرمة وجريروابي نواس وحبيب والبحتري والرضي وأبي فراس وأكثرت شعر كتاب الاغانى لأنه
 جمع شعر أهل الطبقة الاسلامية كله والمختار من شعر الجاهلية ومن كان خاليا من المحفوظ فنظمه
 قاصر رديء ولا يعطيه الرونق والخلابة الا كثرة المحفوظ فمن قل حفظه أو عدم لم يمكن له شعر وانما
 هو نظم سافط واجتناب الشعر أولى ممن لم يكن له محفوظ ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحن القريحة
 للنسج على المنوال يقبل على النظم وبالاكثر منه نستحكم ملكته ونسج وربما يقال ان من شرطه
 نسيان ذلك المحفوظ لتمحي رسومه الحرفية الظاهرة اذ هي صادرة عن استعمالها بعينها فذا نسيها وقد
 تكيهت النفس بها انتقش الأسلوب فيها كأنه عنوان يأخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى
 ضرورة ثم لا بد له من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والأزهار وكذا السموع
 لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بما لاذا السرور ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جماع
 ونشاط فذلك أجمع له وأنشط للقريحة أن تأتي بمثل ذلك المنوال الذي في حفظه قلوبا وخيرا لأوقات
 لذلك أوقات البكر عند المهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر وفي هؤلاء الجماع وربما

قلوا أن من بواعثه العشق والانشاء ذكر ذلك ابن رشيق في كتاب العمدة وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وإعطاء حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله قلوا أن استصعب عليه بعد هذا كله فليتركه إلى وقت آخر ولا يكره نفسه عليه وليكن بنا البيت على القافية من أول موضوعه ونسجه ويبني الكلام عليها إلى آخره لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها في محلها فربما تجيء نافرة قلقلة وإذا سمح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذي عنده فليتركه إلى موضعه الالتيق به فإن كل بيت مستقل بنفسه ولم يبق إلا المناسبة فليتخير فيها كما يشاء وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح والتفقد ولا يضمن به على الترك إذا لم يبلغ الاجادة فإن الانسان مفتون بشعره إذ هو نبات شعره واختراع قرعته ولا يستعمل فيه من الكلام إلا الأنصح من التراكيب والخالص من الضرورات الإنسانية فليجرحها فاتها تزل بالكلام عن طبقة البلاغة وقد حذر أئمة اللسان عن المولد ارتكاب الضرورة إذ هو في سعة منها بالدول عنها إلى الطريقة التي من الملكة ويجتنب أيضا التعمد من التراكيب جيدة وإنما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فإن فيه نوع تعقيد على الفهم وإنما المختار منه ما كانت ألفاظه طيغاً على معانيه أو أوفى فإن كانت المعاني كثيرة كان حشو واستعمل الدهن بالفوضى عليها فنع الذوق عن استيفاء مدركه من البلاغة ولا يكون الشعر سهلاً إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الدهن ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعمون شعر المتنبي والمعري بعدم النسخ على الأساليب العربية كما مر فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر والخاصة بذلك هو الذوق وليجتنب الشاعر أيضاً الحوشى من الألفاظ والمقصر وكذلك السوق المتبدل بالتداول بالاستعمال فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضاً فيصير مبتدلاً ويقرب من عدم الافادة كتقوهم النار حارة والسماء فوقنا ويعقدار ما يقرب من طبقة عدم الافادة بعيد عن رتبة البلاغة إذ هما طرفان ولهذا كان الشعر في الربايات والنبويات قليل الاجادة في الغالب ولا يحدق فيه إلا الفحول وفي القليل على العشر لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتدلة لذلك وإذا تعذر الشعر بعده هذا كله فليأوده وليعاوده في القرعة فإن القرعة مثل الضرع يدر بالامتراء ويحذف بالترك والاهمال وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيق وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد ومن أراد استنباط ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البنية من ذلك وهذه بذرة كافية والله المعين وقد نظم الناس في أمر هذه الصناعة الشعرية ما يجب فيها ومن أحسن ما قيل في ذلك وأظنه لابن رشيق

لعمري صنعة الشعر ماذا * من صنوف الجهال منه لينا
يؤثرون الغريب منه على ما * كان سهلاً لسامعين مينا
ويرون الحال معنى صحيحاً * وخسيس الكلام شياً ثميناً
يجهلون الصواب منه ولا يد * رون للجهل أنهم يجهلون

فهم عند من سوانا يلامو * ن وفي الحق عندنا يعذرونا
 إنما الشعر ما يناسب في النظم * م وإن كان في الصفات فتونا
 فأني بعضه يشاكل بعضا * وأقمت له الصدور المتونا
 كل معنى أذاك منه على ما * تسمى ولم يكن أو يكونا
 فتأني من البيان إلى أن * كعاد حسنا بين الناظرينا
 فكان الالفاظ منه وجوه * والمعاني ركب فيها عيونا
 إن ما في الأرام حسب الأمان * يتحلى بحسنه المنشدونا
 فإذا ما مدحت بالشعر حرا * رمت فيه مذاهب المشتينا
 فجعلت النسب سهلا قريبا * وجعلت الدخ صدقا مبينا
 وتعليت ما يهجن في السمع * مع وإن كان لفظه موزونا
 وإذا ما عرضته بهجاء * عبت فيه مذاهب الرؤينا
 فجعلت التصريح منه دواء * وحملت التعريض داء دينا
 وإذا ما بكيت فيه على العاد * بن يوما للبين والظاعينا
 حلت دون الأسى وظلت ما كا * ن من الدمع في العيون مضمونا
 ثم إن كنت غائبا جئت بالوعاء * د وعيدا وبالصعور لنا
 فتركت التي عنت عليه * حزنا قمنا عزيزا مبينا
 وأصح التعريض ما قارب النظم * م وإن كان واضحا مسفينا
 فإذا قيل أطلع الناس ظرا * وإذا ربح أعجز المعجزينا
 ومن ذلك أيضا قول بعضهم

الشعر ما قومت ربح صدوره * وشددت بالتهذيب أس منونه
 ورأيت بالأطناش شعب صدوعه * وفتحت بالانجاز عور عيونه
 وجمعت بين قريه وبعيده * وجمعت بين محم ومعيه
 وإذا مدحت به جوادا ماجدا * وقضيت بالشكر حق ديونه
 أصفيت به بفتش ورضيته * وخصصته بخطرته وثمينه
 فيكون جزلا في مساق صنوفه * ويكون سهلا في إنشاق فتونه
 وإذا بكيت به الديار وأهلها * أجريت للمحزون ماء شؤونه
 وإذا أردت كناية عن ربه * بايقت بين ظهوره وبظنونه
 فجعلت سامعه يشوب شكوكه * يشبونه وظنونه يقيته

٤٨ فصل في أن صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني

(إعلم) أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني وإنما المعاني تتبع لها وهي أصل
 فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر إنما يحاول لها في الألفاظ يحفظ أمثالها من كلام العرب
 ليكثر استعماله وجريه على لسانه حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ويتخلص من العجمة التي رثى عليها
 في جيله ويغرض نفسه مثل وليد ينشأ في جيل العرب ويلتقن لغتهم كما يلقنها الصبي حتى يصير كأنه واحد
 منهم في لسانهم وذلك أن أقدمنا أن للسان ملكة من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها في
 اللسان حتى تحصل والتي في اللسان والذوق إنما هو الألفاظ وأما المعاني فهي في الضمائر وأيضاً فالمعاني
 موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا يحتاج إلى صناعة وتأليف الكلام
 للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو عبارة القوالب للمعاني فكأن الأواني التي يعترف بها
 الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد في نفسه وتختلف
 الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها باختلاف الماء كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال
 تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد والمعاني واحدة في نفسها وإنما الجاهل
 بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن عبارة
 المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه والله يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون

٤٩ فصل في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قد قدمنا أنه لا بد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في
 جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عند الحافظ فمن كان محفوظه شعر حبيب أو
 العناني أو ابن المعتز أو ابن هاني أو الشريف الرضي أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هارون أو ابن
 الزيات أو البديع أو الصابي تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة من يحفظ شعراً سهلاً
 من التأخرين أو ابن النبية أو ترسل البيهقي أو للعباد الأمهاني لزول طبقة هؤلاء عن أولئك يظهر
 ذلك البصير الناقد صاحب التدقيق وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من
 بعده ثم إجابة الملكة من بعدهما فيقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الملكة الحاصلة لأن الطبع
 إنما ينسخ على منوالها وتنمو قوى الملكة بتغذيتها وذلك أن النفس وإن كانت في جبلتها واحدة بالنوع
 فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الإدراكات واختلافها إنما هو باختلاف ما يرد عليها من
 الإدراكات والملكات والألوان التي تكفيها من خراج فبهذه يتم وجودها وتخرج من القوة إلى الفعل
 صورتها والملكات التي تحصل لها إنما تحصل على التدرج كما قنعناه فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر
 وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع والترسيل والعلمية بمخالطة العلوم والإدراكات والأبحاث والأقطار
 والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتشريعها وتخرج الفروع على الأصول والتصوفية الربانية
 بالعبادات والأذكار وتعطيل الخواص الظاهرة بالخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع حتى تحصل

للملكة الرجوع الى حسه الباطن وروحه ويقلب ربانيا وكذا سائرهما وللنفس في كل واحد منها
 لون تتكيف به وعلى حسب ما تشأت الملكة عليهم جودة أو رداءة تكون تلك الملكة في نفسها
 فلكة البلاغة العالية الطبقة في جنبها انما تحصل بحفظ العالي في طبقته من الكلام ولهذا كان الفقهاء
 وأهل العلوم كلهم قاصرين في البلاغة وما ذلك الا لما يسبق الى محفوظهم ويعتلى به من القوانين العلمية
 والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنزلة عن الطبقة لان العبارة عن القوانين والعلوم
 لاحظ لها في البلاغة فاذا سبق ذلك المحفوظ الى الفكر وكثر وتوالت به النفس جاءت الملكة الناشئة
 عنه في غاية القصور وانحرفت عبارته عن أساليب العرب في كلامهم وهكذا تجد شعر الفقهاء والنحاة
 والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يعتلى ممن حفظ النقي الحر من كلام العرب أخيراً صاحبنا الفاضل
 أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرفقة قل اذا كرت يوماً صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب
 السلطان أبي الحسن وكان المقدم في البصر باللسان لعمده فانشده مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسها له
 وهو هذا

لم أدر حين وفقت بالاحلال * ما الفرق بين جديدها والبالى

فقال لي على البديهة هذا شعر فقيه فقلت له ومن أين لك ذلك قل من قوله ما الفرق اذه من عبارات
 الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب فقلت له قد أبوك أنه ابن النحوي وأما الكتاب والشعر اذهبوا
 كذلك لتخبرهم في محفوظهم ونالطهم كلام العرب وأساليبهم في الترسيل وانتقامهم له الجيد من الكلام *
 ذا كرت يوماً صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزير الملوك بالاندلس من بني الأحمر وكان الصدر
 المقدم في الشعر والكتابة فقلت له أجد استصعاباً علي في نظم الشعر متى رمت مع بصري به وحفظي
 لتجيد من الكلام من القرآن والحديث وقئون من الكلام العرب وإن كان محفوظي قليلاً
 وإنما أتيت والله أعلم من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية فاني حفظت
 قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراءات وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والاصول
 وجل الخونجي في المنطق وبعض كتاب التفسير وكثير من قوانين التعليم في المجالس فامتلاً محفوظي من
 ذلك وخدش وجه الملكة التي استعدت لها بال محفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب فعاق
 الشريعة عن بلوغها فظفر إلى ساعة معجبا ثم قال شئت وهل يقول هذا إلا مثلك وبظير لك من هذا
 الفصل وما تقرر فيه سر آخر وهو إعطاء السبب في أن كلام الاسلاميين من العرب أعلى طبقة في
 البلاغة وأدواقها من كلام الجاهلية في متشورم ومنظومهم فانا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي
 ربيعة والخطيب وجبريل والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والأحوص وبنو السلف
 من العرب في الدولة الأموية وصدر من الدولة العباسية في خطبهم وترسيلهم وعاوراتهم للملوك أرفع
 طبقة في البلاغة من شعر النابغة وغنيرة وابن كلثوم وزهير وعلمقة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن
 كلام الجاهلية في متشورم وعاوراتهم والطبع السليم والدوق الصحيح شاهدان بذلك الناقد البصير

بالبلاغة والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الاسلام جمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث الذين عجز البشر عن الاتيان بمثلهما لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها غوسهم فنهضت طباعهم وارتفعت مفكاتهم في البلاغة على مفكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن دياحة وأسمى روثا من أولئك وأوصف مبني وأعدل تنقيفا بما استفادوه من الكلام العالي وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل التدقيق والتبصر بالبلاغة وقد سألت يوما شيخنا الشريف أبا القاسم قاضي غرناطة لعهدنا وكان شيخ هذه الصناعة أخذ بيته عن جماعة من مشيختها من تلاميذ الشلوين واستبحر في علم الإنسان وجاء من وراء الغاية فيه فقلت يومئذ ما بال العرب الاسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين ولم يكن فيمنكر ذلك بذوقهم فكنت طويلا ثم قال لي والله ما أدري فقلت أعرض عليك شيئا ظهر لي في ذلك ولعله السبب فيه وذكرته لهذا الذي كتبت فسكت معجبا ثم قل لي بالحقية هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب وكان من بعدها يؤثر على ويصيح في عباس التعليم إلى قولي ويشهد لي بالباهة في العاوم والله خلق الإنسان وعلمه البيان

٥٠ فصل في رفع أهل المراتب عن انتحال الشعر

(اعلم) أن الشعر كان ديوانا العرب في علومهم وأخبارهم وحكمهم وكان رؤساء العرب منافسين فيه وكانوا يفتنون بسوق عكاظ لأنشاده وعرض كل واحد منهم دياحته على خول الشأن وأهل البصر لتمييز حوله حتى انتهوا إلى المناغاة في تعليق أشعارهم تاركين البيت الحرام موضع حجيم وبيت إبراهيم كافل امرؤ القيس بن حجر والنايعة الديباني وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والاعشى من أصحاب المعلقات السبع وغيرهم فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومهم وعصبيته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات ثم انصرف العرب عن ذلك أول الاسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة واثروا وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكنوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملقوم ينزل الوحي في تحرير الشعر وحفظه وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأتاب عليه فرجعوا حينئذ إلى دينهم منه وكان لعمر بن أبي ربيعة كبير قريش لذلك العهد مقامات فيه عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيرا ما يعرض شعره على ابن عباس فيقبض لاستماعه معجبا به ثم جاء من بعد ذلك الملوك والسلافة العزيزة وتغرب إليهم العرب بأشعارهم ويمتدحونهم بها ويحيزهم الخلفاء بأعظم الجوائز على نسبة الجودة في أشعارهم ومكانهم من قومهم ويخرون على استبداء أشعارهم يطلعون منها على الآثار والأخبار واللغة وشرف الإنسان والعرب يظالبون ولدهم بحفظها ولم يزل هذا الشأن أيام بني أمية وصدر من دولة بني العباس وانظر ما نقله صاحب العقد في مسامرة الرشيد للأصمعي في باب الشعر والشعراء تجد

ما كان عليه الرشد من المعرفة والرسوخ فيه والعناية باستحاله والتبصر بحيد الكلام ورديته وكثرة
عفو غلظه منه ثم جاء خلق من بعدهم لم يكن اللسان لسانهم من أجل العجمة وتقصيرها باللسان وإنما علموه
صناعة ثم مدحوا بأشعارهم أمراء العجم الذين ليس اللسان لهم طالين معروفيهم فقط لاسوى ذلك من
الأغراض كأفعله حبيب والبحتري والفتني وابن هاني ومن بعدهم إلى علم جرا فصار غرض الشعر في
الغالب إنفاؤه والكذب والاستجداء لذهاب النافع التي كانت فيه فلاولين كاذكرناه آثما وأنف منه
لذلك أهل العلم والمراتب من المتأخرين وتغير الحال وأصبح تعاطيه هجنة في الرئاسة ومذمة
لأهل المناصب الكبيرة والله مقلب الليل والنهار

٥١ ﴿ فصل في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد ﴾

(إعبر) أن الشعر لا يختص باللسان العربي فقط بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية أو صينية وقد
كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكر منهم أرسطو في كتاب المنطق وأومير ومن الشاعر وأثنى
عليه وكان في حمير أيضا شعراء متقدمون ولما فسد لسان مصر وانتهى إلى دولت مقاييسها وقوانين
أعراسها وفست اللغات من بعد بحسب ما خالطها وما زجها من العجمة فكانت تحيل العرب بأنفسهم لغة
خالفت لغة سلفهم من مضر في الأعراب جملة وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات وكذلك
الحضر أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الأعراب وأكثر الأوضاع والتعاريف
وخالفت أيضا لغة الحيل من العرب لهذا العهد واختلقت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق
فلاهل الشرق وأمصار دلة غير لغة أهل المغرب وأمصاره وتخالفتها أيضا لغة أهل الأندلس وأمصاره
ثم لما كان الشعر موجودا بالطنج في أهل كل لسان لأن الموازين على نسبة واحدة في أعداد التحرركات
والسواكن وتماثلها موجود في طياع البشر فلم يجر اشعر بغفدان لغة واحدة وهي لغة مضر الذين
كانوا أحفاده وفرسان ميدانه حسبما اشتهر بين أهل الخليفة بل كل جيل وأهل كل لغة من العرب
المتعجمين والحضر أهل الأمصار يتعاطون منه ما يظاوعهم في استحاله ورصف بنائه على ميسر كلامهم
فاما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر
الأغراض على ما كان عليه سلفهم الشعريون ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه
من النسيب والدح والرتاء والهجاء ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام ويرعاها جمعا
على المقصود لا أول كلامهم وأكثر ابتدائهم في قصائد باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون فأهل أمصار
المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعي ورواية العرب في أشعارهم وأهل
الشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر باليدوي وروعايلحنون فيه ألقانا بسيطة لا على طريقة
الصناعة الموسيقية ثم يفتنون به ويسمون الغناء به باسم الحوران نسبة إلى حوران من أطراف العراق
والشام وهي من منازل العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم

يحيون بمعية على أربعة أحرار يخالف آخرها الثلاثة في رواية ويلزمون النافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة شبيها بالرابع والخميس الذي أحدثه التأخرون من المولدين ولهذا العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول والتأخرون والكثير من المنحطين تابعون لهذا العهد وخصوصا علم اللسان يستكر هذه الفنون التي لهم إذا سمعها أو سمع نظمهم إذا أشد ويعتقد أن ذوقه إغناء عنها لاستهجانها وققدان الأعراب منها وهذا إغناءني من فقدان الملكة في لغتهم فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه بلاغتها إن كان سليما من الآفات في فطرته ونظيره والأفلا عراب لا مدخل له في البلاغة إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولتقتضي الحال من الوجود فيه سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب دالا على المفعول أو بالعكس وإغناء يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو لغتهم هذه فلا دلالة بحسب ما يفتخرون به إلى أهل الملكة فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحت الدلالة وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومتقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الأعراب في أواخر الكلام فإن غالب كتابهم موقوفه الآخر ويتميز عندهم الفاعل من المفعول ويشهد من الخبر بقرائن الكلام لا يحر كات الأعراب فمن أشعارهم على لسان الشريف بن هاشم يكي الجازية بنت سرحان ويذكر ثلثها مع قومها إلى المغرب

قال الشريف بن هاشم على	ترى كيدى حرى شكت من زفيرها
يمز لأعلام أين مارأت خاطري	برد أعلام البدو يلقي عصيرها
وماذا شكاة الروح مما طرى لها	عذاب ودائع تلف الله خيرها
بحسن قطاع عامري ضميرها	طوى وهند جافى ذكرها
وعادت كما خواردة في يد غاسل	على مثل شوك الطلع عشقوا يسيرها
تجابدوها اثنين والزرع بينهم	على شول لعه والعاقي جريرها
وبانت دموع العين ذارفات لشأنها	شبه دوار السواني يديرها
تدارك منها الجهم حنرا ورادها	مروان يحيى مشركا من صيرها
لعب من القيعان من جانب الصفا	عيون ولحان البرق في غدیرها
ها أيقنى منى سنايلت غدوة	يقداد ناحت منى حتى فقيرها
ونادى المنادى بالرحيل وشدهوا	وعرج غاربها على مستعيرها
وشد لها الأدم دياب ابن غنم	على يد ماضى وليد مقرب ميرها
وقال لهم حسن ابن سرحان غريوا	وسوقوا النجوع إن كان تاهوا تخيرها
ويدلح وسده سها بالتامح	وباليمين لا تجحدوا في صغیرها
غدوني زمان الفصح من عابس الوغي	وما كان يرمى من حمير وميرها
غدوني وهو زعما صديق وصاحي	وناليه مامن درى ما يدیرها

ورجع يقول لهم بلاد ابن هاشم * خير البلاد العطشة ما يحيرها
 حرام على باب بغداد وأرضها * داخل ولا غائده من غيرها
 فصدق دري من بلاد ابن هاشم * على الشمس أو حول العظام من حجرها
 وباتت نيران العذارى قوادح * فجروا بحر حن فيروا أسيرها
 (ومن قولهم في رثاء أمير زنادة أبي سعدى البكري مقارنهم بأفريقية وأرض الزاب ورتاؤهم
 له على جهة التكم)

تقول فتاة الحلى سعدى وهاضها * لها في ظنون الباكين عويل
 أيا سألني عن قبر الزناني خليفة * خذ النعت متى لا تكون هبيل
 تراه العالى الواردات وفوقه * من الربط عيسوى بناء عويل
 وله يميل الغور من سائر النقا * به الواد شرق والبراع دليل
 أيا هلف كبدي على الزناني خليفة * قد كان لاعتقاب الجياد سيل
 قتيل فتى الميحا دياب بن غانم * جراحه كأفواه المزد تيل
 ياجلونا مات الزناني خليفة * لا ترحل إلا أن يريد رحيل
 وبالأشمس رحلتك ثلاثين مرة * وعشروا وستا في النهار قليل
 (ومن قولهم على لسان الشريف بن هاشم يذكر حنابا وقع بينه وبين ماضى بن مقرب)
 تبدى لى ماضى الجياد وقال لى * أيا شكر ما الحناشى عليك رضاش
 أيا شكر سعدى مابق ود بيتنا * ورانا عريب عربا لأبسين غاش
 نحن عدينا فصادقوا ما قضى لنا * كما صادفت طعم الزناد طماش
 باعدنا يا شكر عدى لبري سلامة * لنجد ومن عمر بلاد غاش
 إن كانت بنت سيدهم بأرضهم * هي العرب ما ردن لمن طياش
 (ومن قولهم في ذكر رحلتهم إلى الغرب وغلهم زنادة عليه)

وأني جميل ضاع لى في ابن هاشم * وأني جميل ضاع قبلى جميلها
 أنا كنت أنا وياه في زهو بيتنا * عناني لحجه ما عناني دليلها
 وعدت كآنى شارب من مدامة * من الحمر قهوة ما قدر من جميلها
 أومثل شحط مات مضبون كبدها * غريبا وهي مدوخة عن قبيلا
 أتاها زمان السوء حتى ادوخت * وهي بين عرب غافلا عن زيلها
 وكذلك أنا لما لحاني من الوحى * شاكي بكيد باديا من عليها
 أمرت قوى بالرحيل وبكروا * وقووا وشداد الحيوايا جميلها
 فعدنا سبعة أيام محبوس نجعنا * والبسو ما نرفع عمود يقيلا

تظل على إحداث الثنايا سوارى * يفضل الحر فوق التصاوي نصيبها
(ومن شعر سلطان بن مظفر بن يحيى من الزواودة أحد يطلون وياح وأهل الرياسة فيهم
يقولها وهو معتقل بالمدينة في سجن الأمير أبي زكريا بن أبي حفص أول ملوك الأفرنجية من الموحدين)

يقول وفي نوح الدجا بعد ذهبة * حرام على أجفان عيني مناهيا
أيا من لقي حالف التوجد والأسي * وروحا هياي طاق مافي سقاها
حجازية بدوية عربية * عداوية ولها بعيدا مرأيا
مولعة باليدو لأتائف القرى * سواها بل الوعسا بوالى خيامها
عمان ومشها بها كل سرية * محبوة بها وهى صحيج غرامها
ومراعيها عشب الأراضى من الحيا * لو أني من الحور الطلايا حساها
نسوق بسوق العين ثما تداركت * عليها من السحب السوارى غمامها
وماذا بك يا لها وماذا بلحظت * عيون عذارى الزن عذابا جماما
كان عروس البكر لأحت نياها * عليها ومن نور الأناحي حزامها
فلاة ودهنا وانساع ومنة * ومرعى سوى مافي مراعى نعامها
ومشروبها من غضى ألبان شولها * عليهم ومن لحم الحواري طعماها
نعائب على الأبواب والموقف الذى * يشيب الفنى مما يقاسى زحامها
سقى الله ذا أنوادى الشجر بالحيا * وبلا ويحيى مايلي من زمامها
فكفأتها بالود منى وليتى * ظفرت بأيام مضت فى ركامها
ليالى أقواس الصبا فى سوا عدى * إذا قت لاخطى من أيدي سبامها
وفرسى عديدة تحت سرجي مسافة * زمان الصبا سرجا ويدي لجامها
وكم من رداح أسهرتني ولم أرى * من الخلق أبهى من نظام ابتسامها
وكم غيرها من كاتب مر حجة * مطرزة الأجنان باهى وشامها
وصفقت من وجدى عليها خرقة * بكى ولم يسق جدامها دعامها
ونار بخطب التوجد توهج فى الحشا * وتوجج لايطفأ من الماء ضرامها
أيا من وعدنى الوعد هذا إلى منى * فنى العمر فى دار عمانى ظلامها
ولاكن رأيت شمس تكسف ساعة * ويقضى عليها ثم يبري غمامها
بنود ورايات من السعد أقلت * إلينا يعون الله يهجو علامها
أرى فى القلا بالعين أظمان غزوتي * ورعى على كتنى وسبرى أمامها
يجرعا عناق النوق من عود شامت * أحب بلاد الله عندي حشامها
إلى منزل بالجعفرية للذي * مقيم بها مائة عندي مقامها

ونلقى سراً من هلال بن عامر يزيل القدا والفيل عنى سلامها
 بهم تضرب الأمثال شرقاً ومغرباً إذا قتلوا قوماً سريع انهزامها
 عليهم ومن هو في حمام تحية من الدهر ماغنى بقية حمامها
 فدع ذا ولا تأسف على سالف مضي ترى الدنيا ما دامت لا تجد دواءها
 (ومن أشعار المتأخرين منهم قول خلد بن حمزة بن عمر شيخ السكوب من أولاد أبي الليل يعاتب
 أقاتهم أولاد مبلل ويحيب شاعرهم شبل بن مسكينة بن مبلل عن أبيات نشر عليهم فيها بقوله)

يقول وذا قول العصاب الذي نشأ قوارع قيعان يعانى صعبها
 يريح بها حدى العصاب إذا اتقى فنونا من إنشاد القوافى عرابها
 محبرة مختارة من نشادنا نخدى بها تام لوشا ملثابها
 مغرلة عن ناقد فى غضوننا حكمة القيعان دابى ودابها
 وهيف تذكاري لها ياذوى الندى قوارع من شبل وهذى جوابها
 أشبل جنينا من جبالك طرائفا فراح يريح الموجهين الفنا بها
 غرت ولم تقصر ولا أنت عادم سوي قلت فى جمهورها ما أغابها
 لقولك فى أم التين بن حمزة وحامى حماها عادي فى حرابها
 أما تعلم أنه قلبا بعد مالى رصاص بنى يحى وعلاق دابها
 شهاباً من أهن الأمر يا شبل خارق وهل رأيت من جبالوغى واصطلى بها
 شواهد طفاها أضمرت بعد طيفه وأتينا طفاها حاسر إلا أهابها
 وأضرم بعد الطيفتين التى صحت ناعسا الى بيت أنى يفدى بها
 كما كان هو يطلب على ذا تجبت رجال بنى كعب الذى يتق بها

ومنها فى العتاب

وليدا تعاتبوا أما أغنى لائى عنت بعلاق الشا واغتصابها
 على وما تدفع بها كل مبضع بالأسياق نتاش العدا من رقابها
 فإن كانت الأملاك بغت عرايس علينا بأطراف القنا اختصابها
 ولا تفرها الأرهاف ودبل وزرق السايا والمطايا ركابها
 بنى عمنا ما نرقضى اللث علة نبركاً أسنة الخناش إنسابها
 وهى غللا بأن المنايا تقيلها بلا شك والدنيا سريع انقلابها

ومنها وصف الظعائن

يظعن قطوع اليد لا تخشى العدا فتوق بعربات غنوف جناها
 ترى العين فيها قل لشبل عرائف وكل مهات محتظيها ربابها

تري أهلها غب الصياح يغلبها بكل حلوب الجوف ماسد بأبها
لها كل يوم في الأرامى قتائل ورا الثاجر الممزوج غنوا صباها
ومن قولهم في الأمثال الحكيمية

وطيبك في المنوع منك سفاهة وصدك عن صد عنك صواب
إذا رأيت ناسا يفتقوا عنك بأبهم ظهور المطايا بفتح الله باب

ومن قول شبنم ذكر انتساب الكموب إلى برجم

فشايب وشباب من أولاد برجم جميع البرايا تشكي من ضهادها

ومن قوله يعانب إخوانه في موالاة شيخ الموحدين أبي محمد بن تافرا كين السبق بحجاية السلطان
بقوس على سلطانها مكفولة أبي إسحق بن السلطان أبي يحيى وذلك فيما قرب من عصرنا

يقول بلا جمل حتى الجود خلة مقالة جيران بذهن ولم يكن
مقالة حيران بذهن ولم يكن مقالة جيران بذهن ولم يكن
تحدث معنا بها لا حاجة وليت بها كبدى وهي نعم صاحبه
تفوهت بأدى شرجيا عن مأرب بن كعب أدنى الأقربين لدعنا
جري عند فتح الوطن منا العضم وبعضهم ملنا له عن خصيمة
وبعضهموا مرعوب من بعض ملكتنا وبعضهموا جانا جرجا سمعت
وبعضهموا نثار فينا بسوة رجع ينتهي مما سفها فيسحة
وبعضهموا شاكي من أوغاد قادر فصماه عنه واقضى منه مورد
ونحن على دافى السد انقلب العلا وحزنا حمي وطن بترسيس بعدما
وميد من الأملاك ما كان خارجا ردد قروم من قروم قبيلنا
جربناهم عن كل تأليف في العدا إلى أن عاد من لا كان فيهم مهمة
وركبوا السبايا الشعنات من أهلها

مقالة قوال وقتل صواب هرجا ولا فيما يقول ذهاب
ولا هرج يتعاد منه معاب حزينة فكر والحزين يصاب
جرت من رجال في القبيل قراب بنى عم منهم شايب وشباب
مناجات ود واتساع حجاب كما يملوا قولى يقب صواب
حزانا وفي جو الضمير كتاب خواطر ما للزليل وهاب
تعبناه حتى مانعا به ساب مرارا وفي بعض الرار بهاب
غلق عنه في أحكام السقائب باب على كره مولى البالي ودياب
لهم ما حططن للفجور شباب نفقنا عليها سينا ورقاب
على أحكام وإلى أمرها له ناب بنى كعب لأونها الغريم وطاب
وقنا لهم عن كل قيد متاب ربها وخيراته عليه نصاب
ولبسوا من أنواع الحرير ثياب

وساقوا المطايا بالنسر إلا نسوا له
وكبوا لمن أنصاف السماء ذبحوا
وعادوا فنتير الم مكبين قد را
وكانوا لنا درعا لكل ميمة
حلوا الدار في جنح الظلام ولا أنشوا
كسوا الحلى جلباب المهمل لستره
كذلك منهم حارس ما فرى النبا
يظن ظنونا لوى نحن بأعقابها
خطا هو ومن وأنت في سوطنة
فوا غرونى إن الفنى بو محمد
ورحت الأوتد منه ويحبوا
حروا بطلبوا تحت السحاب شرار
وهو لو عظمى ما كان ليرأى عارف
وان نحن ما فستأمنوا عنه راحة
وان ماو حاريس يضيق وسعها
وانه منها عن قريب مفاصل
وعن فانتات الطرف يس عوان
بته اذا تاهوا ويصعبوا اذا صبا
يظنوه من عدم اليقين وربما
هم حاز له ذمه وطوع أو امر
حرام على ابن تافرا كين ماضى
وان كان له عقق رجيع وفطنة
وأما البدا لا بدعها من ذبا عل
يحمى بها سوق علينا سلاعه
وعسى غلام طالب ربح ملكنا
أيا واكئين اخبر تبموا إدامه
ومن شعر على بن عمر بن ابراهيم من رؤساء بني عامر لهذا العهد أحد يطاون رغبة يعاتب بنى عمه
المتطاولين إلى رياسته

عمرة كالقمر في يد حنان
أباحتها منها فيه أسباب ماضى
غدا منه لأم الحلى حين والشمعت
إذا كان في سلك الحرب نظام
وشاء تبارك وانضمون تمام
عصاها ولا صبتا عليه حكم

ولكن ضميري يوم بان به ليليا
ولا كابر اس النيامي قواوح
ولا لكان القلب في يد قابض
لما قلت سم من شفا اليبين رلاني
أياربوع كان بالأمس غمر
وغد تداني لبعطا في ملاعب
ونم يشوق الناظرين الحماما
وعرود ياسيا لدعوا السربا
واليوم ما فيها سوى اليوم حولها
وقفنا بها ضورا نوبلا نسلها
ولا صحت منها سوى وحش خطري
ومن بعد ذا ندى غسور يو على
وقبوا له يابو الوفا كلح رأيك
رواخر ما تنقاس بالعود إنا
ولا فستوا فيها قياما بدلك
ومنا على علكك في ورودها
أبا عروة ركبوا ضلالة ولالم
الاعناق لو نرى كيف رأهم
حلوا القنا يبعون في مرقب العلا
وحق النبي وأثبت وأركانه العلى
لبر الالبالي فيه إن طالت الحيا
ولا برها تبي البوادي عواكف
وكل مافة كالدياء عام
وكل كيت يكتصض غش نايه
وتحمل بنا الارض العقيمة مدة
بالإبطان والقود الهجان وبالقنا
تجعدني وأنا غفد تشودها
ونحن كأضرام شوافق بنجكم
متى كان يوم القحط بأمر أبو على
كذلك بوحد إلى اليسر ابعنه
وخل رجلا لا يرى الضيم جارم

تبرم على شولة القناد برام
وبين عواج الكاشات ضرام
أنام بتشار الفطع غشام
إذا كان بنادي بالفرار وخام
يحي وسطه والقطين لاسام
دجى الليل فيهم ساهر ونيام
لنا ما بدا من مبرق وكظام
وإطلاق من سرب المها ونعام
يروح على إخالل قنا وحام
نعمن سخيفا والدعوع سجام
وحضني من آسياب عرفت أوقام
سلام ومن بعد السلام سلام
دعتم بتورا غمقات دعام
قنا سيلان على القضا وأكام
وليس البهور الظاميات نعام
من الناس عدمان العقول للام
قرار ولا دنيا لمن دوام
مشي صراب ملهق تمام
مواضع ماها قم بمقام
ومن زارها في كل دهر وعام
يدوقون من حط الكاع مدام
يكل رديني مطرب وحسام
عليها من أولاد الكرام غلام
يظل يتصارع في العنان لحام
ونولانا من كل شيق كظام
لها وقت وجنات الدور زحام
وفي سن رمي للحروب غلام
حق يقاصوا من ديون غرام
يلقى سعيا طارن قددام
وخل الجياد العاليات نسام
ولا يجمعوا بدهي العدو زمام

إلا يقيموها وعقد بؤسهم وهو غدير غشه دائما ودوام
وكما نازل عليها على الدمو سابق ما بين صحاحيج وبين حمام
ففي ناز قضاير الصوى يومنا على لنا أرض ترك للظاعنين زمام
وكما ذابحوا أثرها من غنيمة حليف الشا فشاغ كل غيام
وإن جاء خافوه الملوك ووسعوا غدا طمعه بجدي عليه قيام
عليكم سلام الله من لسن فام ماغنت الورق وناح حمام
ومن شعر عرب نمر بنو اسحق حوران لا امرأة قتلت زوجها شغفت إلى أخلافه من قبس نغمهم بطلب
نارده تقول

تقولى قناه الحي أم سلامه بعين أراء الله من لارنى لها
نيت بطون الابل متألف السكرى موجه كان الشا في مجالها
على ما جرى في دارها وبو غياها بلحظة عين البين غير حالها
فقدنا شهاب الدين يا قيس كلبي وغتوا عن أخذ الاز ما دامها
أنا قلت إذا ورد الكتاب يدرفى ويرد من نيران قلبي ذابها
أنا حين تسرع الفوائب والنجى ويص العذارى ما حينوا رجليها

في الموشحات والأزجال الأندلسي

وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قلوبهم ونهبت مباحيه وفنونه وبلغ التمتع فيه الغاية
استحدث المتأخرون منهم فتمنعهم به بانو شعير غلموه أسماها أسماها وأغصانا أغصانا يكثر منها
ومن أغار يضا المختلعة ويسمون المتعددها يثا واحد ويلتزمون عند قوافي تلك الأسمان وأوزانها
متاليفا بعد إلى آخر القطعة وأكثر ما تنقضي عندهم إلى سبعة أبيات ويشتمل كل بيت على أغصان
عندها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون فيها وعدحون كما يفعل في القصائد ونحوها وفي ذلك إلى
الغاية واستظرفه الناس حملة الحاجة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه وكان اختراع لها بحزيرة
الأندلس مقدم من معاصر الفريرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد اللرواني وأخذ ذلك عنه أبو عبد
الله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ولم يظهر لها مع التأخرين ذكر وكسدت موشحاتها فكان
أول من رجع في هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعصم من صناديق صاحب المربة وقد ذكر الأعلام
البطليوسي أنه سمع أبا بكر بن زهير يقول كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله

بدرتم شمس ضحي * غصن قدامك شم * ما أتم ما أوضحا

ما أورد * ما أتم * لا جرم من لها * قد عشقا قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصره الذين كانوا في زمن الضوائف * وجاء مصليا خلفه
منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة فولوا وقد أحسن في ابتدائه في
موشحته التي طارت له حيث يقول

المود قد تزنم * بأبيدع تلحين * وسنت المذائب * رباح البساتين

وفي انتهائه حيث يقول

تخطر ولا تسلم * عسانا المأمون مروج الكفائب * يحيى بن ذى النون
ثم جاءت الخلية التي كانت في دولة المشرقيين فظهرت لهم البدائع وسابق فرسان خليتهم الأعمى
الطليطلي ثم يحيى بن بقر وللطليطلي من الموشحات المهدية قوله
كيف السبيل إلى * صبرى وفي العالم أشجان والركب في وسط الفلا * بالخر والتواغم قدبان
وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالاندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين
اجتمعوا في مجلس بأشبيلية وكان كل واحد منهم اصطحب موشحة وتأنق فيها فتقدم الأعمى الطليطلي
للانشار فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله

ضاحك عن حمان * سافر عن در ضاق عنه الزمان * وحواء صدرى
صرف ابن بقر موشحته وتبعه الباقرين وذكر الأعمى الطليطلي أنه سمع ابن زهير يقول ما حدثت
قط وشاحا على قول إلا أن بقر حين وقع له

أما ترى أحمد * في عهده العاقب لا يلحق أطلعه الغرب * فأرانا مثله يامشرق
وقال في عصرهما من الوشاحين الطليطلي عين أبو بكر الأبيض وكان في عصرهما أيضا الحكيم أبو بكر
ابن باجة صاحب التلاحين المعروفه ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس قدومه ابن تيفلوت صاحب
سرقطة فالتقى على بعض قيناته موشحته

جور الذبال أيما جر وصل الشكر منك بالشكر
فطرب المدوح لذلك فلما ختمها بقوله

عقد الله راية النصر لأمير العلا أي بكر

فلما طرقت ذلك التلحين سمع ابن تيفلوت صاحب واطرباه وشق ثيابه وقال ما أحسن ما بدأت وما ختمت
وحلف بالأيمان الغلظة لا يمشی ابن باجة إلى داره إلا على الذهب شفاف الحكيم سوء العاقبة فلما ختمت بأن جعل
ذهبا في نعله ومشي عليه وذكر أبو الخطاب ابن زهير أنه جرى في مجلس أبي بكر بن زهير ذكر أبي بكر
الأبيض الوشاح المتقدم الذكر فغضب منه بعض الحاضرين فقال كيف تغضب ممن يقول

ما لدنى شرب راح على رياض الأقالح لولا هضم الوشاح

إذا أتى في الصباح أو في الأصيل أنحى يقول

ما شمسول لظمت خدي ولشمسـال

هبت فإلى غصن اعتدال ضمه بردى

مما أبان القلوبا يغشي لنا مستريا بالحظه ردوبا

ويألمه الشيبا برد غليل صب عليل

لا يستحيل فيه عن عهدى ولا يزال

في كل حال يرجو الوصال وهو في الصد

واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة النواحين محمد بن أبي الفضل ابن شرف الدين قال الحسن بن دويدة رأيت

حاتم بن سعيد عن هذا الافتتاح شمس قزيت بدرا راح ونديم
وابن يبرودس الذي له يايلة تؤود السعد والله عودي
وابن موهل الذي له ما العيد في حلة وطلاق وشم وخب
وابنا العيد في التلاق مع الحبيب

وأبو اسحاق الرومي قال بن سعيد سمعت أبا الحسن بن سهل بن مالك يقول أنه دخل على بن زهير وقد أسن
وعليه ذي البادية إذا كان يسكن بحمص أسن في يعرفه مجلس حيث انتهى به المجلس وجرت المحاضرة
فأشبه نفسه موشحة وقع فيها

كحل الذي يجري من مثلة الفجر على الصباح
ومعصم النهر في حلق خضر من الطاح

فتحدث ابن زهير وقال أنت تقول هذا قل اختبر قل ومن تكون فعرفه فقال ارتفع فوالله ما عرفتك قال ابن
سعيد وسابق الخيلة التي أدركت هؤلاء أبو بكر بن زهير وقد شرفت موشحاه وغربت قل وسمعت أبا
الحسن سهل بن مالك يقول فيل لا من زهير لو قيل لك ما أبيع وأرفع ما وقع لك في التوشيح قل كنت أقول

مالك مونه من سكر لا يفيق ياله سكران
من غير حمر مالك كيب الشوق يندب الأوتان
هل استعاد أيمنا بالخليج وليالينا
أو نستفاد من النسيم الأريج منك دارينا
والد يكفاد حسن المكان الهيج أن يجينا
ونهر تلك دوح عليه أنيق موزق فينا
والماء يجري وعظيم وغريق من حتى الرخان

واشتهر بعده ابن حيون الذي له من الرجل المشهور قوله

نفوق بينهم كل حين عايب من ياء وعين
علقت مليح علت رامي فليس يخل ساع من قتال
وينشد في القصيد ويعين يدي العين منامي ما يعمل فينا يدي الثبات
واشتهر معها يومئذ بفرانها المبر من الفرس قال بن سعيد
ولما سمع ابن زهير قوله

له ما مكان من يوم بهيج نهر حمص على تلك المروج
ثم اعتطفنا على فم الخليج نفص من الحتام
عن عبيد والدم ورد لا ميل يطوبه كف الظلام

قال ابن زهير كنا نحن عند هذا الرداء وكان معه في بلد مطرف أخبر ابن سعيد عن والده أن خطر فهدا

دخل على ابن الفرس فقام له وأكرمه فقال لا تفعل فقال ابن الفرس كيف لا أقوم لمن يقول

قلوب مصائب * بألحاذ نصيب * فليس كيف يبق بلا وحد

وبعد هذا ابن جرمون برسية * ذكر ابن الراسين أن يحيى الخزرجي دخل عليه في غلبه فأفنده
موشحة لنفسه فقال له ابن جرمون لا يكون الموشح بموشح حتى يكون غاربا عن التكلف قال
على مثل ماذا قل على مثل قولي

ياهاجري هل إلى أوصال منك سبي

أو هن ري عن هو الساني قلب العليل

وأبو الحسن سهل بن مالك بغير نامة قبا بن سعيد كان والذي يعجب بقوله

إن سبل الصباح في الشرف عاد بحرا في أجمع الأفق

فتداعت نوادب الورق أزواها خافت من الفرق

فبكت سحرة على لورق.

وأشهر بأشبهية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل قال ابن سعيد بن أبي عمير سمعت سهل بن مالك يقول

يا ابن الفضل لك على الوشاحين الفضل هو لك

وأحسرتا زمان مضى * عشية بان الهوى وانقضى

وأفردت بالرغم لا بالرضى * وبث على جمرات الغضى

أعاقب بالفكر تلك الطلول * وألثم بالوع تلك الرسوم

قال وسمعت أبا بكر بن الصابوني يشد الأستاذ أبا الحسن الزجاج موشحاته غير مأمرة فسمعته

يقول له الله ذلك إلا في قوله

قسما بالهوى لمي حمر * مالميل المشوق من فجر

حمد الصبح ليس يطرد * مالميل فيها أغنى غد

صح مالميل أنك الأبد * أوفطعت قوادم النسر

فنجوم السماء لا تسرى

ومن موشحات ابن صابون قوله

ما حل صب ذي ضني واكتئاب * أمرضه يا ويلتساء الطبيب

عنه محبوبه باجتئاب * ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب

حفا جفوني النوم لكتفي * ثم أبكه إلا لنفقد الخيال

وذا الوصال اليوم قد غرني * منه كما شاء وساء الوصال

فشت باللائم من صدني * بصورة الحق أو بالثال

وأشهر بين أهل العمدة ابن خلف الخزاري صاحب الموشحة المشهورة

يد الأصابع قد قدحت * زناد الانوار

في مجامر الزهر

وإن هزله البجائي وله من موشحة

تقر الزمان موافق * حياك منه بانقسام

ومن محاسن الموشحات لمتأخرين موشحة ابن سهل شاعر أشعيلية وسبته من بعدها فمنها قوله

هل درى ظني اني قد سمى * قلب صب حله عن مكس
فهو في نار وضيئ مثل ما * لعبت ربح الصبا بالقبس

قد نسمع على منوالها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب لعصره وقد
مر ذكره فقال

جاد الغيث اذا الغيث هما * يازمان الوصل بالاندلس
لا يكن وصلك إلا حلا * في الكرى أو خلسة الغنفس
اذ يقول انههر أسباب النى * تنقل الخطو على مازسم
زمر بين فرادى وتني * مثل ما يدعو ثوفود الموسم
والحيا قد جفن الروض سنا * فسنا الأزهار فيه تسم
وروى النعمان عن ماء النما * كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا معلما * يزدهى منه بأهبي علبس
في ليال كسفت سر الهوى * باللهجي لولا شמוש القدر
مال نجم الكاس فيها وهوى * مستقيم السر سعد الأسد
وطر ما فيه من عيب سوى * أنه من كملح البصر
حين قد النوم منا أو كما * هجم الصبح نجوم الحرس
غارث الشهب بنا أو ربما * أثرت فينا عيون الترجس
أي شيء لا يمرى قد خلاصا * فيكون الروض قد كفى فيه
نهب الأزهار فيه الفرصا * أمنت من مكره ما تنقيه
فذا الماء تناحي والحصا * وخلا كل خليل بأخيه
تبصر انورد غيورا بدما * يكتسى من غيظه ما يكتسى
ونرى الآس لبيبا فعما * يسرق الندمع بأدنى فرس
بأهيل الحى من واد الغضى * ويقلبي ممكن أتم به
ضاق عن وحدي بكم رجب النضا * لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى * تنفذوا عائدكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا مغرما * يتلاشى نفسا في نفس
حبس القلب عليكم كرما * أفترضون خراب الحبس
ويقلبي فيكموا مقرب * بأحاديت النى وهو بعيد
قمر أطلع منه الغرب * شقوة الغرى به وهو سعيد
قد تساوى عمن ومذنب * في هواه بين وعد ووعد
ساحر المقلقة معول النى * جال في النفس مجال النفس

سدد أنفسهم وسمى ورمى بمؤادى نهبة الفترس
 ان يكن جاز وخاب الأمل ومؤاد القنب بالشوق يذوب
 فهو للنفس حبيب أول ليس في الحب محبوب ذنوب
 أمره معتمد ممتثل في ضلوع قد براها وقنوب
 حصم اللحظ بها فاحتكا لم يراقب في شعاف الأنفس
 ينصف الظلم بمن ظفعا ويجازى الي منها والمسي
 ماقلبي كما هبت صبا عاده عيد من الشوق جديد
 كان في اللوح له مكتبا قوله ان عذابي لشديد
 جلب لهم له والوصيا فهو للأشجان في جهد جديد
 لا عج في أضلعي قد أضرمنا فهي نار في هشم اليمس
 لم تنبع من مهبتي الا الدما كقاء الصبح بعد الفلج
 سلمى يا نفس في حكم القضا وأعمري الوقت برجعي ومنتاب
 وانركي ذكرى زمان قد مضى بين عتي قد نفضت وعتاب
 واصرفي القول الى المولى الرضى منهم التوفيق في أم الكتاب
 الكريم المنتهى والتمنى أسد السرح وبدر المجلس
 ينزل النصر عليه مثل ما ما ينزل الوحي بروح القدس

وأما المشاركة فالتكلف ظاهر على ما علوه من الموشحات ومن أحسن ما وقع لهم في ذلك موشحة
 ابن سنا الملك المصري اشتهرت شرقا وغربا وأولها

يا حبيبي ارفع حجاب النور * عن العذار
 تنظر السك على الكافور * في جلتار
 كللى يا سحبت تيجان الرنى بالحلى * واجعلي سوارها متعطف الجدول

ولما شاع في التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لاسلته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه
 فسجت العامة من أهل الأندلس على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها
 إعرابا واستحدثوه فنا سموه بالزجل والتزموا النظم فيه على متابعهم إلى هذا العهد فجاؤا فيه بالغرائب
 واتبع فيه البلاغة بحال بحسب اقتهم المستعجمة * وأول من أبدع في هذه الطريقة الرجلية أبو بكر بن
 قرمان وإن كانت قبله الأندلس لكن لم يظهر خلاها ولا اتسكت معانيها واشتهرت رشاقتها
 الا في زمانه وكان لعهد الملحمين وهو إمام الزجالين على الاطلاق قال ابن سعيدي رأيت أرحانه مروية
 ببغداد أكثر مما رأيتها بخواضر القرب قل وسمعت أبا الحسن بن حيدر الاشعبي امام الزجالين في عصرنا
 يقول ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قرمان شيخ الصناعة وقد خرج إلى منزله مع
 بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش وأمامهم مثال أسد من رخام يصب الماء من فيه على صفائح من الحجر
 ممرجة فقال وعريش قد قام على مكان * بحال رواق

وأسد قد اطلع ثعان * في غلظ ساق
وفتح فيه غزال النعان * فيه الفواق
وانطلق يجرى على الصفاح * وفي الصباح

وكان ابن فرمان مع انه قرطبي الدار كثير ما يتردد إلى أشبيلية ويسبب بنهرها فانفق ان اجتمع ذات
يوم جماعة من اعلام هذا الشأن وقدر كيوافى النهر للزحمة ومعهم غلام جميل الصورة من سراوات
أهل البندوبونهم وكانوا اجمعين في زورق للصيد فظموا في وصف الخالدو بدأهم عيسى البليدي فقال
يطمع بالخلاص قلبي وقد فأتو * وقد نسوا عصفو بسهاؤ
تراه قد حصل مسكين حملاؤ * فطلق ولذات أمر عظيم ما بانو
نوحس الجفون الكحل اذا عأتو * وذلك الجفون الكحل ابلاتو
ثم قال أبو عمرو بن الزاهر الأشبيلي

نشب والهوى من به فيه يشب * ترى أيش كان دغاه يشق ويتعذب
مع العشق فقم في مائو يلقب * وخلف كثير من ذا اللعاب مائو
ثم قال أبو الحسن المقرئ الداني

نهار مليح لعجب أوصافو * شراب وملاح من حولي طافو
والعطين يقوتوا بسنصافو * والنوري أحر يغتلافو
ثم قال أبو بكر ابن مرزبان

الحق يريد حديث تعالى عاد * في الواد الحميم والمنزه والصاد
نشب حينئذ ذلك الذي يضطاد * قلوب النوري في شبكات
ثم قال أبو بكر ابن فرمان ذا شعرا كانوا يرميها * ترى النور يشق لكلك الجها
وليس مرادوا أن يقع فيها * إلا أن يقبل يديماؤ
وكان في عصرهم بشرق الأندلس علف الأسود وله عمار من الرجل منها قوله
قد كنت مشبوب واخشب الشيب * وردني ذا العشب لأمر معب
يقول فيه حين تنظر الحد الشريف البهي * تلهي في الحرة الى ماتنهي
يا طالب الكياء في عيني هي * تنظر بها الفضة ترجع ذهب

وجاءت بعدهم حلبة كان سابقها مدغيس وفمت له العجائب في هذه الشريعة فمن قوله في رجله المنهور
ورذاذ دق يزل * وشعاع الشمس يضرب * فترى الواحد يقتض
ونري الآخر يذهب * والنبات يشرب وبكر * والغصون رقص ولطرب
وتريد تجي ألبسا * ثم تستحي ونهرب
ومن بحسن أزجاله قوله

لاح الضياء والنجوم جاري * فقم بنا نزع الكل
شربت ممزوجا من قراعا * أحلى هي عندي من الممل

يا من يلقي كما تشاء فذلك الله بما تقول
 يقول بأنت الذنوب مولد وأنه يفسد العقول
 لا أرض الحجاز يكون لك أرشد أش ما سألوك لدى الفضول
 مرأوب للحج وأربارا ودعني في التوب منهل
 من ليس له قدره ولا استطاع النية أبلغ من العمل
 وظهر بعده هؤلاء بأشيلة ابن جحدر الذي فضل على الرجالين في صبح منور قهال رجل الذي أوله هذا
 من عائد التوحيد بالسيف بحق أنا بري ممن يعاند الحق
 قال ابن سعيد لقينه وفتيب تليده ناصع صاحب الرجل المشهور الذي أوله
 بالشي أن رأيت حبيي أقبل أذنو بأرسيلا
 لبش آخذ علق القريل وأسرق فم الحجيلا
 ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك امام الأدب ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو
 عبد الله بن الخطيب امام النظم والنثر في تلك الاسلامية من غير مدافع فمن عاصم في هذه الطريقة
 أمزج الأكواس وأمالى نعدو ما خلق لك إلا أن يبد
 ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى المستري منهم
 بين طلوع وزول * اخذت الزول ومضى من لم يكن * وبقي من لم يزول
 ومن عاصم أيضا قوله في ذلك المعنى

البعد عنك يا بني * أعظم مصابي وحين جعل لي قربك * نيت قرابي
 وكان عصر الوزير بن الخطيب بالأندلس محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آش وكان اماما في
 هذه الطريقة وله من رجل يعارض به مدغيس في قوله * لاح الضياء والنجوم حاري * بقوله
 حل الجون بأهل الشطارا مدحت الشمس بأهل
 جدد كل يوم خلاعا لا تجعلوا اسمها بمن
 اليها يتخلعوا في سبيل على خورة ذلك الثبات
 وصل بغداد واجتياز النيل أحسن عندي من ذبب الجباب
 وعاقها أصفح من أربعين ميل ان مرت الريح عليه وجات
 لم يلتقي القبار أمارا ولا بمقدار ما يكتسب
 وكيف ولا فيه موضع رفاة الا ويسرح فيه النحل

وهذه الطريقة ازجية هذا المهدى في العامة بالأندلس من الشعر وفيها نظمهم حتى أنهم ليظمون
 بها في سائر البحور الخمسة عشر لكن بلغتهم العامة ويسمون الشعر الزجلي مثل قول شاعرهم :

لي دهر يعشق حنونك وسنين وأنت لاشفقة ولا قلب يلين
 حتى تري فلي من أجلك كيف رجع صنعة السكا ما بين الحدادين
 النموع ترشش والنار تلهب والمطارق من ثماك ومن يمين

خلق الله النصاري للعز و ألفت نعزو في قلوب العاشقين
وكان من المحبين لهذه الطريقة لا و هذه المائة الأديب أبو عبد الله الألوحي وله من قصيدة
يمدح فيها السلطان ابن الأحمر

طل الصباح قم يا نديمي تشربوا	ونضحكو من بعد ما نظرو
سبيكة الفجر أحلت شفتا	في ملبق الليل قوم قلبو
ترى غبار خالص أبيض نقي	فضه هو لكن الشفق ذهبو
وسقو سكنو عند البشر	نور الخفون من نورها تكبو
فهو النهار يا صاحبي للعاش	عيش الفنى فيه بالله ما أطبو
والليل نصا للقبل والعناق	على صرير اتوسل يتقلبوا
جاء الزمان من بعد ما كان بخيل	واش كفلته من يريه عترو
كحجر مر وفيما قد مضى	يشرب سواء وبأكل طيبو
قال الرقيب يا أدبا لاش ذ	في الشرب والعشق ترى تنحبو
وتعجبوا عذالي من ذا الخير	قلب باقوم محبا تعجبو
يعشق ملبح الأرقيق الطباع	علاش تكفروا بالله أو تكبو
ليس برمح الحس الأشاعر أديب	يفض بكرو ويدع ثيبو
أما الكاس حرام نعم حرام	على الذي ما يسرى كيف يشربو
وبد الذي يحب حسابه ولم	يقدر يحسن الفاظ أن يحلبو
وأهل العقل والفكر والمجون	يفغر ذنوبهم لهذا إن أذنبو
ظلي بهى فيها ينطق الجمر	وقلى في جمر القضى يلعبو
غزال بهى ينظر قلب الأسود	ومالم قبل النظر يذهبو
ثم يحبهم إذا انقسم يضحكو	ويفرحوا من بعد ما يندبو
فويم كالخاتم ونقر نقي	خطيب الأمة للقبل يحطبو
جوهر ومرجان أى عهد يافلان	قد صفه الناظم ولم يتقبو
وشارب أخضر يريد لاش يريد	من شبه يلمسك قد عيبو
يسبل دلال مثل جناح الغراب	ليالى عجري منه يستعربو
على بدن أبيض بلون الحليب	ماقط راعى الغم يحلبو
وزوج هندات ما علمت قلبها	ديك الصلايا ريت ما أحلبو
تحت الكما كن منها خضر رقيق	من رقتو يخفى اذا تطلبو
أرق هو من دني فيما تقسول	جديد عنك حق ما أكذبو
أى دين بقى لي معاك وأى عقل	من ينبعك من ذا وذا تلبو

تحمل أوداف ثقال كالقريب
إن لم ينفس غادر أو ينشعب
يسير اليك المكان حين تنهي
عاشتك مثل خصال الأمير
عماد الأمتار وفصبح العرب
عمل العلم انفراد والعمل
ففي الصدور بالرمح ما أطلعته
من السماء عهد في أربع صفات
الشمس نور والفجر همتو
يركب جواد الجود ويطلق عنان
من خلعتو يلبس كل يوم نظيب
نعمتو تظهر على كل من نجه
قد أظهر الحق وكان في حجاب
وقد بنى بالسر ركن التقي
تخاف حين تلقاه كما ترنجه
يلقي الحروب ضاحك وهو غاشه
إذا جدد بينه ما بين الردود
وهو حى المصطفى وآله
تراه خليفة أمير المؤمنين
لدى الأمانة تخضع الرؤوس
بينه بقى تدور الزمان
وفي العسالي والشرف يعدوا
والله بينهم ما دار الفلك
وما تغنى ذا القصيد في عروض

ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فنا آخر من الشعر في أغراض مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم
الخطبة أيضاً وسود عنون البدو كان أول من استحدثه فيهم حل من أهل الأندلس زن بقاس يعرف
بأبن عمير فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الأسر أب مطلقاً

أبكاني بشاعلي النهر صوح الحمام * على البستان في الغصن قريب الصباح
وكف البحر يمنحو امتداد الظلام * وماء الندى يحرقى بشعر الأفاح
باكرت الرياض والليل فيها افتراق * سر الجواهر في نحو الجسوار

ودمع النواصر ينهرق انهراف * عجاكي ثعابين حلفت بالنار
 نوو بانفسون طلعان على كل ساق * ودار اجتمع بالروح دور السوار
 وايسى الندى تفرق جيوب الكمام * وعمل تسم المسك عنها رباح
 وعاج الصب يطل على تلك الغمام * وحر السيم ذيلوا عطفا وفتح
 رأيت الخمام بين الورق في القضييب * قد ابتلت ارياشو بقطر الندى
 تنوح مثل ذلك المسهام الغريب * قد التفت من نوو الحديدي ردا
 ولكن بما أحمر وسافوا خضوب * ينظم سبوك جواهر وينظفها
 جلس بين الاغصان جلسة المسهام * جالسا نوسد والتوى في جناح
 وصار يشكي بالي النواد من غرام * منها فم متقارده لصدرة وصاح
 قلت يا حمام احرمت عيني المحجوع * أراك مازال تبكي بدمع مطوح
 قل لي بكيت حتى تفتنى المموج * بلاد مع بقى طول حباتي تنوح
 على مرغ طارلي لم يكن له رجوع * ألفت الكوا الحزن من عهد نوح
 كذا هو الفساء كذا هو الزمان * الفرح حقون صارت بحال المراح
 وأنهم من يسكي مسك اذا تم عم * يقول عنى ذا الكا والنواح
 قلت يا حمام لو حصت بحر الضي * كنت تبكي وترى لي دمع هنون
 ولو كان بقلبك ما بقلبي أنا * ما كان يسير تحتك مروح العفون
 اليوم أقسى المحر كم من سنا * حتى لا سبيل جملة تراني العيون
 وما كسا جسمي التحول والسقام * حفاي نحول عن حيون اللواح
 لو جنتي النابا كان توت في السقام * ومن مات بعد ما قوم لقد اسراح
 قل لي لور قادت لاوراق الوباض * من خوفي عليه ود النفوس للنفاد
 وتخضبت من دمعى وذالك الباض * طوق العبد في عتي لبوم التناد

أما طرف مقاري حديشوا استعاض بأطراف اليد والجسم صار في الرماد فاستحسنه أهل قس
 وولعوا به ونظموا على طريفته وتركوا الأعراب الذي ليس من شأنهم وكثر سماعه بينهم واستفحل
 فيه كثير منهم ونوعوه أصنافا إلى المزدوج والكاري والملمعة والغزل واختلفت أسماؤها باختلاف
 ازدواجها وملاحظاتهم فيها فمن المزدوج ما قاله ابن شجاع من شولم وهو من أهل نازا

الملك زينة الدنيا وعز النفوس	يهي وجوها ليس هي باهيا
فيها كل من هو كثير الفلوس	ولو له اسكلام والزينة العليا
يكبر من كثر ماله ولو كان صغير	ويصغر عزير القوم اذا يقصر
من دان ينطق صدرى ومن دال يصير	يكاد يتقطع لولا الرجوع لاقدير

حتى يلتحق من هو في قوم كبير
 لما ينبغي نخون على ذي العكوس
 التي صارت الأذنان أمام الرؤوس
 ذهب الناس على ذل وفسد الزمان
 التي صار فلان يسبح بوفلان
 عنا والسلام حتى رأينا عيان
 كبار القوس جدا أضعاف الأوس
 بروا أنهم والناس بروج نوس
 فمن لأصل عنه وولايو خطر
 ويصبع عليه ثوب فراس صافيا
 وصار يستفيد الواد من السافيا
 مايسروا على من يكثر وإذا العصاب
 ولوريت كسيف برد الحواب
 أنفاس السلاطين في جنود الكلاب
 هم ناحبنا والمجد في ناحبنا
 وجوه البه والعمدة الزاسيا

ومن مذاهبهم قول ابن شجاع منهم في بعض مردوجاته

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان
 ما منهم ما يبع ناعدا إلا وخذل
 يهبوا على العشاق ويندعوا
 وإن واحدا من حينهم ينطعوا
 ملبس كان غويو وشت قلبي مو
 ومبدت لو من وسط قلبي مكان
 وهون عليك ما يقرئك من هوان
 حكمتو على وار تضيبت بو أمير
 يرجع هذر سولي بوجه الفدير
 وتعلمت من ساعا يسبق الضمير
 ويعتل في مطلوبو ولو ان كان
 ومشي سوقي ولو كان بأصهار
 أهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك
 قليل من عليه نخس ونخس عيبك
 ويسعدوا تقطيع قلوب الرجال
 وإن عاهدوا اغتوا على كل حال
 وصيرت من خدي تقدمو لغال
 وقتلت قلبي أكرم لمن عل فيك
 فلا بد من هون الهوى يعتريك
 فلو كان يرى حالي إذا يصروا
 مردد وينعطف بخافي انجروا
 ويغيب مراد وقبل أن يدكروا
 عصر في الزرع أوفي النيا في بريك
 وإش ما قبل يحتاج قتل لو يحياك

حتى أتى على آخرها وكان منهم على ابن المؤذن سلمان وكان لهذه العصور القريفة من قولهم يزدهون من
 ضواحي مكنته رجل يعرف بالكيفية أبداع في مذاهب هذا الفن ومن أحسن ما علق له بمخفون على قوله
 في رحلة السلطان أبي الحسن وبني مرشد إلى إفريقية يصف هن منهم بالفير وان ويعز بهم عنها ويؤنسهم
 بما وقع لهم وبعد أن عيهم على فرائضهم إلى أفريقية في ملعبة من فتون هذه الطريقة يقول في مستحباته هو
 من أبداع مذاهب البلاغة في الأسماء بالمفرد في مطلع الكلام وافتتاحه ويسمى براعة الاستهلال

سبحات مالك خواطر الأمر * ونواصيا في كل حين وزمان

ان طعنا عطفه لنا قسرا * وان عصيانا عقب بكل هوان

إلى أن يقول في السؤال عن جيوش المغرب بعد التجلس

كن مرعى فلولا تكف راعي * فأراعي عن رعيته مسؤول

واستفتح بالصلاة على الداعي
 على الخلفاء الراشدين والاتباع
 أحجاجا تحملوا الصحرا
 عسكر على المنير الغرا
 أحجاج بالنبي الذي زرتهم
 عن جيش الغرب حين يسألكم
 ومن كان بالعطايا يزودكم
 قام قل لبد صادق الجزرا
 وزف كدوم ونهب في الغرا
 لو كان ما بين تونس الغربا
 مبنى من شرقها إلى غربا
 لابد الظير أن يجيب نا
 ما أعوضها من أمور وما يرى
 لجرت بالدم وانصدع حجرا
 أدر لي بعشك الفحاص
 ان كان قعم حمام ولا رفاص
 تظهر عند الميعن القصاص
 الاقوم عارفين فلا ستر
 ما يدروا كيف يصوروا كسرا
 أمولايأبو الحسن خطيبنا الباب
 فقتنا كنا على الجريد والراب
 ما بلغك من عمر فتي الخطاب
 مالك الشام والحجاز وناح كسرى
 رد ولدت لو كره ذكرى
 هذا الفاروق مردى الاسوان
 وبقت حمى إلى زمن عثمان
 من دخلت غنائمها السوان
 واقترق الناس على ثلاثة أمرا
 إذا كان ذا في مدة البرا

للاسلام والرضا النبي السكول
 واذا كر بعدهم إذا تحب وقول
 ودوا سرح البلاد مع سكان
 ومن سارت بوعزائم السلطان
 وقطعتم لو كلالا كل البيدا
 المتلوف في افريقيا السوداء
 ويدع بربة الحجاز رغدا
 ويعجز شوط بعد ما خفان
 أي مازاد عراهم شبحان
 وبلاد الغرب سد اليكسندر
 طبقا بجديدا وثانيا بصفر
 أو يأتى الريح عنهم بفرد جبر
 لو تقرأ كل يوم على المديوان
 وهوت الحراب وخافت العزنان
 وتفكر في بخاطرك جمعا
 عن السلطان شهر وقبله سعا
 وعلامات تنشر على الصمعا
 مجهولين لا مكان ولا إمكان
 وكيف دخلوا مدينة القيروان
 قضية سيرنا إلى تونس
 واشتلت في أغراب افريقيا القويس
 العاروق ففتح القرى المولى
 وفتح من افريقيا وكان
 ونقل فيها تفرق الاخوان
 صرح في افريقيا بدأ التصريح
 وفتحها ابن الزبير عن تصحيح
 مات عثمان وانقلب علينا الريح
 وبقي ما هو للسكوت عنوان
 اش نعل في أواخر الازمان

والصالح الحشر في مكائدها * وفي تاريخ كائنا وصفيها
تذكر في صحبها شيئا * شق وسطيح وابن مرارة
ان مرين اذا اسكف برادها * لجده وتونس قد سقط بذاتها
قد ذكرها ما قل سيد الزوراء * عيسى ابن الحسن الرضيع الدنان
قل في رأيت وأنا بدا أدري * لكني اذا جاء القدر عجت لاسان
وتقول قلت مادي الرييا * من حفره فس إلى غرسه
أراد الموتى يموت ابن محي * سلطان تونس وصاحب الابواب

ثم اخذ في رحل المطران وحيو له إلى آخر رحلته ومنتفى أمره مع اعراس أفريقيا في عينا بكن
غريبة من الادب ولما اهل تونس مسجدها في الملة ايضا في انهم الحضره إلا ان أكثره
زدي موافق بخصولي منه شي، زدها تروك لعمدة بغداد أيضا من من الشعر يسمونه اللوات
وتحده فتون كثيرة تسمونها اللوما وكان من غفرو دونه في بيتي ويسمونه دويت في الاختلافات
المعيرة عند في كل واحد منها غالبا مردو حسن أو بعدة فسان ونعمه في ذلك أن من مصر القاهرة وآتوا
فيها بالفرانج وتبخر وافها في أساليب البلاغة فنان في شعر الحضر بنظير في المعجزة ومن أعجب ما خلق
بخطي منه قول شاعر

هذا جرى من تاريخ * والشمع تنص * وفالي يا أعبا * في القلا عرج
فتوا أو تأخذ شال * قلت ذا أفصح

والغيرة

طرفت باب الحيا قلت من الطارف * فقلت مبتون لا تاهب ولا سارق
سست لاج لي من تغرها باري * رجعت حيران في غرامه من ذارق
والغيرة

عندي بها وهي لا تامن على اليين * وان شكوت القوي فالتفدات العين
لمن تعني لها شيري غليم زين * ذكرها العهد قلت لك على دين
والغيرة في وسب الحبش

دي حمر حريف التي عندي بهانيق * تعني عن الجمر والحار والساقي
فحما ومن فحما تعمل على الحراق * عنيها في الحبش طلت من أصداف
والغيرة

بمن وشاؤ لا تنفك الغيبة * كما توجع القلب بالبحران أودع
أودعت قبي حوحو والتسبر * كل الزورى كبح في عيني وتنقصك دح

ولغيره

ناديتها ومشيى قد طوائى طى * جودى على قبيله في الهوى يامى
قلت وقدلى كوت داخل قواذى كي * ما هكذا القطن يحشى قم من عوحى

ولغيره

رآنى أبستم سبقت سحب أدعى رقه * ما ط اللثام تبدى بدر في شرفه
أسبل دجى الشعر ناه القلب في طرفه * رجع هدايا بخيط الصبح من فرقه

ولغيره

يا حادى العيس ازجر بالمطايا زجر * وقف على منزل أحياني قبيل الفجر
وصبح في حيم يامن ريد الأجر * ينهض يصلى على ميت قتيل الحجر

ولغيره

عبي القى كنت أزعما كم بها باتت * زعى النجوم وبالتشديد اقتاتت
وأسمهم الين صابتنى ولا فأتت * وسأوى عظم الله أجركم ماتت

ولغيره

هويت في قنطر تك ياملاح الحكر * غزان يبنى الأسود الضاريا بالفكر
غصن إذا ما انتفى يسي النبات البكر * وان تهلل فما للبدر عند وذكر

ومن الذي يسمونه دويث

قد أقسم من أجد بالبارى * أن يبعث طيفه مع الأشجار

يانار أشواق به فاتقدي * ليلا عسام يهتدى بالبار

واعلم أن الأذواق في معرفة البلاغة كلها إنما يحصل من خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها وعنايته بين
أجبالها حتى يحصل ملكتها كما قلناه في اللغة العربية فلا الأندلسي بالبلاغة التي في شعر أهل المغرب ولا
المغربي بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس والشرق ولا المشرق بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس
والغرب لأن الإنسان الحضري وتراكيه مختلفة فيهم وكل واحد منهم مدرك لبلاغة لغته وذائق بحاسن الشعر
من أهل جلده وفي خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم آيات وقد كدنا أن نخرج عن
العرض وعز منا أن نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الأول الذي هو طبيعة العمران وما يعرض فيه
وقد استوفينا من مسائل ما حباها كفاية ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص
من مسائل على أكثر مما كتبنا فليس على مستنبط الفن أحصاء مسائله وإنما عليه تعيين موضع العلم وتنويع
فصوله وما يتكلم فيه والتأخرون بلحقون المسائل من بعده شيئا فشيئا إلى أن يكمل والله يعلم وأنتم لا تعلمون
قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه آتممت هذا الجزء الأول بالوضع والتأليف قبل التفتيح والتهديب في
مدة خمسة أشهر آخرها منتصف علم تسعة وتسعين وسبع مائة ثم نقضته بعد ذلك وهديته والحقت به
تواريخ الأمم كما ذكرنا في أوله وشرطته وما العلم الأيمن عند الله العزيز الحكيم

صحيفة	صحيفة	صحيفة
٦ المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والامناع لما يعرض للمؤرخين من الغالب والاولهه وذكر شيء من اسبابها	٥٨ المقدمة الثانية في المعدل من الاقاليم والتعرف وتاريخ الحوادث في احوال البشر والكثير من احوالهم	٨٨ فصل في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر
٢٩ الكتاب الاول في طبيعة العراق في الحقيقة وما يمرض فيها من البدو والحضر والتقليد والكسب والملابس والسنانع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب (وفيه ستة فصول كبار)	٦١ المقدمة الرابعة في اثر الهواء في اخلاق البشر	٨٩ فصل في ان معاناة اهل الحضر للاحكام مفسدة للباس فيهم ذاهبة بالمنفعة منهم
٣٠ الفصل الاول من الكتاب الاول في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمة	٦٢ المقدمة الخامسة في اختلاف أحوال العمران في الحضر والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في ابدان البشر واخلاقهم	٩٠ فصل في ان سكنى البدو لا يكون الا للقبائل اهل المصيبة
٣٠ المقدمة الاولى في اذ الاجتماع الانسانى ضرورى	٦٥ المقدمة السادسة في اصناف المدركين ثلث من البشر بالنظر أو بالرباطة وبفهمه الكلام في الوحي والرويا	٩١ فصل في ان المصيبة انما تكون من الانتقام بالنسيب او مافى معناه
٣٣ المقدمة الثانية في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض مافيه من الاشجار والانهار والاقاليم	٦٨ حقيقة النبوة والكهانة والرؤيا وشان العرافين وغير ذلك من مدارك القبح	٩٢ فصل في ان الصريح من النسيب انما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في مقام
٣٥ تكملة لهذه المقدمة الثانية في ان الريح الشمال من الارض أكثر صرانا من الريح الجنوى وذكر السبب في ذلك	٨٥ الفصل الثاني من الكتاب الاول في العمران البدوي والامم الوحشية والقبائل وما يمرض في ذلك من الاحوال وفيه اصول وتهميدات	٩٢ فصل في اختلاط الانساب كيف يقع
٣٧ تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا	٨٥ فصل في ان ابيال البدو والحضر طليعية	٩٣ فصل في ان الرئاسة لا تزال في نسلها انما خصوص من اهل المصيبة
٣٨ الاقليم الاول	٨٦ فصل في ان جبل العرب في الخلقة طليعي	٩٣ فصل في ان الرئاسة على اهل المصيبة لا تكون في غير نسلهم
٤١ الاقليم الثاني	٨٧ فصل في ان البدو اقدم من الحضر وسابق عليه وان البادية اصل العمران والامصار مدله	٩٤ فصل في ان البيت والشرف بالاصالة [والحقيقة لاهل المصيبة ويكون لغيرهم بالنحاز والشبه
٤٢ الاقليم الثالث	٨٧ فصل في ان اهل البدو اقرب الى طير من اهل الحضر	٩٥ فصل في ان البيت والشرف للوالى واهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا باسبابهم
٤٣ الاقليم الرابع	٨٧ فصل في ان اهل البدو اقرب الى طير من اهل الحضر	٩٦ فصل في ان نهاية الحسب في القسبة الواحدة أربعة آيام فصل في ان الامم الوحشية
٥١ الاقليم الخامس		
٥٥ الاقليم السادس		
٥٧ الاقليم السابع		

صفحة	صفحة	صفحة
يذهب اليه الناس في شانه	قبلها من الدول	فصل في وجود المصيبة
وكشف القطاع من ذلك	٢٥٢ فصل في أن الباقي التي كانت	٢٦٥ فصل في وجود المصيبة
٢٣٩ فصل في ابتداء الدول	تحتلها العرب فصرع اليها	في الامصار وتقلب بعضهم
والأثم وفيه الكلام على	الخراب الا في الاخر	على بعض
الملاحم والكشف عن معنى	٢٥٢ فصل في مادي الخراب	٢٦٦ فصل في لغات أهل الامصار
الجفر	في الامصار	٢٦٧ الفصل الخامس من الكتاب
٢٤١ الفصل الرابع من الكتاب	٢٥٣ فصل في أن قاض الامصار	الاول في المعاش ووجوهه
الاول في البدن والامصار	والمدن في كثرة الزحف	من الكسب والصنائع وما
وسائر العمران وما يبرز	لأهلها وقائق الاسواق	يعرض في ذلك كله من
في ذلك من الأحوال	أما هو في تفاصيل عمراتها	الأحوال وفيه مسائل
وفيه سوابق وتواحق	في الكثرة والثقة	٢٦٧ فصل في حقيقة الرزق
٢٤١ فصل في أن الدول اقدم	٢٥٥ فصل في أسرار المدن	والكسب وشرعها وان
من المدن والامصار وانما	٢٥٦ فصل في تصور أهل البادية	الكسب هو قيمة الاعمال
أما توجد ثانية من الملك	عن سكي مصر الكثير	البشرية
٢٤٢ فصل في أن الملك يدعو الي	العمران	٢٦٩ فصل في وجود المعاش
زول الامصار	٢٥٧ فصل في أن الاقطار في	وأصنافه ومذاهبه
٢٤٢ فصل في أن المدن المنظمة	اختلاف أموالها بالرفق	٢٦٩ فصل في أن الخدمة ليست
والها كل المرتبة أما	والنفر مثل الامصار	من المعاش الطبيعي
يشيدها الله الكثير	٢٥٨ فصل في تأثير المقار والضيايح	٢٧٠ فصل في انشاء الأموال
٢٤٣ فصل في أن أهل كل المنطقة	في الامصار وفوائدها	من الدقائق والكثور
جدا لا استقلال بينها الدولة	ومستقلاتها	ليس بمعاش طبيعي
الواحدة	٢٥٩ فصل في حاجات المتحولين	٢٧٣ فصل في ان الجاهلية في حال
٢٤٤ فصل فيما تحجب مراعاته	من أهل الامصار الى	٢٧٤ فصل في أن السعادة
في أوضاع المدن وما يحدث	الجهاد والدفاع	والكسب إنما يحصل غالبا
إذا غفل عن تلك المراتبة	٢٥٩ فصل في أن الحضارة في	لأهل التوسع والتملق
٢٤٥ فصل وما يراه في البلاد	الامصار من قبل الدول وانما	وان هذا الخلق من أسباب
الساحلية التي على البحار	توسع بأنصار الدولة	السعادة
تكون في جبل أو تكون	ورسوخها	٢٧٦ فصل في ان الثاقين بامور
بين أمة من الأمم الخ	٢٦٩ فصل في أن الحضارة غاية	الدين من القضاء والفتيا
٢٤٦ فصل في المساجد والبيوت	العمران ونهاية لعمرواتها	والتدريس والامانة
المنظمة في العالم	مؤذنة بسلامة	والخطابة والاذان ونحو
٢٥٠ فصل في أن المدن والامصار	٢٦٣ فصل في أن الامصار التي	ذلك لا تعظم ثروتهم في
بأفريقية والمغرب قليلة	تكون كراشي المدن تحرب	الثاني
٢٥١ فصل في أن الباقي والمصانع	تخرب الدولة وانتقاضها	٢٧٧ فصل في ان الفلاحين من معاش
في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة	٢٦٥ فصل في اختصاص بعض	المستضعفين وأهل العاقبة من
الى قدرتها والى من كان	الامصار ببعض الصنائع	البدو

صحيفة	صحيفة	صحيفة
الجدول والخلافات	٢٨٥ فصل في صناعة الفلاحة	٢٧٧ فصل في معنى التجارة
٣٢١ علم الكلام	٢٨٥ فصل في صناعة البناء	ومذايعها واصنافها
٣٢٨ علم التصوف	٢٨٨ فصل في صناعة التجارة	٢٧٧ فصل في اقسام الناس
٣٣٣ تعبير الرؤيا	٢٨٩ فصل في صناعة الحياكة	يحترف بالتجارة وانهم ينفي
٣٣٥ العلوم العقلية واصنافها	والطباخة	له اجتناب حرفها
٣٣٧ العلوم العددية	٢٨٩ فصل في صناعة التوليد	٢٧٨ فصل في ان خلق التجارة
٣٣٨ ومن فروع علم العدد	٢٩١ فصل في صناعة القرب والتما	نازلة من خلق الاشراف
صناعة الحساب	محتاج اليها في الخواضر	والفوك
٣٣٩ ومن فروعها الجبر والمقابلة	والامصار دون البادية	٢٧٨ فصل في نقل الباجر للسلع
٣٣٩ ومن فروعها ايضا المعاملات	٢٩٣ فصل في ازالة الخط والكثابة	٢٧٩ فصل في الاحتكار
٣٣٩ ومن فروعها ايضا الفرائض	من عدد الفوائض الاصلانية	٢٧٩ فصل في اذرخس الاسمار
٣٤٠ العلوم الهندسية	٢٩٦ فصل في صناعة الدواقة	منزلة بالحق من بارز خيمس
٣٤١ ومن فروع هذا الفن الهندسة	٢٩٧ فصل في صناعة الفناء	٢٨٠ فصل في ان خلق التجارة نازلة
المختصة بالاشكال الكرية	٣٠٠ فصل في ان الصنائع تكسب	عن خلق الرؤساء وببيدة
والمحروقات	صانعها عفا وعصا	من المروءة
٣٤١ ومن فروع الهندسة المساحة	الكتابة والحساب	٢٨١ فصل في ان الصنائع لا بد
٣٤١ المناظر من فروع الهندسة	٣٠١ الفصل السادس من الكتاب	لها من العلم
٣٤١ علم الهيئة	الاول في العلوم واصنافها	٢٨١ فصل في ان الصنائع انما
٣٤٢ ومن فروع علم الازياج	والتعليم وطرقه وسائر وجوهه	تكمل بكمال العمران
٣٤٢ علم المناطق	وما يبرز في ذلك كنهه وفيه	الحصري وكثرته
٣٤٥ علم الطبيعيات	من الاحوال القديمة متولوا حق	٢٨٢ فصل في اذرخس الصنائع
٣٤٥ علم الطب	٣٠١ فصل في ان العلم والتعليم	في الامصار انما هو بروسوخ
٣٤٦ فصل ولا بد من اهل العمران	طبي في العمران القبري	المضارة وطول امدها
طب يشتمل في طالب الامر	٣٠٢ فصل في ان التعليم للعلم	٢٨٣ فصل في ان الصنائع انما
على تجربة قاصرة على بعض	من جهة الصنائع	تستجد وتكثر اذا كثر
الاشخاص الخ	٣٠٤ فصل في ان العلوم انما	حاليها
٢٤٦ الفلاحة	تكثر حيث يكثر العمران	٢٨٣ فصل في ان الامصار اذا
٢٤٧ علم الالهيات	وتعظم الحضارة	قاربت الخراب انقصت منها
٢٤٨ علوم السحر والطلسمات	٣٠٥ فصل في اصناف العلوم	الصنائع
٢٥٧ فصل ومن قيل هذا التأثيرات	الواقعة في العمران لهذا العهد	٢٨٣ فصل في ان العرب اجد
النفسانية الاصابة بالعين	٣٠٦ علوم القرآن من التفسير	الناس عن الصنائع
٢٥٢ علم اسرار الحروف	والقرآآت	٢٨٤ فصل في ان من حصل له
٢٥٥ ومن فروع علم السجاء عندهم	٣٠٩ علوم الحديث	ملكته في صناعة قتل أن
استخراج الاجابة من الاسئلة	٣١٢ علم الفقه وما يتبعه من الفرائض	يجب بدعها ملكة اخرى
٢٥٧ الكلام على استخراج نسبة	٣١٦ علم الفرائض	٢٨٥ فصل في الاشراف الى امهات
الاوزان وكنياتها ومقادير	٣١٧ اصول الفقه وما يتعلق به من	الصنائع







